

المجلد الرابع

معالم تاريخ الإنسانية

تأليف

هـ. ج. ولز

ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد

هـ. ج. ولز

H. G. WELLS.

معالم تاريخ الإنسانية

ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد

المجلد الرابع

في التاريخ الحديث

(١٦٠٠ – ١٩٦٥)

هذه ترجمة لكتاب

The Outline of History

Being A Plain History of Life and Mankind By

H. G. Wells.

الفهرس

كلمة المترجم

اليوم وقد استوت "المعالم" كتابا عربيا، يلتفت إلينا ولز نحن معشر العرب من بين أطباق السماوات العلى التي تسكنها روحه بين العباقرة والنابغين، ويهيب بنا: "هاؤم اقرءوا كتابيه".

واليوم يتردد صوته في أجوائنا التي خفت فيها كل صوت نبيل منذ قرون الإسلام الأولى، يتردد جهيرا مدويا كأنه النفخ في الصور "إني لسعيد إذ أديت نحو الإنسانية واجبي، وبذلت لها دعوتي، ورضيت لها مذهبي وفكرتي".

واليوم يحق لولز أن تبوئه البشرية مكانًا عليا، وأن تضمه بين أبنائها المخلصين وأفذاذها الخالدين. فقد قضى نصف عمره في الحدب عليها والمنافحة عن مصالحها والدعوة إلى صلاح أمرها وتمحيض النصح لها.

واليوم يستطيع ولز أن يسامي الهداة الملهمين بأنه ظل يحمل مشعل رسالته مضيئًا ذاكيا وهاجا نصف قرن كامل من الزمان. وهي فترة لم تتح في العصر الحديث لصاحب دعوة ولم تتهيأ لمرشد ذي رسالة.

واليوم يستطيع القارئ أن يستعرض مع ولز مشاهد الحياة منذ هوادي بواكيرها ومستهل تباشيرها، إذ هي هزة نشأت بإذن العلي القاهر في ذلك الماء الذي جعل منه كل شيء حي، هزة لا يكاد يقوم لها أثر ولكنها الأثر كل الأثر، هزة ما زالت الأيام ترعاها والليالي تهدهدها حتى تمثلت على طول الحقب بشرا سويا. ذلكم هو الكائن الذي حارت البرية فيه، والذي هو حيوان مستحدث من جماد كما يقول شيخ المعرة، هذا الكائن الضعيف بقوته القوي بحكمته الثائر بغريزته المتمرد الجبار بطبيعته القابل للصلاح بفطرته، هو منذ خليقته مصدر للشغب ومثار للفتن. بسببه فسق الشيطان عن أمر ربه فغوى. وحل بالأرض فأفسد فيها وسفك فيها الدماء وكانت من قبله مطهرة من كل رجس، ولم يزل هذا دأبه حتى يومنا هذا، تفتنه هوائجه ويزين له حب شهواته، وا في عليائه يرسل له رسله وأنبياءه فما كف عن غيه ولا أقلع.

واليوم من لنا بمن يشهد روحه النبيلة أننا أخذنا بدعوته، وأيقنا أن التاريخ وحدة واحدة، وأن ركب الحضارة نهر واحد متدارك اللجات متلاحق الفيضات، وأنه إن هدأ يوما أو ألم به شيء من الغيض، فلا بد أن يتدفق في تاليه ويعود سيرته من جريان وتلاطم واصطخاب، وأن البشرية على مر العصور كتلة واحدة متحركة دائما إلى الأمام في حركة واحدة تجمعها جميعا وتضم شملها في عالمنا العصري الذي أصبح بعضه إلى بعض أقرب من حبل الوريد.

***

والعصر الذي يستهل به كتابنا هذا كان، كما يقول بعض أفذاذ الزمان، أمثل الأزمان وأسوأها، وأحكمها وأحمقها، وأشدها نورا وأشدها حلوكة. كان عصر الإيمان وعصر الكفر والإلحاد؛ وكان ينطوي على ربيع الأمل والرجاء وخريف اليأس والقنوط؛ وكان عصر ملكية عظمى باغية وكثرة عظمى مهيضة؛ عصر رقي بلغ الذروة وجهل أنزل الناس إلى الحضيض؛ وكان دهر عز شامخ واستبداد داس كرامة الإنسان بالنعال؛ يوم

كان صاحب الدين يلاحق أخاه ليدخله في دينه وإلا فله الموت والعذاب؛ ويوم كان الغني العزيز يعفى من الضرائب والتبعات ويبهظ بها الفقير الجائع تمد بصرك فتجد في مكان كل شيء، وتسرح الفكر فتجد إلى جواره لا شيء.

وجاءت الثورة الفرنسية لأن ذئب الأرستقراطية كان ينهش كلاب العامة، فما كاد الكلاب ينتصر ويقطع رأس الذئب وذنبه، حتى انقلب هو كذلك ذئبا أشد ما يكون عواء وإزعاجا ولعلعة بلسانه وولوغًا به في دماء الأبرياء.

وأين مبادئ الثورة الفرنسية؟ أين الإخاء والحرية والمساواة؟ لقد ذهبت في أطباق الهواء هباء وراحت طرائق قددا.

وهذه مغاليق قوى الطبيعة تتفتح منذ أوليات القرن التاسع عشر، إذ أخذ عقل ذلك الجبار يتسلل إليها رويدا رويدا. فعرف كيف يستذل البخار، ولم يلبث أن جعله مطية ذلولاً وعسيفًا ذليلاً. وانتقل منه إلى عناصر الطبيعة عنصرا بعد عنصر يدرسها ويتحكم فيها ويستبد بها، حتى أصبح يفعل بها ما يشاء ويستخدمها أنى شاء.

وأبطره العلم حتى زعم أن ليس فوقه عليم، واستهوته المادة حتى أنسي الروح وما لها من قيام معلوم، ولج به الطغيان فبغى في الأرض يستعبد أهلها ويتخذ بعضهم شيعا. وسلط على أخيه الإنسان مناجل الفناء، وأخذ يستغله استغلال السوائم يمتلك منه وطنه ويستأثر بخيراته دونه بعد أن يفدحه عملاً، ويحرم عليه نعمة التمتع بما وهبه ا لكافة مخلوقاته من حرية. لأن داعي الاستعمار قد أصمه عن كل ضمير وأعماه.

واحتاج العلم إلى مواد الطبيعة يصنعها ويبدعها، فإذا استوت سلعة مصنوعة استوجبت سوقًا يتلقفها. وبشمت أوربا بما أنتجته لها دواليب المصانع فخرجت تهرول تلتمس مشتريا. وتحول الشراء والبيع في أقطار الشرق المنكودة من السلع إلى الشعوب، فحيثما حل الأوربي فثم الاستعمار البغيض. وتلفتت دول أوربا بعضها إلى بعض، فإذا بعضها قد سبق وأرسى أسسه ووطد في أقطار العالم أقدامه، وإذا بعضها الآخر قد تخلف. وثار في النفوس ما ركب فيها من جشع. فالسابق يريد أن يستأثر، واللاحق يبتغي لقمة يسد بها جوعته. فأما من عدا الأوربيين فتعسا لهم وثبورا.

فهذا الأسود المسكين وذاك الأصفر أو النحاسي المنكود! ما بالهم ينظر إليهم الأبيض كأنهم من حثالة السوائم، أو من خشاش الأرض؟ وفيم الضن بالعلم عليهم والاستئثار به دونهم حتى لا يقووا به فينازعوه سيادته التي زعم أن ا آثره بها وحده؟

وهذه بريطانيا لماذا تثب على مصر فتحرمها نعمة الحرية بذريعة واهية؛ وا يعلم والناس يعلمون أن الحقيقة غير الذريعة، وأن الهدف إن هو إلا فتح السوق، وقطع الطريق، والاستئثار بما في البلاد من خير وثمار.

وكيف يكون النفط في أرض إيران ومالكته الحكومة البريطانية مستخفية من وراء تلكم الشركات، وما هي بشركات ولكنها خدع وذر للرماد في العيون.

والإنسان لا جرم يطغى أن رآه تقوى فيعود بهذه القوة على إخوانه من بني الإنسان حربا يهزمه فيها ويفتك به. ولا يطيق المغلوب على الهزيمة صبرا، فهو يترصد الغالب ويتربص به الدوائر، ويعد له معدات الفتك والفناء، ويستخدم له ما استطاع من وسائل العلم والعلماء، ثم ينفجر بها حربا ضروسا عاتية، يريد أن يجعلها للأولى الجولة الثانية، ولم يدر أنه هدم الكون على أعدائه ونفسه وسعى بيديه إلى حفر رمسه، فإذا انقضت الجولة الثانية كرست جهود العالم للثالثة وأعد لها من المبيدات والمهلكات ما لا يتصوره عقل، وما كان يعد قبل ذلك من بعيد الخيالات. وانقسم العالم كدأبه فإذا هو محور وديموقراطية، ثم أخذ الطرفان بعضهما بتلابيب بعض، هذا ينسف وذاك يدك ويقصف، حتى استلقت البشرية أجمعها جريحة مهيضة ضعيفة دامية، قد نزفت من الدماء ما لا قبل للأيام برده، وأزهقت من الأرواح شبابا ما كان أجدره بأن يحيا ليسعد بالحياة، وما كان أشد حاجة العالم إلى سواعده الفتية في البناء والتعمير لا في الفتك والتخريب.

والمالية والملكية والنقود، ما خطبهن وما بال آثارهن عميقة في حياة الفرد والجماعة؟ وما بالهن ينتجن المشكلات الاجتماعية والمذاهب الاقتصادية المتناحرة والمعسكرات الشيوعية والرأسمالية المتقاتلة؟ وما بالهن يحيرن الإنسان ويبلبلن فكره ويذهبن به كل مذهب؟ وهل من سبيل إلى علاج لدائهن الوبيل؟

***

ألا إن البشرية أصبحت مخيرة بين أمرين: فإما أن تأتلف فتعيش أو تختلف فتهلك، على البشرية أن تأتلف مكونة حكومة اتحادية للعالم أجمع ليس فيها قوي ولا ضعيف ولا استعمار ولا مستعمرات، بل تكون كلها الولايات العالمية المتحدة، كل دولة لها حكومتها وإدارتها الداخلية، وكل دولة منهن خاضعة لتلك الحكومة المركزية التي وظيفتها التصدير والتوريد، وضبط النظام في البر والبحر والجو، وإرساء أسس الديموقراطية الصحيحة، والاطمئنان على احترام روح الدساتير وإجراء الانتخابات البرلمانية النزيهة وإنتاج المجالس النيابية الممثلة للشعوب أصدق تمثيل، وتعليم أفراد العالم قاطبة إلى مستوى موحد عام من العلم.

ألا وإن على البشرية أن تتناسى أحقادها القديمة وتعصباتها الدينية والعنصرية، وأن يشعر الجميع أنهم أبناء قرية واحدة كبرى هي هذه الدنيا التي عليها نعيش، فما اختلاف الألوان ولا الأديان بعيب في طبيعتها جميعا، ولكن العيب في الناس وفيما يذهب إليه الناس من مذاهب تنطوي على الغل والحقد أو التجبر والتحكم، فالناس جميعا إخوان، والدين بالفطرة خير، فكيف ينجم عن الخير الشر؟

إن ولز يقف من كل ذلك موقف المحب المحذر لا موقف المتطير المنذر، فإن حافزه حب لا تشاؤم، ولذا فهو يهدي الناس بوعي وقوة وحمية وإخلاص هي السر فيما أوتي من بعد الصيت ونباهة الذكر في الناس.

إن ولز هو بشير الإصلاح إلى هذه البشرية المادية. يريد أن يأخذ بيدها إلى قيم الروحانية وأن يدعوها إلى التخلي عن ذميم الأخلاق وإلى الاستمساك بكريم المبادئ الخلقية. فالمادية إذ طغت ولدت حربا، والروحانية إذا سادت خلقت على الأرض محبة وسلاما، وحولتها من دار للشقاء إلى دار نعيم ووئام، وأعادت إلى الإنسانية فردوسها المفقود، وسعادتها الضائعة، وسلامها المنشود.

ومن عجب أن ولز لا يترك علما ولا فنًا ولا تقدما ولا أدبا إلا أرخ له وكتب عنه، ولا حادثة ذات أثر في تاريخ البشرية ولا ملكًا أو عظيما خلد اسمه في ذاكرة البشر إلا نوه به ناسجا ذلك كله بهذه المبادئ الإنسانية الرفيعة ومنتجا منها وشيا رائع النقش أخاذ الإبداع.

فأنت لا تقف في إعجابك به عند حد، ولا تلبث حتى تقتنع بوجهة نظره وإخلاصه، ثم أنت حين تقرأ كتابه وتنعم فيه النظر وتتدبر ما فيه من آيات، تشعر بأن من المحزن حقًا أن عظماء الدول وأصحاب الرأي فيها لم يأخذوا إلا مؤخرا جدا بهذه المبادئ النبيلة التي دعته إليها الأديان السماوية قديما والتي يبثها ولز في كل سطر من سطور كتابه. ولكن حسبك عزاء أن ميثاق الأطلسي الذي أصدره روزفلت وميثاق سان فرانسسكو وحقوق الإنسان تكاد تكون الثمرة المباشرة لتعاليم ولز في هذا الكتاب وغيره.

ولا يذهبن عن فطنة القارئ أن ولز كاتب عميق عويص، يعبر عن فكر عميق عويص، لذلك نرجو أن يتدبر كل فقرة من فقرات ولز، وأن يزن بفكره كل كلمة يقرؤها فيه، لأنه مثقف يكتب لكل مثقف مثله. وأنت أيها القارئ – مهما تكن مهنتك أو مزاجك في الحياة – واجد في هذا الكتاب ما يروقك بل ما يروعك، وواجد فيه حيثما تصفحت فائدة فكرية تعود عليك وواجد أنك كلما أمعنت فيه نظرا زدت منه أثرا.

فمن زعم أنه لن يجد التاريخ نقيا صافيا، منزها من كل دخل، مبرئًا من كل هوى، مصفى من كل تحيز فليمدد بسبب إلى سماء "المعالم"؛ ومن كان يريد خلاصة وافية لثقافة الدهور يضمها إلى ثقافته ويزيدها بها صقالا فلينهل من مناهل ولز العذبة؛ ومن كان يريد أن يتعلم كيف يكون مواطنًا حرا ذا رأي في إدارة شئون بلاده فليفد من ولز، ومن كان من رجال السياسة يريد أن يتعلم نزاهة الحكم، وصراحة العمل، واحترام رأي الأغلبية، وتقديس الدساتير، والتخلي عن الميكيافللية البغيضة والدس والتآمر – فليتخذ من ولز رائده وهاديه.

وما أبدع أن تجلس إليه جلسة التلميذ الخاضع من أستاذه العظيم، لكي تخرج بعد ذلك مثقفًا ناصع الصقل، ومواطنًا بالعالم رحب الأفق فسيح النظرة، عديم التعصب، عارفًا بحقك وكرامتك مؤديا لواجبك ومؤمنًا بالديموقراطية.

وبعد فإذا لقي القارئ بعض العسر في استيعاب ولز ومتابعة عميق أفكاره فليصبر وليصابر فإن ما سيبذله في ذلك من جهد واصطبار ثمن قليل لما سيجنيه من التزكي بثمرات ذلك العقل الملهم الفياض.

عبد العزيز توفيق جاويد

مصر الجديدة في:

٩ أبريل ١٩٥٢ – ١٤ رجب ١٣٧١

كلمة المترجم للطبعة الثانية

عندما صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب لقيت استجابة جميلة من جمهور القراء من عـشاق أدب ولز وثقافته ورسالته الإنسانية، وكان رواج الكتاب في الأقطار الشقيقة أعظم منه في مصر بلـدنا العزيـز، وهو أمر عجبت له كثيرا وأسفت له أكثر، ويوم صدرت الطبعة الأولى من الكتاب كان فيـه مـن المفـاهيم والتعبيرات التقدمية ما أعتقد أنه كان ولا جرم سابقًا لأوانه ففيه مثلاً: التطور والتطوير، والتنمية والتخطيط، والتأميم والحكم المحلي، ووحدة البشرية والدولة العالمية المتحدة، إلى غير ذلك مما كان بعض النـاس فـي العالم أجمع يرفضونه بوصفه من شطحات الخيال أو على الأقل يناقضونه أو لا يسيغونه في أبسط الظروف.

ولكن الأيام حققت معظم نبوءات ولز بعد أن ظل زميله ومعاصره برنارد شو نفسه يسخر منه ومنهـا أكثر من نصف قرن. وها هي ذي الإنسانية تشهد اليوم من الحقائق ما كان يعد وهما بعيدا في ١٩٣٠. فقـد انحسر الاستعمار عن إفريقيا بعد أن ركز نفسه فيها واطمأن عند طرده من آسيا، أنـه واجـد فيهـا الأرض الخصبة البكر التي يرتع فيها ويهطع. وأخذت جميع الشعوب تؤمن بنفسها وتؤمن من ثم بحقوقهـا؛ فتتخـذ الديموقراطية أساسا والاشتراكية منهجا والمساواة بين الطبقات دعامة وتوزيع العلم على الجميـع والاعتمـاد عليه في رفع مستوى المعيشة ركازا والنهوض باقتصاد الأمة مبدأ وعقيدة. وأخذت المصالح تجمع الأمم في اتجاهات إن كانت ضيقة الأفق الآن وكانت الأغراض منها غير كريمة في بعض الحين، فقـد أخـذ هـذان العيبان يزايلانها إلى حد كبير. فهناك السوق الأوربية (وهي مثل سيئ) وتهدف إلى ما وراءها مـن الوحـدة الأوربية المنشودة. وهناك وحدة أفريقيا التي بدت نواتها على يد المؤتمر الأفريقي. وهي لن تلبث حتى تجمع بين دولها في الحكومات بعد أن قربت بين أممها الأماني والآلام وجمعت بينهـا فـي الأهـداف والخطـط السياسية. وهناك وحدة العرب التي التأمت على يد الرئيس جمال عبد الناصر. وهناك الدعوة إلى منع الحرب وإلى الحياد الإيجابي وعدم الانحياز التي تتزعمها جمهوريتنا الفتية وتسابق في عقد مؤتمراتها إلى غير ذلك مما يجده القارئ موضحا في هذا الكتاب كدعوة ومتسلقًا كنبوءة وممثلاً في جو الحياة كحقيقة.

وقد نقحت هذه الطبعة تنقيحا شاملاً فضلاً عن أنها ضبطت على أحدث طبعات الكتاب في الإنجليزيـة (١٩٥٦). وهي الطبعة التي قال في مقدمتها المستر رايموند بوستجيت الذي تولى إصدارها إنه جمع فيها كل المواد التي أعدها المؤلف لضمها إلى طبعة حديثة، كان المؤلف نفسه يزمع إصدارها جامعة لتعقيباته علـى أحداث أربعينات القرن. وكان تاريخ صدور الطبعة التي نقلتها إلى العربية (١٩٣٧) فكأنها لم تكن تحتـوي على أحداث الحرب العظمى الثانية، الأمر الذي ألجأني إلى أن أنتهج نفس السبيل التي سلكها المستر رايموند بوستجيت حيث نقلت تاريخ تلك الحرب عن كتاب "موجز تاريخ العالم" الذي أصدر المؤلف نفسه طبعة منـه قبيل وفاته، كما أكملت ما في تلك الطبعة من نقص بما نقلته عن المؤلف نفسه وبذلك استكملت تاريخ الحرب العالمية الثانية، ومن ثم فإن الوضع الجديد لآخر طبعات الكتاب الإنجليزية اقتضى تعـديل جميـع الأجـزاء الأخيرة من الكتاب مرة ثانية. فتعدل الفصل ٣٩ وأضيف الفصل الأربعون وألغي ذيل الكتاب القديم.

وكدأبي في الطبعة الثانية من أجزاء هذا الكتاب ذيلته بكشاف أبجـدي وأضـفت إليـه مـن الـصور والخرائط ما اقتضته ظروف الحرب الثانية.

وإني لأشكر للسادة أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر جميل عنايتهم بهذا الكتاب الذي يمثل الثقافة الرفيعة والفكر التقدمي الكريم ولا يسعني إلا أن أبذل الشكر جزيلاً عاطرا إلى الأستاذ الكبير محمد فريد أبو حديد على عنايته الكريمة بفحص هذه الطبعة وإسداء التوجيهات المرشدة. وإذ أختم كلمتي هذه أؤكد للقـارئ أني أفدت من نقل الكتاب فائدة ثقافية وفكرية ومذهبية اشتراكية ديمقراطية، أرجو أن تعود على كل من يطلع عليه من أبناء الضاد.

كما أنني أشهد القارئ أنني أفارق ولز فراق الآسف راجيا أن يمد ا   في الأجل حتى أرى رسالته قـد تحققت ودعوته قد آمن بها الناس جميعا، وحتى أستطيع أن أظهر الطبعة الثالثة من الكتاب في مجلـد واحـد يستعرض به القارئ موكب الحضارة الإنسانية متكاملة بين دفتي سفر محدود.

وا   الموفق للسداد..

مصر الجديدة في ١٤/ يناير ١٩٦٥

ع. ت. ج

الكتاب الثامن

عصر الدول العظمى

الفصل الرابع والثلاثون

أمراء وبرلمانات ودول

١- الأمراء والسياسة الخارجية.

٢- الجمهورية الهولندية.

٣- الجمهورية الإنجليزية.

٤- انقسام ألمانيا واضطرابها.

٥- أبهة الملكية العظمى في أوربا

٦- الموسيقى في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

٧- التصوير في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

٨- نمو فكرة الدول العظمى.

٩- جمهورية بولندة المتوجة ومصيرها.

١٠- أول تخاطف على الإمبراطوريات وراء البحار.

١١- بريطانيا تسود الهند.

١٢- تقدم الروسيا إلى المحيط الهادي.

١٣- رأي جيبون في العالم في ١٧٨٠.

١٤- الهدنة الاجتماعية تشارف نهايتها.

١- الأمراء والسياسة الخارجية

تتبعنا في الفصل السابق بزوغ فجر مدنية جديدة، هي المدنية ذات الطابع الحديث التي أصبحت في العصر الحالي تعم العالم أجمع. وهي لا تزال إلى الآن شيئًا ضخما لم تستو له قسمات، ولم تتخط في يومنا هذا بواكير أدوار النمو والتطور. وشهدنا فكرتي العصور الوسطى عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة وعن الكنيسة الكاثوليكية – بوصفهما صورتين للقانون والنظام العام – تذويان – عند مستهل ذلك الفجر. وهما إنما تزولان من الوجود بحكم نوع من الضرورة قضت بذلك حتى يتهيأ للناس معاودة صوغ الفكرات الداعية إلى قيام قانون واحد ونظام واحد صوغًا جديدا يشمل العالم برمته. وبينما كان التقدم يلم بكل ميدان من ميادين المصالح الإنسانية الأخرى، جاء زمان أدى فيه زوال هاتين الفكرتين السياسيتين العامتين وهما الكنيسة والإمبراطورية، إلى تدلي الأوضاع السياسية إلى مجرد الملكية الاستبدادية المطلقة وإلى القومية الملكية ذات الطراز المقدوني.

وجاءت فترة توقف فيها بالفعل تماسك الروابط الإنسانية، وهي طور من تلك الأطوار التي كان يسميها كتّاب الحوليات[1] من الصينيين "عصور الاضطراب". ولبثت فترة التوقف هذه أمدا يعادل المدة الممتدة بين سقوط الدولة الرومانية الغربية وبين تتويج شرلمان في روما. وما زلنا حتى اليوم نعيش في ظلالها ولعلها أشفت على نهايتها. وأقول "لعلها" لأننا لا نستطيع حتى الآن أن نجزم بذلك. وكانت الأفكار المسيطرة القديمة قد تحطمت، وظهر خليط من المشروعات والمقترحات الجديدة غير المجربة أخذ يبلبل عقول الناس وأفعالهم، لذا اضطر العالم في الوقت نفسه أن يرتد على عقبيه فيطلب الزعامة على أساس التقاليد القديمة: تقاليد الأمير الفرد. ذلك أن الناس لم يكن أمامهم من محجة بينة المعالم يستطيعون أن يضربوا فيها بقدم، وكان الأمير بين أيديهم.

شهدت خاتمة القرن السادس عشر أرجاء العالم كافة، وقد سادتها الملكية التي تنزع إلى الحكم المطلق. فكانت ألمانيا وإيطاليا مقسمتين إلى رقاع صغيرة من الإمارات الاستبدادية (الأوتوقراطية). وكان الحكم في إسبانيا استبداديا بالفعل. ولم يصل العرش يوما في إنجلترة إلى مثل قوته آنذاك، حتى إذا تقدم القرن السابع عشر كانت الملكية الفرنسية قد أصبحت على الأيام أعظم دولة في أوربا وأشدها تماسكًا. وما نحن بقادرين على أن نسجل ها هنا أطوار رفعتها وما مر بها من تقلبات.

وكانت تحتشد في كل بلاط زمر من الوزراء يلعبون دورا ميكيافلليا ضد منافسيهم في الدول الأخرى. والسياسة الخارجية هي الوظيفة الطبيعية للبلاط والملك. ويكاد وزراء الخارجية يكونون أهم الشخصيات البارزة الزعيمة في تاريخ القرنين السابع عشر والثامن عشر كله. وهم الذين دأبوا على إلقاء أوربا في أتون حمى من الحروب. وكانت نفقات الحروب في ازدياد باهظ، فلم تعد الجيوش بعد مكونة من مجندين غير مدربين ولم تعد جموعا من فرسان الإقطاع يجلبون معهم خيلهم وسلاحهم وأتباعهم، بل أخذت تشتد حاجة

---

[1] كتاب الحوليات (Annalists) هم الذين يدونون التسجيلات السنوية للأحداث. (المترجم).

هذه الجيوش إلى المدفعية؛ وأصبحت تتكون من جنود يتناولون أجورا يلحون في طلبها؛ كانوا جنودا محترفين متأنّين حذاقًا، يقومون بالحصارات الطويلة، ويحتمون إقامة التحصينات المحكمة. فزادت نفقات الحرب في كل مكان واستدعت الزيادة المستمرة في فرض الضرائب.

وهنا حدث أن اشتبكت هذه الملكيات، ملكيات القرنين السادس عشر والسابع عشر – في نزاع بينها وبين قوى للحرية جديدة غير مكتملة النضج في المجتمع. إذ تلفت الأمراء حولهم فوجدوا أنفسهم لا يتحكمون في حياة رعاياهم ولا أموالهم. بل وجدوا مقاومة مزعجة للضرائب التي كانت ضرورية لا مندوحة عنها إذا شاءوا لاعتداءاتهم ومحالفاتهم السياسية أن تتواصل. وأصبحت الشئون المالية شبحا كريها في كل قاعة يجتمع فيها مجلس. وكان العاهل من الوجهة النظرية هو المالك لبلاده. فقد أعلن جيمس الأول ملك إنجلترة (١٦٠٣) أنه "لما كان من الكفر والتجديف أن يعترض الناس على قدرة ا ، فإن من الوقاحة والاحتقار الكبير أن يعترض أحد الرعايا على ما يستطيع الملك فعله، أو أن يقول إن ملكًا لا يستطيع أن يفعل هذه أو تلك".

ولكنه وجد في الواقع – كما قُدر لولده شارل الأول (١٦٢٥) أن يجد بصورة أقوى أثرا مما وجد أبوه – أن في ملكه عددا كبيرا من أصحاب الأرض والتجار، وهم أشخاص لهم وزنهم ولهم ذكاؤهم، قد رسموا حدا محدودا لمطالب الملك ووزرائه ومقتضياتهم. كانوا على استعداد للرضا بحكمه إذا مكنوا هم أنفسهم أن يكونوا ملوكًا وأقيالا لأراضيهم وأعمالهم وتجارتهم وما إلى هذا بسبيل. ولكنهم لا يقبلون عدا ذلك شيئًا.

وكان هناك تطور مماثل لهذا في كل أرجاء أوربا. فمن دون الملوك والأمراء كان هؤلاء الأقيال الصغار، وأعني بهم أصحاب الأملاك والنبلاء والمواطنين (الممادنين) الأغنياء ومن إليهم، الذين كانوا يظهرون آنذاك لمولاهم الأمير نفس المقاومة التي أبداها ملوك ألمانيا وأمراؤها للإمبراطور. وكانوا يرمون إلى تحديد الضرائب بقدر ما كانت تضغط على أشخاصهم، وأن يكونوا أحرارا في ديارهم وضياعهم. وكان من أثر انتشار الكتب والقراءة وازدياد الاتصال بين الناس، أن تمكن هؤلاء الأقيال الصغار، أقيال الأملاك والتجارة من إنشاء مجتمع فكري متطور ودعم أركان المقاومة فيه بصورة لم يكن لها نظير في أية مرحلة من المراحل التي مرت بتاريخ الإنسانية كله. كانوا نزاعين في كل مكان أن يقاوموا الأمير، ولكنهم لم يجدوا في كل بقعة نفس اليسر في المقاومة المنظمة. فإن الظروف الاقتصادية والتقاليد السياسية في الأراضي المنخفضة وإنجلترة جعلت هذين القطرين أول من جعل الخصومة بين العاهل والمالك موضع البحث للوصول إلى حل ناجع لها.

وفي بادئ الأمر كان "جمهور" القرن السابع عشر هذا، جمهور أصحاب الأملاك، قليل الاحتفال بالسياسة الخارجية. ذلك أنهم لم يستشعروا أول الأمر كيف أنها تؤثر فيهم. فلم يريدوا أن يشغلوا أنفسهم بها فقد سلموا بأنها شئون الأمراء والملوك. ومن ثم لم يحاولوا قط التحكم في معقدات السياسة الخارجية، ولكن حدث أنهم اشتبكوا مع النتائج المباشرة لهذه المعقدات، فقد اعترضوا على الضرائب الفادحة، وعلى التدخل في شئون التجارة، وعلى الحبس التعسفي، وعلى تحكم الملك في الضمائر. وعلى أساس هذه المسائل نزلوا حومة الكفاح ضد التاج.

٢- الجمهورية الهولندية

كان انفصال الأراضي المنخفضة عن الملكية المطلقة بداية سلسلة من تلك المنازعات التي استعرت طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر. بيد أنها كانت تختلف في تفاصيلها اختلافًا بالغًا تبعا للخصائص المحلية والعنصرية، ولكنها كانت كلها من حيث الجوهر تمردا على السلطان الشخصي "للأمير" وعلى توجيهه السياسي والديني.

كانت منطقة الراين الأدنى بأكملها مقسمة في القرن الثاني عشر بين عدد من صغار الحكام، وكان السكان من أرومة ألمانية دنيا (Low German) [1] من دونها أساس كلتي قديم، وتخالطهم عناصر دانيمركية متأخرة عهدا شديدة الشبه بما في بلاد الإنجليز من خليط. وكان الإفريز الجنوبي الشرقي لهذا الإقليم ينطق بلهجات فرنسية؛ على حين تنطق كتلة السكان بلغات فريزية وهولندية ولغات ألمانية دنيا أخرى. ولقد ظهرت الأراضي المنخفضة ظهورا كبيرا في الحروب الصليبية. فإن جود فري البويوني (of Bouillon) الذي استولى على بيت المقدس (في الحملة الصليبية الأولى) كان بلجيكيا. كما أن مؤسس ما يسمى بالأسرة اللاتينية في القسطنطينية (الحملة الصليبية الرابعة) هو بالدوين أمير فلاندرا. (وإن أطلق عليهم اسم الأباطرة اللاتينيين، لأنهم كانوا يظاهرون الكنيسة اللاتينية).

ونمت مدن ضخمة في الأراضي المنخفضة إبان القرنين الرابع عشر والخامس عشر: منها غنت وبروج وإيبر وأترخت وليدن وهارلم وما إليها. وتطورت في هذه المدن "حكومات مجالس بلدية" شبه مستقلة وطبقة من رجال المدن المتعلمين ولن نشغل القارئ بما سنح بين الأسرات المالكة من صدف ربطت شئون الأراضي المنخفضة ببورغنديا (فرنسا الشرقية)، وانتهت إلى انتقال السلطان الأعلى عليها إلى ميراث الإمبراطور شارل الخامس.

وفي عهد شارل انتشرت إلى الأراضي المنخفضة المبادئ البروتستانتية التي كانت عند ذاك تعم ألمانيا. واضطهد شارل الناس في شيء من الشدة، ولكنه ما لبث في (١٥٥٦)، كما أسلفنا أن ترك الأمر إلى ولده فيليب (فيليب الثاني). وسرعان ما أصبحت سياسة فيليب الخارجية الناشطة – وقد كان مشتبكًا بحرب مع فرنسا – مصدر شر آخر بينه وبين نبلاء الأراضي المنخفضة وأهل مدنها، لأنه اضطر أن يلجأ إليهم طالبا المعونة. فنصب النبلاء العظام أنفسهم على رأس مقاومة شعبية عامة، يقودهم وليم الصامت، أمير أورانج، وكونتا إجمونت وهورن، وصار يستحيل فيها التفريق بين الاعتراض على فرض الضرائب والاعتراض على الاضطهاد الديني. وفي أول الأمر لم يكن النبلاء العظام من البروتستانت، ولكنهم اعتنقوا ذلك المذهب عندما اشتدت حدة النزاع مرارة. أما الشعب فكان من قبل بروتستانتيا متعصبا.

[1] راجع ص ١٤٠ ج ١ من المعالم ط٢. والأورمة الألمانية الدنيا هي التي كانت تسكن سهل ألمانيا الشمالي المنخفض ولغتهم تسمى باللهجة الألمانية الدنيا. (المترجم).

وعقد فيليب العزم على أن يحكم الأراضي المنخفضة وضمائر أهليها جميعا. فأرسل إليهم نخبة مختارة من الجنود الإسبان واستعمل على البلاد نبيلاً اسمه ألفا، وهو أحد أولئك الرجال "الصارمين" الذين لا تعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلا والذين يحطمون الحكومات والملكيات. فطفق يحكم البلاد ردحا من الزمان بقبضة من حديد، ولكن اليد الحديدية تبث فيما تمسه من جسم روحا من حديد، ففي (١٥٦٧) جهرت كل الأراضي المنخفضة بالعصيان. وأخذ ألفا يعمل القتل والانتهاب والمذابح على غير طائل. وأُعدم الكونتان إجمونت وهورن. فأصبح وليم الصامت زعيم الهولنديين الأكبر، ومليكهم في الواقع.

واستمر الكفاح في سبيل الحرية زمانًا طويلاً يتخلله كثير من التعقيد، ومن الجدير بالذكر أن العصاة ظلوا متعلقين في كل أدوار الكفاح بالقول بأن فيليب الثاني إنما هو ملكهم – على شريطة أن يرضى أن يكون ملكًا معقولاً محدود السلطان. ولكن فكرة الملكية المقيدة كانت فكرة كريهة المذاق لدى أصحاب التيجان في أوربا وقتذاك، وأخيرا دفع فيليب بالمقاطعات المتحدة التي نطلق عليها اليوم اسم هولندة، إلى النزوع نحو الحكم الجمهوري. وليلحظ القارئ أن ذلك النزوع ظهر في هولندة وليس الأراضي المنخفضة جمعاء. ذلك أن القسم الجنوبي من الأراضي المنخفضة وهو بلاد البلجيك كما يسمى ذلك القطر الآن، ظل حتى نهاية الكفاح ولاية إسبانية وكاثوليكية العقيدة أيضا.

ويمكن أن يتخذ حصار آلكمار (١٥٧٣) كما يصفه موتلي[1]، مثالاً على ذلك النضال الطويل الفظيع بين الشعب الهولندي الصغير وبين موارد الاستعمار الكاثوليكي التي كانت لا تزال كبيرة ضخمة. كتب ألفا إلى فيليب يقول:

"إذا استوليت على آلكمار فلن أدع فيها على قيد الحياة فردا. ولسوف أضع النصل في كل رقبة.."

والآن وقد مثلت أمام أعينهم مدينة هارلم المجردة من أسلحتها والخاوية على عروشها، وكأني بها شبحا يتنبأ لهم بمصيرهم، فإن رجال آلكمار الذين يعدون على الأصابع والذين أغلقوا عليهم أبوابها تهيئوا لأسوأ الظروف. وكان صديقهم البحر هو مناط أملهم الأكبر. ذلك بأن الفتحات الهائلة التي يمكن بواسطتها غمر المقاطعة الشمالية بغاية السرعة، لم تكن إلا على مبعدة أميال قليلة. فلو أنهم فتحوا هذه البوابات وهدموا بعض جسور الماء لجعلوا المحيط يحارب في صفهم. ومع ذلك فقد كانت موافقة الأهلين لازمة للحصول على تلك النتيجة، إذ إن تلف كل المحاصيل التي في الحقول يكون عند ذاك محققًا. وكانت المدينة محوطة بالمحاصرين إحاطة وثيقة جعلت من العسير عليهم أن يجدوا رسولاً يقوم بتلك المهمة المخطرة. وأخيرا تقدم للقيام بهذه المغامرة نجار يدعى بيتر فان دروماي.

"وسرعان ما تحرجت الأمور في داخل المدينة المحصورة. فقد كانت تحدث في كل يوم خارج الأسوار مناوشات غير حاسمة. ثم حدث آخر الأمر في اليوم الثامن عشر من سبتمبر أن أصدر الدون فردريك في الساعة الثالثة بعد الظهر أمرا بالهجوم، بعد ضرب المدينة بالمدافع ضربا متواصلاً دام اثنتي عشرة ساعة تقريبا. وبالرغم مما مر به من خبرة دامت سبعة شهور في هارلم فإنه ظل يعتقد أن من المحقق أن يأخذ

(1) في كتابه "Rise of the Dutch Republic"

المدينة اكتساحا. وحدث الهجوم في نفس الوقت على كل من البوابة الفريزية والبرج الأحمـر فـي الجهـة المقابلة. وكان على رأس الهجوم فرقتان من نخبة الجند وصلتا وشيكًا من لومبارديا، وهما تزلـزلان الجـو بصيحات أفرادهما معبرين عن ثقتهم بنصر هين قريب. وكانت تظاهرهم قوة جارفة من الجنود المنظمة. بيد أنه لم يحدث قط في تاريخ هارلم القريب، أن قوبلت هجمة بصدور أثبت جنانًا وأشجع أفئدة. فإن كل رجل به نسمة من حياة كان متخذًا مكانه على الأسوار. وكانت الجماعات المهاجمـة تقابـل بالمـدافع والقرابينـات والغدارات. وكان الماء الحار والقار والزيت المغلي والرصاص المصهور والجير الحي تصب عليهم في كل لحظة صبا. وكانت مئات من الأطواق المقيرة والمحماة تلقى بمهارة حول أعناق الجنود، الذين حاولوا عبثًـا أن يخلصوا أنفسهم من تلك الأطواق النارية، في حين أنه لم يكن أحد من المهاجمين يكاد يضع قدمـه علـى الثغرة حتى يتلقاه سكان المدينة بالسيوف والخناجر وينكسوه على أم رأسه في الخندق.

"وتجدد الهجوم ثلاث مرات بحدة وقوة لا تلين وصد كذلك ثلاث مرات بمضاءة وجلاد لا هوادة معهما. واستمرت العاصفة هوجاء أربع ساعات. ولم يغادر واحد من المدافعين مكانه طيلة تلك المدة، إلا أن يـسقط عنه صريعا أو جريحا. ونفخ في البوق نفخة الارتداد، وانسحب الإسـبان عـن الأسـوار منـدحرين تمـام الاندحار، مخلفين وراءهم في الخنادق ما لا يقل عن ألف قتيل، أما أهل المدينة فلم يقتل منهم إلا ثلاثة عشر من السكان وأربعة وعشرون من الحامية... وقد روى حامل العلم سوليز الذي صعد على ثغرة السور مـدة لحظة قصيرة ونجا بحياته بمعجزة حين قذف به من الأسوار، أنه لم ير عندما أشرف على المدينة خوذة ولا سرجا: بل شهد نفرا من الناس البسطاء المظهر يرتدون عموما ثياب صيادي السمك. ومع ذلك فإن هـؤلاء الصائدين البسطاء قد دحروا محنكة جنود ألفا.

"وفي نفس الوقت كان الحاكم سونوي قد فتح كثيرا من جسور الماء، فأخـذت الأرض فـي المنطقـة المجاورة للمعسكر تصبح برگًا، وإن كان الفيضان الداهم لم يحدث حتى آنذاك. ودب دبيب القلق في الجنـود وامتلأت نفوسهم بالشكس والتمرد. ولم تذهب مهمة النجار عبثًا...".

فإنه عاد إلى المدينة يحمل بعض الرسائل. ولكنه فقد تلك الرسائل إما على وجه الصدفة أو التـدبير – وهو في طريقه إلى المدينة – فوقعت في يد ألفا. وكانت تحوي وعدا صريحا من دوق أورانج بغمر الـبلاد بالماء غمرا يجعل الجيش الإسباني بأكمله من المغرقين. وكان هذا الأمر يغرق فـي نفـس الوقـت معظـم محصول الهولنديين وماشيتهم. ولكن ألفا عندما أطلع على تلك الوثائق لم ينتظر حتى تفـتح عليـه بوابـات أخرى. وسرعان ما أخذ رجال آلكمار البواسل يتصايحون ويهتفون – حين شهدوا الإسـبان يأخـذون أهبـة الرحيل والتفرق.

واتخذت حكومة هولندة المحررة شكل جمهورية من الأشراف تحت رياسة بيت أورانج. وكان "مجالس الطبقات States General أول تمثيلاً لهيئة المواطنين بأكملها من البرلمان الإنجليزي، الذي سنقص عليـك فيما يلي قصة كفاحه مع التاج.

ومع أن أسوأ أدوار الكفاح انقضت بعد آلكمار، فإن هولندة لم تصبح مستقلة بالفعل حتى (١٦٠٩)، ولم يعترف باستقلالها اعترافًا تاما كاملاً إلا في معاهدة وستفاليا في (١٦٤٨).

٣- الجمهورية الإنجليزية

يبدأ النزاع الصريح الذي قام به مالك العقار مناهضا عدوان "الأمير" في إنجلترة منذ عهد قديم يرجـع إلى القرن الثاني عشر. ودور الكفاح الذي علينا أن ندرسه الآن إنما هو الذي ابتدأ بمحاولات هنري الـسابع والثامن وخلفائهما، إدوارد السادس، وماري وإليزابيث جعل حكومة إنجلترة "ملكية شخصية [1]" من الطـراز الشائع بالقارة الأوربية. واشتد الكفاح حدة عندما حدث تبعا لمصادفات المصاهرة في الأسـرة المالكـة، أن أصبح جيمس ملك اسكتلندة، هو جيمس الأول ملك إنجلترة واسكتلندة على السواء (١٦٠٣)، وأخذ يتكلم على المنوال الذي اقتبسناه عنه آنفًا عن "حقه الإلهي" في أن يفعل ما يشتهي.

ولكن لم يحدث قط أن كان طريق الملكية الإنجليزية سهلاً معبدا. ففي كل العاهليات التي أقامها غـزاة الإمبراطورية الشماليون والألمانيون كان هناك تقاليد لجمعية شعبية تجمع ممثلي الـشعب ذوي النفـوذ مـن الرجال لحفظ حرياتهم العامة، ولم تكن تلك الجمعية أنشط في أي منها حياة في إنجلتـرة. فكانـت لفرنـسا تقاليدها الخاصة بجمعية "الطبقات الثلاث Estates" وكان لإسبانيا كورتيزها. بيد أن الجمعيـة الإنجليزيـة كانت تتسم بسمة خاصة من ناحيتين: أولاهما أنها كانت تستند إلى تصريح يتخذ صفة الوثيقة ويحتوي علـى حقوق معينة أولية وعامة؛ وثانيتهما أنها كانت تضم "فوارس مقاطعات" منتخبين كما تضم نوابا عـن المـدن منتخبين أيضا. وكانت الجمعيتان الفرنسية والإسبانية تتألفان من العنصر الأخير دون الأول.

وهاتان الخصيصتان جعلتا للبرلمان الإنجليزي قوة خاصة في كفاحه مع العرش. والوثيقة المعنية إنمـا هي "الماجناكارتا" أي العهد الأعظم، وهو تصريح أخذ غصبا من الملك جون (١١٩٩ – ١٢١٦)، وهو أخو الملك ريتشارد قلب الأسد (١١٨٩ – ١١٩٩) وخليفته، وذلك بعد العصيان الذي قـام بـه البارونـات فـي (١٢١٥). وهو يكرر عددا من الحقوق الجوهرية التي جعلت من إنجلترة دولة قانون لا دولة ملك. وهو قـد أبى على الملك التسلط على الممتلكات والحرية الشخصية لكل نوع من أنواع المواطنين – اللهم إلا أن يكون ذلك برضاء نظراء ذلك المواطن.

فأما وجود ممثلي المقاطعة المنتخبين في البرلمان الإنجليزي – وهي الخصيصة الثانيـة فـي حالـة بريطانيا – فقد نجم عن بدايات بسيطة جدا، وحميدة لا مضرة منها. إذ يبدو أن الفرسان كانوا يستدعون مـن المقاطعات أو أقسام الريف إلى المجلس الوطني ليشهدوا بمقدرة نواحيهم على دفع الضرائب. وكان يـرفعهم إلى ذلك المكان من هم أدنى منهم مرتبة من الأعيان وأصحاب الأملاك وشيوخ القرى في نواحيهم في زمان يرجع إلى (١٢٥٤)، فينوب عن كل مقاطعة فارسان. فألهمت هذه الفكرة سيمون دي مونت فورت، وكان في ثورة ضد هنري الثالث، خليفة جون، أن يدعو إلى المجلس الوطني فارسين عن كل مقاطعة، ومماثنين لكـل

---

[1] الملكية الشخصية أو الفردية هي الاستبدادية المطلقة التي يجتمع فيها الحكم في شخص الملك. (المترجم)

مدينة أو بندر انتخابي [1]. وواصل هذا العمل إدوارد الأول خليفة هنري الثالث، إذ إنه كان يلوح في نظره وسيلة ملائمة تمكنه من الاتصال المالي بالمدن النامية.

وأبدى الفرسان ورجال المدن في بادئ الأمر قدرا جسيما من عدم الرغبة في حضور البرلمان، ولكنهم أدركوا شيئًا فشيئًا القوة التي يملكونها في اتخاذ رفع الظلم عن الناس شرطًا لمنح الاعتمادات المالية.

وكان هؤلاء ممثلو ملاك العقارات العامة في المدن والريف يسمون باسم "العموم Commons". وكانوا يعقدون جلساتهم ويتناقشون في الأمور من زمن قديم جدا أو قل منذ البداية، بمعزل تام عن كبار اللوردة والأساقفة. وهكذا نمت في إنجلترة جمعية نيابية تمثيلية، هي مجلس العموم، إلى جانب جمعية أخرى من الأساقفة والنبلاء هي مجلس اللوردة. ولم يكن هناك فارق جوهري عميق يفرق بين هيئتي الجمعيتين. إذ إن كثيرا من فرسان المقاطعة رجال لهم قيمتهم ووزنهم، وربما بلغوا من الثراء والنفوذ مبلغ النبلاء وبينهم كذلك أبناء النبلاء وأشقاؤهم، على أن مجلس العموم كان في جملة أمره هو الجمعية الأدنى إلى الشعبية.

وأظهر هذان المجلسان منذ البداية، وبخاصة مجلس العموم، ميلاً إلى ادعاء الحق الكامل في فرض الضرائب على البلاد. وأخذا بالتدريج يوسعان دائرة اختصاصهما من النظر في المظالم إلى نقد شئون المملكة كلها.

ولسنا بمترسمين التقلبات التي ألمت بقوة البرلمان الإنجليزي وهيبته إبان حكم ملوك آل تيودور، (أعني هنري السابع والثامن وإدوارد السادس وماري وإليزابيث)، على أنه يتضح للقارئ مما قلناه، أنه عندما أعلن جيمس استيوارت آخر الأمر ادعاءه الصريح للحكم المطلق الأوتوقراطي، وجد التجار والنبلاء والجنتلمانية المستقلون الإنجليز، بين أيديهم وسيلة تقليدية شريفة مختبرة لمقاومته لم يكن عند أي شعب في أوربا نظير لها.

وهناك خصيصة أخرى للنضال السياسي الإنجليزي، هي انفصاله النسبي عن الكفاح العظيم بين الكاثوليك والبروتستانت، وهو الكفاح الذي كانت نيرانه مشبوبة في كل أرجاء أوربا. حقًا إنه اختلطت بالكفاح الإنجليزي منازعات دينية واضحة المعالم جدا، ولكنه كان في جوهره نضالاً سياسيا بين الملك والبرلمان مجسما في طبقة المواطنين أصحاب الأملاك الخاصة. على أن الشعب والتاج كانا من الناحية الرسمية من الآخذين بالإصلاح الديني كما كانا من البروتستانت. نعم إن كثيرا من الناس في الجانب الأول (أعني الشعب) كانوا بروتستانت، من طراز يحترم الكتاب المقدس ولا يقيم وزنًا للنظام الكهنوتي، وهو الطراز الذي يمثل الإصلاح الديني كما تراه الشعوب، وإن الملك كان الرئيس الاسمي لكنيسة من نوع خاص تعترف بالعشاء الرباني وتقوم على نظام الكهنوت، وهي كنيسة إنجلترة الرسمية، التي تمثل الإصلاح الديني كما يراه الأمراء [2] ولكن هذه الخصومة لم تحجب بأية حال أسس الكفاح الجوهرية.

---

(1) البندر الانتخابي: لفظة أطلقناها للدلالة على Borough ومعناها المدينة التي ترسل عنها نوابا في البرلمان. (المترجم).

(2) انظر ص ٩٧٩ ج٣ من المعالم الطبعة الثانية.

وكان الكفاح بين الملك والبرلمان قد وصل بالفعل إلى دور حاد قبل وفاة جيمس الأول فـي (١٦٢٥)، ولكنه لم يبلغ ذروته، ويصل إلى الحرب الأهلية إلا في حكم ولده شارل الأول. وفعل شارل بالضبط كل مـا يتوقع من ملك في ذلك الموقف، بالنظر إلى قلة الرقابة البرلمانية على السياسة الخارجية. فإنه زج بالمملكـة في حرب مع كل من إسبانيا وفرنسا، ثم جاء يطلب من بلاده المدد آملاً أن يتغلب الشعور الوطني على مـا توفّر في النفوس من كراهية طبيعية لإعطائه المال. فلما أن رفض البرلمان إمداده بالمال، طلب من كثير من رعاياه بعض القروض، وحاول أن يفرض على الناس ألوانًا مماثلة من هذه الفرائض غير القانونية.

فأدى هذا بالبرلمان إلى إصدار وثيقة لا تنسى أبدا (١٦٢٨)، هـي "ملـتمس الحقـوق Petition of Rights" ذكره فيها بالعهد الأعظم وأكد القيود القانونية على سلطة الملك الإنجليزي، وأنكر حقه في جبايـة الفرائض من أي إنسان أو سجنه أو معاقبته، أو أن ينزل جنوده على حساب الناس، دون اتخاذ الإجـراءات القانونية الواجبة.

إن ملتمس الحقوق عرض قضية البرلمان الإنجليزي. والميل إلى عرض القضية، كان علـى الـدوام خصيصة من الخصائص الإنجليزية الملحوظة جدا. وعندما كان الرئيس ولـسون أثنـاء الحـرب العظمـى (١٩١٤ – ١٨) يمهد لكل خطوة من خطوات سياسته "بمذكرة"، كان يسير في نهج أعظم التقاليد الإنجليزيـة وقارا.

وتصرف شارل مع هذا البرلمان تصرف المتعسف المتغطرس – فحله في (١٦٢٩)، وظل أحد عـشر عاما يحكم بلا برلمان. ويجمع الضرائب جمعا غير قانوني، ولكنها لم تكن تفي بغرضـه وإذ أدرك أن فـي الإمكان أن تستعمل الكنيسة أداة لنشر الطاعة، عين لود رئيسا لأساقفة كانتربوري وبذا يـصبح علـى رأس كنيسة إنجلترة، وهو رجل من كبار رجال الكنيسة عدواني الطبع، وينطوي على كثير من صـفات القـسيس وممن يؤمنون "بالحق الإلهي".

وفي (١٦٣٨) حاول شارل أن يبسط طابع الكنيـسة الإنجليزيـة الـذي يجمـع بـين البروتـستانتية والكاثوليكية، إلى مملكته الأخرى الاسكتلندية، التي كان تباعدها وانفصالها عن الكاثوليكية أتم وأشمل، والتي كانت تتخذ صورة من المسيحية لا تقوم على نظام كهنوتي ولا تعترف بالعـشاء الربـاني، وهـي الكنيـسة البريزبترياينة Presbyterian [1]، التي تأسست بوصفها الكنيسة القومية. فثار الاسكتلنديون، وتمردت الجنود الإنجليزية التي جمعها شارل لمقاتلهم.

وكان الإفلاس – وهو في كل الأزمان النتيجة الطبيعية لكل سياسة خارجية طموح – قاب قوسين منـه أو أدنى. واضطر شارل حين لم يعد لديه مال ولا جنود جديرة بالثقة، أن يدعو آخر الأمر برلمانًا (١٦٤٠). ولكنه حل ذلك البرلمان في السنة نفسها، وهو المعروف بالبرلمان القصير. ثم حاول الاستعانة بمجلس مـن النبلاء في يورك (١٦٤٠)، ثم استدعى في نوفمبر من نفس السنة آخر برلمان له.

---

[1] البريزبترياينة هي كما ترى الكنيسة الاسكتلندية الرسمية. وهي تقوم على إدارة الشئون الدينية والكنيسة بواسـطة الكهـول والشيوخ سواء أكانوا من رجال الدين أم لم يكونوا. وقد قامت على تعاليم جون كالفن. (المترجم).

واجتمعت هذه الهيئة، وهي البرلمان الطويل، وهي في حالة تهيؤ للنضال. فقبضت على لود، رئـيس أساقفة كانتربوري، واتهمته بالخيانة. ونشرت ما يسمى "بالاعتراض الأكبر"، وكان تقريرا مفـصلاً شـاملاً لقضية البرلمان ضد شارل. وأصدر البرلمان مشروع قانون (Bill) – اتخذ به التدابير اللازمـة لاجتمـاع البرلمان مرة في كل ثلاث سنين على الأقل، سواء استدعاه الملك أم لم يستدعه. وحاكم أكابر وزراء الملـك الذين أعانوه على الحكم مثل ذلك الزمان الطويل بلا برلمان، وبخاصة الإيرل سترافورد.

فدبر الملك إنقاذًا لاسترافورد – مؤامرة للاستيلاء بالجيش فجأة على لندن. ولكن المـؤامرة اكتـشفت، وسارع البرلمان إلى إصدار مشروع القانون القاضي بإدانة سترافورد وسط عاصفة عظيمـة مـن الهيـاج الشعبي. ودب الخوف من جماهير لندن إلى قلب الملك شارل الأول، الذي لعله كان من أسفل من جلسوا على العرش البريطاني وأشدهم خيانة. ولكي يموت سترافورد حسب الأصول القانونية السليمة ما لم يكن بد من أن يوافق الملك على القرار. فوافق الملك وقطعت رأس سترافورد.

وكان الملك في الوقت نفسه يأتمر في الخفاء ويبحث عن المعونة في مواطن غريبـة، ينـشدها بـين الإرلنديين الكاثوليك وبين الخونة من الاسكتلنديين. وأخير لجأ إلى مظهر للعنف ضعيف. فـذهب إلـى دار البرلمان ليعتقل خمسة من أنشط خصومه. فدخل إلى مجلس العموم واعتلى منصة الخطابة. وكـان مـستعدا لإلقاء خطبة جريئة عن الخيانة، ولكنه عندما رأى أماكن خصومه الخمسة خالية، أرتج عليه واضطرب وتكلم في جمل متقطعة. إذ علم أنهم ارتحلوا عن مدينته الملكية وستمنستر، ولجئوا إلى مدينة لندن التي كـان لهـا مجلس بلدية يحكمها حكما ذاتيا. وتحدته لندن. وبعد ذلك بأسبوع قام رجال حرس لندن المـدربون بتوصـيل هؤلاء الأعضاء الخمسة إلى دار البرلمان بوستمنستر في موكب عظيم من مواكب النصر، ولكـي يتجنـب الملك جو الصخب والعداء الذي صحب الحادث، غادر قصر هوايت هول إلى وندسور. وعندئذ استعد كـل من الفريقين صراحا للحرب.

وكان الملك هو الرئيس التقليدي للجيش وقد جرت عادة الجند بطاعة الملك. وكانـت لـدى البرلمـان موارد أعظم. ورفع الملك لواءه في نوتنجهام في مساء يوم مظلم عاصف من أغسطس (١٦٤٢).

وعقبت ذلك حرب أهلية طويلة عنيدة، كان الملك فيها مستحوذًا على أكسفورد والبرلمان على لنـدن. وكان النجاح يتنقل من جانب إلى جانب، ولكن الملك لم يستطع قط أن يطبق على لندن، كمـا لـم يـستطع البرلمان أن يستولي على أكسفورد. وكان يفل من عزم كل من الخصمين وجود أتباع من المعتدلين الذين "لم يكونوا يحبون الاشتطاط في الأمور".

وبرز من بين قادة البرلمان، رجل اسمه أوليفر كرومويل، كان قد جمع ثلة من الفرسان وارتفـع إلـى رتبة جنرال. ويصفه معاصره اللورد وارويك بأنه رجل بسيط يرتدي بدلة من قماش عادي صـانعها خيـاط "ريفي رديء". لم يكن مجرد جندي مقاتل، بل كان منظما عسكريا، أدرك ما عليه كثير من القوات البرلمانية من حالة دنية، ونصب نفسه لإصلاحها. وكان لفرسان الملك تلك التقاليد الجميلة، تقاليد الفروسـية والـولاء. وكان البرلمان شيئًا جديدا عسيرا على الأفهام ليست له تقاليد تقارن بتلك. قال كرومويل "إن معظم جنـودكم

إنما هم خدمة وسقاةٌ كهولٌ واهنو القوى، فهل تظنون أن أرواح مثل هؤلاء الأشخاص الأسافل الأدنياء، تستطيع يوما أن تقاتل الجنتلمانية الذين ملأ أعطافهم الشرف والشجاعة والعزم؟.

ولكن هناك شيئًا أقوى وأحسن من الفروسية الجذابة في العالم، وذلك هو الحماسة الدينية. ولذا نصب كرومويل نفسه ليجمع فرقة من "الربانيين الأتقياء". وكان لا بد لهم من أن يكونوا رجالاً جادين معتدلين في حياتهم. وكان لا بد لهم فوق كل شيء من أن يكونوا رجالا ذوي عقيدة قوية. فتجاهل جميع التقاليد الاجتماعية وجمع ضباطه من بين كل طبقة. قال: "إني لأفضل أن أحصل على ضابط بسيط يرتدي بدلة ريفية حمراء، ويعرف الذي من أجله يحارب ويحب ما يعرف، على ما تسمونه جنتلمانًا وليس بشيء عدا ذلك".

واكتشفت إنجلترة بين ظهرانيها قوة جديدة هي الحرس الحديدي. كان السعاة والحوذية وربابنة السفن يتولون فيها قيادة عليا، إلى جوار أبناء البيوتات. وأصبحوا النموذج الذي حاول البرلمان أن يبني على منواله من جديد جيشه بأكمله. وكان الحديديون هم العمود الفقري "للنموذج الجديد". واجتاح هؤلاء الرجال أمامهم فرسان الملك من مارستون مور إلى نيسبي. وأخيرا وقع الملك أسيرا في قبضة البرلمان.

ورغم ما جرى بذلت محاولات لتسوية الأمور هدفها ترك الملك في عرشه بشكل ما، ولكن شارل كان رجلاً قدرت عليه العواقب المحزنة، فهو لا ينقطع عن تدبير الخطط؛ "رجلاً بلغ من إفكه أنه لا يجوز أن يثق به إنسان". وكان الإنجليز ينساقون نحو موقف جديد في تاريخ العالم، وجب فيه أن يحاكم ملك على خيانته شعبه وأن يقضي فيه بحكم.

والحق أن جميع الثورات – شأن هذه الثورة الإنجليزية – إنما تدفعها نحو العجلة المتهورة تصرفات الحاكم ومحاولته استعمال القوة والحزم استعمالا يتجاوز حدود القانون. وتنقذف معظم الثورات بحكم نوع من الضرورة نحو خاتمة أشد تطرفًا مما كان يستشف من الخلاف الأصلي. ولم تكن الثورة الإنجليزية استثناء لهذا الأمر. والإنجليز بطبعهم شعب ميال إلى الصلح والتفاهم بل هم قوم متردون، والراجح أن الغالبية العظمى منهم كانت لا تزال تريد أن يظل الملك ملكًا وأن يكون الناس أحرارا، وأن يرقد الأسود والخراف بعضهم إلى جوار بعض في سلام وحرية. ولكن الجيش ذا الطراز الجديد لم يكن في مستطاعه أن يتراجع. فلن تكون هناك إذا ما عاد الملك إلى عرشه ذرة من الشفقة نحو هؤلاء السعاة والحوذية الذين وطئوا جنتلمانية الملك بخيولهم. وعندما شرع البرلمان في التفاوض من جديد مع المخاتل الملكي، تدخل الطراز الجديد. فطرد الكولونيل برايد ثمانين عضوا من أعضاء البرلمان الإنجليزي كانوا يميلون إلى الملك، ثم قدمت البقية الباقية غير القانونية وهي البرلمان الأبتر (Rump Parliament)، الملك إلى المحاكمة.

ولكن الواقع أن الملك كان مقدرا عليه من قبل قضاء لا مرد له. فلما أن رفض مجلس اللوردة قانون المحاكمة، أعلن البرلمان الأبتر عند ذاك "أن الأمة إنما هي في ظل ا مصدر كل السلطات العادلة" وأن "العموم في إنجلترة أصحاب السلطة العليا في هذا الشعب"، وإذ افترض المجلس الأبتر أنه هو نفسه العموم – فإنه واصل المحاكمة. وحكم على الملك بأنه "طاغية وخائن وقاتل وعدو لبلاده". وأخذ في صباح أحد أيام

شهر يناير (١٦٤٩) إلى مشنقة، أقيمت خارج نوافذ قاعة ولائمه الخاصة في هوايت هول. وهناك قطعت رأسه. فمات وعليه سيما التقوى وضرب من الإشفاق على الذات نبيل – وذلك بعد إعدام استرافورد بثمانية أعوام، وبعد ست سنوات ونصف مضت في حرب أهلية مدمرة، سببها كلها تقريبا بلا استثناء خروجه على القانون.

والحق أن هذا الذي عمله البرلمان كان عملاً فظيعا مرعبا. فلم يسمع الناس بمثله قط في العالم من قبل نعم إن الملوك كثيرا ما قتل أحدهم الآخر؛ وإنما كان قتل الأب أو الأخ والاغتيال وسائل اختص بها الأمراء؛ فأما أن يقوم فريق من الشعب، ويحاكم ملكه في جد وتعمد متهما إياه بعدم الولاء وإثارة الشر والخيانة، ويحكم بإدانته ثم يقتله، فأمر بث الذعر في كل بلاط في أوربا. ذلك أن البرلمان الأبتر تجاوز ما يطيقه ضمير زمانه وفكراته. وكأنما خرج من إحدى الغابات سرب من الظباء فأسر أحد النمور وقتله – وهي جريمة مخالفة للطبيعة. فطرد قيصر الروسيا السفير الإنجليزي من بلاطه. واتخذت فرنسا وهولندة تصرفات عدائية صريحة. ووقفت إنجلترة منعزلة أمام العالم، مبلبلة يؤنبها ضميرها بجرمها.

ومضى ردح من الزمان تهيأ فيه للمزايا الشخصية لأوليفر كرومويل ولنظام الجيش الذي أنشأ وقوته، أن تصون لإنجلترة النهج الجمهوري الذي سلكت. وكان الإرلنديون الكاثوليك قاموا بمذبحة في الإنجليز البروتستانت النازلين في إرلندة، وعند ذاك قمع كرومويل بشدة عظيمة الإرلنديين العصاة. وفيما عدا رهبانا بأعيانهم قتلوا أثناء الهجوم العنيف على دروجيدا فإن جنوده لم يقتلوا إلا الرجال الذين يحملون السلاح بأيديهم. ولكن فظائع المذبحة كانت لا تزال قوية الأثر في ذهنه، ولذا لم تبد من جانبه أية رحمة في المعركة، ومن ثم لا تفتأ ذكراه يتقد لهيبها في أذهان الإرلنديين، الذين يطول تذكرهم لما يصيبهم من النوازل.

وبعد إرلندة، جاء دور اسكتلندة، حيث مزق كرومويل جيشًا ملكيا في معركة دنبار (١٦٥٠).

ثم صرف انتباهه إلى هولندة، وهي القطر الذي نهز في حماقة فرصة الانقسامات بين الإنجليز واتخذها ذريعة لإيقاع الأذى بهم كمنافسين له في التجارة. وكان الهولنديون آنذاك سادة البحر، فكان قتال الأسطول الإنجليزي من ثم غير مضمون العاقبة. ولكن حدث بعد سلسلة من الحروب البحرية العنيدة أن طرد الهولنديون من البحار البريطانية، وحل الإنجليز محلهم بوصفهم الدولة البحرية العظمى. وأصبح حتما مقررا على السفائن الهولندية والفرنسية أن تخفض لها راياتها. وذهب أسطول إنجليزي إلى البحر الأبيض، وكان أول قوة بحرية إنجليزية دخلت تلك المياه؛ فأصلحت كثيرا من الحيف الواقع على أرباب السفن الإنجليز من توسكاني ومالطة، وأطلقت قنابلها على وكر القرصان التونسي وحطمت أسطول القراصنة – الذي تعود في أيام شارل وتراخيه أن يصل حتى شواطئ كورنوال وديفون ليقطع الطريق على السفن ويحمل الرقيق إلى إفريقية.

وتدخلت كذلك ذراع إنجلترة القوية لمساعدة البروتستانت في جنوب فرنسا، وكان دوق سافوي يطاردهم ويفتك بهم. ثم وجدت كل من فرنسا والسويد والدانمارك أن من الحكمة أن يتغلبن على نفورهن الأول من "قتل العاهل" فتحالفن مع إنجلترة. ونشبت الحرب مع إسبانيا، ودمر الأميرال الإنجليزي العظيم

بليك أسطول المعادن [1] الإسباني في تناريف في إقدام وجرأة لا يكاد يصدقها عقل. فإنه هاجم البطاريـات البرية. فكان بذلك أول رجل "جعل السفن تخدش كبرياء قلاع الشواطئ". (ومات فـي ١٦٥٧، ودفـن ديـر وستمنستر، ولكن نبشت عظامه بعد عودة الملكية بأمر من شارل الثاني، ونقلت إلى كنيسة القديس مارجريت بوستمنستر). تلك هي الصورة التي نقشتها إنجلترة لنفسها أمام عين العالم أثناء أيامها الجمهورية الوجيزة.

وفي اليوم الثالث من سبتمبر (١٦٥٨) توفي كرومويل أثناء عاصفة هوجاء لم يفتها أن تبلغ من نفوس أصحاب الخرافات كل مبلغ. وما كادت يده القوية تجمد عن الحركة، حتى تخاذلت بريطانيا عن تلك المحاولة السابقة لأوانها لتحقيق إنشاء دولة تقوى قوامها الأحرار من الرجال؛ ففي (١٦٦٠) رحب الناس في إنجلتـرة بعودة شارل الثاني ابن شارل "الشهيد" بكل مظاهر حفاوة الولاء الشخصي المحببة إلـى قلـوب الإنجليـز، وتراجعت البلاد عن كفايتها العسكرية والبحرية كأنها النائم إذ يستيقظ ويتمطى ويتثاءب بعد حلم عنيف حاد. قُضي على البيوريتان (المتطهرين) وانتهى أمرهم. وعادت إنجلترة المرحة سيرتها الأولى، وفـي (١٦٦٧) دخلت سفن الهولنديين – وقد عادت إليهم سيادة البحر ثانية – في نهـر التـاميز حتـى وصـلت جرافزنـد Gravesend وأحرقت أسطولاً إنجليزيا في الميدواي [2].

يقول ببيس في يومياته: "وفي الليلة التي أحرق فيها الهولنديون سفننا، تعشى الملك فعلاً مـع مـولاتي الليدي كاستيل مين، وهناك جن جنونهم وهم يطاردون فراشة مسكينة".

وتناول شارل منذ ساعة عودته (١٦٦٠)، زمام شئون الدولة الخارجية بين يديـه، و (١٦٧٠) عقـد محالفة سرية مع لويس الرابع عشر الفرنسي، تعهد فيها أن يجعل السياسة الإنجليزية الخارجية تابعة تمامـا لسياسة فرنسا مقابل جعل سنوي مقداره مئة ألف جنيه. وكانت دنكرك التي سبق أن استولى عليها كرومويل قد بيعت قبل ذلك إلى فرنسا. وكان الملك رياضيا عظيما، وله الولع الإنجليزي الـصحيح بمـشاهدة سـباق الخيل، ولعل أبلغ آثاره في الدلالة على خصائصه حلبة السباق في نيوماركت.

وقد استطاع شارل بفضل فكاهته السهلة، الاحتفاظ مدى سني حياته بالعرش البريطاني، ولكنه وصـل إلى ذلك بالتزام الحيطة وخطة التفاهم والمسالمة، حتى إذا خلفه في (١٦٨٥) أخوه جيمس الثاني، الذي كـان كاثوليكيا مخلصا، وكان أغبى من أن يدرك التحديد الخفي الذي يحد من سلطة الملكية فـي إنجلتـرة، عـاد النزاع القديم بين البرلمان والملك إلى حدته الأولى.

ونصب جيمس نفسه لإرغام مملكته على العودة إلى الاتحاد الديني مع روما. وإذا به في ١٦٨٨ يتخذ طريق الهرب إلى فرنسا. على أن اللوردة الكبار والتجار والجنتلمانية كانوا في هذه المرة أحـرص مـن أن يسمحوا بأن يقذف بهم هذا التمرد على أيدي كولونيل برايد آخر أو كرومويل آخر. وكانوا استدعوا آنفًا ملكًا آخر هو وليم أمير أورانج ليحل محل الملك. وتم التغيير سريعا. ولم تحدث أية حرب أهلية – اللهم إلا فـي إرلندة – ولم تنطلق في البلاد أية قوة ثورية أكبر من هذه.

---

[1] المستعمل في نقل المعادن النفيسة المغتصبة من أمريكا. (المترجم)

[2] الميدواي: نهر صغير بإنجلترة يصب في نهر التاميز. (المترجم)

وليس هنا مجال البحث في دعوى وليم بالعرش، أو بالحري في ادعاء زوجته ماري به، فإن هذا موضوع فني بحت – كما يقولون - ولا كيف حكم وليم الثالث وماري، ولا كيف حدث بعد ذلك أن الملك الأرمل وليم حكم وحده ردحا من الزمان، ثم انتقل العرش إلى آن (١٧٠٢ – ١٧١٤) أخت ماري. ويلوح أن آن كانت تنظر بعين العطف إلى عودة الملك إلى أسرة استيوارت، ولكن اللوردة والعموم الذين كانوا عند ذاك المسيطرين على الشئون الإنجليزية، فضلوا أن يليهم ملك أقل كفاية. إذ كان في الإمكان أن يقام نوع من الادعاء على العرش لمنتخب هانوفر، الذي أصبح ملكًا على إنجلترة باسم جورج الأول (١٧١٤ – ١٧٢٧). كان ألمانيا قحا لا يعرف اللغة الإنجليزية، واجتاب معه إلى البلاط الإنجليزي حشدا من النساء الألمانيات والحشم الألمان؛ وبمقدمه حلت بالحياة العقلية في البلاد فترة خمود وركود وزال عنها الصقل، ولكن انعزال البلاط عن الحياة الإنجليزية كان أعظم ما يزكيه لدى كبار ملاك الأراضي وأصحاب المصالح التجارية، بل كان الميزة التي من أجلها خاصة استقدموه.

ودخلت إنجلترة مرحلة يسميها اللورد بيكونز فيلد باسم مرحلة "أوليجركية البندقية "[1]؛ وكانت ناصية السلطة العليا مستقرة بين يدي البرلمان الذي كان يسيطر عليه آنذاك مجلس اللوردة، وذلك لأن فن الرشوة ودراسة طرائق طبخ الانتخابات، اللذين رفعهما إلى درجة عالية السير روبرت والبول، سلبت مجلس العموم حريته وقوته الأصليتين. فإنه استخدم طرقًا خبيثة ماهرة قصرت الأصوات البرلمانية من الناخبين. فقد ترسل مدن قديمة تحوي نفرا قليلاً من السكان أو هي لا تحوي أحدا قط عضوا أو عضوين (فكان لمدينة ساروم القديمة ناخب واحد لا يقيم فيها، وليس بها أحد من السكان وينوب عنها مع ذلك نائبان)، على حين لم يكن أحد يمثل على الإطلاق بعض المراكز الجديدة الآهلة بالسكان. وأفضى الإصرار على وجوب امتلاك الأعضاء مؤهلا عقاريا ضخما، أن زادت ضيقًا على ضيق، الفرص المتاحة للعموم الذين يتكلمون بلسان العامة معبرين عن حاجات السوقة.

وعقب جورج الأول جورج الثاني (١٧٢٧ – ١٧٦٠) الشديد الشبه، وبموته أتيح لإنجلترة من جديد ملك مولود في إنجلترة، ويستطيع أن يتكلم الإنجليزية بدرجة من الجودة متوسطة وهو حفيده جورج الثالث. وسنحدثك في فصل تال عن محاولة هذا الملك استرداد بعض السلطات الملكية الكبرى.

ذلك موجز لقصة الكفاح الذي حدث بإنجلترة إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر بين العوامل الثلاثة الكبرى في مشكلة الدولة العصرية؛ أي بين التاج وأصحاب الأملاك الخاصة وتلك القوة المبهمة، التي لا تزال عمياء جاهلة، وهي قوة الناس العوام الخلّص. وهذا العامل الأخير لا يبدو حتى الآن إلا في اللحظات التي تهتز فيها البلاد اهتزازا أشد ما يكون عمقًا، ثم لا يلبث أن يعود إلى الأعماق. ولكن نهاية القصة تعد حتى ذلك الوقت نصرا تاما جدا لصاحب الأملاك الخاصة البريطاني على أحلام الحكم المطلق الميكيافللي وخططه. وأصبحت إنجلترة وعلى رأسها الأسرة الهانوفرية "جمهورية متوجة"، على حد تسمية جريدة التايمز لها في الآونة الأخيرة. فإنها صاغت طريقة جديدة للحكم، هي الحكم البرلماني، الذي يذكرنا من نواحي كثيرة

---

[1] الأوليجركية: هي حكومة هيئة صغيرة من الرجال تمسك زمام السلطة العليا بإحدى الدول. (المترجم).

بمجالس السناتو والجمعية الشعبية لدى الرومان، ولكنه حكم أرسخ قدما وأشد كفاية لاستخدامه طريقة التمثيل النيابي مهما يكن ذلك الاستخدام محدودا. وكان أن قُدر لجمعيتها في وستمنستر أن تصبح" أم البرلمانات" في كافة أقطار العالم.

وقد أمسك البرلمان الإنجليزي وما يزال ممسكًا حيال التاج بقسط وفير من العلاقة بين نـاظر القصر وبين الملوك الميروفنجيين. وهم يرون في الملك شخصا للرسميات غير مسئول، ورمزا حيا للنظام الملكي والإمبراطوري.

ولكن يظل الشيء الكثير من القوة كامنًا في تقاليد التاج وهيبته، وإن في اعتلاء الملوك الهانوفريين المسمين بجورج، ووليم الرابع (١٨٣٠)، وفيكتوريا (١٨٣٧)، وإدوارد السابع (١٩٠١) وجورج الخامس (١٩١٠) وإدوارد الثامن (١٩٣٦)، لأسلوبا يخالف تماما ملوك الميروفنجيين الضعفاء. فقد مارس هؤلاء الملوك جميعا على درجات متفاوتة في شئون الكنيسة، والهيئات العسكرية والبحرية، والسياسة الخارجية، نفوذًا لم يقلل من شأنه كونه غير ذي حدود تحدده.

٤- انقسام ألمانيا واضطرابها

لم يجلب انهيار الفكرة القائلة بمسيحية موحدة، في أي قطر من أقطار أوربا، عواقب أوخم مما جـره على ألمانيا، وطبيعي أن يتبادر إلى ظن الإنسان أن الإمبراطور، وقد كان ألماني الأرومة، فـي كـل حالـة الأسرات الأولى وحالة آل هابسبرج، كان لا بد أن يتطور به الأمر حتى يصبح المليك القومي في دولة تتكلم الألمانية. على أنه كان مما جلبته المصادفة من نكد الطالع على ألمانيا، أن لم يظل أباطرتها قط ألمانيين. فإن فردريك الثاني آخر سلالة آل هوهنشتاوفن، كان كما رأينا، صقليا نصف مستشرق. وأصـبح آل هابـسبرج بالمصاهرة والميل، ممثلين في شخص شارل الخامس، بورغنديي الروح بادئ ذي بدء، ثم إسبانييها. وبعـد موت شارل الخامس أخذ أخوه فردريناند النمسا والإمبراطورية، وأخذ ابنه فيليب الثاني إسبانيا والأراضـي المنخفضة وجنوبي إيطاليا. ولكن السلالة النمسوية، كانت كاثوليكية عنيدة في كثلكتها، ممسكة بزمام معظـم ميراثها على الحدود الشرقية متورطة لذلك أعمق التورط في الشئون الهنوغارية ودافعةً الجزية للأتراك شأن فرديناند وخليفته، لذا لم تحتفظ لنفسها بأي سلطان على شئون الألمان الشماليين بما فيهم مـن نزعـة إلـى البروتستانتية، وأواصر بلطيقية واتجاه نحو الغرب، وجهلهم بالخطر التركي أو عدم اهتمامهم به.

وما كان أصحاب السلطان من الأمراء والدوقة والمنتخبين والأساقفة الأمراء وأشباههم، الـذين كانـت أملاكهم تقطّع أوصال ألمانيا في القرون الوسطى إلى مرقّعة تكد البصر بأجزائها الممزقة، - بمعادلين فـي الحقيقة لملوك إنجلترة وفرنسا بل كانوا على التقريب في مستوى كبار أصـحاب الأراضـي مـن الـدوقات والنبلاء بفرنسا وإنجلترة. ولم يكن فيهم واحد حتى (١٧٠١) يحمل لقب "ملك"؛ وكان الكثير مـن ممتلكـاتهم أضأل في الحجم والقيمة من الأملاك الكبيرة التي يملكها بعض النبلاء البريطانيين. وكـان مجلـس الـدايت الألماني شبيها بمجلس الطبقات (States Genseral) أو مثيلاً لبرلمان ليس فيه نواب منتخبـون. حتـى إن الحرب الأهلية العظيمة التي شبت للفور في ألمانيا، وهي حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ – ٤٨)، كانـت فـي جوهرها أوثق قربى وشبها بالحرب الأهلية في إنجلترة (١٦٤٣ – ٤٩)، وبحرب الفرونـد (١٦٤٨ – ٥٥)، (وهي عصبة النبلاء الإقطاعيين ضد الملوك في فرنسا)، - مما يبدو على ظاهرها لأول وهلة.

وفي كل هاته الحالات كان التاج إما كاثوليكيا أو نزاعا إلى الكثلكة، ووجد الأمراء المعاندون أن ميلهم الفردي، ينزع بهم نحو نزعة بروتستانتية. ولكن على حين حدث في إنجلترة وهولندة أن النبلاء البروتستانت والتجار الأغنياء فازوا في النهاية فوزا مبينًا، وكان نجاح التاج في فرنسا أكمل وأوفى، فإن الإمبراطور فـي ألمانيا لم يبلغ من القوة والسيادة مبلغًا كافيا، ولا كان لدى الأمراء البروتستانت من الوحـدة والتنظـيم فيمـا بينهم، ما يكفل لأحد الطرفين نصرا نهائيا. وانتهت الحال هناك بتمزق أوصال ألمانيا.

ومما زاد الكفاح الألماني تعقيدا اشتباك شعوب غير ألمانية منوعة فيه، وهي: البوهيميون والسويديون (الذين كانت لهم ملكية بروتستانتية جديدة نشأت تحت جوستافوس فازا كنتيجة مباشرة للإصـلاح الـديني). وأخيرا تدخلت الملكية الفرنسية، وقد انتصرت نهائيا على نبلائها، فعضدت البروتستانت وإن كانت كاثوليكية، رامية بذلك إلى غاية واضحة هي الحلول محل آل هابسبرج في رياسة الإمبراطورية.

وقد ترتب على طول أمد الحرب، وعدم جريانها على امتداد جبهة محددة، لتناثرها في كل أرجاء إمبراطورية قوامها الرقاع: فمن بروتستانت هنا وكاثوليك هنالك – أن تحولت إلى حرب من أقسى الحروب وأشدها تدميرا، حرب لم تشهد أوربا لها مثيلاً منذ أيام الغارات الهمجية. وليس يقوم شرها الخاص في القتال، بل فيما يلازم القتال من ويلات. فإنها حدثت في زمن تطور فيه التاكتيك العسكري إلى حد جعل المجندين العاديين غير ذوي غناء حيال المشاة المحترفين المدربين. فإن إطلاق الجماعات النار دفعة واحدة من القرابينات إلى مبعدة بضع عشرات من الياردات قضى على الفارس الفرد ذي الدروع السابغات، بيد أن هجمات جموع الفرسان المنظمة كانت لا تزال تستطيع أن تشتت شمل أي مشاة، لم تصل في تدريبها إلى درجة كافية من الصلابة الآلية. فإن المشاة بقرابيناتهم التي لا بد من حشو أنابيبها بين لحظة وأخرى لم تكن لتستطيع أن تقيم من النار سياجا متواصلاً يفي بتشتيت فرسان ذوي عزم وصرامة قبل وصول هجمتهم إلى هدفها وإنزالهم ضربتهم. ومن ثم كان لزاما عليهم أن يقابلوا الصدمة وقوفًا أو راكعين خلف جدار براق من الخوازيق أو السونكيات. وكان لا بد لهم في هذا من تنظيم عظيم وخبرة كبيرة؛ وكانت المدافع الحديدية لا تزال صغيرة الحجم كما لم تكن وفيرة العدد جدا، ولم تكن تقوم حتى آنذاك بدور حاسم في الحرب. نعم إنها كانت تستطيع أن "تشق خطوطًا" في صفوف المشاة، ولكنها لم تكن لتستطيع في سهولة أن تحطمها وتبددها، إن هي كانت قوية العزم جيدة التدريب.

وكانت الحرب في مثل تلك الظروف موكولة تماما إلى جنود مدربين محترفين، وكانت مسألة أعطياتهم أمرا يعادل في أهميته لدى قواد ذلك الزمان أهمية مسألة الميرة والذخيرة. وبينما الكفاح الطويل يجر قدميه جرا من طور إلى طور، وتتفاقم معه محنة البلاد المالية؛ كان قواد كلّ من الجانبين مضطرين أن يرجعوا بالانتهاب على المدن والقرى، رغبة في أخذ المؤن والتعويض عن متأخرات أعطيات جنودهم. ومن ثم أخذ جندهم يتحولون رويدا رويدا إلى مجرد مناسر تعيش على حساب البلاد نهبا واستلابا، وأوجدت حرب الثلاثين سنة تقاليد من الانتهاب والسلب بوصفهما عملية قانونية في الحرب ومن انتهاك الحرمات بوصفه امتيازا للجندي، وهي تقاليد لوثت سمعة ألمانيا الطيبة حتى الحرب العظمى (١٩١٤).

إن الفصول الأولى من كتاب "مذكرات فارس Memoirs of a Cavalier" تأليف "دانيال ديفو"، بما حوت من وصف رائع لمذبحة ماجدبورج وحريقها، لتعير القارئ فكرة عن طريقة الحروب في ذلك الزمان، أحسن جدا من أي كتاب رسمي في علم التاريخ. إذ بلغت البلاد من الخراب حدا حمل الفلاحين على الكف عن الزراعة، وكان ما يستطاع حصده من المحصولات السريعة غير المنتظمة يخفى فور جمعه، وأصبحت جماهير غفيرة من النساء الطاويات والأطفال الجائعين ممن يتتبعون معسكرات الجيوش، حاشية من اللصوص إلى جانب الناهبين الأشد خشونة وشراسة. فما إن انتهى الكفاح حتى كانت كل ألمانيا قد أمست خرابا بيانًا. ولم تتخلص أوربا الوسطى تخلصا تاما من هذه السرقات والمفاسد المدمرة إلا بعد قرن من الزمان.

ولن يسعنا ها هنا إلا أن نذكر اسمى تللي (Tille) ووالنشتين (Wallenstein) قائدي النهب الكبيرين في جانب أسرة هابسبرج، وجوستاف أدولف ملك السويد أسد الشمال ونصير البروتستانت الذي كان يحلم بأن يجعل من بحر البلطيق "بحيرة سويدية". ولكن جوستاف أدولف قتل ساعة نصره الحاسم على والنشتين فـي لوتز (١٦٣٢)؛ وقتل والنشتين في (١٦٣٤).

وفي (١٦٤٨) اجتمع الأمراء والسياسييون بين ظهراني ذلك الدمار الذي حاكته أيديهم، اجتمعوا لترقيع شئون أوربا الوسطى في صلح وستفاليا. وبهذا الصلح استحالت قوة الإمبراطور إلى شبح أو خيال، وترتـب على استلحاق للألزاس أن وصلت إلى نهر الراين. وأصبح في حوزة أمير ألماني هو منتخب براندنبرج سليل آل هوهنزلرن قدر عظيم من الأراضي جعل بين يديه أعظم قوة ألمانية تلي قوة الإمبراطـور، وهـي قـوة سرعان ما أصبحت (١٧٠١)، مملكة بروسيا.

واعترفت معاهدة وستفاليا أيضا بحقيقتين مقررتين من زمان مديد، وهما الانفصال عن الإمبراطوريـة والاستقلال التام لكل من هولندة وسويسرة.

٥- أبهة الملكية العظمى في أوربا

افتتحنا هذا الفصل بقصتي قطرين، هما الأراضي المنخفضة وبريطانيا، اللتين نجحت فيهما مقاومة المواطن الخاص لهذا الطراز الجديد من الملكية، وهي الملكية الميكيافللية، التي أخذت تنشأ عن انهيار المسيحية الخلقي. ولكن الملكية الفردية في فرنسا والروسيا وفي كثير من أنحاء ألمانيا وإيطاليا- في سكسونيا وتوسكاني مثلاً لم تُصد وتقهر على مثل تلك الدرجة. بل الواقع أنها وطدت نفسها بوصفها النظام الأوربي السائد أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر. بل لقد كانت الملكية في هولندة وبريطانيا آخذة بأسباب استرجاع قوتها أثناء القرن الثامن عشر. (فأما بولندة فلها ظروف خاصة، وإنا لمعالجوها في فصل تال).

ولم يكن ثمة "عهد أعظم" (ماجناكارتا) في فرنسا، ولا كان للحكم البرلماني بها مثل تلك التقاليد المحددة الفعالة. أجل كان هناك نفس تعارض المصالح بين التاج من ناحية وبين أصحاب الأراضي والتجار من ناحية أخرى، ولكن هؤلاء لم يكن لهم متجمع (أي مكان اجتماع) معترف به، ولا كان لهم أسلوب للوحدة كريم. لقد شكلوا المعارضة للتاج ألوانًا، وأنشئوا عصبا للمقاومة، - كذلك شأن "الفروند [1]"، الذين كانوا يكافحون الملك الشاب لويس الرابع عشر ووزيره العظيم مازارين، على حين كان شارل الأول يقاتل لاستنقاذ حياته في إنجلترة – ولكن الأمر انتهى في (١٦٥٢) بأنهم هزموا هزيمة نهائية بعد حرب أهلية. وعلى حين حدث في إنجلترة بعد تأسيس بيت هانوفر أن مجلس اللوردة وتابعه مجلس العموم صارا يحكمان البلاد، فإن البلاط في فرنسا على العكس من ذلك كان بعد (١٦٥٢) هو صاحب السيطرة التامة على الأرستقراطية. وكان الكردينال مازارين نفسه يبني على أسس مهدها له الكاردينال ريشيليو معاصر جيمس الأول ملك إنجلترة.

ولسنا نسمع بعد زمان مازارين بأي نبيل فرنسي عظيم إلا أن يكونوا في البلاط حشما للملك وموظفين. ذلك أنهم شروا وروضوا – ولكن بثمن، والثمن هو إلقاء عبء الضرائب على جماهير العامة التي لا صوت لها. فكان كل من رجال الدين والنبلاء، بل وفي الواقع كل إنسان يحمل لقبا – معفين من كثير من الضرائب. وأصبح هذا الظلم في النهاية أمرا لا يطاق، ولكن الملكية الفرنسية ازدهرت ردحا من الزمان ازدهار شجرة الغار الخضراء في المزامير. وإنك لترى الكتاب الإنجليزي عند مفتتح القرن الثامن عشر، وقد أخذوا يستلفتون الأنظار إلى بؤس الطبقات الدنيا الفرنسية وإلى ما يستمتع به الفقراء الإنجليز، في نفس ذلك الزمان، من رخاء نسبي.

على مثل هذه الأوضاع الآثمة أقامت ما عسانا أن نسميها "الملكية العظمى" الفرنسية أسسها. فحكم لويس الرابع عشر الملقب بالعاهل الأعظم زمانًا لا نظير له في الطول هو اثنتان وسبعون سنة (١٦٤٣ – ١٧١٥)، وأقام من نفسه نموذجا يحتذيه كل ملوك أوربا. وكان يقوده بادئ الرأي وزيره الميكيافللي الكردينال مازارين. وبعد وفاة الكردينال أصبح هو نفسه بشخصه ونصه وفصه "الأمير" المثالي. وكان – داخل حدود

---

[1] وحروب الفروند: هي الحروب الأهلية الفرنسية (١٦٤٨ – ٥٣) وتقع في مرحلتين: محاولة برلمان باريس في (١٦٤٨ – ٤٩) تحديد سلطات الملكية وثورة كبار النبلاء برئاسة كونديه على حكم مازارين في (١٦٥٠ – ٥٣) (المترجم)

عطنه الضيق – ملكًا ذا كفاية استثنائية؛ وكان طموحه أقوى من شهواته الدنيا، فجر على بلاده الإفلاس بما انتهج من معقدات سياسية خارجية شديدة النشاط أظهر فيها وقارا محكما ما يزال يستدعي إعجابنا. وكان أول ما يخالجه من رغبة أن يربط أجزاء فرنسا بعضها ببعض وأن يمد حدودها إلى نهر الراين وجبال البرانس، وأن يتمثل الأراضي المنخفضة الإسبانية؛ وكانت أحلامه البعيدة ترى في ملوك فرنسا خلفاء محتملين لشرلمان في دولة رومانية مقدسة يعاد سكها.

واتخذ من الرشوة وسيلة للدولة تكاد تكون أعظم أهمية من الحرب. وكان شارل الثاني ملك إنجلترة يتناول منه الأعطيات المالية، وكذلك كان شأن معظم النبلاء البولنديين، الذين سنصفهم من فورنا. وكانت نقوده أو بالحري نقود الطبقات الدافعة للضرائب في فرنسا تذهب كل مذهب. ولكن البذخ كان شغله الشاغل. فكان قصره العظيم في فرساي بقاعاته (صالوناته) ودهاليزه ومراياه وشرفاته ونافوراته وجناته ومنظراته، موضع غبطة العالم أجمع وإعجابه.

لقد حفز الجميع إلى محاكاته. فإن كل ملك أو أمير صغير في أوربا كان يبني لنفسه قصر فرسايه الخاص متجاوزا موارده المالية بالقدر الذي يسمح به رعاياه ودائنوه. وكان النبلاء في كل مكان يعيدون بناء قصورهم أو يوسعونها وفق النموذج الجديد. وتطورت صناعة الأقمشة والأثاثات الجميلة المحكمة الصنع وعظم شأنها وازدهرت فنون الترف في كل مكان، فثمة تماثيل من الرخام المجزع، والقاشاني[١] (Faience) وأشغال الخشب المذهب، وأشغال المعادن والجلد المضغوط بالنقوش البارزة، وموسيقى كثيرة وتصوير فاخر، وطباعة جميلة وتجليد مونق وطباخة ممتازة وخمور بديعة. وكان يسير بين المرايا والأثاث البديع جنس عجيب من السادة في شعور مستعارة ضخمة مذرورة بالمساحيق، وحرائر ومخرمات وهم يتمايلون على أعقاب عالية حمراء، ويتوكئون على عصي باهرة!! هذا إلى سيدات أكثر إدهاشًا وإعجابا، تحت أبراج من الشعور المغطاة بالمساحيق وفي ثياب لها متسعات عظيمة من الحرير والساتان تحملها الأسلاك. وكان يتجلى وسط ذلك كله لويس العظيم، شمس عالمه، غير شاعر بالوجوه الهزيلة المتجهمة المريرة التي كانت ترقبه من تلك الظلمات الدنيا التي لم تخترق حجبها شمس ضيائه.

وليس هذا مجال التفصيل في قصة حروب ذلك الملك وأعماله. وما يزال كتاب فولتير المسمى "عصر لويس الرابع عشر" أحسن ما كتب عنه وأصحه من وجوه كثيرة. أنشأ الملك بحرية فرنسية كفئًا لمقاتلة الإنجليز والهولنديين. وهو عمل يعد مأثرة عظيمة القدر. ولكن نظرا لأن ذكاءه لم يسم قط عن سحر مغريات ذلك السراب الخادع، أو تلك اللوثة التي أصابت العقلية السياسية في أوربا، وأعني به الحلم بقيام "إمبراطورية رومانية مقدسة" تشمل العالم طرا، فإنه تحول في سنواته الأخيرة إلى استرضاء البابوية، التي كانت حتى ذلك الحين معادية له. ونصب نفسه حربا على روح الاستقلال والانفصال، الممثلة في الأمراء البروتستانت، وأشعل نار الحرب على البروتستانتية في فرنسا. فأبِقت إلى خارج البلاد فرارا من اضطهاداته الدينية جماعات وفيرة العدد من خيرة رعاياه اعتدالاً وأعظمهم قيمة، حاملين معهم فنونًا وصناعات. فإن صناعة

[١] القاشاني: هو ضرب من الخزف الممتاز مطلي بطبقة صقيلة من الطلاء الملون. (المترجم)

الحرير الإنجليزية مثلاً، قام بتأسيسها البروتستانت الفرنسيون. ونفـذت إبـان حكمـه عمليـة "الـدراجوناد Dragonnades" وهي طريقة للاضطهاد شريرة فعالة بوجه خاص. فكان بعض الجنود الأجلاف ينزلون في منازل البروتستانت، ويباح لهم أن يفسدوا نظام حياة مضيفيهم وأن يهينوا نساءهم على الشاكلة التي ترضيهم. وخضع لهذا النوع من الضغط، كثير من الرجال ممن لم يكونوا ليخضعوا للنار والعذراء، خالعة العظام.

وانقطع تعليم الجيل التالي من البروتستانت، وكان الآباء بين أن يعلموا أولادهم تعليما كاثوليكيـا أو لا يعلمونهم البتة. ولا يداخلنك شك أنهم كانوا يعطونهم ذلك التعليم، ولكن في سخر ونغمة صوت تذهب بكل ثقة فيه. وبينما الأقطار الأكثر تسامحا أصبحت في معظم أمرها مخلصة في عقيدتها الكاثوليكية أو البروتستانتية فإن الأقطار التي أنزلت الاضطهاد برعاياها أمثال فرنسا وإسبانيا وإيطاليا، بلغ من قتلها للتعليم البروتستانتي الشريف، أن أصبح هؤلاء الناس في جل شأنهم مجرد كاثوليك معتنقين للكثلكة أو كاثوليك ملحدين، مستعدين للانتقال إلى الإلحاد الغفل المطلق ما سنحت لهم الفرصة لذلك. وكان العهد التالي أي عهد لـويس الخـامس عشر هو عصر ذلك الساخر الرفيع فولتير (١٦٩٤ – ١٧٧٨)، وهو عصر كان فيه كل إنسان في الجماعـة الفرنسية مطابقًا للكنيسة الكاثوليكية ومتمشيا معها، على حين لا يكاد يكون فيهم واحد يؤمن بها.

وكان من مقومات الملكية العظمى – بل من مقوماتها الفائقة الممتازة – أن تنتصر الآداب والعلوم. فأقام لويس الرابع عشر أكاديمية للعلوم منافسا بها الجمعية الملكية الإنجليزية التي أنشأها شارل الثـاني ومثيلتهـا جمعية فلورنسا. وقد زين بلاطه بالشعراء وكتاب المسرحيات والفلاسفة ورجال العلم. ولئن خرجت الطريقة من هذه الرعاية بالشيء القليل من الإلهام، فإنها حصلت على كل حال على موارد مالية تعينها على التجريب والنشر مع قدر خاص من الهيبة في أعين السوقة.

وكانت الجهود الأدبية في كل من فرنسا وإنجلترة، منوالا تقيس على مثاله معظم الجهود الأدبية أثنـاء تلك الفترة، فترة الملوك الأعظمين ما بين صغير وكبير، وفترة البيوتات الريفية الكبيرة والمنشئات التجاريـة النامية. وكانت ظروف الأحوال بفرنسا أكثر اعتمادا على الملكية منها بإنجلترة، وأشد تمركزا واتساقًا. وكان الكتاب الفرنسيون تعوزهم التقاليد العظيمة التي تهيأت لمثل تلك الروح الحرة غير المنظمة – روح شكـسبير – إذ كانت الحياة الذهنية للفرنسية تتركز حول البلاط، وكانت أشد من الإنجليزية إحـساسا بالـضبط وكـبح الجماح. وهي لم تنتج أبدا أدباء من "العامة" أبناء الشعب أمثال "بنيان Bunyan" الإنجليزي، ولم يكـن فـي متناول أيديها في القرن السابع عشر مثل ذلك السراح المطلق لروح التمرد والانشقاق الـذي قامـت عليـه الجمهورية والذي يطلق عقال رجل مثل ملتون. وكانت نزعتها أميل إلى مراعاة الصحة والقيود، وكانت أتم خضوعا لنفوذ معلمي المدارس والنقاد المتمسكين بالقواعد. وكانت تخضع المادة للأسـلوب. فكـأن تنظـيم الأكاديمية لم يزد قيودها المفرطة إلا تشديدا. وترتب على تلك الفروق، أن تشبع الأدب الفرنسي السابق على القرن التاسع عشر بالوعي الذاتي الأدبي، وكأني به قد كتب بروح طالب ماهر يخشى الدرجات الرديئة، أكثر منه بروح رجل ينشد التعبير الصريح. فإنه أدب قوامه الدرر اليتيمـة والمآسـي والمهـازل (التراجيـديات

والكوميديات) وقصص الرومانس [1] والمباحث النقدية وكلها باردة صحيحة مطابقة للأصول، جوفاء خالية من الحيوية بشكل خارق للعادة. وممن برزوا بين ممارسي "الصحة" في الدراما، كورني (Cornelle) (١٦٠٦ – ١٦٨٤) وراسين (١٦٣٩ – ١٦٩٩). وانتصر موليير (١٦٢٢ – ٧٣) كذلك على عصره بكوميديات يراها بعض الثقات خير ما ظهر في العالم. ويكاد العرق الوحيد من القراءة السهلة الناصعة اللذيذة الذي يبدو وسط الرياش العقلي الدمث الفاخر للملكية الفرنسية العظمى، أن يوجد في مذكرات ذلك الزمان المليئة بالقيل والقال والفضائح. فهناك هذه، وهناك تدوين بعض المساجلات القوية الاجتماعية والسياسية.

ومن أروع وأحسن ما سطر بالفرنسية أثناء ذلك الزمان ما قام به في خارج فرنسا فرنسيون منفيون ومتمردون. فإن ديكارت (١٥٩٦ – ١٦٥٠) أعظم الفلاسفة الفرنسيين عاش معظم حياته في ظلال أمن هولندة النسبي. وهو الشخصية المركزية المتسلطة بين مجموعة متألقة من العقول المتأملة وأهل النظر، نشطت في إعمال معول التقويض والتعديل والتحقير بمسيحية عصرهم المهذبة. وكان يعلو محلقًا فوق كل هؤلاء المبعدين، وفوق كل الكتاب المعاصرين الأوربيين شخص فولتير العظيم، الذي سنتكلم عن اتجاهاته الذهنية في فصل تال. وإن جان جاك روسو (١٧١٢ – ١٧٧٨) – وهو روح أخرى منبوذة – بما قام به من هجوم عاطفي على الأخلاق الشكلية واتخاذه العاطفي للطبيعة والحرية مثلا أعلى، ليقف مبرزا بوصفه الروائي الأعظم في عصره ووطنه. وسنزيد القراء عنه بيانًا.

وكان الأدب الإنجليزي في القرن السابع عشر مرآة تعكس سمة الشئون الإنجليزية الأقل قرارا وتمركزا، وكان به من العنفوان قدر أكبر ومن الصقل قدر أصغر مما للفرنسي. ولم يكن البلاط والعاصمة الإنجليزيان ابتلعا حياة البلاد القومية كما فعلت العاصمة والبلاط الفرنسيان. وربما أمكننا أن نضع مقابل ديكارت ومدرسته، باكون الذي سبق أن نبأناك عنه في بياننا عن النهضة العلمية، ثم هوبز ولوك. وكان ملتون (١٦٠٨ – ١٦٧٤)، يرتدي ثوبا مخاطًا من الدراسات الإغريقية واللاتينية، والثقافة الإيطالية واللاهوت البيوريتاني مع أبراد من المجد من نسج يديه. وكان هناك قدر جسيم من الأدب الحر خارج مجال النفوذ الكلاسيكي، ولعله وجد أشد خصائص تعبيره في كتاب بنيان "مسير الحاج Pilgrim's Progress " – (١٦٧٨). وواضح أيضا أن تواليف ديفو Defoe المبتكرة (١٦٥٩ – ١٧٣١) الذي لم ينل بعد قدره الحق من التقدير، موجهة إلى جمهور بريء من تهذيبات العالم الأكاديمي وادعاءاته. وإنما جاء مؤلفه روبنسون كروزو واحدا من أعظم مبتكرات الأدب. وكتابه "مول فلاندرز Moll Flanders" إنما هو دراسة للأخلاق تستدعي الإعجاب، وديفو هذا الكتاب وفيما كتبه في التطورات الخيالية للتاريخ، إنما يسبق كثيرا من الناحية الفنية كل معاصرية. ويكاد يكون على نفس مستواه، فيلدنج الحاكم اللندني ومؤلف "توم جونز". وكان صمويل ريتشاردسون بائع الأقمشة الذي كتب "باميلا وكلاريسا"، شخصية عظيمة ثالثة بين حقائق الأدب الإنجليزي الحية في القرن الثامن عشر؛ وهو الأدب الذي لم يعن بأن يكون أدبيا، وإلى هؤلاء الثلاثة جرت عادة النقاد أن يربطوا اسم "سموليت Smollett"، وهو أدنى كثرا. وبهذه الأسماء وباسم جان جاك روسو معها، تعود

---

[1] الرومانس: قصص الغزل والفروسية. (المترجم)

إلى الأهمية" الرواية" وهي البيان شبه الحقيقي عن طرائق العيش، وعن الضرب في أرجاء العـالم، وعـن الالتقاء بالمسائل الخلقية، وذلك بعد أن اختفت بتدهور الإمبراطورية الرومانية. وتؤذن عودتها بانطلاق سراح أنواع جديدة غير محدودة من الناس ميالة إلى الاستطلاع في شئون الحياة والخُلق، وهم أناس أوتوا شيئًا من وقت الفراغ، وأناس تواقون إلى تكميل تجربتهم الخاصة بقصص مغامرات من هم على شاكلتهم. ذلك بـأن الحياة أصبحت أقل وطأة وأكثر لذة.

وربما جاز لنا هنا قبل أن نختم هذه الحاشية الأدبية، أن نلحظ أيـضا مـا عليـه أديـسون (١٦٧٢ – ١٧١٩)، من خواء رشيق بوصفه شخصية لها أثرها في الأدب الإنجليزي، وما للدكتور صـويل جونـسون (١٧٠٩ – ١٧٨٤)، من رغبة في التعقيد يحبها الناس، وهو مصنف أول قاموس إنجليزي. ولا يكاد يـصلح للقراءة الآن من كتاباته الفعلية شيء اللهم إلا تراجم قليلة قصيرة للشعراء، بيد أن أمثاله وغرابة أطواره قـد بقيت لنا في الكتاب الذي ألفه بوزويل عن تاريخ حياته جونسون. فأما إسـكندر بـوب (١٦٨٨ – ١٧٤٤)، وكان كلاسيكي الاتجاه فرنسي الروح، فإنه ترجم هوميروس ثم تناول بعض المذاهب الدايستية [1] فحولها إلى شعر صقيل متقن. وصدرت أقوى كتابات هذا العصر، عصر الرجال المؤدبين غير الممتازين في إنجلتـرة شأنه في فرنسا، عن روح انغمست في نزاع عنيف مع النظام السائد، بل مع نظام العالم بأجمعه في الواقـع، وهو سويفت (١٦٦٧ – ١٧٤٥)، مؤلف رحلات جليفر. وهناك "لـورانس سـترن L. Sterne"، (١٧١٣ – ١٧٦٨)، وهو رجل الدين الذي تكاد تتصل باسمه شهرة السوء والذي كتب "تريسترام شاندي"، وعلم من تلاه من كتاب القصص مائة حيلة مبتكرة في فن الرواية. وقد استقى حيويته من عظمة الفرنسي رابليـه الـسابق على العهد الكلاسيكي. ولسوف نقتبس من جيبون المؤرخ في قسم تال، وعند ذاك نحدثك ثانية عن التحديدات العقلية العجيبة التي تغل ذلك العصر عصر الجنتلمانية.

ومات الملك الأعظم في ١٧١٥. وخلفه لويس الخامس عشر وهو ابن حفيده والمقلد غير الكفء لفخامة سلفه العظيم. اتخذ وضعة ملك وجلاله، ولكن الشهوة المتسلطة عليه كانت هي الشيء العادي الملازم لجنسنا البشري، وهي طراد النساء الذي يخفف منه خوف من جهنم يمتّ إلى الخرافات بسبب. فأما كيف أن نـساء من أمثال الدوقة شاتوروه ومدام دي باري تسلطن على ملذات الملك، وكيـف أن الحـروب كانـت تـشب والمحالفات تعقد وأن المقاطعات كان يعاث فيها فسادا، وآلافًا من الناس يقتلون بسبب غرور هاته المخلوقات وأحقادها، وكيف حدث أن كل الحياة العامة لفرنسا وأوربا تلوثت بالدسائس والبغاء والاحتيال بسببهن، فأمور ينبغي أن يعلمها القارئ من مذكرات ذلك الزمان. وصارت السياسة الخارجية الطمـوح فـي حكـم لـويس الخامس عشر بقدم ثابتة صوب تحطيمها النهائي.

---

[1] الفلسفة الدايستية أو الربوبية Deistic فلسفة مخالفة للمسيحية تؤمن بوجود الإله وتنكر الوحي. (المترجم)

وفي ١٧٧٤ مات هذا اللويس بمرض الجدري، لويس المحبوب جدا كما كان مملقوه يسمونه، وخلفه على العرش حفيده لويس السادس عشر (١٧٧٤ – ١٧٩٣)، وهو رجل غبي حسن النية، وصاحب طلقة نارية بديعة التسديد، وصانع أقفال هاو على شيء من المهارة. فأما كيف أنه تبع شارل الأول إلى المقصلة فأمر سندلي به في قسم تال. إذ ينحصر كل اهتمامنا في الوقت الحاضر، في الملكية العظمى إبان مجدها.

وقد نستطيع أن نذكر من بين ممارسي الملكية العظمى خارج فرنسا الملوك البروسيين أولاً وهم فردريك وليم الأول (١٧١٣ – ١٧٤٠)، وابنه وخلفه فردريك الثاني وهو فردريك الأكبر (١٧٤٠ – ١٧٨٦). وقصة النهوض البطيء لأسرة هوهنزلرن، التي حكمت مملكة بروسيا، مبتدئة من بدايات مغمورة غير مبرزة، قصة مملة ليس يهمنا أن نتتبعها هنا. وهي قصة تجمع بين الحظ والعنف، والدعاوى الجريئة والخيانات المباغتة. ويسردها مع التقدير العظيم كتاب كارليل المسمى "فردريك الأكبر". حتى إذا وافى القرن الثامن عشر كانت المملكة البروسية قد بلغت من الأهمية حدا هددت معه الإمبراطورية؛ وكان لها جيش قوي حسن التدريب، وكان ملكها ممن أعطوا ميكيافللي حظًا كبيرا من التفاتهم وعنايتهم. وجعل فردريك من قصر بوتسدام فرسايا آخر بلغ به حد الكمال. إذ هناك بلغت جنات سان سوسي، بنافوراتها وشوارعها المزدانة بالأشجار وتماثيلها حد التقليد "القردي" لنموذجها الفرنسي؛ وكان هناك كذلك القصر الجديد وهو بناء هائل من الطوب أنفقت في تشييده أموال طائلة، وكذلك صوبة البرتقال (الأورانجري[1]) ذات الطراز الإيطالي وفيها مجموعة من الصور، وقصر من الرخام إلى غير ذلك. وسما فردريك بالثقافة إلى حد التأليف، كما أنه أخذ يراسل فولتير ويستضيفه حتى انتهى بهما الأمر إلى السآمة المتبادلة.

وكانت الإمبراطورية النمساوية مشغولة على الدوام ما بين مطرقة الفرنسيين وسندان الأتراك حتى إنها لم تستطع أن تطور نموذج الملك الأعظم الحقيقي إلى عهد ماريا تريزا (١٧٤٠ – ١٧٨٠) (التي لم تحمل لقب الإمبراطورة لأنها امرأة). وخلفها على قصورها في ١٧٨٠ جوزيف الثاني الذي تولى الإمبراطورية منذ (١٧٦٥ – ١٧٩٠).

وبظهور بطرس الأكبر انفصلت الإمبراطورية المسكوفية عن تقاليدها التتارية ودخلت إلى حيز الجاذبية الفرنسية. وحلق بطرس لحى نبلائه الشرقية وأدخل الثياب الغربية. ولم تكن هذه إلا الرموز الخارجية المرئية لميوله الغربية. ولكي يحرر نفسه من الشعور الآسيوي وتقاليد موسكو، التي لها – شأن بكين – مدينة جوانية مقدسة، هي "الكرملين Kremlin" بنى لنفسه عاصمة جديدة هي بتروجراد على مستنقع النيفا. وطبيعي أنه شاد لنفسه فرسايا أخرى هي قصر البيتر هوف على قرابة ثمانية عشر ميلا من باريس الجديدة هذه، مستخدما في ذلك مهندسا معماريا فرنسيا ومنشئًا شرفة (ترانسا) ونوافير ومساقط مائية وبهوا للصور وجنات وكل المظاهر المعترف بها. وكان من أبرز خلفائه إليزابيث (١٧٤١ – ١٧٦٢) وكاترين العظيمة، وهي أميرة ألمانية، عادت بعد الحصول على التاج بطريقة شرقية بحتة هي قتل زوجها، القيصر الشرعي، فانحرفت إلى مثل عليا غربية تقدمية وحكمت البلاد بقوة عظيمة من (١٧٦٢ إلى ١٧٩٦). فأقامت

---

[1] الأورانجري أو صوبة البرتقال (Orangery) مبنى من الزجاج يساعد بدفئه شجر البرتقال على النمو. (المترجم)

أكاديمية، وتراسلت مع فولتير. وعاشت حتى شهدت نهاية "الملكية العظمى" في أوربا وإعدام لويس السادس عشر.

ويضيق المقام عن مجرد تقديم قائمة بأسماء صغار "الملوك الأعظمين" في فلورنسا (توسكاني) وسافوي وساكسونيا والدانماركة والسويد. ولو راجعت كتاب دليل بيديكار [1] لشهدت في كل عاصمة فرسايا جديدا باسم جديد تقلد فرساي باريس، وإن السائح لتأخذه الدهشة أثناء مروره في تلك القصور لدقة التقليد. وكذلك يضيق المقام عن معالجة حرب الوراثة الإسبانية. فإن إسبانيا وقد أجهدتها فوق طاقتها مشروعات التوسع الإمبراطوري التي دبرها شارل الخامس وفيليب الثاني، وأضعفها ما أظهرته نحو البروتستانت والمسلمين واليهود من اضطهاد تعصبي، أخذت طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر تهبط عما أوتيت من أهمية موقوتة في الشئون الأوربية وتعود ثانية إلى مستوى دول الدرجة الثانية.

كان هؤلاء الملوك الأوروبيون يحكمون ممالكهم كما يحكم نبلاؤهم مزارعهم، كانوا يتآمرون بعضهم ببعض، وكانوا "سياسيين" "وبعيدي النظر" بطريقة أبعد ما تكون عن الواقع، وكانوا يخوضون الحروب ويبددون العصارة الحيوية لأوروبا في سياسات سخيفة من العدوان والمقاومة. وانتهى الأمر بأن انفجرت عليهم من الأعماق عاصفة هوجاء. وكانت تلك العاصفة هي الثورة الفرنسية الأولى، فإن غضب الرجل العامي في أوربا أخذ نظامهم بغتة وعلى حين غرة. ولم يكن ذلك إلا الانفجار الافتتاحي لدورة عظيمة من العواصف السياسية والاجتماعية لا تزال مستمرة، ولعلها ستستمر حتى يزول آخر أثر للملكية القومية النزعة ثم ينقشع الغمام وتنجلي السماوات ثانية على السلام الأعظم الذي سيظل اتحاد البشرية جمعاء.

---

[1] دليل بيديكار (Baedeker): كتاب يصدر بلغات أجنبية متعددة عن أهم أقطار العالم مبينًا أهم ما بها من المدن والآثار والمعالم (المترجم)

٦- الموسيقى في القرنين السابع عشر والثامن عشر

كان القرنان السابع عشر والثامن عشر فترة تقدم قوي في الموسيقى. إذ إن العوامل الفكرية الممهـدة لذلك كانت أحكمت، وتأسس الديوانان (السلمان) الموسيقيان الكبير والصغير بما لهمـا مـن تعاقـب ثابـت للنغمات، ومن قابلية للتكيف وفق التلحينات وبما يكمن فيهما من احتمالات اللون الهـارموني. فـصار فـي الإمكان تحديد القصد الموسيقي (Musical intention) تحديدا واضحا، وأن ينظم التعاون بين آلات متنوعة في دقة عظيمة. وكانت الأحوال الاجتماعية ما بين مدن نامية وبلاطات وبيوتات ريفية تضيف ميادين جديدة من الاحتمالات الموسيقية إلى المجال القديم المنحصر في جوقة المرتلين الكنسيين. وكانت الحفلات التنكريـة والمهرجانات قد انتشرت وأصبحت محبوبة من الشعب في القرن السادس عشر، فأتاحت أمام محكم الموسيقى فرصا جمة، وأصابت الأوبرات والأناشيد الدينية تقدما عظيما عند حلول القرن السابع عشر.

وظهرت في إيطاليا الموسيقى الجديدة (Nuove Musiche). يقول السير و. هـ. هـادو "إن لـولّي (١٦٣٥ – ١٦٣٥ – ١٦٨٧)، هو أعظم شخصية من الوجهة التاريخية، وما كان ذلك فقط من أجل ما حوته ألحانه من قوة درامية تمثيلية، بل لما تجلى في طريقة خطابه الدرامي من ضبط متسق". ويقف إلى جـواره الإيطالي مونتيفردي. ذلك أن الموسيقى شرعت تعمل على معيار كبير في تلك المدة.

"ودونت قداسات القرن السادس عشر لجوقات المرتلين بالكنيسة، وكتبت غزليات (مادريجالات) القرن السادس عشر ليستمتع بها جماعة من الخلان حول مائدة عشائهم، ولم يحدث إلا عند قريب مـن نهايتـه أن عازفي العود والفرجينال يشرعون في أن يتجهوا بأذهانهم إلى فكـرة الأسـتاذية [1] Virtuoso فـي الفـن التنفيذي... واجتلب التحسين العظيم في بناء الأرغن عددا متعاقبا من العازفين العظماء: منهم بـل وفيلـبس الإنجليزيان، وسويلنك الهولندي، وفرسكو بالدي في روما، وفروبرجر في فيينا، وبكستودي في لوبيك، وهـو الذي سعى إليه باخ ماشيا على قدميه لكي ينعم بسماعه... ويساير هذا كله التطـور الـذي لحـق موسـيقى الفرجينال [٢] ولا يقل عن ذلك في الأهمية وصول الكمان وعائلتها وتلكؤ الناس في قبولها. فإنها وإن رجعت إلى عهد تيفن بروخر وأسرة أماتي [٣] في النصف الأول من القرن السادس عشر، إلا أنها قضت زهاء مئـة عام تشق طريقها نحو القبول والرضا العام. ناهيك بأن ماس عازف العود كان في عصر يصل فـي تـأخره إلى ١٦٧٦ ما يزال مستطيعا أن يطعن في "الكمان الصارخة" – على حد تعبيره، وأن يأسف على نغم جدتها القيول Viol الأكثر هدوءا واستواءا. بيد أن نطاقها الأرحب، وخفة حركتها العظمى وقوة تعبيرهـا الأشـد وخزا وتأثيرا فرضت نفسها وأصبحت شيئًا ملموسا على طول المدى.. وبلغ من شأنها في إيطاليـا موطنهـا

[1] (Virtuoso): الأستاذ الماهر في الفنون الجميلة وخاصة الموسيقى. (المترجم)

[2] الفرجينال: آلة موسيقية صغيرة يلعب عليها بواسطة الدساتين (لوحة الأصابع). (المترجم)

[3] أسرة أماتي (Amatis): اسم عائلة من صناع إيطاليين للكمان وهم مؤسسو مدرسة الكمان الكريمونية. (المترجم)

الأصلي وإن حملوها في سماجة وعزفوا عليها في سماجة – أن اعترف لها الناس بأنها الآلة الوحيدة التي تستطيع أن تضارع الصوت الإنساني وتنافسه [1]".

ويقال إن التطور الموسيقي تأخر حينًا من الدهر بسبب التباهي بالصائت المغني والإعجاب به في الأوبرا الإيطالية، وكان لمغني القرن السابع عشر، وبخاصة أصحاب صوت السوبرانو من الذكران، صيت يقارب في سوقيته وشناعته ما لنجوم السينما العصريين، ومع هذا فإن تلك الفترة أظهرت موسيقى السادرو اسكرلاتي (١٦٥٩ – ١٧٢٥) الجميلة الوفيرة وهو البشير الممهد لموزار. وحدث في إنجلترة انفجار عظيم من النشاط الموسيقي بلغ أوجه في شخص بورسل (١٦٥٨ – ١٦٩٥) بعد فترة هدوء أثناء عصر الجمهورية. وفي ألمانيا أمدت البلاطات الصغيرة وجوقات المدن الشعب الألماني بقدر لا حصر له من مراكز الاستثارة الموسيقية، وولد في ١٦٨٥ بسكسونيا يوهان سباستيان باخ وهاندل، ليحملا الموسيقى الألمانية إلى سمت التفوق والاستعلاء الذي قدر لها أن تحافظ عليه طيلة قرن ونصف من الزمان، يقول السير و. هـ. هادو "إنهما بين جميع الملحنين قبل عصر فيينا أشداهم وأوثقاهم ارتباطًا بزماننا هذا وإن صوتيهما ليرنان في آذاننا بآلاف اللهجات وأدناها إلينا".

فأما بالسترينا الذي سجل لنفسه آنفًا ذروة في الموسيقى، فإنه بالمقايسة مخلوق يعيش في عالم آخر. إذ كان تاجا على مفرق أساتذة موسيقى جوقة المرتلين الكنسية قبل عهد الآلات العظيم. وجاءت بعقب أسماء باخ وهاندل مجموعة من أسماء أخرى. فإن هايدن (١٧٣٢ – ١٨٠٩)، وموزار (١٧٥٦ – ١٧٩١) وبيتهوفن (١٧٧٠ – ١٨٢٧) يقفون مبرزين بين أشد الكواكب تألقًا. ذلك أن الفيض العظيم للموسيقى العصرية كان ينثال آنذاك عميقًا جياشًا واسع الجنبات. وما يزال يهمي ويفيض. ولا يتسع المقام هنا إلا لذكر المؤلفين الموسيقيين ثم ندلي إليك بعد ذلك في فقرة موجزة أو ما إليها بتعميمات قليلة مركزة حول موسيقى القرن التاسع عشر وموسيقى أيامنا هذه. كانت هذه الموسيقى، موسيقى القرنين السابع والثامن عشر إبان صنعها امتيازا خاصا لعالم صغير مثقف – هو من في البلاطات من الناس، ومن في مدن المقاطعات والدور الريفية من أناس يستطيعون أن ينظموا حفلات عزف ومن من الناس في مدن تحوي لكبرها دور الأوبرا وحجرات العزف. وكان نصيب الفلاح والعامل من الموسيقى في أوربا الغربية قدرا مطرد التناقص إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر بينما كانت هذه الأشكال الجديدة آخذة في التطور. ذلك أن الغناء الشعبي تدلى واضمحل وبدت عليه مظاهر التعرض للنسيان. وكان كل ما تبقى للكافة من الناس من حياة موسيقية هو بضع أغان شعبية وبضع ترانيم. والراجح أن النهضات الدينية في تلك الأيام، مدينة بشيء من قوتها الدافعة إلى إطلاقها سراح الحافز الغنائي السجين. ولم يحدث إلا في أيامنا هذه مع ظهور تطور ضخم في الطرائق الآلية للإنتاج والنشر الموسيقي، أن الموسيقى وقد صبغت بالصباغ العصري وخالطها النشوء والارتقاء وارتفعت في علياء التسامي – تعود إلى غمار الحياة العادية. فأصبح من ثم باخ وبيتهوفن جزءا من ثقافة الجنس البشري العامة.

---

(1) انظر كتاب "Music" من تأليف السير و.ه. هادو.

٧- التصوير في القرن السابع عشر والثامن عشر

إن فني التصوير والعمارة في هذا الزمان شأن موسيقاه، مرآة تعكس الأحوال الاجتماعية فيه. وهو زمان تحطمت فيه الفكرات وتمزق السلطان، ولم تعد اعتبارات المظهر (Object) والروعة تسيطر على الفن التصويري. وقد نزلت الموضوعات الدينية إلى مرتبة ثانوية، فحيثما عالجها الناس عالجوها بوصفها أحداثًا صغيرة في قصة وليس بوصف كونها حقائق عظيمة هائلة. وتنحط أشكال الكنايات [1] والرمزيات. فإن المصور يصور من أجل الرؤية لا من أجل الفكرة ولا من أجل الحقيقة. وتحل صورة الحقيقة والواقع محل صورة الأبطال أو صور التبتل الديني على نفس الشاكلة التي تحل بها الرواية محل الملحمة والرومانس العجيبة الخيال. والأستاذان المتفوقان في تصوير القرن السابع عشر هما فيلا سكويز (١٥٩٩) – ١٦٦٠) ورامبرانت (١٦٠٦ – ١٦٦٩). إذ يخيل إلينا أن الحياة كانت في نظرهما متكافئة كلها لا تتفاوت إلا بمقدار ما تقدم إليهما من مجال ضاق أو رحب لتحقيق الجمال في الجو والنور والمادة. وكان فيلا سكويز يقوم في البلاط الإسباني المتدهور، برسم الباباوات والملوك دون تمليق، ورسم الأقزام والمقعدين دونما احتقار. ويخلي الرسم الدقيق التحليلي والتسجيلي (Documentary) مكانه في أشغال هذين الرجلين – وهما أول المصورين العصريين – لعملية إفراغ إجمالي للأثر، ولتركيز على وحدة الانطباعة وذلك على حساب كل الاعتبارات الثانوية. وكانت الصورة إلى ذلك العهد في حياة الماضي الشديدة لتمركز، إما شاهدا يشهد بشيء أوحتثاثًا على شيء أو تمليقًا لشخص أو حلية لمكان؛ فأما الآن فإنها أصبحت في عدد عظيم من الحالات، شيئًا في حد ذاته، شيئًا يوجد من أجل نفسه. فالصور تعلق بوصفها صورا وتجمع في معارض للصور. وتطورت المناظر الطبيعية (Landscape) تطورا قويا، كذلك تصوير مناظر الحياة العادية (Genre) [2]. وصارت الصور العارية (Nude) تنقش في شكل لطيف مثير؛ وفي فرنسا أبهج كل من واتوه وفراجونار وغيرهما طبقة الخاصة وتملقوهم بلمسة من التقديس الرقيق لحقائق الحياة الريفية. وإن الإنسان ليدرك في هذه الأشياء شواهد تنم عن مجتمع نامٍ مكون من أناس آمنين موفقين ذوي أرواح جد ممتازة، يقدرون الحياة وينفصلون شيئًا ما عن مباذخها وآلامها جميعا.

ولم يبد عصر إليزابيث في إنجلترة أي تحمس في فنون التشكيل يطاول جهوده الأدبية والموسيقية. فهي إنما كانت تستورد مصوريها ومعمارييها. بيد أنه حدث في القرنين السابع عشر والثامن عشر، أن خلقت الثروة المتجمعة والرخاء المتكاثف اللذان أصابتهما تلك الدولة التي كانت حتى حين قطرا على هامش المدنية الغربية – أحوالاً تواتم ازدهار المجهود الفني، حتى إذا وافى القرن الثامن عشر كان أمثال رينولدز (١٧٢٣

---

[1] الكنايات :(Allegory): ضرب من التصوير المجازي أو الرمزي يرمي إلى موقف له ظل من الحقيقة ومع ذلك فهو موضوع في عالم الخيال. (المترجم)

[2] الجنر (Genre): هو لفظ يطلق في النقش والتصوير على الصور التي تصور الحياة العادية من أمثال المناظر المنزلية أو الريفية أو القروية. (المترجم)

– ١٧٩٢)، وجينزبورو (١٧٢٧ – ١٧٨٨) ورومي من المصورين الإنجليـز يـستطيعون أن يطـاولوا أي مجهود معاصر.

وكانت هذه الفترة، فترة الملكيات وطبقة الخاصة، موائمة أيضا أعظم المواءمة لتطور طرز معينة من العمارة. ذلك أن عمليات ناشطة من قبل في القرن السادس عشر، كانت لا تزال تعمل عند ذاك بقوة متزايدة. وكان الملوك في كل مكان يبنون القصور ويعيدونها بناء، وكان النبلاء والأعيان يهدمون قلاعهم ويـشيدونها منازل أنيقة. فأما منازل المدن فقد شرع فن العمارة في التفكير فيها على معيار أكبر. فأمـا فـن العمـارة الكنسي فإنه ذوى. وأضحى مجهود البلديات أقل أهمية نسبيا، والواقع أن المثرى الكبير الفـرد، إنمـا هـو القابض بيده على مفتاح الابتكار في ذلك العصر في هذا الشأن وفي غيره من الشئون. وأتاح احتـراق قـسم عظيم من لندن في الحريق الكبير (١٦٦٦)، لإنجلترة نهزة خاصة أتيحت للسير كرستوفررن، وإن كاتدرائية سانت بول وكنائس لندن، لتسجل دورا بالغًا الأوج في العمارة الإنجليزية. وكان له الفضل علـى أمريكـا إذ أرسل إليها تصميمات لبيوت ريفية منوعة شيدت هناك، كما أن عبقريته الخاصة طبعـت أثرهـا فـي فـن التصميم الأمريكي الباكر. وكان إينيجو جونز شخصية عظيمة ثانية بين المعماريين الإنجليز في بواكير القرن السابع عشر، وهذه قاعة الولائم التي قصد بها أن تكون قسما من قصر في هوايت هول [1] لم يـتم بنـاؤه – تجعل عمله مألوفًا لدى كل زائر لمدينة لندن. وكان كل من هذين الرجلين بل في الواقـع كـل المعمـاريين الإنجليز والفرنسيين والألمان في تلك الفترة، يشتغلون على أساس النهضة الإيطالية التي كانت لا تزال حيـة متطورة، وذلك أن كثيرا من أحسن المباني في ذلك الزمان كان من عمل إيطاليين. وحـدث بالتـدريج مـع اقتراب القرن الثامن عشر من نهايته، أن توقف التطور الحر الطبيعي لعمارة عصر النهضة، إذ اعترضـته موجة من التحذلق الكلاسيكي. وكان لما نال الدراسات الكلاسيكية بمدارس أوربا الغربية من تجمد تدريجي، نظير بدا في ظهور نزعة متزايدة إلى تقليد نماذج إغريقية ورومانية فما كان يوما من المنبهات أضحى الآن مخدرا ذهنيا تقليديا مخبلا للعقول. وأصبحت البيوت المالية والكنائس والمتاحف تبني على صـورة المعبـد الأثيني، وحتى شرفات (تراسات) المنازل نفسها أخضعت لنظام أبهاء الأعمدة (Colonnades). ولكن أسوأ غلو تهيأ لهذه النزعات القاتلة، جاء في القرن التاسع عشر خارج حدود عصرنا الراهن هذا.

[1] هوايت هول: قصر بناه ولم يتمه هنري الثامن ودمرته النيران في ١٦٩٨. (المترجم)

٨- نمو فكرة الدول العظمى

رأينا كيف ظهرت في الشئون الإنسانية فكرتا الحكم العالمي والمجتمع البشري، وقصصنا كيف أن إخفاق الكنيسة المسيحية على اختلاف مذاهبها في توطيد وصيانة تينكم الفكرتين، فكرتي مؤسسها يسوع، قد أفضى إلى انهيار خلقي في الشئون السياسية وانتقال إلى الأنانية ونقص في الإيمان. ورأينا كيف أن الملكية الميكيافللية نصبت نفسها لمناهضة روح الأخوة في المسيحية، وكيف أن الملكية الميكيافللية تطورت في قسم كبير من أوربا فأصبحت الملكيات العظمى والملكيات البرلمانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر. بيد أن عقل الإنسان وخياله لا ينفكان ناشطين، لذلك فقد كانت تنتسج انتساج الشبكة تحت سلطان الملوك الأعظمين مجموعة معقدة من الأفكار والتقاليد، تهدف إلى اصطياد عقول الناس والإمساك بها. تلك المجموعة المعقدة هي فكرة السياسة الدولية لا بوصفها موضوع معاملات بين الأمراء، بل بوصف كونها موضوع معاملات بين نوع من الكائنات الخالدة، هي الدول. ذلك أن الأمراء يجيئون ويذهبون. فإن لويس الرابع عشر قد يخلفه لويس خامس عشر متصيد لربات الدل والجمال، وقد يخلفه بدوره ذلك صانع الأقفال الهاوي الغبي لويس السادس عشر. وجاء بعد بطرس الأكبر خلف متعاقب من القيصرات. وكان أهم مظهر مستمر لآل هابسبرج بعد شارل الخامس، في كل من النمسا أو إسبانيا، تواصلاً للشفاه الغليظة والذقون القبيحة والاعتقاد في الخرافات. وإن النذالة المحببة التي يبديها ملك مثل شارل الثاني، لتتخذ من مدعياته هزوا وسخريا. فأما الشيء الأرسخ قدما فهو أعباء وظيفة وزير الخارجية، وفكرات الناس الذين كتبوا عن اختصاصات الدولة. وقد كان الوزراء يحافظون على استمرار السياسة أيام اعتكاف ملوكهم، وفي الفترات التي يخلو فيها العرش بين ملك وخلفه.

ولذا فإنا نجد أن الأمير أصبح بالتدريج أقل أهمية في أذهان الناس من "الدولة" التي كان الأمير رأسا لها؛ ومن ثم يحين الزمان الذي نقرأ فيه القليل فالأقل عن خطط وأطماع هذا الملك أو ذاك، ونقرأ أكثر من "خطط فرنسا" أو "أطماع بروسيا". فإنا نجد في عصر كانت فيه العقيدة الدينية في انحدار، رجالاً يظهرون إيمانًا جديدا جازما بحقيقة هذه الشخصيات المعنوية. وذلك أن تلك الأطياف الضخمة المبهمة وأعني بها "الدول" تسللت خفية إلى الفكر السياسي الأوربي، حتى تسلطت عليه تسلطًا كاملاً عند ختام القرن الثامن عشر وإبان التاسع عشر. وهي لا تبرح متسلطة عليه إلى يومنا هذا. وظلت القارة الأوربية مسيحية اسما، ولكن عبادة رب واحد روحا وحقيقة معناها الانتماء إلى مجتمع واحد يضم كل زملاء الإنسان في تلك العبادة. ولكن الواقع العملي أن أوربا لا تفعل ذلك، بل إنها قد سلمت نفسها تسليما تاما لعبادة تلك الرطازة (Mythology) العجيبة المسماة بالدولة. ومن أجل هذه الآلهة "الدول ذات السيادة"، ومن أجل وحدة "إيطاليا"، وزعامة "بروسيا"، ومن أجل مجد "فرنسا"، ومقدرات "الروسيا"، ضحت بأجيال عديدة من الوحدة الممكنة والسلام والرخاء وأودت بحياة ملايين من الرجال.

والنظرة إلى القبيلة أو الدولة كنوع من الشخصية إنما هي نزعة قديمة جدا في العقل الإنساني. والكتاب المقدس حافل بمثل هذه التجسمات أو الشخصيات المعنوية. فإن مملكة يهوذا وآدوم وموآب ومملكـة آشـور (آشوريا) لتبدو في الكتب المقدسة العبرانية كأنما هي أفراد. بل قد يكون من المستحيل في بعض الأحايين أن يقول المرء هل الكاتب العبري يعالج شخصا أو أمة؟ ولا خفاء في أنها نزعة بدائية وطبيعية. ولكنها في حالة أوربا العصرية، ضرب من النكوص. فإن أوربا في كنف فكرة "عالم Christendom" المـسيحية تقـدمت مراحل كثيرة في سبيل الوحدة. وبينما كانت شخوص قبلية أمثال "إسرائيل" أو "صور" تمثل بالفعل مجتمعـا بعينه من القرابة الدموية، واتساقًا بعينه في الطراز وتآلفًا في المصلحة، فإن الدول الأوربية التي نشأت فـي القرنين السابع عشر والثامن عشر، كانت وحدات افتعالية تماما. فالروسيا مثلاً كانت في الحقيقة مجموعة من أشد العناصر تباينًا وعدم تجانس، ما بين قوزاق وتتار وأوكرانيين ومسكوفيين ثم انضم إليهم – بعـد زمـان بطرس – الأستونيون واللتوانيون. وكانت فرنسا في حكم لويس الخامس عـشر تـضم الألـزاس الألمانيـة ومناطق بورغنديا المتمثلة حديثًا، وكانت سجنًا للهوجنوت المهيضي الجناح ومستنزفًا لحياة الفلاحين. فأما في "بريطانيا" فإن إنجلترة كانت تحمل على كاهلها الممتلكات الهانوفرية في ألمانيا كما تحمل اسـكتلندة، وأهـل ويلز الأجانب تماما، والإرلنديين الكاثوليك المعادين. وإن هناك دولا كالسويد وبروسيا، وأكثر منها في هـذا بولندة والنمسا، وكلها تروح إذا نحن تتبعناها في سلسلة من الخرائط التاريخية، تـتقاص وتتمـدد، وتقـذف بزوائدها وذوائبها خارجا وتتجول فوق خريطة أوربا كما تفعل الأميبا تحت الميكرسكوب.

ولو أنّا تأملنا سيكولوجية العلاقات الدولية كما نراها متجلية في العالم المحيط بنا، وكما يظهرها تطور فكرة "الدولة" في أوربا العصرية، لأدركنا حقائق بعينها على غاية الأهمية من الوجهة التاريخية عن طبيعـة الإنسان. لقد قال أرسطو إن الإنسان إنما هو حيوان سياسي، ولكنه في المعنى العصري الذي لدينا عن كلمـة "السياسة" وهي التي تشمل الآن سياسة العالم بأجمعها، ليس بأي حال شيئًا من هذا القبيل. ولا تزال غرائـز قبيلة العائلة باقية فيه إلى يومنا هذا، ولديه بعد هذا نزعة تدفعه إلى ربط نفسه وعائلته إلى شيء أكبر منهما، أي إلى قبيلة أو مدينة أو أمة أو دولة. ولكن هذه النزعة لو تركت ونفسها لكانت نزعة مبهمة جد غير نقادة. ومهما يكن من شيء، فإنه ميال إلى خشية وكراهية كل نقد يوجه لذلك الشيء الأكبر الـذي يحـيط بحياتـه والذي سلم نفسه إليه، كما أنه ميال إلى تجنب مثل هذا النقد. ولعل في نفسه خوفًا شبه شعوري مـن العزلـة التي قد تترتب على تحطيم النظام أو هدم ثقة الناس به ذلك أنه الوسط الذي يجد فيه نفسه أمرا مـسلما بـه. وإنه ليتقبل مدينته أو حكومته مثلما يتقبل الأنف أو الهضم الذي حباه الحظ به. بيد أن ولاءات الرجال، أعني الجوانب التي ينحازون إليها في الأمور السياسية ليست فطرية، وإنما هي نتائج تربية وتعليم. ولكن التعلـيم الذي يتلقاه أغلب الناس في تلك الأمور إنما هو التعليم الصامت المستمر الصادر عن الأشياء المحيطة بهـم. فإن الناس يجدون أنفسهم جزءا من إنجلترة المرحة أو الروسيا المقدسة. وهم إنما يشبون على هـذه العقائـد ويتقبلونها كجزء من طبيعتهم.

الواقع أن العالم شرع يدرك ولكن بغاية البطء، إلى أي حد من العمق يمكن التعليم الـضمني المفهـوم بالاستنتاج والذي تجيء به الظروف العابرة، أن يستكمل أو أن تُعدل أو يصحح بـالتعليم الإيجـابي والأدب

والجدال، والخبرة المنقودة نقدا صحيحا. فحياة الفرد العادي الحقيقية هي حياته اليومية وأعني بهـا الـدائرة الصغيرة لعواطفه ومخاوفه وجوعاته وشهواته واندفاعاته الخائلة. وهو لا يلزم عقله المتكره أن يـؤثر فـي الشئون السياسية إلا عندما يوجه نظره إليها بوصفها شيئًا له أثره الحيوي في تلك الدائرة الشخصية. ولا تكاد تكون هناك مبالغة في القول بأن الرجل العادي يفكر في الأمور السياسية بأقل قدر مستطاع، وأنه يكف عـن التفكير فيها بأسرع ما يستطيع. فالعقول الشديدة التطلع والقدرة الاستثنائية، أو العقول التي استطاعت بفـضل المثل المحتذى أو التربية الممتازة بلوغ تلك العادة العلمية ألا وهي الرغبة في معرفة أسـباب الأشـياء، أو العقول التي حزت فيها أو صدمتها كارثة قومية عامة حتى استثارتها إلى التخوف من الأخطار المقبلة، هـي وحدها التي تأبى قبول حكومات ونظم سخيفة غير معقولة واعتبارها مقبولة لا بأس بها لمجرد أنها لم تـؤذ تلك العقول ولم تسبب لها ما يكدرها شخصيا. وإن الكائن الإنساني العادي لينضوي – حتى يأتي الوقت الذي يستثار فيه على تلك الشاكلة – تحت ظلال أية مناشط جماعية تجري في هذا العالم الذي يجد فيه نفسه؛ كمـا أنه يتقبل أي تعبير أو رمز يواجه حاجته المبهمة إلى شيء أعظم وأكبر يمكن أن ترسو لديه وتطمـئن إليـه شئونه الشخصية ودائرته الفردية.

فإذا نحن وعينا جيدا هذه التحديدات الواضحة التي تغل طبيعتنا، لم يصبح بعد سرا خافيا كيف أنه كما حدث أن فكرة اتخاذ المسيحية أخوة عالمية بين الناس قد هوت في دركات المهانـة وضـياع الثقـة بـسبب اشتباكها القاتل بدسائس القساوسة ومطامع البابوية من ناحية، وبسلطان الأمراء من ناحية أخرى، ومـن ثـم انتقل عصر الإيمان إلى عصرنا الراهن عصر الشك وعدم الإيمان، - فقد حول الناس مـدار حيـاتهم عـن ملكوت الرب وأخوة الجنس البشري إلى هذه الحقائق الماثلة بين أيديهم والأكثر في ظاهرها دوامـا وحيـاة، وهي فرنسا وإنجلترة والروسيا المقدسة وإسبانيا وبروسيا، التي كانت على الأقل تتجسم في شخص بلاطـات ناشطة، والتي كانت تحافظ على القوانين وتظهر القوة بواسطة الجيوش والأسـاطيل، والتـي كانـت تلـوح براياتها في هيئة جد ووقار تعنو لعزتها الجباه كما كانت رافعة رءوسها اعتزازا بالنفس بهمة نهم من لا يشبع بصورة متسقة تمام الاتساق مع الطبيعة الإنسانية.

ولا مراء أن رجالاً من أمثال الكردينال ريشليو والكردينال مازارين كانوا يرون أنفسهم خداما لغايـات أعظم من غاياتهم هم، ومن غايات ملوكهم، إذ يخدمون فرنسا شبه المقدسة التي تصورها لهم أخيلتهم. كما لا مراء أيضا أن هذه العادات العقلية انسابت منهم إلى مرؤوسيهم وإلى هيئة الشعب العامة. وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر كانت عامة السكان في أوربا تستمسك بالدين ولم تكن وطنيتهم إلا شيئًا مبهما؛ فمـا إن حل القرن التاسع عشر حتى أصبحوا وطنيين بكليتهم. فلو حدث في عربة مزدحمة مـن عربـات الـسكك الحديدية الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية في أخريات القرن التاسع عشر، أن شخصا سخر من ا لاستثار من العداوة قدرا أقل كثيرا مما تستثيره السخرية بأحد من هاته المخلوقات العجيبـة: إنجلتـرة أو فرنـسا أو ألمانيا. فإلى هذه الأشياء تعلقت أذهان الناس، تعلقت بها لأنه لم يبد في كل أنحاء العالم أي شيء آخر تقتنـع النفوس بأن تتعلق به. ولذا كانت هي آلهة أوربا الحقة الحية.

لقد رفعوا الحكومات ووزارات الخارجية إلى مصاف المثل العليا، وحلفوا منها رطازة، هي رطازة [١] "الدول" ومحباتها وكراهياتها ونضالاتها. واشتد تشبع خيال أوربا وآسيا الغربية بها إلى حد أن كانت مصدرا تستقي منه "أشكال تفكيرها". ويكاد كل ما دون من التواريخ، وكل الأدب السياسي في القرنين الأخيرين في أوربا، أن تكون مكتوبة بنفس تلك اللغة والروح. على أنه لا بد أن يأتي ذلك الزمان الذي سوف يقرأ فيه جيل أوضح نظرة وأصفى بصيرة ويرى في شيء من الارتباك والحيرة، كيف حدث في المجتمع الأوربي الغربي، المكون في كل مكان (مع تنوعات طفيفة جدا) من خليط عنصري مشترك من الشعوب النوردية والأيبيرية وعناصر نازحة سامية ومغولية وهي تتكلم في كل مكان تقريبا لهجات محورة عن نفس اللسان الآري، ولها ماضٍ مشترك متمثل في الإمبراطورية الرومانية، وأشكال دينية مشتركة، وعادات اجتماعية مشتركة وفن وعلم مشتركان، وهي تتزاوج فيما بينها بحرية لا يستطيع إنسان معها أن يتكلم في أي تحقق عن جنسية (أي قومية) أي من أولاد أحفاده، كيف حدث أن كان في الإمكان أن تهيج في الرجل أقصى أنواع الانفعال حول مسألة عظمة فرنسا، ونهضة وتوحيد ألمانيا، ومدعيات الروسيا واليونان المتنافستين على امتلاك القسطنطينية. ولسوف تبدو هذه المنازعات عند ذاك غريبة لا سبب لها، جنونية لا عقل فيها، شأن ما اندثر قبلها من منازعات لا يفهمها الناس الآن أمثال التي اشتجرت بين "الخضر والزرق [٢]" الذين كانوا يملئون شوارع بيزنطة بالضجيج وسفك الدماء.

وهذه الأطياف أعني الدول عظيما ما عظم تسلطها اليوم على عقولنا وحيواتنا إنما هي – كما يبين لك هذا الكتاب أوضح بيان – أمور لا ترجع إلى أقدم من القرون الأخيرة القليلة بل هي مجرد ساعة واحدة أو دور عرضي في التاريخ المقصود المتعمد لنوعنا البشري. وهي تسجل دورا من أدوار الانتكاس أو ضربا من الانسلاخ من ركب التقدم، مثلما يسجل نهوض الملكية الميكيافللية حالة تخاف وقتي عن مسايرة الركب. هي جزء من نفس دوامة العقيدة المضطربة المترددة تعترض سبيل اتجاهها العام وهو اتجاه أشد منها قوة وأبعد ما يكون عنها جملة وتفصيلاً: ألا وهو الاتجاه نحو الاتحاد الخلقي والذهني للبشرية. لقد ارتد الناس حينًا من الدهر إلى أربابهم هؤلاء من قومية وإمبراطورية ولكن هذا لن يدوم إلا إلى حين. فإن فكرة "الدولة العالمية" ومملكة الصلاح العامة التي يصبح فيها كل كائن حي مواطنًا، كانت موجودة في العالم قبل ذلك بألفين من السنين، ولن تغادر العالم بعد ذلك قط. وإن الناس ليعلمون أنها بين أيديهم وإن أبوا أن يعترفوا بها. وإنك لتحس في كتابات وأحاديث الناس عن الشئون الدولية اليوم وفي المناقشات الجارية الدائرة الآن بين ظهراني المؤرخين والصحفيين السياسيين، كأنما بين يديك رجال ثملون قد شرعوا يستفيقون، ويداخلهم ذعر شديد من استفاقتهم هذه. فهم لا يفتئون يتكلمون بصوت مرتفع عن "حبهم" لفرنسا و "كراهيتهم" ألمانيا وعن

---

[1] الرطازة (Mythology): هي أسطورة أو حكاية تقليدية كثيرا ما تعبر عن معتقدات وأحلام بدائية لشعب بعينه وعن طريقة تفسيره للظواهر الطبيعية والتاريخية. (المترجم).

[2] الخضر والزرق: فرقتان رياضيتان قديمتان بالقسطنطينية كانتا تعدان حرسا للمدينة. وكان النزاع بينهما دائما لا ينقطع (انظر للمترجم كتاب الحضارة البيزنطية في مجموعة الألف كتاب). (المترجم)

"سيادة بريطانيا التقليدية في البحار"، وهكذا وهكذا... شأن أولئك الذين يغنون مترنمين بكئوسهم بالرغم مـن تواصل دبيب الاستفاقة إليهم وخوفهم من زوال الخمار [1] عنهم. وما تلك التي يخدمون إلا أرباب ميتة. فإن الناس لا يريدون في البحر أو البر دولا تتسم بالرفعة، وإنما يبتغون القانون والخدمـة. وإن ذلـك التحـدي الصامت الذي لا مندوحة منه ولا مفر، لموجود في أذهاننا وجود الفجر وهو يبزغ في تمهل وأنـاة، وينفـذ ضياؤه خلال مصاريع حجرة مشوشّة النظام.

---

[1] الخمار: كما ورد في المعجم الوسيط: ما خالط الإنسان من سكر الخمر. (المترجم)

٩- جمهورية بولندة المتوجة ومصيرها

كان القرن السابع عشر في أوربا قرن لويس الرابع عشر الذي كان هو وعظمة فرنسا وفرساي قطب الرحى في القصة. وكان القرن الثامن عشر بالمثل "قرن نهضة بروسيا كدولة عظمى"، والشخصية الرئيسية في قصته هي فردريك الثاني، أي فردريك الأكبر. وتجيء قصة بولندة مشتبكة وتاريخه.

كانت الشئون في بولندة ذات سمة خاصة. وبولندة بخلاف جيرانها الثلاثة الروسيا وبروسيا وملكية آل هابسبرج في النمسا والمجر، لم تطور لنفسها ملكية عظمى. وخير وصف يوصف به نظام حكومتها أن يقال إنه كان نظاما جمهوريا له ملك، أي رئيس ينتخب مدى الحياة. وكان كل ملك ينتخب على حدة. فكأنها كانت في واقع الأمر أبلغ في روحها الجمهورية من بريطانيا، ولكن روحها الجمهورية كانت أكثر أرستقراطية في شكلها. وكان لبولندة تجارة طفيفة ومصنوعات قليلة العدد، وكانت قطرا زراعيا ما يزال به مساحات عظيمة للرعي والغابات والأرض البراح؛ فكانت لذلك قطرا فقيرا، وكان أصحاب الأراضي فيها أرستقراطيين فقراء. وكانت جمهرة سكانها فلاحين أذلاء جهلة جهلاً وحشيا، وكانت تئوي كذلك جماهير غفيرة من اليهود الشديدي الإدقاع. وقد حافظت على عقيدتها الكاثوليكية. فكأنها كانت – إن صح هذا التشبيه – بريطانيا أخرى أرضية كاثوليكية فقيرة، يكتنفها الأعداء من كل جانب مثل ما يكتنف البحر بريطانيا. ولم تكن لها على وجه الإطلاق أية تخوم محدودة، فلا بحر ولا جبل. ومما زاد في مصائبها أن بعض ملوكها المنتخبين كانوا حكاما أذكياء عدواني النزعة. فكان سلطانها يمتد شرقًا امتدادا ضعيفًا إلى مناطق يسكنها كلها تقريبا الروسيون؛ كما يشمل من ناحية الغرب بعض الرعايا الألمان.

ونظرا لأنها لم يكن لها تجارة عظيمة، لم تنشأ لديها مدن عظيمة تقاس إلى مدن أوربا الغربية، ولا تكونت بها جامعات قوية تضم شتات ذهنها بعضه إلى بعض. وكانت طبقتها النبيلة تعيش على ما تغله لها مزارعها، دون الشيء الكثير من الاختلاط الذهني. كانوا وطنيي النزعة، ولديهم إحساس أرستقراطي بالحرية يتسق تماما مع الإفقار المنظم الذي يعيش فيه موالي أراضيهم – ولكن وطنيتهم وحريتهم كانتا غير قادرتين على إنتاج التعاون الفعال. كانت بولندة يوم كانت الحروب أمر جمع للرجال والخيل، دولة قوية نسبيا؛ ولكنها لم تستطع بأي حال أن تماشي تطورات الفن العسكري الذي كان يتخذ من قوات دائمة من جنود محترفين، العدة الضرورية في الحروب. ولكنها على ما كانت عليه من الانقسام وقلة الاقتدار، تستطيع أن تكتب في كتاب حسابها بعض انتصارات جديرة بالذكر. فإن الهجوم التركي الأخير على فيينا (١٦٨٣) قد قضى عليه الفرسان البولنديون بقيادة الملك حنا سوبيسكي (الملك دون الثالث). (وكان هذا السوبيسكي نفسه قبل أن ينتخب ملكًا، أجيرا يتقاضى المال من لويس الرابع عشر، وكان قد حارب في صفوف السويديين ضد وطنه). ولا حاجة بنا إلى القول إن هذه الجمهورية الأرستقراطية الضعيفة، بانتخاباتها المتداركة الحدوث كانت تستدعي العدوان من كل من جيرانها الثلاثة. وكانت "الأموال الأجنبية" وكل نوع من أنواع التدخل تنساب إلى البلاد عند كل انتخاب. وكان كل مواطن بولندي ساخط منهم يفر – شأن الإغريق قديما – إلى أحد الأعداء الأجانب ويصب جام غضبه على وطنه الناكر للجميل.

ولم تكن للملك البولندي إلا سلطة ضعيفة جدا حتى بعد أن يتم انتخابه، وذلك بسبب غيرة النبلاء البولنديين بعضهم من بعض. إذ هم شأن النبلاء الإنجليز كانوا يفضلون الأجنبي؛ ولأنه – لنفس السبب – لم يكن له عماد من قوة أو عزوة يرتكز عليها في البلاد. ولكنهم بخلاف البريطانيين لم تكن لحكومتهم نفس قوة التماسك التي كانت تعيرها للنبلاء البريطانيين الاجتماعات الدورية للبرلمان في لندن، التي كانوا يسمونها: "الحضور إلى العاصمة". وكانت لندن ملتقى المجتمعات وما يتلوها من تمازج متواصل بين الفكرات وبين أصحاب النفوذ من الأشخاص. ولم تكن لبولندة مدينة كلندن ولا كان فيها "هيئة اجتماعية". ولذا فالواقع أنه لم تكن لبولندة حكومة مركزية على الإطلاق. وما كان ملك بولندة بمستطيع أن يعلن حربا أو يعقد صلحا، ولا أن يجبي ضريبة أو يغير قانونًا دون موافقة مجلس الدايت، (وكان لكل عضو بمفرده في مجلس الدايت الحق في الاعتراض (Veto) على أي مقترح مطروح للبحث). وما كان عليه إلا أن ينهض ويقول "إني غير موافق" فيسقط الموضوع. بل إنه كان يستطيع أن يحمل حقه في الاعتراض المطلق (Liberum Veto) إلى مدى أبعد من هذا. إذ يستطيع أن يعترض على اجتماع المجلس، وعند ذلك ينحل الدايت. فكأن بولندة لم تكن إذن مجرد جمهورية أرستقراطية متوجة مثل تلك البريطانية، بل كانت جمهورية أرستقراطية متوجة مشلولة.

وكان وجود بولندة في نظر فردريك الأعظم أمرا مثيرا بوجه خاص بسبب الطريقة التي كانت بها ذراع لبولندة تمتد إلى بحر البلطيق في دانزج، وتفصل ممتلكاته الموروثة عن أجداده في بروسيا الشرقية عن أراضيه داخل الإمبراطورية. فكان هو من حرض كاترين الثانية قيصرة الروسيا وماريا تريزا النمسوية – التي فاز باحترامها بحرمانه إياها من سيليزيا – على القيام بهجوم مشترك على بولندة.

واسمحوا الآن لخرائط أربع لبولندة أن تروي لكم القصة.

وبعد هذا الانتهاك الذي أصاب بولندة في (١٧٧٢)، ألم بفؤادها تغير كبير. إذ الواقع أن بولندة ولدت شعبا متماسكًا في ليلة انحلالها. إذ حدث فيها تطور إن يكن سريعا فقد كان إلى ذلك جسيما ضخما في التعليم والأدب والفن. ونشأ المؤرخون والشعراء بغتة، وقذف جانبا بالدستور العقيم الذي جعل من بولندة دولة كليلة واهنة. وألغي حق الاعتراض المطلق، وجعل التاج وراثيا من أجل إنقاذ بولندة من المؤامرات الأجنبية التي كانت تصحب كل انتخاب، وأقيم برلمان يحاكي البرلمان البريطاني. على أنه كان هناك مع ذلك محبون للنظام القديم في بولندة، كرهوا تلك التغييرات الضرورية، وطبيعي أن تعين الروسيا وبروسيا هؤلاء المعترضين، إذ كانتا لا ترغبان في نهضة بولندية. وجاء التقسيم الثاني، وبعد كفاح وطني عنيف ابتدأ بالمنطقة التي سلختها بروسيا، ووجد في كوزكيوسكو (Kosciusko)، زعيما له وبطلاً وطنيا، حدثت إزالة بولندة نهائيا من الخريطة. وبذا انتهى إلى حين من الزمان ذلك التهديد البرلماني للملكية العظمى في أوربا الشرقية. ولكن وطنية البولنديين اشتد تضرمها وتلألأ صفاؤهم لهذا الضغط. فإن بولندة ظلت مائة وعشرين سنة تكافح كفاح مخلوق مغمور بالماء، تحت تلك الشبكة السياسية والعسكرية التي كانت تمسك بها وتغل حركتها. ثم نهضت ثانية في (١٩١٨) عند نهاية الحرب العظمى.

١٠- أول تخاطف على الإمبراطوريات وراء البحار

أدلينا إليك ببعض البيانات عن ارتقاء فرنسا مدارج الرفعة في أوربا، وعن الانحلال السريع لذلك النماء الرخو الذي تهيأ للدولة الإسبانية وعن انفصالها عن النمسا، وقيام بروسيا. فأما فرنسا والبرتغال وإسبانيا وبريطانيا وهولندة، فإن تنافسها على الرفعة في أوربا قد امتد وتعقد في كفاح على الممتلكات وراء البحار.

ذلك بأن اكتشاف قارة أمريكا وهي الضخمة القليلة السكان، غير المتطورة والمكيفة تكيفًا رائعا لإقامة الأوروبيين واستغلالهم، وما رافق ذلك من الاكتشافات لمساحات عظيمة من الأرض البكر جنوبي المناطق الاستوائية الحارة في إفريقية التي كانت حتى ذلك الحين تحد من معرفة الأوربيين، ثم التوصل على التدريج إلى معرفة أقاليم جزيرية فسيحة في البحار الشرقية، لم تمسسها حتى ذلك الحين المدنية الغربية، - كانت بأكملها عملية عرض للنهزات أمام أعين الإنسانية لم يسبق لها مثيل في التاريخ أجمع. وكأنما ورثت شعوب أوربا ميراثًا فاخرا باذخًا. فإن عالمهم تضاعف بغتة أربعة أضعافه. وكان لكل ما يفي بحاجته ويفيض. ولم يكن عليهم إلا أن يتسلموا تلك الأراضي وأن يواصلوا بها عيش الثراء، وعند ذلك يتبدد ما هم عليه من فقر وتزاحم تبدد الحلم عند اليقظة. ولكنهم تلقوا ذلك التراث الفاخر تلقي الورثة السيئي التربية. إذ لم يكن له لديهم من معنى إلا أنه ظرف جديد تتجلى فيه المنازعات الفظيعة. ولكن أنى لنا ذلك المجتمع البشري الذي يؤثر الخلق والابتكار على المؤامرة؟ وأي شعب في قصتنا بأجمعها تعاون قط مع شعب آخر بينما كان يستطيع بأي ثمن أن يدبر المكايد لإلحاق الضرر بذلك الشعب الآخر؟ ابتدأت دول أوربا الأمر "بادعاء" المدعيات الجنونية المتهوسة على الأقطار الجديدة. ثم ترامى بهم الأمر إلى منازعات مستنفدة للقوى. فإن إسبانيا صاحبة أول الادعاءات وأشدها، والتي ظلت ردحا من الدهر "سيدة" ثلثي أمريكا، لم تفد من ممتلكاتها بطريقة أحسن من أن تنزف دماء نفسها فيها إلى درجة الموت تقريبا.

ولقد ذكرنا كيف أن البابوية في آخر أدوار تمسكها بالسيادة العالمية، قسمت القارة الأمريكية بين إسبانيا والبرتغال بدل أن تحافظ على الواجب المشترك لكل عالم المسيحية بإنشاء حضارة عظيمة مشتركة في الأراضي الجديدة. وطبيعي أن يستثير ذلك عداوة الشعوب المحرومة. ومن ثم فإن رجال البحر الإنجليز لم يعيروا مدعيات الطرفين أي احترام، ونصبوا أنفسهم ضد الإسبان بوجه خاص. وحول السويديون نزعتهم البروتستانتية إلى شيء من هذا القبيل. وما كاد الهولنديون يلقون عن أنفسهم نير أسيادهم الإسبان حتى نشروا قلوعهم غربا ليسخروا من البابا، وينالوا نصيبهم من خيرات العالم الجديد. فأما صاحب الجلالة الكاثوليكية الورعة ملك فرنسا، فإنه لم يتردد إلا قدر ما يتردد أي بروتستانتي. فكانت كل هذه الدول مشغولة تتنافس في دعاواها على أمريكا الشمالية وجزائر الهند الغربية.

ولم تفد المملكة الدانيماركية (وكانت آنذاك تضم النرويج وإيسلندة) ولا السويد شيئًا كثيرا جدا في هذا التخاطف. فضم الدانيمركيون إليهم بعض جزائر الهند الغربية. ولم تصل السويد إلى شيء منها. وكان كل من الدانيمرك والسويد في ذلك الأوان غائصتين في الشئون الألمانية. فقد ذكرنا آنفًا جوستاف أدولف "أسد

الشمال" البروتستانتي، وأشرنا إلى حملاته في ألمانيا وبولندة والروسيا. والحق أن هذه الأقـاليم الأوروبيـة الشرقية تمتص الطاقات امتصاصا عظيما، وإن هذه القوة التي ربما كانت تكسب السويد قسطًا عظيمـا مـن العالم الجديد، قد حصدت لها محصولاً عقيما من المجد في أوروبا. وسرعان ما سـقطت تلـك المـستقرات الصغيرة التي أنشأها السويديون بأمريكا في أيدي الهولنديين.

وكذلك الهولنديون أيضا فإنهم وقد شهدوا حيالهم الملكية الفرنسية تحت الكاردينال ريشليو وتحت لويس الرابع عشر، وهي تشق طريقها عبر الأراضي المنخفضة الإسبانية نحو تخومهم، لم تكن لديهم الموارد غير المبددة ولا القوة المجتمعة التي كانت بريطانيا من خلف لجج "بحرها الفضي" تستطيع أن تقـذف بهـا فـي ميادين المغامرات وراء البحار.

وفضلاً عن ذلك فإن الجهود التي بذلها في سبيل الحكم المطلق جيمس الأول، وشارل الأول، وعـودة شارل الثاني، كان من أثرها أن دفعت خارج إنجلترة عددا عظيمـا مـن البروتـستانت الأقويـاء العقـول، الجمهوريي الروح، وهم قوم أشداء ذوو وطنية قوية وأخلاق متينة، أقاموا في أمريكا، وبوجه خـاص فـي منطقة نيوإنجلند، بعيدا عن منال الملك وضرائبه – فيما كانوا يظنون. ولم تكن السفينة "ماي فلور" إلا واحدة من السفن الأولى في فيض من سفن المهاجرين. وكان من حسن طالع بريطانيا أنهـم ظلـوا تحـت العلـم البريطاني، وإن كانوا مخالفين منشقين. فأما الهولنديون فلم يرسوا إلى أمريكا البتة مستقرين على نفس وفرة العدد والرقي، وذلك أولاً لأن حكامهم الإسبانيين لم يكونوا ليسمحوا لهم، وثانيا لأنهم تملكوا بلادهم هم. ومع أنه حدثت هجرة عظيمة للهوجنوت البروتستانت لما لقوا عذاب الدراجوناد واضطهاد لويس الرابع عشر، فقد كان لهم من هولندة وإنجلترة ملتجأ قريب، فانتقلت صناعاتهم ومهاراتهم وجدهم وقناعتهم إلى ذينك القطـرين فكان لهما منهم وبخاصة إنجلترة قوة أي قوة. وأسس القليل منهم المستقرات في كارولينا، على أن هـذه لـم تستمر فرنسية. فإنها انتقلت إلى الإسبان أولاً ثم انتقلت آخر الأمر إلى الإنجليز.

كذلك خضعت المستقرات الهولندية ومعها السويدية لبريطانيـا. فأصـبحت نيوأمـستردام بريطانيـة (١٦٧٤) وتعدل اسمها إلى نيويورك، كما قد يرى القارئ في كتاب واشنجتن إرفنج الفكه: "تاريخ نيويـورك الموجز". وتتبين حال الأمور بأمريكا في (١٧٥٠) تبينًا واضحا جدا من خريطة كيفناها عن أخرى في كتاب "العصور الوسطى والحديثة" لروبنسون(1). وقد تأسست دائرة النفوذ البريطانية على امتداد الشاطئ الـشرقي من سافانا إلى نهر السانت لورنس، فأما نيوفوندلند وأراضي شمالية مترامية هي أراضي شركة خليج هدسون فقد اكتسبت من الفرنسيين بمعاهدة صلح. واحتل البريطانيون بربادوس في (١٦٠٥)، (وهي تكاد تكون أقـدم ممتلكاتهم الأمريكية)، واستحوذوا على جامايكا وجزائر بهاما وهندوراس البريطانية من الإسبان. ولكن فرنسا كانت تطارد صيدا خطرا مزعجا جدا، وهو صيد يبدو على الخريطة أشد خطرا وإزعاجا منه في الحقيقـة. فإنها أنشأت مستقرات حقيقية في كويبك ومونتريال في الشمال وفـي نيوأورليـانز فـي الجنـوب، وتقـدم مستكشفوها وعملاؤها جنوبا وشمالاً، يعقدون المعاهدات مع الهنود الأمريكيين بالسهول العظيمـة ويقيمـون

(1) Robinson: "Medieval & Modern Times".

المدعيات – دون أن يقيموا المدن – عبر القارة بأكملها خلف منطقة البريطانيين. ولكن حقـائق الموقـف لا تمثل على هذا النحو تمثيلاً كافيا. فإن المستقرات البريطانية قد توطدت بها إلى أقصى حد إقامة طبقة صالحة من الناس؛ وكان عددهم يتجاوز بالفعل المليون. وما كان الفرنسيون في ذاك الزمان يدانون عشر ذلك العدد.

أجل كان لهم عدد من أذكياء الرحالين والمبشرين يعملون ناشطين، على أنهم لم يكن من ورائهم مـادة عظيمة من السكان.

وما يزال في الإمكان العثور على كثير من الخرائط القديمة لأمريكا في تلك الفتـرة، وهـي خـرائط وضعت خصيصا لإخافة البريطانيين واستثارتهم حتى يتنبهوا إلى "خطط الفرنسيين" فـي أمريكـا. ونـشبت الحرب في (١٧٢٤). وفي (١٧٥٩) استولت القوات البريطانية وقوات المستعمرات بقيادة الجنـرال وولـف على كويبك وأتمت من فتح كندا في السنة التالية. وما وافت (١٧٦٣) حتى كانت كندا قد انتقلت نهائيـا إلـى أيدي بريطانيا. (على أن الجزء الغربي من إقليم لويزيانا الذي يكاد يكون لا حد له في الجنـوب، والمـسمى باسم لويس الرابع عشر، ظل خارج الدائرة البريطانية. فأخذته إسبانيا، وفي (١٨٠٠) استردته فرنـسا. ثـم اشترته آخر الأمر (١٨٠٣) حكومة الولايات المتحدة من فرنسا). وفـي هـذه الحـرب الكنديـة، حـصل المستقرون الأمريكيون على خبرة جسيمة في فن الحروب، وعلى علم بالتنظيم العسكري البريطـاني عـاد عليهم بعظيم النفع بعد ذلك بزمن وجيز.

١١- بريطانيا تسود الهند

لم يقتصر اصطدام الدولتين الفرنسية والبريطانية على أمريكا وحدها. بل إن أحوال الهند كانت في ذلك الزمان شديدة الجاذبية عظيمة اللذة للمغامرين الأوربيين. فإن الإمبراطورية المغولية العظيمة، إمبراطورية بابر وأكبر وأورانغزيب، كانت قد سارت في الانحلال شوطًا بعيدا. وما حدث للهند كان موازيا ومماثلاً لما جد لألمانيا. فإن المغولي الأكبر، شأن إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة في ألمانيا، كان ما يزال صاحب السيادة العليا شرعا، ولكنه كان بعد وفاة أورانغزيب، يتولى سلطة اسمية ليس غير، اللهم إلا في المنطقة المجاورة مباشرة لعاصمته. وقد حدث نهوض عظيم في الهندوكية وفي الروح الوطنية. ففي الجنوب الغربي ثار على الإسلام شعب هندوكي هو الماراتا (Mahrattas)، وأعاد البرهمانية ديانة سائدة. ثم بسطوا سلطانهم حينًا من الدهر فوق مثلث الهند الجنوبي بأجمعه. وتقوض حكم الإسلام في راجبوتانا أيضا وحلت محله البرهمانية، وكان يحكم في بهورتبور وفي جايبور، أمراء راجبوتانيون أقوياء. وكانت في أوده مملكة شيعية عاصمتها لكنو، وكانت البنغال كذلك مملكة إسلامية منفصلة. ونشأت في بلاد البنجاب القصية في الشمال هيئة دينية شائقة جدا هي السيخ، الذين أعلنوا أن الحكم العام لرب واحد وهاجموا الفيدا الهندوكية والقرآن الإسلامي على السواء. وكان السيخ في الأصل طائفة سلم ما لبثوا أن احتذوا حذو الإسلام [1] وحاولوا – موقعين أنفسهم في أول الأمر في أشد الكوارث – أن يؤسسوا مملكة الرب بحد الحسام. وإلى هذه الهند الهندية المتبلبلة البالغة الفوضى وإن كانت ناهضة قوية الحيوية، هبط للفور (١٧٣٨) غاز من الشمال، هو نادر شاه (١٧٣٦ – ٤٧) حاكم فارس التركماني، الذي انثال بجيوشه عابرا ممر خيبر، موقعا بكل جيش اعترض طريقه، واستولى على دلهي ونهبها، وحمل منها غنائم هائلة. وخلف شمال الهند محطما يبابا إلى حد أن عدد غارات النهب الأخرى الناجحة في العشرين سنة التالية لم يقل عن ست غارات في شمال الهند أتت جميعا من بلاد الأفغان، التي أصبحت دولة مستقلة عند وفاة نادر شاه. وواصل الماراتا محاربة الأفغانيين ردحا من الزمان على حكم شمال الهند. ثم تحطمت دولة الماراتا وتقسمها عدد من الإمارات وهي إندور وجواليور وبارودا وغيرها. فكانت الهند في القرن السابع عشر شديدة الشبه بأوربا في القرن السابع أو الثامن، إذ كانت أرض نهوض بطيء لا يفتأ المغيرون الأجانب ينزلون بها الكوارث.

ذلك شأن الهند التي كان يندفع إليها الفرنسيون والإنجليز إبان القرن الثامن عشر. ذلك أن عددا متعاقبا من الدول الأوربية الأخرى ما فتئ يكافح طلبا لمرسى تجاري وسياسي في الهند والشرق منذ السنة التي قام فيها فاسكودا جاما برحلته العظيمة حول رأس الرجاء إلى قاليقوت. وكانت تجارة الهند البحرية قبل ذلك في يد عرب البحر الأحمر، فظفر بها منهم البرتغاليون بعد سلسلة من المعارك البحرية. إذ كانت السفن البرتغالية أكبر حجما، وكانت تحمل أسلحة أثقل. وظل البرتغاليون زمانًا وزمام التجارة الهندية ملك خاص ليمينهم،

---

[1] سبق أن رددنا على هذه النقطة في المجلد الثالث من المعالم ص ٦٣٢ ط١ و (ص ٧٨١ – ط٢) فليرجع إليها القارئ في موضعها. (المترجم)

وبزت لشبونة البندقية كسوق للأفاويه الشرقية. ومهما يكن من شيء فإن القرن السابع عشر شهد الهولنـديين قابضين على هذا الاحتكار. وكان للهولنديين وهم في أوج قوتهم مستقرات عند رأس الرجاء الصالح، هذا إلى جزيرة موريشيوس، وإلى مؤسستين في فارس، واثنتي عشرة في الهند، وست في سيلان، وكانوا قد نثـروا محطاتهم المحصنة في كل أرجاء جزائر الهند الشرقية. ولكن ما أبدوا من عزم أناني على حرمان التجار من أية جنسية من الاستفادة من تجارة الشرق، ألجأ السويديين والدانمركيين والفرنسيين والإنجليز إلى المنافـسة العدائية. فكانت أولى الضربات التي كيلت لاحتكارهم وراء البحار، تلك التي وجهها بليك الأميرال الإنجليزي الجمهوري في المياه الأوربية. وكان كل من الإنجليز والفرنسيين عند مفتتح القرن الثامن عشر فـي نـزاع ومنافسة قوية للهولنديين على التجارة والامتيازات في كل أرجاء الهند. وأنشأ الإنجليز مراكزهم الكبرى فـي مدراس وبمباي وكلكتا؛ وكانت المستقرات الفرنسية الرئيسية هي بوندتشيري وشاندر ناجور.

وفي بادئ الأمر، كانت كل هاته الدول الأوربية تأبى بوصفها مجرد متجـرين، وكانـت المؤسـسات الوحيدة التي يحاولون تشييدها هي المخازن. ولكن حالة البلاد غير المستقرة، والطرق غير الشريفة التي كان يتبعها منافسوهم، جعلت تحصينهم أنفسهم وتسلحهم شيئًا طبيعيا، وجعلهم هذا التسلح حلفاء جذابين في أعـين الأمراء المتنوعين المتقاتلين الذين كانت تنقسم الهند آنذاك بينهم. وكان مما يتـواءم تمامـا وروح الـسياسة القومية الأوروبية الجديدة. أنه ما يكاد الفرنسيون ينضمون إلى جانب، حتى يجب أن ينحاز الإنجليـز إلـى آخر. وكان الزعيم في الجانب الإنجليزي هو روبرت كلايف، المولود في (١٧٢٥) والذي وصل إلى الهنـد في (١٧٤٣). وكان خصمه الأكبر هو دوبليه. ولكن قصة هذا الكفاح الذي استغرق النصف الأول من القرن الثامن عشر أطول وأعقد من أن يتسع لها هذا المكان. ولما وافت (١٧٦١) نظر الإنجليز وإذا لهـم الـسيادة الكاملة على شبه الجزيرة الهندية. وفازت جنودهم في بلاسي (١٧٥٧) وبوكسر (١٧٦٤) بانتصارات رائعة فاصلة على جيش البنغال وجيش أوده. وكان المغولي الأكبر، صاحب السيادة عليهم اسميا، قد أصـبح فـي الحقيقة ألعوبتهم الخاضعة. وكانوا يجبون الضرائب في مساحات عظيمة؛ وكانوا يحتمون دفـع التعويـضات جزاء لأية معارضة حقيقية أو خيالية.

على أن هذه الانتصارات لم تحرزها أيدي قوات ملك إنجلترة مباشرة، بل فازت بهـا شـركة الهنـد التجارية، التي ما كانت في الأصل حين إنشائها في حكم الملكة إليزابيث، إلا شركة من المغامرين البحريين. واضطروا خطوة فخطوة أن يجمعوا الجنود وأن يسلحوا سفنهم وعند ذلك وجدت هذه الشركة التجارية بما لها من تقاليد الكسب والربح، أنها لا تتجر فحسب في الأفاويه والأصباغ والشاي والجواهر، بل فـي إيـرادات الأمراء وممتلكاتهم وفي مقدرات الهند. جاءت لتشتري وتبيع، ووجدت نفسها تصيب قرصنة هائلة. ولم يكن هناك من إنسان يتحدى تصرفاتها. أعجيب إذن أن قادتها وضباطها وموظفيها، كلا بـل كتبتهـا وجنودهـا العاديين، كانوا يعودون إلى إنجلترة محملين بالغنائم؟ إن رجالاً في مثل هذه الظروف وتحت رحمتهم أراضٍ عظيمة غنية، لا يستطيعون أن يميزوا بين ما يجوز أن يفعلوه وما لا يجوز. كانت في أعينهم أرضا عجيبـة ذات شمس عجيبة الضياء. وكان سكانها السمر القاتمون جنسا مختلفًا، يخرج عن مجـال عطفهـم. وكانـت معابدها ومبانيها تبدو كأنما تقيم أركان معايير للسلوك وهمية سخيفة.

وكانت خواطر الإنجليز في بلادهم تضطرب وتتبلبل عندما يعود هؤلاء القادة والموظفون إلى بلادهم ويتراشقون بالتهم السوداء ما بين ابتزازات وقساوات. وأصدر البرلمان قرارا بلوم كلايف. فقضى على نفسه انتحارا في (١٧٧٤). وفي (١٧٨٨) حوكم وارن هاستنجس وهو مدير عظيم آخر للهند وقضي ببراءته (١٧٩٢). وكان ذلك الموقف موقفًا غريبا لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم. فإن البرلمان الإنجليزي ألفى نفسه يحكم فوق شركة لندنية للتجارة، كانت بدورها تتسلط على إمبراطورية أعظم وأكثر سكانًا من كل ممتلكات التاج البريطاني. وكانت الهند في نظر كتلة الشعب الإنجليزي أرضا شاسعة خيالية سخيفة لا يكاد يستطاع الوصول إليها. لم يذهب إليها إلا فقراء الشبان من المغامرين ليعودوا إلى وطنهم بعد سنوات كثيرة سادة مسنين أغنياء جدا حادي الطبع جدا. وكان من العسير على الإنجليز أن يتصوروا ماذا يمكن أن تكون عليه حياة ملايين السمر الذين لا يحصرهم عدد في ضياء شمس الشرق. وكانت أخيلتهم تأبى عليهم حمل هذه الصورة. فظلت الهند شيئًا غير حقيقي يشابه في غرابته الروايات الرومانسية ومن ثم كان من المستحيل على الإنجليز، أن يقيموا أي إشراف ورقابة فعالين، على تصرفات الشركة.

١٢ - تقدم الروسيا إلى المحيط الهادي

وعلى حين كانت شبه الجزيرة العظيمة في الجنوب من آسيا تقع على هذا النحو تحت سلطان التجـار البحريين الإنجليز، كان يحدث في الشمال رد فعل آخر لأوروبا على آسيا معادل لذاك عظيم. ولقد سـبق أن نبأنا القارئ كيف استردت الدول المسيحية في الروسيا استقلالها من الرهط (الحشد) الذهبي، وكيف أصـبح قيصر الروسيا سيدا على جمهورية نوفجورود؛ وأخبرناك في القسم الخامس من هذا الفـصل عـن بطـرس الأكبر وهو ينضم إلى جماعة الملوك العظام ثم يسوق الروسيا في الواقع إلى أوروبا سوقًا. ونهـوض هـذه الدولة الكبرى التي تتوسط العالم القديم والتي لا هي بالشرقية تماما ولا هي بالغربية تماما، نهوض ذو أهمية قصوى لمقدراتنا الإنسانية.

كذلك نبأناك في الفصل ذاته عن ظهور شعب مسيحي في السهوب، هم القوزاق الذين كانوا حدا فاصلاً بين زراعة بولندة وهنغاريا الإقطاعية من ناحية الغرب وبين التتار من ناحية الشرق. وكان القوزاق يمثلـون شرق أوروبا المتوحش، وكانوا في كثير من الوجوه لا يختلون كثيرا عن القسم الغربي المتوحش في الولايات المتحدة إبان منتصف القرن التاسع عشر. فكل من أحنق عليه صدر الروسيا حتى لم تعد تطيق أن تئويه، من أمثال المجرمين ثم الأبرياء المضطهدين، وموالي الأرض الثائرين، وأعضاء الشيع الدينيـة، واللـصوص، والأفاقين والقتلة، كانوا يلوذون بملجأ السهوب الجنوبية، ثم يبدءون حياتهم من جديد ويقاتلون من أجل الحياة والحرية ضد كل من البولنديين، والروسيين، والتتار على السواء. ولا مرية في أن لاجئين من التتـار فـي الشرق كانوا ينضمون كذلك ويزيدون في عدد خليط القوزاق. وكان أكبر هذه القبائـل المترحلـة الجديـدة، قوزاق أوكرانيا على نهر الدنيبر وقوزاق الدون على نهر الدون. وضم هؤلاء القوم على الحدود في بطء إلى الخدمة الإمبراطورية الروسية، على نفس الطريقة التي تم بها تحويل عشائر الأراضي المرتفعة (هايلاند) في اسكتلندة إلى فرق أنشأتها الحكومة البريطانية. فمنحوا أراضي جديدة في آسيا. فأصبحوا سلاحا ضـد قـوة المغول المترحلين المضمحلة، في التركستان في مبدأ الأمر، ثم عبر سيبيريا حتى نهر العامور.

وانحلال الطاقة المغولية في القرن السابع عشر والثامن عشر أمر يعسر علينا جـدا أن نفـسره. فلـم ينقض قرنان أو ثلاثة على أيام جانكيز وتيمورلنك، حتى انحدرت آسيا الوسطى من فترة رفعة عالمية إلـى حالة كلال ووهن سياسي مفرط. ولعل تغيرات في المناخ، وأوبئة لم يسجلها التاريخ، وعدوى من طراز يشبه الملاريا، قد قامت بدورها في هذا التأخر الذي ألم بشعوب آسيا الوسطى، والذي ربما لا يكـون إلا تـأخرا موقوتًا إذا قيس إلى معيار التاريخ العام. ويظن بعض الثقات أن انتشار التعاليم البوذية من الصين إلى تلـك الأصقاع كان له أيضا أثر مهدئ لنفوسهم. ومهما يكن من شيء، فلم تعد شعوب التتار والترك المغولية عنـد حلول القرن السادس عشر محافظة على ضغطها نحو الخارج، بل تحولت بهم الحال، فأصبحوا هـم الـذين يغزون ويقهرون ويدفعون إلى الخلف من كل من الروسيا في الغرب والصين في الشرق.

وظل القوزاق ينتشرون نحو الشرق طوال القرن الثالث عشر من الروسيا الأوربية ويستقرون حيثمـا تهيأت لهم الظروف الزراعية. وكانت نطاقات من التحصينات والمحطات تقوم مقام التخوم المتحركـة لهـذه

المستقرات في الجنوب، حيث كان التركمان لا يبرحون أقوياء ناشطين؛ ومع ذلك فإن الروسيا مـن الجهـة الشمالية الشرقية لم تكن لها تخوم حتى وصلت إلى المحيط الهادي نفسه. وكانت الصين في نفس الوقت فـي دور اتساع. إذ إن الغزاة "المانشو" بثوا في الشئون الصينية طاقة جديدة، وأدى اهتمامهم بمناطق الشمال إلـى توسع شمالي عظيم لحضارة الصين وسلطانها في كل من منشوريا ومنغوليا. وهكذا حدث عند منتصف القرن الثامن عشر أن تلاحم [1] الروسيون والصينيون في منغوليا. وكانت الصين في تلك الفترة تحكم التركـستان الشرقية، والتبت ونيبال، وبورما وأنام.

وكان عصر المانشو في الصين فترة نشاط أدبي جسيم أيضا، مماثل لعصور نظرائهم في أوربـا وإن استقل عنها الاستقلال كله، فإن الرواية الصينية والقصة الصينية القصيرة ارتفعتا إلى مستويات عاليـة فـي الأسلوب والإمتاع، وحدثت للدرامة الصينية تطورات هامة. وصورت منـاظر أرضـية ممتـازة كثيـرة، واخترعت الطباعة بالألوان، وتعلم الناس الحفر على النحاس من المرسلين اليسوعيين، وارتقى صنع الخزف (البورسلين) الصيني إلى ذرا لا مثيل لها من الرفعة. ولكن السمة الجمالية لهذا الخزف انحطـت مـع تقـدم الزمن بالقرن الثامن عشر بسبب مسارعة الفخرانية إلى تكييف أنفسهم طبقًا لما كانوا يعدونه الذوق الأوربي. وتواصل التصدير طيلة هذا القرن كله إلى السرايات والقصور والـدور الريفيـة التـي للنـبلاء والأعيـان الأوربيين. وقلدت صناعة الخزف الأوربية المنتجات الصينية ونافستها ولكنها لم تفقها قط. وابتـدأت أيـضا تجارة الشاي الأوروبية.

سبق أن ذكرنا غزوا يابانيا للصين (أو بالحري لكوريا). ولا تلعب اليابان فيما عدا عدوانها هذا علـى الصين، أي دور في تاريخنا قبل القرن التاسع عشر فإنها – شأن الصين تحت حكم أسرة منج – قد نـصبت نفسها في حزم وعزم ضد تدخل الأجانب في شئونها. فكانت قطرا يمضي قدما في ظل حياتـه الحـضارية الخاصة. وهو مختوم ختما سحريا ضد كل دخيل. وقد حدثناك عنها بالنزر اليسير حتى الآن لأن كل ما لدينا كان ذلك النزر اليسير. فإن تاريخها الجميل الجذاب الرومانسي الشعري يقف بمعزل عـن الدرامـة العامـة للشئون الإنسانية. كان سكانها في معظم أمرهم من المغول، بهم مسكة من شعب أبيض شائق جـدا يـوحي بطراز نوردي بدائي، هو الأينو (Ainu) المشعرون في الجزائر الشمالية. ويلوح أن مدنيتها قد استمدت كلها تقريبا من الصين وكوريا؛ وأن فنها تطور خاص للفن الصيني وكتابتها تكييف للكتابة الصينية.

---

[1] تلاحمت الأشياء: تضامت وتلاءمت بعد أن كانت منفصلة. (المترجم).

١٣- رأي جيبون في العالم في ١٧٨٠

كنا نعالج في هذه الأقسام الاثنا عشر السابقة عصر فرقة وانقسام، وقوميات متفرقة. وسبق أن شبهنا تلك الفترة في القرنين السابع عشر والثامن عشر بفترة "عطل وخلو" من الدافع الأعلى توقف فيها تقدم البشرية نحو وحدة تعم العالم أجمع. وقد حرمت عقول الناس طوال هذه الفترة من كل "فكرة موحدة جامعة". فإن قوة دفع الإمبراطورية قد بلغ من إخفاقها أن الإمبراطور لم يعد يزيد عن فرد بين جماعة من الأمراء المتنافسين، كذلك ذهب حلم "عالم المسيحية" أدراج الرياح. وكانت الدول المتطورة تتدافع بالمناكب في كل أرجاء العالم قاطبة؛ وانقضى حين من الدهر كان يبدو أثناءه أنها سوف تمضي تتدافع بالمناكب إلى ما شاء ا دون أن تُلم بالإنسانية أية نازلة عظيمة. وقد وسعت المكتشفات الجغرافية العظيمة في القرن السادس عشر الموارد الإنسانية إلى درجة أنه بالرغم من انقساماتهم، وبالرغم مما كانت تجره الحروب والسياسات على شعوب أوربا من الخسارة والضياع، فإن تلك الشعوب استمتعت بظلال رخاء جسيم متزايد. وراحت أوربا الوسطى تنتعش انتعاشًا مطردا مما حل بها من جراء حرب الثلاثين سنة.

وإذا نحن ألقينا إلى الخلف نظرة إلى تلك الفترة التي بلغت ذروتها في القرن الثامن عشر، كما قد نستطيع أن نفعل ذلك اليوم، ورأينا أحداثها بالعلاقة إلى القرون التي سبقتها، وإلى الحركات العظيمة في الزمن الحاضر، استطعنا أن ندرك كم كانت أشكالها السياسية موقوتة غير دائمة وعرضية طارئة وكم كانت ضماناتها غير ثابتة. كانت لا جرم عرضية طارئة على صورة لم تسبق لأي عصر آخر، وكانت عصر تمثل وإبلال بل هي كانت توقفًا سياسيا، وتجميعا لفكرات البشر وموارد العلم توطئة لمجهود إنساني أرحب. على أن العقل المعاصر لها لم يردها على هذه الصورة. فإن إخفاق الفكرات الخلاقة العظيمة بشكلها الذي صيغت فيه في القرون الوسطى، غادر الفكر الإنساني حينًا من الدهر محروما من هداية الفكرات الخلّاقة؛ فإن المتعلمين وذوي الخيال الفسيح أنفسهم كانوا يرون العالم بطريقة عارية من كل روعة؛ فلم يعد في نظرهم مكانًا تتفاعل فيه الجهود والمصائر بل مشهدا تلتمس فيه الفضائل الفاترة حسن الجزاء. ولم يكن أصحاب العقول المحافظة والقانعة هم وحدهم الذين كانوا يتفيئون – في عالم حافل بالتغيرات السريعة – أكناف هذا الاطمئنان الذي يجزم ببلوغ الشئون الإنسانية مرحلة الثبات والاستقرار. بل لقد أظهر نفس النزعة أصحاب الفطن القوية الناقدة والثائرة، وذلك لامتناع وجود أي حركات تدعم روح المجتمع وتشد أزره فإنهم أحسوا بأن الحياة السياسية تغيرت ولم تعد على ما كانت عليه من العجلة الفاجعة؛ فإنها أصبحت كوميديا مؤدبة. وكان القرن الثامن عشر قرن كوميديا أصبحت في النهاية عابسة جهمة. ولا يكاد يتصور العقل أن ذلك العالم عالم منتصف القرن الثامن عشر كان في طوقه أن ينتج عظماء من أمثال يسوع الناصري ولاجوتاما ولا فرنسيس الأسيسي، ولا إناطيوس ليولا. فلو استطاع الإنسان أن يتصور وجود جون هس آخر في القرن الثامن عشر، فإن من المستحيل عليه تصور وجود أي إنسان لديه ما يكفي من الحمية لإحراقه.

فإلى يوم بدأت حركات تيقظ الضمير في بريطانيا التي تطورت إلى نهضة المنهاجيين (Methodists) [1] لا نكاد نلمح في أوربا أية بارقة شك تشير إلى أنه لا تزال توجد بين يدي جنسنا واجبات عظيمة لا بد له من إتمامها، ولا أن اضطرابات هائلة كانت على الأبواب، ولا أن أخطارا لا حصر لها كانت تغشّى بالسدفة والظلام طريق الإنسان في الزمان والفضاء، وأن قطعه لذلك الطريق لا بد له من أن يظل حتى النهاية جهدا عظيما ورهيبا.

عاودنا في هذا التاريخ مرة بعد أخرى الاقتباس عن كتاب "اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها" لجيبون. ونحن الآن على أن نقتبس منه لآخر مرة ثم نستودعه ا ، ذلك أننا وصلنا إلى العصر الذي كتب فيه ذلك الكتاب. ولد جيبون في ١٧٣٧، وصدر آخر جزء من تاريخه في ١٧٨٧. على أن الفقرة التي نقتبسها كتبت فيما يرجح في ١٧٨٠. كان جيبون شابا رقيق الصحة متوسط الثراء، نال في أوكسفورد تعليما جزئيا متقطعا، ثم أتم دراساته في جنيف؛ وكان اتجاهه الذهني في جملته فرنسيا دوليا أكثر منه بريطانيا. وكان كبير التأثر بالنفوذ العقلي للفرنسي العظيم الذي يشتهر باسم فولتير (فرانسوا ماري أرويه دي فولتير، ١٦٩٤ – ١٧٧٨). كان فولتير مؤلفًا هائل الجد والتشمير، فإن سبعين سفرا له تزين رفوف كاتب هذه السطور، وهناك طبعة أخرى لمؤلفات فولتير ترفع العدد إلى أربعة وتسعين سفرا، وكان أكثر ما يعالجه شئون التاريخ والشئون العامة، وتراسل مع كاترين العظمى قيصرة الروسيا وفردريك الأكبر ملك بروسيا ولويس الخامس عشر ومعظم الرجال البارزين في ذلك الزمان. وكان إحساس جيبون وفولتير بالتاريخ قويا، وكلاهما قد وضع آراءه في الحياة الإنسانية على أكمل وأوضح وجه؛ وواضح أنهما كليهما كانا يريان أن النظام الذي كان يعيشان فيه وأعني به نظام الملكية، ونظام الطبقات الراقية الناعمة بالفراغ والامتيازات، ونظام الأقوام المحتقرين تقريبا أصحاب الصناعة والتجارة، ونظام العامة والفقراء والعمال المدوسين بالأقدام والمنزلين منزلة الإهمال، كان يبدو أثبت طريقة للعيش رآها العالم طَوال الدهر. فاعتنقا مبادئ الجمهوريين إلى حين، وأخذا يسخران من الادعاءات المقدسة للملكية؛ ولكن الروح الجمهورية التي راقت فولتير كانت "الروح الجمهورية المتوجة" في بريطانيا أثناء ذلك الزمان، التي كان فيها الملك مجرد الرأس الرسمي، وأول الجنتلمانية وأعظمهم.

وكان المثل الأعلى الذي يرفعان لواءه وبناءه هو المثل الأعلى القائل بوجود عالم مؤدب مهذب يكون فيه الرجال – وأعني بهم الرجال ذوي السجايا العالية، إذ ليس لغير هؤلاء وزن – في خجل من أن يكونوا قساة أو غلاظًا أو متحمسين، وتكون فيه مرافق الحياة فسيحة الجنبات رشيقة الحواشي، والخشية من هزؤ الناس أقوى معين للقانون على صيانة السلوك اللائق وضروب التوازن والانسجام في الحياة. وكان فولتير يحمل في صدره استعدادا للكره المتوقد للظلم، وما تدخلاته في نصرة من يضطهدون أو يساء إليهم من الرجال إلا الأنوار الساطعة في قصة حياته المديدة المعقدة. وإذ كان هذا هو الميل الذهني لدى جيبون

---

[1] المنهاجيون: هيئات دينية كثيرة نشأت عن الحركة الإنجيلية التي قام بها شارل وجون ويسلي في القرن الثامن عشر. (المترجم)

وفولتير، ولدى العصر الذي كانا يعيشان فيه، فإن من الطبيعي لديهما أن يجدا في وجود الديانة في العالم وبخاصة وجود الديانة المسيحية ظاهرة مربكة محيرة لا يكاد يوجد لها ما يبررها. وكان ذلك الجانب من الحياة يبدو لهما في مجموعه نوعا من الخبل في الكيان الإنساني. وما ذلك التاريخ العظيم الذي ألفه جيبون إلا مهاجمة للمسيحية في جوهره، بوصفها السبب الفعال للتدهور والسقوط. فكان يمجد بلوتوقراطية [1] روما الفجة الغليظة ويتخذ منها مثلا عليا حاول أن يبثها في عالم مكون من جنتلمانية ممتازين نشئوا على غرار القرن الثامن عشر، كما بين كيف أن سقوطها أمام هجمات البرابرة القادمين من الخارج جاء نتيجة لفسادها الداخلي من جراء المسيحية. وقد حاولنا في كتابنا التاريخي هذا أن نقيم معالم تلك القصة تحت ضياء أصح وأحسن. وكان فولتير يرى في المسيحية الرسمية "شنعة L'infame"، وشيئًا يحد من حياة الناس، ويتدخل في أفكارهم، ويضطهد المخالفين الذين لا يضرون أحدا. والواقع أنه لم يكن في "فترة العطل والخلو من الدافع الأعلى" هذه إلا أثر ضئيل جدا من النور أو الحياة في أي من مسيحية روما (السلفية) أو كنائس الروسيا الأرثوذكسية الخاضعة وكنائس الأمراء البروتستانت. وكان من العسير على الإنسان في فترة هذا "الخلو من الدافع الأعلى" التي يثقل الجو فيها وجود كثرة من الأساقفة المداهنين والقساوسة المكرة – أن يدرك أي نيران توقدت جمرتها يوما ما في قلب المسيحية، وأي نيران من الشهوات السياسية والدينية لعلها لا تزال ممكنة التوقد في قلوب الناس.

وأتم جيبون في نهاية سفره الثالث بيانه عن تصدع الإمبراطورية الغربية. ثم تساءل عند ذلك هل تصاب المدنية يوما ما بانهيار يماثل ذاك؟ وأدى به ذلك إلى استعراض حال الشئون المعاصرة له (١٧٨٠) وإلى مقارنتها بحال الأمور أثناء اضمحلال روما الإمبراطورية. وعندي أن من المناسب جدا لخطتنا العامة في هذا الكتاب أن نقتبس هنا بعض فقرات من تلك الموازنة، فما من شيء يستطيع أن يوضح خيرا منها الحال العقلية لدى المفكرين المتحررين في أوروبا إبان بلوغ "فترة العطل والخلو من الدافع الأعلى" في عصر الدول الكبرى أوجها من الناحية السياسية. وذلك قبل ظهور أول بوادر تلك القوى العميقة السياسية والاجتماعية، قوى التفكك التي أنتجت في النهاية حالة التساؤل المستوقفة للنظر الموجود في عصرنا هذا.

كتب جيبون عن الانهيار الغربي يقول: "ربما طُبقت هذه الثورة الرهيبة تطبيقًا نافعا يعود بالعظة والعبرة المفيدة على عصرنا الحاضر. فإن من واجب الوطني أن يؤثر ويزكي مصالح ومجد وطنه وحده دون أي شيء عداه. على أنه ربما أبيح للفيلسوف أن يوسع وجهه نظره، وأن يعد أوربا جمهورية واحدة عظيمة، أوشك سكانها المتنوعون أن يصلوا إلى نفس المستوى من التأدب والتهذيب. ولسوف يستمر توازن القوى في التأرجح، وسوف يتعاور على رخاء مملكتنا أو الممالك المجاورة لها غِير الدهر ما بين تسام وتدل؛ على أن هذه الأحداث الجزئية لا تستطيع بالضرورة أن تسدد سهما يجرح سعادتنا العامة، وأعني بذلك مجموعة الفنون والقوانين وآداب السلوك، التي تميز الأوربيين ومستعمراتهم عن الجنس البشري تمييزا له جدواه التامة. فإن شعوب الكره الأرضية المتوحشين هم الأعداء المشتركون للجماعة الإنسانية الممدنة، ولعلنا

---

[1] البلوتوقراطية Plutocracy: حكومة الأغنياء. (المترجم)

نتساءل في تطلع القلق ألا تزال أوربا مهددة بتكرار تلك النوازل التي سبق أن ألمت بقوى رومـا ونظمهـا. وربما وضحت نفس التأملات سقوط تلك الإمبراطورية الجبارة وشرحت الأسباب المحتملة لحالة الطمأنينـة الفعلية التي نحن عليها اليوم.

"كان الرومان بمجهلة لمدى الخطر المحيق بهم وعدد أعدائهم. وكانت المناطق وراء الراين والـدانوب أي الأقطار الشمالية لأوربا وآسيا غاصة بقبائل لا يحصيها حصر من الصيادين والرعاة وهم فقراء جشعون جياشون بالثورة والعصيان، متصفون بالجرأة عند اشتباك القتال وهم أشوق ما يكونون إلـى انتهـاب ثمـار الكدح والجد الذي يبذله من يجاورهم من شعوب عاملة. كان العالم المتبربر يضطرم بدافع الحرب الـسريع الجياش، وكان سلام بلاد الغال أو إيطاليا يتزلزل بما يثور في الصين من ثورات. فراح الهون الذين كـانوا يفرون أمام عدو مظفر، يجعلون وجهتهم الغرب، وتزايد السيل وطما بمن كان ينضم إلـيهم مـن الأسـرى والأحلاف. واتخذت القبائل الهاربة التي خضعت للهون، روح الغزو بدورها؛ وكان طابور البرابرة الـذي لا نهاية له يضغط على الإمبراطورية الرومانية بقوة متجمعة متكاثفة. ولئن دمر الأولون منهم، لقد كان المكان الشاغر يملؤه على الفور مهاجمون جدد. وليس في المستطاع بعد ذلك أن تجيء مـن الـشمال مثـل هاتـه الهجرات العاتية. فأما السكون الطويل الذي يعزى إلى نقص عدد السكان، فهو النتيجة السعيدة لتقدم الفنـون والزراعة. فبدلاً من ألا تقوم بألمانيا إلا بضع قرى خشنة متناثرة تناثرا بعيدا وسط غاباتها ومستنقعاتها، فإن ألمانيا تُصدر اليوم قائمة بألفين وثلاثمائة مدينة مسورة؛ وتأسست على التعاقب ممالك الـدانمارك والـسويد وبولندة المسيحية. ومد تجار الهانسا ومعهم الفرسان التيوتون مستعمراتهم على امتداد ساحل بحر البلطيـق، حتى خليج فنلندة. ومن خليج فنلندة حتى المحيط الشرقي، تتخذ الروسيا الآن شكل إمبراطورية قوية ممدنـة. ويستقدم المحراث والمنوال والكور إلى ضفاف الفولجا والأوربي واللينا؛ وعلمت أشد قبائل التتـار شراسـة كيف ترتعد وتطيع.

"وكانت إمبراطورية روما راسخة البنيان بسبب تضامن أعضائها الفريد الكامل. ولكن هـذا الاتحـاد اشتُري بضياع الحرية القومية والروح العسكرية؛ وكانت الولايات الذليلة وهي خلو من الحيـاة والحركـة، تتوقع أن تكون سلامتها على يد الجيوش والحكام المرتزقة الذين كانوا يأتمرون بأوامر بلاط بعيـد الـشقة. وكانت سعادة مائة مليون من الأنفس تتوقف على الجدارة الشخصية لرجل أو رجلين، ربما كانا طفلين ممـن أفسد عقولهم طراز تربيتهم وترفهم وسلطتهم الاستبدادية. وأوروبا اليوم مقسمة إلى اثنتي عشرة مملكة قويـة وإن تكن غير متعادلة، ثلاث منها إمبراطوريات عظمى، هذا إلا عدد من الدول الصغرى، وإن كانت مستقلة. فالفرص أمام مواهب الملوك والوزراء تضاعفت، وذلك على الأقل بقدر تكاثر عدد حكامها. وربمـا تـولى الأحكام في الشمال جوليان آخر (أي فردريك الأكبر) أو سميراميس أخرى (يعني كاترين الكبيـرة قيـصرة الروسيا)، على حين يغلب النعاس من جهة أخرى على أركاديوس (لويس السادس عشر)، وهـو نوريـوس (شارل الثالث ملك إسبانيا)، الجالسين على عرش آل بوربون. وقد أوقفت مساوئ الطغيان عند حدها نتيجـة لما للخوف والخجل من تأثير متبادل. فاكتسبت الجمهوريات النظام والثبات، وانطوت الملكيات على مبـادئ الحرية، أو مبادئ القصد والاعتدال على أقل تقدير؛ ودخل إلى أشد الدساتير نقصا شيء من معنى الـشرف

والعدالة بفضل ما ساد الزمان على الجملة من خلق حسن. وفي زمن السلم كانت سرعة تقدم العرفان والصناعة تزداد بتنافس مثل هذا الحجم من المتبارين الناشطين. وفي زمن الحروب تتمرس القوات الأوروبية بنضال معتدل غير حاسم. فلو خرج من صحراء التتار غاز متبربر، فلا بد له من أن يقمع على التوالي فلاحي الروسيا الأشداء، فجيوش ألمانيا العديدة، فنبلاء فرنسا الشجعان فرجال بريطانيا الأحرار الجريئي الجنان؛ الذين لعلهم يتحالفون من أجل دفاعهم المشترك. ولو أن البرابرة المظفرين حملوا الاسترقاق والتدمير حتى المحيط الأطلسي، لنقلت عشرة آلاف من السفن بقايا الجماعة الممدنة إلى حيث لا تنالها أيديهم؛ وعند ذلك تنتعش أوربا مزدهرة في العالم الأمريكي المليء بمستعمراتها ونظمها.

"والبرد والفقر وحياة الخطر والمتاعب تخلع على قوة البرابرة وشجاعتهم متعة وحصانة. ولقد كانوا في كل عصر كلا يوقع فادح المتاعب على أهل التأدب والسلام من أمم الصين والهند وفارس، الذين أهملوا وما يزالون يهملون أن يقيموا لأنفسهم عمادا يوازن تلك القوى الطبيعية بالالتجاء إلى موارد الفن العسكري. وكانت الدول الحربية النزعة في الأزمان القديمة أمثال الإغريق ومقدونيا وروما، تنشئ جنسا من الجنود، فتمرن أجسامهم، وتنظم شجاعاتهم وتكثر من عددهم بما تحدث في قواتهم من تطورات منظمة، وتحول ما في حوزتها من حديد إلى أسلحة متينة نافعة. ولكن هذا الاستعلاء الحربي ما لبث أن انحط بالتدريج وبشكل غير محسوس بظهور قوانينهم وآداب سلوكهم. وأدت السياسة الضعيفة التي اتجها قسطنطين وخلفاؤه إلى تسليح المرتزقة البرابرة وتدريب شجاعتهم الخشنة على فنون القتال، - فعاد ذلك على الإمبراطورية بالخراب. ولقد غير اختراع البارود كل أصول الفن العسكري؛ والبارود يطوع للإنسان السيادة على أقوى عوامل الطبيعة شكيمة وهما الهواء والنار. ووضعت علوم الرياضيات والكيمياء والميكانيكا والعمارة في خدمة الحرب؛ وأخذ كل خصمين متنازعين يطبقان على بعضهما البعض أحكم طرائق الهجوم والدفاع. وربما لاحظ بعض المؤرخين في شيء من الغضب أن نفقه معدات الحصار قد تكفي لتأسيس مستعمرة مزدهرة والمحافظة عليها. ومع ذلك فليس في مستطاعنا أن نتكدر لأن تخريب مدينة عمل لا بد أن يتكلف ثمنًا غاليا وأن تعترضه صعوبة كبيرة، أو أن شعبا مجدا يجب أن تحميه فنونه، التي تبقى بعد فناء وانحلال الفضيلة العسكرية والتي تكون من عوامل ذلك الفناء. فالآن تنهض المدافع والتحصينات حاجزا منيعا في وجه خيل التتار؛ كما أن أوربا أمست بمأمن من أية غارة مستقبلة يشنها البرابرة؛ إذ إنه يجب عليهم قبل أن يفتحوا ويقهروا أن يتخلوا أولاً عن همجيتهم.

"فإن ساورك الشك في هذه الآراء، أو تبينت خطأها، فما يزال هناك مصدر متواضع للراحة والأمل. فإن مكتشفات الملاحين القدامى والعصريين والتاريخ الداخلي أو التقاليد لأشد الشعوب استنارة، -تظهر "المتوحش الإنساني" عاريا في كل من جسده وعقله، ومجردا من "القوانين والفنون والفكرات، بل من اللغة تقريبا". وعن هذه الأحوال الوضيعة، ولعلها على وجه العموم حالة الإنسان البدائية، ارتفع الإنسان شيئًا "فشيئًا" إلى السيطرة على الحيوان وإلى تسميد الأرض، وإلى اختراق لجات المحيط، وإلى قياس أطباق السماوات. وكان تقدمه في تحسين وتدريب مواهبه العقلية والجسمية منوعا غير منتظم، بطيئًا بطئًا لا نهائيا في البداية، متزايد السرعة بعد ذلك، متضاعفها درجة فدرجة. وكم تلت عصور الرفعة المضنية لحظات

انحدار سريع. وأحست أجواء الكرة الأرضية المختلفة تقلبات النور والظلام. على أن خبرة أربعة آلاف سنة، يجب أن توسع آفاق آمالنا، وأن تقلل من مخاوفنا. ولسنا بقادرين أن نبلغ الكمال. على أنه مـن الممكـن أن يفكر المرء وهو على جانب الأمانة أن شعبا واحدا لن ينتكس إلى حالة همجيته الأصلية ما لم يتغيـر وجـه الطبيعة.

"فمنذ اكتشاف الفنون لأول مرة بثت الحروب والتجارة والحماسة الدينية بين متوحشي الأزمان القديمة والعالم الجديد، تلك الهبات التي لا تقدر، بأن طفقت تنشرها نشرا متعاقبا على الأجيـال؛ وإذن فلـيس فـي الإمكان أبدا أن تزول. ولذا فإننا نستطيع أن نوافق على ذلك الاستنتاج السار القائل بأن كل عصر في العالم قد زاد وما يزال يزيد – في الثروة الحقيقية والسعادة والعرفان لدى الجنس البشري وربمـا زاد فـي فـضيلته أيضا".

١٤- الهدنة الدينية تشارف نهايتها

ومن أمتع مظاهر قصة أوربا هذه في القرن السابع عشر ومستهل الثامن عشر، أثنـاء دور الملكيـات العظمى والبرلمانية، ما نراه من الاستسلام النسبي في العمال والفلاحين. والظاهر أن نيران العصيانات التي شبت إبان القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر قد خمدت تماما. ذلك بأن بعـض التـسويات الخشنة الفجة خفضت من حدة الخلافات الاقتصادية في الفترة السابقة، إذ أحدث اكتـشاف أمريكـا انقلابـا وتغييرا في معيار الأشغال التجارية والصناعة، وأدخل إلى أوربا قدرا ضخما من المعادن النفيسة فـصنعت نقودا، وزاد في العمل ونوعه. وامتنعت أسباب الشقاء إلى حين. ومر حين من الزمن لم تعـد فيـه الحيـاة والعمل شيئًا لا يطاق عند جماهير الفقراء. ولكن لم يحل هذا بالطبع دون وجود الكثير من الـشقاء والتـذمر الفردي، أن كان الناس يعيشون وإلى جوارهم على مدى الدهر كله الفقراء، بيد أن هذا الشقاء والتذمر كـان موزعا متناثرا. فأصبح من ثم همهمة لا تصل إلى الآذان.

وكان لعوام الناس في الفترة السابقة فكرة يتبلورون حولها وهي فكرة الشيوعية المسيحية. وقد وجـدوا في أمثال ويكليف من القساوسة والعلماء المنشقين قيادة مثقفة وإذ إن الحركة الداعية إلى نهضة في المسيحية استنفدت قوتها، وإذ إن العقيدة اللوثرية نكصت في زعامتها عن يسوع الناصري إلى الأمراء البروتـستانت، فقد نضب معين ذلك التماس والتفاعل الذي تهيأ بين الأذهان الجديدة للطبقة المتعلمة وبين الأذهـان الأميـة. ومهما تبلغ ضخامة عدد الطبقة المهيضة الجانب، ومهما يبلغ التطرف بشقاوتها، فلن يكون في إمكانها القيـام باحتجاج فعال حتى تصل إلى التكتل بواسطة تكوين فكرة عامة تجمع شمل أفرادها. فإن أصحاب الأفكار من متعلمي الرجال والنساء ألزم وأشد ضرورة لأية حركة سياسية شعبية منهم إلى أية عملية سياسية أخرى. فإن الملكية تتعلم الحكم عن طريق الحكم، وإن للأوليجركية – من أي طراز كانت – لتعليما تتلقاه مـن إدارتهـا للشئون؛ ولكن ليس لدى الرجل العامي وأعني به الفلاح أو الكادح أي تجربة في الشئون الكبيـرة، فهـو لا يستطيع أن يعيش سياسيا بغير خدمات المتعلمين وإخلاصهم وإرشادهم. فالإصـلاح الـديني، أي الإصـلاح الديني الذي نجح ووفق، وأعني به الإصلاح الديني للأمراء، قد قضى بتحطيمه للوسائل والفرص التعليميـة على العالم الفقير وطبقة القسوس قضاء كبيرا وهم الذين جعلوا الإصلاح ممكنًا بإقناعهم الجمهور.

هذا ولم يفت أمراء الأقطار البروتستنتية أن يدركوا منذ البداية أي عنـدما اسـتولوا علـى الكنـائس الوطنية، ضرورة الاستحواذ على الجامعات أيضا. وكانت فكرتهم عن التعليم هي فكرة الاستيلاء على أذكياء الشبان واستخدامهم في خدمة سادتهم. وكان التعليم يعد عندهم فيما وراء ذلك شيئًا ضارا. وعلى ذلك لم يبق للفقر إلا وسيلة واحدة للتعلم هي الاستعانة بنصر يأخذ بيده. وبدهي أن جميع الملكيات العظمى كانت تـشجع التعليم بطريقة هي بالمهرجانات أشبه، ففيها أقيمت الأكاديميات والجمعيات الملكية، ولكن هذه الأوضاع لم تفد إلا طبقة صغيرة من العلماء الخاضعين، وكانت الكنيسة كذلك تعلمت ألا تثق في المتعلم الفقير. كذلك حـدث في الجمهورية العظيمة الأرستقراطية المتوجة في بريطانيا، نفس التناقص في الفـرص التعليميـة. ويقـول هاموند في بيانه عن القرن الثامن عشر: "إن كلا من الجامعتين القديمتين، كانت للأغنياء. وهناك فقـرة فـي

ماكولي تصف حالة أكسفورد وما كانت عليه من بذخ وأبهة عند مختتم القرن السابع عشر، "عندما جلس مديرها الدوق أورموند الوقور في ثيابه الموشاة على عرشه تحت السقف المنقوش في المسرح الشادوني [1]، يحيط به مئات من المتخرجين كل في ثياب رتبته، على حين كان يقدم إليه أنبل شبان إنجلترة في دعة ووقار بوصفهم طلابا لدرجات الشرف العلمية. لقد كانت الجامعة قوة، لا بالمعنى الذي يمكن أن تقال به تلك الكلمة عن جامعة مثل جامعة باريس القديمة، التي كان العلم فيها يستطيع أن يجعل البابوات يرتعدون فرقًا، بل بالمعنى القائل بأن الجامعة كانت جزءا من الجهاز الأرستقراطي المعترف به. وما كان يصدق عن الجامعات، كان يصدق عن المدارس العامة [2]. فلم يكن التعليم في إنجلترة مهد مجتمع، بل مهد هيئة من الناس، وليس مهد دولة، بل مهد جنس من الحكام الملاك". وكانت روح التبشير الديني قد فارقت التعليم في كل أرجاء أوربا. وإلى هذا، بل وأيضا إلى تحسن الأمور بانتشار الرخاء، ينسب طور الاستسلام هذا الذي ران على الطبقات الدنيا. فإنهم فقدوا عقولهم وألسنتهم، وكان الطعام يقدم إليهم وكفى. وكان المجتمع أشبه شيء بحيوان مسلوب الحيوية في أيدي الطبقة الحاكمة.

وفضلاً عن ذلك فقد دخلت تغييرات جسيمة على ما بين الطبقة والطبقة من تناسب. ومن أشق الأمور التي على المؤرخ أن يقفوها في مجتمع ما، تقدير القيمة النسبية للأملاك الكلية، التي تملكها في أي وقت أية طبقة خاصة في ذلك المجتمع. فإن هذه الأمور تتقلب تقلبا سريعا جدا. وتدل حروب الفلاحين في أوربا على دور تركز نسبي للأملاك في أيدي قلة من الناس بينما تشعر جماهير من الناس أنها قد شردت عن أملاكها وشملت حالة من السوء مشتركة. وبذلك تنتهج خطة العمل الجمعي. كان هذا هو الزمان الذي تسنمت فيه أسرة الفوجر [3] وأمثالها مراقي الرفعة والرفاهية، وهو زمان مالية دولية. ويبدو أنه قد صاحب الاستيراد الهائل للذهب والفضة والسلع إلى أوربا من أمريكا، عودة لحالة ثراء أوسع انتشارا بين الأفراد. وكان الفقراء على حالهم التي هم عليها من الشقاء والتعاسة، ولكن لعله لم يكن هناك فقراء بمثل العدد الأول نسبيا، كما أنهم كانوا مقسمين إلى أضرب عديدة من الطوائف التي لا تجمعها فكرات مشتركة. فأما في بريطانيا العظمى، فإن الحياة الزراعية التي فككها وزلزل أركانها مصادرات الأملاك إبان الإصلاح الديني، قد استقرت من جديد في نظام زراعة المستأجرين يعيشون من دون ملاك للأراضي عظام. وإلى جوار هذه المزارع الكبيرة، كان ما يزال يوجد أراض كثيرة مشاعة لرعي سائمة القرويين الأفقرين، كما كان هناك أراض كثيرة تزرع قطعا على أساس الملكية المشتركة للمجتمع. فأما الرجل المتوسط الحال، وحتى النوع الأفقر منه من الرجال المرتبطين بالأرض، فكانوا يعيشون عيشًا مطاقًا مقبولاً في (١٧٠٠). فإن مستوى الحياة وأعني به فكرة ما قد يطاق من العيش، كان مع ذلك في ارتفاع أثناء مستهل عهد الملكية العظمى.

---

[1] المسرح الشادوني: نسبة إلى جلبرت شلدون رئيس أساقفة كانتربري في ١٦٦٣ بناه على نفقته بأكسفورد وقد صممه المهندس رن. (المترجم).

[2] المدارس العامة Public Schools: هي المدارس الثانوية. (المترجم).

[3] أسرة فوجر Fuggers: أسرة سوابية من التجار كانت تعيش في أوجزبرج وبلغ من ثرائها أن كانت تنفق أحيانًا على حملات ملوك ألمانيا العسكرية. (المترجم).

وبعد انقضاء آن من الزمان، تبدو عملية تركز الثروة واتجاهها إلى أعلى وكأنما قد استؤنفت. فإن ملاك الأراضي العظام أخذوا يضعون أيديهم على الأراضي ويطردون الزراع الأحرار الأفقرين زرافات، وتزايدت من جديد نسبة الفقراء ونسبة القوم الذين كانوا يشعرون بأنهم يعيشون حياة من يحل بهم الفقر. وكان أكابر الرجال هم حكام بريطانيا العظمى الذين لا ينازعهم منازع، فنصبوا أنفسهم لإصدار قوانين – هي قوانين السياجات (The Enclosure Acts) – وهي التي كادت تفضي إلى مصادرة الأراضي غير المسوجة والأراضي المشاع، لمصلحة كبار ملاك الأراضي قبل كل إنسان. وانحدر صغار الرجال إلى مرتبة الأجراء كاسبي الأجور بعرق الجبين في الأراضي التي كانوا يملكون فيها في أحد الأيام حق الفلاحة والرعي.

ولم يصل الفلاح في فرنسا وأوربا عامة إلى مثل هذه الدرجة من الحرمان من ممتلكاته. فلم يكن عدوه هو صاحب الأرض بل الجابي؛ فكان يدفع إلى أرضه دفعا بدل أن يدفع إلى خارج أراضيه.

ومع مضي العهد بالقرن الثامن عشر يتضح لنا من أدب ذلك الزمان، أن معالجة شأن "الفقير" عادت فشغلت أذهان الناس ثانية، فإنا نجد كتابا من متوقدي الأذهان بين الإنجليز من أمثال ديفو (١٦٥٩ – ١٧٣١) وفيلدنج (١٧٠٧ – ١٧٥٤)، يفكرون أعمق التفكير في هذه المسألة. ولكن لم يحدث حتى ذلك الحين انتعاش للفكرات الداعية إلى الشيوعية والمساواة الموجودة في المسيحية البدائية. شأن ما كان يميز أزمان ويكليف وهس (Huss). فالبروتستانتية عند تمزيقها للكنيسة العامة، مزقت ردحا من الزمان فكرة التماسك العام، وحتى لو صح أن الكنيسة العامة في القرون الوسطى فشلت فشلاً تاما في تحقيق تلك الفكرة، فإنها كانت على كل حال رمزها.

وكان ديفو وفيلدنج رجلين أوتيا خيالاً عمليا أشد نشاطًا من خيال جيبون، فأدركا شيئًا من العمليات الاقتصادية التي كانت قائمة على قدم في زمانهما، وكذلك شأن أوليفر جولد سميث (١٧٢٨ – ٧٤)؛ فإن قصيدته "القرية المهجورة" (١٧٧٠) ليست إلا منشورا في موضوع السياجات متنكرا في زي قصيدة. ولكن ظروف جيبون لم تظهر قط الحقائق الاقتصادية أمام ناظريه ظهورا ناصعا جدا. فإنه كان يرى العالم في صورة كفاح بين التبربر والمدنية، على أنه لم يدرك شيئًا من ذلك النزاع الآخر الذي كان (جيبون) يطفو فوقه، وهو ذلك الكفاح الصامت غير المدرك، كفاح عامة الناس ضد الرجال القادرين الأقوياء الأثرياء الأنانيين. فلم يدرك تجمع عوامل الضغط التي أوشكت للفور أن تعصف بكل التوازن القائم بين "ممالكه الاثنتي عشرة القوية غير المتعادلة" أعني بين "إمبراطورياته المحترمة الثلاث" وما حولها من السفلة والزعانف من أصاغر المستقلين من الأمراء والأدواق الحكام ومن إليهم. وحتى الحروب الأهلية التي ابتدأت في المستعمرات البريطانية بأمريكا، لم توقظه إلى إدراك قرب نشوء ما نسميه اليوم "بالديمقراطية".

وقد يظن القارئ مما ظللنا نقوله حتى الساعة عن دفع الملاك العظام للمزارع الصغير والفلاح إلى خارج الأراضي، وعن اختطاف أرض المشاع وتركيز العقار في أيدي طبقة قوية شرهة ذات امتيازات، أن ذلك كان كل ما يحدث في الأراضي الإنجليزية في القرن الثامن عشر – إذ الواقع أنا اقتصرنا على ذكر أسوأ نواحي التغيير. وفي نفس الوقت الذي كان يحدث فيه هذا التغيير في الملكية، كان يحدث تقدم عظيم في

الزراعة. وليس هناك إلا القليل من الشك في أن طرائق الفلاحة التي يستخدمها الفلاحون وواضعو اليد على الأرض والمزارعون الصغار، كانت طرقًا عتيقة بالية مضيعة للجهد وغير منتجة نسبيا، وأن الملكيات والمزارع الخاصة الكبرى التي خلقتها قوانين السياجات كانت أكثر إنتاجا بكثير من الطرق القديمة (يقول حجة من الثقات إنها كانت تنتج عشرين ضعفًا). فاربما كان التغير أمرا ضروريا، على أن ما فيه من الشر لم يكن راجعا إلى حدوثه، بل إلى أنه إنما حدث لكي يزداد الأثرياء ثراء والفقراء عددا. أما منافعه فإن المالك الخاص الأكبر قطع الطريق دونها مختصا بها نفسه. فوقعت المضرة على المجتمع وإن استفادت هذه الطبقة الفائدة العظمى.

وهنا نبلغ واحدة من أعظم مشكلات حياتنا في الزمن الحاضر، وهي مسألة انحراف ثمار التقدم ومكاسبه عن طريقها الطبيعي. فقد انقضت مئات من السنين – ظهر فيها بتأثير العلم والبحث بوجه رئيسي، تحسن متواصل في طرائق إنتاج كل شيء تقريبا تحتاج إليه الإنسانية. فلو أن إحساسنا بالجماعة وعلمنا الاجتماعي كانا معادلين للواجبات المفروضة عليهما، فلن يكون هناك أدنى شك في أن هذه الزيادة الكبيرة في الإنتاج، كانت تعود بالنفع على المجتمع بأكمله، وكانت تتيح لكل فرد قدرا من التعليم ووقت الفراغ والحرية لم تحلم الإنسانية قط بمثله من قبل. ولكن على الرغم من أن مستوى المعيشة العام قد ارتفع، فإن الارتفاع تم بمعيار صغير غير مناسب إذ إن الأغنياء طوروا لأنفسهم حرية وترفًا لم يعهدهما العالم من قبل، كما تزايدت نسبة الأغنياء والخاملين من الناجحين وغير المنتجين في المجتمع؛ على أن هذا يفشل في تعليل النفع الكامل المستفاد. إذ حدث ثمة كثير من المضيعة التي لا فائدة تجنى من ورائها، فإن تجمعات هائلة من المادة والطاقة قد أنفقت في الحرب والاستعداد لها. وكرس شيء كثير من الجهد في سبيل تلك الجهود غير المجدية، التي تنفق في المنافسة الفاشلة في الأعمال التجارية. وظلت إمكانيات كثيرة بلا تطوير وتنمية بسبب ما أبداه الملاك ومحتكرو السوق والمضاربون من معارضة لاستغلالها الاقتصادي. ولم تتناول الطيبات التي ظل العلم والتنظيم يقربانها إلى متناول يد الإنسانية – تناولاً منهاجيا [(1)] ولم تستعمل إلى أقصى حدودها، ولكن تخاطفتها الأيدي وتجاذبتها الأصابع – واستمسك بها المغامرون المقامرون واستخدمت لغايات أنانية تمتّ إلى الغرور بسبب. وكان القرن الثامن عشر في أوربا وبوجه أخص في بريطانيا العظمى وبولندة عصر الملكية الخاصة. وكان القدح المعلى فيه "للمسعى الخاص" [(2)] الذي معناه في الممارسة العملية أن لكل فرد الحق في الحصول على كل شيء يستطيعه من أشغال المجتمع. ولسنا نعثر في الروايات العادية والمسرحيات وما إليها من الأدب الممثل للزمان على أي إحساس بالتزام الأفراد بأي شيء نحو الدولة في شئون الأعمال. إذ إن كل إنسان منطلق "لتكوين ثروته"، وليس هناك من يدرك أن من الخطأ أن يظل الإنسان طفيليا على المجتمع غير منتج، وأقل من هذا أن يشعر مالي أو تاجر أو صاحب صناعة، أنه يتناول لقاء خدماته للإنسانية أجرا أكثر مما ينبغي. كان ذلك هو جو الزمان الخلقي. وهؤلاء اللوردة والجنتلمانية الذين

---

(1) منهاجيا Methodically: أي متبعا للترتيب المنطق في البحث العلمي. (المترجم).

(2) المسعى الخاص أو الجهد الفردي Private Enterprise: جهود الأفراد في التجارة والأعمال الحرة. (المترجم).

كانوا يختطفون أرض الشعب المشاع، يفترضون امتلاك المناجم التي تحت أراضـيهم، ويحطمـون صـغار المزارعين الملاك [1] والفلاحين حتى يصلوا إلى مرتبة الأجراء المعدمين ولم تكن تخامرهم بعد هذا كله أية فكرة إلا أنهم إنما يعيشون عيشًا جديرا تماما بكل كرامة واستحقاق.

وكان يساير هذا التغيير في بريطانيا العظمى، أعني هذا الانتقال من فلاحة الرقاع التقليدية والمراعـي المشتركة إلى الزراعة الكبيرة الأكثر اعتمادا على العلم – تغيرات عظيمة جدا في صناعة الـسلع. وكانـت بريطانيا العظمى في القرن الثامن عشر زعيمة العالم في تلك التغيرات. فحتى ذلك الحـين وعلـى مـسار التاريخ أجمع منذ بداية المدنيات، كانت المصنوعات والمباني والصناعات في أيدي أرباب الحرف على وجه العموم وفي أيدي صغار المعلمين (الأسطوات) الذين كانوا يشتغلون في بيوتهم الخاصة. وكانـت تنـتظمهم نقابات، وهم في معظم الأمر سادة أنفسهم وأصحاب أعمالهم. فكانوا يكونون طبقة وسطى جوهرية مـستديمة لها وزنها. وكان بينهم الممولون الذين كانوا يخرجون الأنوال وما إليهـا، ويـزودون غيـرهم بالخـدمات، ويأخذون السلعة التي تتم، على أنهم لم يكونوا ممولين كبارا. فلم يكن هناك أصحاب مصانع أغنياء، بل كـان أغنياء العالم قبل ذلك الزمان هم أصحاب الأراضي العظام أو مسلفو النقود أو الممارسون لشئون النقـود أو التجار. ولكن حدث في القرن الثامن عشر أن بدأت طريقة جديدة هي تجميع صناعات بعينها رغبة في إنتاج أشياء بمقادير أكبر بطريقة توزيع نظامي للعمل، وشرع صاحب العمل مميزا من المعلم (الأسـطى) فـي أن يكون شخصا هاما. زد على ذلك أن الاختراعات الآلية أخذت تنتج الآلات التي تسهل عمل الإنتاج اليـدوي وتبسطه، والتي كان في الإمكان دفعها بقوة الماء ثم للفور بقوة البخار. إذ ركبـت فـي (١٧٦٥) آلـة وات Watt البخارية، وهو تاريخ عظيم الأهمية في تاريخ الحركة الصناعية. وكانت صناعة القطن مـن أوائـل الصناعات التي تحولت إلى الإنتاج في المصانع (وكان ذلك في الأصل بواسطة آلات تدفعها المياه) وتلا ذلك صناعة الصوف. وفي نفس الوقت لجأت صناعة صهر الحديد إلى فحم الكوك المصنوع من الفحم الحجـري وكانت حتى ذلك الحين تقتصر على أساليب صغيرة تعتمد على الفحم النباتي. وابتـدأت صـناعات الفحـم والحديد كذلك في الانتشار. وانتقلت صناعة الحديد من أرض ساسكس (Sussex) وسري (Surrey) المليئة بالغابات إلى مناطق الفحم. ولما وافت (١٨٠٠) كان هذا الانقلاب في الصناعة قد سار شوطًا صالحا وانتقل بها من الإنتاج الصغير بما يصحبه من أصحاب الأعمال الصغار إلى الإنتاج الكبير في كنف أصحاب أعمال كبار. فنشأت في كل مكان مصانع استعملت الماء بادئ بدء ثم ثنّت بقوة البخار. كان تغيرا ذا أهمية جوهرية في الاقتصاد البشري. ومنذ فجر التاريخ كان صاحب المصنع وصاحب الحرفة كما قلنا نوعا من أهل المدن أبناء الطبقة المتوسطة.

فالآن حلت محل مهارته الآلة وصاحب العمل، فأما هو فإنه أصبح إما صاحب عمل يستخدم إخوانـه، ويرقى درجات الغنى إلى حد التساوي بالطبقات الفنية الأخرى، أو ظل صانعا وانحط سريعا إلـى مـستوى

[1] صغار المزارعين الملاك Yeomen: وكانت ملكيتهم مدى حياتهم فقط أو تتوارث بقيود. (المترجم).

العامل الأجير، ويعرف هذا التغير العظيم في الشئون الإنسانية باسم الانقلاب الصناعي أو الثورة الصناعية. وقد بدأ ذلك الانقلاب في بريطانيا العظمى وظل ينتشر طيلة القرن التاسع عشر إلى العالم أجمع.

ومع تقدم الزمن بالثورة الصناعية، انفتحت هوة عظيمة بين صاحب العمل المستخدم لغيـره والعامـل المستخدم الأجير ففي الماضي كان كل عامل "منتج" يمني النفس بأن يصبح يوما ما معلما (أسطى) مـستقلاً. وبلغ الأمر بأصحاب الحرف الأرقاء في بابل وروما أن كانت تحميهم قوانين كانت تمكنهم من ادخار المـال وشراء حريتهم وإقامة عمل مستقل لأنفسهم. أما الآن فقد أصبح المصنع وعدده وآلاته شيئًا ضـخما بـاهظ النفقة، بالقياس إلى قدرة الصانع المالية. ولذا صار لزاما على الأغنياء أن يجتمعوا لينشئوا مشروعا. وكـان الائتمان ومعدات المصنع وأعني بهما "رأس المال" لازمين مطلوبين. ولم تعد إقامة الصانع "عمـلاً مـستقلاً بنفسه" مطمحا طبيعيا لمهرة الصناع. ومن ثم أصبح العامل منذ ذلك الحين عاملاً من مهده إلى لحده. ونشأت عند ذلك بالإضافة إلى أصحاب الأراضي والتجار والماليين الذين كانوا يمولون الشركات التجارية ويقرضون أموالهم للتجار والدولة، نشأت عند ذلك بالإضافة إلى أصحاب الأراضي والتجـار والمـاليين الـذين كـانوا يمولون الشركات التجارية ويقرضون أموالهم للتجار والدولة، نشأت عند ذلك هذه الثورة الناتجة مـن رأس المال الصناعي – وهي ضرب جديد من القوة في الدولة.

وإنا لمحدثوك عما قليل، كيف نهضت تلك البدايات حتى بلغت تمامها. وكان الأثـر المباشـر للثـورة الصناعية فيما حلت به من أقطار، أن أحدثت انتقالاً أليماً وهزة عظيمة بين عوام الـسكان الـصامتين غيـر المتعملين الذين لا زعيم لهم والذين أصبحوا الآن محرومين من الأملاك حرمانًا يتزايد أكثـر فـأكثر. فأمـا صغار المزارعين والفلاحين – وقد قضت عليهم قوانين السياجات وأخرجتهم من أراضيهم – فإنهم انتقلـوا إلى المناطق الصناعية الجديدة، وهناك انضموا إلى عائلات أصحاب الحرف الذين عضتهم الفاقة وانحطـت مكانتهم في المصانع. وظهرت في الوجود مدن كبيرة مكونة من منازل قذرة. وما نخال أن إنسانًا لاحظ فـي وضوح، ماذا كان يجري في ذلك الزمان. فالفكرة الأساسية لأرباب مذهب "المسعى الخاص" هي أن يلزم كل امرئ شأنه، وأن يحصل على أقصى ربح في مستطاعه، وأن يغفل كل ما عدا ذلك مـن عواقـب. ونمـت مصانع قبيحة الشكل، بنيت بأرخص ما يمكن من نفقة، لتضم أكبر عدد ممكن من الآلات والعمال. وتجمعت حولها شوارع تحوي منازل العمال، وقد بنيت بأرخص الأسعار، دون أي اتـساع ودون أي انفـصال عـن الجيران، ودون أي مظهر من مظاهر اللياقة والاحتشام تقريبا، مع تأجيرها للعمال بأقـصى إيجـار يمكـن تحتيمه عليهم. وكانت هذه المراكز الصناعية الجديدة، بلا مدارس ولا كنائس بادئ الأمر.

وكان الجنتلمان الإنجليزي الذي عاش في الهزيع الأخير من القرن الثامن عشر يقرأ السفر الثالث مـن جيبون ثم يقبل على نفسه بالتهنئة لأنه لم يعد يوجد منذ ذلك الحين أي خوف خطير من الهمج المتبربـرين، على حين أنه على قيد بضع خطوات من باب منزله كانت هذه الهمجية الجديدة تشب وتنمو، كما كـان هـذا التحول، الذي كان يحيل أبناء وطنه شيئًا حالكًا معتما لا رجاء فيه، يسير بأشد قوة وأقصاها.

الفصل الخامس والثلاثون

الجمهوريات الديمقراطية الجديدة بأمريكا وفرنسا

١- متاعب نظام الدولة العظمى.

٢- المستعمرات الثلاث عشرة قبل عصيانها.

٣- الحرب الأهلية تفرض على المستعمرات فرضا.

٤- حرب الاستقلال.

٥- دستور الولايات المتحدة.

٦- المظاهر البدائية لدستور الولايات المتحدة.

٧- الفكرات الثورية في فرنسا.

٨- ثورة سنة ١٧٨٩.

٩- الجمهورية الفرنسية المتوجة ٨٩ – ٩١.

١٠- ثورة اليعاقبة.

١١- جمهورية اليعاقبة ١٧٩٢ – ١٧٩٤.

١٢- حكومة الإدارة.

١٣- توقف التعمير وفجر الاشتراكية العصرية.

١ - متاعب نظام الدولة العظمى

عندما كان جيبون يهنئ منذ قرن ونصف من الزمان عالم الأناسي المهذبين المتعلمين بأن عصر الكوارث السياسية والاجتماعية قد ولّى، كان يهمل دلالات كثيرة كنا نستطيع بعد أن مرت بنا أحداث التاريخ وحقائقه الواقعة – أن نخبره بأنها تحمل في طياتها النذر بهزات وتقلقلات أفدح ثقلاً من أي شيء توقعه. ولقد خبرناك كيف أن كفاح أمراء القرنين السادس عشر والسابع عشر من أجل الرفعة والمنافع تطور إلى كفاح أكثر مكرا ودهاء وأشد تعقدا بين وزارات الخارجية، وهي في ثياب تنكرية تتشكل فيها شكل "الدول العظمى" وتتخذ منها معبودات ومثلاً عليا مع تقدم العهد بالقرن الثامن عشر. وتطور فن الدبلوماسية المعقد العريض الدعاوى. ولم يعد "الأمير" متآمرا ميكيافلليا يعمل في الخفاء، وأصبح مجرد الرمز المتوج لخطة ميكيافللية. فانقضت بروسيا والروسيا والنمسا على بولندة واقتسمتها. وتورطت فرنسا في تدابير عميقة ضد إسبانيا. وخاتلت بريطانيا "خطط فرنسا" في أمريكا واستحوذت على كندا. وتفوقت على فرنسا في الهند. عند ذلك حدث أمر جلل، أمر عدته الدبلوماسية الأوربية مزعجا جدا. فإن المستعمرات البريطانية في أمريكا رفضت رفضا باتًا أن يكون لها بعد ذلك أي دور أو نصيب في لعبة "الدول العظمى" هذه. إذ إنهم دفعوا بأنهم قوم ليس لهم صوت ولا مصلحة كبيرة في هذه الخطط والمنازعات الأوربية، ورفضوا أن يتحملوا أي نصيب من عبء الضرائب التي تجرها تلك السياسات الخارجية، وكانت الفكرة المتسلطة عليهم هي أن "الضرائب بلا تمثيل نيابي استبداد وطغيان".

وغني عن البيان أن هذا العزم على الانفصال لم يتفجر كاملاً سوي الخلْق من العقل الأمريكي منذ بداية هذه المتاعب. فقد كان الرجال العاديون في أمريكا في القرن الثامن عشر مثلما كانوا في إنجلترة في القرن السابع عشر، في رضاء تام بل رغبة أكيدة في الواقع في ترك الشئون الخارجية في يد الملك ووزرائه. ولكن كانت هناك رغبة تعادل هذه في القوة من جانب الرجال العاديين أنفسهم هي ألا تقرر عليهم الضرائب ولا يتدخل في شئون اتجاهاتهم العادية متدخل. ولكن هاتين الرغبتين متعارضتان. فإن الرجال العاديين لا يستطيعون أن يتنصلوا من السياسة العالمية وأن يستمتعوا في نفس الوقت بالحرية الخاصة، ولكن تعلمهم هذه الحقيقة اقتضاهم أجيالاً لا تقع تحت حصر. وعلى ذلك فإن أول ما ظهر من اعتراض في العصيان الأمريكي على حكومة بريطانيا، كان مجرد تذمر من الضرائب، ومن التدخل الذي تبع بالضرورة "السياسية الخارجية" دون أي تمييز واضح لما كان ينطوي عليه ذلك الاعتراض. ولم يحدث إلا عندما بلغ العصيان ذروته، أن سكان المستعمرات الأمريكية ميزوا حقًا تمييزا واضحا أنهم رفضوا وجهة نظر "الدولة العظمى" في الحياة. وكانت العبارة التي عبرت عن ذلك الرفض هي وصية واشنجتون "بتجنب المخالفات المورطة". ومن ثم فإن المستعمرات البريطانية المتحدة بأمريكا الشمالية ظلت قرنًا كاملاً وقد تحررت واستقلت تحت اسم الولايات المتحدة الأمريكية – بمنأة تامة عن المؤامرات والمنازعات الملطخة بالدماء بين وزارات الخارجية الأوربية. وسرعان ما استطاعوا بعد (١٨٠١ إلى ١٨٢٣) أن يمدوا مبدأهم الانفصالي إلى سائر أجزاء القارة، أو يجعلوا العالم الجديد أجمع "محظورا" على من في العالم القديم من أصحاب مؤامرات

التوسع الاستعماري ومدبري خططه. وعندما اضطروا آخر الأمر في ١٩١٧ أن يدخلوا ثانية إلى مجتلـد [١] السياسة العالمية، كان هدفهم من ذلك أن يزجوا في معقدات العلاقات الدولية، بالروح الجديـدة والأغـراض الجديدة اللواتي مكنهم ترفعهم من تطويرها. على أنهم لم يكونوا مع ذلك أول من ترفع. فمنذ معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) حافظت ولايات سويسرا الاتحادية في معاملتها الجبلية على حقها في الانعزال عن خطـط الملـوك والإمبراطوريات.

ولكن لما كانت شعوب أمريكا الشمالية مقدمة الآن على القيام بدور في تاريخنا تتزايد أهميته، فإن من الخير أن نقسم لهم من عنايتنا قسما أوفى قليلاً مما قسمناه لتطورهم حتى الآن. ولقد سبق أن ألقينا نظرة إلى هذه القصة في القسم العاشر من الفصل السابق. ولسوف نزيدك من فورنا إيضاحا – وإن كان ذلك في حدود أبسط المعالم – عن أحوال تلك المستقرات، التي كان عنادها سببا في تلك المضايقة لملك بريطانيا العظمـى ووزرائها في لعبتهم السياسية ضد سائر بني الإنسان.

---

[1] المجتلد (Arena): هو حلبة المباراة والمنازلة عند الرومان. (المترجم).

٢- المستعمرات الثلاث عشرة قبل عصيانها

تبين الخريطة المرافقة امتداد المستعمرات البريطانية في أمريكا في النصف الأول من القرن الثامن عشر. والتظليل الأقتم يمثل المناطق التي سكنت في ١٧٠٠، ويمثل التظليل الأخف نمو المستعمرات (المستقرات) إلى ١٧٦٠. وسيرى القارئ أن المستعمرات كانت مجرد حافة من السكان على طول الساحل، تمتد إلى الداخل شيئًا فشيئًا وتعترض سبيلها جبال ألكيجاني والجبال الزرقاء حتى لتعد حاجزا خطيرا جدا. ومن أقدم هذه المستقرات مستعمرة فرجينيا، التي يخلد اسمها ذكرى الملكة إليزابث، ملكة إنجلترة العذراء. وأول حملة لإنشاء مستعمرة بفرجينيا قام بها السيد والتر رالي في ١٥٨٤، ولكن ذلك الزمان لم يكن يتم فيه استقرار مستديم، ومن ثم ترجع بدايات فرجينيا الحقيقية إلى يوم تأسيس الشركة الفرجينية في ١٦٠٦، إبان حكم جيمس الأول (١٦٠٣ – ١٦٢٥). وإن قصة جون سميث ومؤسسي فرجينيا الأوائل وكيف تزوجت الأميرة الهندية بوكاهونتاس من أحد رجاله الأماثل لتشكل قطعة أدبية كلاسيكية هي "رحلات جون سميث"[1]. ولقي الفرجينيون أول بوادر اليسار في زراعتهم الطباق. وفي نفس الوقت الذي تأسست فيه الشركة الفرجينية، حصلت شركة بليموث على مرسوم يخول لها الاستقرار في الأراضي الواقعة إلى الشمال من "مضيق الجزيرة الطويلة[2]" لونج أيلند التي ادعى الإنجليز ملكيتها. ولكن الناس لم يشرعوا يستقرون في المناطق الشمالية إلا في (١٦٢٠)، وذلك بموجب مراسيم جديدة. وكان المستعمرون في المنطقة الشمالية (نيوإنجلند) التي أصبحت كونكتي كتّ ونيوهمبشير ورود آيلاند وماساشوستس، رجالاً لهم طابع يخالف طابع الفرجينيين، فإنهم كانوا بروتستانت متذمرين مما أبدت الكنيسة الإنجيلية من موادعة، كما كانوا رجالاً ذوي روح جمهورية لا مأمل لديهم في مقاومة ملكية جيمس الأول أو شارل الأول العظمى. وكانت سفينتهم الأولى هي زهرة مايو May Flower التي أنشأ ركابها مدينة نيوبليموث في ١٦٢٠. وكانت أهم المستعمرات الشمالية هي ماساشوستس. وأدت الفوارق في الطرائق الدينية واختلاف الفكرات عن التسمح الديني إلى تفرقة المستعمرات الثلاث البيوريتانية الأخرى عن ماساشوستس. ومما يوضح المعيار الذي كانت تقوم عليه الأمور في تلك الأيام أن ولاية نيوهمبشير بأجمعها قد ادعى تبعيتها له شخص معين اسمه الكابتن جون ماسون، وأنه عرض أن يبيعها للملك (وهو الملك شارل الثاني في ١٦٧١) مقابل استيراده ثلاثمائة طن من النبيذ الفرنسي – معفاة من المكوس الجمركية – وهو عرض رفضه الملك. واشترت ولاية ماساشوستس ولاية مين Maine الحالية من مدعي ملكيتها بمبلغ ألف ومائتين وخمسين جنيها.

وفي إبان الحرب الأهلية التي انتهت بقطع رأس الملك شارل الأول، كانت عواطف نيوإنجلند منحازة إلى جانب البرلمان. وكانت فرجينيا من أنصار فرسان الملك، ولكن كان يفصل بين هاتين المستعمرتين[3]

---

(1) John Smith's Travels

(2) Long Island Sound

(3) المستقرات والمستعمرات والمستوطنات: تستعمل هنا بمعنى واحد والمؤلف في الإنجليزية يستعمل كلمتي (Settlement. Colony) ولا تنطويان على معنى الاستعمار الحالي. بل على معنى الاستيطان والتعمير. (المترجم).

مائتان وخمسون ميلاً، ولذا لم يحدث بينهما احتكاك خطير. وصحب عودة الملكية في ١٦٦٠ تطور قوى في الاستعمار البريطاني بأمريكا. إذ كان بشارل الثاني ومن حوله من خلطاء شراهة للمال، فضلاً عن أن التاج البريطاني فقد راغما كل رغبة في أن يقوم بتجاريب أخرى لفرض الضرائب غير المشروعة في أرض الوطن. غير أن العلاقات غير المحددة بين المستعمرات وبين التاج والحكومة البريطانية لاح فيها بوادر بعض الأمل في القيام بمغامرة مالية وراء المحيط الأطلسي. فحدث تطور سريع في المزارع الواسعة الرقعة وفي مستعمرات الملاك. وكان اللود بالتيمور أقام قبل ١٦٣٢ مستعمرة لتكون للكاثوليك ملجأ يستمتعون فيه بالحرية الدينية تحت الاسم الجذاب ماري لاند، إلى الشمال وإلى الشرق من فرجينيا. وعندئذ استقر "بن" الكويكري (الذي أدى والده لشارل الثاني خدمات جليلة) إلى الشمال من فيلادلفيا وأنشأ مستعمرة بنسلفانيا. وقد حدد تخومها الرئيسية مع ماري لاند وفرجينيا، رجلان هما ماسون وديكسون، اللذان قدر لخطهما "خط ماسون وديكسون" أن يكون بالفعل خط تقسيم هاما جدا فيما تلا ذلك من شئون الولايات المتحدة. ومن قبل ذلك سقطت كارولينا في أيدي الإنجليز فسكنوها في جهات متعددة. وكانت كارولينا هذه في الأصل مؤسسة فرنسية بروتستانتية غير ناجحة، وكانت تدين باسمها لا لشارل الثاني (كارلوس) ملك إنجلترة، بل لشارل التاسع الفرنسي. وكان يمتد بين ماري لاند ونيوإنجلند عدد من المستعمرات الصغيرة الهولندية والسويدية، كانت المدينة الرئيسية فيها هي نيوأمستردام. وقد استولى البريطانيون على هذه المستعمرات من الهولنديين في ١٦٦٤، ثم خسروها مرة ثانية في ١٦٧٣، واستعيدت بالمعاهدة التي أبرم بها الصلح بين هولندة وإنجلترة في ١٦٧٤. وبهذا غدا الساحل كله من مين إلى كارولينا (مملكة بريطانية بطريقة ما أو بأخرى). وكان الإسبان مستقرين إلى الجنوب؛ وكان مقرهم الأكبر في قلعة سانت أوغسطين في فلوريدا، وفي ١٧٣٣ سكن مدينة سافانا رجل محب للإنسانية هو "أوجلي ثورب" الإنجليزي، وقد مست قلبه الرحمة بالفقراء المسجونين وفاء لدينهم في إنجلترة، ومن ثم أنقذ من السجن عددا منهم فأصبحوا مؤسسي مستعمرة جديدة، هي جورجيا التي أصبحت حصنًا منيعا يقف في وجه الإسبان. ومن ثم نجد عند منتصف القرن الثامن عشر هذه المستقرات ممتدة بإزاء الساحل الأمريكي وهي: مجموعة نيوإنجلند المكونة من البيوريتانة والبروتستانت الأحرار، وهي: - مين (التابعة لماساشوستس)، ونيوهمبشير وكونكتي كت ورود أيلاند وماساشوستس؛ والمجموعة المنتزعة من الهولنديين التي كانت انقسمت آنذاك إلى نيويورك (وهو الاسم الجديد لمدينة نيوأمستردام) ونيوجرسي وديلاوير (وكانت سويدية قبل أن تصبح هولندية، وألحقت في أبكر أدوار تبعيتها البريطانية ببنسلفانيا) ثم جاءت ماري لاند الكاثوليكية، وفرجينيا الفرسانية، وكارولينا (التي قسمت للوقت إلى شمالية وجنوبية) ثم جورجيا ومنشأة أوجلي ثورب. ثم التجأ إلى جورجيا بعد ذلك عدد من البروتستانت التيروليين، وهاجرت إلى بنسلفانيا أعداد ضخمة من طبقة صالحة من الزراع الألمان.

تلك هي الأصول المخالطة لمواطني المستعمرات الثلاث عشرة. ولا بد أن قيام أية وحدة وثيقة فيما بينها في يوم من الأيام كان يبدو في عين أي امرئ غير متحيز يراقب الأمور في ١٧٦٠ احتمالاً ضعيفًا جدا. ومما زاد الأمر سوءا أن اجتمع إلى الفوارق السابقة فروق أخرى ولّدها المناخ. فإلى الشمال من خط ماسون ديكسون كانت الزراعة تمارس على أساس القواعد المتبعة في بريطانيا وأوربا الوسطى وعلى يد

زراع أحرار من البيض. واكتست المنطقة المسكونة في نيوإنجلند بثوب مشابه للريف الإنجليزي؛ ونشأت في مساحات مترامية من بنسلفانيا حقول ودور ريفية تشبه ما في جنوب ألمانيا. وكانت للظروف المميـزة فـي الشمال آثار هامة من الناحية الاجتماعية. إذ كان لزاما على السادة ورجالهم أن يعملوا يدا ليد بوصفهم سكان غابات خلفية [1] فتمت التسوية بينهم أثناء ذلك. أجل إنهم لم يبدءوا العمل متساوين. فإن قائمة السفينة "مـاي فلاور" تحوي أسماء كثير من الخدم ولكنهم سرعان ما أصـبحوا متـساوين جميعـا فـي ظـل ظـروف المستعمرات؛ فكان هناك – مثلاً – متسع عظيم من الأرض يمكن امتلاكه بوضع اليد عليه، وكـان الخـادم ينطلق ويأخذ الأرض مثل سيده وهنا اختفى نظام الطبقات الإنجليزي. ونشأت في أكناف هـذه المـستعمرات مساواة "في ملكات كل من الجسم والعقل". وظهر استقلال فردي في الحكم على الأشياء تأخذه حمية الأنـف لأي تدخل من جانب إنجلترة. ولكن ابتدأت زراعة الطباق إلى الجنوب من خط ماسون وديكـسون، وكـان المناخ الأدفأ مشجعا على إنشاء المزارع الضخمة وما بها من مناسر العمال. فحاولوا بادئ الرأي اسـتخدام الأسرى من الهنود الحمر ولكنهم وجدوا بهم ميلا شديدا إلى سفك الدماء البشرية. وأرسل كرومويل أسـرى الحرب الإرلنديين إلى فرجينيا، وهو أمر كان له أثره البالغ في استرضاء أفئدة المزارعين الملكيـين علـى الجمهورية ومبادئها. وكان المحكوم عليهم يرسلون إلى هناك، واتسعت التجارة في الأطفال المخطوفين الذين كانوا "يرسلون خفية" إلى أمريكا لكي يصبحوا صبيانًا في صناعة [2] أو عبيدا أرقاء. ولكن أثبتت الأيـام أن أوفق شكل من أشكال مناسر [3] العمال إنما هو منسر العبيد الزنوج. وقد اجتلبت سفينة هولندية أول فوج من الزنوج إلى (جيمس تاون) من مدن فرجينيا في زمن مبكر يرجع إلى ١٦٢٠. ولما وافت ١٧٠٠ كان الأرقاء الزنوج منتشرين في كل أرجاء الولايات، بيد أن فرجينيا وماري لاند والكارولينتين كانت مناطق اسـتخدامهم الرئيسية، وعلى حين كانت المجتمعات في الشمال مجتمعات من زراع غير كبيري الثـراء وغيـر كبيـري الفقر، فإن الجنوب طور طرازا من المالك الكبير ومجتمعا أبيض من المشرفين وأرباب الحرف يعيشون على العمال الأرقاء. فكان العمال الأرقاء ضرورة اقتضاها النظام الاجتماعي والاقتصادي الذي نما في الجنـوب، وكان وجود الأرقاء في الشمال أمرا لا ضرورة له بل كان من بعض الوجوه أمرا مزعجا. لـذلك وجـدت اعتراضات أصحاب الضمائر الحية على الاسترقاق في جو الشمال مجالاً أرحب لتطورها وازدهارها. ولا بد لنا من عودة إلى هذه المسألة، مسألة انبعاث الرق من جديد، عندما نأخذ فـي التأمـل فيمـا تتعـرض لـه الديمقراطية الأمريكية من دواعي الارتباك. ونحن هنا إنما نلحظها في بساطة بوصفها عاملاً إضافيا إلى ذلك الخليط المتنافر في المستعمرات البريطانية.

ولكن لئن كان سكان المستعمرات الثلاث عشرة أنواعا شتى في أصولهم متخالفين في عاداتهم واتجـاه عواطفهم، لقد كانت تجمعهم معا خصومات ثلاث: فكانت لهم مصلحة مشتركة ضد الهنود الحمر. وتقاسـموا

---

[1] الغابات الخلفية: أراضي غابات غير مزدرعة تقوم وراء الأرض المزروعة بمنأى من المدن والمستقرات. (المترجم).

[2] وهم الذين يعبر عنهم الآن باسم تلاميذ صناعيين. (المترجم).

[3] مناسر العمال Gang Labour: هي جماعات العمال التي تجمع لأداء عمل ما. (المترجم)

ردحا من الزمان خوفًا مشتركًا من الفتح والسيادة الفرنسيين. وكانوا في الثالثة – مـشتركين بـأجمعهم فـي النضال ومدعيات التاج البريطاني والأنانية التجارية للأوليجركية الجشعة التي كانت تسيطر علـى البرلمـان البريطاني والشئون البريطانية. فأما الخطر الأول وهو الهنود، فكان شرا مستديما ولكنه لم يزد قط عن مجرد تهديد ينذر بالشر. إذ إنهم ظلوا منقسمين على أنفسهم. ومع ذلك فلقد ظهرت علـيهم فـي بعـض الأحيـان احتمالات تبشر بالامتزاج وتوحيد الجهود على معيار كبير. فإن الـشعوب الخمـسة فـي عـصبة القبائـل الإيروكوازية (Iroquois) (راجع خريطة مستعمرات ١٧٦٠) كانت عصبة قبائل هامة جدا. بيد أنهـا لـم تنجح في حمل الفرنسيين على العمل ضد الإنجليز لكي تضمن لنفسها الأمان، ولم ينشأ بين مرتحلـة العـالم الجديد هؤلاء جانكيز خان هندي أحمر. وكان العدوان الفرنسي تهديدا أخطر، ولم يقم الفرنسيون أبدا بإنـشاء مستعمرات في أمريكا على معيار ينافس المستقرات الإنجليزية. بيد أن حكـومتهم اتجهـت إلـى تطويـق المستعمرات وإخضاعها بطريقة منظمة مرعبة. كان الإنجليز في أمريكا مـستعمرين مـستوطنين، وكـان الفرنسيون مرتادين ومغامرين، ووكلاء تجاريين ومبشرين وتجارا وجنودا. ولكنهم لم يرسوا لبنائهم أساسـا متينًا إلا في كندا. إذ إن رجال السياسة الفرنسيين كانوا يكبون على الخرائط ويطلقون لأحلامهم العنان. وإنك لواجد أحلامهم ماثلة في خريطتنا، في سلسلة القلاع المتسللة جنوبا، من البحيرات العظيمة، وشمالاً في أعلى المسيسبي والأوهايو. وكان الكفاح بين فرنسا وبريطانيا كفاحا شمل العالم أجمع. وقد فصل فيه في الهند وفي ألمانيا وعلى صفحة أعالي البحار [1]. ويصلح باريس (١٧٦٣) أعطى الفرنسيون كندا لإنجلتـرة، وتركـوا لويزيانا لإسبانيا المتقوضة المشلولة اليدين. وكان معنى ذلك تخلى فرنسا تماما عن أمريكـا. وبـزوال هـذا الخطر الفرنسي أصبح المستعمرون أحرارا لا يعوقهم عائق عن مواجهة عدوهم الثالث المشترك: وهو تـاج بلادهم الأصلية وحكومتها.

---

[1] أعالي البحار: High Seas أجزاء البحار الموجودة في عرض البحر والتي تقع خارج المياه الإقليمية لأي قطر من الأقطار التي عرضها كما ينص القانون الدولي ثلاثة أميال. (المترجم)

٣- الحرب الأهلية تفرض على المستعمرات فرضا

لاحظنا في الفصل السابق كيف أن الطبقة الحاكمة في بريطانيا العظمى دأبت على وضع يـدها علـى الأراضي والقضاء على حريات العامة طيلة القرن الثامن عشر، وعرفنا كيف تمخض جشعهم وعمايتهم عن الثورة الصناعية[1] الجديدة. كذلك لاحظنا كيف أن البرلمان البريطاني بسبب انحلال أساليب التمثيل النيـابي لمجلس العموم، أصبح في كل من مجلسيه الأعلى والأدنى أي اللوردة والعموم، مجرد أداة للحكم عن طريق كبار أصحاب الأراضي. وكان كل من كبار الملاك هؤلاء والتاج ذا مصلحة عميقة في أمريكـا – الأولـين منهم بوصفهم مغامرين يحدون مصالحهم الخاصة، والأخير بوصفه ممثلاً لاستغلال ملوك أسـرة اسـتيوارد ومضاربتهم من ناحية، وبوصفه ممثلاً للحكومة في بحثها عن موارد مالية للقيام بنفقات السياسة الخارجية من ناحية أخرى؛ وطبيعي أن اللوردة والتاج لم يكن أحد منهم ينظر إلـى التجـار والـزراع والعامـة سـكان المستعمرات نظرة فيها تقدير أكثر من نظرته إلى صغار المزارعين وصغار الزارعين المـلاك فـي أرض الوطن. والواقع أن مصالح الرجل العامي (العادي) في كل من بريطانيا العظمى وإرلندة وأمريكا كانت فـي صميمها واحدة لا اختلاف بينها. فإن كلا منهم كانت تعتصره وتستغله نفس الهيئة الحاكمة، ولكن على حـين كان العاصر والمعصور في إنجلترة متشابكين تشابكا وثيقًا في نظام اجتماعي وطيد، فـإن التـاج وطـالبي الاستغلال في أمريكا كانا بعيدين، وكان في مكنة الرجال هنا أن يتخذوا وأن يطوروا فـي أنفـسهم شـعورا بالجماعة ضد عدوهم المشترك.

هذا إلى أن المستوطن الأمريكي كانت له الميزة الهامة، ميزة امتلاكه لسانًا وترجمانًا منفصلاً قانونيـا لمقاومة الحكومة البريطانية يتمثل في مجلس مستعمرته أو جمعيتها التشريعية، التي كانت ضـرورية لإدارة الشئون المحلية. ولم يكن للرجل العامي في إنجلترة – وهو الذي تحرمه الجنتلمانية بما تستخدمه من ضروب الحيل والخداع من التمثيل الصحيح في مجلس العموم – أي لسان ناطق عنه ولا أي مركز للعمل والتعبيـر عن تذمره.

ولسوف يتضح للقارئ إذ يتذكر تنوع المستوطنات أن الوضع هنا كان يهيئ الفرص لسلسلة لا نهايـة لها من المنازعات، وضروب العدوان وما يقابل ذلك من التدابير المضادة. وقصة تطـور الانفعـالات بـين المستعمرات وبين بريطانيا قصة أشد تعقدا وأدق وأطول من أن تتسع لها خطة هذه "المعـالم". وحـسبك أن المظالم كانت تقع تحت عناوين ثلاثة رئيسية هي: المحاولات المبذولة لضمان حصول المغامر البريطاني أو الحكومة البريطانية على أرباح استغلال الأراضي الجديدة؛ والتضييقات المنظمة على التجارة بغية الاحتفـاظ بتجارة المستعمرات الخارجية كلها في أيد بريطانية، بمعنى أن جميع صادرات المستعمرة لم تكن لترسل إلا بطريق بريطانيا ولم يكن يستعمل في أمريكا سوى السلع البريطانية. وأخيرا تجيء محاولة فرض الـضرائب بواسطة البرلمان البريطاني بوصفه السلطة العليـا الفارضـة للـضرائب فـي الإمبراطوريـة. واضـطر

[1] تسمى تلك النهضة الصناعية باسم الثورة الصناعية أو الانقلاب الصناعي. (المترجم)

المستوطنون الأمريكيون تحت ضغط هذا النظام الثلاثي من المضايقات، أن يقوموا بقدر جسيم مـن التفكيـر السياسي العميق. وشرع رجال من أمثال باتريك هنري وجيمس أوتس (Otis) في مناقشة الفكرات الأساسية التي تقوم عليها الحكومات والترابط السياسي على نحو شديد الشبه بمناقشتها في إنجلترة في الأيام العظام أيام دولة كرومويل الجمهورية. وأخذوا ينكرون كلا من الأصل المقـدس للملكيـة والـسياسة العليـا للبرلمـان البريطاني، وكان أن قال جيمس أوتس في ١٧٦٢ أشياء من أمثال التالي:

- "خلق ا الناس جميعا متساوين تساويا طبيعيا.
- والفكرات القائلة باستعلاء الإنسان على أخيه الإنسان فكرات تلقينية غير فطرية
- وقد خلق الملوك لخير الناس ولم تخلق الناس لهم
- وليس لأية حكومة أن تتخذ من رعاياها عبيدا
- ومع أن معظم الحكومات تعسفية في واقع الأمر
- وهي بناء على ذلك لعنة وفضيحة للطبيعة الإنسانية.
- فما من واحدة منها تكون تعسفية قانونًا وشرعا".
- وبعض هذه الأقوال تضرب في الموضوع بسهم بعيد المرمى.

وقد بدأ هذا التخمر في أفكار الأمريكيين السياسية بفضل خميرة بريطانية. فإن هناك كاتبـا إنجليزيـا عظيم التأثير هو جون لوك (١٦٤٢ – ١٧٠٤)، الذي يمكن أن يعد كتابه "مقالتان عن الحكومة المدنية" نقطة الارتحال الأساسية للفكرات الديمقراطية العصرية. كان أبوه جنديا من أتباع كرومويل، كلية وقد تعلـم فـي "كرايست تشرتش Christ Church" بأكسفورد إبان عظمة الجمهورية، وقضى بضع سنين مبعدا في هولندة، وتكون كتاباته جسرا يصل بين التفكير السياسي الجريء في تلك الأيام الجمهورية القديمـة وبـين الحركـة الثورية في كل من أمريكا وفرنسا.

على أن الرجال لا يشرعون في العمل والتصرف على أساس النظريات. وإنما يحدو الناس إلى "العمل" على الدوام شعورهم بوجود خطر ما حقيقي أو ضرورة ما عملية. ولن تستقيم للنظريات الأمور وتستقر فـي نصابها إلا بعد أن يكون العمل والتصرف قد هد صرح العلاقات القديمة كلها وأنتج أمورا جديـدة محيـرة. وعند ذلك توضع هذه النظرية في بوتقة الاختبار. فالخلاف علـى المـصالح والفكـرات، المـشتجر بـين المستوطنين تحول إلى قتال لما أبداه البرلمان البريطاني بعد صلح ١٧٦٣ من عنيد التصميم علـى فـرض الضرائب على المستعمرات الأمريكية. وكانت بريطانيا ترفل في بحبوحة السلم وتنهال عليها الرفاهية من كل جانب، فأحست أن أمامها فرصة بديعة لتصفية الحساب مع هؤلاء المستوطنين العصاة. ولكن كبار أصـحاب الأملاك البريطانيين وجدوا إلى جوار قوتهم قوة تشاطرهم آراءهم نفسها، وإن اختلفت عنهم قليلاً في غاياتها – وهي قوة التاج المنتعش. ذلك بأن جورج الثالث الذي بدأ حكمه في ١٧٦٠، أصر علـى أن يكـون فـي سلطانه ملكًا أكثر من سلفيه الألمانيين. وكان يستطيع التكلم بالإنجليزية، وكان يدعي أنه "مبـاه بـأن يلقـب

بريطونيا [1]، وعندي أنه اسم لا بأس بأن يطلق على رجل لا تجري في عروقه قطرة واحدة معروفة من الدم الإنجليزي ولا الويلزي ولا الاسكتلندي!!؟ وكان يخيل إليه أن المستعمرات الأمريكية والممتلكات وراء البحار عامة بما لها من مراسيم غير محددة – (بل عساها بلا مراسيم مطلقًا) – أماكن قد يستطيع التاج فيها أن يدعي السلطان وأن يحصل على الموارد المالية والسلطات التي تنكرها عليه إنكارا باتًا الأرستقراطية القوية الغيور على سلطانها في بريطانيا. فدفع هذا كثيرا من نبلاء الهويج (Whigs) [2] أن يعطفوا على المستوطنين عطفًا لم يكونوا ليظهروه لولا هذا الظرف. ذلك أنه لم يكن لديهم أي اعتراض على استغلال المستعمرات لصالح صاحب "المسعى الخاص " [3] البريطاني ولكن كانت لديهم اعتراضات قوية جدا على تقوي التاج بذلك الاستغلال تقويا يجعله على الفور مستقلا مستغنيا عنهم.

من أجل ذلك لم تكن الحرب التي نشبت حربا بين بريطانيا والمستوطنين بل بين الحكومة البريطانية والمستوطنين، انحاز فيها قسم من نبلاء حزب الأحرار (الهويج) وقدر جسيم من الشعور العام في إنجلترة إلى صف هؤلاء المستوطنين. وهناك حركة مبكرة بعد (١٧٦٣) كانت ترمي إلى محاولة جمع الإيرادات لبريطانيا في المستعمرات بتحتيم دمغ الصحف وأنواع مختلفة من الوثائق. ولقيت هذه المحاولة مقاومة عنيدة، وداخلت الرهبة قلب التاج البريطاني، فألغيت قوانين الدمغة (١٧٦٦). وقوبل إلغاؤها بمظاهر فرح صحبها شيء من الشغب في لندن؛ وتجلى فيها من السرور القلبي ما لم يتجل في المستعمرات نفسها.

ولكن موضوع قانون الدمغة لم يكن إلا دوامة واحدة في سيل مضطرب يتدافع هاويا نحو حرب أهلية. فكان ممثلو الحكومة البريطانية مستترين وراء عشرات من الحجج في أعلى الساحل وأسفله دائبين على تحقيق سلطاتهم وإبرازهم وجعل الحكومة البريطانية كلاً فادحا لا يطاق. وكان إنزال الجنود في ضيافة المستوطنين كرها، من أفدح الأمور وطأة عليهم. وكانت رود أيلاند ناشطة بوجه خاص في تحديها لقيود التجارة. فإن سكان رود أيلاند كانوا متجرين أحرارا – أي مهربين، وقد حدث أن سفينة حكومية تسمى جاسبي (Gaspee) شحطت على أرض بروفيدانس؛ فباغتها واعتلى ظهرها واستولى عليها رجال مسلحون في زوارق، ثم ما لبثوا أن أحرقوها. وفي (١٧٧٣) منح البرلمان البريطاني شركة الهند الشرقية ميزات خاصة في استيراد الشاي إلى أمريكا في استهانة تامة بنظام تجارة الشاي في المستعمرات. وصمم المستوطنون بعزم على رفض هذا الشاي ومقاطعته. ولما أن أظهر مستوردو الشاي في بوسطن إصرارا على إنزال بضائعهم إلى الشاطئ، صعد إلى سفن الشاي الثلاث عصبة من الرجال متنكرين في زي الهنود الحمر، وألقوا بالشاي في البحر على ملأ من جمهور عظيم من الناس (١٦ ديسمبر ١٧٧٣).

---

[1] بريطوني Briton: أي من سكان بريطانيا القدامى. (المترجم)

[2] الهويج Whigs: حزب ظهر في القرن التاسع عشر ممثلاً لتجار الطبقة الوسطى مناهضا لأصحاب الأملاك من حزب التوري (المحافظين أخيرا) تسمى فيما بعد باسم حزب الأحرار. (المترجم).

[3] المسعى الخاص Private enterprise: الجهود أو المشروعات الخاصة التي يقوم بها فرد أو أفراد أو شركات. (المترجم).

وشغل الطرفان طيلة ١٧٧٤ بجمع الموارد والأموال استعدادا للمعركـة المقبلـة. وقـرر البرلمـان البريطاني في ربيع (١٧٧٤) معاقبة بوسطن بإغلاق مينائها، واتجهت النية إلى القضاء على تجارتها ما لـم تقبل ذلك الشاي. وكان ذلك مثالاً نموذجيا كاملاً لذلك "الحزم" الأحمق الذي يمزق الإمبراطوريات بددا. ولكي يتم تنفيذ هذا التدبير بالقوة، احتشدت الجيوش البريطانية في بوسطن تحت قيادة الجنرال جاج (Gage) واتخذ المستوطنون تدابير مضادة لتلك. وانعقد أول (كونجرس) للمستوطنين بمدينة فيلادلفيا في سبتمبر، مثلت فيـه اثنتا عشرة مستعمرة هي: ماساشوستس، وكونكتي كت، ونيوهمبشير، ورود آيلاند، ونيويورك، ونيوجرسـي وبنسلفانيا، وماري لاند، وديلاوير، وفرجينيا، وكارولينا الشمالية والجنوبية، ولم تكـن جورجيـا حاضـرة. وأصدر الكونجرس تمشيا مع خير التقاليد الإنجليزية وثيقة أبان فيها موقفه بأن أشهر "إعلان حقوق". والواقع أن هذا الكونجرس كان حكومة تمرد وعصيان، ولكن لم تضرب ضربة واحدة حتى ربيع (١٧٧٥). يوم جاء أول سفك للدماء.

فإن اثنين من الزعماء الأمريكان هما هانكوك وصمويل آدامز، قد اتجهت نية الحكومة البريطانية إلى اعتقالهما، ومحاكمتهما بتهمة الخيانة، وكان معروفًا أنهما في لكسينجتن، على مبعدة أحد عشر ميلاً تقريبا من بوسطن، وفي ليل ٨ إبريل ١٧٧٥ أصدر جاج أوامره بزحف قواته لاعتقالهما.

وكانت تلك الليلة من ليالي التاريخ العظيمة. فإن المستوطنين تنبهوا إلى حركة جيوش جاج، فرفعـت مصابيح الإشارة فوق برج كنيسة في بوسطن وانسل رجلان هما داوز وبول ريفير في قارب عبـر الخلـيج الخلفي حتى يستطيعا أن يحصلا على جوادين لكي يحذّرا المنطقة الريفية. كذلك نُقل البريطـانيون بالمعديـة عبر الخليج؛ وفيما هم يزحفون تحت جنح الليل إلى لكسينجتن عند الفجر، شاهدوا مجموعـة صـغيرة مـن الرجال مصطفين في تشكيلة عسكرية. والظاهر أن البريطانيين كانوا البادئين بإطلاق النار. فانطلقت طلقـة واحدة ثم سيل من الطلقات، وتراجعت الثلة الصغيرة دون أن تجيب – فيما يظهر – على الطلقات تاركة في ظاهر القرية ثمانية من القتلى وتسعة من الجرحى.

وعند ذلك سار البريطانيون إلى قرية كونكورد، وهي وراء ذلك بعشرة أميال، فاحتلوا القرية وأوقفـوا ثلة من الجنود على الكوبري القائم في ذلك الموضع. وفشلت الحملة في هدفها وهو اعتقال هانكوك وآدامـز، ويلوح أن القائد البريطاني تحير ماذا يفعل بعد ذلك. وفي نفس الوقت كان جند المستوطنين يتقاطرون من كل حدب وصوب وسرعان ما وجد الحرس المرابطون على الكوبري أنفسهم غرضا لنيـران متزايـدة انتهـت بهجوم. وتقرر التقهقر إلى بوسطن. ولكنه كان تقهقرا مدمرا. فقد هبت المنطقة كلهـا مـن خلفهـم، وأخـذ المستوطنون في التجمع طول الصباح. وعندئذ أصبح جانبا الطريق مزدحمين برماة حذاق يطلقون النار مـن وراء الصخور والسياجات والمباني، وكثيرا ما حدث أنهم هجموا حتى غدوا على مسافة دانية بلغت مرمـى السونكي. وكان الجنود في ثياب قرمزية وضاحة، ذات واجهات صفراء وتزالك وأربطة رقبة بيضاء، ولا بد أن هذه الألوان كانت تبدو وضاحة ساطعة بالقياس إلى الألوان الحادة في أخريات ربيع نيوإنجلند، كان ذلـك اليوم مشرق الضياء حارا متربا، وكان الرجال قد غلبهم الإعياء من جراء سراهم طول الليل. وفي كل بضع

ياردات يقع منهم رجل إما جريحا أو قتيلاً. على حين يسير الباقون ثقالاً أو يقفون ليطلقوا وابلاً من نار على غير جدوى. وكانت هناك في لكسينجتن أمداد بريطانية ومدفعان، وبعد استراحة وجيزة تواصل التقهقر فـي نظام أحسن. ولكن التعقب استمر حتى النهر، وبعد أن عبره البريطانيون قافلين إلى بوسـطن، اتخـذ جنـود المستوطنين مراكزهم في كامبريدج وأعدوا أهبتهم لحصار المدينة.

٤- حرب الاستقلال

بذا ابتدأت الحرب، ولم تكن حربا تبشر بنهاية حاسمة. فلم تكن للمستوطنين عاصمة واحدة يخشون عليها عطبا؛ بل كانوا منتشرين فوق ريف عظيم من خلفه برية لا آخر لها، ولذا كانت لهم قوة مقاومة عظيمة. وكانوا في غالب أمرهم تعلموا فن الحرب عند الهنود. فكانوا يستطيعون أن يجيدوا القتال في نظام مكشوف وأن يشتتوا الجنود ويمزقوهم بحركاتهم. ولكن لم يكن لديهم جيش منظم يستطيع أن يلقى البريطانيين في معركة عظيمة، ولم يكن لديهم إلا القليل من العتاد الحربي؛ هذا إلى أن مجنديهم كاد يلم بهم نفاد الصبر إذا طال بالحملة الأمد، وينزعون إلى العودة إلى مزارعهم. وكان لدى الإنجليز من الناحية الأخرى جيش حسن التدريب، كما أعارتهم سيادتهم على البحر قدرة على نقل هجومهم شمالاً وجنوبا في ذلك الساحل الأطلسي الطويل. وكانوا في سلام مع العالم أجمع. ولكن الملك كان غبيا شرها في تدخله في إدارة الأمور، وكان القواد الذين يؤثرهم بعطفه إما رجالا أغبياء "أقويا الشكيمة" أو طائشين من أبناء البيوتات "والطبقة العالية". ولم يكن فؤاد إنجلترة محبذًا لهذا الأمر. لذلك تركز جل اعتماد التاج على قدرته على توقيع الحصار البحري على المستوطنين والإغارة عليهم ومضايقتهم حتى يخضعوا، أكثر منه على الفتح والاحتلال النهائي للبلاد. ولكن الوسائل التي استعملت وبوجه خاص استخدام الجنود الألمانية المأجورة التي كانت لا تزال تحتفظ بتقاليد القادة المأثورة عن حرب الثلاثين، والجنود المساعدة الهندية الذين شتتوا سكان المستوطنات المنعزلة – لم تضجر الأمريكيين من الحرب قدر ما أضجرتهم من البريطانيين. فأما الكونجرس فإنه اجتمع لثاني مرة في ١٧٧٥، وأقر التصرفات التي أتاها مستوطنو نيوإنجلند، وعين جورج واشنجتون قائدا عاما للجيش الأمريكي. وفي ١٧٧٧ بينما الجنرال برجوين يحاول أن ينحدر من كندا زاحفًا على نيويورك، إذ انهزم عند "مزرعة فريمان" عند أعلى نهر الهدسون الأعلى، وأحيط به واضطر إلى التسليم في ساراتوجا ومعه جيشه كله. وشجعت هذه الكارثة الفرنسيين والإسبان على الدخول إلى الحلبة في صف المستوطنين. وقام الأسطول الفرنسي بالشيء الكثير في سبيل تقليل ميزة البريطانيين في البحار. وحصر الجنرال كونواليس في شبه جزيرة يوركتون بفرجينيا في ١٧٨١، فسلم بجيشه. وكانت موارد الحكومة البريطانية عند ذاك قد استنزفت، إذ كانت ترزح تحت عبء ثقيل من الكفاح مع فرنسا وإسبانيا في أوربا.

ويلوح أن المستوطنين عامة كانوا في البداية من قلة الميل إلى نبذ الملكية والمطالبة بالاستقلال التام بحيث ماثلوا حالة الهولنديين أثناء الدور الأول من اضطهادات فيليب الثاني وحماقاته. وأطلق اسم الراديكاليين على دعاة الانفصال [1]؛ وكانوا قوما يغلب عليهم التطرف في الديمقراطية، كما قد نقول في إنجلترة في أيامنا هذه، وأدخلت آراؤهم التقدمية شيئًا من الخوف إلى قلوب كثير من المستوطنين الأكثر رزانة وثراء، الذين كان لامتيازات الطبقات ومكانتها سحر عظيم في أعينهم. ولكن إنجليزيا مقتدرا قوي

---

[1] الراديكاليون: كانت كلمة الراديكاليين تطلق في إنجلترة في ذلك الزمان على أنصار الديمقراطية والإصلاح البرلماني (المترجم)

الحجة هوتوماس بين Paine نشر في زمن مبكر من (١٧٧٦) بحثًا بفيلادلفيا تحت عنوان "حسن التصرف"، كان لها أثر هائل في الرأي العام. كان أسلوبها أسلوبا بيانيا بليغًا إذا قيس بالمعايير العصرية. "إن دماء القتلى وصوت الطبيعة الباكي تصيح، أن قد حان وقت الافتراق" وهلم جرا... ولكن آثارها كانت بالغة القوة. فإنهـا حولت الآلاف إلى فكرة ضرورة الانفصال. وما كاد انقلاب الرأي يبدأ حتى أخذ يهدر مسرعا.

ولم يتخذ الكونجرس إلا في صيف (١٧٧٦) الخطوة التي لا مرد لها: بإعلان طلب الانفصال "وإعلان الاستقلال"، وهو مثال آخر من تلك الوثائق النموذجية التي يعود الفضل في إنتاجها للبشرية للإنجليز بخاصة. وقد سطره توماس جفرسون. وما لبث بعد أن أدخلت عليه تصميمات وتعديلات متنوعة، أن جعـل الوثيقـة الأساسية للولايات المتحدة الأمريكية. وأدخل تعديلان جديران بالذكر على مسودة جفرسون. فإنه شن حملـة عنيفة على تجارة الرقيق، وأنحى باللائمة على حكومة أرض الوطن بإنجلترة لحيلولتها دون المحاولات التي بذلتها المستقرات (المستوطنات) لإيقاف تلك التجارة. فحذفت هذه الفقرة وكذلك حذفت جملـة أخـرى عـن البريطانيين تقول: "يجب أن نحاول أن ننسى حبنا السابق لهم.. فقد كنا نستطيع أن نكون مجتمعين شعبا حرا عظيما".

وفي قريب من نهاية (١٧٨٢) وقعت في باريس البنود الأولية في المعاهدة التي اعترفت فيها بريطانيا بالاستقلال التام للولايات المتحدة. وأعلن انتهاء الحرب في ١٩ أبريل (١٧٨٣) أي بعد ثماني سنين بالـضبط من انطلاق بول ريفير بجواده وارتداد رجال جاج (Gage) من كونكورد إلى بوسـطن. ووقعـت معاهـدة الصلح نهائيا بباريس في سبتمبر.

٥- دستور الولايات المتحدة

إن الطريقة التي أصبحت بها الولايات الثلاث عشرة مستقلة، كانت من وجهة نظر التاريخ الإنساني، أقل شأنًا بكثير من استقلالها الفعلي نفسه. وظهر في العالم بتوطيد استقلالها ذاك، نوع من المجتمع جديد. وكأني به شيئًا فقست عنه بيضة. كان حضارة أوربية غريبة انفصلت وتحررت من آخر آثارها الإمبراطورية والمسيحية؛ ولم يكن بها أي أثر للملكية ولا دين رسمي للدولة. وما كان بها دوقات ولا أمراء ولا كونتات، ولا أي ضرب من حملة الألقاب المدعين سمو القدر والرفعة بوصفها حقوقًا. بل إن وحدتها نفسها لم تكن آنذاك إلا اتحادا بقصد الدفاع والحرية. فكانت من هذه الوجوه بداية نظيفة في التنظيم السياسي لم ير العالم من قبل لها نظيرا. وإن غيبة أية رابطة دينية تربطهم بعضهم إلى بعض لجديرة بالتنويه وبوجه خاص. فقد كان بها أكثر من واحد من أشكال المسيحية، ولا مجال للشك في أن روحها كانت مسيحية. ولكن الأمر كان كما صرحت بذلك وثيقة رسمية في (١٧٩٦) تصريحا لا لبس فيه "إن حكومة الولايات المتحدة ليست بأي حال مؤسسة على الديانة المسيحية" [1]. فإن المجتمع الجديد قد توغل بالفعل والواقع حتى بلغ أصول الجماعة الإنسانية العادية المجردة. وكان يبني نوعا جديدا من الجماعة الإنسانية ونوعا جديدا من الدولة على تلك الأصول.

هنا كان يعيش ما يقرب من أربعة ملايين من الناس متناثرين فوق منطقة مترامية الأطراف ليس بينها من وسائل الاتصال إلا كل صعب شديد الصعوبة بطيء عظيم البطء، وهم قوم لما يبرحوا فقراء، وإن كان أمامهم إمكانيات تبشر بثروة لا نهاية لها. وقد نشطوا يعملون في واقع الحقيقة على معيار ضخم أعمالاً إنشائية جليلة مثل تلك التي قام بها بالخيال والنظر الفلاسفة الأثينيون قبل ذلك باثنين وعشرين قرنًا.

وهذا الموقف يشير إلى مرحلة محددة في فكاك الإنسان من السابقة والعرف، وخطوة محددة إلى الأمام تتجه نحو إعادته بناء ظروفه إعادة واعية متعمدة حتى تتلاءم وحاجاته وغاياته. كانت طريقة جديدة أخذت تصبح شيئًا عمليا في الشئون الإنسانية. فإن دول أوربا العصرية تطورت عما سبقها من أشياء، نظاما في إثر نظام، وعلى مهل وبطء، بلا خطة مرسومة. فأما الولايات المتحدة فإنها خُططت تخطيطاً واصطنعت اصطناعا.

ومع ذلك فإن حرية الشعب الجديد الخلاقة، كانت محددة تحديدا خطيرا جدا من ناحية واحدة. فلم يكن هذا النوع الجديد من الدولة مبنيا على موقع ممهد موطأ. بل إن تكوينه الاصطناعي لم يبلغ في صراحته مبلغ بعض المستعمرات الأثينية المتأخرة التي انطلقت عن المدينة الأم لتخطط وتبني دول مدن جديدة تماما ذات دساتير جديدة تماما أيضا. فكان لكل من المستعمرات الثلاث عشرة في نهاية الحرب دستورها الخاص، وهو إما مثل دساتير كونكتي كت وورود أيلاند، التي يرجع تاريخها إلى أوان مراسيمها الأصلية (١٦٦٢) وإما أعيد تكوينه أثناء النضال، شأن دساتير سائر الولايات، حيث كان حاكم بريطاني يلعب دورا عظيما في

---

[1] نقلاً عن معاهدة تريبولي، انظر تشاننج السفر الثالث، الفصل الثامن عشر.

الإدارة. على أنا نستطيع أن نعد هذه التجديدات محاولات لها فضل الإسهام وتجارب في المجهود الإنشائي العام.

وهناك فكرات معينة كانت تبرز بروزا واضحا جدا من فوق هذا المجهود. فمن هذه الفكرات فكرة المساواة السياسية والاجتماعية. فهذه الفكرة التي رأيناها وهي تولد في العالم بوصفها فكرة متطرفة لا يكاد يصدقها عقل في العصر المحصور بين بوذا ويسوع الناصري، قد توكدت الآن في أخريات القرن الثامن عشر بوصفها معيارا عمليا للعلاقات الإنسانية. يقول البيان الأساسي في فرجينيا: "وإن كل الناس خلقوا بالفطرة أحرارا مستقلين"، ثم هو يمضي في سرد "حقوقهم" والتوكيد بأن كل المأمورين والمحافظين ليسوا إلا "مؤتمنين على المصلحة العامة وخداما لها". ولكل الناس الحق المتساوي في ممارسة الديانة بملء حريتهم. فأما الملك بحكم الحق، والأرستقراطي، "والعبد الطبيعي"، والملك الرب، وا ، فقد اختفت كلها من هذه الخطة السياسية الأمريكية – بقدر ما تذهب إليه هذه التصريحات. وقدمت معظم الولايات لنظام الحكم فيها بمقدمات شبيهة بهذه. وقال إعلان الاستقلال إن "كل الرجال قد ولدتهم أمهاتهم سواسية". وإنك لترى في كل مكان توكيدات مصوغة في عبارات القرن الثامن عشر تقول بأن المجتمع الجديد سوف يكون – إذا استخدمنا التعبيرات التي أوردناها في فصل سابق [1] – "مجتمع إرادة وليس مجتمع طاعة". غير أن مفكري ذلك الزمان، كانت لهم في صوغ عبارة ذلك الموضوع طريقة كادت أن تبلغ حد السماجة والغلط، فإنهم تصوروا أن المواطنية تنطوي على ضرب من الاختيار الفردي والقبول، لم يحدث قط في واقع الأمر، وهو الشيء المتسمى باسم العقد الاجتماعي. ألا ترى إلى الديباجة التمهيدية في دستور ماساشوستس مثلاً، كيف تذكر أن الدولة ترابط اختياري، "به تعاهد الشعب بأجمعه مع كل مواطن، وكل مواطن مع الشعب بأجمعه بأن يحكم الجميع بقوانين معينة ترمي إلى الخير المشترك".

ولسوف يتضح الآن أن معظم هذه البيانات الأساسية تقبل المناقشة. فالرجال لا يولدون سواسية، ولا هم يولدون أحرارا، بل هم يولدون حشدا أشد ما يكون تنوعا، وينشئون خليطًا متورطًا في شبكة اجتماعية عتيقة معقدة. ثم أين ذلك الرجل الذي يدعى للتوقيع على أي عقد؟. فإن فاته ذلك وجب عليه أن يهجر العالم وحيدا. فلو فسرت هذه البيانات تفسيرا حرفيا، لبلغت من الزيف والخطأ الظاهر، حدا يجعل من المستحيل الاعتقاد بأن الناس الذين وضعوها، كانوا يقصدون منها أن تفسر حرفيا. وإنما هم أنشئوها للتعبير عن فكرات معينة خداعة ولكنها مهمة أعمق الأهمية – وهي فكرات أصبح العالم بعد انقضاء قرن ونصف من التفكير فيها، في وضع يستطيع فيه أن يعبر عنها تعبيرا أحسن. والمدينة كما أوضحت هذه "المعالم" نشأت بوصفها مجتمع طاعة، وكانت بالضرورة مجتمع طاعة. وكان الكهنة والحكام قد أساءوا إلى الروح جيلاً بعد جيل. ثم

---

[1] انظر ص ص ٩٥٧ – ٩٦٣ م المعالم ج٣ ط٢. ومجتمع الإرادة والطاعة من أهم النقاط التي يعنى المؤلف أيما عناية بإبرازها في كل أجزاء "المعالم". (المترجم).

حدث انثيال متواصل من الإرادة القوية جاء منحدرا من الغابات والغياض والسهوب [1]. ذلك أن الروح الإنسانية ثارت في نهاية الأمر ثورة تامة على الطاعات العمياء في الحياة المشتركة. كانت تبغي – وكان ذلك بطريقة سمجة جدا في بداية الأمر – الحصول على طراز جديد من الحضارة أحدث جدة وأحسن صنعا، يكون في نفس الوقت "مجتمع إرادة". وكان من الضروري للوصول إلى تلك الغاية أن يعامل كل إنسان بوصفه سلطانًا على نفسه؛ وكان لا بد أن يكون مركزه مركز الزمالة لا العبودية. وكان فائدته الحقيقية وأهميته الحقيقية تعتمد على صفته الفردية. والطريقة التي حاول بها هؤلاء الخالقون لأمريكا السياسية أن يحصلوا على "مجتمع الإرادة" ذاك، كانت طريقة مفرطة في بساطتها وفجاجتها. فقد منحوا الناس شيئًا كان بالنسبة إلى الزمان وبالنظر إلى الأحوال الأمريكية، حتى اقتراع واسع المجال جدا. ولكن الأحوال كانت تختلف بين ولاية وأخرى، وكان أوسع حق للاقتراع في بنسلفانيا، حيث كان كل دافع ضرائب بالغ ذكر له الحق في التصويت، ولكن إذا قورن الحال ببريطانيا، لتبين أن الولايات المتحدة بأجمعها كانت أقرب ما تكون من منح حق التصويت لكل من بلغ مبلغ الرجال عند نهاية القرن الثامن عشر. وبذل مؤسسو أمريكا الجهود – وكانت جسيمة بالقياس إلى زمانهم طفيفة بالقياس إلى زماننا – للوصول إلى "تعليم" بسيط واسع الانتشار. فأما "إعلام" المواطنين بخبر ما يجري داخل بلادهم وخارجها، فأمر تركوه للاجتماعات العامة والمطبعة الخاصة التي يملكها أي فرد، دون أن تخالجهم – فيما يظهر – وخزة ارتياب في هذين العاملين.

وقصة دساتير الولايات المختلفة ودستور الولايات المتحدة على وجه العموم، قصة معقدة جدا، لسنا بمستطيعين أن نعالجها هنا إلا كأشد ما تكون المعالجة إجمالاً واقتضابا. وأجدر الأمور بالذكر من وجهة النظر العصرية هي إغفال النساء بوصفهن ممادنات (مواطنات). وكان المجتمع الأمريكي مجتمعا بسيطًا زراعيا في كبير أمره. وكانت معظم النساء متزوجات؛ فلا غرو إذن أن يمثلهن بعولتهن. على أن نيوجرسي سمحت لعدد قليل من النساء أن يعطين أصواتهن على أساس من المؤهلات العقارية. وهناك أيضاً نقطة أخرى ذات أهمية عظيمة، هي القرار الذي كاد أن يكون إجماعيا بأن يتولى الحكم في البلاد مجلسان يقر كل منهما الآخر أو يكبحه على غرار مجلسي اللوردة والعموم في بريطانيا. وكان لبنسلفانيا دون غيرها مجلس نيابي واحد، الأمر الذي كان الناس يشعرون من أجله بأن تلك حالة شديدة الخطر مغالية في ديمقراطيتها. وعندي أنه فيما عدا الدفع الجدلي بأن التشريع يجب أن يكون بطيئًا كما يجب أن يتسم بالتمكن والتثبت، فإن من العسير أن يجد المرء ضرورة لهذه الثنائية في المجالس. ويلوح أن المسألة كانت تقليدا جديدا أو (موضة) انتشرت لدى مؤسسي الدساتير في القرن الثامن عشر أكثر منها حاجة ملحة معقولة. فإن الازدواج البريطاني كان تقسيما قديما. فمجلس اللوردة وهو البرلمان أصلاً، كان جميعه من "الكبراء": وأعظم زعماء المملكة؛ ثم جاء مجلس العموم بوصفه عاملاً جديدا، وبوصف أعضائه الفئة المنتجة المتحدثة بلسان سكان المدن وأصحاب الملكيات الزراعية الصغيرة. وكان مفروضا في شيء من التعجل في القرن الثامن عشر أن العامة

---

[1] الغياض (Parklands): مصطلح جغرافي معناه الغابات الحقيقة المتباعدة الأشجار. والسهوب (Steppes): هي السهول الفسيحة. الجافة الخالية من الأشجار وإن نبتت بها الأعشاب ومعظمها في جنوب شرقي أوربا وجنوب غربي آسيا. (المترجم)

ميالة إلى الاندفاع وراء الدوافع الضارية وأنها محتاجة ولا ريب إلى من يشكمها؛ وكان الرأي متجها إلى الأخذ بالديمقراطية على أن تكون ديمقراطية عليها دائما شكائم [1] قوية سواء أكانت منطلقة إلى أعلى الجبل أو منحدرة إلى أسفل. وكانت فكرة النخبة المنتقاة هالة تحيط بتلك المجالس العليا؛ فإنهم كانوا ينتخبون على أساس من الاقتراع أضيق حدودا. وهذه الفكرة الداعية إلى إنشاء مجلس أعلى يكون معقلاً يعتصم به ذوو القيمة من الرجال لا تروق المفكرين العصريين بنفس القوة التي كانت تروق بها أمثالهم في القرن الثامن عشر. ولكن فكرة المجلس الثنائي مكونًا على صورة ما أخرى، لا تزال ولها أنصارها. فإنهم يرون بأن المجتمع يجوز له – مع رجوع ذلك بالخير عليه – أن ينظر في شئونه من زاويتي نظر – فينظر بواسطة أعين هيئة منتخبة لتمثل الحرف والصناعات والمهن والخدمات العامة وما إلى ذلك، وهي هيئة تمثل الوظيفة، كما ينظر من خلال أعين هيئة ثانية تنتخبها الجهات المحلية لتمثل تلك المجتمعات. فلانتخاب أعضاء الهيئة الأولى يعطي الرجل صوته على أساس مهنته. وللثانية على أساس الحي الذي يسكنه. وهم يشيرون إلى أن مجلس اللوردة البريطاني إنما هو في الواقع ممثل للوظيفة، تمثل فيه الأرض والقانون والكنيسة تمثيلاً غير متناسب مطلقًا، على أن أصحاب الصناعات فيه وأرباب الأموال وكبار رجال الخدمات العامة وأهل الفن والعلوم والطب يجدون مكانهم كذلك؛ وأن مجلس العموم البريطاني جغرافي بحت في أصوله. بل لقد اقترح بعضهم في بريطانيا أنه يجب أن يكون هناك "نبلاء من العمال" ينتخبون من بين زعماء نقابات العمال العظيمة. على أن هذه تأملات تخرج عن نطاقنا الحالي.

وكانت الحكومة المركزية للولايات المتحدة هيئة واهنة القوة جدا بادئ الأمر، مكونة من كونجرس ينتظم ممثلي الولايات الثلاث عشرة، التي تضمها بعضها إلى بعض عناصر اتحاد احتلافي [2] (كونفدرالي) بعينها. ولم يكن هذا الكونجرس إلا مجرد مؤتمر من مندوبين لولايات مستقلة ذات سيادة؛ إذ لم يكن في يده مثلاً أي هيمنة على التجارة الخارجية في كل ولاية على حدتها، ولا كان بالمستطيع أن يسك النقود ويجمع الضرائب بناء على سلطانه هو. وقد حدث عندما ذهب جون آدامز أول وزير للولايات المتحدة في إنجلترة لمناقشة معاهدة تجارية مع وزير الخارجية البريطاني أن قوبل بطلب ثلاثة عشر مندوبا، يمثل كل واحد منهم ولايته المختصة. ثم اضطر أن يعترف بعدم قدرته على اتخاذ إجراءات ترتبط بها بلاده كلها. وعند ذلك شرع البريطانيون يتعاملون مع كل ولاية على حدة متخطين الكونجرس، واحتفظوا بملكية عدد من المواقع على الأراضي الأمريكية حول البحيرات العظيمة بسبب عدم مقدرة الكونجرس على الاحتفاظ بتلك الأقاليم احتفاظًا فعالاً. وأثبت الكونجرس على نفسه الضعف أيضا في مسألة أخرى مستعجلة خطيرة. إذ إنه تمتد إلى الغرب من الولايات الثلاث عشرة أراض لا نهاية لها كان المستوطنون يتخذون سبيلهم إليها في أعداد

---

(1) شكائم: فرامل. (المترجم)

(2) الاتحاد الاحتلافي أو الكونفدرالي: أطلقنا هذه الكلمة للدلالة على معنى Confederanon وهو الاتحاد بين الولايات اتحادا مفككًا تحتفظ فيه كل منها بسماتها والشيء الكثير من استقلالها وذلك تمييز لها من كلمة الاتحاد الوحدوي أو الفدرالي التي تدل على الاتحاد التام بين الولايات. (المترجم)

متكاثرة أبدا. وكانت لكل من الولايات مدعيات غير محصورة للتوسع غربا. فكان من الواضح لكـل رجـل بعيد النظر، أن احتكاك هذه المدعيات مؤد على طول الزمان إلى الحرب، ما لم تستطع الحكومة المركزية أن تتولى توزيع الأنصبة. وبلغ الضعف بالحكومة المركزية وحاجاتها إلى التركز، حدا أصبحا معه أمرا مزعجا وخطرا باديا، حتى لقد جرت بعض مباحثات سرية ترمي إلى إنشاء نظام ملكي في البلاد، وكلـف ناثانيـال جورهام نائب ماساشوستس ورئيس الكونجرس من يفاتح الأمير هنري البروسي شقيق فردريك الأكبـر فـي هذا الصدد. وأخيرا دعي مؤتمر دستوري للاجتماع في (١٧٩٧) بفيلادلفيا، وهنالك وضعت الأسس الإجمالية للدستور الحالي للولايات المتحدة. ذلك أنه حدث أثناء السنوات الأخيرة تغير عظيم في الروح، إذ فـشا فـي الناس جميعا شعور بضرورة الوحدة.

وعندما وضعت مواد دستور الاتحاد الاحتلافي (الكونفدرالي)، كان الناس يفكرون في فرجينيا وشـعب ماساشوستس وشعب رود أيلاند وما إلى ذلك؛ فأما الآن فتظهر إلى الوجود فكرة جديدة، هي "شعب الولايات المتحدة". وصدر بيان أعلن أن الحكومة الجديدة بما لها من رئيس تنفيذي وأعضاء بمجلس شـيوخ ورجـال كونجرس ومحكمة عليا (التي أنشئت عند ذاك)، إنما هي حكومة "شعب الولايات المتحدة". كانت هيئة مندمجة ولم تكن مجرد جمعية متجمعة. وكانت تقول "نحن الشعب" وليس "نحن الولايات"، كما اشتكى ذلـك بمـرارة "لي" الفرجيني. إذ تقرر أن تكون حكومة اتحاد فدرالي Federal لا حكومة اتحاد احتلافي Confederate.

وأقرت الدستور الجديد ولاية بعد ولاية، وفي ربيع ١٧٨٨ اجتمع بنيويورك أول كونجرس قام علـى الأسس الجديدة، تحت رياسة جورج واشنجتون، الذي كان القائد الأعلى الوطني طوال حـرب الاسـتقلال. وعند ذلك مر الدستور في طور من المراجعة جسيم، وبنيت مدينة واشنجتون على نهر البوتومـاك لتكـون عاصمة الاتحاد.

٦- المظاهر البدائية لدستور الولايات المتحدة

أسلفنا إليك في فصل سابق وصفنا للجمهورية الرومانية، وخليطها الجامع بـين المظـاهر العـصرية المشوبة بالخرافات القاتمة والسمة الوحشية البدائية – بأنها الصورة النياندرتالية التي تؤذن بالدولة العصرية. وربما جاء وقت يعد فيه الناس مستحدثات الدستور الأمريكي وأجهزته العديل السياسي للأدوات والمستحدثات التي كانت لإنسان العصر الحجري الحديث. على أنها أدت الغرض المطلوب منها أداء حسنًا، ونمـا شـعب الولايات في ظل حمايتها حتى أصبح من أعظم المجتمعات التي ظهرت في العالم إلى الآن ومن أشدها قـوة وحضارة؛ على أنه ليس في ذلك ما يدعو إلى اعتبار الدستور الأمريكي شيئًا أقرب إلى الغاية النهائية وأبعـد من قبول التغيير من طراز سكك حديد الشوارع التي تعلو كثيرا من طرقات نيويورك العامة، أو ذلك الطراز الممتاز البسيط من عمارة المنازل الذي ما يزال يعم فيلادلفيا. فإن هذه الأشياء أيضا أدت الغرض منهـا أداء حسنًا، وفيها عيوبها على أن في الإمكان إصلاحها وتحسينها. فإن مستحدثاتنا الـسياسية شـأن مـستحدثاتنا المنزلية والآلية بالضبط، في حاجة إلى أن تمتد إليها يد التعديل المتواصل كلما نما العرفان والتفهم.

ومنذ أن رسمت خطة الدستور، تعرضت فكرتنا عن التاريخ ومعرفتنا بسيكولوجيا الجماعـة لتطـور جسيم جدا. فإنا أخذنا نرى في معضلة الحكم والحكومة أشياء كثيرة كان رجال القرن الثـامن عـشر عنهـا عمين؛ وإذ إنهم كانوا شجعانًا شجاعة تتجلى في نزعتهم الإنشائية تلقاء أي تكوين سياسي سابق لهم، فإن تلك النزعة الإنشائية قصرت كثيرا عن حد تلك الجرأة التي تدرك الحاجة إليها في هذه الأيام للوصول إلى حـل لهذه المسألة الإنسانية العظيمة، مسألة إنشاء "مجتمع إرادة" ممدن. فإنهم سلموا بأشياء كثيرة نعرف اليوم أنها بحاجة أن تكون موضع أشد الدراسات العلمية تدقيقًا وأن تلقى أشد ألوان الإحكام والتعديل. ذلك أنهـم كـانوا يظنون أن كل ما عليهم هو أن يقيموا المدارس والكليات، مع منحها منحة من الأرض للقيام بنفقاتها، وأنه من الجائز عند ذاك أن تترك وشأنها. ولكن التعليم ليس عشبا ينبت بقوة في أية تربـة، وإنمـا هـو محـصول ضروري رقيق قد يذبل في سهولة ويضوي. وإنا لنعلم في هذا العصر أن النقص في تطور الأجهزة الجامعية والتعليمية، يشبه شيئًا من نقص التطور للمخ والأعصاب، الذي يعوق نمو الكيان الاجتماعي كله. وإذا قـيس مستوى التعليم العادي في أمريكا بالمعايير الأوروبية وبمعيار أية دولة ظهرت حتى الآن، تجلى أنه مـستوى عال؛ ولكن إذا قيس إلى ما يمكن أن يكون عليه حاله، فإن أمريكا تعد دولة غير متعلمة. كذلك أيـضا زعـم آباء أمريكا هؤلاء أنه ليس عليهم إلا أن يتركوا "الصحافة" حرة، وعند ذلك يعيش كل إنسان في أسطع نور. فلم يدركوا أن في إمكان الصحافة الحرة أن تطور نوعا من الارتشاء والفساد الدسـتوري بـسبب علاقتهـا بأصحاب الإعلانات، وأن في مستطاع أصحاب الصحف الكبيرة أن يكونـوا قراصـنة يتقبلـون كـل رأي ومحطمين فاقدي الشعور للبدايات الحسنة. ويجيء في آخر الأمر أنه لم يكن لمؤسسي أمريكـا أي معرفـة بتعقيدات التلاعب بالأصوات. فإن "علم الانتخابات" بأجمعه كان أبعد أن يتناوله وهمهم، ولم يكونوا يعرفـون شيئًا عن الحاجة إلى الصوت القابل للنقل لمنع طبخ الانتخابات بواسطة المنظمات المتخصصة، وكانت نتيجة الطرائق الصلبة التي كانوا يستعملونها – أن أصبح نظامهم السياسي فريسة محققة لأجهزة الحزب الكبير التي

سلبت الديمقراطية الأمريكية نصف حريتها ومعظم روحها السياسية. وأصبحت السياسة حرفة، وحرفة وضيعة جدا. وانسحب كرام الرجال ومقتدروهم، بعد الفترة العظيمة الأولى تاركين ميدان السياسة إلى الأعمال، وانحطت روح الشعور بالدولة. وتحكم "المسعى الخاص" في كثير من الشئون العامة، لأن الفساد السياسي جعل "المسعى الجماعي" أمرا مستحيلاً.

على أن نقائص النظام السياسي العظيم الذي خلفه أمريكيو فترة الثورة، لم تظهر على الفور. فإن تاريخ الولايات المتحدة لبث أجيالاً عدة، تاريخ اتساع سريع وقدر من الحرية، وسعادة ساذجة وعمل ناشط، على حال لا نظير لها جميعا في تاريخ العالم. وبالرغم من حدوث انحرافات كثيرة نحو عدم المساواة وبالرغم من الكثير من قلة الخبرة والكثير من الأخطاء، فإن تاريخ أمريكا مع ذلك في المائة والخمسين السنة الأخيرة قصة تعادل في نصاعتها وشرفها قصة أي شعب معاصر آخر.

ولم يتهيأ لنا في هذا البيان الموجز الذي كتبناه عن إنشاء الولايات المتحدة الأمريكية أن نتجاوز إلا قليلاً مجرد الإشارة إلى أسماء جماعة العظماء الذين بدءوا هذه البداية الجديدة في التاريخ الإنساني. وقد ذكرنا أسماءهم عرضا، أو قل إننا حتى لم نذكر رجالاً من أمثال توماس بين وبنيامين فرانكلين وباتريك هنري وتوماس جفرسون وأبناء العم من أسرة آدامز وماديسون الكسندر هاملتون وجورج واشنجتون. ومن العسير على المرء أن يقيس رجال فترة ما من التاريخ برجال فترة أخرى. وقد يتأثر بعض الكتاب حتى الأمريكيين منهم بالأبهة المصطنعة التي تجلت في البلاطات الملكية الأوروبية وبالأعمال المدمرة المليئة بالبهرج والزيف التي قام بها أشخاص مثل فردريك الأكبر أو كاترين العظيمة، فيبدون إزاء مؤسسي أمريكا هؤلاء ضربا مما قد يبديه محدثو النعمة من خجل إزاء شيء مصنوع بالمنزل. فإنهم يشعرون أن بنيامين فرانكلين إنما يبدو في بلاط لويس السادس عشر في شعره الطويل وثيابه البسيطة وخلقه الماكر شخصا ينقصه الامتياز الأرستقراطي نقصا محزنًا. ولكنهم إن جردوا حتى بدت شخصياتهم، لم يكد لويس السادس عشر يبلغ من المواهب ولا من نبل العقل الحد الكافي لجعله وصيفًا لفرانكلين. فإذا كانت العظمة الإنسانية تقاس بالمستوى والمعيار والبريق، فلا شك إذن أن الإسكندر الأكبر يتبوأ من العظمة الإنسانية ذروتها. ولكن هل العظمة هي ذلك الأمر؟ ألا يكاد الرجل العظيم أن يكون من إذا تولى منصبا عظيما أو تهيأت له فرص عظيمة – وما المواهب العظيمة إلا فرص عظيمة – خدم ا وخدم إخوانه بقلب ملؤه التواضع؟ ولا ريب أنه يبدو أن عددا جما من أمريكيي الزمن الثوري أولئك، قد أظهروا الشيء الكثير من الإخلاص والتجرد من الأغراض. كانوا لا جرم رجالاً محدودين، رجالاً غير معصومين من الزلل، ولكنهم يبدون في جملتهم وكأنما كانوا يعنون بالحكم الشعبي المتحرر الذي يخلقون، يعنون به في حد ذاته أكثر من عنايتهم به كغاية شخصية أو غرور شخصي. ومن المستحيل علينا ألا نخولهم عظمة ذهنية ممتازة.

ولا ننكر أنهم كانوا محدودي المعارف ضيقي أفق النظر إلى الأمور؛ إذ كاد يحدوهم محدد زمانهم وقيوده. كانوا – شأننا جميعا – رجالاً تتنازعهم دوافع مختلفة؛ قد نشأت في أذهانهم حوافز طيبة وسرت في أجسادهم فكرات عظيمة. ومن الجائز كذلك أن تداخلهم نزعات الغيرة أو الكسل أو العناد أو الشر. فلو قدر

للمرء أن يكتب تاريخًا حقيقيا كاملاً مدققًا لتكوين الولايات المتحدة، لوجب أن يكتب في روح من السماحة والجذل كما تُكتب ملهاة فاخرة ترتفع إلى أنبل الغايات. ولسنا نعثر على الروح الإنسانية الجزلة الملتوية المتجلية في القصة الأمريكية، قدر ما نعثر عليها ممتازة رائعة إزاء تجارة الرقيق. وإذا نحن راعينا مسألة العمال بصفة عامة – وجدنا الرق خير محك لهذه الروح الجديدة في التاريخ العالمي وأعني بها الروح الأمريكية.

ابتدأت تجارة الرقيق في وقت مبكر جدا من تاريخ أمريكا الأوربي. وما من شعب أوربي ذهب إلى أمريكا بمبرأ براءة تامة من وزر ذلك الأمر. ومن الإنصاف أن نلحظ في وقت لما يزل فيه الألماني في أوربا من الناحية الخلقية كالمعاقب بجريرة غيره – إن سجل الألمان هنا خير السجلات وأنظفها من هذه الوجهة. وتكاد أول الأقوال الصريحة ضد استرقاق الزنوج تكون صادرة من مستوطنين ألمانيين في بنسلفانيا. ولكن المستوطن الألماني كان يشتغل بواسطة عمال أحرار فوق أرض معتدلة المناخ متوغلة كثيرا في الشمال عن منطقة المزارع الكبرى؛ فلم يكن واقعا إذن تحت تأثير مغريات خطيرة في هذا الشأن. ابتدأت تجارة الرقيق الأمريكية باسترقاق الهنود لتشغيلهم في مناسر العمال بالمناجم وفي المزارع الكبرى. ومن عجب أن يلحظ الإنسان أن لاس كاساس وهو الرجل الذي حض على استيراد الزنوج إلى أمريكا للحلول في العمل محل من تحت حمايته من الهنود المعذبين، كان بالفعل رجلاً طيبا جدا عطوفًا على الإنسانية. ذلك أن الحاجة إلى العمال الذين يشتغلون في المزارع الكبرى بجزر الهند الغربية وفي مناطق الجنوب كانت حاجة حتمية ملحة. وعندما ثبت أن الوارد من الأسرى الهنود غير كاف، شخص المزارعون لا إلى الزنوج فحسب بل إلى السجون وملاجئ الفقراء في أوربا لتزودهم بالعمال الكادحين. ولسوف يعلم قارئ كتاب مول فلاندرز من تأليف دانيال ديفو، الرأي الذي كان يراه إنجليزي ذكي الفؤاد عند بواكير القرن الثامن عشر في عملية الرقيق الأبيض الفرجينية. على أن الزنجي جاء في وقت مبكر جدا فإن سنة ١٦٢٠ التي شهدت الآباء الحجاج ينزلون إلى البر في لميموث بنيوإنجلند، شهدت غليونًا هولندا ينزل إلى البر أول شحنة من الزنوج في جيمس تاون بفرجينيا. فكأن عمر تجارة الرقيق الزنوج يناهز عمر نيوإنجلند وكانت تلك التجارة نظاما أمريكيا مضى عليه قبل حرب الاستقلال ما يربو على قرن ونصف من الزمان. وقدر لها أن تواصل حياتها في كفاح استمر الجزء الأكبر من قرن آخر.

على أن ضمائر المفكرين من رجال المستعمرات لم ترتح قط تمام الارتياح إلى هذه النقيصة، وكانت إحدى التهم التي وجهها توماس جفرسون لتاج بريطانيا العظمى وأوردتها، أن كل محاولة تبذل لتحسين الحال أو الوقوف في سبيل تجارة الرقيق من جانب المستعمرين كانت تحول دونها مصالح أصحاب الملكيات الكبرى في أرض الوطن الأم (أي إنجلترة). وفي سنة ١٧٧٦ كتب اللورد دارتموث إن المستوطنين لا يمكن أن يباح لهم "أن يحولوا دون تجارة لها مثل ذلك النفع العميم على الشعب أو يثبطوها". وقفزت مسألة استرقاق الزنوج إلى منزلة الصدارة من الضمير العام بفضل نشوء التخمر الأخلاقي الذي حدث إبان الثورة. وظهر التباين والتحاد واضحا وهاجا لعين العقل. فإن قانون الحقوق الفرجيني يقول " كل الرجال بطبيعتهم

أحرار متساوون"، ومع ذلك فإذا خرج الإنسان إلى العراء وجد العبد الزنجي يكدح في ضياء الشمس تحت سوط "ريس" العمال!!!.

ومما يشهد بالتغيير العظيم في الفكرات الإنسانية منذ أن انحل النظام الإمبراطوري الروماني أمام هجمات البرابرة أن أصبح في الإمكان أن يقوم الناس بمثل هذا البحث في زوايا قلوبهم وخبايا ضمائرهم. فإن ظروف الصناعة والإنتاج وحتى ملكية الأراضي قد حالت زمانًا طويلاً دون حدوث انتفاضة جديدة لنظام مناسر الأرقاء. ولكن الدورة ما لبثت أن دارت كرة أخرى، وكانت هناك مزايا مباشرة هائلة تحصدها الطبقات المالكة والحاكمة من وراء انتعاش ذلك النظام القديم، في المناجم والضياع الكبرى والأشغال العامة الكبيرة. فبعث النظام ولكن قامت في وجهه معارضة عظيمة. وتعالت الأصوات منذ بداية ذلك الابتعاث باحتجاجات لم تبرح تتزايد وتشتد. إذ كان استحياء تلك العادة مضادا لضمير البشرية الجديد. وكان النظام الجديد لاسترقاق المناسر أسوأ في بعض مناحيه من أي شيء في العالم القديم. ومما كان فظيعا مرعبا بوجه خاص ما كانت تؤججه تلك التجارة من حروب لاصطياد الرقيق، وما كان يجري من طراد الإنسان في إفريقيا الغربية، ومن قساوات الرحلة الطويلة عبر المحيط الأطلسي. فإن هؤلاء المساكين كانوا يعبئون في السفن وليس معهم في غالب الأمر ما يكفيهم من الماء والطعام ودون الرعاية الصحية الواجبة ودون أدوية على الإطلاق. حتى لقد كان الكثيرون ممن يستطيعون أن يتسامحوا مع الاسترقاق على أرض الضياع الكبرى يرون تجارة الرقيق شيئًا لا تستطيع أن تسيغه أخلاقهم. وكانت شعوب أوربية ثلاثة مشتغلة بوجه رئيسي بهذا العمل البشع، وهي بريطانيا وإسبانيا والبرتغال لأنها كانت أكبر ملاك الأراضي الجديدة في أمريكا فأما البراءة النسبية للشعوب الأوروبية الأخرى فترجع في الغالب إلى أن نصيبهم من المغريات كان أصغر. كانوا مجتمعات مماثلة لتلك، فلو أتيحت لها ظروف مماثلة لتصرفت تصرفًا مماثلاً.

وقد ألم بالنفوس هياج ناشط طوال الجزء الأوسط من القرن الثامن عشر ضد استرقاق الزنوج في بريطانيا العظمى وفي الولايات على السواء. وقدر عدد الأرقاء في إنجلترة في سنة ١٧٧٠ بخمسة عشر ألف عبد استجلب أصحابهم معظمهم من جزر الهند الغربية وفرجينيا. وفي سنة ١٧٧١ وصل النزاع إلى امتحان نهائي في بريطانيا أمام اللورد مانسفيلد. فإن زنجيا اسمه جيمس سومرست أحضره سيده من فرجينيا إلى إنجلترة. ففر ثم قبض عليه وأخذ أخذًا عنيفًا إلى إحدى السفن لكي يعاد إلى فرجينيا. فاستخلص من السفينة بحكم نص في "قانون المثول Habeas Corpus". وأعلن اللورد مانسفيلد أن الرق حالة لا يعرفها القانون الإنجليزي، وأنه حالة "بغيضة"؛ وعند ذلك خرج سومرست من المحكمة رجلاً حرا.

وكان دستور ١٧٨٠ لماساشوستس قد أعلن أن "الناس جميعا يولدون أحرارا ومتساويين". وقام زنجي بعينه اسمه كواكو بوضع هذا النص تحت الاختبار في ١٧٨٣، وفي تلك السنة أصبحت أرض ماساشوستس مثل أرض بريطانيا لا تتسامح مع الرق؛ فكان مجرد الدخول إليها معناه الانتقال إلى الحرية. ولم تنح هذا النحو في ذلك الزمان ولاية أخرى من ولايات الاتحاد. وفي تعداد ١٧٩٠ كانت ماساشوستس هي الولاية الوحدة التي لم تسجل وجود "عبد واحد بها".

وآراء الناس في فرجينيا جديرة بالملاحظة، لأنها تكشف القناع عن الصعوبات الخاصة التي كانت تواجه الولايات الجنوبية. فإن كبار رجال السياسة الفرجينيين من أمثال واشنجتون وجيفرسون كانوا يطعنون في ذلك النظام، ومع هذا فإن واشنجتون كان يمتلك العبيد إذ لم يكن هناك أي شكل آخر للخدمة المنزلية. ونشأ بفرجينيا حزب قوي يناصر إعتاق الرقيق؛ على أنهم كانوا يطالبون بأن يغادر العبيد المعتقون الولاية في مدى سنة من الزمان وإلا اعتبروا خارجين على القانون. وكان من الطبيعي أن ينزعجوا من احتمال وجود مجتمع همجي حر من السود، الكثير من أفراده مولودون بإفريقيا ومتشبعون بتقاليد أكلة لحم البشر وشعائر دينية سرية مرعبة – يقوم إلى جوارهم على الأراضي الفرجينية. فلو أنا تأملنا وجهة النظر هذه استطعنا أن نفهم لماذا حدث أن عددا كبيرا من الفرجينيين مال إلى الاحتفاظ بكتلة السود في البلاد تحت الرقابة بوصفهم عبيدا، على حين كانوا في نفس الوقت يعارضون تجارة الرقيق واستيراد أي دم جديد من أفريقيا معارضة مريرة. ومن اليسير على الإنسان أن يدرك أن السود الأحرار قد يصبحون بسهولة شوكة مضايقة؛ والواقع أن ولاية ماساشوستس الحرة أغلقت للوقت حدودها في وجههم.

ومن هنا يتضح أن مسألة الرق التي لم تكن في العالم القديم سوى مسألة "حالة" أو وضع لأفراد بينهم مماثلة عنصرية [1]، قد انغمرت في أمريكا مع مسألة مخالفة لها وأشد منها عمقًا هي مسألة العلاقات بين عنصرين من السلالة الإنسانية على طرفي نقيض، كما أنهما على أشد التباين في التقاليد والثقافة. فلو أن الرجل الأسود كان أبيض، فلا مجال للشك في أن استرقاق الزنوج كان يمتنع من الولايات المتحدة في مدى جيل واحد من ساعة إعلان الاستقلال بوصفه نتيجة طبيعية للبيانات الواردة في ذلك الإعلان.

---

[1] عنصرية (Racial): تقوم على العنصر الإنساني وفوارقه أو تماثلاته. (المترجم)

٧- الفكرة الثورية في فرنسا

تكلمنا عن حرب استقلال أمريكا ووصفناها بأنها أول انفصال عظيم عن نظـام الملـوك الأوربيـين ووزارات الخارجية الأوربية، وبأنها رفض مجتمع جديد لصناعة السياسة الميكيافلليـة بوصـفها الـصورة المدبرة للشئون الإنسانية. وما انقضت عشر سنوات حتى وافت ثورة ثانية أشد من الأولى إيذانًا بالشر، ثورة قامت ضد هذه اللعبة العجيبة:

لعبة الدول العظمى، وأعني بذلك التفاعل المعقد بين البلاطات والسياسات الذي أشربت به عقلية أوربا. على أنه لم يكن في هذه المرة حركة انفصال بعيدة الشقة. حدثت هذه الفتنة الثانية في فرنـسا مهـد الملكيـة العظمى وموطنها وقلب أوربا ومركزها. وعلى النقيض من المستوطنين الأمريكيين الذين اكتفوا بمجرد نبـذ الملك، قام الفرنسيون بقطع رأس ملكهم مترسمين خطى الثورة الإنجليزية. والثورة الفرنسية شـأن الثـورة البريطانية وشأن الثورة في الولايات المتحدة، يمكن تعقبها حتى مصادرها الأولى متمثلة في سخافات الملكية ومطامعها. فإن خطط التوسع وأغراض الملك الأعظم وتدبيراته، استلزمت من الإنفاق على عتاد الحرب في كل أرجاء أوربا ما يتجاوز كل تناسب مع طاقة العصر في الضرائب. ناهيك بأن تـرف الملكيـة ومظـاهر بذخها كانت تتكلف نفقات باهظة بالقياس إلى الإنتاج في ذلك الوقت. وقد حدث في فرنسا كما حدث بالـضبط في بريطانيا وأمريكا أنه لم تكن المقاومة الأولى موجهة ضد الملك بوصفه ملكًا ولا ضد سياسته الخارجيـة بوصفها سياسة خارجية بل إلى ما يتسبب عنها من مضايقات وتكاليف تلم بحياة الأفراد، كذلك لم يميز الناس تمييزا واضحا أن أصل الشر ينحصر في تلك الأمور. وطاقة فرنسا الفعلية على دفـع الـضرائب كانـت لا محالة أقل كثيرا نسبيا من طاقة إنجلترة بسبب الإعفاءات المتنوعة التي كان يستمتع بهـا النـبلاء ورجـال الكنيسة. ولذا كان العبء الملقى إلقاء مباشرا على عاتق عامة الشعب أثقل وأفـدح. وهـذا الإعفـاء جعـل الطبقات العليا أعوانًا للبلاط، بدل أن يناصبوا البلاط العداء شأنهم في إنجلترة؛ وبذا ساعد على إطالـة أمـد الخراب؛ حتى إذا تناهى الأمر فعلاً إلى درجة الانفجار، كان الانفجار أشد عنفًا وتمزيقًا وتدميرا.

ولم تكن هناك أثناء سنوات حرب الاستقلال الأمريكية إلا أمارات قليلة تؤذن بأن انفجـارا يوشـك أن يحدث في فرنسا. أجل كانت التعاسة متفشية بين الطبقات الدنيا، وكان النقد ناشطًا والتهكم لـذاعا. والتفكيـر المتحرر الصريح وفيرا، ولكن لم يبد هناك إلا أقل النذر بأن الوضع في مجمله وبكل ما فيـه مـن عـرف وعادات واختلافات مألوفة، قد لا يستمر في طريقه زمانًا لا آخر له. كانت فرنسا تتجاوز في استهلاكها كـل طاقة لها على الإنتاج. ولكن لم يكن هناك حتى ذلك الحين من يحس آلام الوخزة إلا الطبقات التي ليس لهـا لسان تئن به. وكان المؤرخ جيبون يعرف فرنسا خير المعرفة، فقد كان بصيرا بباريس بصره بلندن؛ ولكـن أحدا لا يستطيع أن يحس منه في الفقرة التي اقتبسناها خلجة ارتياب تنبئ بأن أياما من الانحـلال الـسياسي والاجتماعي وشيكة دانية. ولا ريب في أن العالم كان يزخر بالسخافات والمظالم، ومع هذا فإنه مـن وجهـة نظر المفكر العالم والجنتلمان كان على درجة لا بأس بها من الرفاهية كما كان يلوح في حال لا بأس بها من الطمأنينة.

نعم ظهر في فرنسا في ذلك الزمان قدر كبير من التفكير الحر والخطابة الحرة والعاطفة الحرة. وقـام في فرنسا في النصف الأول من القرن الثامن عشر، مونتسكيو (١٦٨٩ – ١٧٥٥) ضريبا لجون لـوك فـي إنجلترة وإن تأخر عنه بعض الزمان. فوضع النظم الاجتماعية والسياسية والدينيـة تحـت نفـس الفحـص والتحليل الجوهري وبخاصة في كتابه "روح القوانين".

وقد جرد الملكية المطلقة بفرنسا من هيبتها السحرية، وهو يقاسم لوك فضل إزالة كثير مـن الفكـرات الخاطئة التي كانت حتى حينذاك تحول دون المحاولات الواعية المقصودة لإعادة بناء الجماعـة الإنـسانية. ولئن حدث في بداية الأمر أن أقيمت في الأرض البراح المتخلفة عن ذلك الهدم أكواخ هزيلة مفرطـة فـي الضعف بالغة الغاية في عدم الاستقرار، فإن ذلك لم يكن راجعا إلى خطئه هو. فإن الجيل الذي عقبـه فـي أواسط القرن الثامن عشر وأخرياته، كان يفكر تفكيرا جريئًا فيما قام به ذهنيا وخلقيا من هدم وإزالة. وتألفت جماعة من أذكياء الكتّاب هم "الموسوعيون" – ومعظمهم ذوو أرواح ثائرة ممـن تخرجـوا فـي مـدارس اليسوعيين الممتازة – ونهضت تحت قيادة ديدروه (Diderot) لوضع الخطط لعالم جديد (١٧٦٦) بوسـاطة مجموعة من المؤلفات. ويقول ماليه (Mallet)، "إن مجد الموسوعيين ينحصر في كراهيتهم لكل جور وظلم وفي تشهيرهم بتجارة الرقيق، وعدم التسوية بين الناس في الضرائب، وفساد العدالة، والدمار الـذي تجـره الحروب... وفيما كانوا يحلمون به من التقدم الاجتماعي، وما كان يخالجهم من عطف على "دولة" الـصناعة الناهضة التي شرعت تحول العالم تحويلاً". ويلوح أن غلطتهم الرئيسية تنحصر في مناصبتهم الأديان عداوة عمياء. فإنهم كانوا يعتقدون أن الإنسان عادل بطبعه كفء من الناحية السياسية، على أن اندفاعه نحو الخدمة الاجتماعية ونكران الذات لا يتطور في العادة إلا بطريق تعليم يكون بالضرورة تعليما دينيا، ولا يدعمـه إلا جو من التعاون الشريف. فأما المبتكرات الإنسانية غير المنسقة فإنها لا تؤدي إلى شـيء سـوى الفوضـى الاجتماعية.

وقامت إلى جانب الموسوعيين جماعة الاقتصاديين أو الفيزيوقراطيين، الذين كانوا يقومـون بأبحـاث جريئة فجة في شئون إنتاج الطعام والبضائع وتوزيعها. وقد شهر مؤلف "قانون الطبيعة [1]" بنظـام الملكيـة الخاصة من الناحية الأخلاقية واقترح إنشاء تنظيم شيوعي للمجتمع. كان هو البشير المـؤذن بظهـور تلـك المدرسة الكبيرة المنوعة، مدرسة المفكرين الجماعيين [٢] أو الحشديين في القرن التاسع عشر وهـم الـذين يجمعهم الناس تحت اسم الاشتراكيين.

وكان كل من الموسوعيين ومختلف فرق الاقتصاديين أي الفيزيوقراطيين يطلبون من تلاميذهم قـدرا جسيما من التفكير الشديد العميق. وثمة زعيم ألين معطفًا وأقرب إلى قلوب النـاس هـو روسـو (١٧١٢ – ١٧٧٨). أظهر مزيجا عجيبا من الصلابة المنطقية والحماسة العاطفية. وكان يبشر بالمبدأ الجذاب القائل بأن

---

(1) قانون الطبيعة: Code de la Nature

(2) الجماعيون: Collectivists. هم أنصار المذهب الجماعي المطابق للاشتراكية، لولا أنهم لا يدخلون الثورة في خططهـم. ومذهبهم يقوم على الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج والتبادل تحت هيمنة الحكومة. (المترجم)

حالة الإنسان البدائية كانت حالة فضيلة وسعادة، انحدر عنها نتيجة لنشاط القساوسة والملوك والمحامين ومن إليهم نشاطًا لا يكاد يبدو له سبب يفسره. وكان تأثير روسو الذهني تأثيرا مفسدا للأخلاق على وجه العمـوم. إذ إنه لم يصب فقط بضرباته البناء الاجتماعي القائم بل مس كل تنظيمة اجتماعية! والظاهر أنه حين كتـب عن "العقد الاجتماعي" كان يلتمس المعاذير لنقص ذلك العقد – الذي كتب عنه – أكثر مما يؤكد ضرورته.

والإنسان بعيد كل البعد عن الكمال حتى إنه يعلي قدر كاتب يناصر مناصرة ظاهرة رأيا قائلاً بأنـه لا إثم ولا جناح على من ينكر ديونه ومن ينحرف في سلوكه الجنسي، ويهرب من أعباء تعليم نفـسه وغيـره ويتحاشى ما يكلفه ذلك التعليم من نفقات، ويقول إن ذلك السلوك ما هو إلا مظهـر مـن مظـاهر الفـضيلة الطبيعية مع أن هذا هو الاتجاه الذي يكاد يكون عاما للأهواء، والذي ينبغي علينـا أن نحمـي أنفـسنا منـه ونقاومه، والإنسان كذلك بعيد عن الكمال حتى إن كاتبا كهذا يقدر له أن يكون صاحب مذهب يتبعه جمهـور كبير من الناس من كل الطبقات التي تستطيع قراءة ما يكتبه. وقد ساعدت بدعة روسو الخطيـرة مـساعدة كبرى على إشاعة طريقة عاطفية وشديدة الجرأة والخروج في معالجة المسائل السياسية والاجتماعية.

وقد لاحظنا من قبل أنه لم يحدث حتى اليوم أن مجتمعا إنسانيا واحدا بدأ يوما عمله على أساس نظري. فلابد من أن يحدث أولاً انهيار ما وحاجة إلى التوجيه تسمح للنظريات بأن تتبوأ مكانها. ولا بـد أن كتابـات وأحاديث المفكرين الفرنسيين الجمهورية والفوضوية، كانت حتى ١٧٨٨ تلوح أمورا لا تأثير لها ولا قيمة من الناحية السياسية شأن اشتراكية وليم موريس [1] الجمالية (الإسطيقية) في إنجلترة في نهايـة القـرن التاسـع عشر. فهناك في فرنسا، كان النظام الاجتماعي والسياسي يسير في طريقه ثابتًا قويا كأنما سيعيش أبدا، فكان الملك الفرنسي يخرج للقنص أو يصلح ساعاته، وكان البلاط وعالم الطبقة الراقية يواصلان ملذاتهما، وكـان الماليون لا ينون عن تدبير وسائل التوسع لمشروعاتهم في الائتمان؛ وكانت الأعمال التجارية تتـردى فـي الخطأ وهي تسير في سماجة على نفس امتداد طريقها القديم البالي، تبهظها الـضرائب والمكـوس، وكـان الفلاحون يحملون الهموم ويكدحون ويقاسون الويلات، وتمتلئ نفوسهم بكراهية يائسة لقصر النبيـل. وكـان الرجال يتكلمون ويحسون أنهم يتكلمون دون جدوى. وكان في الإمكان أن يقال أي شيء إذ كان يبدو أن لـن يحدث أي شيء.

---

[1] وليم موريس (١٨٣٤ – ١٨٩٦): شاعر واشتراكي وفنان. تعلم في أكسفورد وتأثر براسكن. أنشأ مـصنعا للأثـاث وورق الجدران وزخارف الكنائس وأصدر كتبا شعرية عديدة. (المترجم).

٨- ثورة سنة ١٧٨٩

وجاءت في ١٧٨٧ أول درجة أصابت هذا الاستمرار المطمئن للحياة في فرنسا. فإن لويس السادس عشر (١٧٧٤ – ١٧٩٣) كان ملكًا غبيا سيئ التعليم. وكان من سوء طالعه أنه تزوج من امرأة حمقاء مبذرة، هي ماري أنطوانيت شقيقة إمبراطور النمسا. ومسألة اتصافها بالفضيلة والعفة من المسائل التي تثير اهتمام طراز معين من كتاب التاريخ، على أنا في غير حاجة إلى مناقشتها في هذا المكان. فكانت كما يقول بول ويرياث [1] " تعيش جنبا إلى جنب مع زوجها لا إلى جانبه". وهي تكاد تكون غليظة القسمات، ولكن وجهها لم يكن عاديا إلى حد يمنع أن تتخذ وضع الملكة الجميلة الرومانسية المختالة. فلما أن استنفدت موارد وزارة المالية في الحرب في أمريكا، وعندما كانت البلاد بأسرها تتقلب على جمر التذمر والقلق، نصبت كل سلطانها لغل أيدي وزراء الملك عن أية محاولة للاقتصاد، ولتشجيع كل نوع من أنواع الإسراف الأرستقراطي، ولإعادة الكنيسة والنبلاء إلى المركز الذي كانوا يتبوءونه في الأيام العظيمة أيام لويس الرابع عشر. وكانوا يريدون أن يخلعوا من الجيش الضباط غير الأرستقراطيين؛ وأن يبسطوا من سلطة الكنيسة على الحياة الخاصة. ووجدت في موظف من الطبقة العليا هو كالوني المثل الأعلى لوزير ماليتها. فمنذ ١٧٨٣ إلى ١٧٨٧ ظل هذا الرجل العجيب ينتج النقود بطريقة تشبه السحر، ثم تختفي هذه النقود ثانية بطريقة تشبه السحر أيضا، ثم انهار في ١٧٨٧. وكان قد طبق القرض فوق القرض، وعند ذلك أعلن أن الملكية، أي الملكية العظيمة التي حكمت فرنسا منذ أيام لويس الرابع عشر – قد أفلست. ولم يعد في الطوق جمع أي نقود جديدة. ولا بد من عقد جمعية من ذوي الرأي والمكانة في المملكة للنظر في الموقف.

وقدم كالوني إلى اجتماع ذوي المكانة ذاك، وهو جمعية من القادة والزعماء وجهت إليها الدعوة للانعقاد، مشروعا بأخذ ضريبة مالية على كل عقار من الأرض. فأثار ذلك الأرستقراطيين إلى درجة من الغضب عظيمة. فطالبوا بدعوة هيئة تعادل على وجه التقريب البرلمان الإنجليزي – وهي "مجلس الطبقات States General" الذي لم يجتمع منذ ١٦١٤. وأصر ذوو المكانة الفرنسيون على طلبهم ذاك دون أن يتنبهوا إلى أنهم سينشئون بذلك لسانًا يعبر عما يخالج من دونهم من الطبقات من تذمر، لا يحفزهم على ذلك إلا محاربة الاقتراح القائل بأنهم يجب أن يتحملوا نصيبا من أثقال البلاد المالية. ومن ثم اجتمع مجلس الطبقات في مايو ١٧٨٩.

وكان ذلك المجلس جمعية تضم ممثلي هيئات ثلاث: النبلاء ورجال الدين والطبقة الثالثة أي العامة. وكان حق التصويت للطبقة الثالثة متسعا جدا، إذ كاد أن يكون لكل دافع ضرائب بلغ الخامسة والعشرين صوت. (وكان قساوسة الأبروشيات يعطون أصواتهم بوصفهم من رجال الدين، والنبلاء الصغار بوصفهم نبلاء). وكان مجلس الطبقات هيئة ليس لإجراءاتها أي تقاليد ولا سوابق. وأرسلت الاستفسارات في هذا الصدد إلى الخبراء بالشئون القديمة "بأكاديمية المخطوطات". ودارت مناقشاته الأولى حول مسألة هل له أن

[1] الموسوعة البريطانية مادة (France).

يجتمع كهيئة واحدة أو كهيئات ثلاث، يكون لكل طبقة فيها صوت معادل. ولما كان عدد رجال الـدين ٣٠٨ والنبلاء ٨٥ والنواب ٦٢٢، فإن الترتيب الأول يضع الأغلبية المطلقة بين أيدي العامة، ويعطـيهم الترتيـب الثاني صوتًا واحدا من ثلاثة. كذلك لم يكن لمجالس الطبقات مكان ينعقد فيه. فهل يجب أن يجتمع في بـاريس أو في إحدى مدن المقاطعات؟ واختيرت فرساي "بسبب الصيد". وواضح أن الملك والملكة كانا يقـصدان أن يعالجا هذه الضجة المثارة حول المالية القومية معالجتهم لأي شيء ثقيل مزعج، وأن يسمحا للمجالس بالتدخل في نظامهما الاجتماعي بأقل قدر مستطاع. وإنا لنرى الاجتماعات تتواصل في قاعات مهملة ليس بأحد إليهـا حاجة أو في صوبات البرتقال وملاعب التنس وما إليها.

وكان أخذ الصوت، وهل هو بالطبقة أو بالشخص أمرا واضح الأهمية الحيوية. وتجادل القوم فيه مـدة ستة أسابيع. حتى إذا اقتبست الطبقة الثالثة بضع صفحات من كتاب [1] مجالس العموم الإنجليزي، راحت تعلن أنها وحدها هي الممثلة للشعب، وأنه ينبغي ألا تجبى أية ضرائب من ذلك الحين إلا بعد إقرارها إياها. وعند ذلك أغلق الملك القاعة التي كان يجتمع فيها، وأعلن أنه يحسن بالنواب أن ينصرفوا إلى منازلهم. وبدلاً مـن ذلك اجتمع النواب في ملعب للتنس مناسب، وهناك أقسموا يمينًا هو يمين ملعب التنس: - ألا يتفرقوا حتـى ينشئوا لفرنسا دستورا. واتخذ الملك مظهر القوة وحاول أن يفرق الطبقة الثالثة عنوة. ولكن الجنود رفـضوا أن يطيعوا. وعند ذلك خضع الملك بشكل فجائي خطر وقبل المبدأ القائل بأن الطبقات الثلاث يجب أن تتناقش كلها وتعطي صوتها بصفتها جمعية وطنية واحدة. وفي نفس الوقت نقلت إلى فرساي بتحريض ظـاهر مـن الملكة، فرق أجنبية تعمل في خدمة الجيش الفرنسي ويمكن أن يعتمد عليها فـي العمـل ضـد الـشعب، إذ استقدمت تلك الفرق من الأقاليم تحت قيادة المارشال دي بروجلي، وأعد الملك العدة للتراجـع فـي منحتـه. وعندئذ تمردت باريس وفرنسا. وتردد بروجلي في إطلاق النار على الجماهير. وأقيمت حكومة مدنية مؤقتة في باريس وفي معظم المدن الكبيرة الأخيرة، وأنشأت تلك الحكومات البلدية قوة مسلحة جديدة هي الحـرس الأهلي، وهي قوة معدة أولاً وبشكل ظاهر لمقاومة قوات العرش.

وكان عصيان شهر يوليه ١٧٨٩ هو في الحقيقة الثورة الفرنسية الفعالة. وأخذ شعب بـاريس عنـوة سجن الباستيل الجهم لقاء مقاومة ضعيفةً جدا. وانتشر التمرد سريعا إلى كل أرجاء فرنسا. وأحرق الفلاحون في المقاطعات الشرقية والشمالية الغربية كثيرا من قصور النبلاء ودمروا صكوك ألقابهم، وقتلـوا أصـحاب القصور أو طردوهم منها. وانتشر العصيان في كل أرجاء فرنسا. ولم يمض شهر حتى كـان نظـام هيئـة الأرستقراطية البالي القديم قد انهار. وفر إلى الخارج كثير من كبار الأمراء ورجال البلاط من حزب الملكة. ووجدت الجمعية الوطنية نفسها تدعى لإنشاء نظام جديد سياسي واجتماعي لعصر جديد.

---

[1] أعني أن الجمعية قلدته وحذت حذوه. (المترجم).

٩- الجمهورية الفرنسية المتوجة

٨٩ – ٩١

كانت الجمعية الوطنية الفرنسية أقل توفيقًا بكثير في ظروف عملها من الكونجرس الأمريكي. فقد كان ذلك الكونجرس يجد بين يديه نصف قارة يتصرف فيه بملء حريته، وليس أمامه من خصم يعارضه إلا الحكومة البريطانية. وكانت منظماته الدينية والتعليمية متنوعة، وهي في مجموعها غير ذات قوة كبيرة ولكنها تنطوي في الجملة على الود والصداقة نحوه. وكانت الشقة نائية بينه وبين الملك جورج في إنجلترة، وقد أخذ ينحدر في بطء نحو حالة من البلاهة. ولكن معالجة أحكام الدستور وجعله فعالا اقتضت من الولايات المتحدة سنوات كثيرة. وكان الفرنسيون من الناحية الأخرى محوطين بجيران ميالين إلى العدوان لهم فكرات ميكيافللية، ويجثم على صدورهم ملك وبلاط يصران على عمل الشر، وكانت الكنيسة هيئة موحدة عظيمة ترتبط بالنظام القديم ارتباطًا لا انفصام له. وكانت الملكة على تراسل متواتر مع الكونت دارتوا والدوق دي بربون والأمراء المبعدين الآخرين الذين كانوا يحاولون أن يحملوا النمسا وبروسيا على مهاجمة الشعب الفرنسي الجديد. هذا إلى أن فرنسا كانت من قبل ذلك قطرا مفلسا على حين كانت للولايات المتحدة موارد لا نهاية لها لم تمتد إليها يد التنمية بعد، وكانت الثورة بإقدامها على تغيير نظام ملكية الأراضي والعمل بالأسواق قد أنتجت اضطرابا اقتصاديا ليس له مثيل في حالة أمريكا.

تلك هي صعوبات الموقف التي لم يكن إلى تجنبها سبيل. ولكن الجمعية خلقت لنفسها بالإضافة إلى ذلك صعوبات أخرى. فلم تكن هناك إجراءات منظمة. على حين كان لمجلس العموم الإنجليزي ما يربو على خمسة قرون من خبرته في عمله وعبثًا ما حاول ميرابو أحد كبار عظماء الثورة الأولى، أن يحمل إخوانه على اقتباس القواعد الإنجليزية المتبعة بمجلس العموم. ولكن شعور الزمان كان ميالاً بكليته إلى الصياح والمقاطعات الدرامية، وما شاكل ذلك من إظهار "الفضيلة الطبيعية". وليت الفوضى اقتصرت على أعضاء الجمعية وحدهم. فقد كانت هناك شرفة كبيرة للزوار – شرفة فاقت في كبرها كل حد مناسب، فمن ذا الذي يمنع المواطنين الأحرار من أن يكون لهم صوت في الرقابة القومية؟ ومن ثم كانت هذه الشرفة تغص بجمهور من الناس تواق إلى الاستمتاع "بمشاهدة التهاتر والخصومات"، مستعد للتصفيق أو الصياح لإسكات الخطباء المتكلمين من تحته. اضطر الخطباء الأوسع مقدرة أن يلعبوا لأصحاب الشرفة، وأن يسلكوا سبلاً عاطفية مثيرة للحواس. وكان من السهل إبان الأزمات أن يدخل كل من شاء جماعة من الغوغاء يقضون على المناقشة.

على هذه الشاكلة شرعت الجمعية وهي مغلولة الأيدي في القيام بواجبها الإنشائي. وفي اليوم الرابع من أغسطس أحرزت نجاحا أخاذًا عظيماً فأصدرت – يقودها كثير من أحرار النبلاء – سلسلة من القرارات، تلغي نظم موالي الأرض (Serfs) والامتيازات والإعفاء من الضرائب، والعشور ومحاكم الإقطاع. (ومع هذا فإن هذه القرارات لم تدخل حيز التنفيذ في أجزاء كثيرة من البلاد إلا بعد ذلك بثلاث سنوات أو أربع).

وذهبت الألقاب فيما ذهب. وقبل أن تصبح فرنسا جمهورية بزمن مديد كان من الجرائر أن يوقع النبيل باسمه مقرونًا بلقبه. وحبست الجمعية نفسها طوال أسابيع ستة (استمتع فيها علم البيان بفرص ذهبية لا نهاية لها؟!)، على صوغ "إعلان لحقوق الإنسان" على غرار قوانين الحقوق التي كانت هي التوطئة الإنجليزيـة الممهـدة للتغير المنظم. وشرع البلاط في نفس الوقت يدبر المؤامرات لإحداث انقلاب رجعي وشعر الناس أن الـبلاط يأتمر بهم. وتتعقد القصة ها هنا في خطط فيليب دورليان ابن عم الملك وتدبيراته النذلة الخسيسة، وكان يأمل أن يستخدم الخلافات للحلول محل لويس على العرش الفرنسي. وفتحت حدائقه في الباليه رويال – Palais Royal للجمهور، وأصبحت مركزا عظيما للمناقشات المتطرفة. وفعل وكلاؤه الشيء الكثير لإذكـاء حـدة شبهات الشعب نحو الملك. وبلغت الأمور حدا لا يطاق بسبب نقص في المواد الغذائية اعتبرت حكومة الملك مسئولة عنه.

وسرعان ما ظهرت بفرساي الفرقة الفلاندرية [1] الموالية للملك. وكانت العائلة الملكية تدبر التـدابير لتزداد بعدا عن باريس – لكي تتحال من كل شيء أبرم وتستعيد الاسـتبداد والتبـذير. فـانزعج الملكيـون الدستوريون أمثال الجنرال لافاييت أيما انزعاج. وحدث في ذلك الوقت أن اندلع غضب الناس عامـة لقلـة الطعام، وتحول في دور انتقال هين إلى غضبة قوية ضد ما يتهدد القوم من الحركة الرجعية الملكية. إذ كان الاعتقاد السائد أن قصر فرساي يضم قدرا وفيرا من المواد الغذائية؛ وأن الأطعمة كانت تختزن هناك بعيـدةً عن أيدي الجمهور. وكان الاضطراب قد غاب على عقول الجمهور بسبب شائعات لعلها كانت مبالغًا فيهـا، عن إقامة مأدبة حديثًا في فرساي، تجلى فيها العداء للشعب. وإليكم بعض المقتطفات من وصف كارليل لهذه المأدبة التاعسة:

"سمح بقاعة الأوبرا. وسوف تصبح قاعة هرقل حجرة استقبال. ولم يقف الأمر عند حد ضباط فلاندر. بل تعداه إلى الضباط السويسريين، السويسريين المائة. كلا بل ضباط الحرس الوطني بفرساي، فمـن كـان منهم يحمل في قلبه مسكة من الولاء يحضر المأدبة. ولسوف تكون وليمة قل نظيرها.

"والآن هب أن هذه الوليمة أعني أن القسم الوقور منها قد تم؛ وأن الزجاجة الأولى قد احتسيت. وهـب أن نخب الولاء المألوف قد شرب؛ فجاء نخب صحة الملك؛ ثم نخب الملكة في هتافات تصم الآذان؛ وأسـقط نخب الشعب أو قُل نُبذ... وافرض أن الشمبانيا تفيض أنهارا، ويصحب ذلك خطب كلهـا شـجاعة وإقـدام، ولكنه إقدام السكارى المخمورين، هذا إلى عزف آلات موسيقية؛ ويأخذ خفاف الأحلام في رفع عقيرتهم أكثر فأكثر، كل يطاول أخاه خفة ويطاوله ضجة وعججا. فأما صاحبة الجلالة وهي تبدو الليلة محزونـة الفـؤاد بشكل غير عادي (وصاحب الجلالة جالس قد ملأه القنص في طول يومه بالتبلد)، فهم يخبرونهـا أن منظـر الوليمة سيدخل إلى فؤادها السرور. انظروا إليها إنها تدخل هناك خارجة من حجراتها الفاخرة خروج القمـر من بين أطباق الغمام، هذه الملكة الناعسة أبدع مليكة على عرش الأفئدة؛ يسير إلى جوارها الزوج الملكـي،

---

[1] فلاندر Flanders هو الاسم الذي كان يطلق قديما على المنطقة الشمالية الشرقية من فرنسا وعلى بعض أجزاء من بلجيكـا وهولندة. (المترجم)

وولى العهد الصغير بين ذراعيها. وها هي ذي تنزل من المقاصير، بين مظاهر الروعة والفخامة والتهليـل، وتسير حول المناضد سير الملكات؛ وهي تحني رأسها برشاقة؛ وتنظر نظرات تنم عـن الحـزن والأسـى، يخالطه مع ذلك معنى الشكران والإقدام، وعلى صدرها الأموي الحنون معقد رجاء فرنسا المنتظر. ثم تعزف الجوقة الموسيقية: يا ريكارد – يا – يا – مليكي، إن العالم يتخلى – عنك. فهل يستطيع الإنسان أن يفعل أكثر من أن تتعالى به العواطف إلى أقصى حد شفقةً وولاء وشجاعة؟ وهل يستطيع الضباط الشبان خفاف الأحلام إلا أن يظهروا بواسطة قبعاتهم البوربونية البيضاء، التي سلمتها إليهم الأنامل الجميلة؛ وبتلويح السيوف التي استلت للقسم على صحة الملكة؛ والدوس على القبعات القومية بالأقدام؛ وبتسلق المقاصير التي قد يصدر منها أصوات تدخّل أو احتجاج، وبالصياح بأنكر الأصوات وأشد الحنق وفقدان الرشد في الداخل والخارج – مبلغ الحالة الجوفاء العاصفة التي هم عليها أثناء تناولهم النخب؟.

"وليمة طبيعية؛ هي في الأوقات العادية أكلة لا ضير فيها ولكنها الآن قتالة.. فإن مـاري أنطوانيـت المسكينة قد تجمع حولها فصحاء السوء، وحفلت بما في المرأة من حدة الطباع، وحرمت بعد نظر المـلوك! فالأمر إذن طبيعي جدا وهو مع ذلك من الحماقة بمكان. ففي اليوم التالي تصرح جلالتها في خطبة رسـمية عامة أنها مبتهجة بيوم الخميس". ولنضع مقابل هذا تصوير كارليل لحالة الشعب.

"تستيقظ" الأمومة" في صبيحة الاثنين في طوابق السطوح القذرة، فتسمع أطفالها يبكون طالبين الخبـز. ولا بد للأمومة من الانطلاق إلى الشوارع وإلى صفوف (طوابير) باعة الخضر والخبـازين. حيـث تلتقـي بأمومة قد أضرت بها المخمصة، وهي مليئة بالعطف عليها والإثارة لها. يا لنا من نساء تعسات! ولكن بـدلاً من الوقوف في صفوف الخبازين لماذا لا نذهب إلى قصور الأرستقراطية التي هي الـشر كلـه؟ هيـا بنـا Allons. ولنجتمع. هيا إلى دار البلدية.. وإلى فرساي..".

وحدث في باريس الشيء الكثير من الصياح والمجيء والذهاب، قبل أن تتحقق هذه الفكـرة الأخيـرة. وظهر فرد اسمه مايار له قدرة على التنظيم، واتخذ لنفسه نوعا من الزعامة. وليس هناك أقل ريـب فـي أن زعماء الثورة، والجنرال لافاييت بوجه خاص، قد استخدموا ونظموا هذا الانفجار للحصول على الملك، قبـل أن يفلت من أيديهم – كما أفلت شارل الأول إلى أكسفورد – ليبدأ حربا أهلية. وشرعت المظاهرة وقد تقـدم الأصيل، تسير رحلتها المكونة من أحد عشر ميلاً وها نحن نعود إلى الاقتباس من كارليل:

"كان مايار Maillard قد أوقف من يقودهم من المشردين المشعثين على قمة آخر تل؛ وعند ذلك تبدو لعين الرائي المتعجب فرساي وقصر فرساي وميراث الملكية المترامي الأطراف. ومن على بعد في الناحيـة اليمنى فوق مارلي (وسان جرمين إن لاي) حتى الناحية الأخرى نحو رامبوييه، إلى اليسار، منـاظر كلهـا جمال؛ وهي ترقد في رفق؛ كأنما يخيم عليها الحزن في أحضان ذاك الجو المعتم الرطب! وأمامنا تبدو عـن كثب فرساي قديمها وجديدها. وبينهما ذلك الشارع العريض الظليل شارع فرساي، وهو شارع شـجره فخـم الإيراق رحيب يبلغ عرضه فيما يقدرون ثلاثمائة قدم، وقد امتدت به صفوفه الأربع من شجر الـدرداء؛ ثـم يبدو بعد ذلك قصر فرساي، منتهيا بجنات ملكية ومروج غناء وبرك صغيرة متلألئة، وعرائش عظيمة عـدا

بيوت التيه (لابيرانت) ومجموعة وحوش ضارية والترايانون الكبير والصغير؛ ومساكن عالية الأبراج، وأماكن مورقة ممتعة؛ يسكنها آلهة هذا العالم السفلي. ومع ذلك لا يمكن أن نستبعد منها الهموم القاتمة الشوهاء؛ وإليها كان الجوع المشرد يتقدم آنذاك، مسلحا بالقضبان ذات الرءوس". وسقط المطر عندما خيم المساء.

فانظر تر الميدان كله وقد تغطت جميع جنباته الفسيحة، بجماعات من نساء قذرات يقطر منهن ماء المطر؛ ومن رجال من الدهماء الأسافل ناحلي الشعور وهم مسلحون بالبلاط، والخوازيق الصدئة والقرابينات القديمة، والهراوات ذات الحدائد (Batons ferres) والعصي التي تنتهي بسكاكين أو نصال سيوف، ونوع من الخطاطيف التي اصطنعوها بأيديهم ارتجالاً، وليس يبدو عليهم إلا أنهم عصاة جياع. وينهمر المطر والحرس الخاص يتنقل مختالا بخيله وسط الجماهير التي تفح عليه كالأفعى؛ وتسخر منه وهو يهيج ويستثير من أمامه من الجماعات ما يتفرق ها هنا لكي يتجمهر هناك.

"ويحيط عدد لا حصر له من النساء القذرات بالرئيس والوفد؛ ويصرون على الذهاب معه: ألم يرسل جلالته بنفسه بعد أن نظر من النافذة، من خرج ليسأل عما نريد؟ نريد الخبز. والكلام مع الملك، ذلك هو الجواب. ويضاف إلى الوفد بين الصخب الشديد والجلبة اثنتا عشرة امرأة؛ ثم يسرن معه مظفرات عبر الميدان. وبين جماعات متفرقة من الحشد، ورجال من الحرس الخاص، يتحركون بجيادهم تحت المطر المنهمر."

"الخبز...، مع عدم الإكثار من الكلام!..." طلبات طبيعية.

ويتردد على الأسماع أيضا أن العربات الملكية أخذت تشد إليها الخيول، كأنما هي ذاهبة إلى مدينة متز. وقد ظهرت بالفعل عند البوابة الخلفية عربات سواء أكانت ملكية أم لم تكن. بل إنهم أبرزوا أو استشهدوا بأمر كتابي من بلدية فرساي – وهي بلدية ملكية وليست ديمقراطية. ومع هذا فإن دوريات فرساي أدخلتها ثانية، بأمر مشدد إليهم من ليكوانتر اليقظ... "وهكذا احلولكت أشباح الليل، بين العجيج والمطر؛ أصبحت كل الممرات معتمة مظلمة. وهي أعجب ليلة شوهدت في تلك الأماكن. وربما كان ذلك منذ ليلة بارثولوميو [1] عند ما كانت فرساي – كما كتب ذلك باسومبيير – قصرا هزيلاً، "فأنى لنا بقيثارة أورفيوس [٢] ليضطر بلمسة من أوتاره الشجية هاته الجماهير المجنونة إلى التزام النظام! إذ كان يبدو أن كل شيء هنا قد تشتت وتبدد وخرج عن موضعه خروجا بعيدا. وأخذ أعلى الناس قدرا في الدنيا – كأنما يجذبهم تيار إلى أسفل – يتصلون بأدنى الناس. أخذت دهماء فرنسا وزعانفها وأنذالها تطيف بملكية فرنسا وأقيالها.

---

[1] بارثولوميو: يشير الكاتب هنا إلى مذبحة الهوجنوت التي حدثت بباريس في عيد القديس بارثولوميو في ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ بأمر الملكة كاترين دي مدسيس. (المترجم)

[2] أورفيوس: تمثله الأساطير في صورة أبرز شاعر قبل هومر، وهو يحمل قيثارة كان يسبي بساحر أنغامها لا الكائنات الحية وحدها بل إن الأنهار والصخور كانت تطرب بشجي أنغامه وتخضع لأوامره. (المترجم)

ورفعت الهراوات ذوات الرءوس الحديدية حول التاج لغاية أخرى غير حراسته! وانطلقت مع السباب الموجه للحرس الخاص ترميه بالتعطش للدماء والمضادة للوطنية، دمدمات قاتمة تزمجر اسما لملكة.

"ويجتمع البلاط مرتعدا لا يقدر على شيء: ويتقلب رأيا مع تقلب أهواء الميدان، ومع تنوع ألوان الشائعات الآتية من باريس. شائعات تأتي متكاثفة تنبئ آونة عن السلم وآنًا عن الحرب. ويتشاور نيكر والوزراء كافة، فلا يخرجون بنتيجة. والقاعات تجتاحها عاصفة هوجاء من همسات: لسوف نفر إلى متز! بل لن نفر! وتحاول المركبات الملكية الخروج مرة ثانية.. وإن كان ذلك لمجرد المحاولة. على أنها تدفع إلى الداخل مرة ثانية، تدفعها دوريات ليكوانتر".

ولزام علينا أن نحيل القارئ إلى كارليل ليعلمه بقدوم الحرس الوطني ليلاً تحت قيادة الجنرال لافاييت نفسه، وبالمساومة بين الجمعية والملك، واندلاع نار القتال في الصباح بين الحرس الخاص والمحاصرين الجياع، وكيف دخل الآخرون القصر عنوة وأوشكوا أن يعملوا في الأسرة المالكة ذبحا. وجاء لافاييت وجنوده في الوقت المناسب فحالوا دون ذلك. ووصلت للجمهور الجائع من باريس في الوقت الملائم عربات محملة بالخبز. وأخيرا استقر الرأي على وجوب ذهاب الملك إلى باريس.

"إن مسير المواكب الاحتفالية أمر لم يشهد عالمنا منه القليل؛ فهناك مواكب النصر والترحيب بالأبطال لدى الرومان، وهناك دق الصنوج الكابرية Cabiric [1] والمواكب الملكية والجنازات الأرلندية؛ ولكن هذا الركب المنطلق بالملكية الفرنسية وهي تسير إلى مهدها أمر ينتظرنا لنشهده. فعلى امتداد أميال عديدة بعرض يتلاشى في زوايا الغموض والإبهام – ذلك أن كل المنطقة المجاورة تتجمهر لتطّلع. يسير الجمع في بطء ويركد في مضيه حتى ليكاد يأسن، كأنه بحيرة بلا شواطئ، ولها مع ذلك لجب ضجة تشبه ضجة شلالات نياجارا، أو تشبه بابل وبدلام [2]. ويحدث ضرب بالأرجل في الماء ودوس بها على الأرض. ثم ارتفاع أصوات بالهتاف والعجيج وإطلاق وابل من طلقات القرابينات؛ إنها أصدق قطعة من الفوضى شوهدت في تلك العصور الأخيرة! حتى تصب نفسها رويدا رويدا ساعة عتمة الغسق المكاثفة، في باريس المنتظرة، بين صف مزدوج من الوجوه يمتد من بأسى إلى دار البلدية.

"تأمل هذا: مقدمة من جند الحرس الوطني، من خلفها أرتال من المدفعية؛ ورجال يحملون الرماح ونساء بالحراب؛ يركبون المدافع والعربات والمركبات، أو يسيرون على الأقدام.. أرغفة قد رشقت على سن السونكيات، وغصون خضراء قد رفعت في أنابيب البنادق. ثم يأتي بعد ذلك الموكب الرئيسي، خمسون عربة محملة بالقمح، أقرضت لهم من مخازن فرساي التماسا للسلام. يسير من خلفها جماعة لا وجهة لهم من رجال الحرس الخاص؛ وقد غلبت عليهم الذلة وهم في قبعات الحرس المشاة (الجرينادير). ومن خلف هؤلاء مباشرة تأتي المركبة الملكية. ثم تأتي مركبات ملكية. إن هناك مائة من النواب الوطنيين كذلك، يجلس من

---

[1] الكابري :Cabirl مجموعة من الآلهة كانت تعبد في الأزمنة القديمة بآسيا الصغرى وأجزاء من بلاد اليونان. وكانت قوى شيطانية في العالم السفلي كما كان يعتقد أنها المتحكمة في الخصوبة. (المترجم).

[2] بدلام: أقدم مستشفى للمجانين بأوربا. (المترجم).

بينهم ميرابو وهو لا يبدي أية ملحوظة. ثم يأتي خليط من الحابل والنابل يسيرون كأنهم حرس المؤخرة، من الفلاندريين، والسويسريين والمائة سويسري وآخرون من الحرس الخاص وقطاع طرق وكل من لا يستطيع أن يتقدم إلى الأمام.

وفيما بين أطواء هذه الجموع تفيض بغير حدود أهالي حي سانت أنطوان وكتيبة التشرد النسائية. ويسير النساء بوجه خاص حول المركبة الملكية.. متشحات بالألوان الثلاثة وهن يغنين أغاني كلها الهمز واللمز، ويشرن بإحدى أيديهن إلى المركبة الملكية التي يقصدن بها ذلك اللمز، ويشرن باليد الأخرى إلى عربات الأطعمة، وتعلن هذه الألفاظ: تشجعوا أيها الإخوان! فلن نحتاج بعد الآن إلى الخبز، إنا محضرون لكم الخباز والخبازة وابن الخباز..

"ويلوث المطر الألوان المثلثة، ولكن لهيب السرور متقد لا يستطيع إطفاءه أي شيء. ألم يصبح كل شيء الآن على ما يرام؟ قال بعض هؤلاء النساء القويات بعد ذلك ببضع أيام – آه يا مدام يا ملكتنا الطيبة، لا تعودي إلى الخيانة مرة أخرى حتى نحبك كلنا!".

كان ذلك هو يوم ٦ أكتوبر ١٧٨٩. وأقامت الأسرة المالكة في التويلري قرابة سنتين لم يكدر صفوها أثناءهما مكدر. فلو أن البلاط حافظ على عهده العادي مع الشعب، فلعل الملك كان يموت هناك وهو بعد ملك. حافظت الثورة الأولى على كيانها من ١٧٨٩ إلى ١٧٩١، وأصبحت فرنسا ملكية مقيدة، واحتفظ الملك بسلطان منقوص في قصر التويلري، وطفقت الجمعية الوطنية تحكم قطرا شمله السلام. فلو أن القارئ رجع إلى خرائط بولندة التي قدمناها في الفصل السالف، لعرف ما كان يشغل الروسيا وبروسيا والنمسا في ذلك الأوان. فعلى حين كانت فرنسا تنشئ التجارب في جمهورية متوجة في الغرب، كان يجري آخر تقسيم للجمهورية المتوجة [1] في الشرق. وماذا لو أمهلت فرنسا قليلاً.

وإذا نحن تذكرنا عدم خبرة الجمعية، والظروف التي كانت تعمل في كنفها، والتغييرات المحيطة بكل شئونها، وجب علينا أن نسلم بأنها قامت بقدر جسيم جدا من العمل الإنشائي. وكان الشيء الكثير من ذلك العمل سليما قويا وما يزال باقيا إلى اليوم، وكان كثير منه تجريبيا. فهدم ونقض. وكان في بعضه الكوارث. فتمت تنقية قانون العقوبات؛ وألغي التعذيب، والحبس التعسفي، والاضطهادات الدينية. وأخلت مقاطعات فرنسا القديمة: نورمانديا وبورغانديا وأشباههما مكانها لثمانين محافظة أو قسما إداريا وجعل باب الترقي إلى أقصى رتب الجيش مفتوحا للرجال من كل الطبقات. وأقيم نظام بديع بسيط من المحاكم، ولكن أفسده كثيرا أن القضاة كانوا يعينون بانتخاب شعبي ولأجل قصير. فكان هذا الأمر يجعل من الجمهور نوعا من محكمة استئناف نهائية، واضطر القضاة – شأن أعضاء الجمعية أن يمثلوا لأهل الشرفة [2]. واستولت الدولة على جميع ما كان للكنيسة من أملاك هائلة وأخذت تديرها بنفسها. وقوضت كل المؤسسات الدينية التي لا تشغل بالتعليم أو الإحسان، وجعلت مرتبات رجال الدين فرضا على الأمة. ولم يكن هذا في حد ذاته شيئًا تكرهه

---

[1] يريد بها المؤلف دولة بولندة التي اقتسمتها تلك الدول الثلاث. انظر المعالم ص ١١١٦ وما بعدها جـ ٤ ط ٢. (المترجم).

[2] وهو تعبير مجازى: معناه محاولة الحصول على الشعبية باسترضاء وممالأة أذواق الدهماء وتحيزاتها وأهوائها. (المترجم).

الطبقة الدنيا من رجال الدين بفرنسا، الذين كانوا في غالب الأحيان يتناولون أجورا بخسة بشكل فاضح بالموازنة إلى رؤسائهم الأكثر ثروة. ولكن أضيف إلى ذلك أن وظائف القسيسين والأساقفة جعلت بالانتخاب، وهو أمر أصاب الفكرة الأساسية للكنيسة الكاثوليكية في الصميم، وهي التي كانت تمركز كل شيء حول البابا، والتي تأتي فيها السلطة من أعلى إلى أسفل. والواقع العملي أن الجمعية الوطنية أرادت أن تجعل الكنيسة الفرنسية بروتستانتية بضربة واحدة، بروتستانتية في التنظيم إن لم يكن في المبادئ. وحدثت في كل مكان مناقشات ومنازعات بين قسوس الدولة الذين أنشأتهم الجمعية العمومية وبين القسيسين المعاندين (الذين لا يحلفون اليمين)، الذين أخلصوا الولاء لروما.

وهناك شيء عجيب فعلته الجمعية الوطنية فكان من أثره أن أضعف من قبضتها على زمام الأمور؛ إذ إنها أصدرت مرسوما يقضي بأن لا يكون أي عضو من أعضائها وزيرا تنفيذيا. وكان ذلك محاكاة منهم للدستور الأمريكي، حيث الوزراء هناك أيضا منفصلون عن الهيئة التشريعية. وكانت الطريقة الإنجليزية تقضي بأن يكون كل الوزراء أعضاء في الهيئة التشريعية، وأن يكونوا على استعداد للإجابة على الأسئلة وتقديم الحساب عن تفسيرهم للقوانين وإدارتهم لشئون الشعب. فإذا كانت الهيئة التشريعية تمثل الشعب ذا السيادة، وجب إذن ولا شك أن يكون الوزراء على أوثق اتصال بسيدهم. وتسبب عن فصل الهيئة التشريعية عن التنفيذية بفرنسا حدوث كثير من سوء التفاهم وعدم الثقة. إذ كانت السلطة التشريعية تعوزها السيطرة والسلطة التنفيذية فقيرة في القوة المعنوية. فأفضى هذا إلى أن أصبحت الحكومة المركزية غير فعالة إلى حد أنه كانت تكتشف في كثير من النواحي في ذلك الزمان كومبونات (أحياء) ومدن يتبين أنها مجتمعات تحكم نفسها بنفسها أو تكاد؛ فكانوا يقبلون أوامر باريس أو يرفضونها حسبما يمليه عليهم هواهم، ويأبون دفع الضرائب، ويقتسمون ارض الكنيسة طبقًا لمشتهياتهم المحلية.

١٠- ثورة اليعاقبة

من المحتمل جدا أنه لو أن الجمعية الوطنية حصلت على عون من التاج يتجلى فيه الإخلاص ووطنية يتبدى فيها التعقل من جانب النبلاء، فعسى أن كانت تلك الجمعية تتعثر في طريقها حتى تصل إلى شكل ثابت لحكومة برلمانية لفرنسا – بالرغم من شرفاتها العالية العجيج وبالرغم من غلبة روح روسو عليها ومن ضئولة خبرتها – وكان لها في ميرابو رجل دولة له بصيرة نافذة باحتياجات العصر. وكان يعرف مواطن القوة والضعف في النظام البريطاني، وكان جليا أنه قد نصب نفسه ليؤسس في فرنسا نظاما سياسيا مماثلاً للإنجليزي على أساس اقتراع أفسح مجالاً وأشد أمانة وشرفًا. حقًا إنه قد استمرأ نوعا من الغزل الروريتاني [1] مع الملكة وكان يلقاها خفية، ويصرح عنها جادا غير مازح أنها هي "الرجل الوحيد" حول الملك، ويكاد في هذا الأمر أن يصم نفسه بالغباء والحماقة. على أن خططه كانت تقوم على نطاق أوسع كثيرا من نطاق سلالم التويلري الخلفية. ولا شك أن فرنسا فقدت بموته ١٧٩١ واحدا من أشد سياسييها قدرة بناءة، وكذلك فقدت الجمعية الوطنية آخر فرصة للتعاون مع الملك. وحيثما وجد بلاط ملكي كان هناك في العادة التآمر، وكانت تدبيرات الملكيين وبث الملكيين للشر آخر قشة يضعونها في كفة الميزان ضد الجمعية الوطنية. ولم يكن الملكيون يهتمون بميرابو ولا كانوا يهتمون بفرنسا؛ وكل ما كانوا يريدونه هو الرجوع وكفى إلى فردوس امتيازاتهم المفقود، وإلى صلفهم، وسرفهم الذي لا حد له. وخيل إليهم أنهم لو استطاعوا فقط أن يعقدوا الأمور على حكومة الجمعية الوطنية ليجعلوا إدارتها للشئون أمرا مستحيلاً، فإن العظام الرميم النخرة عظام الدولة القديمة لا بد أن تبعث من جديد حية بمعجزة من المعجزات. ولم يخالجهم أي إدراك للاحتمال الآخر وهو هوة الجمهوريين المتطرفين التي كانت فاغرة فاها تحت أقدامهم.

وفي إحدى ليالي شهر يونيه من ١٧٩١، حدث بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل، أن الملك والملكة وطفليهما انسلوا متنكرين من قصر التويلري ثم اخترقوا باريس وجلين، وداروا من شمال المدينة إلى الشرق، حتى وصلوا آخر الأمر إلى عربة سفر كانت معدة لنقلهم إلى شالون. كانوا يفرون للانضمام إلى جيش الشرق إذ كان جيش الشرق "مواليا" أي إن قائده وضباطه على الأقل كانوا على استعداد للتخلي عن فرنسا وللانضمام إلى الملك وبلاطه. وهكذا وصلنا آخر الأمر إلى المغامرات التي تروق فؤاد الملكة، ويستطيع الإنسان أن يتخيل ويفهم النشوة والسرور يعم الفئة الصغيرة والأميال تباعد بينها وبين باريس. وكان ينتظرهم فوق التلال البعيدة، التوقير والانحناء العميق ولثم الأيدي ثم تأتي العودة إلى فرساي. وإطلاق يسير للنار على دهماء باريس وبعض طلقات من المدافع إذا استلزم الأمر وإعدام بعض الناس وإن لم يكونوا من ذوي المكانة. وعهد إرهاب أبيض [2] يستمر أشهرا قلائل. ثم يعود كل شيء فيصبح على خير ما يرام. وربما عاد كالوني أيضا ومعه تدبيرات مالية جديدة. وكان في ذلك الوقت مشغولاً بجمع المدد من بين

---

[1] في ذلك إشارة إلى رواية سجين زندا التي عشق الملكة فيها نبيل إنجليزي عشقًا عذريا. (المترجم).

[2] كان اللون الأبيض شعار آل بوربون. (المترجم)

ظهراني الأمراء الألمان. وهناك عدد جم من القصور لا بد من إعادة بنائها، ولن يكاد يكون في مستطاع القوم الذين أحرقوها أن يتشكّوا إن وقع عبء إعادة بنائها ثقيلاً فادحا نوعا ما على أعناقهم القذرة.

على أن كل هذه الأماني الزاهية المرجوة ما لبثت حتى تحطمت في تلك الليلة تحطما قاسيا عند فارن. فإن صاحب دار خيل البريد عرف الملك في سانت مين هولد، وبينما الليل يرخى سدوله كان ينطلق في جو الطرق المؤدية شرقًا وقع سنابك خيول الرسل وهم يوقظون البلاد ويحاولون أن يقطعوا الطريق على الهاربين. وكانت هناك خيل أخرى على أهبة الانتظار في القرية العليا من فارن وكان الضابط الشاب المنوط بالنوبة قد انصرف عن الملك فترة الليل وآوى إلى فراشه – على حين ظل الملك المسكين مدة نصف ساعة في القرية السفلى وهو يتنازع مرتديا ثياب الخدم – مع الحوذي والسواس الذين كانوا يتوقعون أن يجدوا أبدالهم في القرية السفلى ويرفضون أن يتقدموا بالعربة خطوة واحدة. وأخيرا رضوا أن يواصلوا المسير. ولكن رضاءهم جاء بعد فوات الأوان. فإن الفئة القليلة وجدت هناك ناظر البريد بسانت مين هولد – بعد أن سبقها والسواس في لجاجهم يجادلون – ومعه ثلة قد جمعها من الجمهوريين المحترمين في فارن؛ وانتظر بها عند الجسر الموصل بين جزئي المدينة. وأقيمت على الجسر المتاريس. وصوبت القرابينات إلى المركبة، وقيل لمن فيها: "جواز سفركم!" عندئذ سلم الملك بدون مقاومة. وأخذت الفئة الصغيرة إلى منزل أحد موظفي القرية. قال الملك "حسنًا! ها أنا ذا بين أيديكم!" ثم ذكر كذلك أنه جوعان. وأثنى أثناء تناوله الطعام على النبيذ وقال "نبيذ ممتاز جدا" ولم يسجل أحد لنا ما قالته الملكة. وكانت هناك جنود ملكية على مقربة من المكان ولكنهم لم يحاولوا أن ينقذوا الملك. وأخذ جرس الخطر يدق وأضاءت القرية نفسها تحرزا من المباغتة.

ومن ثم عاد إلى باريس حمل العربة الملكية مهيضا ذليلاً، وقابلته جماهير غفيرة في صمت وسكون. إذ سرى بين الجماهير النذير بأن من اجترأ على إهانة الملك جلد، ومن هتف له يقتل..

لم يحدث إلا بعد هذه المغامرة الحمقاء أن استولت فكرة الجمهورية على أذهان الفرنسيين. أجل كانت تخالج الناس لا ريب قبل هذا الفرار إلى فارن عاطفة مبهمة نحو الجمهورية، ولكن لم يكد أن يكون في فرنسا أحد من الناس يجهر برغبته في إلغاء الملكية. وقد حدث حتى في شهر يوليه يوم لم ينقض على الفرار إلا شهر واحد، حين عقد اجتماع عظيم في شأن دي مارس (Champ de Mars)، لتعضيد القيام بملتمس بعزل الملك – أن فرقت السلطات شمله، وقتل فيه خلق كثير، ولكن مظاهر الحزم هذه لم تحل بين الدرس المستفاد من ذلك الفرار وبين التغلل إلى أذهان الرجال. وكما حدث في إنجلترة في أيام شارل الأول فكذلك حدث الآن في فرنسا، أن أدرك الناس أن الملك لم يكن ليؤتمن – وأنه مصدر خطر. وقويت شوكة اليعاقبة بسرعة. وشرع زعماؤهم روبسبير ودانتون ومارا الذين كانوا يلوحون حتى آنذاك غلاة مستحيلين، أن يتسلطوا على الشئون الفرنسية.

وكان هؤلاء اليعاقبة نظير الراديكاليين الأمريكيين، وهم رجال ذوو فكرات تقدمية ضارية غير مروضة. وتقوم قوتهم على خلوهم مما يعوق الناس من مال أو سلطان وأن لهم مضاء واستقامة. كانوا رجالاً فقراء ليس لديهم ما يخشون فقدانه. وكان حزب: "الاعتدال" والتفاهم مع بقايا النظام القديم يقوده رجال من

ذوي المكانة الوطيدة أمثال الجنرال لافاييت، الذي ميز نفسه في شبابه بقتاله متطوعا في صفوف المستوطنين الأمريكيين، وميرابو وهو أرستقراطي كان على استعداد أن يصوغ نفسه على غرار أرستقراطية الإنجليز الأغنياء الواسعي النفوذ. بيد أن روبسبيير كان محاميا شابا فقيرا ذكيا من أراس، كان أثمن ما يملكه هو إيمانه بروسو؛ وكان دانتون محاميا هو الآخر بباريس، ولكنه لا يكاد يفوقه ثراء، وكان شخصا ضخما كثير الإشارة بليغ العبارة ميالاً إلى الأسلوب الخطابي، فأما مارا فكان رجلاً أسن منهما وكان سويسريا على شيء من الامتياز العلمي وإن عادلهما في انطلاق سراحه من كل ما يكبل الناس من الأموال والممتلكات. قضى سنوات عديدة في إنجلترة وكان يحمل شهادة الدكتوراة الفخرية في الطب من جامعة سانت أندروز، وله في علم الطب بعض مقالات قيمة نشرها بالإنجليزية. وكان كتابه في علم الفوزيقي موضع إعجاب كل من بنيامين فرانكلين وجيته. فهذا هو الذي يسميه كارليل "الكلب الكلب" و "الفظيع" و "القذر" و "مطبب الطلاب". ولعل هذه الكنية الأخيرة جاءت من قبيل الاعتراف بفضل علمه!!

دعت الثورة مارا أن يخوض غمار السياسة، وكانت أقدم ثمار قريحته التي أدلى بها في معمعان جدلها العظيم تمتاز بالسداد وسلامة التفكير. وكانت تنتشر في فرنسا فكرة خاطئة تقول بأن إنجلترة أرض حرية. ولكن مقالته التي جعل عنوانها "عيوب الدستور الإنجليزي" تبين حقيقة الأوضاع الإنجليزية. وقد جن جنونه في سنيه الأخيرة لإصابته بمرض جلدي لا يكاد يطاق انتقل إليه عندما كان مختبئًا إبان الثورة في مجاري باريس فرارا من عواقب اتهامه الملك ووصفه إياه بالخيانة بعد فراره إلى فارن. ولم يكن ليستطيع أن يجمع شوارد ذهنه للكتابة إلا وهو جالس في حمام حار. لقد لقي معاملة شديدة وقاسى الآلام، فأصبح شديدا قاسي الفؤاد، ومع هذا فإنه يبرز في التاريخ بوصفه رجلاً ذا نزاهة ممتازة. ويلوح أن فقره بوجه خاص كان يستثير سخرية كارليل منه.

"يا لطول الطريق الذي يقطعه!! وها هو الآن يجلس عند قرابة الساعة السابعة والنصف، وهو يسلق نفسه في حمامه، متقرح الجسد؛ مصابا بالسقام، مريض بحمى الثورة.. رجلاً عليلاً مضنى مفرطًا في العلة والضنى، فقيرا مملقًا معه من النقود ما يعادل بالضبط أربعة قروش وستة مليمات من العملة الورقية؛ مع حمام على صورة حذاء، ونضد للكتابة متين بثلاثة أرجل، ومتاعب، ومعه غسالة قذرة تقوم بمرافق بيته... ذلك هو مسكنه ومثواه في شارع مدرسة الطب. وإلى هذا المكان دون أي مكان آخر اقتاده سبيله... أنصت! فإن هناك طرقًا ثانيا، وإن هناك لصوتًا موسيقيا لامرأة، وهي تأبى أن تحرم الدخول: إنها هي المواطنة التي تريد أن تؤدي لفرنسا خدمة. وإذ يسمع مارا الحوار من الداخل، يصيح أن أدخليها. ويؤذن لشارلوت كورداي بالدخول".

وقد عرضت البطلة الشابة أن تقدم إليه بعض المعلومات الضرورية حول الثورة التي قامت ضدهم في كاين، وبينما هو مشغول في تدوين ما أدلت به من حقائق، طعنته بسكين كبيرة ذات غمد (١٧٩٢).

تلك صفة معظم زعماء حزب اليعاقبة. فإنهم كانوا رجالاً لا أملاك لهم، رجالاً لا قيد من ثم يغل أيديهم. وكانوا أقل ترابطًا بعضهم ببعض وأقرب إلى الطبيعة الآلية من أي حزب آخر. وكانوا على استعداد

أن يدفعوا بفكرات الحرية والمساواة إلى غاية متطرفة منطقية. وكانت معايير الفضيلة الوطنية عندهم عالية وخشنة وكان هناك شيء غير إنساني حتى في حميتهم لحب الخير. وكانوا ممتعضين مما يرون من ميل المعتدلين إلى تلطيف الأمور وتسكينها، وإلى إبقاء العامة في حالة احتياج هونا ما وإلزامهم احترام للغير شيئًا ما، وأن يجعلوا الملكية (وذوي الاعتبار من الرجال) موقرين قليلاً ما، وقد أعمتهم عبارات مذهب روسو عن الحقيقة التاريخية القائلة بأن الإنسان يكون بطبعه إما ظالما أو مظلوما، وأن الناس لن يجعلوا سعداء أحرارا إلا ببطء بواسطة القانون والتعليم وروح المحبة في العالم.

وبينما حدث في أمريكا أن صِيغ ديمقراطية القرن الثامن عشر كانت في جملتها مستنهضة للناس معينة لهم، لأنها كانت بالفعل أرض المساواة العملية في الهواء الطلق ما اختص الأمر بالبيض من الرجال، فقد أنتجت هذه المبادئ في فرنسا خليطًا جنونيا خطرا على سكان المدن لأن أجزاء جسيمة من مدن فرنسا كانت أحياء فقيرة مليئة بأقوام ممن جردوا من أملاكهم وانحلت أخلاقهم وانحطت مرتبتهم وتمررت أرواحهم. وكانت جماهير باريس بوجه خاص في حالة يأس مخطرة، لأن صناعات باريس كانت في معظمها صناعات ترف. وكان الشيء الكثير من أعمالها من النوع الطفيلي الذي يعيش على نقائص الطبقة الراقية ورذائلها. والآن وقد ولى عالم أهل النعيم وذهب إلى ما وراء الحدود، وصار الحال إلى التضييق على المسافرين، وداخل الاضطراب الأعمال، أصبحت المدينة مليئة بأقوام عاطلين غاضبين. ولكن الملكيين بدل أن يدركوا حقيقة هؤلاء اليعاقبة وما هم عليه من أمانة خطرة وما لهم من سلطان خطر على خيال الدهماء، قد بلغ من اغترارهم بأنفسهم أنهم ظنوا أن في إمكانهم أن يتخذوا منهم أداة يعملون بها. وكان موعد إحلال الجمعية التشريعية محل الجمعية الوطنية تطبيقًا للدستور الجديد قد قرب أوانه، وعندما اقترح اليعاقبة بقصد تمزيق شمل المعتدلين ألا يكون لأحد من أعضاء الجمعية الوطنية الحق في عضوية الجمعية التشريعية، انضم إليهم الملكيون في جذل عظيم وأنفذوا الاقتراح. ذلك أنهم أدركوا أن الجمعية التشريعية وقد اجتثت منها على تلك الشاكلة كل خبرة وتجربة، سوف تكون ولا مرية هيئة ذات كفاية من الناحية السياسية. وعند ذلك يعود عليهم "الإفراط في الشر بالخير العميم"، وعند ذلك تعود فرنسا فتهوى صريعة لا معين لها في أيدي سادتها الشرعيين. هكذا دبروا وقدروا. بل لقد فعل الملكيون أكثر من هذا. فإنهم ناصروا انتخاب أحد اليعاقبة عمدة لباريس. وكأني بهذا التصرف في ذكاء من يجتاب إلى منزله نمرا جائعا ليقنع زوجته بحاجتها إليه. وهي هيئة أخرى تقف مستعدة عن كثب وإن لم يحسب هؤلاء الملكيون حسابها، وكانت أحسن عدة من البلاط وأقدر على التقدم أماما والحلول محل جمعية تشريعية غير فعالة، تلك هي كوميون باريس (أي هيئتها البلدية) القوى وهي هيئة قوية النزعات اليعقوبية مقرها دار البلدية.

وكانت فرنسا لا تزال حتى ذلك الحين تستظل السلام. فلم يهاجمها أحد من جيرانها، لما بدا لهم من إضعافها نفسها بانقساماتها الداخلية. فأما الضحية التي قاست الآلام من جراء ارتباك الحالة في فرنسا فهي بولندة. ولكن لم يكن لدى جيرانها مانع يحول دون إهانتها وتهديدها وتمهيد السبيل لاقتسام تام عند ما يحلو لهم ذلك. واجتمع ملك بروسيا وإمبراطور النمسا في بلنيتز Pilintz ١٧٩١، وأصدرا تصريحا يقول إن

إعادة النظام والملكية في فرنسا أمر له أهميته لدى كل الملوك. وسمح الجيش من المهاجرين ونبلاء الفرنسيين وسراتهم وهو جيش يتكون في معظمه من الضباط – بالتجمع على مسافة دانية من الحدود.

وكانت فرنسا هي البادئة بإعلان الحرب على النمسا. وكانت الدوافع التي خالجت نفوس من ناصروا هذه الحركة دوافع متنازعة. فإن كثيرا من الجمهوريين كانوا يرغبون في ذلك لأنهم كانوا يشتهون أن يروا ذوي قرباهم سكان بلجيكا وقد تحرروا من النير النمسوي. وكان كثير من الملكيين يرغبون فيها لأنهم كانوا يرون في الحرب احتمالاً لإعادة هيبة الملكية وسلطانها. وعارضها مارا معارضة مريرة في صحيفته صديق الشعب (L'Ami du Peuple) لأنه لم يكن يرغب أن تتحول الحماسة للجمهورية إلى حمى حرب. وقد حذرته غريزته من نابليون. وفي ٢٠ إبريل ١٧٩٢ جاء الملك إلى الجمعية واقترح بين مظاهر الاستحسان العظيم إعلان الحرب.

وابتدأت الحرب بكارثة. فإن جيوشًا فرنسية ثلاثة دخلت بلاد البلجيك؛ فهزم اثنان منها هزيمة منكرة، وتراجع الثالث وكان بقيادة لافاييت. وعند ذلك أعلنت بروسيا الحرب مؤازرة منها للنمسا، واستعدت الجيوش المتحالفة لغزو فرنسا تحت قيادة الدوق برنزويك. وأصدر الدوق إعلانًا من أشد إعلانات التاريخ نزقًا؛ فإنه قال إنه يغزو فرنسا ليعيد سلطان الملكية إلى نصابه. وإن أية إهانة أخرى تلحق بالعرش الفرنسي سينتقم لها من الجمعية التشريعية وباريس "بالإعدام العسكري رميا بالرصاص". وكان هذا كافيا لتحويل أشد الفرنسيين ملكية إلى المذهب الجمهوري – لمدة الحرب على الأقل.

وكان الدور الجديد من أدوار الثورة، وهو الثورة اليعقوبية، هو الثمرة المباشرة لهذا الإعلان. ذلك أنه جعل من المحال استمرار جهود الجمعية التشريعية، التي كان يتسلط عليها الجمهوريون النظاميون (الجيرونديون) والملكيون، كما جعل من المحال بقاء الحكومة التي أخمدت ذلك الاجتماع الجمهوري في الشأن دي مارس وتعقبت مارا حتى اختبأ بالمجاري. واجتمع العصاة في دار البلدية، وفي ١٠ أغسطس قامت بلدية (كوميون) باريس بهجوم على قصر التويلري.

وتصرف الملك بغباء سمج، وبذلك الاستخفاف بالغير الذي هو من امتيازات الملوك. وكان معه حرس سويسري مكون من ألف رجل كما كان معه حرس أهلي ولاؤه غير مضمون. فصمد صمودا مبهما حتى ابتدأ إطلاق النار، ثم انتقل إلى دار الجمعية وهي المجاورة له ليضع نفسه وعائلته تحت حمايتها، تاركا حرسه السويسري يقاتل. ولا شك أنه كان يطمع في إلقاء الشقاق بين الجمعية وكوميون باريس، ولكن لم يكن لدى الجمعية ذرة من روح المقاتلة التي كانت تستمع بها دار البلدية. ووضع اللاجئون الملكيون في مقصورة (لوج) معدة للصحفيين (وكانت تتصل بها حجرة صغيرة)، وهناك ظلوا ستة عشر ساعة بينما كانت الجمعية تتناقش في مصيرهم. وكانت تعلو في الخارج أصوات معركة ضخمة؛ وكان يحدث بين الآونة والأخرى أن تنكسر إحدى النوافذ. وكان السويسريون التعساء يقاتلون وظهورهم إلى الجدران، إذ لم يكن أمامهم من سبيل إلى غير ذلك.

ولم تجرؤ الجمعية على مناصرة الحكومة في تكرار ما عملته في شأن دي مارس في شهر يوليـه. إذ كانت قوة الكوميون الشرسة تتسلط عليها. ولم يجد الملك في الجمعية أية راحة لفؤاده فإنها عنفته وتناقـشت في "إيقافه عن العمل". وقاتل السويسريون حتى تلقوا من الملك أمرا بالكف عن القتال. وعنـد ذلـك أعمـل الجمهور فيهم قتلاً حتى قضى على معظمهم، أن كان الغضب قد بلغ به حتى التوحش من إجراء سفك الدماء الذي لا ضرورة له، وأن كان جنونه قد جن إلى حد لم يعد معه إلى ضبطه سبيل.

وكانت المحاولة الطويلة المملة لصوغ لويس في الغالب "الميروفنجي" [1] ولاستخراج جمهوري شريف متوج من ملك مطلق غبي غير قابل للتكيف، - قد قاربت آنذاك خاتمتها المحزنة. فإن كوميون باريس كـان قد تسلم بالفعل مقاليد السلطان في فرنسا. وأصدرت الجمعية التشريعية التي لحقها تغير ظاهر في شـجاعتها، مرسوما يقضي بإيقاف الملك عن القيام بمهام عمله؛ وأودعته المعبد، واستبدلت به لجنـة تنفيذيـة ودعـت مؤتمرا وطنيا لإنشاء دستور جديد.

وعندئذ أخذ توتر فرنسا الوطنية والجمهورية يصبح شيئًا لا يطاق. وكان كل ما تمتلـك مـن جيـوش يتدحرج منهزما على الطريق المؤدية إلى باريس في حالة بأس واستـسلام (الخريطـة ١٨٥). وسـقطت لونجري (Longwy)، وعقبتها قلعة فردان العظيمة، ولم يكن يبدو هناك أي احتمال لإيقاف تقدم الحلفاء على العاصمة. وارتفع الإحساس بالخيانة الملكية إلى حد ملأ الناس بقساوة الرعب. وكان لا بد على كل حال مـن إسكات الملكيين وغل أيديهم وإرهابهم حتى يختفوا عن الأنظار. ونصب كوميون باريس نفسه لمطاردة كـل ملكي يمكن العثور عليه، حتى اكتظت بهم سجون باريس. ورأى مارا شبح المذبحة مقبلاً. فحاول أن يفـوز بإنشاء محاكم الطوارئ قبل أن يفوت الأوان بقصد تمييز البريء من المذنب في هذا الخلـيط العظـيم مـن المتآمرين، والمشتبه فيهم والسراة غير المذنبين. ولكنهم تجاهلوه، وحدثت في أوائل سبتمبر المذبحة التـي لا بد منها.

ابتدأ الأمر على حين فجأة بأن عصابة من الرجال كانت تستولي على أحد السجون ثم علـى الآخـر وهكذا. ثم تشكل ضرب من المحاكم المرتجلة الفجة. على حين يتجمع في الخـارج صـنف مـن الـدهماء الضارية مسلحا بالسيوف والخوازيق والبلاط. وكان السجناء يقتادون من زنزاناتهم واحدا بعد الآخر لا فـرق في ذلك بين رجل وامرأة، ثم يستجوبون استجوابا وجيزا، ويعفى عنهم بـصيحة "لتحيـا الأمـة" "Vive La Nation" أو يقذف بهم إلى الدهماء على الأبواب. وهناك كان الجمهور يتدافع ويتقاتل ليحدث في الـضحية جرحا أو يصيبها بطعنة. وكان المحكوم عليهم يطعنون، ويمزقون إربا ويضربون حتى يقضوا نحبهم، وكانت رءوسهم تحتز وترفع على الخوازيق وتحمل في أرجاء المدينة وتلقى أجسادهم الممزقة جانبا. وهلـك فـيمن قتل الأميرة دي لا مبال التي تركها الملك والملكة في قصر التويلري. وحملت رأسها على رمح إلى المعبـد لتراها الملكة.

---

[1] أي ملكا بلا سلطان كملوك الميروفنجيين الذين كان يتولى السلطة الفعلية دونهم ناظر القصر. (انظر المعـالم ص جـ ـ ٣ ط٢). (المترجم)

وكان في زنزانة الملكة اثنان من الحرس الوطني، رغب أحدهما في أن يجعلها تنظر من النافذة لتبصر هذا المشهد الفظيع، ولم يرغب زميله رحمة بها أن يسمح لها بفعل ذلك.

وفي نفس هذا الوقت الذي كانت هذه المأساة الدموية تجري فيه في باريس، كان الجنـرال الفرنـسي دوموريبيه يهرع بأحد الجيوش مسرعا من فلاندر إلى غابة الأرجون، ويرد جيوش الحلفـاء إلـى مـا وراء فردان. وحدثت عند فالمي في ٢٠ سبتمبر معركة انطوت في الغالب على تبادل إطلاق المدافع. وأوقف تقدم بروسي لم يكن مصحوبا بالعزم، وثبتت المشاة الفرنسية في مكانها، مذ كانت مدفعيتهم خيـرا مـن مدفعيـة الحلفاء. وظل دوق برونزويك بعد ذلك عشرة أيام وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ثم أخذ ينسحب إلى الراين. وكانت أعناب شامبانيا الحامضة قد نشرت الدوسنتاريا في الجيش البروسي. ومعركة فالمي هذه – ولم تكـن لتعدو كثيرا تبادل إطلاق المدافع – إحدى معارك التاريخ الفاصلة. وتم إنقاذ الثورة.

والتأم المؤتمر الوطني في ٢١ سبتمبر ١٧٩٢، وأعلن من فوره الجمهورية. ولم تكد تلـك الأحـداث تنتهي حتى تمت محاكمة الملك وإعدامه كنوع من الضرورة المنطقية. مات الملك بوصفه رمزا لا بوصـفه رجلاً. إذ لم يجدوا أمامهم غير ذلك شيئًا يفعلونه به، يا له من مسكين، فإنه كان يسد مسالك الأرض. ولم تكن فرنسا لتستطيع أن تدعه يذهب ليشجع المهاجرين، ولا هي بمستطيعة أن تمنعه من إحداث الشر في بلادهـا؛ فكان وجوده مصدر تهديد لها. وكان مارا قد حض في غير هوادة على القيام بهذه المحاكمة قبـل أن يوقـع الدستور، لأنه يكون قبل ذلك ملكًا فعليا، ويكون فوق القانون وبذا لا يمكن أن يكون غير شرعي. كذلك لـم يكن مارا ليقبل السماح بالطعن في محامي الملك... والواقع أن مارا قد لعب في الموضوع من أوله إلى آخره دورا مريرا غير أنه دور عادل في الغالب؛ كان رجلاً عظيما، ذا ذكاء لطيف ممتاز، في إهاب مـن نـار؛ يعصف به ذلك البغض العضوي المستقر في الدم، والذي ليس من ثمار العقل بل الجسد.

وقطعت رأس لويس في يناير ١٧٩٣. احتزت بالمقصلة لأن المقـصلة (الجيلـوتين) أصـبحت منـذ أغسطس السابق أداة الإعدام الرسمية في فرنسا. وكان دانتون فيما اتخذ لنفسه من دور الأسد ممتازا جدا في هذه المناسبة. فلقد زأر بأجهر صوت قائلاً: "يريد ملوك أوربا أن يتحدونا، وها نحن أولاء نلقي إلـيهم رأس أحد الملوك".

١١- جمهورية اليعاقبة ١٧٩٢ - ١٧٩٤

ثم جاء بعد ذلك دور غريب في تاريخ الشعب الفرنسي. فقد توقد وميض لهب عظيم من التحمس لفرنسا والجمهورية. وانعقدت العزائم على وضع حد لروح المسالمة داخل فرنسا وخارجها، ففي الداخل أزمع القوم القضاء على الملكيين وكل شكل من أشكال عدم الولاء؛ وفي الخارج، صمموا أن تكون فرنسا حامية كل الثوريين ومعينتهم. ولا بد أن تصبح أوربا كلها بل الدنيا كلها جمهورية في تكوينها. وانثال شباب فرنسا إلى الجيوش الجمهورية انثيالاً. وانتشرت في كل أرجاء البلاد أغنية جديدة مدهشة وهي أغنية لا تزال تعمل في إحماء الدم فعل الصهباء هي "المارسيليز". وتدحرجت إلى الوراء الجيوش الأجنبية تلقاء هذه الأنشودة وطوابير الوثابين من حملة السونكي الفرنسيين ومدافعهم المنطلقة في حماسة. وقبل أن تأتي خاتمة ١٧٩٢ كانت الجيوش الفرنسية قد بلغت مدى تجاوز كل ما أحرزه الملك لويس الرابع عشر؛ وإذا هم يطئون في كل مكان أرضا أجنبية. كانوا في بروكسل وكانوا اجتاحوا سافويا، وأغاروا حتى مايانس Mayence، واستولوا من هولندة على الشلد. وعند ذلك فعلت الحكومة الفرنسية فعلة خرقاء. إذ كان أسخطها طرد ممثلها من إنجلترة عند إعدام لويس، فأعلنت الحرب على إنجلترة. كانت فعلة خرقاء لأن الثورة التي أعطت فرنسا مشاة جديدة متحمسة ومدفعية زاكية متحررة من ضباطها الأرستقراطيين ومن كثير من التقاليد المعوقة، قد أفسدت نظام بحريتها وكان للإنجليز السيادة في البحر. ووحد هذا الاستفزاز كلمة إنجلترة كلها ضد فرنسا، بعد أن كان هناك في بداية الأمر حركة متحررة كبيرة تعطف على الجمهورية.

ولسنا بمستطيعين أن ننبئك في أي تفصيل حديث القتال الذي قامت به فرنسا في السنوات القليلة التالية ضد تحالف أوربي. فأزاحت النمسويين إلى الأبد من بلجيكا، وحولت هولندة إلى جمهورية. وسلم الأسطول الهولندي وقد تجمد حوله الماء في نهر التكسل، لحفنة من الفرسان دون أن يطلق من مدافعه قذيفة واحدة. وتوقفت هجمات الفرنسيين نحو إيطاليا ردحا من الزمان، ولم يحدث إلا في عام ١٧٩٦ أن جنرالاً جديدا هو نابليون بونابرت، اقتاد الجيوش الجمهورية المهلهلة الثياب مظفرة عبر بيدمونت إلى مانتو وفيرونا. ولا يستطيع كتاب معالم تاريخية أن يصور لك الحملات بدقة؛ غير أنه ملزم أن يلحظ الصفة الجديدة التي ظهرت في الحرب. كانت الجيوش المحترفة القديمة تحارب لا غاية لها إلا القتال ذاته، وتسعى في بطء وتراخ، كالعمال الذين يشتغلون بالساعة؛ وكانت هذه الجيوش المدهشة الجديدة تحارب من أجل النصر – وإن كان جائعة ظمئة. وكان أعداؤهم يسمونهم "الفرنسيين الجدد". يقول س. ف أتكنسون [1]: "كان أشد ما أدهش الحلفاء هو عدد هؤلاء الجمهوريين وسرعتهم. فالواقع أنه ما كان ليعوق هذه الجيوش المرتجلة أي عائق. فكان من المتعذر الحصول على الخيام بسبب انعدام المال. وكان في غير الإمكان نقلها بسبب العدد الهائل من العربات التي لا مفر عندئذ من الاحتياج إليها، وكانت كذلك غير ضرورية لأن المتاعب التي طالما سببت تسلل الجند زرافات لواذًا من الجيوش المحترفة، كان يتحملها رجال ١٧٩٣ – ١٧٩٤ مسرورين مغتبطين.

---

[1] في مقالته "الحروب الفرنسية الثورية" بالموسوعة البريطانية الطبعة الثانية عشرة.

كما أن المدد لهذه الجيوش التي لم يسمع الناس حتى ذلك الحين بمثل حجمها لم يكن من المستطاع حمله في قوافل، وسرعان ما تعلم الفرنسيون "فكرة العيش على حساب البلاد". وبذا شهدت ١٧٩٣ مولد طريقة الحرب العصرية: سرعة الحركة والتطور الكامل القوة الوطنية، والهجود [1] في العراء والاعتماد في الميرة على البلد المقهور وحشد القوات وإجبار الأهالي على تقديم ما يلزم للجيش؛ وذلك كله مقابل المداورات الحذرة، والجيوش الصغيرة المحترفة، والخيام والجرايات الكاملة والألاعيب الدنيئة. وكان الأولون يمثلون روح الحسم في الأمور، ويمثل الآخرون روح الخطار بالقليل للحصول على القليل".

وبينما كانت هذه الجيوش (العرمرم) المتحمسة في أسمالها البالية تنشد "المارسيلينز" وتقاتل من أجل "فرنسا"، دون أن يتضح لها تمام الوضوح فيما يبدو، هل كانت تنتهب الأقطار التي انثالوا إليها أو تحررها، كانت الحماسة الجمهورية في باريس تبدد نفسها بطريقة أقل مجدا وكرامة بكثير. وكان مارا وهو الرجل الوحيد ذو الذكاء القاهر بين اليعاقبة قد أصابه الجنون بسبب دائه العضال، وسرعان ما قتل. وكان دانتون سلسلة من الصواعق الوطنية؛ فلم يبق عندئذ غير روبسبيير وتعصبه الراسخ الوطيد، فتسيطر على الموقف. ومن العسير أن يفضي الإنسان في هذا الرجل برأي، كان رجلاً ضعيف البنية خوافًا بطبعه مغرورا صلفًا. ولكن كان فيه ألزم مواهب القوة وهي الإيمان. كان يعتقد لا في رب يألفه الناس، بل في كائن علي بعينه، وكان يرى روسو نبيا لذلك الكائن. فنصب نفسه لإنقاذ الجمهورية على الشاكلة التي يراها، وكان يتوهم أنه ليس في مستطاع أحد إلا إياه أن ينقذها. وبذا أصبح يعتقد أن بقاءه في دست الحكم إنقاذ للجمهورية. وكان يشير إلى أن الروح الحية في الجمهورية قد نشأت عن مذبحة الملكيين وعن إعدام الملك. وحدثت ثورات كثيرة: شبت واحدة منها في الغرب في محافظة لافانديه، حيث ثار الأهالي ضد التجنيد وضد طرد رجال الدين الأصليين من ممتلكاتهم، وكان يقودهم فيها بعض النبلاء والقسيسيين؛ وأخرى في الجنوب حيث ثارت ليون ومارسيليا وسمح ملكيو طولون لحامية إنجليزية وإسبانية بالنزول فيها. وكأنما ليس هناك أي جواب فعال على هذه الثورات إلا مواصلة قتل الملكيين. ولم يكن هناك شيء أحب من هذا إلى قساوة أفئدة سكان أحياء باريس الوضيعة. وأخذت محكمة الثورة تعمل بجد، وابتدأت عملية ذبح متواصلة.

وقد نفذ حكم الإعدام في مدة الثلاثة عشر شهرا السابقة على يونيه ١٧٩٦ في ١٢٢٠ شخصا؛ ونفذ الإعدام في الأسابيع السبعة التالية في ١٣٧٦ شخصا. وجاء اختراع المقصلة في أنسب الأوقات لهذه الحالة التي ألمت بمزاج الناس. وقضت المقصلة على الملكة، وكذلك قضت المقصلة على معظم خصوم روبسبيير، وقضت المقصلة!!.. على الملحدين الذين أنكروا وجود أي كائن علي أسمى؛ وقضت المقصلة على دانتون لأنه رأى أن قد بولغ في استعمال المقصلة!!؟.. وكانت هذه الآلة الجديدة الجهنمية تحز يوما بعد يوم، وأسبوعا بعد أسبوع، الرءوس ثم المزيد من الرءوس ثم المزيد فالمزيد، كما يتطلب مدمن الأفيون المزيد منه فالمزيد!!؟....

---

[1] الهجود: أي مبيت الجنود على الأرض دون خيام ولا لوازم معسكرات. (المترجم)

وكان دانتون ما يزال هو دانتون، إذ كان غضنفرا فوق المقصلة وكان موقفه عليها مثاليـا. قـال" لا ضعف يا دانتون!".

وأعجب شيء وأدعاه إلى الضحك أن روبسبيير كان شريفًا شرفًا لا يتطرق إليه الشك. بل لقـد كـان أشرف بكثير من أي فرد من جماعة الرجال الذين خلفوه وكان يطيف به إلهام يبث فيه رغبة حارة في إنشاء نظام جديد للحياة الإنسانية. وأخذت لجنة الأمن العام وهي حكومة الاثنا عشر للطوارئ وهي التي كانت عند ذاك دفعت بالمؤتمر جانبا، تقوم بعمل إنشائي بالقدر الذي استطاع أن يستنبطه لها روبسبيير. وكان المعيـار الذي حاولت أن تقيم عليه عملها البناء هائلاً ضخما. فإن كل المسائل المعقدة التي لا بد لنا اليوم من الكفـاح وإياها قوبلت بحلول سريعة سطحية ضحلة وبذلت محاولات للتسوية بين الناس في العقـار. قـال القـديس جوست "الثراء شنعة". فضربت الضرائب على أملاك الأغنياء أو صودرت لتقسيمها بين الفقراء. وكان لابـد من أن يحصل كل رجل على منزل آمن ومورد رزق وزوجة وأولاد. وكان العامل جديرا بأجره، ولكن ليس له الحق في الحصول على منفعة من المنافع. وجرت محاولة لإلغاء الربح إلغاء تاما، وهو الحـافز الخـشن الفج لمعظم أعمال التجارة بين الناس منذ ابتداء الجماعة الإنسانية. والربح هو اللغز الاقتصادي الذي ما يزال يشكل علينا إلى اليوم. وصدرت قوانين عنيفة ضد الاستغلال بالسوق السوداء بفرنسا فـي ١٧٩٣. وجـدير بالذكر أن إنجلترة وجدت نفسها في ١٩١٩ مضطرة أن تصدر قوانين أشبه ما تكون بتلك. ولم يقتـصر هـم حكومة اليعاقبة فقط على مجرد إعادة تخطيط النظام الاقتصادي – في معالم صريحة – بل تجاوزتـه إلـى النظام الاجتماعي كذلك. فجعل الطلاق في نفس سهولة الزواج، وألغي التمييز بين الأطفال الشرعيين وغيـر الشرعيين. واستحدث تقويم جديد، مع أسماء جديدة للشهور وأسابيع مكونة من عشرة أيام وما إلى ذلك – وقد أزيل كل ذلك منذ زمن بعيد؛ وكذلك أحلت العملة السمجة والموازين والمقاييس المعقدة بفرنسا القديمة مكانها – للطريقة العشرية البسيطة الواضحة التي لا تزال موجودة... وتقدمت بعض الفئات المتطرفة تقترح إلغـاء "ا " فيما يلغى من النظم الأخرى تمام الإلغاء، واستبدال عبادة العقل به. وأقيمت بالفعل حفلة للعقل بكاتدرائية نوتردام اتخذت فيها إحدى حسان الممثلات ربة للعقل. ولكن روبسبيير وقف في وجه هذه الحركة إذ إنه لـم يكن ملحدا. قال "إنما الإلحاد نزعة أرستقراطية" فأما الفكرة القائلة بذلك الكائن العلي الذي يراقـب البـريء المظلوم ويكلؤه ويعاقب المجرم الظافر، إنما هي بالضرورة فكرة الشعب". ولذا قضى بالمقصلة على هيبيـر Hebert، الذي احتفل بعيد العقل. كما قضى على كل أفراد جماعته.

وألم بروبسبيير مع تقدم صيف ١٧٩٤ شيء ملحوظ من الاضطراب الذهني. كان مهتما أعمق الاهتمام بديانته. (وكان اعتقال المشتبه فيهم وإعدامهم يجري آنذاك على أتم نشاط. فكان "الإرهاب" يجلجل في شوارع باريس في كل يوم بعرباته المليئة بالمحكوم عليهم). وقد حمل روبسبيير المؤتمر أن يصدر مرسـوما بـأن فرنسا تؤمن بكائن علي أسمى، كما تؤمن بذلك المبدأ الباعث الطمأنينة في النفوس: مبدأ خلود الروح. وفـي يونيه أقام عيدا عظيما هو عيد كائنه الأسمى. وسار إلى الشأن دي مارس موكب ترأسه وهو في ثياب زاهية يحمل باقة عظيمة من الأزهار وسنابل القمح. وأحرقت في مشهد وقور رهيب تماثيل من مادة قابلة للاحتراق

تمثل الإلحاد والرذيلة؛ ثم نهض في مكانها بطريقة آلية ماهرة وبشيء قليل من الصرير، تمثال للحكمة غير قابل للاحتراق. وألقيت الخطب – وألقى منها روبسبيير أهمها – ولكن ظاهر أنه لم تجر أية عبادة...

ومنذ ذلك الحين بدت على روبسبيير بوادر الرغبة في التأمل بمعزل عن شئون العالم. فظل شهرا كاملاً بمنأة من المؤتمر. وحدث في أحد أيام شهر يوليه أنه حضر وألقى خطبة عجيبة أنذرت بشكل واضح بقرب حدوث محاكمات جديدة. قال: "إنني وقد شخصت ببصري متفكرا في مجموع تلك الرذائل التي قوضها سيل الثورة الجارف، كانت في بعض الأحيان تأخذني رعدة الخوف من أن أتدنس من جيرة الشريرين النجسة... وإنني لأعرف أن من السهل على عصبة الطغاة في العالم أن يتكاثروا على فرد بمفرده، غير أنني أعرف كذلك ما هو واجب الرجل الذي يقدر أن يموت دفاعا عن الإنسانية".

وهكذا استطرد حتى وصل إلى عبارات مبهمة كان يبدو أنها تهدد كل إنسان.

واستمع المؤتمر هذه الخطبة في صمت وسكوت، ثم حدث عندما قدم اقتراح بطبعها وتوزيعها، أن جأر بصياح الغضب وأبى السماح بذلك وخرج روبسبيير في استياء مرير وذهب إلى نادي أنصاره، وأعاد تلاوة خطبته عليهم! وامتلأت تلك الليلة بالكلام والمقابلات والاستعداد للغد؛ وفي اليوم التالي انقلب المؤتمر على روبسبيير، وهدده شخص اسمه تاليان بخنجره. ولما حاول أن يتكلم صاح به الأعضاء حتى أسكتوه، ودق الرئيس الجرس في وجهه. وقال روبسبيير: "يا رئيس السفاحين إنني أطلب الكلمة!" وأبيت عليه الكلمة. وخانه صوته. فأخذ يسعل ويصخب وصاح بعضهم "إن دم دانتون يخنقه". فوجهت إليه التهمة. واعتقل هناك للوقت ومعه أهم أعوانه شأنًا.

وعند ذلك ثارت ضد المؤتمر ثائرة دار البلدية وكانت لا تزال قوية النزعة اليعقوبية. وأخذ روبسبيير ورفقاؤه عنوة من أيدي آسريهم. ومرت ليلة حدث فيها التجمع والزحف ثم الزحف المضاد، وأخيرا التقت قرابة الساعة الثالثة قوات المؤتمر بقوات بلدية باريس خارج دار البلدية.

وكان هنريو، قائد اليعقابة يرقد مخمورا في الطابق الأعلى إثر يوم قضاه منهمكًا في العمل؛ وعقبت ذلك مفاوضات، ثم انحازت جنود الكوميون بعد تردد قليل إلى صف الحكومة. وتصايح القوم في انفعال وطني وأطل أحدهم من نافذة بدار البلدية. ووجد روبسبيير وآخر من بقي معه من إخوانه أن جنودهم انفضوا من حولهم وخانوهم وأوقعوهم في الفخ. وألقى اثنان أو ثلاثة من هؤلاء الرجال بأنفسهم من إحدى النوافذ، وأحدثوا بأنفسهم إصابات مروعة على الأسوار الحديدية دون أن يقتلوا أنفسهم. وحاول آخرون الانتحار. والظاهر أن أحد الجنود أصاب روبسبيير برصاصة في الفك الأسفل فقد وجدوه يحملق بعينين شاخصتين وسط وجه شاحب كان نصفه الأسفل من الدم.

وأعقب ذلك سبع عشرة ساعة قضاها في الألم المبرح قبل أن تحين نهايته. ولم ينبس بكلمة طوال تلك المدة، إذ كان فكه مربوطًا ربطًا خشنًا بقطعة قذرة من القماش، واقتيد هو ورفاقه، والأجسام المهشمة المحتضرة لأولئك الرجال الذين قفزوا من النوافذ – وكانوا في مجموعهم اثنين وعشرين رجلاً – إلى المقصلة بدل الذين قضى بإعدامهم في ذلك اليوم. وكانت عيناه مغمضتين معظم الوقت، ويقول كارليل إنه

فتحهما فرأى السكين العظيمة ترتفع من فوقه وأخذ يقاوم ويتملص. كذلك حدث فيما يظهر أنه صرخ عنـدما رفع الجلاد عنه ضمادته. ثم هوت السكين سريعة رحيمة. وانتهى عهد الإرهاب. ومنذ البداية حتى النهايـة كان عدد المحكوم عليهم والمعدومين أربعة آلاف إنسان.

١٢- حكومة الإدارة

مما يشهد بالحيوية الهائلة والخير العميم في طوفان المثل العليا والمقاصد الجديدة التي أطلقت الثورة الفرنسية أسارها إلى عالم الجهود العملية، أنها كانت لا تزال تستطيع أن تفيض بسيل خلاق بعد أن رأى الناس لها صورة ممسوخة وسخروا منها حين تمثلت في شخصية روبسبيير وحياته العجيبتين المضحكتين. وروبسبيير صاحب الفضل في الكشف عن أعمق أفكارها، وهو الذي أبدى المتوقع من طرائقها وثمارها، خلال العدسات الغريرة المشوهة التي صيغت منها كبرياؤه وأنانيته الخارجة عن كل معقول؛ وهو الذي سود ولطخ بالدم والرعب كل آمالها وما ينتظر منها؛ ومع ذلك فإن قوة هذه الفكرات لم تتدمر. إذ إنها تحملت الاختبارات القاسية التي ألمت بها أثناء عرضها على تلك الصورة المضحكة البشعة. وظلت الجمهورية بعد سقوطه تحكم حرة لا يهاجمها مهاجم منيعة لا ينال منها أحد منالاً. ولكن لم يكن لها من زعيم يقودها، وذلك أن خلفاءه كانوا جماعات من رجال مكرة أو عاديين، وواصلت الجمهورية الأوربية كفاحها مدة من الزمان، ثم لم تلبث حتى سقطت ثم نهضت ثانية، ثم سقطت ونهضت ولا تزال تكافح، وهي ترتطم بالعراقيل وتشتبك في الأحابيل غير أنها منيعة لا تقهر.

ومن الخير أن نذكّر القارئ في هذا المقام بالحجم الحقيقي لدور الإرهاب هذا، الذي يروع الأخيلة أيما ترويع، والذي بولغ فيه بناء على هذا مبالغة هائلة بالقياس إلى بقية الثورة. فمنذ ١٧٨٩ إلى أخريات ١٧٩١ كانت الثورة الفرنسية عملية منتظمة، ومنذ صيف ١٧٩٤ كانت الجمهورية دولة منتظمة مظفرة. ولم يكن الإرهاب من عمل البلاد بأجمعها، بل مما جنته أيدي رعاع المدينة الذين كانوا مدينين بوجودهم ووحشيتهم إلى سوء الحكم والظلم الاجتماعي في الدولة البائدة؛ وما كان انفجار حكم الإرهاب ليحدث لولا إصرار الملكيين على خيانتهم وعدم ولائهم، إصرارا أثار المتطرفين إلى درجة الجنون، وحمل كتلة الجمهوريين المعتدلين على عدم التدخل. وكان خيرة الرجال مشغولين بقتال النمسويين والملكيين على الحدود. وينبغي لنا أن نتذكر أن مجموع من قتلوا في حكم الإرهاب وصل في غاية جملته إلى بضع آلاف قليلة، وكان بين هؤلاء الأعداد ولا ريب عدد كبير من خصوم الجمهورية العاملين، الذين كان يحق لها أن تقتلهم قياسا على معايير ذلك الزمان. وكان من بينهم من الخونة وصناع الشر أمثال فيليب دوق أورليان، صاحب قصر "الباليه رويال" الذي أعطى صوته محبذًا موت لويس السادس عشر.

ولقد ضاع من الأرواح على يد القواد الإنجليز وحدهم في يوم افتتاح ما يسمى باسم هجوم السوم في يوليه ١٩١٦، أكثر مما ضاع في الثورة الفرنسية كلها منذ بدايتها إلى خاتمتها.

وإنا لنسمع كثيرا عن شهداء حكم الإرهاب لأنهم كانوا قوما من ذوي المكانة والمصاهرة والقرابة الطيبة، ولأنه أثير ضرب من الدعاية حول ما قاسوا من عذاب. ولكن علينا أن نوازن في أذهاننا بين ذلك وبين ما كان يجري في سجون العالم عامة في ذلك الزمان. فعندما كانت مقاليد الحكم في فرنسا بيد الإرهاب، كان يقتل في إنجلترة وأمريكا لجرائر ارتكبت ضد الممتلكات – وغالبا ما كانت جرائر تافهة جدا – عدد يفوق كثيرا عدد من حكمت عليهم محاكم الثورة في فرنسا بسبب الخيانة للدولة. وبدهي أنهم كانوا في الواقع

أناسا عاديين جدا، ولكنهم قاسوا آلاما على طريقتهم الخشنة. فقد حدث مرة أن شنقت فتاة في ماساشوستس ١٧٨٩ لأنها أخذت بالإكراه قبعة وحذاء وشمابك من فتاة أخرى لقيتها في الطريق. كذلك وجد هوارد محب الإنسانية (قرابة ١٧٧٣) عددا من الأفراد الأبرياء محجوزين في السجون الإنجليزية بعد أن حوكموا وحكم ببراءتهم ولكنهم لم يستطيعوا أن يدفعوا أجرة السجان. وكانت تلك السجون أماكن قذرة لا تخضع لأية رقابة فعالة. وكان التعذيب لا يزال يستعمل في الممتلكات الهانوفرية لصاحب الجلالة البريطانية الملك جورج الثالث. وظل يستخدم في فرنسا حتى عهد الجمعية الوطنية. فالحق أن هذه الأمور كلها تشير إلى مستوى العصر عامة.

وليس فيما سجل ما يدل على أن أي امرئ قد عذبه عمدا رجال الثورة الفرنسية أثناء حكم الإرهاب. فإن هؤلاء المئات القلائل من السراة الفرنسيين قد ترددوا في حفرة كان يطيب معظمهم نفسا بأن تحفر للآخرين. كان الأمر فاجعا لا جرم، ولكن لم يكن فيه فاجعة عظيمة إذا قيس بمعيار التاريخ العام. فإن الرجل العامي في فرنسا كان أوسع حرية وأوسع رزقًا، وأشد سعادة إبان حكم "الإرهاب" مما كان في ١٧٨٧.

وإذا استعرضنا قصة الجمهورية بعد صيف ١٧٩٤ وجدناها قصة معقدة لمجموعة من الطوائف السياسية التي اتخذت لنفسها برامج وأهدافًا لا حصر لها، منها ما هو جمهوري راديكالي ومنها ما هو ملكي رجعي، غير أنها كانت تظللها رغبة عامة في إقامة نظام ما محدد فعال وإن كلفها ذلك قدرا جسيما من الإذعان والتساهل. وأحدث اليعاقبة والملكيون سلسلة من الفتن، إذ يلوح أنه كان هناك في باريس ما عسانا أن نسميه اليوم باسم طبقة مشاغبي الشوارع، وهي على أتم الاستعداد للخروج للقتال والنهب في صف أي من الطرفين. ومع هذا فإن المؤتمر أنتج حكومة، هي حكومة الإدارة المكونة من خمسة أعضاء، والتي حافظت لفرنسا على تماسكها أمد خمس سنوات. وقضي على آخر فتنة وأشدها خطرا في أكتوبر ١٧٩٥، بمهارة فائقة وحزم نافذ عن يد جنرال شاب ناهض هو نابليون بونابرت.

كانت الإدارة مظفرة في الخارج، غير أنها كانت خاملة غير خلاقة في الداخل، إذ كان أعضاؤها أحرص على الاستمساك بحلاوة الوظيفة وأمجادها، من أن يعدوا دستورا يخليهم من العمل ويحل غيرهم محلهم، وكانوا أخون من أن يسلموا لغيرهم مقاليد عملية إعادة الإنشاء الاقتصادية والمالية التي تتطلبها حالة فرنسا. ولسنا بحاجة أن نذكر إلا اسمي رجلين منهم – أحدهما كارنوه (Carnot) الذي كان جمهوريا شريفًا؛ وبارا (Barras) الذي كان لصا بشكل ملحوظ. وقد كون حكمهم هذا الممتد خمس سنوات قصة عجيبة مثات بين فصول هذا التاريخ الحافل بالتغييرات العظيمة.. فإنهم تناولوا الأمور كما وجدوها. ولعبت حماسة الدعاة للثورة دورا عظيما في حمل الجيوش الفرنسية إلى هولندة وبلجيكا، وسويسرا وجنوب ألمانيا، وشمال إيطاليا. كان الملوك يطردون في كل مكان وتقام في أماكنهم الجمهوريات.

ولكن حماسة تلك الدعاية التي أثارتها حكومة الإدارة لم تحل دون انتهاب كنوز الشعوب المحررة بغية تخفيف ما تلقاه الحكومة الفرنسية من الاضطراب والعسر المالي. وأخذت حروبهم تنحدر رويدا رويدا عن صفتها كحرب حرية مقدسة، وتقترب أكثر فأكثر من حروب الحكم البائد العدوانية. وكانت السياسة الخارجية

آخر ما كانت فرنسا ترغب في التجرد منه من مظاهر الملكية العظمى. وإنا لنـستطيع أن نتبـين أن تلـك السياسة ظلت على نفس قوتها الأولى أثناء حكم حكومة الإدارة كأنما لم يحدث هناك أية ثورة.

١٣- توقف التعمير وفجر الاشتراكية العصرية

لقد اقتربت الآن ساعة انحسار هذا الفيض الدافق من الثورة في العالم؛ ذلـك الفـيض الـذي خلـق جمهورية أمريكا العظيمة وهدد بأن يغمر بطوفانه كل الملكيات الأوربية. وكأن شيئًا قد اندفع إلى أعلى مـن دون سطح الشئون الإنسانية؛ وبذل جهدا جبارا، ثم ما لبث أن تلاشى بددا إلى حين. وجرف أمامه كثيرا من الأشياء المهجورة والضارة، ولكن بقيت من بعده أمور كثيرة ضارة غير عادلة. نعم إنه حل مسائل كثيـرة، ولكنه ترك الرغبة في الزمالة والنظام تواجه مسائل أكثر ضخامة لم يبد عليه أنه تجاوز حد هتك الستر عنها. وذهبت أشكال معينة من الامتيازات، كما ذهب الكثير من ألوان الاستبداد والاضطهاد الديني. وعندما اختفت أشياء الحكم البائد هذه، بدت كأنما لم تكن لها أبدا أية أهمية، وكل ما كان يهم فعلاً هو أن الرجـال العـاديين بالرغم من تمتعهم بالأصوات الانتخابية وحق الاقتراع، وبالرغم من كل دفعات نفوسهم وجودهم، كانوا مـا يزالون لا هم بالأحرار ولا هم بالمستمتعين بقسط متعادل من السعادة، وأن الوعد الهائل الموعود والأمل في تفيؤ أكناف عالم جديد وهما الأمران اللذان جاءت الثورة بهما، ظلا وهما لا ظل لهما من الحقيقة.

ومع هذا فإن موجة الثورة هذه قد حققت تقريبا كل شيء فكر فيه الناس تفكيرا واضحا قبل مجيئها. ولم تكن تفشل الآن بسبب امتناع الدافع، بل بسبب امتناع الفكرات المدروسة المصقولة. فقد جرفت إلى الأبد كثير من الأشياء التي طالما أوقعت الظلم بالإنسانية. والآن وقد جرفت وانتهى أمرها، بات واضحا لكل ذي عينين، كم كان الرجال غير متأهبين لتلقي النهزات الخلاقة التي أتاحتها لهم هذه الإزالة. وما فترات الثورة إلا فترات عمل؛ وفيها يحصد الرجال ثمار الفكرات التي نمت أثناء أدوار فترات الهدوء بين الثـورات. إنهـا لتتـرك الحقول نظيفة مستعدة لموسم جديد من مواسم النماء، ولكنها لا تستطيع أن تنتج على الفجاءة فكرات جديـدة منضجة لتقابل بها لغزا غير متوقع.

وكان طرد الملك والنبيل، والقسيس وقاضي محكمة التفتيش، وصاحب الأراضي وجـابي الـضرائب وملاحظ الأشغال، قد غادر كتلة الناس يواجهون لأول مرة بعض نواحي معينـة جوهريـة جـدا للتركيـب الاجتماعي، وهي العلاقات التي سلموا بها من قبل ولم يدركوا البتة ضرورة التفكير الشديد وإطالـة النظـر فيها. وظهر أن النظم التي كانت تبدو قطعة من طبيعة الأشياء، والأمور التي كان يبدو أنها تحدث نتيجة لذلك النوع من الضرورة التي تطلع الفجر وتأتي بالربيع – ظهر أنها كانت أمورا اصـطناعية يمكـن ضـبطها والتحكم فيها، لولا ما هي عليه من التعقيد المربك، كما ظهر أنها الآن وقد ألغيت الروتينيات القديمة وتخلص الناس منها، أصبحت في أمس الحاجة إلى يد تضبطها وتهيمن عليها. ووجد النظام الجديد نفسه تلقاء ألغـاز ثلاثة، كان غير مستعد مطلقًا لحلها: وهي الملكية والعملة والعلاقات الدولية.

وسنتناول هذه المسائل الثلاثة بالترتيب، ونسأل عن ماهيتها وكيف نشأت في الشئون الإنسانية؟ فإن كل حياة إنسانية تتصل بها اتصالاً عميقًا، كما أن حلها يمسها مسا مباشرا. والحق إن البقية الباقية من هذا التاريخ ستصبح من الآن بشكل واضح يتزايد وضوحا كل يوم، تطورا للمجهودات المبذولة لحل هـذه المـسائل، أو بمعنى آخر: إن هذا "التاريخ" سيصبح من الآن جهدا غايته "تفسير الملكية، وتأسـيس العملـة، وإدارة دولاب

العلاقات الدولية"، على شاكلة تجعل في الإمكان إنشاء "مجتمع من الإرادة على أن يكون سعيدا وتقدميا، يعم العالم أجمع. فهن الألغاز الثلاثة التي يرمز لها صمت "أبي هول" القدر، والتي يجب على الدولة الإنسانية أن تجد لها جوابا وإلا كان مآلها الهلاك.

وتنشأ فكرة الملكية من غرائز المقاتلة في النوع البشري. فقبل أن يكون الإنسان إنسانًا بزمان مديد كان القرد الجد مالكًا. والملكية البدائية هي ما يقاتل الوحش من أجله. فالكلاب والعظمة، والببرة ووجارها، والغزال الهادر وسربه، كل هذه مِلْكيات يتوهج أوارها. وليس ثمة تعبير أسخف في علم الاجتماع من عبارة "الشيوعية البدائية". فإن الرجل المسن في قبيلة العائلة في الأزمان المبكرة من العصر الحجري القديم (الباليوليثي) كان يصر على ملكيته في زوجاته وبناته وأدواته ولعالمه المرئي المحيط به. فلو دخل أي رجل إلى عالمه المرئي المحيط به لقاتله، ولذبحه إن استطاع. ونمت القبيلة على مر العصور، كما بين ذلك أتكنسون تبيانًا مقنعا في كتابه "القانون البدائي" (1). وكان نموها نتيجة للتسامح التدريجي الذي أبداه الرجل المسن نحو وجود الشبان الأصغر منه سنًا، ونحو ملكيتهم للزوجات اللائي يؤسرن من خارج القبيلة، والآلات والحلي التي كانوا يصنعونها والصيد الذي كانوا يقتلون. ونمت الجماعة الإنسانية بفضل التوفيق بين ملكية هذا الفرد وملكية ذاك. كان ذلك التوفيق في أكبر شأنه توفيقًا وتحالفًا اضطر الرجال إليه اضطرارا بسبب ضرورة دفع قبيلة أخرى إلى خارج عالمهم المرئي المحيط بهم. فلئن لم تكن التلال والغابات والأنهار أرضك أو أرضي، فذلك لأنه كان لزاما أن تكون أرضنا. وإن كلا منا ليؤثر لو أنها كانت "أرضه هو"، ولكن هذا لا يمكن العمل به. ففي تلك الحالة يقوم الرجال الآخرون بتدميرنا. فكأن الجماعة الإنسانية إذن، إنما هي منذ بدايتها تخفيف لغلواء الملكية. والملكية في الوحش الضاري وفي المتوحش البدائي كانت أشد حدة منها في العالم الممدن اليوم. فهي في غرائزنا أقوى مغرسا منها في عقولنا.

وليس هناك اليوم تحديد لنطاق الملكية عند المتوحش الفطري ولا الرجل غير المتعلم. ومن الخير لنا أن نتذكر دوما أنه ما من إنسان يزيد بعده اليوم على أربعمائة جيل من جده المتوحش البدائي وكل ما تستطيع أن تقاتل من أجله إنما هو شيء أنت قادر على امتلاكه: من النساء وممن تبقى عليهم من الأسرى ومن الضواري المصيدة. ومن مسالك الغابة ومن مآخذ الحجر إلى غير ذلك. ومع نمو المجتمع، وتولّي ضرب بدائي من القانون الحد من القتال الفتاك، طور الناس طرائق خشنة وسريعة لإقامة الملكية. فصار الرجل يقدر أن يملك ما كان أول من صنعه أو وضع يده عليه أو ادعاه. وكان يبدو طبيعيا أن كل مدين لا يستطيع تسديد دينه لا بد أن يغدو ملكًا لدائنه. ويعادل هذا في جريانه على الطبيعة أن الرجل بعد ادعائه امتلاك رقعة من الأرض، لا بد له من تحتيم دفعات مالية على كل رجل آخر يريد استعمالها. ولم يحدث إلا مع البطء الشديد، ومع بزوغ فجر احتمالات الحياة المنظمة وظهور بوادرها على الناس، أن ابتدأ الناس يرون في هذه الملكية غير المحدودة لأي شيء كان – مصدر إزعاج ومضايقة لهم. وألفى الرجال أنفسهم يولدون إلى عالم مملوك كله ومدعى ملكيته كله – لا بل وجدوا أنفسهم مملوكين أو مدعى ملكيتهم. ومن العسير الآن علينا أن نقفو

---

(1) Atkinson Primal Law

أثر الكفاحات الاجتماعية في المدنيات الأشد قدما، غير أن التاريخ الذي حدثناك به عن الجمهورية الرومانية يكشف لك مجتمعا يستيقظ على فكرة أنه ربما غدا الدينو مضايقة عامة، ولا بد عند ذاك من إنكاره والامتناع عن أدائه، وأن الملكية غير المحدودة للأرض إنما هي كذلك مضايقة من المضايقات. وإنا لنجـد أن مملكـة بابل (بابلونيا) عمدت في عهدها المتأخر إلى تحديد حقوق الفرد في امتلاك الأرقاء تحيدا شديدا. وأخيرا نجد في رسالة ذلك الثوري العظيم، يسوع الناصري، هجوما وطعنًا في الملكية لم يوجد مثله قبل ذلك أبدا. قـال "أيسر أن يمر الجمل من ثقب الإبرة من أن يدخل غني (مالك العقارات العظيمة) ملكوت السموات".

ويلوح أن العالم ظل طوال الخمسة والعشرين أو الثلاثين قرنًا الأخيرة يوجه سهام النقد بـلا انقطـاع للمقدار الذي يمكن السماح به من الملكية. وها نحن بعد انقضاء تسع عشرة مائة من الـسنين علـى يـسوع الناصري، نجد كل العالم المستظل بالتعاليم المسيحية مقتنعا بأن الملكية في الأشخاص أمر لا يمكن أن يكون، إذ حدث من ناحية هذا الأمر انقلاب في الضمير العام. وكذلك الفكرة القائلة "بأن الرجل يستطيع أن يفعل مـا يشاء فيما يملك" قد هزت هزا واضحا كبيرا وضعفت ضعفًا ملموسا بالعلاقة إلى أنواع أخرى مـن الملكيـة. على أن هذا العالم الذي نشهده في نهاية القرن الثامن عشر، لم يبلغ بعد في هذه المسألة إلا مرحلـة الـشك والاستفسار. ذلك أنه لم يكن لديه شيء واضح وضوحا كافيا يستطيع أن يتخذه أساسا يعمل عليه، فضلاً عـن شيء مستقر استقرارا كافيا. وكان من أوائل دوافعه حفظ الممتلكات من أن يعبث بها جشع الملوك وتبـذيرهم وحمايتها من استغلال النبلاء المغامرين. وقد شبت الثورة من أجل الحفاظ على الملكية الخاصة. ولكن مبادئ المساواة التي أخذت، دفعت بها في غمرات النقد والتجريح للملكية التي نهضت لحمايتها. إذ كيـف يـستطيع الرجال أن يكونوا أحرارا متساوين بينما العدد الجم منهم ليس لديهم أرض يعيشون عليها ولا شيء يطعمونه، كما أن الملاك لا يرضون بإطعامهم ولا بإيوائهم ما لم يكدحوا كدحا شديدا مسرقًا – تلك هي شكوى الفقراء.

وكان رد اليعاقبة على ذلك اللغز أن أكبوا على "التقسيم". فإنهم أرادوا أن يشدوا أزر الملكية ويعمموها. وكان هناك من قبل في القرن الثامن عشر قوم يرمون إلى نفس الغاية وإن كان ذلك بطريق آخر، هم جماعة بدائية بعينها من الاشتراكيين – أو بمعنى أدق من الشيوعيين – كانوا يريدون أن يلغوا الملكية الخاصة إلغاء تاما. وكان على الدولة في رأيهم أن تملك كل الممتلكات. ولم يشرع الناس إلا بعد مضي فترة كبيـرة مـن القرن التاسع عشر، يدركون أن الممتلكات ليست شيئًا واحدا بسيطًا. بل هي مركب عظيم من الملكيات ذوات القيم والأهميات والدرجات المختلفة. وأن كثيرا من الأشياء (من أمثال بدن الإنسان وأدوات الفنـان والثيـاب وفرش الأسنان) إنما هي ممتلكات شخصية بصورة عميقة جدا ولا علاج لها أبدا. وأن هناك نطاقًا عظيما من الأشياء أمثال السكك الحديدية والآلات ذوات الأنواع المختلفة والمنازل والحدائق المزروعة وزوارق المتعـة وكل منها بحاجة أن تلقى منا تأملاً خاصا جدا لنقدر إلى أي درجة وتحت أي حدود يمكن وضعها تحت اسـم الملكية الخاصة، وإلى أي مدى تقع في نطاق الملكية العامة ويمكن أن تـديرها وتؤجرهـا الدولـة خدمـة للمصلحة الجماعية. ونحن نمتاز اليوم على الجيل الثوري الأول بذخر كبير من الأبحاث التي دارت في مدى السنوات المائة والثلاثين الأخيرة، ولكن حتى هذا "الأدب" المسطر في الملكية والنقد الموجه إليها لا يزال إلى اليوم اختمارا هائلاً حامي الوطيس أكثر منه علما مقررا. وكان من المستحيل والحالة هذه أن تستطيع فرنسا

القرن الثامن عشر أن تنتج أي مشهد آخر عدا تلك الحركات الشعبية الغامضة المربكة الراغبة في حرمان الملاك من أملاكهم، وعدا مشهد طبقات من الملاك الصغار والكبار الذين يستمسكون بما لديهم استمساك الغاضب المتجهم مطالبين قبل كل شيء بضمان الملكية.

ومما يتصل أوثق اتصال بغموض فكرة الملكية في أذهان الناس غموض فكراتهم عن "العملة". فإن كلا من الجمهوريتين الأمريكية والفرنسية أصيبت من جراء هذا الأمر بمتاعب خطيرة. وإنا لنعالج هنا أيضا أمرا ليس بالهين اليسير، بل هو غمرة من العرف المتبع والأوضاع التقليدية والقوانين والعادات العقلية الفاشية، التي تنشأ عنها مسائل تسمح بأي حل يقوم على أسس بسيطة، والتي هي مع ذلك صاحبة أهمية حيوية في حياة المجتمع اليومية. وصحة الاعتراف الذي يتناوله الرجل مقابل اشتغاله يوميا، ذات أهمية أولية تماما، كما هو بين، في عمل الجهاز الاجتماعي. وهناك نوعان من النمو تما بالتدريج على كر التاريخ الإنساني، هما نمو الثقة في المعادن النفيسة ونمو العملة نموا اقتنع به الناس عمليا أن العملة الجيدة يمكن الاطمئنان إلى امتلاكها قوتها الشرائية في أي مكان.

ولما كان استقرار ذلك الاطمئنان متوسطًا، فإنه تعرض لتأزمات وارتباكات جسيمة جدا، نتجت عما كانت تعمد إليه الحكومات من خفض العملة ومن استبدال النقود المعدنية الفعلية بالوعود الورقية بالدفع. فما كادت تحدث زلازلات سياسية واجتماعية خطيرة، حتى أخذ نظام النقود يعمل بصورة متأزمة غير مضبوطة.

وقد ابتدأت كل من الولايات المتحدة والجمهورية الفرنسية حياتها في دور عسر مالي. وكانت كل من الحكومتين تقترض النقود وتصدر وعودا ورقية بدفع الفوائد، وهي فوائد تفوق ما كانتا تستطيعان جبايته في غير مشقة. وأفضت كل من الثورتين إلى الشيء الكثير من الإنفاق والاقتراض العام المستيئس، وأدت في نفس الوقت إلى انقطاع في عملية الزراعة والإنتاج زاد في إنقاص الثروة الحقيقية التي يستطاع فرض الضرائب عليها. وإذ إن كلا من الحكومتين لم تستطع أن تواصل الدفع بالذهب، فقد لجأت إلى إصدار العملة الورقية (البنكنوت)، التي تعد فيها بأن تدفع بضمان الأراضي غير المتطورة (في أمريكا) أو أراضي الكنيسة المصادرة حديثًا (فرنسا). وتجاوز القدر الصادر في كل من الحالتين حد ثقة الناس في الضمان الجديد تجاوزا بعيدا. وهرب الذهب من الأسواق حيث أخفاه مكرةُ الناس، أو أرسل إلى الخارج تسديدا لأثمان البضائع المستوردة، ووجد الناس أنفسهم يحملون أنواعا مختلفة من الصكوك وورق البنكنوت بدل العملة وكلها ذات قيمة متناقصة غير محققة.

ومهما يكن شأن أصول العملة من التعقيد، فإن آثارها العملية والغاية التي لا بد لها من خدمتها في المجتمع يمكن أن تذكر هنا بطريقة إجمالية. فإن النقود التي يتلقاها الرجل عن عمله (عقليا كان أم جسميا)، أو عن التخلي عن ملكيتها مقابل منفعة استهلاكية لا بد أن تستطيع في النهاية أن تشتري له ولاستعماله قدرا يعادل ذلك بالتقريب من السلع المستهلكة. (ولفظة "السلع المستهلكة" عبارة نحب أن تفهم على أوسع معانيها بحيث تمثل حتى إحدى الرحلات، أو الاستماع إلى محاضرة أو حضور إحدى المسرحيات أو السكن أو الاستشارة الطبية وما إليها من الأشياء). فإذا ضمن كل فرد من المجتمع توفر هذه الأشياء له، وضمن أن

النقود لن تنحط قوتها الشرائية – فإن العملة وتوزيع البضائع بالتجارة تكون عندئذ في حالة سليمة مرضية. فعند ذلك، وعند ذلك فقط، يشتغل الرجال مسرورين راضين.

والحاجة الحتمية إلى ذلك الاستقرار وذلك الضمان في العملة، إنما تقوم بناء على هذا في الحقائق الثابتة (Datum) التي منها يجب أن تبدأ الدراسة العملية للعملة والرقابة عليها. ولكن لا بد دائما من وجود التقلبات في قيمة العملة ولو في ظلال أثبت الأحوال وأرسخها. فإن صافي جملة السلع القابلة للشراء والاستهلاك في العالم وفي أقطار متنوعة، تختلف من سنة إلى أخرى ومن فصل إلى فصل؛ ولعل الخريف زمن خيرات ووفرة بالموازنة إلى الربيع؛ فإذا حدثت زيادة في السلع التي يمكن الحصول عليها في العالم تزداد القوة الشرائية للعملة، ما لم يرافق ذلك زيادة في مقدار العملة، فإن كان هناك من الناحية الأخرى نقص في إنتاج السلع الاستهلاكية أو تدمير عظيم غير مربح في السلع الاستهلاكية، شأن ما يحدث في الحروب، نقص نصيب جملة السلع الاستهلاكية ممثلاً في مبلغ من المال، ثم تعلو لا محالة الأسعار والأجور. فربما حدث في الحروب العصرية أن انفجار قنبلة كبيرة واحدة، وإن لم تصب شيئًا، يستهلك من العمل والمواد ما يعادل لدى أحد الرجال بالتقريب أجرة منزل ريفي ظريف أو نفقة عطلة سنوية. فإن أصابت القنبلة شيئًا ما، وجبت إضافة ذلك التدمير الآخر إلى النقص في السلع الاستهلاكية. ولقد كانت كل قنبلة تنفجر في الحرب العظمى تنقص جزءا يسيرا من القوة الشرائية لكل عملة في العالم بأجمعه. فإن كان هناك أيضا زيادة في العملة أثناء فترة تستنفد فيها السلع الاستهلاكية ولا تستبدل بها غيرها تمام الاستبدال – وضرورات الحكومة الثورية والعاملة على الحرب تكاد تتطلب ذلك على الدوام – تكون الزيادة عند ذلك في الأسعار والهبوط في قيمة العملة المدفوعة أجورا، أكبر وأكبر.

وقد جرت العادة كذلك بأن الحكومات تضطر مدفوعة بتلك الشدائد إلى اقتراض المال، أعني أنها تصدر أوراقًا تحمل الفائدة بضمان رغبة المجتمع العام ومقدرته على تحمل الضرائب.

وتكون مثل هذه العمليات على درجة كبيرة من الصعوبة إن كان من يقوم بها رجالا على تمام الشرف يقومون بها في صراحة، تحت كامل ضياء العلانية والمعرفة العلمية. ولكن هذا الأمر لم يحدث البتة حتى يومنا هذا، ففي كل آن ومكان تجد الأناني البارع أي الصنف الشرير من الرجل الغني، يحاول أن ينحرف بالأمور قليلاً نحو مصلحته الخاصة. كذلك يجد الإنسان في كل مكان الأناني الغبي، على أهبة الاستعداد للتشرب بالخوف والتخاذل ذعرا. ومن ثم تنكشف لنا الدولة على الفور وقد فدحتها وفرة في العملة، التي هي في واقع الأمر بمثابة دين لا يدفع الفوائد، كما يبهظها كذلك عبء فوائد القروض. ويبدأ كل من "الائتمان Credit" والعملة في التمايح والتقلب الشديد مع تبخر (تناقص) الثقة العامة. وقد نستطيع أن نقول عنهما عندئذ إنهما في حالة انحلال معنوي خلقي.

والعاقبة النهائية لعملة أصيبت بتمام الانحلال المعنوي هي إيقاف كل عمل وكل تجارة لا يستطاع مواصلتها بالدفع عينًا أو مقايضة. فإن الرجال يرفضون عند ذلك أن يعملوا، اللهم إلا مقابل الطعام والثياب والمسكن والدفع عينًا. والنتيجة المباشرة لعملة منحلة انحلالاً معنويا جزئيا هي رفع الأسعار وجعل التجارة

أمرا مخيفًا مخطرا، وملء نفوس العمال بالريب والشكوك والتهيؤ للهياج. ففي مثل هذه الظروف يميل الرجل الذكي إلى إبقاء النقود في حوزته إلى أقصر أمد ممكن؛ فهو يطلب أقصى ما يستطيع في مقابل حقيقته التـي بين يديه، ويشتري مرة ثانية حقيقة أخرى بأسرع مستطاعه لكي يباعد ما بينه وبين تلك المادة القابلة للهلاك، وأعني بها العملة الورقية. ويكابد كل أرباب الدخل الثابت والرصيد المدخر ويقاسون من غـلاء الأسـعار، ويجد الأجراء ولهيب غضبهم يزداد في كل آن أوارا، أن القيمة الحقيقية لأجورهم في تناقص مطرد.

ومن الواضح أن تلك حالة يحتم فيها الواجب على كل شخص ذكي أن يبذل العون ويقوم بجهـد فـي سبيل إعادة الأمور إلى نصابها وبث الطمأنينة في نفوس الناس. على أن كل تقاليد المسعى الخـاص، وكـل فكرات الجزء الأخير من القرن الثامن عشر، اتجهت إلى تبرير أعمال ذوي الذكاء الشديد والمهرة من الناس الذين نصبوا أنفسهم لتجميع الادعاءات، والألقاب والأملاك المحسوسة فـي ظـل العواصـف والتزلـزلات والتقلقلات التي تحدث أثناء انهيار هذه العملة. ومن عجب أن الرجال المدركين للحقائق في العـالم والـذين كانوا ينصبون أنفسهم في إخلاص وبساطة لإعادة ما للعملة والائتمان من أحوال شريفة يمكن التعامـل فـي ظلالها، كانوا رجالاً قليلي العدد، عديمي الأثر. فإن معظم رجال المال والمضاربات في ذلك الزمـان كـانوا يلعبون دور رجال كورنوال [1] دون وعي منهم إلى ما في ذلك من قلة الشرف، بل يفعلونه فيما يبـدو بـأتم أنواع الاستحسان الذاتي وأكمل مظاهر رضا زملائهم. لقد كان هدف كل شخص ذكي ماهر أن يجمع أكثر ما يستطيع من الثروة القابلة للتداول، وعند ذلك، وعند ذلك فقط، يعمد إلى تدبير وسيلة تـؤدي إلـى التوطيـد السياسي، وتغادر له ملكية ما جمع أعود ما تكون عليه نفعا. فهذه هي عوامل جو اقتـصادي رديء ملـيء بالشكوك والعصبية المحمومة والجشع والمضاربات...

فأما الاتجاه الثالث الذي اتجهته الثورة دون أن تستعد له بفكرات نيرة واضحة، وهو مسألة العلاقـات الدولية، فقد قدر عليها فيه تطورات تفاعلات أسوأ التفاعل وأجلبه للكوارث مع هذه الحالـة، حالـة المغـامرة المالية والاقتصادية وهذا التخاطف والارتباك وانشغال بالهم بما أصاب ملكيتهم الخاصة ومركزهم النقدي في بلادهم، من انزلاق محير للعقول. فقد وجدت الجمهورية نفسها يوم ميلادها مشتبكة في حـرب. وقـد ظـل المجندون الجدد ردحا من الزمن يخوضون غمار هذه الحرب بوطنية وحماسة لم ير العالم لهما في تاريخـه نظيرا. ولكن لم يكن في الإمكان أن يستمر هذا الحال إلى الأبد. ووجدت حكومة الإدارة نفـسها علـى رأس بلاد فاتحة، ولكنها كانت من الناحية الداخلية في عسر مالي واضطراب لا يطاقان، ووجـدت نفـسها تحتـل أراضي أجنبية غنية مليئة بثروة يمكن الاستيلاء عليها، عامرة بالفرص المادية المالية. ويحمل كل منـا فـي طياته طبيعة مزدوجة. ويلوح أن الفرنسيين بوجه خاص قد تطوروا بشكل منطقي متناسق (سـيمتري) فـي حمل كلتا الطبيعتين. فقد جاءت فرنسا إلى هذه الأقاليم المغزوة محررا ومعلما وكانت أستاذة الإنـسانية فـي الروح الجمهورية. ومن ثم أصبحت هولندة وبلجيكا تسميان الجمهورية الباتافية، وأصبحت جنـوا وملحقتهـا

---

[1] يشير الكاتب هنا إلى ما كان يفعله سكان كورنوال بغرب انجلترة؛ إذ يستدرجون السفن ويخدعونها بالأنوار لتتـدمر علـى شاطئهم فينهبوها. (المترجم)

الرفييرا الجمهورية الليجورية، وغدا شمال إيطاليا الجمهورية السيزألبينية، وغير اسم سويسرا إلى الجمهورية الهلفاتية (Helvetian Republic)، وسميت روما وميلوز (Mulhausen) ونـابولي جمهوريـات. فـإذا تجمعت هذه الجمهوريات حول فرنسا فإنها كانت على أن تكون مجموعة من كواكب الحرية اللوامـع تقـود العالم وتهديه. تلك هي الناحية المثالية في الموضوع. وفي نفس الوقت تقدمت الحكومة الفرنـسية، والأفـراد الفرنسيون مجتمعين مع الحكومة للقيام باستغلال كامل استنفادي لموارد تلك البلاد المحررة.

وبذا تبدأ فرنسا الجديدة في مدى عشر سنوات من اجتماع مجالس الطبقات أن تتخذ لها شـبها عجيبـا بفرنسا القديمة. بل هي أشد عنفوانًا وأنشط قوة؛ وهي ترتدي فوق رأسها قلنصوة الحرية في مكـان التـاج؛ ولديها جيش جديد غير أن لديها أسطولاً محطما؛ وإن فيها لأناسا أغنياء جددا مكان الأغنياء القدماء، وفيهـا فلاحون جدد يكادون يكدحون أكثر من سابقيهم ويدفعون ضرائب أفدح؛ وفيها سياسة خارجية جديدة عجيبـة الشبه بالسياسة الخارجية القديمة الملغاة؛ ولم يظهر فيها العهد الذهبي عهد المسيح المنتظر.

الفصل السادس والثلاثون

سيرة نابليون بونابرت

١- أسرة بونابرت في كورسيكا.
٢- بونابرت قائدا جمهوريا.
٣- نابليون قنصلاً أول ١٧٩٩ – ١٨٠٤.
٤- نابليون الأول إمبراطورا من ١٨٠٤ – ١٨١٤.
٥- المائة يوم.
٦- خريطة أوربا في ١٨١٥.
٧- طراز الإمبراطورية.

١- أسرة بونابرت في كورسيكا

ها نحن أولاء نصل الآن إلى شخصية من أشد شخصيات التاريخ إشراقًا وسطوعا، هي شخصية مغامر محطم، يبدو أن قصته تظهر في نصاعة خارقة للعادة النضال العام الخفي الدقيق بين الأنانية والكبرياء والشخصية، وبين مرعيات المصلحة المشتركة الأشد ضعفًا والأكثر اتساعا. وإنك لتلحظ قبالة هذه الخلفية المكونة من الارتباك والمحنة والأمل، أي قبالة هذه القارة الأوربية والدولة الفرنسية المنهكتين اللاهثتين، وهذا الفجر العاصف الضخم، ظهور هذه الشخصية الضئيلة القديمة الطراز بما لها من الصلابة والتماسك والكفاية وعدم الاستمساك بمبادئ الشرف مع الميل إلى التقليد والسوقية المتقنة. ولد في ١٧٦٩ بجزيرة كورسيكا التي كانت لا تزال نصف همجية. وكان ابنًا لرجل غير ذي شأن تقريبا، وهو محام كان في بادئ أمره وطنيا يناضل الملكية الفرنسية، التي كانت تحاول أن تخضع كورسيكا، ثم انقلب عند مولده على وطنه وانضم إلى صف المغير الغاصب. وكانت أمه ذات طبيعة أقوى، محتدمة الوطنية ولها قوة شكيمة ومقدرة في الكياسة وتدبير الأمور. (كانت تضرب أولادها بالمقرعة، حتى لقد ضربت نابليون ذات مرة وهو في السادسة عشرة). وكان هناك إخوة وأخوات كثير، وظلت العائلة تلاحق الحكومة الفرنسية بالإلحاف في طلب المكافآت والوظائف. وفيما عدا نابليون فإن العائلة تبدو عائلة "جائعة" عادية تماما. كان ماهرا ذكيا سيئ الخلق متكبرا غطريسا. اكتسب من أمه وطنية (رومانسية) كورسيكية.

حصل بفضل رعاية محافظ كورسيكا الفرنسي على تعليم ابتدأ بمدرسة بريين Brienne العسكرية ثم بالمدرسة الحربية بباريس، ومنها انتقل إلى المدفعية في ١٧٨٥. كان دارسا مجتهدا لكل من الرياضيات والتاريخ، وكانت ذاكرته قوية قوة خارقة، وكان يدون ملحوظاته في دفاتر ضخمة لا تزال موجودة. ودفاتر المذكرات تلك لا تظهر فيه أي ذكاء استثنائي، كما أنها تحتوي كذلك على قطع صغيرة من الإنشاء الأصيل – حول الانتحار وما يماثله من موضوعات المراهقين. وقد وقع في حبائل سحر روسو منذ زمن مبكر؛ ثم تزايت حساسيته رهفًا وتطور في نفسه الاحتقار لمفاسد المدنية. وكتب في ١٧٨٦ نشرة ضد قسيس سويسري هاجم روسو. وكان يحلم بكورسيكا المستقلة المتحررة من نير الفرنسيين. ثم أصبح مع شبوب الثورة جمهوريا متحمسا ونصيرا للنظام الجديد في كورسيكا. وظل يعقوبيا بضع سنوات حتى سقوط روبسبيير.

٢- بونابرت قائدا جمهوريا

وسرعان ما ذاع صيته بأنه ضابط نافع مقتدر، وقد استطاع بوساطة شـقيق روبـسبيير الأصـغر أن يحصل على أول فرصة يبز بها أقرانه في طولون. وكان الملكيون قد سلموا طولون للبريطانيين والإسـبان، واحتل أسطول متحالف ميناءها. وأعطيت لبونابرت قيادة المدفعية، واستطاع الفرنسيون بقيادته أن يرغمـوا الحلفاء على مغادرة الميناء والمدينة.

ثم عين بعد ذلك قائدا للمدفعية في إيطاليا، ولكنه قبل أن يتسلم مقاليد عمله اكفهر الجو وبدا في الأفـق أن موت روبسبيير قد يجر مصرعه أيضا؛ فوضع تحت الاعتقال بوصفه يعقوبيا، وظل خطر المقصلة محدقًا برقبته ردحا من الزمان. ثم انقشع ذلك الخطر. وعين قائدا للمدفعية في غارة على كورسيكا لم تأت بفائدة، ثم ذهب إلى باريس (١٧٩٥) وهو في حال رثة. وتصف مدام جونو في مذكراتها وجهه الهزيل ومظهره الرث في ذلك الزمان، وشعره "الأشعث سيئ التذرير يتدلى فوق معطفه الرمادي"، ويديه العـاطلتين عـن القفـاز وحذاءه السيئ الدهان. كان ذلك زمان إجهاد وانتكاس أعقبا قساوات الجمهورية اليعقوبية. يقول هولانـدروز "كان نجم الحرية قد أخذ يأفل في باريس تلقاء إشراق عطـارد (Meieury) والمـريخ (Mars) والزهـرة (Venus)" أي المالية والثياب العسكرية والبهاء الاجتماعي. وكان خيرة الرجال العاديين يعملون في الجيوش وراء الحدود. ولقد سبق أن ذكرنا من قبل آخر ثورة للملكيين في ١٧٩٥. ومن حسن طالع نابليون أنه كـان في باريس في ذلك اليوم، فلقي في هذه المسألة نهزته الثانية. فأنقذ جمهورية الإدارة.

وأثرت كفايته في كارنو أيما تأثير، وهو أشد المديرين استقامة فأعجب به. زد على ذلك أنه تزوج من أرملة شابة حسنا، هي مدام جوزفين دي بوهارنية، وكان لها سلطان عظيم على باراه (Barras). والراجح أن هذين الأمرين هما اللذان ساعداه على الحصول على القيادة في إيطاليا.

وليس أمامنا هنا متسع لقصة حملاته الزاكية في إيطاليا (١٧٩٦ – ١٧٩٧)، ولكن لا بد لنا من كلمة أو اثنتين عن الروح التي تمت بها تلك الحملات على إيطاليا؛ لأنها تبين أنصع تبيان، تلك الـروح المزدوجـة لفرنسا ونابليون، وكيف أخذت الفكرة المثالية الجمهورية في الشحوب تلقاء الظروف العملية القـاهرة. فإنـه أعلن على الإيطاليين أن الفرنسيين إنما يقدمون لتحطيم أغلالهم – وكانوا عند قولهم!؟.. على أنه يكتب إلـى حكومة الإدارة يقول: "لسوف نجبي عشرين مليونًا من الفرنكات، نحتم على الأهالي دفعها في هـذه الـبلاد؛ فإنها من أغنى بلاد العالم". فأما جنوده فإنه خاطبهم بقوله: "إنكم جياع وتكادون تكونون عراة.. وإني لأقودكم إلى أخصب سهل في العالم. ولسوف تجدون هناك مدنًا عظيمة وولايات غنية وشرقًا ومجدا وثروة..".

ونحن البشر مفطورون لا جرم – على طبيعة مخاطة كهذه؛ بيد أن هذه الفقرات التي كتبها شاب فـي السابعة والعشرين، يلوح أنها تظهر الطلاء الذهبي المموه للمثالية العليا الشريفة وقد زال عنها ونصل في سن مبكرة تبكيرا غير عادي.

وكان نجاحه في إيطاليا زاكيا كاملاً. وكانت رغبته في الذهاب إلى إيطاليا راجعة إلى أنه كان يتوقع أن يجد فيها أشد الأعمال اجتذابا له؛ فخاطر بوظيفته في الجيش برفضه أن يقبل العمل المضني في قيادة حملة على العصاة في لافنديه. وكان قد أكب طويلاً على قراءة تراجم بلوتارك [1] والتاريخ الروماني، فكان خياله البالغ النشاط ملتهبا عند ذاك بالأحلام، أحلام انبعاث الفتوح الشرقية للإمبراطورية الرومانية. تخلص نابليون من جمهورية البندقية بأن مزقها بين فرنسا والنمسا، محتفظًا لفرنسا بالجزائر الأيونية والأسطول البندقي. وقد أثبتت الأيام فيما بعد أن هذا الصلح المسمى صلح كامبو فورميو كان صفقة خاسرة لكل من الطرفين. فقد اشتركت جمهورية فرنسا الجديدة في قتل جمهورية قديمة – وأنفذ نابليون رأيه مخالفًا بذلك صيحة سخط وإنكار تعالت في فرنسا – وحصلت النمسا على مقاطعة فينيتيا، وهي الأراضي التي قدر عليها في ١٩١٨ أن تنزف فيها حتى تموت. وكانت هناك كذلك فقرات سرية اتفقت فيها فرنسا والنمسا على الحصول فيما بعد على الأراضي الألمانية الجنوبية. ولم يكن الحلم بالتوسع الروماني نحو الشرق هو وحده الذي كان آنذاك يعمل عمله في عقل نابليون. فهذه هي أرض قيصر نفسها، وكان قيصر مثالاً سيئًا لذلك الجنرال الموفق في جمهورية غير وطيدة.

وكان قيصر قد عاد إلى روما من بلاد الغال بطلاً وفاتحا. فكان مقلده يريد أن يعود من مصر والهند مظفرا كذلك، ومن ثم تكون مصر والهند هي بلاد الغال بالنسبة إلى نابليون. وكانت عناصر الفشل تحملق بعينها في وجهه. إذ كان الطريق إلى مصر والهند بحريا، وكان البريطانيون بالرغم من حدوث تمردين بحريين قريبي العهد، أقوى منّة في البحر من الفرنسيين. زد على ذلك أن مصر كانت جزءا من الإمبراطورية العثمانية، ولم تكن هذه بأي حال دولة يستهان بها في تلك الأيام. ولكنه مع ذلك أقنع حكومة الإدارة، التي كانت بهرتها في إيطاليا أعماله العظيمة بالسماح له بالذهاب. وخرجت أرمادا [2] من طولون في مايو ١٧٩٨ واستولت على مالطة، ومن يمن طالعها أن تجنبت الأسطول البريطاني ووصلت إلى الإسكندرية. فأنزل جنوده على عجل، ولم تلبث معركة الأهرام أن جعلته سيدا على مصر.

وكان الأسطول البريطاني الرئيسي في ذلك الوقت في ظاهر المحيط الأطلسي قبالة قادس، ولكن أمير البحر كان أفرد قوة من خيرة سفنه، بقيادة الفيس أميرال نلسون – وهو نابغة عظيم في الشئون البحرية نبوغ نابليون في الأمور العسكرية البرية – أرسله ليتعقب العمارة الفرنسية الصغيرة وينازلها. وطفق نلسون حينًا من الزمان يبحث عن الأسطول الفرنسي بلا جدوى؛ حتى وجده أخيرا في مساء يوم أول أغسطس رأسيا في خليج "أبي قير " فأخذه على غرة؛ إذ كان كثير من الرجال على البر وكان ثمة مجلس منعقدا في سفينة القيادة. ولم تكن لديه خرائط، وكانت قيادة السفن في مياه ضحلة تحت أنوار الأصيل الكابية أمرا محفوفًا بالمخاطر. ومن ثم استنتج الأميرال الفرنسي أن البريطانيين لن يهاجموه قبل طلوع الصبح، ولذا لم يتعجل

---

[1] تراجم بلوتارك. وهو كاتب إغريقي ولد في خيرونيا، وكان يلقي المحاضرات بروما في عصر هادريان. وكتابه "التراجم المتماثلة" يتكون من أزواج متقابلة من سير القادة والسياسيين الإغريق والرومان تعقبها مقارنات بين كل اثنين. (المترجم).

[2] عمارة بحرية من سفن الحرب. (المترجم).

في استدعاء رجاله الموجودين على البر إلى سفنهم حتى فات الأوان. ومهما يكن من شيء، فإن نلسون أخذ يضرب من فوره مخالفًا بذلك نصيحة كثير من قواده. ولم تشحط منه إلا سفينة واحدة فقط. فدات بذلك بقية الأسطول على المنطقة الضحلة. وتحرك الأميرال بسفنه هاجما في خط مزدوج قرب غروب الشمس، فوضع الفرنسيين بين نارين. وأرخى الليل سدوله وقد التحم الطرفان في المعركة؛ وكان القتال يهدر ويهزم تحت جنح الظلام حتى أضاء المكان من فوره بلهيب السفن الفرنسية المحترقة، ثم بوميض سفينة القيادة الفرنسية الأورينت (L'orient). وقد انفجرت... ولم ينتصف الليل حتى كانت معركة النيل قد انتهت، وكان أسطول نابليون قد تدمر. وبذلك انقطع الطريق على نابليون إلى فرنسا.

ويقول هولاندروز نقلاً عن تيير Thiers، إن هذه الحملة المصرية كانت "أشد المحاولات التي سجلها التاريخ هوجا وتسرعا". فقد غودر نابليون في مصر والترك يتجمعون عليه والطاعون يفتك برجاله: ومع هذا فإنه استمر ردحا من الزمان يواصل القيام بهذه الخطة الشرقية. فأحرز في يافا نصرا، وإذ كانت تعوزه الميرة فإنه أعمل الذبح في كل أسراه. ثم حاول أن يستولي على عكا، حيث استعملت ضده مدفعية الحصار الخاصة به، وكان البريطانيون استولوا عليها في البحر قبل ذلك بزمن يسير. حتى إذا عاد إلى مصر خائب المسعى قد أسقط في يده، فإنه أحرز فوزا عظيما على جيش تركي عند أبي قير، ثم تخلى بعد ذلك عن جيشه في مصر – ولكن ذلك الجيش بقي يقاوم حتى عام ١٨٠١، حتى استسلم لقوة بريطانية – وفر نابليون بجلده إلى فرنسا ١٧٩٩، وقد نجا بأعجوبة من أن تأسره طرادة بريطانية بالقرب من صقلية.

ولقد لقي في هذه المشروع من الإخفاق ما يسقط كل ثقة بأي قائد – لو أن أمر ذلك الإخفاق عرف. بيد أن الطرادات البريطانية التي أوشكت أن تلقي عليه القبض هي التي أعانته على إخفاء خيبته إذ منعت تسرب أي علم بحقيقة الموقف في مصر إلى مسامع الشعب الفرنسي. فاستطاع أن يقيم ضجة عظيمة حول معركة أبي قير وأن يخفى فشله في عكا. ولم تكن الأمور في فرنسا في ذلك الحين على ما يرام. إذ منيت بالهزائم العسكرية في مواطن عدة؛ فضاع منها أكثر إيطاليا؛ وإيطاليا مما غرسته يدا بونابرت، فأدى هذا إلى اتجاه الأنظار إليه بوصفه المنقذ الطبيعي للموقف، هذا إلى أنه حدث الشيء الكثير من الاختلاس، وأن أخبار بعضها أخذت تتسرب إلى الناس. فكانت فرنسا في أحد أدوار فضائحها المالية، ولم يكن نابليون قد امتدت يده إلى أي مال، فكان الجمهور من ثم في تلك الحالة الكليلة حالة التعب المعنوي التي يطلب عندها الرجل القوي المتين، الرجل المدهش الفذ المستحيل المثال، الذي ينزل على قلب الأمة نزول البلسم والترياق، ويقوم بكل شيء لكل إنسان. وأخذ الناس يقذفون في روع أنفسهم أن هذا الفتى الحسن الظواهر ذا الوجه الجامد، الذي أعادته العناية الإلهية من مصر – إنما هو الرجل القوي الأمين المنشود – وأنه واشنجتون آخر.

واستجاب نابليون لمطالب زمانه وفي مؤخرة ذهنه صورة يوليوس قيصر أكثر منها صورة واشنجتون. ودبرت مؤامرة محكمة لاستبدال ثلاثة "قناصل" بحكومة الإدارة؛ يكون نابليون كبيرهم – وكأني بكل إنسان في ذلك الزمان يتلو أكثر مما ينبغي في صفحات التاريخ الروماني يقرأها ويستوعب ما فيها. والقيام بهذه المؤامرة عمل أعقد من أن يتسع له هذا المكان: وقد تضمن على طريقة كرومويل تشتيت المجلس الأدنى (أي

مجلس الخمسمائة)، وفي هذا الأمر فقد نابليون رباطة جأشه. فإن النواب صاحوا به ودفعوه، حتى ليلـوح أن الخوف داخله. فكاد أن يغمى عليه وأخذ يتمتم ويلجلج وأرتج عليه فلم يحر كلاما، ولكن أخاه لوسـيان أنقـذ الموقف، بأن استقدم الجنود وفَرقَ المجلس. على أن هذه الورطة الصغيرة لم تؤثر في نجاح الخطة النهـائي. ونزل القناصل الثلاثة في بناء قصر لوكسمبرج، ومعهم قوميسيران اثنان لإعادة وضع الدستور.

وأخذ نابليون يعمل حيال زميليه والقوميسيرين بمنتهى الجرأة والصلف بعد أن عادت إليه كـل ثقتـه بنفسه وبعد أن تحقق من نصرة الشعب له. وأنشئ دستور جعله الموظف التنفيذي الأكبـر ولقّبـه القنـصل الأول، وخوله سلطات هائلة. وكان لزاما أن يكون هو نابليون، إذ كان ذلك منـصوصا عليـه فـي صـلب الدستور. وكان على أن يعاد انتخابه أو يستبدل به غيره بعد انقضاء عشر سنوات. وكان علـى أن يـساعده مجلس الدولة، يعينه هو بنفسه، ويكون من حقه أن ينشئ التشريعات وأن يرسل مقترحاته إلى هيئتين، همـا الهيئة التشريعية (التي كانت تستطيع أن تعطي أصواتها في الموضوعات دون أن تناقشها) وهيئة التربيـون (The Tribunate) (وكانت تستطيع أن تناقش. المسائل دون أن تعطي فيها صوتًا)، وينتخب الهيئتين مجلس شيوخ أعضاؤه معينون من بين أفراد طبقة خاصة هي "ذوو المكانة" في فرنسا، الـذين كـان ينتخـبهم "ذوو المكانة في المديرية أو المحافظة" الذين كان ينتخبهم "ذوو المكانة في الكوميون" الذين كان ينتخبهم النـاخبون العاديون؟ وكان الاقتراع على انتخاب ذوي المكان في الكوميون حقًا مباحا للجميع. فكان هذا هـو المظهـر الوحيد للديمقراطية في هذا الهرم المذهل المحير!!....

وكان هذا الدستور في معظم أمره الثمرة المشتركة لفيلسوف جليل هو "سيايس Sieyes" (أحد القناصل الثلاثة) – بالاشتراك مع بونابرت. على أن فرنسا بلغ بها الإعياء من متاعبها وجهودها، وبلغ من ثقة الناس في فضيلة واقتدار هذا الرجل مبعوث المقادير، أنه عندما حدث في مستهل القرن التاسع عشر أن قـدم هـذا الدستور إلى البلاد أقره ٣,٠١١,٠٠٧ صوتًا ضد ١٥٦٢. لقد وضعت فرنسا نفسها بين يدي بونابرت وضعا مطلقًا وأعدت العدة لأن تعيش في سلام وسعادة ومجد.

٣- نابليون قنصلاً أول ١٧٩٩ – ١٨٠٤

وليس هناك من وجه للشك في أنه سنحت هنا فرصة لم تسنح قط لرجل في العالم من قبل. فهنا منصب قد يتقوس له ظهر أي امرئ إشفاقًا من نفسه على نفسه، وأن يبحث في زوايا قلبه، وأن يخدم ا والإنسان بأقصى مستطاعه. إن النظام القديم قد قضى أو كاد؛ وأخذت قوى عجيبة جديدة تندفع في أرجاء العالم تبحث عن شكل تصوغ فيه نفسها وقائد يوجهها. وكان الوعد المنتظر والأمل المعقود بجمهورية عالمية وبسلام عالمي دائم يداعبان أفئدة جمهور غفير من ذوي الأذهان المنزعجة. وكانت فرنسا بين يديه، وكانت أداة طيعة له يفعل بها ما يشاء، وهي أرغب ما تكون في السلام، غير أنها شاحذة للحرب شحوذ مهند ممتاز. ولم يكن يعوز هذه الفرصة العظيمة إلا الخيال النبيل. وإذ فات نابليون ذلك فإنه لم يكن ليستطيع إلا أن يتبختر بخيلاء على قمة جبل النهزات ذاك العظيم، كما يتبختر الديك الفرخ فوق تل من الروث. فإن الشخصية التي يكونها لنفسه في التاريخ شخصية بها ما لا يكاد يصدقه عقل من الغرور بالنفس والاحتقار الوقاح لكل من وثقوا به وعدم الاكتراث بهم. وجنون عظمة يقلد به قيصر والإسكندر وشرلمان تقليد القردة، ولولا أنه مخضب بالدماء الإنسانية الزكية لكان مبعث السخرية والاستهزاء. حتى "جاء" كما يقول فكتور هوجو بطريقته الهائلة "يوم ضاق فيه ا به ذرعا"، فقذف به ركلاً بالأرجل ليختم أيامه في ركن منعزل يشرح ويشرح كم كانت أشنع أخطائه مسرحا للذكاء والمهارة وهو يتربص في أرجاء جزيرته الحارة الموحشة متصيدا الطيور ويتشاجر شجارا وضيعا مع سجان منحط التربية لم يكن يوليه "الاحترام" اللائق.

ولعل عمله كقنصل أول أقل أدوار حياته معرة. فإنه تناول في يده الشئون العسكرية التي تقوضت أثناء حكم الإدارة. وبعد حملة معقدة في شمال إيطاليا، بلغ بالأمور إلى نصر حاسم عند مارينجو قرب اليساندريا في (١٨٠٠). وكان نصرا قارب في بعض أوقاته أن يكون كارثة كبيرة. وفي ديسمبر من السنة نفسها أوقع الجنرال مورو (Moreau) هزيمة ساحقة منكرة بالجيش النمسوي قرب هوهنليندن، في ظروف تكنفته فيها عوامل الثلج والوحل والجو الفظيع الرهيب فلو أن نابليون فاز بهذه المعركة لاحتسبت من بين أبرز مآثره وأعلاها كعبا. وبهذه الأمور صار السلم المرجو أمر ممكناً. وفي ١٨٠١ تم التوقيع على الخطوة الأولى الممهدة للصلح مع إنجلترة والنمسا. وانتهى الصلح مع إنجلترة بمعاهدة أميان في سنة ١٨٠٢. وصار نابليون مطلق اليدين يستطيع أن يتفرغ لفن السياسة والتدبير الخلاق المبتدع الذي كانت فرنسا – وأوربا بأجمعها من وراء فرنسا – في أشد الحاجة إليه. لقد أتاحت الحرب لفرنسا أن تمد رقعة أرضها وتوسع حدودها، وبمقتضى المعاهدة مع إنجلترة استرجعت فرنسا إمبراطوريتها في المستعمرات وأصبحت في حالة أمن تتجاوز أقصى ما كان يحلم به الملك لويس الرابع عشر. وكان الباب مفتوحا أمام نابليون لكي ينتج ويدعم نظام الأمور ويصنع دولة عصرية تكون نبراسا ومصدر وحي وإلهام على كل أوربا والعالم قاطبة.

على أنه لم يحاول أن يعمل شيئًا من هذا القبيل. إذ كان خياله الهزيل المقلد مليئًا بحلم أن يكون هو قيصر من جديد. فكان يدبر الخطط لجعل نفسه إمبراطورا حقيقيا، يضع على رأسه التاج ويجعل منافسيه وزملاءه في المدرسة وأصدقاءه عند موطيء قدميه. ولم يكن هذا ليمنحه أية قوة جديدة ليست في يديه حتى

آنذاك، على أن ذلك يكون شيئًا أعظم أبهة وأشد فخامة، يكون شيئًا يدهش أمه. فيا لها من استجابة يستجيب بها رأس من هذا النوع للتحدي الرائع الخلاق في ذلك الزمان؟!!.

ولكن لا بد أن تدرج فرنسا قبل كل شيء في مدارج الرخاء. إذ من المحقق أن فرنسا الجائعة لا تطيق وجود إمبراطور. فنصب نفسه لتنفيذ مشروع قديم للطرق كان لويس الخامس عشر أقره؛ وأنشأ الترع تقليدا منه للترع الإنجليزية؛ ثم أعاد تنظيم البوليس ووطد شئون الأمن في البلاد. وتمهيدا لمشهد درامته الشخصية، نصب نفسه لجعل باريس تبدو في شكل روما بمالها من عقود كلاسيكية وعمد كلاسيكية. ونشأت في تنظيم البنوك خطط جديدة تستدعي الإعجاب، فاستعملها. وكان في كل هذه الأمور مسايرا لزمانه؛ فإنها أمور كانت لا بد آتية مع قدر من الاستبداد أقل وقدر من التمركز أضأل، ولو لم يولد نابليون قط. ونصب نفسه لإضعاف الجمهوريين الذين كان يدبر الخطط للعدوان على معتقداتهم الجوهرية. فسمح بعودة المهاجرين على شريطة أن يقدموا التوكيدات المرضية على احترام النظام الجديد. وكان منهم كثير يرغبون أشد الرغبة في العودة على مثل تلك الشروط وأن يدعوا آل بوربون وشأنهم ويعدوهم في خبر كان. ثم توصل إلى صلح عظيم أبرم به "ميثاقًا Concordat" مع روما. تعهدت به أن تناصره وتعهد أن يعيد سلطانها في الأبروشيات. إذ كان يرى أن فرنسا لا يمكن أن تكون طيعة سلسلة القياد، وأنها لن تستطيع أن تطيق ملكية جديدة من غير الدين. قال: "كيف تستطيع أن تجد في دولة نظاما من غير الدين؟ فالجماعة الإنسانية لا تستطيع أن تعيش من غير التفاوت في الثراء، الأمر الذي لا يمكن أن تقوم له قائمة مستديمة بمعزل عن الديانة. فعندما يوشك أحد الرجال أن يقضي نحبه جوعا إلى جوار آخر مريض بالكظة والبشم، فإنه لا يستطيع أن يرضى بهذا الفارق ما لم تكن هناك سلطة تعلن أن ا إنما يريد ذلك كذلك؛ ولا بد للعالم من أن يحوي الفقير والغني؛ ولكن تقسيم الأشياء في العالم الآخر وفي كل الأبدية الخالدة سيكون على أساس مخالف". وكانت الديانة في رأيه وبخاصة الديانة من الصنف الكاثوليكي المتأخر، مادة ممتازة يستطاع بها تسكين العامة. وكان في أيامه اليعقوبية الأولى قد طعن في الدين لنفس ذلك السبب.

وثمة عمل جليل آخر يدل على مجال خياله وتقديره للطبيعة الإنسانية وذلك هو نظام "جوقة الشرف Legion of Honour"، وهي خطة للإنعام على الفرنسيين بقطع من الشريط، خطة دبرت تدبيرا محكما معجبا بقصد تحويل نظر ذوي الطموح من الرجال عن القيام بتصرفات هدامة.

كذلك اهتم نابليون بالدعاية المسيحية. وها هي ذي فكرة نابليون عن فوائد المسيح السياسية، وهي فكرة تلطخت بها كل البعثات الدينية الفرنسية منذ ذلك الحين. قال: "قد اتجهت رغبتي إلى إعادة إنشاء مؤسسة الإرساليات التبشيرية الأجنبية؛ إذ إن المبشرين الدينيين ربما كانوا ذوي نفع كبير إلى آسيا وإفريقيا وأمريكا، وذلك أني سأكلفهم بتعرف كل الأراضي التي يزورونها. ولن تقف قداسة ثيابهم عند حد حمايتهم بل سوف تخفي وراءها أبحاثهم السياسية والتجارية. ولن تكون روما بعد اليوم مستقر رئاسة مؤسسة المرسلين، بل باريس".

ألا ترى في هذا فكرات تاجر لص لا فكرات رجل دولة؟ وعلاجه لمسألة التعليم يظهر في وضوح عمايته عن حقائق الفجر الجديد المنبثق من حوله. فأما التعليم الأولي فإنه أهمله إهمالاً يكاد يكون تاما؛ فتركه لضمير السلطات المحلية، كذلك قرر أن المعلمين يجب أن تدفع رواتبهم من مصروفات التلاميذ؛ وواضح أنه لم يكن يرغب في أن يتعلم عامة الناس العلم؛ إذ لم تكن لديه أية بارقة إدراك ولو خاطفة عن السبب الذي من أجله يجب أن يتعلموا؛ ولكنه كان يهتم بتزويد المدارس الفنية والعليا بالمال، لأن دولته كانت في حاجة إلى خدمات رجال أذكياء واسعي الإطلاع يسعون وراء مصالحهم الذاتية. وكان هذا تراجعا يبعث الذهول، عن الخطة العظيمة التي كتب مسودتها للجمهورية كوندورسيه [1] في ١٧٩٢، محبذًا إقامة نظام كامل من التعليم المجاني للشعب بأكمله. وتحقق الأيام في بطء ولكن بثبات واستمرار مشروع كوندورسيه؛ فإن الأمم العظيمة في العالم تضطر أن تضعه موضع التنفيذ والتحقيق رويدا رويدا، وتخرج وسائل نابليون من نطاق اهتمامنا. أما تعليم زوجات وأمهات جنسنا فدونكم حكمة نابليون فيه: "لست ممن يعتقدون أن بنا حاجة إلى أن نتعب أنفسنا بعمل خطة لتعليم الإناث الصغيرات، فليس في المستطاع أن يربيهن أحد خيرا من أمهاتهن. وليس التعليم العام مناسبا لهن؛ لأنهن لا يطلبن قط للعمل العام، وإنما الأخلاق هي الكل في الكل لهن، والزواج كل غايتهن".

ولم يكن القنصل الأول أعطف على النساء في قوانين نابليون (Code Napoléon). إذ لم يكن يباح للزوجة مثلاً أن تتصرف في أملاكها؛ بل كانت (أي الزوجة) في يد زوجها. وكان هذا القانون في معظمه من عمل مجلس الدولة. ويلوح أن نابليون كان يعطل مناقشات ذلك المجلس ويعتاقها أكثر مما يساعدها. وإنه ليجتاح الجلسات غازيا بلا سابق إخطار، ويتكرم على أعضائه بإلقاء محاضرات طويلة مسهبة، كثيرا ما كانت تخرج عن الموضوع قيد الدرس خروجا تاما. وكان المجلس يستمع إليه باحترام عميق؛ إذ كان ذلك هو كل ما يستطيع المجلس أن يفعله. وإنه ليستبقي مستشاريه إلى ساعات متأخرة من الليل؛ مخالفة لكل معقول، ويظهر افتخارا ساذجا بقدرته الفائقة على السهر. وقد تذكّر تلك المناقشات بارتياح عجيب إبان سنيه الأخيرة، ولاحظ في إحدى المناسبات أن مجده وفخاره لا يقوم على كسبه أربعين معركة بل على إنشائه قانون نابليون... وكان قانونه هذا شيئًا حسنًا، بقدر ما ذهب بالمعميات القانونية العسيرة القديمة، وأحل محلها الواضح البين من البيانات، فإنه جمع شتات مجموعة هائلة غير منتظمة من القوانين القديمة والجديدة ثم نقحها ووضحها، والقانون شأن كل عمل الإنشائي، كان يهدف إلى الكفاية المباشرة، فإنه وضع التعاريف للأشياء والعلاقات، حتى يشرع الناس في العمل عليها بلا مناقشة جديدة. ومما يقلل من أهميته المباشرة العملية أنه كثيرا ما كان يعرف تلك الأشياء تعريفًا خاطئًا. ولم يكن وراء عملية التقنين هذه أية قوة ذهنية

---

[1] كوندورسيه (١٧٤٣ – ١٧٩٤): فيلسوف ورجل دولة فرنسي. اشترك في إنشاء الموسوعة وأكسبته مقالته في نظرية الإمكانيات شهرة واسعة، انضم إلى الثورة وانتخب عضوا في الجمعية التشريعية (١٧٩١ – ١٧٩٢)، وكانت خطته التي كتبها عن واجب الدولة في التعليم أساسا لخطة فرنسا التعليمية. عارض وإن كان من رجال الثورة في قتل الملك، فأهدر دمه. ولما قبض عليه في النهاية وجد ميتًا، ولعله تجرع السم. (المترجم).

تنهض كشيء متميز عن النشاط الذهني. إذ إنها سلمت بكل شيء قائم: "إن جلالته لا يعتقد إلا في الموجود"[1]. والواقع أن الفكرات الجوهرية الأساسية للمجتمع الممدن، وقواعد التعاون الإنساني كانت تمر في مرحلة إعادة تشكيل قطبها ومدارها نابليون – ولكنه لم يشعر بذلك الأمر أبدا. وكل ما فعله أنه قبل دورا من أدوار التغير. وحاول أنه يثبته إلى الأبد. ولا تزال فرنسا إلى يومنا هذا مقَمطَةً مشدودة الوثاق بهذا الصديري الضيق الذي يرجع به العهد إلى أوائل القرن التاسع عشر، والذي حشرها فيه نابليون. ذلك بأنه ثبت أحوال النساء وثبت أحوال العمال وأحوال الفلاحين، ولا يزالون جميعا يكافحون إلى يومنا هذا بين خيوط شبكة تعريفاته الجامدة. وتقدم نابليون في نشاط وقوة فنصب ذهنه الجامد الصافي الضيق الأفق لكي يستنهض قوة فرنسا ويشد من عزمها. ولم يكن ذلك الاستنهاض إلا جزءا من الخطط الأعظم شمولاً التي كانت تملأ جوانب نفسه وتتسلط عليها. فقد اتجه خياله اتجاه الإصرار والعزم إلى "قيصرية Caesarism" جديدة. وفي ١٨٠٢ جعلهم يعينونه قنصلاً أول مدى الحياة مع إعطائه حق تعيين خلف له، وترتب على مراميه الواضحة إلى إلحاق هولندة وإيطاليا بفرنسا بالرغم من التزاماته في المعاهدات بأن يتركهما منفصلتين، أن أخذت معاهدة أميان تترنح ترنحا شديدا منذ البداية بذاتها. ولما كان من الضروري أن تثير عليه خططه حربا مع إنجلترة، فقد كان يجدر به أن يتريث بأي ثمن حتى يرتفع ببحريته إلى حد التفوق على البحرية البريطانية. فإنه كان مطلق اليد يتحكم في موارد عظيمة لبناء السفن، وكانت الحكومة البريطانية حكومة واهنة، وكانت سنوات ثلاث أو أربع كفيلة بتحويل كفة الميزان. ولكنه بالرغم مما لقي في مصر من تجربة شاقة قاسية، لم يدرك قط أهمية القوة البحرية. وفي ١٨٠٣ عجل احتلاله لسويسرا بالأزمة؛ ونشبت الحرب من جديد مع إنجلترة. فقد حدث أن الوزير الضعيف أدينجتون أخلى مكانه في إنجلترة لوليم بت الأعظم منه مقدرة. ومنذ تلك الساعة أصبحت بقية قصة نابليون تدور حول تلك الحرب.

وقد ظل القنصل الأول أثناء مدة القنصلية يعمل ناشطًا على زيادة ثروات إخوته وأخواته. وهو أمر يتصل إلى النفس البشرية بسبب قوي ويمت إلى حب العشيرة وإلى المزاج الكورسيكي كما أنه ينفعنا في أن نفهم بالضبط كيف كان الرجل يقدر منصبه والنهزات الماثلة بين يديه. وهناك عامل ضخم في تكوين نابليون هو الرغبة في أن يذهل ويدهش ويروع أذهان آل بونابرت وجيرانهم ويخضعها لسلطانه. فكان يرقي إخوته بشكل يثير الضحك إذ إنهم كانوا رجالاً عاديين جدا ولكن شخصا واحدا كان يعرفه حق المعرفة لم تخالجه الدهشة ولا داخلته الروعة ولا الخضوع. وكان ذلك الشخص هو أمه. كان يرسل إليها المال لتنفقه وتدهش به جيرانها؛ وكان يحضها على أن تتخذ لنفسها مظهرا عظيما، وأن تعيش العيش الذي يتناسب وأم مثل هذا الابن العجيب الذي يهز العالم هزا.

غير أن السيدة الوقور التي قرعت بالمقرعة رجل الأقدار وهو في سن السادسة عشرة، لأنه لعب وجهه لجدته، لم تنبهر ولم تنخدع له عند سن الثانية والثلاثين، قد تستطيع فرنسا كلها أن تعبده ولكن الأم لم

---

[1] من اقتباس لهولاند روز عن جورجو: " .Sa Majesté ne croit que ce qui est".

يساورها أي وهم خادع من قبله فكانت تضع النقود التي يرسلها جانبا؛ وتواصل المـضي علـى اقتـصادها المعتاد. قالت: "عندما ينتهي كل شيء سيكون ادخاري هذا موضع سرورك".

٤- نابليون الأول إمبراطورا (١٨٠٤ – ١٨١٤)

لن نفصل لك القول في الخطوات التي غدا بها نابليون إمبراطورا. وكان تتويجه ابتعاثًا للقديم هو أشد ما قد يتصوره العقل من ابتعاث القديم خرقًا للمعتاد. ولم يعد قيصر هو نموذجه المحتذى؛ بل كان نابليون عند ذاك هو شرلمان. فإنه توج إمبراطورا، حقًا إنه لم يتوج في روما، بل في كاتدرائية نوتردام بباريس، واستحضر البابا بيوس السابع من روما للقيام بطقوس الاحتفال؛ ولما بلغ الأمر أوجه أخذ نابليون الأول التاج بيده ودفع البابا جانبا، وتوج نفسه بنفسه. وبذلك تكون نصيحة شرلمان للويس [1] قد آتت آخر الدهر ثمارها. وفي سنة (١٨٠٦) ابتعث نابليون قطعة أخرى وقورة من الماضي السحيق، إذ إنه لما كان ما يزال يتعقب خطى شرلمان، فإنه توج نفسه بتاج لومباردي الحديدي في كاتدرائية ميلان. وعندئذ صار لزاما على الجمهوريات بنات فرنسا الأربع أن يصبحن ممالك: ففي ١٨٠٦ نصب الأخ لويس في هولندة والأخ جوزيف في نابلولي. على أن قصة الممالك التابعة التي خلقها في أوربا، قصة أعقد وأقصر عمرا من أن تتحملها هذه المعالم، وإن كان هذا العبث بالحدود عونًا على ما تلا ذلك من توحيد إيطاليا وألمانيا.

ولم يعمر هذا الحلف الذي تم بين شرلمان الجديد وليو الجديد، زمنًا طويلاً جدا. ففي ١٨٠٧ شرع يتحدي البابا ويضغط عليه. وفي ١٨١١ جعل منه أسيرا مضيقًا عليه في فونتنبلو. ولا يبدو أن هذه الإجراءات تنطوي على حكمة كبيرة. فإنها نفرت منه الرأي العام الكاثوليكي، كما نفر منه تتويجه الرأي العام المتحرر. وبذلك كف عن أن يكون نصيرا وممثلاً للقديم والجديد على السواء. فأما الجديد فقد خان، وأما القديم فقد فشل في اكتسابه. وأخيرا لم يعد يمثل أحدا إلا نفسه.

ويبدو أن سياسته الخارجية لم تكن تنطوي إلا على مثل ذلك القدر الضئيل من التعقل؛ فإنها زجت آنذاك أوربا في غمرة دورة جديدة من دورات الحرب. ولما كان قد اختلف مع بريطانيا العظمى في أوان مبكر جدا فإنه حشد جيشًا عرمرما في بولونية (Boulogne) ليغزو به إنجلترة، غير ناظر إلى الموقف البحري. بل لقد بلغ به الأمر أن صك مدالية وأقام عمودا في بولونية تخليدا لذكرى نصره في غزوته المنتظرة. وكان دبر بطريقة نابليونية محضة أن يخدع الأسطول البريطاني ويستدرجه بعيدا، وأن يهرب جيش بولونيه ذاك غير مضيق المانش على أسطول صغير من الأرماث والزوارق، وأن تؤخذ لندن قبل أن يعود الأسطول. وفي نفس الوقت اضطرت النمسا والروسيا إزاء اعتداءاته في جنوب ألمانيا، إلى عقد تحالف وطيد مع بريطانيا ضده. وفي ١٨٠٥ وقعت ضربتان قاتلتان على كل أمل له في النصر النهائي، أنزلهما به أميرا البحر البريطانيان كالدر ونلسون. فإن الأول أنزل في يوليه هزيمة منكرة بالأسطول الفرنسي في خليج بسكي؛ وفي أكتوبر دمر الثاني أسطول فرنسا وإسبانيا المشترك في معركة الطرف الأغر. ومات نلسون ميتة رائعة وهو مظفر فوق سفينته "النصر". ومنذ تلك اللحظة استحكم العداء مريرا بين نابليون وبريطانيا، وهي

---

[1] هو لويس الورع ابن شرلمان. انظر المعالم ص ٨٥٤ ج٣ ط٢. (المترجم).

في منعة لا تستطيع أن يصل إليها ولا أن يقهرها، بينما كانت هي تستطيع أن تضربه هنـا أو هنـاك علـى امتداد كل شواطئ أوربا.

وتكتم نابليون الخبر وأخفى أنباء ذلك الجرح القاتل الذي أصابه في "الطرف الأغر" بضع سنوات عـن مسامع الفرنسيين. وكل ما سمعوه هو أن "العواصف قد سببت لنا خسارة بعض السفن الحربيـة بعـد قتـال أخرق". وبعد انتصار كالدر سحب نابليون جيشه من مدينة بولونية على عجل، واندفع به عبر أوربا وهـزم النمسويين في "أولم" "وأوسترلتز". ودخلت بروسيا الحرب ضده في هذه الظروف المشئومة. فهزمت هزيمـة تامة وحطمت قواها في معركة يينا (Jena) (١٨٠٦). ومع أن النمسا وبروسيا قد كسرتا فإن الروسيا كانت لا تزال قوة مقاتلة، وخصصت السنة التالية لذلك الخصم الأصعب مراسا، الأبعد منالا، الأعسر مدخلاً. ولسنا بقادرين أن نتعقب في أي تفصيل صعوبات الحملة البولندية على الروسيا، ولقي نابليون شرا كبيرا في بلْتَسك – التي أُعلن في باريس أنها نصر عظيم – وكذلك لقي مثل هذا الشر في إيلاو (Eylau). ثم دحر الـروس في فريد لاند ١٨٠٧. ولم يكن حتى ذاك الوقت قد مس الأرض الروسية بقدمه، وكان الروسيون لا يزالـون غير مقهورين كالبريطانيين سواء بسواء؛ ولكن سنحت عند ذلك لنابليون بارقة عجيبة من الحظ الحسن. فإنه استطاع بواسطة خليط من التفاخر والخداع والمداهنة، أن يضم إلى جانبه قيصر الروسيا الـشاب الطمـوح إسكندر الأول – إذ كان سنه لا يتجاوز الثلاثين – وأن يحمله على عقد تحالف معه. وتلاقى الإمبراطـوران على عوامة في وسط نهر النيمن قرب تِلْسِت (Tilsit). حيث تفاهما.

وكان الإسكندر تشرب بالشيء الكثير من النزعة التحررية أثناء تلقيه العلم في بلاط كـاترين الثانيـة. وكان يناصر بكل قواه الحرية والتعليم ونظام العالم الجديد – شريطة خضوعها لاستعلائه هـو. قـال أحـد خلطائه في مستهل شبابه "إنه يسره أن يرى كل إنسان حرا، على شريطة أن يكون كل إنسان مستعدا أن يفعل بحرية ما يريده بالضبط". وقد أعلن أنه مستعد أن يلغي نظام " موالي الأرض Serfdom" وإن كلفـه ذلـك رأسه ثمنًا – لو حدث فقط أن تقدمت نتيجة لذلك أسباب الحضارة. وقال إنه يخوض الحرب مع فرنسا لكـي يحرر الشعب الفرنسي – لأن نابليون كان طاغية مستبدا. وبعد معركة فريد لاند أخذ يبصر نـابليون تحـت ضياء جديد. تلاقى هذان الرجلان بعد تلك الهزيمة بأحد عشر يوما، وكان الإسكندر يمر ولا ريب في حالـة من التعظيم التبريري الموافق لطبيعة أبناء طرازه حين يكونون في حالة مزاجية من التغير.

ولا بد أن المقابلة كانت مرضية تمام الإرضاء لنابليون. فقد كان ذلك أول لقاء له مع أحـد الأبـاطرة على أساس من التكافؤ. وحلق في الجو خيالان من فوق ظهر تلك العوامة في تلستْ. قال الإسكندر: "ما هي أوربا؟ إنما نحن أوربا". تناقشا في شئون بروسيا والنمسا متأثرين بهذه الروح، وتقاسما تركيا مقدما، ودبـرا أمر غزو بلاد الهند، بل الواقع أنهما دبرا غزو معظم آسيا وأن تأخذ الروسيا فنلندة من السويديين؛ على أنهما أغفلا تلك الحقيقة المرة وهي أن القسم الأكبر من العالم مكون من بحر، وأن الأسطول البريطاني كان عنـد ذاك يبسط قلوعه في البحار غير منازع. وكانت بولندة قاب قوسين أو أدنى، وهي على أتم استعداد لأن تثور وتكون حليف فرنسا المتحمس لو أن نابليون رغب قط في هذا. على أنه كان عن بولندة في عماية تامة. كان

يومه يوم رؤى لا رؤية فيه. وقد أخفى نابليون في نفسه فيما يبدو حتى في ذلك اليوم، تلك الفكرة الجريئة بأن يتزوج يوما ما أميرة روسية، أميرة حقيقية. على أنه ما لبث حتى تعلم بعد ذلك في ١٨١٠ – أن في هذا تجاوز لحدوده بعض الشيء...

وحدث بعد تلْست تقوض ملحوظ في صفات نابليون؛ فإنه أصبح أكثر اندفاعا وأقل صبرا على العقبات، واشتد به استبداد فكرة سيد العالم الذي هيأته الأقدار، وتزايدت مضايقته لكل من لقيه. وفي (١٨٠٨) ارتكب غلطة خطيرة جدا. فإن إسبانيا كانت حليفه الذليل، وكانت تحت مطلق تصرفه تماما، ولكنه رأى من المناسب أن يخلع ملكها البوربوني لكي يرقي إلى عرشه أخاه جوزيف من عرش الصقليتين [1]. وقد أتم فتح البرتغال من قبل على نية أن يوحد تحت تاج أخيه كلا من المملكتين البرتغالية والإسبانية. ومن ثم ثار الإسبان عليه في حنق وطني متأجج، وأحاطوا بجيش فرنسي في بايلن، وأجبروه على التسليم. وكان ذلك ثلمة مدهشة في سيرة النصر الفرنسي المتواصل.

ولم يتباطأ البريطانيون عن التقاط موطئ القدم الذي أتاحته لهم تلك الثورة. فقد نزل في أرض البرتغال جيش بريطاني بقيادة السر آرثر ولزلي (المسمى بعد ذلك باسم الدوق ولينجتون) وهزم الفرنسيين في فيميرو، وأجبرهم على الانسحاب إلى إسبانيا. وأثارت أخبار هذه الهزائم هياجا عظيما جدا في الخواطر في ألمانيا والنمسا، وعاد القيصر فأظهر إزاء حليفه قدرا أكبر من الغطرسة.

ثم تمت مقابلة أخرى بين هذين العاهلين في "إرفورت Erfurt"، كان فيها القيصر أقل تأثرا وانبهارا بخطط نابليون الوهاجة، وأعقبت ذلك أربع سنوات قضتها فرنسا في رفعة مقَلْقَلةٍ غير ثابتة، على حين كانت الحدود ترفرف على خريطة أوربا فرقة الثياب على حبل الغسيل في يوم رائح. ونمت إمبراطورية نابليون الشخصية بما ألحق بها صراحة من أقطار، حتى تضمنت هولندة وشطرا كبيرا من ألمانيا الغربية وكثيرا من إيطاليا وكثيرا من الشاطئ الأدرياتي الشرقي. ولكن المستعمرات الفرنسية كانت تسقط في أيدي البريطانيين واحدة تلو الأخرى، وأخذت الجيوش البريطانية في شبه الجزيرة الإسبانية تدفع بالفرنسيين في بطء نحو الشمال يساعدها في ذلك المتطوعون الإسبان. وكانت أوربا بأجمعها قد أخذت تمل نابليون أشد الملل؛ ولم يعد خصومه عند ذلك مجرد الملوك والوزراء، بل شعوبا بأكملها كذلك. وكان البروسيون بعد كارثة "يينا Jena" في ١٨٠٦ قد هبوا للعمل على تنظيم بيتهم. فإنهم قاموا بقيادة الفرايهر فون شتين واطرحوا نظامهم الإقطاعي جانبا، وألغوا الامتيازات ونظام موالي الأرض، ونظموا التعليم الشعبي، والوطنية الشعبية، وأتموا تقريبا – وكان هذا في واقع الأمر بلا نزاع داخلي – كل شيء حصلت عليه فرنسا في ١٧٨٩. ولما وافت ١٨١٠ كانت هناك بروسيا جديدة، هي النواة لألمانيا الجديدة. وعند ذلك أخذ الإسكندر وقد قُذفت في روعه فيما يبدو أحلام السيادة العالمية – يتخذ من جديد وضع صديق الحرية. وفي ١٨١٠ حدث احتكاك جديد بسبب اعتراض الإسكندر على مطامع نابليون في الزواج. ذلك أن نابليون كان قد أخذ عند ذلك بأسباب الطلاق من معينته القديمة جوزفين، لأنها لم تعقب ولدا يضمن استمرار الملك في أسرته. والآن وقد أبيت

---

[1] الصقليتين: مملكة كانت تتكون من صقلية وجنوبي إيطاليا (نابولي). (المترجم).

على نابليون أميرة روسية بل الواقع أن الإسكندر حقره وذكره ببضعة مولده، فإنه اتجه شطر النمسا وتـزوج الأرشيدوقة ماري لويز. ذلك أن رجال السياسة النمسويين قرأوه قراءة صادقة. وكانوا على أشـد الاسـتعداد لإلقاء أميرتهم إليه. وبهذا الزواج أوقع نابليون نفسه في أيديهم من أجل نظام الأسرة المالكـة. وربمـا كـان يستطيع أن يكون مكون عالم جديد، ولكنه آثر أن يكون صهرا للعالم القديم.

وفي السنتين التاليتين داخل الوهن والانحطاط شئونه. فلم يعد بعد قائد الثورة ومكمل ما فاتها؛ ولم يعد بعد ذلك هو الروح المجسد لعالم مولود من جديد؛ بل كان مجرد صنف جديد من أصناف الأوتوقراطي أشـد فجاجة. وقد باعد ما بينه وبين كل ذوي النفوس الحرة من الرجال، كما استدعى عداوة الكنيسة لـه. فكـان الملوك واليعاقبة فيه على رأي واحد متفق ضده عندما بلغ الرأي حد القضاء عليه. وكانت بريطانيا عند ذلك هي خصمه اللدود، على حين كانت تتأجج في إسبانيا روح لا بد أنها ميسورة الفهم لكل كورسيكي؛ ولم يكن الأمر بحاجة إلا إلى شيء واحد هو الانفصال عن الإسكندر الأول لكي تدفع هذه الإمبراطورية إمبراطوريـة الخداع والمناظر المسرحية دفعا يعثرها ويسقطها. وجاء الخلاف. وكانت مشاعر الإسكندر نحو نابليون على الدوام مبهمة مخلطة جدا، فإنه كان يحسد نابليون بوصفه منافسا ويحتقره بوصفه عصاميا وضيع المنبت. زد على ذلك أن الإسكندر كان يكتنفه نوع من العظمة المبهمة العاطفية؛ وقد غلبت عليه نزعة تـدين صـوفية، وأخذت تساوره فكرة رسالة تدعوه والروسيا معا إلى اجتلاب السلام إلى العالم بتحطـيم نـابليون. علـى أن اجتلاب السلام إلى أوربا، لم يكن يتناقض في رأيه مطلقًا مع ضم بولندة إليـه؛ واسـتلحاقه معظـم بولنـدة واستيلائه على أجزاء عظيمة من الإمبراطورية التركية!؟ وكان يرغب بوجه خاص أن يعيد التجـارة مـع بريطانيا، التي كان نابليون مصِرا على انقطاعها. وذك أن تجارة ألمانيا جمعاء تقلقلت، وأن طبقات التجـار الألمان كانت في غيظ شديد من "النظام القاري النابليوني"، الذي يرمي إلى القضاء على بريطانيا بطرد كـل البضائع البريطانية من أقطار أوربا أجمع. وكابدت الروسيا من جراء ذلك عناء كثيرا ولعلها قاست أكثر من ألمانيا.

وجاء الشقاق في ١٨١١، عندما انسحب الإسكندر من "النظام القاري". وفي ١٨١٢ اجتمعـت جمـوع هائلة من الجنود تبلغ في مجموعها ٦٠٠,٠٠٠ مقاتل، وأخذت تتحرك نحو الروسـيا تحـت القيـادة العليـا للإمبراطور الجديد. وكان نصف هذه القوة تقريبا من الفرنسيين على حين جمع الباقون من حلفـاء فرنـسا والشعوب الخاضعة لها. كان جيشًا مخلطًا أشبه شيء بجيش دارا أو جيش قباذ. وكانت الحرب الإسـبانية لا تزال على قدم؛ ولم يقم نابليون بأي جهد لإنهائها. وقد اقتطعت من فرنسا قوة يبلغ مجموعهـا ربـع مليـون رجل. فشق طريقه مقاتلاً عبر بولندة والروسيا إلى موسكو قبل حلول الشتاء – وظلـت الجيـوش الروسـية تمتنع في جل شأنها عن قتاله – وأصبح مركزه خطرا خطورة واضحة حتى قبل أن يطبـق عليـه الـشتاء. فاستولى على موسكو متوقعا أن يضطر ذلك الإسكندر إلى عقد الصلح. ولكن الإسكندر لم يرغب فـي عقـد الصلح، ووجد نابليون نفسه في مركز هو أشبه شيء بمركز دارا في جنوب الروسـيا، قبـل ذلـك بـألفين وثلاثمائة من السنين. وكان الروسيون وهم ما يزالون بعد غير مغلوبين يهاجمون مواصلاته ويفنون أفـراد جيشه – يساعدهم في ذلك المرض، فهلك من رجاله خمسة عشر ألفًا حتى قبل أن يصل إلى موسكو. ولكـن

كانت تعوزه حكمة دارا فلم يرغب في التقهقر. وظل الشتاء معتدلا مدة طويلة طولا غير عادي – فكان في مقدوره أن ينجو. ولكنه بدلاً من ذلك أقام في موسكو يدبر الخطط المستحيلة. فقد كان قبل ذاك سعيد الحظ سعادة عجيبة في كل مقامراته السابقة مع القدر؛ وقد نجا من مصر نجاة لا يستحقها، وأنقذه من التحطيم في بريطانيا الانتصارات البحرية البريطانية؛ ولكن ها هو ذا قد وقع في الفخ مرة أخرى، وما كان لينجو هذه المرة. ولعله كان يبغي أن يقضي الشتاء في موسكو، ولكن الروسيين طردوه بسحب الدخان طرد النحل من أكواره، إذ أضرموا النار في المدينة وأحرقوا معظمها.

تأخر به الأوان في أكتوبر، بل تأخر به أكثر مما ينبغي، قبل أن يصح عزمه على العودة. فحاول محاولة غير مجدية أن يخترق طريقه إلى خط تراجع جديد إلى الجنوب الغربي، ثم حول وجهة من تبقى له من جيشه اللجب نحو القطر الذي عاثوا فيه فسادا أثناء تقدمهم. وكانت المسافات الشاسعة تفصلهم عن كل أرض موالية. ولم يكن الشتاء متعجلاً. وظل الجيش العرمرم أسبوعا وهو يكافح بين الوحول؛ ثم جاء الصقيع الشديد ألوانًا، ثم تهاطلت أوائل ندف الثلج، ثم الثلج فالثلج....

وأخذ النظام ينحل رويدا رويدا. وانتشر الجيش الجائع يبحث عن الميرة حتى أصبح مجرد شلل من المغيرين. وقام الفلاحون عليهم دفاعا عن النفس على أقل تقدير وأخذوا يكمنون لهم في الطرقات ويقتلونهم. وكانت غمامة من الراكبة الخفيفة ما تنفك تلاحقهم وتصيب منهم على الشاكلة الإسكيذية [1]. وهذا التقهقر من أكبر مآسي التاريخ.

وأخيرا ظهر نابليون في ألمانيا ومعه هيئة قيادته وثلة من الحرس والأتباع، ولم يحضر معه جيشه، وإنما كانت تتبعه فقط شراذم تجر سيقانها جرا، وقد فقدت كل معنوياتها. ولكن الجيش العظيم المتقهقر بقيادة موراه وصل إلى كونجسبرج في حالة انتظام، بعد أن لم يتبق منه إلا ألف من الرجال من قرابة الستمائة ألف. وتراجع موراه من كونجسبرج إلى بوزن. وكانت الفصيلة البروسية قد استسلمت للروس؛ وانفصل عنه النمسويون واتجهوا جنوبا نحو وطنهم. وفي كل مكان كان اللاجئون المتناثرون والرثو الثياب الهزيلو الأجساد الذين عضهم الصقيع ينشرون أخبار الكارثة.

لقد تبدد سحر نابليون أو كاد. ففر مهرولاً إلى باريس. وشرع ينظم مجندين جددا ويجمع جيوشًا جديدة بين حطام إمبراطوريته العالمية. وانقلبت عليه النمسا ١٨١٣؛ وكانت أوربا بأكملها تواقة إلى الثورة على مؤتمن الحرية الذي قصر في حقوقها وفرط في أمانتها، ولم يخرج عن مجرد مغتصب محض. لقد تخلى عن النظام الجديد؛ فالآن دمره النظام القديم، الذي أنقذه وابتعثه. وثارت بروسيا، وابتدأت "حرب التحرير" الألمانية وانضمت السويد إلى زمرة أعدائه. وثارت هولندة بعيد ذلك وكان موراه جمع في بوزن حول نواته المنظمة أربعة عشر ألف فرنسي. وتراجعت هذه القوة خلال ألمانيا، كما قد يتراجع رجل تجرأ على المرور وسط قفص مليء بالسباع المخدرة فوجد آثار التخدير قد أخذت تتبخر. وفي الربيع تناول نابليون القيادة العليا على جيوش جديدة، ثم كسب معركة عظيمة عند درسدن، ثم يلوح أنه قد أصيب ردحا من الزمان بتشتت

---

[1] الإسكيذية أو الأشقوذية انظر ص ٣٤٣ ج٢ من المعالم ط٢. (المترجم).

وانهيار في قواه الفكرية والمعنوية. فأصبح سريع التأثر بشكل جنوني، ثم أخذت تلم به أحيانًا حـالات مـن الجمود. فإنه لم يفعل إلا القليل، أو لم يفعل شيئًا على الإطلاق يشفع به معركة درسدن. وفي سبتمبر نـشبت "معركة الأمم" حول ليبزج وبالقرب منها، وانضم السكسون في أعقاب ذلك إلى الحلفاء وكانوا حتى ذلك اليوم يتبعون نجمه. ولم تنته السنة حتى كان الفرنسيون يتراجعون إلى فرنسا مندحرين.

وكانت ١٨١٤ هي حملة الختام. فاجتيحت فرنسا من الشرق والجنوب. فعبر الراين السويديون والألمان والنمسويون والروسيون، وجاء البريطانيون والإسبان من فوق جبال البرانس. وأخذ نابليون يقاتل مرة أخرى قتالاً زاكيا رائعا، ولكنه قتال غير مجد. على أن الجيوش الشرقية لم يستطع أن تهزمه قدر ما اسـتطاعت أن تشق طريقها إلى جواره، واستسلمت باريس في مارس. ولم يمض طويل حتى تنازل الإمبراطور في فونتنبلو عن العرش وكادت تقضي على حياته جماعة من الرعاع الملكيين في بروفانس وهو في طريقه إلى الخارج.

٥- المائة يوم

تلك هي الخاتمة الطبيعية الصائبة لحياة نابليون [1]. وها قد قضي عليه آخر الأمر. فلو كانـت هنـاك حكمة حقيقية في تصريف الشئون الإنسانية، لوجب علينا الآن أن نحدثك عن تمركز العلم الإنـساني والإرادة الإنسانية، وتوفرها على أداء الواجب الذي قطعت حياته حبل أدائه وأعني به واجب إنشاء نظام عالمي للعدالة والجهد الحر بدل النظام القديم المفلس. ولكنا لسنا بمحدثيك عن شيء من هذا القبيل. فقد كان العلم والحكمـة غائبين غيابا ظاهرا ملموسا عن مجالس الحلفاء العظيم. ووافت إليه النزعة الإنسانية المبهمة والغرور الحـالم عند القيصر الإسكندر، ووافاه آل هابسبرج النمسويون الضعفاء، وآل هوهنزولرن البروسيون المغـضبون، ووفدت عليه تقاليد بريطانيا الأرستقراطية وهي لا تزال وجلة الروع من الثورة، وضميرها لا يبرح منحرفًـا مثقلاً بما يبهظه من أراضٍ عامة مغتصبة وأطفال مصانع مكدودين عملاً. ولم يحضر المؤتمر أي شعب من الشعوب بل توافى له الملوك ووزرائه الخارجية دون غيرهم. ولم يكد المؤتمر يجتمع حتى أقبل الدبلوماسيون على العمل على عقد الصفقات والمعاهدات السرية كل من وراء ظهر أخيه. وبين مظاهر الفخامة والجـلال التي لا يعلو عليها شيء، اجتمع المؤتمر في فيينا بعد زيارة شرف فخمة أداها ملوك الحلفاء للندن. وكانـت الناحية الاجتماعية من المؤتمر قوية جدا، فقد كثرت فيه السيدات الحسان، وتألقت به مجموعة زاهـرة مـن النجوم وأصحاب البدلات الرسمية، وأقيمت به ما لا نهاية له من المآدب وحفلات الرقص، وروى فيه فـيض جارف من النوادر والنكات المشرقة اللألآءة. وكان أذكى أفراد المجتمعين روحا شخص بعينه اسمه تاليران، وهو أحد "أمراء نابليون"، كان حقًا رجلاً ذكيا جدا، عمل قسيسا قبل عهد الثورة، وهو الذي اقترح ما قامـت به الثورة من مصادرة أملاك الكنيسة، وهو الذي كان الآن داعية إلى إعادة آل بوربون!؟...

وأضاع الحلفاء الثمين من الزمان في منازعات تجلى فيها الطمع والجشع متزايدين؛ وعاد آل بوربون إلى فرنسا. وعاد معهم بقية "المهاجرين Émigrés "، وهم أشوق ما يكونون إلى التشفي والانتقـام. وكأنمـا دفعت أنانية عظيمة جانبا – لا لشيء إلا لكي تكشف الستر عن حشد من الأنانيين الأكثر دناءة وخسة. كـان الملك الجديد أخًا للويس السادس عشر؛ وما كان أشد تلهفه إلى التسمي باسم لويس الثامن عشر بمجرد أن علم بوفاة ابن أخيه (لويس السابع عشر) في المعبد. كان مصابا بالنقرس، وبليدا. ولعله لم يكن من ذوي المقاصد السيئة، غير أنه كان رمزا يمثل النظام القديم البالي، فأحس كل ما هو جديد في فرنسا بنذير الرجعية الثقيـل الذي لازم مجيئه. لم يكن ذاك تحريرا، بل استبدادا وطغيانًا جديدا ليس غير – بل هو طغيان ثقيل وضيع بدلاً من آخر نشيط رائع.

[1] الملاحظ هنا أن المؤلف يشتد في أحكامه على نابليون ويقسو عليه ويقلل من أهميته وينتقص قدر فتوحه، بل ويكاد يـشمت فيه عندما سقط، وما أدري هل خرج ولز هنا عن نزعة الإنصاف التي امتاز بها، أم غلبـت عليـه النزعـات البريطانيـة؟. (المترجم)

أليس أمام فرنسا من أمل غير هذا؟ وأظهر آل بربون حقدا خاصا إزاء كبار ضباط الجـيش العظـيم، وكانت فرنسا في ذلك الحين غاصة بأسرى الحرب العائدين، الذين وجدوا أنفسهم في ظل غمامة قاتمة. وقـد أرسل نابليون إلى إمبراطورية صغيرة في جزيرة إلبا يتعزى بها عما أصابه. وكان على أن يظل ملقبا باللقب الإمبراطوري وأن تكون له دولة بعينها. فإن فروسية الإسكندر.. أو هوائيته!.. أبت إلا أن يعامـل منافـسه المخلوع هذه المعاملة. وانتزع آل هابسبرج منه إمبراطورته الهابسبرجية – فذهبت راضية قريرة العين إلى فيينا، ولم يرها نابليون بعد ذلك أبدا.

وبعد أن قضى نابليون في إلبا أحد عشر شهرا قدر أن فرنسا ضاقت ذرعا بآل بوربون، فاحتال حتـى أفلت من السفن البريطانية التي كانت تراقب جزيرته وظهر في كان بفرنسا ليقوم بآخر لعبة له مـع القـدر. وكان مسيره إلى باريس موكب نصر عظيم؛ وطأ فيه بقدميه القيعان البوربونية البيضاء. ثم غدا، أمد مائـة يوم "وهي فترة المائة يوم" سيدا على فرنسا من جديد.

وأثارت عودته حالة ارتباك لدى كل فرنسي شريف. فمن ناحية كان ثمة هذا المغـامر الـذي خـان الجمهورية، وكان هناك من الناحية الأخرى ذلك العبء السمج الذي جلبته عودة الملكية القديمة. ولـم يكـن الحلفاء ليقبلوا أن تحدث أي تجارب جديدة في موضوع الجمهورية. ومن ثم كان الاختيار عندهم بين أمرين: إما نابليون وإما آل بوربون. أعجيب إذن أن تكون فرنسا على الإجمال في صف نابليون؟ وها هو ذا قد عاد معترفًا بأنه تغير وأصبح رجلاً آخر؛ فلن يكون ثمة أي طغيان؛ ولسوف يحترم النظام الدستوري.

جمع جيشًا، وبذل بعض المحاولات في سبيل السلام مع الحلفاء؛ على أنه ما لبث عنـدما وجـد هـذه الجهود غير مجدية، أن تقدم فضرب البريطانيين والهولنديين والروسيين في بلاد البلجيك ضـربة سـريعة، مؤملاً أن يهزمهم قبل أن ينضم إليهم النمسويون والروس. فأوشك أن يصل إلى غرضه هذا تقريبا. فإنه كسر البروسيين عند لجني (Ligny)، وإن لم يكسرهم بالقدر الكافي؛ وعند ذلك هزم هزيمة لا أمل له بعدها نتيجة لصلابة عود البريطانيين بقيادة ولنجتن عند وترلو (١٨١٥)، على حين وصل البروسـيون بقيـادة بلـوخر وأطبقوا على جناحه الأيمن وقد تقدم النهار. وانتهت معركة وترلو بتشتيت شمل جيشه؛ وغادرت نابليون بلا معين وبلا أمل. وأعرضت عنه فرنسا مرة ثانية وكان كل إنسان انضم إليه تواقًا عنـد ذاك إلـى مهاجمتـه والتبرؤ منه حتى يمحو الغلطة التي ارتكب. وأمرته حكومة مؤقتة في باريس أن يغادر البلاد، وأمهلته أربعا وعشرين ساعة يتم فيها ذلك.

فحاول أن يذهب إلى أمريكا، ولكن ميناء روشفور الذي وصل إليه كانت تراقبه الطردات البريطانيـة. والآن وقد رفعت عن أعين فرنسا غشاوة الأوهام، وعادت فأصبحت على مضض ملكية من جديـد، فإنهـا قامت تلاحقه في حرارة. فاعتلى ظهر مدمرة بريطانية، هي البلتروفون طالبا أن يقبل لاجئًا لائذًا، ولكنه فـي الواقع عومل كأسير. فأخذ بليموث ثم حمل من بليموث مباشرة إلى جزيرة سانت هيلينا المدارية الموحشة.

وهناك بقي حتى وافته منيته بالسرطان في ١٨٢١، بعد أن كرس نفسه بوجه رئيسي لتحضير مذكراته، التي كانت خطته فيها أن يعرض كبريات أحداث حياته تحت ضياء ساطع جذاب، وكان رجلان ممـن معـه يسجلان محادثاته، ويثبتان انطباعاتهما عنه.

وراجت هذه المؤلفات رواجا عظيما في فرنسا وأوربا. وظل الحلف المقدس بين ملوك الروسيا والنمسا وبروسيا (الذي دعي ملوك آخرون للانضمام إليه) يعمل عمله بمشقة كبيرة في ظلال وهم باطل بـث فـي روعهم أنهم يوم هزموا نابليون قد هزموا الثورة، وأرجعوا ساعة القدر أدراجها، وأعادوا الملكية العظمى إلى أبد الآبدين. ويقال إن الوثيقة الرئيسية لخطة الحلف المقدس رسمت بوحي من البارونة فون كرودنر، التـي يبدو أنها كانت نوعا من المدبر الروحي للإمبراطور الروسي وكانت بدايتها كما يأتي: "باسم الثالوث المقدس الذي لا تنفصم عراه"، وكانت تلزم الملوك المشتركين فيها، "بأن يعدوا أنفسهم نحو رعاياهم وجيوشـهم فـي مكان الوالد من العائلة" وأنهم "إذ يعد أحدهم الآخر مواطنًا له"، يشد أحدهم أزر الآخر، ويحمون الدين الحـق ويحضون رعاياهم على تقوية أنفسهم وتدريبها على القيام بالواجبات المسيحية. ويصرح الحلف بأن المـسيح هو الملك الحق لكل الشعوب المسيحية، وعسانا نستطيع أن نلاحظ أنه كان بناء على هذا ملكًا ميروفنجيا بكل معاني الكلمة ولا سلطان له إزاء هؤلاء الملوك المتربعين في دست الأحكام والذين هم لديه بمثابة محـافظين للقصر[1]؟.. ولم يكن لملك بريطانيا أي سلطة تخول له أن يوقع هذه الوثيقة، ولم يطلب أحد إلى البابـا ولا السلطان أن يوقعاها، وانضم إليها سائر ملوك أوربا بما فيهم ملك فرنسا. على أن ملك بولندة لم يوقع لأنه لم يكن ثمة ملك لبولندة!!، وذلك لأن الإسكندر قام وهو في حالة من حالات الذهول الورع فألحق ببلاده معظـم بولندة!. ولم يصبح الحلف المقدس أبدا محالفة قانونية بين الدول، بل حلت محله عصبة أمـم حقيقيـة، هـي "اتحاد أوربا" الذي انضمت إليه فرنسا في ١٨١٨، والذي انسحبت منه بريطانيا في ١٨٢٢. وعقبت ذلك فترة سلام وعسف في أوربا. وكان كثير من الناس يميلون في تلك الأيام التي انقطع فيها حبل الأمـل أن يرمقـوا حتى نابليون نفسه بنظرة إحسان، وأن يقبلوا منه ادعاءه بأنه عندما كان يؤيد حقه، كان يؤيد حق الجمهوريـة وفرنسا، على طريقة لا يمكن تفسيرها. ونمت بعد وفاته نحلة تعده شيئًا ذا بطولة صوفية دينية.

[1] محافظ القصر: في ذلك إشارة إلى تاريخ ببين وشارل مارتل فليرجع إليها القارئ ص ٨٣٦ ج٣ م المعالم ٢. حيـث كـان الملك اسما للأسرة الميروفنجية ومقاليد الحكم كلها بيد محافظ القصر الذي يتولاها باسم الملك. (المترجم).

٦- خريطة أوربا في ١٨١٥

ظلت فكرة الحلف المقدس، والاتحاد الأوروبي الذي تمخض عنه ذلك الحلف، وسلسلة المؤتمرات والاجتماعات التي عقبت الاتحاد، محافظة مدة أربعين عاما على سلام مزعزع الأركان في أوربا التي خرجت من الحروب منهوكة القوى. وهناك أمران رئيسيان حالا بين هذه الفترة وبين أن تكون سلاما اجتماعيا ودوليا كاملاً، ومهدا السبيل لدورة الحرب التي وافت بين ١٨٥٤، ١٨٧١. وكان أول هذين الأمرين هو ميل البلاطات الملكية المختصة إلى استرداد الامتيازات غير العادلة، والتدخل في حرية الفكر والكتابة والتعليم. وكان الثاني هو مجموعة الحدود المستحيلة التي رسمها الدبلوماسيون في فيينا.

وكان ميل الملكية إلى الرجوع إلى الأحوال القديمة البائدة واضحا أولاً وبوجه خاص في إسبانيا. حتى لقد بلغ الأمر هناك أن أعيدت محاكم التفتيش. فأما عبر المحيط الأطلسي، فإن المستعمرات الإسبانية حذت حذو الولايات المتحدة وثارت على نظام الدول الكبرى الأوربي، عندما نصب نابليون أخاه جوزيف ملكًا على إسبانيا في (١٨١٠). وكان زعيم الاستقلال وواشنجتون أمريكا الجنوبية هو الجنرال بوليفار. ولم تستطع إسبانيا أن تقمع هذا العصيان، فطال به الأمد مثلما طال بحرب استقلال الولايات المتحدة، وأخيرا تقدمت النمسا باقتراح يتسق وروح الحلف المقدس، تذكر فيه أن من واجب ملوك أوربا أن يساعدوا إسبانيا في كفاحها ذاك. فعارضت في ذلك بريطانيا في أوربا، فأما في أمريكا فإن العمل السريع الذي قام به رئيس الولايات المتحدة الرئيس مونرو في (١٨٢٣)، هو الذي قضى على مشروع هذا الاسترداد لسلطان الملوك قضاء نهائيا. فإنه أعلن أن الولايات المتحدة تعد أي بسط للنظام الأوربي في نصف الكرة الغربي عملا عدائيا. وبذا نشأ "مبدأ مونرو"، الذي ضد نظام الدول الكبرى عن أمريكا قرابة مائة من السنين، وسمح للدول الجديدة في أمريكا الإسبانية بأن تكون مقدراتها على الشاكلة التي ترضيها. ولئن فقدت الملكية الإسبانية مستعمراتها، فقد كانت على الأقل تستطيع تحت حماية الاتحاد الأوربي أن تفعل ما تشاء في أوربا. وأخمد جيش فرنسي فتنة شعبية قامت في إسبانيا في (١٨٨٣)، بانتداب من أحد المؤتمرات الأوربية، وفي الوقت ذاته قمعت النمسا ثورة شبت في نابلي.

وفي (١٨٢٤) مات لويس الثامن عشر، وخلفه كونت أرتوا الذي رأيناه مهاجرا يرفرف ويحوم من فوق الحدود الفرنسية في (١٧٨٩) فاتخذ لقب شارل العاشر. ونصب شارل نفسه لتدمير حرية الصحافة والجامعات وإعادة الحكم المطلق، وأخذ الصوت بالموافقة على اعتماد نابليون فرنك لتعويض النبلاء عن إحراق قصورهم ومصادرة أملاكهم في (١٧٨٩). وفي (١٨٣٠) ثارت باريس ضد هذا الملك الذي يتمثل فيه النظام العهيد [1]، وتبدلت به لويس فيليب بن فيليب دوق أورليان المعروف، الذي حكم عليه بالإعدام أثناء حكم الإرهاب. ولم تتدخل في هذا الشأن بقية الملكيات الأخرى بأوربا، إذ واجهها استحسان علني من بريطانيا العظمى واختمار تحريري قوي في ألمانيا والنمسا. ومهما يكن من شيء فإن فرنسا كانت لا تزال

---

[1] ورد في معجم الوسيط ما نصه: "العهيد": القديم العتيق الذي مر عليه عهد طويل". (المترجم).

محتفظة بالنظام الملكي. وظل هذا الملك الشاب لويس فيليب (١٨٣٠ – ١٨٤٨) هو ملك فرنسا الدستوري أمد ثمانية عشر عاما. ولكنه سقط في (١٨٤٨) وهي سنة عظيمة الأحداث في أوربا، وسنحدثك عنها في الفصل التالي.

تلك هي التأرجحات القلقة التي ألمت بصلح مؤتمر فيينا، والتي أثارت التصرفات الرجعية لأنصار الملكية. فإن التأزمات التي نشأت عن خريطة الدبلوماسيين غير المدروسة دراسة علمية تسببت في تجمع القوى بتعمد أكثر، ولكنها كانت أشد خطرا على سلام البشرية. فإن من أكثر الأمور عسرا ومضايقة أن يدير السياسي شئون أقوام مختلفين عنصرا يتكلمون لغات مختلفة ويقرءون من ثم أدبا مختلفًا ولهم فكرات عامة مختلفة، وخاصة إذا بلغت هذه الفروق والاختلافات حد السخط بسبب المنازعات الدينية. وليس في طوق أي شيء اللهم إلا بعض المصالح القوية المتبادلة (من أمثال احتياجات الدفاع المشترك لدى سكان سويسرا الجبليين)، أن يبرر إقامة ترابط وثيق بين شعوب متباينة في لغاتها وعقائدها، بل إن سويسرا ذاتها يقوم بها أقصى درجات الحكم الذاتي المحلي استقلالا. وعندما تموت في النهاية تقاليد الدولة الكبرى وتوارى التراب فعسى هؤلاء السكان السويسريون أن ينجذبوا تقاليد الدولة الكبرى وتوارى التراب فعسى هؤلاء السكان السويسريون أن ينجذبوا نحو وشائجهم الطبيعية في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا. وعندما يكون الحال كشأنه في مقدونيا حيث يختلط السكان تخلطًا موزعا إلى رقاع صغيرة من القرى والنواحي، فعندئذ تحتم الظروف قيام نظام الكانتونات. ولكن إذا نظر القارئ إلى خريطة أوربا كما رسمها مؤتمر فيينا، رأى أن هذا المجلس كان كمن يرسم خطة الوصول بالسخط المحلي إلى أقصاه. فإنه دمر الجمهورية الهولندية، ثم راح بغير ما داع، فجمع بين الهولنديين البروتستانت وبين الكاثوليك المتكلمين بالفرنسية الذين كانوا في الأراضي المنخفضة الإسبانية (النمسوية). وأقام بهما مملكة للأراضي المنخفضة. ولم يكتف بأن يسلم جمهورية البندقية القديمة فقط، بل كل شمال إيطاليا حتى ميلان للنمسويين الناطقين بالألمانية. وأدمج منطقة السافويا الناطقة بالفرنسية مع أجزاء من إيطاليا بغية إرجاع مملكة سردينيا. وكانت إمبراطورية النمسا والمجر من قبل ذلك خليطًا به ما يكفيه من عوامل التفجر من الجنسيات المتنافرة غير المتسقة ما بين ألمانيين ومجريين وتشيكوسلوفاك ويوغوسلاف ورومانيين وانضم إليهم الآن الإيطاليون، ثم جعلتها أحداث (١٧٧٢، ١٧٩٥) أكثر استحالة مما كانت. فأما البولنديون الكاثوليك ذوو الروح الجمهورية فقد أسلموا بصفة رئيسية إلى حكم القيصر الأقل حضارة وصاحب الدين اليوناني الأرثوذكسي، عدا أن أجزاء هامة منها ذهبت إلى بروسيا البروتستانتية. كذلك ثبتت قدم القيصر فيما احتازه من بلاد الفنلنديين المختلفين عنه اختلافًا كليا. وربط الشعبان غير المتشابهين النرويجي والسويدي تحت حكم ملك واحد. وتركت ألمانيا – كما سيرى القارئ – في حالة ارتباك خطرة بوجه خاص. فقد كانت كل من بروسيا والنمسا داخلتين جزئيا وخارجتين جزئيا في اتحاد كنفدرالي (Confederation) ألماني كان يضم عددا كبيرا من الدول الصغرى. ودخل ملك الدانمارك على مائدة الاتحاد الكنفدرالي بسبب وجود ممتلكات له في ذلك الاتحاد تتكلم الألمانية في هولشتين. وأدخلت لكسمبورج في ذلك الاتحاد الكنفدرالي الألماني، مع أن حاكمها كان كذلك هو ملك الأراضي المنخفضة، ومع أن كثيرا من سكانها كانوا يتكلمون الفرنسية. وهنا نلمس إغفالاً تاما لحقيقة واقعة هي أن القوم الذين يتكلمون

الألمانية ويبنون فكراتهم على الأدب الألماني، وأن القوم الذين يتكلمون الإيطالية ويبنون فكراتهم على الأدب الإيطالي، وأن القوم الذين يتكلمون البولندية ويبنون فكراتهم على الأدب البولندي سوف يكونون جميعا أسعد حالاً ويكونون من أعود الناس على سائر الإنسانية نفعا ومعونة وأقلهم بها شرا وضرا، إذا هم أداروا شئونهم على تراكيب لغتهم داخل نطاق لسانهم الخاص. أعجيب إذن أن تكون من بين أشد الأغنيات ذيوعا في الناس في ألمانيا أثناء تلك الفترة، أغنية تصرح بأنه حيثما كان اللسان الألماني يتكلم، كانت أرض الأجداد الألمانية.

ولا يزال الناس حتى في يومنا هذا كارهين أن يعترفوا بأن مناطق الحكم ليست من الشئون التي يجوز فيها المساومات والتفاعلات بين القياصرة والملوك ووزارات الخارجية. وهناك "خريطة ضـروريـة سياسـية للعالم" تتعالى فوق كل هذه الأمور. وثمة طريقة أخرى هي "أحسن الطرق المستطاعة" يقسم بها أي جزء من أجزاء العالم إلى مناطق إدارية، وذلك بالنظر إلى لغة وجنس سكانها، وإنه لمما يهمنا جميعا أن نضمن وجود هذه الأقسام وأن تؤسس أشكال الحكومة تلك بصرف النظر تماما عن الدبلوماسيات والرايات" والمـدعيات" "والولاءات" الميلودرامية الانفعالية، وعن خريطة العالم السياسية الموجودة اليوم. وخريطة العـالم الـسياسية المخططة حسب الطبيعة تأبى إلا أن تنفذ. وهي تضطرب وتتحرك تملمـلا مـن دون الخريطـة الـسياسية الاصطناعية كما يتململ جبار في وضع لا يريحه. ففي (١٨٣٠) قامت بلاد البلجيك الناطقة بالفرنسية – وقد حفزتها الثورة في فرنسا – فثارت على شريكتها الهولندية في مملكة الأراضي المنخفضة. وسارعت الـدول إلى تسكين هذا الموقف وقد أرعبها إمكان قيام جمهورية بها أو استلحاقها إلى فرنسا ومنحت البلجيكيين ملكا هوليوبولد الأول أمير ساكس كوبرج جوثا. وحدث كذلك في (١٨٣٠) ثورات لم يكتب لها التوفيق بإيطاليـا وألمانيا، وفتنة أشد خطورة بكثير في بولندة الروسية. وقامت في وارسو حكومة جمهورية وصـمدت عامـا كاملاً حيال نيقولا الأول (الذي خلف الإسكندر في ١٨٢٥)، ثم قُضي عليها عند ذاك بعنف وقساوة كبيـرين. وصدر قرار بتحريم اللغة البولندية، واستبدلت بالكنيسة الكاثوليكية الكنيسة اليونانية الأرثوذكـسية بوصـفها الديانة الرسمية للدولة...

وهناك انفجار في خريطة العالم السياسية المطابقة للطبيعة حدث في (١٨٢١)، وانتهى بالحصول على مناصرة إنجلترة وفرنسا والروسيا. وكان ذلك الانفجار هو ثورة اليونان ضد الأتراك. ذلك أن اليونانيين ظلوا يقاتلون قتال المستيئس أمد ست سنوات، على حين وقفت حكومات أوربا تنظر إليهم متفرجة.. واحتج الرأي الحر على هذا الجمود؛ وانضم إلى الثوار المتطوعون من كل دولة أوربية، وانتهى الأمر بأن قامت بريطانيا وفرنسا والروسيا بعمل مشترك. فدمر الأسطولان الإنجليزي والفرنسي الأسطول التركي في معركة نـوارين (١٨٢٧) وغزا القيصر تركيا. وأعلنت حرية بلاد اليونان بمعاهدة أدرنة (١٨٢٩)، ولكن لم يسمح لها بـأن تواصل تقاليدها الجمهورية القديمة. واتخذت الدول لبلاد اليونان ملكًا ألمانيا هو أمير بافاري اسـمه أوتـو – فغلبت عليه أوهام اعترته حول حقه المقدس، ونبذ في ١٨٦٢ – وأقيم حكام مسيحيون في الولايات الدانوبيـة (التي هي الآن رومانيا)، وسربيا (وهي جزء من منطقة يوغسلافيا). وكان هـذا إذعانًـا جزئيـا للخريطـة السياسية الموافقة للطبيعة، ولكن كان لا بد من سفك الدم الكثير قبل أن يطرد التركي طردا تامـا مـن هـذه الأراضي. وبعد ذلك بزمن يسير قامت الخريطة السياسية المطابقة للطبيعة تنادي بحقوقها في ألمانيا وإيطاليا.

٧- طراز الإمبراطورية

انعكست محاولة نابليون إعادة الإمبراطورية الرومانية انعكاسا تبدت فيه الأمانة البالغة في فن العمارة والثياب والأثاث وفن التصوير في تلك الفترة. وقد قاموا في كل هذه الأمور بمحاولة ابتعاث الأشكال والروح المطابقة لواقع روما الإمبراطورية. وكأنما أفلتت من المتاحف ألبسة الرأس النسائية وثياب السيدات وخرجت تسعى في الطرقات. وأخذت مجاميع الأعمدة وأقواس النصر تتهادى وتتبختر في طريقها إلى أعظـم مواقـع المدن الكبرى كافة. وفازت باريس بقوس النصر وقلدتها لندن على الفوز فكان لها قوس الرخـام (Marble Arch). واختفت من الوجود تطورات البروق (الباروك) [1] والركوكو [2] في مبـاني النهـضة لأن النـاس فضلوا عليها واجهات أخرى أقسى وأعبس مظهرا. وكان كانوفا الإيطالي هو المثّال العظيم لـذلك الزمـان. وكان دافيد يطرب لأشكال الأبطال العراة. وخلد إنجرس (Ingres) أميرات نابليون على صورة ربات منازل رومانيات وربات رومانيات. وتماثيل لندن العامة تمثل ساسة تلك الفترة وملوكها الموقرين في أشكال أعضاء السناتو والأباطرة. وعندما اختارت الولايات المتحدة تصميما لخاتمها الأعظم، كان من الطبيعي أن تختار فيه النسر وأن تضع في مخالبه سهم المشترى [3].

---

[1] كلمة باروك مأخوذة عن الكلمة البرتغالية Barroco ومعناها الجوهرة غير المنتظمة الشكل وتدل في الاصطلاح الفني على طراز خاص شديد الزخرف شاع في أوربا بين عامي ١٦٠٠ – ١٧٢٠ أو ١٧٦٠ والكلمة من أصل عربي هو لفـظ "بـراق". (المترجم).

[2] روكوكو: مأخوذة عن الكلمة الفرنسية Rocaille ومعناها الحصاة على شكل الصدفة وهو اصطلاح في الفنون الزخرفيـة يطلق على زخرف يتألف من الأصداف والأحجار وقد شاع منذ عام ١٨٣٠ عند ختام الطراز البروكي (المترجم).

[3] المشتري: أكبر آلهة الرومان. (المترجم).

الفصل السابع والثلاثون

حقائق القرن التاسع عشر وخيالاته

١- الانقلاب الآلي.

٢- العلاقة بين الانقلابيين الآلي والصناعي.

٣- اختمار الفكرات في ١٨٤٨.

٤- تطور فكرة الاشتراكية.

٥- عيوب الاشتراكية بوصفها خطة للجماعة الإنسانية.

٦- كيف أثر مذهب داروين في الفكرات الدينية والسياسية.

٧- فكرة القومية.

٨- المعرض الكبير في ١٨٥١.

٩- سيرة حياة نابليون الثالث.

١٠- لنكولن والحرب الأهلية في أمريكا.

١١- الحرب الروسية التركية ومعاهدة برلين.

١٢- التدافع الثاني على الإمبراطوريات وراء البحار.

١٣- السابقة الهندية في آسيا.

١٤- تاريخ اليابان.

١٥- ختام فترة التوسع وراء البحار.

١٦- الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤.

١٧- التصوير والنحت والعمارة في القرن التاسع عشر.

١٨- الموسيقى في القرن التاسع عشر.

١٩- نهوض القصة إلى المرتبة العليا في الأدب.

١- الانقلاب الآلي

تبدو حياة نابليون الأول وشخصيته في مؤلفات القرن التاسع عشر التاريخية ضخمة لا تتناسب وأهميته. فإنه كان قليل الأهمية بالنسبة للحركة الرحيبة السائرة قدما بالشئون الإنسانية نحو الأمام. ولم يزد على أن كان مقاطعا لتلك الحركة ومذكرا بالشرور الكمينة، كما كان أشبه شيء بباكتريا بعض الأوبئة. ولو نظرنا إليه حتى من زاوية الأوبئة واعتبرناه باكتريا، فإنه لم يكن منها في المقام الأول؛ فإنه قضى على عدد من الأنفس يقل عما قضى عليه وباء الأنفلونزا في سنة ١٩١٨، وأنتج من التمزيق السياسي والاجتماعي أقل مما أنتجه الطاعون في عصر جستنيان.

لم يكن بد من ظهور تمثيليته الصغيرة على المسرح بين فصول المسرحية الكبرى، ولم يكن مندوحة من حدوث تلك التسوية الأوربية المرقعة التي تتبدى في الاتحاد الأوربي، ذلك أنه لم يكن هناك مجموعة مدروسة من الفكرات يمكن أن يقام عليها عالم جديد. وإن الاتحاد الأوربي نفسه كان ينطوي على عامل من عوامل التقدم. فإنه على الأقل اطرح جانبا روح "الفردية" الممثلة في الملكية الميكيافللية وأعلن أنه توجد دولة إنسانية أو على الأقل دولة أوربية. فلئن قسم ذلك الاتحاد العالم بين الملوك، فإنه أدى تحية التجلة والإكبار للوحدة الإنسانية وخدمة ا   والإنسان.

والواجب الدائم الأثر الذي كان على الإنسانية أداؤه، قبل أن يكون في الإمكان إقامة أي بناء سياسي واجتماعي جديد مستديم، وهو الواجب الذي لا تزال الفطنة الإنسانية منشغلة به رغم ما ألم به من فترات التوقف والمقاطعة وما أحاط به من مظاهر الغضب والشغب – كان وما ينفك هو واجب إنتاج وتطبيق:"ا" علم للمِلكية يكون أسا تبنى عليه الحرية والعدالة الاجتماعية، "ب" علم للعملة يضمن وجود وسيط اقتصادي كفء، "جـ" علم لأصول الحكم والعمليات الجماعية، يستطيع به الناس في كل مجتمع أن يتعلموا كيف يتولون مصلحتهم المشتركة بتوافق وانسجام، "د" علم للسياسة العالمية يمكن أن يقضي على ما في الحروب بين الجنس والجنس، والشعب والشعب، والأمة والأمة، من التدمير والإسراف الشديد والقساوات الفظيعة، ويمكن به أن توضع بفضله مصالح قيام البشرية المشتركة تحت رقابة مشتركة؛ وفوق كل شيء، "هـ" علم يكفل قيام نظام للتعليم شامل للعالم قاطبة يدعم إرادة الناس ومصلحتهم في مغامرتهم الإنسانية المشتركة.

فأما صناع التاريخ الحقيقيون في القرن التاسع عشر، وهم القوم الذين سوف تحدد عواقب أعمالهم الحياة الإنسانية مقدما لمدة قرن كامل من الزمان، فقد كانوا هم أولئك الذين روجوا لهذا الجهد الحماسي البنّاء وأسهموا فيه. فلو قيس إليهم وزراء الخارجية ورجال الدولة والسياسيون في تلك الفترة لما زادوا عن فئة من التلاميذ المشاغبين الذين يصلون أحيانًا إلى حد إضرام الناس والإحراق، أو بضع نفر من سراق المعادن، الذين يعبثون هنا وهناك ويحدثون شرا موقوتًا بين المواد الباقية على أرض بناء عظيم لم يفهموا كنهه.

وعلى حين أن عقل المدنية الغربية في القرن التاسع عشر بأكمله، وهو العقل الذي أطلقته النهضة من عقاله، ظل يجمع نفسه لأداء واجب التعمير الاجتماعي والسياسي الخلاق الذي ما يزال عليه عبء القيام به

– فقد غمرت العالم موجة تغيير عام في القوة البشرية وفي أحوال الحياة المادية التي أباحت سـبل وجودهـا الجهود العلمية الأولى لهذا العقل المتحرر.

وابتدأت نبوءات روجر باكون تعيش في عالم الحقيقة. فإن المعرفة والثقة المتجمعة لدى الأجيال القليلة المتعاقبة من الناس الذين حملوا لواء التنمية العلمية، قد أخذت عند ذاك تؤتى ثمارا كان في مستطاع العامـة من الناس أن يفهموها. وكانت الآلة البخارية هي أشد تلك الثمار الأولـى وضـوحا. وكانـت أولـى الآلات البخارية المستعملة في القرن الثامن عشر مضخات تستعمل في صرف المياه إلـى خـارج منـاجم الفحـم المحتفرة حديثًا. وكانت مناجم الفحم هذه تشغل لاستخراج الكوك بغية استعماله في صهر الحديد الـذي كـان الفحم النباتي المتخذ من الخشب يستخدم فيه آنفًا. وإلى جيمس وات وهو صانع آلات دقيقة في جلاسجو يرجع الفضل في تحسين تلك المضخة البخارية، وجعل استعمالها لدفع الماكينات أمرا ممكنًا. وقد وضعت أول آلـة استعملت لهذا الغرض في مصنع لنسج القطن بنوتنجهام في (١٧٨٥).

وفي (١٨٠٤) كيف ترفيتيك آلة وات وجعلها صالحة لأعمال النقل، وأنشأ أول قاطرة. وفـي (١٨٢٥) فتح للسفر أول خط حديدي بين ستوكتون ودارلنجتون. ولا تزال الآلة الأصلية وهي (القاطرة رقم١، ١٨٢٥) تزين رصيف محطة دارلنجتون. وما وافى منتصف القرن حتى كانت شبكة من الطرق الحديدية قد عمت كل أرجاء أوربا.

هنا حدث انقلاب فجائي فيما ظلّ زمانًا طويلاً حالة ثابتة في الحياة الإنسانية، وأعنـي بـذلك أقـصى سرعة للنقل البري. وقد سافر نابليون بعد كارثته الروسية من قرب فيلنا إلى باريس في ٣١٢ ساعة، وهـي رحلة تقارب الألف والأربعمائة من الأميال. كان يسافر مستمتعا بكل ما تتصوره العقول من الميزات، وكان معدل مسيره يقل عن خمسة أميال في الساعة. وذلك في حين أن الراكب العادي لم يكن ليستطيع أن يقطـع هذه المسافة في ضعف هذا الوقت. وكانت هذه السرعة تقارب نفس سرعات السفر القـصوى التـي كانـت ممكنة بين روما وبين بلاد الغال في القرن الأول الميلادي، أو بين ساردیس وسوسا في القرن الرابع ق. م.

ثم جاء على الفجاءة تغيير هائل. فإن السكك الحديدية خفضت هذه الرحلة لأي راكب عادي إلى ما يقل عن ثمانية وأربعين ساعة، أي إنها خفضت المسافات الأوربية الرئيسية إلى ما يداني عشر ما كانـت عليـه. وجعلت من الممكن القيام بالعمل الإداري في مناطق تكبر بعشرة أضعاف ما كان في الإمكان إدارتـه حتـى ذلك الحين بواسطة إدارة واحدة. وما برح المغزى الكامل لهذا الاحتمال في أوربا ينتظر الأيام التي تحققـه. فإن أوربا ما برحت تقسمها شبكة حدود رسمت في عصر الحصان والسكة الزراعية. وكانـت آثـار ذلـك الحدث في أمريكا سريعة مباشرة. وكان معنى ذلك لدى الولايات المتحدة الأمريكية الزاحفة غربا، هو إمكان وجود اتصال مستمر بواشنجتون، مهما تكن المسافة التي تنتقلها الحدود عبر القارة. وكان معنى ذلـك هـو الوحدة التي تصان على معيار كان لولاها من أضرب المستحيل.

وكان ظهور الزورق البخاري أسبق قليلاً من الآلة البخارية في مراحلها الأولى. وكان هنـاك زورق بخاري هو (شارلوت دنداس)، ينتقل في قناة (الفورت والكلايد بإنجلترة) في (١٨٠٢)، وفي (١٨٠٧) كـان

لأمريكي يدعى فالتون باخرة معدية، هي الكليرمونت بها آلات مصنوعة ببريطانيا، وكانت تسير في نهر الهدسون أعلى نيويورك. وكانت أول سفينة بخارية سارت في البحر أمريكية كذلك وهي "الفينكس" التي كانت تسير من نيويورك (هوبوكن) إلى فيلادلفيا. وكذلك كان شأن أول سفينة تستخدم البخار (وكان لها أيضا قلوع) عبرت الأطلسي، وهي السافانا (١٨١٩). وكانت كل هذه زوارق ذات عجلة رفاسة، ولكن زوارق العجلة الرفسة لا تصلح للعمل في عرض البحار الثقيلة. فإن الطارة الرفاسة سهلة الكسر، وعند ذلك يصبح الزورق عاجزا أشل.

وظهرت عقب ذلك السفينة البخارية ذات الداسر اللولبي[1]. وكان لا بد من التغلب على كثير من الصعاب قبل أن يصبح الداسر اللولبي شيئًا عمليا يمكن الانتفاع به. ولم تشرع حمولة السفن البخارية في أن تزيد على حمولة السفن الشراعية إلا بعد أن بلغ القرن منتصفه. وبعد ذلك أمسى التطور في النقل البحري سريعا وأخذ الناس لأول مرة يعبرون البحار والمحيطات وهم على شيء من التحقق من موعد وصولهم. وكان عبور الأطلسي قبل ذلك مغامرة غير محققة تمتد أسابيع كثيرة قد تترامى إلى الشهور، فلم تزل السرعة فيه تزداد حتى خفضت مدته في (١٩١٠) في حالة أسرع البواخر، إلى أقل من خمسة أيام، مع إمكان تحديد ساعة الوصول على وجه التقريب. وشمل نفس هذا التخفيض في الزمن ونفس هذا التحقق من المواصلات الإنسانية جميع محيطات العالم وبحاره.

وساير تطور البخار على سطح الأرض وفي عباب الماء، ظهور أمر آخر جديد رائع أضيف إلى تسهيلات التواصل البشري، ونشأ عن أبحاث "فولتا" و "جالفاني" و "فارادي" في الظواهر الكهربية المتنوعة. وظهر التلغراف الكهربي إلى عالم الوجود في (١٨٣٥) ووضع أول سلك بحري (كابل) تلغرافي تحت أطباق البحر في (١٨٥١) بين إنجلترة وفرنسا. ولم تمض بضع سنوات حتى كان نظام التلغراف قد عم العالم المتمدن بأكمله، وبذا أصبحت الأخبار التي كانت حتى ذلك اليوم ترحل متباطئة من موضع إلى موضع تنتشر في كل أرجاء المعمورة في وقت واحد تقريبا.

وقد كانت هذه الأشياء وأعني بها السكك الحديدية البخارية والتلغراف الكهربي أشد المستحدثات روعة وثورة لدى أذهان عامة الناس في منتصف القرن التاسع عشر، على أنهما لم يكونا إلا أبرز وأسمج تباشير عملية أشد منهما اتساعا وعظما. وأخذت المهارة والمعرفة الصناعية التكنيكية تتطوران في سرعة غير مألوفة، وإلى حد غير مألوف إذا قيس تقدم ذلك العصر بتقدم أي عصر سابق عليه.

وانبسطت قدرة الإنسان على المواد الإنشائية المتنوعة وكان انبساطها في البداءة أقل ظهورا بكثير في حياته اليومية، ولكنه أصبح آخر الأمر على درجة عظيمة من الأهمية. وقبل أن ينتصف القرن الثامن عشر كان الحديد يستخلص من خامه بواسطة فحم الخشب، وكان يتناول قطعا صغيرة ثم يطرق ويصاغ في الشكل المطلوب. كان مجرد مادة يعمل فيها صانع. وكانت جودة نوع الحديد وطريقة معالجته تعتمد اعتمادا هائلاً على خبرة الصانع الفرد وفطنته. وكانت أكبر كتل الحديد التي يستطاع معالجتها في مثل تلك الظروف تصل

[1] الداسر اللولبي (Screw) أو الدافع اللولبي: هو مرواح (Propeller) ويستعمل في دفع السفن أو الطائرات. (المترجم).

في أعظم شأنها (في القرن السادس عشر) إلى طنين أو ثلاثة. (فكان هناك إذن حد أعلى محدود جدا لحجم المدفع). ونشأ الفرن العالي [1] في القرن الثامن عشر وازداد تطورا باستخدام فحم الكوك. ولسنا نجد قبل القرن الثامن عشر صفائح الحديد المسحوبة (بين الدرافيل) (١٧٢٨)، ولا الأسياخ والقضبان المسحوبة (بين الدرافيل) (١٧٨٣). وجاءت مطرقة "نازميث" البخارية في زمن متأخر هو (١٨٣٩).

ولم يستطع العالم القديم أن يستعمل البخار بسبب تأخره في علوم المعادن والتعدين. فأما الآلة البخارية حتى المضخة البدائية، فلم يكن في الإمكان تطويرها قبل أن تتيسر صفائح الحديد. وتبدو الآلات الأولى لعين الرائي العصري قطعا من الحديد الخردة سمجة مستوجبة لأشد الرثاء، ولكنها كانت أقصى ما يستطيع علم المعدنيات أن يخرجه في ذلك الزمان. وجاءت طريقة "بسمنر" في زمن يقارب في تأخره (١٨٥٦)، ثم تلتها على الفور (١٨٦٤)، عملية الأتون المفتوح الذي كان في المستطاع إذابة الصلب وكل أنواع الحديد فيه، وتنقيتها وصبها بحالة وعلى مقياس لم يسمع الناس بهما حتى آنذاك. ولقد يستطيع الإنسان اليوم أن يرى في الفرن الكهربي أطنانًا من الصلب الوهاج المبيض بالحرارة وهو يهدر هدير اللبن المغلي.

وليس في مراحل التقدم الإنساني العملية السابقة ما يعدل في عواقبه ما بلغه الإنسان اليوم من تلك السيادة التامة على كتل هائلة من الصلب والحديد وعلى تكوينها ودرجة جودتها. وكانت السكك الحديدية الأولى والآلات المبكرة بجميع أصنافها مجرد انتصارات للوسائل الجديدة لمعالجة الفلزات[٢]. وسرعان ما ظهرت سفن الحديد والصلب والكباري الضخمة، وطريقة جديدة للبناء بالفولاذ على معيار هائل. وأدرك الناس بعد فوات الزمن الطويل أنهم كانوا يصممون سككهم الحديدية على مقياس سعة [٣] يتجلى فيه الخوف المفرط، وإنه كان في مستطاعهم أن ينظموا أسفارهم على أساس قدر أوفى من الثبات والراحة باستعمال مقياس سعة أعظم كثيرا من الموجود.

ولم تكن هناك في العالم قبل القرن التاسع عشر أية سفن تتجاوز حمولتها ألفين من الأطنان. وليس هناك اليوم أي عجب في وجود باخرة ذات خمسين ألف طن. ومن الناس من يهزءون بهذا التقدم زاعمين إياه تقدما في "مجرد الحجم" فقط، غير أن هذا النوع من الزراية إنما يدل على ضيق أفقهم.

فليست السفينة العظيمة ولا المبنى ذو الهيكل الفولاذي صورة مضخمة من سفينة الماضي الصغيرة أو بناء الماضي الصغير كما يتوهمون، وإنما هي شيء مختلف في نوعه، يبنى بناء أخف وأقوى، من مواد أجود وأمتن. وبدل أن تكون شيئًا يعتمد على السوابق والحساب التقريبي، إذا بها شيء يرجع إلى حسابات دقيقة معقدة. ففي المنزل أو السفينة القديمة، كانت المادة هي المتسلطة – فكان الحال يقتضي أن تطاع المادة وما يلزمها طاعة العبيد؛ فأما السفينة الحديثة أو المنزل الجديد فقد قبض فيهما على ناصية المادة وغُيرت

---

[1] الفرن العالي (Blast – Furnace) هو فرن لصهر الحديد ينفخ فيه الهواء الساخن. (المترجم).

[2] علم الفلزات (Metallurgy): هو العلم والفنون المطبقة على المعادن بما في ذلك استنزالها من خامها وتنقيتها وخلطها سبائك وتشكيلها ومعالجتها ودراسة تكوينها وبنيتها وخواصها. (المترجم)

[3] مقياس سعة (Oavge) مسافة ما بين القضبان. (المترجم).

معالمها وضبطت أحوالها. تصور ذلك الفحم والحديد والرمل المستخرجة من المحاجر والمناجم، وهي تؤخذ وتشغل، وتصهر وتصب لكي تقام آخر الأمر برجا رفيعا براقًا من الصلب والزجاج يعلـو علـى المدينـة المزدحمة بستمائة قدم!

وهذه التفاصيل عن تقدم معرفة الإنسان بالخواص الفلزية للصلب ونتائجها قد أدلينا بها علـى سـبيل المثال والتوضيح. وفي إمكاننا أن نروي لك قصة مماثلة لهذه عن الخواص الفلزية للنحاس والقصدير وعـن عدد غفير من المعادن نجتزئ منها بذكر اثنين هما النيكل والألومنيوم، وهما معدنان لم يكونا معروفين قبـل انبثاق فجر القرن التاسع عشر.

وإنما يعود إلى هذه السيادة العظيمة النامية على المواد، أعني على الأنواع المختلفة من الزجاج وعلى الصخور وأنواع (البياض) وما إليها، وعلى الألوان والتكوين، الفضل في إحراز الإنسان أهم انتصاراته فـي الثورة الميكانيكية حتى هذا الأوان. ومع هذا فإنا ما نزال في مرحلة اجتناء أول بواكير ذلك الأمـر. لـدينا القوة، ولكن ما يزال علينا أن نتعلم كيف نستخدم قوتنا. وكثيرا ما كانت هبات العلم هذه تستخدم اسـتخدامات سوقية أو قبيحة الذوق أو مبهرجة أو سمجة حمقاء أو شنيعة. ولم يكد الفنان ولا الفني المنفذ [1] أن يـشرعا حتى الآن في العمل في الأضرب اللانهائية للمواد التي هي الآن بين أيديهما.

ونما علم الكهرباء الجديد نموا مماثلاً لهذا التوسع في الاحتمالات الميكانية ولم يحدث إلا فـي العقـد الثامن من القرن التاسع عشر أن شرعت هذه المجموعة من الأبحاث العلمية أن تؤتي ثمارا تؤثر في العقـل السوقي. ثم جاء بغتة كل من النور الكهربائي والجر الكهربائي؛ وشرعت عقول الناس العاديين تدرك أن في الإمكان تبديل (Transmutation) القوى، أعني احتمال إرسال القوة التي يمكن تحويلها إلى حركة ميكانيكية أو ضوء أو حرارة حسبما يختار الإنسان، على امتداد سلك من النحاس، كما ترسل المياه داخل الأنابيب.

وكان البريطانيون والفرنسيون في مبدأ الأمر هما الشعبان القائدان للعالم في مضمار هـذا الإخـصاب العرفاني العظيم. ولكن ما عتم الألمان الذين تعلموا الذلة في حكم نابليون أن أظهروا للوقت مـن الحماسـة والدأب في البحث العلمي ما جعلهم يدركون هؤلاء القادة. وكان العلم البريطاني في معظم أمره مـن خلـق رجال من الإنجليز والاسكتلنديين [2] الذين يشتغلون خارج مراكز الحذلقة العادية.

وقد أسلفنا إليك من قبل كيف أن الجامعات في إنجلترة قل عليها الإقبال الشعبي بعد الإصلاح الـديني، وكيف أنها أصبحت وقفًا على النبلاء والأعيان كما صارت الحصن المنيع للكنيسة الرسمية. وتغلبت عليهـا روح ادعاء كلاسيكية ران عليها الغباء والتفاخر بالفخامة؛ كما أنها تسلطت على مدارس الطبقتين الوسـطى والعليا. وكانت المعرفة الوحيدة التي تعترف بها هي الإلمام بنصوص لمختـارات مـن الأدب الكلاسـيكي اللاتيني والإغريقي إلماما لا ينطوي على نقد ولا تمحيص، وكانت أمارة حسن الأسلوب هي وفرة ما فيه من اقتباسات وإشارات وعبارات متحجرة جامدة.

---

[1] المنفذ الفني (Adapter): المنفذ لخطة المهندس. (المترجم)

[2] ولكن ليلاحظ القارئ بويل والسير و. م. هملتون بوصفهما من رجال العلم المبرزين الإرلنديين. (المؤلف).

ومن ثم تواصل التطور المبكر للعلم البريطاني، بالرغم من هيئة التعليم الرسمية، ورغم أنف العـداوة المريرة التي أبداها أصحاب مهنتي التعليم والكهنوت. كذلك تسلطت على التعليم الفرنسي تقاليـد اليـسوعيين الكلاسيكية، وترتب على ذلك أنه لم يعسر على الألمان أن ينظموا هيئة من البحاثة، كانت صـغيرة بالنـسبة لاحتمالات الموضوع، ولكنها كبيرة بالنسبة إلى الفئة القليلـة مـن المختـرعين والتجـريبيين البريطـانيين والفرنسيين. ومع أن هذا العمل عمل البحث والتجريب كان آخذًا بأسباب جعل بريطانيا وفرنسا أغنـى بـلاد العالم وأقواها، فإنه لم يكن بجاعل رجال العلم والابتداع أغنياء ولا أقوياء. وهناك ضـرب ضـروري مـن الروح غير الدنيوية يحيط برجل العلم المخاص لعلمه. فإنه أشد انشغالاً بمباحثه من أن يدبر ويخطط وسـائل يستطيع أن يجر من ورائها المغانم.

وبناء على ذلك تقع عملية الاستغلال الاقتصادي لمكتشفاته بشكل سهل جدا وطبيعي جـدا فـي أيـدي طراز من الناس أكثر ميلاً إلى الاقتناء والاحتياز. وكان كل دور جديد من أدوار التقدم العلمي والتكنيكي ينتج في بريطانيا العظمى محصولاً جديدا من الأغنياء الذين كانوا من تمام الرضا عن أنفـسهم بحيـث يتركـون الإوزة الذهبية البيض تموت جوعا، وإن لم يظهروا كما فعل العلماء المدرسانيون ورجال الأكليروس نفـس الرغبة الجامحة في إهانة إوزة البيض الذهبي القومي وقتلها. كانوا يرون أن المخترعين والمكتشفين يجيئون بحكم الطبيعة لكي ينتفع من ورائهم من هم أشد منهم ذكاء ومهارة.

وكان الألمان أكثر منهم حكمة بقليل في هذا الأمر. فإن "العلماء" الألمان لم يظهروا نفـس الكراهيـة العنيفة نحو العلم الجديد بل سمحوا له بالتطور. كذلك لم يكن يخالج الألماني صاحب الأعمال والمصنع نحـو مواطنه العالم نفس ما كان يخالج منافسه البريطاني من احتقار للعلماء. كان هـؤلاء الألمـان يعتقـدون أن المعرفة ربما أصبحت محصولاً مزدرعا يستجيب للمخصبات. لذلك سلموا للذهن العلمي بقـدر معـين مـن الفرصة ينتهزه؛ فكانت مصروفاتهم العامة على أعمال البحث أكبر نسبيا، وجوزي هذا الإنفاق أوفى الجزاء.

وما بلغ القرن التاسع عشر نصفه الثاني حتى كان العالم الألماني قد جعل اللغة الألمانية لغة ضرورية لكل طالب علوم يرغب في أن يكون على الدوام في الطبيعة مماشيا آخر إنتاج في فرع علمـه، وأحـرزت ألمانيا في فروع معينة من العلوم وفي الكيمياء بوجه خاص تفوقًا عظيما جدا على جيرانها الغربيين. وأخـذ الجهد العلمي في ألمانيا في العقدين السابع والثامن يحدث آثاره في ثمانينات القرن، وأخذ الألمـان يـسبقون بريطانيا وفرنسا سبقاً متواصلاً في النجاح التطبيقي الفني (التكنيكي) والصناعي. ومن المستحيل فـي معـالم للتاريخ مثل هذه أن نتعقب شبكة العمليات العقلية المركبة التي أدت إلى هذا التوسع المتواصل في المعرفـة والقوة الذي يجري الآن في العالم. وكل ما نستطيع فعله هنا أن نسترعي التفات القارئ إلـى أبـرز نقـاط التحول التي اقتادت آخر الأمر "زلاقة" الشئون الإنسانية إلى ما هي عليه من حال التقدم السريع.

وقد حدثناك عن أول فكاك للتطلع الإنساني، وعن بدايات البحث والتجريب المنتظم. كذلك حدثناك كيف حدث عندما جاء النظام الروماني البلوتوقراطي [1] وما ترتب عليه من روح استعمارية ثم ذهب من العـالم

---

[1] البلوتوقراطي: القائم على حكم الأثرياء. (المترجم)

ثانية – أن تجددت عملية البحث هذه. وحدثناك عن إفلات البحث من الاستخفاء والاستفادة الشخصية إلى فكرة النشر وإلى الأخوة في المعرفة، ولاحظنا تأسيس الجمعية الملكية البريطانية، والجمعية الفلورنسية، وأشباههما بوصفهما نتيجة لهذا التنظيم للفكر على أسس "الاشتراكية". كانت هذه الأمور هي جذور الانقلاب الميكانيكي، وما دام جذر البحث العلمي الصرف حيا فلن يقف تقدم ذلك الانقلاب عند حد. وربما جاز لنا أن نقول إن الثورة الميكانية ذاتها ابتدأت باستهلاك ما في إنجلترة من الخشب في مصانع الحديد. وأفضى ذلك إلى استعمال الفحم، وأدى منجم الفحم إلى المضخة البسيطة، وأدى التحول بالمضخة على يد "وات" إلى آلة تدفع الماكينات، إلى ظهور القاطرة والسفينة البخارية. وكان ذلك هو الدور الأول من أدوار توسع عظيم في استعمال البخار. وابتدأ دور ثان للثورة الميكانية بتطبيق العلم الكهربي على المسائل العملية وعلى تطوير الإضاءة الكهربية ونقل القوة والجر.

وثمة دور ثالث لا بد من تمييزه، جاء عندما ظهر في العقد التاسع طراز جديد من الآلات، وهي آلات حلت فيها قوة التمدد في خليط متفجر محل قوة التمدد في البخار. ولم تلبث الآلات الخفيفة العالية الكفاية التي أصبحت بذلك في حيز الإمكان أن طبقت على السيارة، وتطورت آخر الأمر حتى بلغت درجة عالية من الخفة والكفاية تجعل الطيران شيئًا عمليا، والطيران فكرة كان معروفًا منذ زمن مديد أنها ممكنة.

وكان جهد إخوان رايت في أمريكا ذا أهمية أولية في هذا الميدان. وفضلاً عن هذا فإن الأستاذ لانجلي التابع لمعهد سميثسون بنيويورك تمكن في زمن يرجع إلى (١٨٩٧) من صنع آلة للطيران، وإن لم تبلغ من السعة حد حمل جسم إنساني. فأما مجهوده الثاني وهو طائرة كاملة الحجم، فقد فشل في محاولاته الأولى، ولكن كوريس وفق بعد إدخال تغييرات عظيمة جدا عليها، إلى الطيران بها بنجاح بعد ذلك ببضع سنين. حتى إذا وافت (١٩٠٩) أصبح في إمكان الطائرة أن تعمل في النقل الإنساني. وكانت بوادر بعض التوقف في زيادة السرعة الإنسانية قد لاحت في الأفق مع إحكام السكك الحديدية والانتقال بالسيارة في الطرق؛ ولكن جاءت مع آلة الطيران تخفيضات جديدة في قيمة المسافة بين نقطة على سطح الأرض ونقطة أخرى. وقد كانت المسافة بين لندن وأدنبرة تستغرق ثمانية أيام في القرن الثامن عشر. وفي (١٩١٨) قدمت لجنة النقل الجوي البريطانية تقريرا تقول فيه إن الرحلة من لندن إلى ملبورن وهي نصف الدورة الكاملة حول الأرض، يرجح أن يمكن في بضع سنين أن تتم في نفس مدة الأيام الثمانية.

وينبغي ألا نبالغ في التشديد على هذه التخفيضات الرائعة في المسافة الزمنية بين مكان وآخر. فما هي إلا مجرد مظهر واحد من مظاهر تكبير الاحتمالات الإنسانية أعظم عمقًا وأشد ضخامة. فإن علم الزراعة والكيمياء الزراعية مثلاً أصابا أطوارا من التقدم مماثلة لهذه تماما إبان القرن التاسع عشر. وبلغ من تعلم الناس تخصيب الأرض أن أنتجوا أربعة أضعاف وخمسة أضعاف المحاصيل التي كانوا يحصلون عليها من المساحة نفسها في القرن السابع عشر. وكان هناك تقدم أشد خرقًا للمعتاد في العلوم الطبية. فارتفع معدل متوسط العمر وزادت الكفاية اليومية وتناقص ضياع الحياة بددا بسبب سوء الصحة.

من أجل ذلك كله يجتمع لنا الآن تبدل تام في الحياة الإنسانية يبلغ من ضخامته أن يكون طورا جديدا في التاريخ. فقد أوجد الإنسان هذه الثورة الميكانية فيما يربو على القرن بقليل. وقام الإنسان إبان تلك المدة بخطوة في أحوال حياته المادية أسرع من كل ما خطاه في جميع الفترة الطويلة المحصورة بين المرحلة الباليوليثية (العصر الحجري القديم) وعصر الزراعة، أو بين أيام بيبي في مصر وأيام جورج الثالث. وظهر إلى عالم الوجود هيكل جديد هائل للشئون الإنسانية. ومن الواضح أنه يتطلب إعادة تنسيق طرائقنا الاجتماعية والاقتصادية من جديد. بيد أن هذه التنسيقات الجديدة المطلوبة قد ترتبت بالضرورة على تطور الثورة الميكانيكية، وهي لا تزال حتى اليوم في مراحلها الافتتاحية لما تتجاوزها.

٢- العلاقة بين الانقلابين الآلي والصناعي

تجنح كثير من كتب التاريخ إلى الخلط بين ما سميناه هنا باسم الانقلاب الآلي، الذي كان شيئًا جديدا تمام الجدة في الخبرة الإنسانية ناشئًا عن تطور العلم المنظم، وكان خطوة جديدة تشبه اختراع الزراعة أو اكتشاف المعادن، وبين شيء آخر مختلف تمام الاختلاف في مصادره وأصوله، شيء كان له من قبل سابقة تاريخية، هو التطور الاجتماعي والمالي الذي يسمى الانقلاب الصناعي أو الثورة الصناعية.

كانت العمليتان تسيران جنبا إلى جنب، وكانتا تتفاعلان بعضهما مع بعض تفاعلا مستمرا، ولكنهما كانتا مختلفتين أساسا وروحا وجوهرا. إذ لم يكن بد من أن يحدث انقلاب صناعي من نوع ما، ولو لم يوجد الفحم الحجري، ولو لم يوجد البخار ولا الماكينات؛ ولعله كان سيقتفي في هذه الحالة بدقة أشد، خطى التطورات المالية والاجتماعية التي حدثت في السنوات المتأخرة للجمهورية الرومانية. ولعله كان يعيد قصة المزارعين الأحرار المشردين عن أملاكهم، وقصة مناسر العمال ونظام المزارع الكبيرة والثورات المالية الكبرى، وإحدى العمليات المالية المقوضة للمجتمع.

والواقع أن طريقة المصنع ذاتها جاءت قبل ظهور القوة والماكينات. فكأن المصانع لم تكن ثمرة للآلات، بل "لتقسيم العمل". فإن العمال المدربين المكدودين كانوا يصنعون أشياء من أمثال قبعات السيدات وصناديق الورق المقوى والأثاث ويقومون بتلوين الخرائط وصور الكتب وما إليها، قبل أن تستعمل العجلات المائية نفسها في العمليات الصناعية. وكانت هناك مصانع في روما في أيام أوغسطس، فإن الكتب الجديدة مثلاً كانت تملى على صفوف من النساخ في مصانع الوراقين. وسوف يدرك كل لبيب من دارسي الكاتب الإنجليزي دانيال ديفو ونشرات فيلدنج السياسية، أن فكرة جمع الفقراء كالقطيع في أماكن ليشتغلوا أحشادا في كسب رزقهم، كانت أمرا سبقت معرفته في بريطانيا قبل نهاية القرن السابع عشر. وهناك من الإشارات ما يدل على هذا حتى في زمان يرجع في قدمه إلى أيام اليوتوبيا [١] التي ألفها السير توماس مور (١٥١٦). كان الانقلاب تطورا اجتماعيا وليس ميكانيا.

وكان تاريخ أوربا الغربية الاجتماعي والسياسي إلى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر يترسم في الحقيقة نفس الطريق الذي سارت فيه الدولة الرومانية في القرون الثلاثة السابقة على ميلاد المسيح. وكانت أمريكا من نواح كثيرة إسبانيا جديدة. وكانت الهند والصين مصرا جديدة. على أن الانقسامات السياسية في أوربا، والثورات السياسية ضد الملكية، وعناد العامة وربما أضيف كذلك قابلية الذكاء الأوربي الغربي العظيمة لتلقي الفكرات والمستحدثات الميكانيكية، قد حولت العملية إلى وجهات جديدة تمام الجدة. وبفضل المسيحية بوجه خاص انتشرت فكرات الترابط الإنساني انتشارا أعم وأعظم في هذا العالم الأوربي الأحدث جدة، ولم يكن السلطان السياسي مركزا إلى هذا الحد. ومن ثم سارع النشيط من الرجال التواق إلى الثراء،

---

[١] اليوتوبيا: جزيرة خيالية تصورها السير توماس مور حاوية لأكمل النظم السياسية والدينية والقانونية والاقتصادية. واسمها الأصلي بالعربية الطوبى. (المترجم)

فوجه كل همه عن طيب خاطر منصرفًا عن فكرة الرقيق ومناسر العمال إلى فكرة القوة الميكانيكية والماكينة.

أما الثورة الآلية (الميكانيكية) أي عملية الاختراع والاكتشاف الآلي، فكانت شيئًا جديدا في الخبرة الإنسانية، وقد سارت في سبيلها غير عابئة بالعواقب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والصناعية التي عسى أن تترتب عليها. فأما الثورة الصناعية من الناحية الأخرى، شأن معظم الشئون الإنسانية الأخرى، فقد ألم بها وما يزال يلم بها العميق المتكاثر من التغير والانحراف بسبب التغير المستمر في الأحوال الإنسانية الناشئ عن الثورة الميكانيكية. وينحصر الفارق الضروري بين اختزان القناطير المقنطرة من الأموال، وإبادة صغار المزارعين وصغار رجال الأعمال، وطور المالية الكبيرة في القرون المتأخرة للجمهورية الرومانية من ناحية، وبين الحالة الشديدة المماثلة لتلك والتي قوامها تركز رءوس الأموال في القرن الثامن عشر والتاسع عشر من الناحية الأخرى، ينحصر في الفارق العميق في خصائص العمل التي كانت الثورة الميكانيكية تحدثها.

كانت القوة في العالم القديم هي قوة الإنسان، فكان كل شيء يعتمد اعتمادا مطلقًا على قوى الدفع في العضل الإنساني؛ عضل الجهلة والمقهورين من الرجال. وكان قليل من العضل الحيواني قوامه ثيران وخيول الجر وما إليها يضاف إلى عمل الإنسان. فأنى كان هناك حمل لا بد من رفعه فقد كان الرجال هم الذين يرفعونه، وأنى وجب أن يقطع حجر، كان الرجال يقدونه، وأنى لزم حرث حقل من الحقول، كان الرجال والثيران يحرثونه؛ وكان المعادل الروماني للسفينة البخارية هو الغليون (Galley) أي السفينة القديمة بما فيها من صفوف المجدفين المكدودين.

وكانت نسبة ضخمة من أفراد البشرية تستخدم في المدنيات الأولى في العمل الشاق الآلي البحت. والماكينات المدفوعة بالقوة لم يبد فيها عند البداية ما يبشر بأي أمل في فكاك الإنسان من ربقة مثل هذا العناء العضلي الذي لا ذكاء فيه. فكانت جماعات عظيمة من العمال تستخدم في حفر القنوات، وفي عمل قطوع السكك الحديدية وجسور [1] الأنهار وما إليها. تزايد عدد عمال المناجم تزايدا هائلاً. ولكن اتساع التسهيلات وإنتاج السلع تزايد أكثر من ذلك جدا. ومع مضي الزمن بالقرن التاسع عشر أخذ المنطق البسيط الواضح للموقف الجديد يثبت وجوده بشكل أشد وضوحا. فلم تعد الكائنات الإنسانية تطلب بعد ذلك بوصفها مصدرا لمجرد قوة لا يميز بين مفرداتها أحد. إذ كان ما يمكن صناعته آليا بواسطة الكائن الإنساني ممكنًا صناعته أسرع وأجود بواسطة الآلة، ولذا لم تعد هناك الحاجة إلى الكائن الإنساني الآن إلا حيث يتطلب الأمر الاختيار والذكاء. فكأن الكائنات الإنسانية لم تعد تطلب إلا بوصفها كائنات إنسانية لا غير. فأما ذلك العسيف [2] المشتغل بالأعمال الشاقة الذي قامت على أكتافه كل المدنيات السالفة، ذلك الكائن المخلوق لمجرد الطاعة، ذلك الإنسان الذي كان عقله شيئًا لا لزوم له – فقد أصبح غير ضروري لرفاهة الإنسانية.

---

[1] الجسور ليست هنا بمعنى الكباري بل بالمعنى الذي يقال عنه في مصطلح أهل مصر الكورنيش. (المترجم).

[2] العسيف (Drudge): فاعل تساء معاملته ويرهق بالباهظ الحقير من الأعمال. (المترجم).

وصدق هذا على الصناعات العتيقة كالزراعة واستخراج المعادن صدقه على أحدث عمليات التجهيز في المعدنيات. فأما الحرث والبذر والحصاد فقد ظهرت لها آلات سريعة تعمل عمل عشرات الرجال. وفي هذا الميدان تزعمت أمريكا العالم القديم. وكانت الحضارة الرومانية تقوم على كائنات إنسانية رخيصة منحطة عن مكانتها، والحضارة العصرية يعاد بناؤها على القوة الميكانيكية الرخيصة. إذ جاءت مائة من السنين اطرد فيها رخص القوة وغلاء العامل. فلئن اضطرت الماكينات أمد جيل أو بعض جيل أن تنتظر دورها في المنجم، فإن ذلك كان لمجرد أن الرجال لبثوا ردحا من الزمان أرخص من الماكينات. فكانوا يقدرون في نورثمبرلند وديرهام في أيام استخراج الفحم الأولى تقديرا يبلغ من الرخص والحطة أنه لم تجر العادة بإقامة التحقيق حول أجساد القتلى في كوارث المناجم. وكانت الحاجة إلى نقابات العمال ماسة لتغيير حالة الأمور هذه.

ولكن هذا الاتجاه العام نحو إكمال العمل اليدوي والقضاء عليه بواسطة الآلات، كان انقلابا ذا أهمية من الدرجة الأولى تماما في الشئون الإنسانية. وكان أهم ما يشغل بال الغني والحاكم في المدينة القديمة أن يحتفظ بمدد متواصل من العسفاء المشتغلين بالأعمال الشاقة. إذ لم يكن هناك أي مصدر آخر للثراء. فلما تطاول العهد بالقرن التاسع عشر أخذت تزداد وضوحا لدى القوم الأذكياء الموجهين للآخرين، الفكرة القائلة بأن الرجل العادي لا بد له الآن من أن يكون شيئًا أحسن من فاعل عسيف بكدح. فكان لا بد من تعليمه للحصول على "الكفاية الصناعية على الأقل". وكان لا بد له من أن يفهم ما عليه حال الدنيا.

وقد كان التعليم الشعبي منذ أيام الدعاية المسيحية الأولى، نارا تتقد تحت الرماد في أوربا، كما كانت تتقد تحت الرماد في آسيا حيثما وضع الإسلام قدمه، بسبب الضرورة القاضية بجعل المؤمن على شيء من الفهم للعقيدة التي تنقذ روحه، وتمكينه من قراءة ما تيسر من الكتب المقدسة التي تحمل إليه اعتقاده. وقد أدت الخصومات بين الطوائف المسيحية وما صحبها من تنافس على الأنصار، إلى حرث التربة وتمهيدها لبذر بذور التعليم الشعبي العام. فقد حدث في إنجلترة مثلاً عندما ضرب القرن التاسع عشر في عقديه الرابع والخامس، أن أنتجت منازعات الطوائف وضرورة الاستحواذ على الأنصار صغارا، وفرة في المدارس الليلية، ومدارس الأحد وسلسلة من الهيئات التعليمية للأطفال، والمدارس البريطانية غير المنتمية إلى أية طائفة دينية والمدارس القومية التابعة للكنيسة، بل حتى المدارس الأولية الكاثوليكية.

وكان أصحاب المصانع الأقدمون عهدا والأقل استنارة وعلما يكرهون هذه المدارس ويعارضونها لضيق أفقهم حتى عن النظرة الخاصة إلى مصالحهم الخاصة. وفي هذا المجال أيضا تزعمت ألمانيا الفقيرة الأكثر جيرانها منها ثروة. وسرعان ما وجد المعلم الديني في بريطانيا أن طالبي المكاسب قد انحازوا إليه، وقد غلبهم شغف غير متوقع إلى تعليم عامة الناس، وإلا فإلى "تدريبهم" إلى مستوى أعلى في الكفاية الاقتصادية والإنتاجية.

وكان النصف الثاني من القرن التاسع عشر فترة تقدم سريع في التعليم الشعبي العام في كـل أرجـاء العالم المصطبغ بالصباغ الغربي. ولم يصحب هذا تقدم مماثل في تعليم الطبقات العليا - ولا ريـب أن قـد حصل شيء من التقدم ولكنه ليس شيئًا يعادل ذاك ويقابله – وبذا لم يعد ذلك البون العظيم الذي كـان حتـى حين يقسم العالم إلى الطبقة القارئة والمجموعة غير القارئة، يزيد كثيرا عن فارق ضئيل جدا في المـستوى التعليمي. وكانت الثورة الميكانيكية تقف من وراء هذه العملية. وكانت تسير غير عابئة في الظاهر بالظروف الاجتماعية، ولكنها مصرة في الحقيقة إصرارا عنيدا على إلغاء الطبقة التامة الأمية في كل أرجاء العالم إلغاء كاملاً.

ولم يستطع عامة سكان روما بأية حال فهم الثورة الاقتصادية في الجمهورية الرومانية فهما واضـحا. فإن المواطن (الممادن) الروماني العادي لم ير قط التغيرات التي كان يعيش فيها رؤية واضحة مفهومة كمـا نراها نحن الآن. على أن الثورة الصناعية وهي تمضي في سبيلها قرب نهاية القرن التاسع عـشر، كانـت واضحة لأعين العامة الذين كانت تؤثر فيهم، وكانوا يعرفون أنها عملية واحدة متماسكة، لأنهم كانوا قد أخذوا للوقت يستطيعون القراءة والمناقشة والتواصل، ولأنهم كانوا يضربون في الأرض ويرون الدنيا على شـاكلة لم تصل إليها فئة من العامة قبلا. ولقد حرصنا في هذه "معالم التاريخ" أن نومئ لك إلى الظهور التـدريجي للعامة بوصفهم طبقة لها إرادة مشتركة وفكرات مشتركة. ومن رأي الكاتب أن الحركـات الـضخام لعامـة الناس فوق مساحات جسيمة، لم تصبح في الإمكان إلا نتيجة لديانتي الدعاة: المسيحية والإسلام، وإصرارهما على الاحترام الذاتي للفرد. وقد سقنا قصة حماسة العامة للحرب الصليبية بوصفها مميزا لدور جديـد مـن أدوار التاريخ الاجتماعي.

غير أن هذه الحركات الضخام بذاتها كانت قبل القرن التاسع عشر، محدودة نسبيا. ولكن فتن الفلاحين للمطالبة بالمساواة ظلت ابتداء من زمان ويكليف فما عقبه، مقصورة على مجتمعات للفلاحين فـي مواضـع محلية محدودة، ولم تنتشر إلا على بطء إلى نواح تؤثر فيها مؤثرات مشابهة. أجل إن صناع المدن كثيرا ما كانوا يشغبون، ولكن ذلك كان شيئًا محليا بحتًا.

ولم يكن إحراق القصور في الثورة الفرنسية من عمل فلاحين قد قلبوا حكومتهم، بل من عمل فلاحين أطلقهم من قيودهم قلب حكومتهم. وكان "كوميون" باريس أول ظهور فعال لصناع المدينـة بوصـفهم قـوة سياسية، وكان الجمهور الباريسي في الثورة الأولى جمهورا شديد التخلط بدائي التفكير متوحشًا، بالموازنـة إلى أي جمهور أوربي بعد (١٨٣٠).

على أن الثورة الميكانيكية لم تقتصر على إدخال التعليم قسرا على السكان كافة، بل كانت مؤدية إلـى رأسمالية كبيرة وإلى إعادة تنظيم كبير المعيار للصناعة قدر له أن ينتج في العامة نظاما من الفكرات جديـدا مميزا بدلاً من مجرد العناد القلق والثورات الأولية التي تحدث من دهماء أميين.

ولقد سبق أن لاحظنا كيف شقت الثورة الصناعية الطبقة الصانعة، التي كانت حتى حين ضـربا مـن طبقة متوسطة مخلطة، إلى نوعين من الطبقات، هي أصحاب الأعمال الذين بلغوا من الثراء ما مكـنهم مـن

الاختلاط بالطبقات المالية والمتجرة وصاحبة الأراضي؛ والمستخدمين (العمال) الذين كانوا ينتقلون إلى حالة تقرب رويدا رويدا من حالة مجرد عمال المناسر والزراعة. وبينما كان العامل الصناعي يهبط، كانت ترتفع قيمة العامل الزراعي بسبب إدخال الآلات الزراعية والزيادة في قوة إنتاجه الفردي.

وعند منتصف القرن التاسع عشر، كان كارل ماركس (١٨١٨ – ١٨٨٣) وهو يهودي ألماني بالغ بسطة عظيمة من العلم، قد أخذ يشير إلى أن تنظيم الطبقات العامة على يد جماعة ملاك رأس المال المتزايدي التمركز تزايدا متواصلاً مستمرا، كان يطور تصنيفًا اجتماعيا جديدا يحل محل أنظمة طبقات الماضي الأكثر تعقيدا. ذلك أن الأملاك بالقدر الذي هي به قوة، كانت تجمع بعضها إلى بعض في أيد قليلة نسبيا، هي أيدي كبار الأغنياء، أي طبقة الرأسماليين، على حين كان ينتج هناك اختلاط عظيم في العمال الذين لديهم القليل أو ليس لديهم شيء من الأملاك، الذين كان يسميهم باسم "أصحاب الأملاك سابقًا" أو "البروليتارية [1] " – (وهو استعمال خاطئ لهذه الكلمة) – وهم الذين لا مناص لهم بسبب تنازع مصالحهم ومصالح الأغنياء من أن يطوروا "وعيا مشتركًا" بين أفراد طبقتهم.

وقد جاء على الناس ردح من الزمان بدا لهم فيه أن الفوارق في التعاليم والتقاليد بين العناصر الاجتماعية المتنوعة الأقدم عهدا، والتي كانت تمر في عملية الصهر والخلط بعضها ببعض لتصبح الطبقة الجديدة طبقة (أصحاب الأملاك سابقًا)، قد أخذت تناقض هذا التعميم الجارف. فكانت تقاليد أصحاب الحرف وصغار أصحاب العمل والمزارعين الفلاحين ومن إليهم تختلف جميعا بعضها عن بعض وعن التقاليد الحرفية المتنوعة للعمال. ولكن هذا التعميم "الماركسي" يصبح الآن مقبولاً أكثر فأكثر مع انتشار التعاليم ورخص ثمن الكتب.

هذه الطبقات التي لم يكن يربطها في أول الأمر رابط غير فقر مشترك أصابهم جميعا على السواء، كانت ولا تزال تنخفض عن نفس مستوى الحياة أو ترتفع إليه وتجبر على قراءة نفس الكتب والاشتراك في نفس المضايقات. ومن ثم فإن شعورا من التماسك بين كل أنواع الرجال الفقراء الذين لا أملاك لهم ضد الطبقة التي تكدس الأرباح ومتمركز الثروة، قد أخذ يزداد وضوحا أكثر فأكثر في عالمنا هذا. فإن الفوارق القديمة تذوى، فيذهب الفارق بين رب الحرفة والعامل في العراء، وبين الموظف صاحب السترة (الجاكتة) السوداء والعامل صاحب معطف العمل الواقي (العفريتة)، وبين القسيس الفقير ومعلم المدرسة الأولية، وبين رجل الشرطة وسائق الأومنيبوس. فلا بد لهم جميعا من مشترى نفس الأثاث الرخيص، ولا بد لهم من سكنى البيوت الرخيصة المتشابهة. ولا بد أن يختلط أبناؤهم وبناتهم جميعا ويتزوجوا بعضهم من بعض. ويصبح النجاح في المستويات العليا أمرا ينقطع دونه أكثر فأكثر أمل عامة الناس. وتبرر الحوادث كل يوم أكثر فأكثر آراء ماركس الذي لم يدافع عن حرب الطبقات قدر ما تنبأ بها؛ وهو يعني بحرب الطبقات الحرب التي

---

[1] البروليتارية (Proletariat): هي الطبقات الدنيا أو عامة الشعب أو العمال وهي كلمة مشتقة من اللفظة اللاتينية (Proletarius)، ومعناها مواطن من أدنى طبقة، يخدم الدولة لا بأملاكه بل بنسله (Panes). ومن ثم يشير المؤلف إلى الفارق بين استخدام اللفظ قديما وحديثًا (المترجم).

تشنها طبقة "أصحاب الأملاك سابقًا" على الأقلية التي لا تبرح تمتلك الأملاك وقد يدفع بعضهم أحيانًا في جدله ضد ماركس بأن نسبة الناس الذين لهم مدخرات مستثمرة قد تزايدت في كثير من المجتمعات العصرية. فهذه المدخرات هي من الناحية الفنية التكنيكية "رأسمال" وأصحابها إنما هم "رأسماليون" على ذلك المنوال، ويظن أولئك أن هذا يناقض بيانات ماركس القائلة بأن الملكية تتمركز في أيد تنتقل في عددها من القليل إلى الأقـل. وكان ماركس يستعمل كثيرا من مصطلحاته بلا عناية ويسيء اختيارها، وكانت فكراته خيرا من ألفاظه. فقد كان عندما يكتب "الأملاك" يعني "الأملاك إلى حد الذي هي به قوة". وللمستثمر الصغير قوة صغيرة صـغرا ملحوظًا على رأس ماله المستثمر.

٣- اختمار الفكرات في ١٨٤٨

لا شك أن من أعسر الأمور تعقب المعالم الإجمالية لاختمار الأفكار الذي كان يحدث أثناء الانقلابين الآلي والصناعي في القرن التاسع عشر. على أنه لزام علينا أن نحاول ذلك إن نحن شئنا أن نربط بين ما سبق حدوثه في هذا التاريخ وبين حال عالمنا اليوم.

ومن المناسب أن نميز بين فترتين رئيسيتين في السنوات المائة الممتدة بين (١٨١٤، ١٩١٤). فقد جاءت أولاً الفترة بين (١٨١٤ – ١٨٤٨)، وفيها حدث قدر جسيم جدا من التفكير المتحرر والكتابة الأسمحية المتحررة في دوائر محددة، ولكن لم تحدث فيها أية تغييرات عظيمة أو تطورات كبيرة في الفكر بين كتلة الشعب العامة. وكانت شئون العالم تلك الفترة تعيش – إن جاز لنا مثل هذه العبارة – على رأسمالها الذهني القديم، فإنها كانت تمضي وفق الفكرات الرئيسية "للثورة" والثورة "الرجعية" المضادة. وكانت الفكرات التحررية السائدة هي الحرية وضرب مبهم بعينه من فكرة المساواة. وكانت فكرات المحافظين هي الملوكية؛ والديانة المنظمة، والامتيازات الاجتماعية والطاعة.

وكانت روح المحالفة المقدسة حتى (١٨٤٨)، وهي روح مترنيخ تكافح لمنع أي انتعاش للثورة الأوربية التي خانها نابليون وأرجعها أدراجها. ومن الناحية الأخرى كانت الثورة في أمريكا بجزءيها الشمالي والجنوبي، قد انتصرت. وكانت الروح التحررية في القرن التاسع عشر تسودها لا ينازعها هناك منازع. وكانت بريطانيا قطرا قلقًا، لا هي تميل بولائها تمام الميل إلى الرجعية ولا تميل به تمام الميل إلى حركة التقدم، ولا هي صادقة في روحها الملكية ولا صادقة في روحها الجمهورية فكانت أرض كرومويل وكذلك كانت أرض الملك المرح شارل، وكانت مضادة للنمسا؛ ومضادة لآل بوربون، ومضادة للبابا، ومع ذلك فإن روح القمع فيها كانت ضعيفة. ولقد حدثناك عن أول سلسلة من عواصف التحرر في أوربا في (١٨٣٠) وحواليها. وصدر في بريطانيا في (١٨٣٢) مشروع قانون إصلاح يوسع حق الانتخاب توسيعا عظيما ويعيد إلى مجلس العموم شيئًا كثيرا من خصيصته التمثيلية، فخفف كثيرا من توتر الموقف.

وجاءت قرابة (١٨٤٨) وحواليها مجموعة ثانية من الانفجارات أشد من الأولى خطورة بكثير، أفضت إلى خلع ملكية آل "أورليان"، وتأسيس جمهورية ثانية في فرنسا (١٨٤٨ – ٥٢)، وأثارت شمال إيطاليا والمجر ضد النمسا، وأهاجت البولنديين في "بوزن" على الألمان، وجعلت البابا يفر من وجه الجمهوريين في روما. وعقد في براج مؤتمر شائق جدا هو مؤتمر الكتلة السلافية الذي تسلف مقدما كثيرا من تلك التسويات والتعديلات الإقليمية التي تمت في (١٩١٩). وانفض المؤتمر بعد أن قمعت الجنود النمسوية عصيانًا شب في براج. فأما العصيان الهنغاري فكان أشد قوة فواصل الكفاح سنتين. وكان زعيمه الأكبر هو لويس كوسوث. ولم يبرح بعد أن دحر ونفي، يواصل دعاية عظيمة في سبيل حرية وطنه وقومه.

وقد أخفقت كل هذه الفتن في النهاية إخفاقًا تاما. وترنح النظام القائم ولكنه ظل واقفًا على قدميه. ولا ريب أن هذه الفتن كانت وراءها تذمرات اجتماعية خطيرة، ولكن لم تكن لهذه الثورات حتى آنذاك، اللهم إلا في حالة باريس، أية صورة واضحة ملموسة. وأحسن ما يقال عن عاصفة (١٨٤٨) هذه – بقدر ما يهم أوربا

– أن تنعت في كلمة واحدة باسم "ثورة الخريطة السياسية الطبيعية" على الترتيبات الاصطناعية لدبلوماسـي فيينا، وعلى نظام القمع الذي ترتب على تلك الترتيبات.

ومن ثم يكون تاريخ أوربا من (١٨١٥ – ١٨٤٨) على وجه العموم، لاحقًا لتاريخ أوربا مـن (١٧٨٩ – ١٨١٤). ولم يكن ينطوي على أية فكرات جديدة حقًا وما برح رأس المتاعب هو الكفـاح بـين مـصالح الرجال العاديين وبين نظام الدولة العظمى التي أرهقت بالضغط حياة البشرية وقيدتها – وإن يكن في الكثيـر من الأحاديين كفاحا أعمى سيئ التوجيه.

ولكن حدث بعد (١٨٤٨)، أي من (١٨٤٨ إلى ١٩١٤) أن عملية إعادة تسوية الخريطة إعادة تتجه إلى إيجاد إيطاليا حرة موحدة، وألمانيا موحدة، تواصلت ولم تقف عند حد. فقد بدأ دور جديد في عملية التكيـف الذهني والسياسي وفق ما بلغته البشرية من المعرفة الجديدة والقوى المادية الجديدة. ثم حدث انفجار عظـيم للفكرات الجديدة الاجتماعية والدينية والسياسية، تغلغل بها في العقل الأوربي العام. ولسوف نتأمل في الأقسام الثلاثة التالية مصادر هذه الانفجارات ونوعها ذلك بأنها وضعت لنا الأسس التي نبني عليهـا اليـوم فكرنـا السياسي، غير أنها ظلت زمنًا طويلاً وليس لها أثر كبير على الـسياسة المعاصـرة. فاسـتمرت الـسياسة المعاصرة تجري على السنن القديمة. وإن داخل الوهن المتواصل ما لها من دعامـة فـي ضـمائر النـاس واعتقاداتهم الفكرية.

ولقد وصفنا لك آنفًا الطريقة التي قوضت بها إحدى العمليات الذهنية القوية نظـام الملكيـة العظمـى بفرنسا قبل (١٧٨٩). وثمة عملية تقويض مماثلة كانت تجري في أرجاء أوربا إبان فترة الدول الكبرى مـن (١٨٤٨ – ١٩١٤). إذ انتشرت في كل أرجاء الهيئة الاجتماعية شكوك عميقة حول نظام الحكومـة وحـول مدى الحريات التي لكثير من أشكال الملكية في النظام الاقتصادي. ثم جاءت حرب هي أعظم حروب التاريخ وأشدها تدميرا، ومن ثم استحال على الذين عاشوا بعدها مباشرة أن يقدروا قوة ومجال الفكرات الجديدة التي تجمعت في هذه السنوات الست والستين. فلقد مرت الدنيا في ملمة كبرى أعظم كثيرا، حتـى مـن الكارثـة النابليونية نفسها، وما نحن إلا في فترة راكدة بين المد والجزر تقابل فترة (١٨١٥ – ٣٠) وتمت إليها بسبب. وما زلنا نتوقع أن تأتينا سنتا (١٨٣٠، ١٨٤٨) الخاصتين بنا وبالقرن العشرين فتكشفان لنا أين نحن وقوف.

٤- تطور فكرة الاشتراكية

قفونا في كل أرجاء هذا الكتاب التضييق التدريجي الذي حاق بفكرة الملكية منذ الادعاء الأول غير المحدود للرجل القوي على ملكية كل شيء، ومنذ إدراك الناس تدريجيا الفكرة الأخوية بوصفها شيئًا يسمو على البحث الشخصي عن الذات. وقد بدأ الأمر بأن أخضع الناس بدافع الخوف من الملك وا ، لسلطان شيء أعظم من المجتمعات القبلية. ولم يحدث إلا في خلال الآلاف الثلاثة أو على الأكثر الآلاف الأربعة الأخيرة من السنين، أن تهيأ لنا برهان واضح يدل على أن نكران الذات الإختياري في سبيل غاية أعظم، وبغير أجر يرجى أو ثواب ينتظر، كان فكرة مقبولة لدى الناس، أو أن أي إنسان قد قام بطرحها.

ثم إننا نجد شيئًا ينتشر على وجه الشئون الإنسانية، كما تنتشر رقاع من ضياء الشمس ثم تمر فوق جوانب التلال في يوم ريح من أيام الربيع، هو الفكرة القائلة بأن في التضحية بالنفس سعادة أعظم من أي إرضاء ذاتي أو انتصار شخصي، وحياة للبشرية مختلفة وأعظم قدرا وأكثر أهمية من صافي مجموع حياة الأفراد الذين يوجدون في نطاقها؛ ورأينا هذه الفكرة تصبح وهاجة كالنبراس، ناصعة نصاعة ضياء الشمس حين تلتقطه إحدى النوافذ وتعكسه على منظر طبيعي فتبهر به الأبصار، رأيناها في تعاليم "بوذا"، "ولاو تسي" وبوجه أشد ما يكون وضوحا في تعاليم "يسوع" الناصري.

ولم تفقد المسيحية قط أثناء كل ما ألم بها من التغيير والمفاسد بارقة إخلاص لملكوت الرب تجعل بذخ الملوك والحكام الشخصي أشبه الأشياء بوقاحة خادم أفرط في أناقة ثيابه، وتجعل أبهة الأثرياء وإشباعهم لشهواتهم أشبه شيء بتبذير اللصوص. وما من رجل يعيش في مجتمع مسته أنامل ديانة مثل المسيحية أو الإسلام، بمستطيع أن يكون عبدا تام العبودية. فإن في هاتين الديانتين صفة لا تمحى تجبر الرجال على إصدار الأحكام على سادتهم وعلى تحقيق مسئوليتهم الخاصة نحو العالم.

وبينما كان الناس يتلمسون طريقهم نحو حالتهم الفكرية الجديدة منتقلين إليها من حالة الشره الأناني العنيف وروح القتال الغريزية الشرسة في جماعة العائلة الباليوليثية الأولى، فإنهم جهدوا أن يعبروا عن اتجاه أفكارهم وضرورياتهم تعبيراً متخالفًا جدا. ووجدوا أنفسهم على خلاف وفي نزاع مع الفكرات القديمة المقررة. وكانت بهم نزعة طبيعية لمناقضة هذه الفكرات مناقضة صريحة، والوثوب من فوقها إلى عكسها المطلق.

وقد قامت الحركة الأولى متسرعة نافدة الصبر، فأعلنت أنها تهدف إلى مساواة شاملة، ولكن غلبتها والحق يقال الفوضى الشاملة، خاصة وقد واجهها عالم، الحكم فيه والطبقات والنظام تبدو جميعا وكأنما لا هم لها إلا إيتاء الفرص للأنانية الشخصية والظلم الفاجر. وواجهها عالم تبدو فيه الملكية أنها لا تزيد كثيرا عن وقاية للأنانية ووسيلة إلى الاستبعاد، وكان من الطبيعي أيضا أن نجحد كل ملكية.

ويبين لنا تاريخنا أن هناك على الدوام دافعا متزايدا يدفع الناس إلى الثورة على الحكام وعلى الملكية. وقد تعقبنا ذلك الدافع في القرون الوسطى، وهو يحرق قصور الأغنياء ويجرب التجاريب في الثيوقراطية [1] والشيوعية. وكان هذا التمرد المزدوج واضحا جليا في الثورات الفرنسية. فإنا نجد في فرنسا رجالاً يصرخون وأعينهم مسلطة على ضرائب الحكام، بأن الأملاك حرمة يجب ألا تنتهك، كما نجد آخرين يصرخون وأبصارهم شاخصة إلى مساومات صاحب العمل القاسية أنه يجب أن تلغى الملكية. وهم يعيشون جنبا إلى جنب ويستلهمون جميعا نفس الروح الواحدة، كما أنهم أعضاء طبيعيون في الحركة الثورية نفسها. ولكن ما كانا في كلا الحالين ثائرين عليه إنما هو أن الحكام وصاحب العمل، لا يزالون كغيرهم من البشر أفرادا أنانيين يبحثون عن خير أنفسهم ويظلمون الناس بدل أن يكونوا خداما للمجتمع.

وإنا لنجد هذا الاعتقاد ينمو في أذهان الناس على مر العصور: وهو أن في الإمكان قيام ذلك التنظيم الجديد للقوانين والسلطات قياما يقدم للناس الحكم والنظام، بينما هو لا يبرح يصد أنانية أي حاكم وأية طبقة حاكمة قد تكون ضرورية، ويزود الناس بذلك التعريف للملكية الذي يمنح الحرية من غير قوة ظالمة. وقد شرعنا ندرك في أيامنا هذه أنه ليس في المستطاع بلوغ هذه الغايات إلا بمجهود إنشائي مركب، فإنها تنشأ بسبب منازعات الحاجات الإنسانية الجديدة ضد الجهالة والطبيعة الإنسانية القديمة؛ بيد أنه شاع طوال القرن التاسع عشر ميل مستمر ثابت إلى حل المسألة ببعض الحلول البسيطة. (ليكون الناس سعداء إلى أبد الآبدين، وذلك بغض النظر عن أن الحياة الإنسانية كلها، بل والحياة عامة، ليست على مر العصور إلا محاولة متواصلة لإيجاد حل لمشكلة معقدة مستمرة).

وقد شهد النصف الأول من القرن التاسع عشر عددا من التجارب في تكوين جماعات إنسانية تجريبية ذات نوع جديد، ومن أهم تلك التجارب من الناحية التاريخية، تجاريب وفكرات روبرت أوين (١٧٧١ – ١٨٥٨)، وهو غزال قطن من مانشستر، وهو يعد بوجه عام المؤسس للاشتراكية العصرية. ونشوء كلمة "الاشتراكية" لأول مرة إنما كان بالعلاقة إلى عمله حوالي (١٨٣٥). ويلوح أنه كان رجلاً من رجال الأعمال على غاية من الكفاية. فإنه ابتكر عددا من المستحدثات في صناعة غزل القطن، وجمع ثروة لا بأس بها في سن مبكرة. وقد أحزنه ضياع ما في عماله من احتمالات بشرية بددا؛ فنصب نفسه لتحسين حالهم وتحسين العلاقات بين صاحب العمل والعمال. فجهد أن ينفذ ذلك أولاً في مصنعه بمانشستر ثم في نيولانارك بعد ذلك، حيث ألفى نفسه متصرفًا بالفعل في مصانع تستخدم ألفين من الأفراد.

وتوصل بين (١٨٠٠، ١٨٢٨) إلى أمور ضخمة جدا. فإنه أنقص ساعات العمل، وجعل مصنعه صحيا مقبولاً، وألغى استخدام الأطفال صغار السن جدا، وحسن تدريب عماله وزود العمال بأجور البطالة أثناء فترة كساد في التجارة، وأسس مجموعة من المدارس، وجعل من نيولانارك مثالاً يحتذى لحركة عمالية صناعية أحسن وأطيب، على حين كانت في نفس الوقت تحافظ على رخائها التجاري. كتب كتابات قوية مدافعا عما كانت تتهم به أغلبية البشرية من الإفراط في المسكرات وعدم التبصر في العواقب، التي كان أهل العصر

---

[1] الثيوقراطية (Theocracy): حكومة قسوس تدعى أن ا مصدر سلطتها. (المترجم).

يتخذون منها مبررا يبررون به مظالم الزمان. وكان يرى أن الرجال والنساء هم في أكبر شأنهم ثمرة لبيئتهم التعليمية، وهي مسألة لا تحتاج فكرتها اليوم إلى من يحامي عنها. ثم نصب نفسه للقيام بالدعايـة للنظريـات التي أثبتت صحتها تجربة نيولانارك.

وهاجم ما عليه إخوانه أصحاب المصانع من تكاسل أناني، وفي ١٨١٩ صدر أول "قـانون للمـصانع" بناء على إلحاحه في غالب الشأن، وهو أول محاولة للحد من استغلال أصحاب المصانع باجتناء أفدح الفوائد بكل غباء وجر المغانم من وراء فقر عمالهم. وإن من بين قيود ذلك "القانون" ما يدخل اليوم إلى أذهاننا أعظم الذهول. إذ يكاد يكون مما لا يصدق به عقل أن تقوم يوما ما ضرورة تدعو إلى حماية الأحداث الـذين فـي التاسعة من العمل في المصانع، أو تحديد ساعات العمل الاسمية لمثل أولئك العمال باثنتي عشرة ساعة.

وربما أخطأ بعض الناس فجنح إلى الكتابة عن الانقلاب الصناعي (الثورة الصناعية) كأنما كانت هـي السبيل إلى استرقاق الأطفال المساكين وتشغيلهم فوق طاقتهم. وأنهم كانوا حتى ذلك الحين سـعداء أحـرارا. على أن هذا أمر يفسر التاريخ تفسيرا خاطئًا. إذ إن الأطفال الفقراء الصغار ظلوا منذ بدايات المدنيـة ذاتهـا يجبرون دائما على القيام بأي عمل يستطيعون أداءه. ولكن نظام المصنع جمع عناء الأطفال هـذا كلـه فـي صعيد واحد وجعله شيئًا نظاميا واضحا للعيان يجر من ورائه العار والشنار. وتحدى نظام المصنع في هـذه النقطة ضمير الإنسانية الناهض الآخذ بأسباب الانتعاش. وكان "قانون المصانع البريطاني" فـي ١٨١٩، وإن بدا لأعيننا ضعيفًا هزيلاً، هو "العهد الأعظم Magna Charta" للطفولة. ومن بعدها ابتدأت عمليـة حمايـة أطفال الفقراء، من الكد في أول الأمر ثم من الجوع الجسمي الشديد ومن الجهل.

ولسنا بمستطيعين أن نفصل لك في هذا المقام القصة الكاملة لحياة أوين وأفكاره. فإنه كـان يحـس أن عمله في نيولانارك لا يتجاوز مجرد محاولة في حدود نموذج صغير. كان يذهب إلى أن ما يستطاع عملـه لمجتمع صناعي، يمكن أن ينسحب على كل مجتمع صناعي آخر في البلاد. وكان يدافع مطالبا بإعادة إسكان السكان الصناعيين في مدن على غرار ما حدث في نيولانارك.

ومضت فترة من الزمان خُيل للناس أثناءها أنه استولى على خيال العالم. فناصرت صـحيفتا التـيمس والمورننج بوست مقترحاته. وكان من بين زوار نيولانارك الغراندوق نقولا، الذي خلف الإسكندر الأول على عرش الروسيا؛ وكان دوق كنت ابن جورج الثالث ووالد الملكة فكتوريا صديقًا حميما له. ولكن كـل أعـداء التغيير وكل من يوسوس له الشيطان حسد الفقراء – وقلما خلا زمان من عدد وفير مـن هـؤلاء – وكـل أصحاب المصانع الذين كانوا عرضة للمضايقة بسبب مقترحاته كانوا يتلمسون ذريعة يهاجمونه بهـا، وقـد وجدوها في تعبيره عن آرائه الدينية، التي كانت معادية للمسيحية الرسمية، وبهذا المأخذ نجح أعداؤه في الكيد له وتحقيره. ولكنه واصل عمله في تطوير مشروعاته وتجاريبه، التي كان أهمها مجتمعا فـي نيوهـارموني بولاية إنديانا بالولايات المتحدة، أضاع فيه معظم رأسماله. فاشترى منه شركاؤه نصيبه في مصنع نيولانارك وأخرجوه في ١٨٢٨.

وقد ذاعت تجارب أوين ومقترحاته ذيوعا متراميا جدا، وهي لا تقع تحت مبدأ معين بمفرده. ولم يكـن يحيط به شيء من جو الرجل النظري غير العملي. وكانت تجربته في نيولانارك أول تجربة في عـدد مـن "الأعمال الخيرية" في العالم. وإنما تجيء مدينة اللورد ليفر هولم المسماة بورت سانلايت، ومدينة كاد بوري المسماة بورنفيل ومصانع فورد في أمريكا أمثلة عصرية وأكثر اقترابا من الـشيوعية. وكانـت مقترحاتـه المتعلقة بالتسويات التي تقوم بها الدولة هي ما قد نسميه اليوم باسم اشتراكية الدولة. وتشير تجربته الأمريكية وكتاباته الأخيرة إلى شكل للاشتراكية أكثر كمالاً فيه مزيد من التقدم عن حالة الأمور الراهنة.

وواضح أن لغز "العملة" قد شغل بال أوين. فإنه أدرك أننا لا نستطيع أن نأمل في العدالة الاقتـصادية الحقة، بينما نحن ندفع مقابل العمل نقودا ذات قيمة متأرجحة، - إلا بمقدار ما نرجو وجـود عـالم منـتظم المواعيد إذا كان طول الساعة الزمني تتغير في كل آن. ومن التجارب التي قام بها أنه حـاول نـشر أوراق للعمل تمثل ساعة واحدة أو خمس ساعات أو عشرين ساعة من ساعات العمل. وقد نشأت الجمعيات التعاونية لهذا الزمان – وهي جمعيات أناس فقراء تتحد للشراء والتوزيع الجمعي للضروريات، أو للصناعة الجماعية أو صنع الألبان أو أشكال أخرى من أشكال الزراعة ذات اللون الجماعي، - نشأت مباشرة عـن ابتداهاتـه، وإن انتهت الجمعيات التعاونية الرائدة في زمانه إلى الفشل. على أن الجمعيات التي خلفتها انتشرت في كـل أرجاء العالم، ويبلغ عدد أنصارها اليوم ثلاثين وأربعين مليونًا.

وهناك نقطة جديرة بالملاحظة في شأن اشتراكية أوين المبكرة هذه، هي أنها لـم تكـن فـي البدايـة "ديمقراطية" بأي حال، بل مزجت بها الفكرة الديمقراطية فيما بعد. وكانت دوافعها الأولى خيريـة، وكانـت صورتها المبكرة قائمة على نظام الأبوة. كانت شيئًا يرتفع إليه العمال بالتعليم، على يد ذوي الـسماحة مـن أصحاب المصانع والزعماء. وإذن فلم تكن الاشتراكية الأولى حركة عمال. بل حركة سـادة. وقـد كانـت المباحث المذهبية في الاشتراكية في كل تاريخها بأجمعه، من عمل رجال ليسوا من العمال في شيء. ويصف بير (Beer) كارل ماركس بأنه "أرستقراطي"؛ وكان إنجيلز من التجار، وأما لينين فكان عضوا منفيـا مـن عائلة من أصحاب الأراضي.

وقد سايرت عمل "أوين" هذا سلسلة أخرى من التطورات مستقلة تمام الاسـتقلال بكـل مـن أمريكـا وبريطانيا، وقدر لها آخر الأمر أن تتصل بفكراته الاشتراكية. فقد كان القانون الإنجليزي يحظر من أمد يعيد اندماج الجماعات بقصد حصر التجارة واحتكارها، ويحظر الاندماجات الهادفة لرفـع الأسـعار أو الأجـور بوساطة العمل الجماعي. ولم تكن هناك أي صعوبات كبيرة في هذه المحظورات قبل أن تطلـق التغيـرات الزراعية والصناعية في القرن الثامن عشر فكاك أسراب عظيمة من العمال يشتغلون "من اليـد إلـى الفـم" ويتنافسون على قدر من الأعمال غير كاف. وكان العمال يجدون أنفسهم تحت هذه الظروف الجديدة في حال من الضيق والضغط لا تطاق. وكان أرباب الأعمال يلعبون بأحدهم ضد الآخر. وكان كل منهم يقضي أيامه بل ساعاته في قلق لا يدري ما يكون من زميل له من الإذعان والتنازل، وما قد يترتـب علـى ذلـك مـن التنقيص الجديد في الأجور أو الزيادة في الشقاء.

فأصبح من الضرورات الحيوية للعمال أن يعقدوا اتفاقات وإن تكن غير قانونية ضد مثل هذا التخفيض في الأجور. وكان لا بد لهذه الاتفاقات في مبدأ الأمر من أن تتم وتُصان على يد جمعيات سـرية، أو نـوادٍ مؤسسة في الظاهر لأغراض مختلفة تماما، أمثال النوادي الاجتماعية وجمعيات الجنائز وما إليها، التي كانت تقوم بستر الاندماجات الواقية للأجور. وكان عدم قانونية هذه الجمعيات يجعل أعضاءها ينزعون إلى العنف. كانوا كالوحوش على "المتسللين [1] والفيران" من إخوانهم الذين لا ينضمون إليهم، وكانوا أكثر وحـشية مـع الخونة.

وفي (١٨٢٤) اعترف مجلس العموم بأن من المرغوب فيه تخفيف التوتر في هذه الأمور بتسليمه بحق العمال في تكوين اندماجات "للمساومة الجماعية" مع السادة. ومكن هذا نقابات العمال (Trade Unions) من التطور على مجال كبير من الحرية. وقد ارتقت نقابات العمال بالتدريج – وكانت في مبدأ الأمـر تنظيمـات سمجة شديدة البدائية ذات حرية محدودة جدا، حتى أصبحت "طبقة رابعة حقيقية" في الـبلاد، أي مجموعـة عظيمة من الهيئات تمثل كتلة العمال الصناعيين.

نشأت تلك النقابات في بريطانيا وأمريكا أولاً، ولكنها ما لبثت – مع تعديلات قومية منوعـة، وتحـت أحوال قانونية مختلفة متغيرة – أن انتشرت إلى فرنسا وألمانيا وكل المجتمعات الغربية الصبغة.

وقد نظمت حركة نقابات العمال في الأصل للحفاظ على الأجور ودعمها ومنع عدد الساعات الـذي لا يطاق، وكانت في البداية شيئًا مميزا تام التمييز عن الاشتراكية. فكان العضو في نقابـة العمـال يحـاول أن يستخلص لنفسه أحسن الغُنم من الرأسمالية الموجودة ومن أحوال العمل الموجودة. على حين كان الاشتراكي يرمي إلى تغيير النظام.

وإلى خيال "كارل ماركس" وقدرته على التعميم يرجع الفضل في ربط هاتين الحركتين برباط العلاقـة والاتصال. كان رجلاً تميزت فيه قوة الإحساس بالتاريخ؛ وكان من أوائل من أدرك أن الطبقات الاجتماعيـة القديمة التي استدامت منذ بداية المدنية، كانت تعتبرها عملية حلٍ وعودةٍ إلى التجمع. وقد جعلت منه الـروح التجارية المستقرة في عنصره اليهودي خير من يدرك العداء بين الملكية والعمـل أوضـح إدراك. وجعلتـه تنشئته في ألمانيا – (وهي بلد كان نظام انفصال الطبقات فيها أوضح منه في أي قطر أوربي آخر حتى إنهـا كانت أميل إلى التجمد والتحول إلى طوائف) – يتخيل العامل شخصا يصبح من فـوره ذا وعـي طبقـي [٢] معاديا عداء جماعيا للطبقات التي تركز الملكية في يدها. وكان يعتقد أن حركة نقابات العمال التـي كانـت تنتشر في العالم أجمع – هي تطور خاص بالعامل صاحب الوعي الطبقي.

كان يتساءل قائلاً: ماذا تكون نتيجة "حرب الطبقات" بين الرأسماليين والبروليتارية؟ فقد كان يدفع بـأن مغامرات الرأسماليين المغامرين بسبب ما افتطُروا عليه من الشراهة وحب المقاتلة، لا يلبـث حتـى يجمـع

---

[1] المتسللين والفيران: العمال الذين يقبلون العمل وإخوانهم في إضراب رسمي أو يقبلون أجورا أقل من إخوانهم. (المترجم).

[2] الوعي الطبقي (Class Consciousness): شعور الإنسان بطبقته في المجتمع وتعصبه لها مع العـداء الـشديد للطبقـات الأخرى. (المترجم).

التساط على رأس المال في أيد لا تبرح تقل وتقل، حتى ينتهي الأمر بهم إلى تركيز كـل وسـائل الإنتـاج والترانسيت (Transit) وما إليها إلى شكل يستطيع العمال أن يقبضوا عليه، أولئك العمال الذين يتطور بالمثل وعيهم الطبقي وتماسكهم بوساطة عملية تنظيم الصناعة وتركيزها.

وإنهم ليستولون على ذلك الرأسمال ويستثمرونه لحساب أنفسهم. ويكون ذلك هو الثورة الاجتماعيـة. وعند ذلك تسترجع الملكية الفردية والحرية الفردية، مؤسستين على الملكية المشتركة للأرض وقيام المجتمـع كمجموع بإدارة الخدمات الإنتاجية الكبيرة التي سبق أن نظمها وركزها الرأسمالي الخاص. وتكون تلك هـي نهاية نظام الفرد "الرأسمالي"، ولكنها لا تكون نهاية النظام الرأسمالي. إذ عند ذلك تحل رأسمالية الدولة محل رأسمالية المالك الخاص.

وفي هذا انحراف كبير عن اشتراكية "أوين". وكان "أوين" - شأن أفلاطون – يشخص ببـصره إلـى حسن تمييز الرجال وسداد بصرهم بالأمور في أي طبقة أو في كل الطبقات، راجيا أن تكـون تلـك الخلـة وسيلتهم إلى إعادة تنظيم البناء السياسي الاقتصادي الاجتماعي العرضي الخاطئ. واكتشف "مـاركس" شـيئًا آخر شبهه بالقوة الدافعة في العداوة بين الطبقات يقوم على انتزاع الأملاك وعلى الظلم. على أنه لـم يكـن مجرد نظري متنبئ بل كان كذلك من دعاة ثورة العمال، ثورة من يقال لهم "البروليتاريـة". وقـد أدرك أن للعمال مصلحة مشتركة ضد الرأسمالي في كل مكان، وإن أظهر بتأثير تجربة حروب الدول الكبـرى لـذلك الزمان، ولا سيما حروب تحرير إيطاليا، أنه قد فاته أن يفهم أن العمال في كل مكان لهم مصلحة مشتركة في سلام العالم. ولكنه نجح فعلاً – والثورة الاجتماعية نصب عينيه – في الإيحاء بفكرة إنشاء عـصبة دوليـة للعمال، هي الدولية الأولى (The First International).

وكان ما عقب ذلك من تاريخ الاشتراكية يترجح بين ظلال تقاليد "أوين" البريطانيـة وبـين "الـشعور الطبقي" الألماني عند "ماركس". وقد لقي ما يسمى باسم الاشتراكية الفابية [1] وهو تفسير الاشـتراكية الـذي قامت بوضعه الجمعية الفابية بلندن – قبولاً من الرجال المعقولين في كل الطبقات. ثم إن ما كان يسمى باسم "مذهب التنقيح Revisionism" في الاشتراكية الألمانية؛ كان يميل صوب نفس ذلك الاتجاه غير أنه يمكـن القول على الجملة أن "ماركس" هو الذي فاز على "أوين". فكانت النزعة العامة للاشتراكيين في كل العالم هي الاعتماد على تنظيم العمال، والعمال دون أي شيء آخر، ليكونوا مصدرا للقوى المقاتلة التي سـوف تقـول بإخلاء سبيل التنظيم السياسي والاقتصادي للشئون الإنسانية من أيدي الملاك والمغامرين الخصوصيين الذين هم على درجة ما من عدم المسئولية واللذين كانوا يتصرفون فيها.

تلكم هي المظاهر الإجمالية للمشروع المسمى باسم الاشتراكية وسوف نناقش في قسمنا التالي ما فيهـا من نقص وعدم كفاية. وربما كان أمرا لا مندوحة منه أن تضطرب الاشتراكية اضطرابا كبيرا وأن تنقـسم وتتفرع، إذ تتناولها يد الشكوك والمنازعات والشيع والمدارس. وما هذه إلا أعراض النمو شأن البقـع علـى

---

[1] الاشتراكية الفابية أو الفابيانية: مذهب اشتراكي ظهر بإنجلترا في القرن التاسع عشر، وهو يعتمد على وسائل التطور التـي يأمل أن يبلغ بها إقرار الاشتراكية بوساطة مجموعة متعاقبة من الإصلاحات التدريجية. (المترجم).

وجه يافع من الشبان. وما نحن بمستطيعين هنا إلا أن ننظر نظرة لامحة إلى الفارق بين اشـتراكية الدولـة، التي تنزع إلى إدارة الجهد الاقتصادي في البلاد بوساطة حكومتهـا الـسياسية، وبـين مدارسـها الأخـرى المتأخرة، مدارس "اشتراكية اتحادات العمال Syndicalism"، "واشتراكية نقاباتهم الحرفية Guilds"، التـي تكل نصيبا كبيرا من إدارة كل صناعة بالعمال المشتغلين في تلك الصناعة أيا كانت درجتهم بما فـي ذلـك المديرين والمراقبين. فهذه "الاشتراكية النقابية" إنما هي في الحقيقة نوع جديد من الرأسمالية، تحل فيها لجنـة من العمال والموظفين في كل صناعة محل الرأسماليين الخصوصيين الأحرار في تلك الـصناعة. وتـصبح هيئة الموظفين الصناعية هي الرأسمالي الجماعي.

٥- عيوب الاشتراكية بوصفها خطة للجماعة الإنسانية

قال السير "وليم هاركورت" منذ سنوات عدة: إننا جميعا الآن اشتراكيون، وهذا القول يصدق اليوم صدقًا مرسلاً غير محكم. فقلما وجد امرؤ يفوته أن يدرك الطبيعة الموقوتة والتقلقل الخطر اللذين يتسم بهما نظامنا السياسي والاقتصادي الحاضر، وأقل منهم كذلك من يعتقدون اعتقاد "الفرديين" النظريين غير العمليين، القائلين إن اقتناص الربح أو سياسة "اذهب كيفما شئت واصنع ما شئت" سوف تقود البشرية إلى مرفأ من مرافئ الرغد والسعادة. والواقع أنه ينبغي للأمور أن يعاد تنسيقها تنسيقًا عظيما وأن يتم لها سند منهجي منظم من القانون لإخضاع التماس المصلحة الشخصية لأهداف المصلحة العامة.

ومعظم الرجال المعقولين إنما هم إلى هذا الحد اشتراكيون. على أن هذه ما هي إلا مقترحات تمهيدية. فإلى أي حد وصلت الاشتراكية والفكر العصري بوجه عام إلى إنتاج الفكرة الذهنية لهذا النظام السياسي والاجتماعي الجديد، الذي يقف عالمنا باعتراف الجميع وهو في أمس الحاجة إليه؟ ونحن مضطرون أن نجيب أنه ليس هناك تصور واضح للحالة الجديدة التي نكافح نحوها كفاحا مبهما، وإن علمنا بالعلاقات الإنسانية ما يزال بالغًا من الفجاجة والإمعان في النظرية إلى حد لا نجد فيه هداية محدودة في عشرات من النقاط السياسية الهامة. ولسنا اليوم في مركز يجعلنا نقيم في العالم نظاما سياسيا متصورا تصورا علميا إلا بقدر ما كان الناس يستطيعون أن يقيموا محطة كهربائية في (١٨٢٥). فإنهم لم يكونوا عند ذاك ليستطيعوا ذلك ولو كانت فيه نجاة حياتهم.

وتشير الطريقة الماركسية إلى أن القوى الثورية تتراكم في العالم العصري. فإن هذه القوى لن تبرح تنزع باستمرار نحو الثورة. ولكن ماركس افترض بغاية التعجل أن الدافع الثوري ينتج بالضرورة دولة منظمة ذات نوع أحدث وأحسن. إذ الواقع أن الثورة قد تقف في منتصف الطريق عند مجرد التدمير. ولم تقم أية شيعة اشتراكية حتى الآن بتعريف حكومتها المقترحة تعريفًا واضحا. ويلوح أن البلاشفة كانوا يسترشدون في تجربتهم الروسية بعبارة "ديكتاتورية البروليتارية"، ومن الناحية العملية أثبت في تجربتهم الروسية بعبارة "ديكتاتورية البروليتارية"، ومن الناحية العملية أثبت "تروتسكي" و"لينين"، فيما يقال، أنهما يعدلان في أوتوقراطيتهما القيصر إسكندر الأول الأقل منهما ذكاء والمعادل لهما في حسن المقاصد.

وقد حرصنا كل الحرص أن نبين لك أثناء دراستنا الموجزة للثورة الفرنسية، أن ليس في مستطاع ثورة من الثورات أن تؤسس أي شيء ثابت لم يقتل تفكيرا قبل ذلك ولم يكن مفهوما للرأي العام. فالجمهورية الفرنسية، لم تلبث وقد واجهتها صعوبات غير متوقعة في الاقتصاديات والعملة والعلاقات الدولية – حتى انهارت إلى يد أنانيات رجال الإدارة الحديثي الثراء، ثم انهارت آخر الأمر تلقاء أنانية نابليون. والمحافظة في ثبات على القانون وعلى خطة مرسومة، أشد ضرورة في أزمان الثورات منها في أيام الهدوء العادية، لأن الجماعة الإنسانية تتدهور منحلة بغاية السرعة في أزمنة الثورات إلى مجرد عملية تخاطف مشوشة تحت سيادة الأقوياء العنيفين والمكرة والمحتالين.

فلو أننا نظرنا بصورة عامة إلى ما في عصرنا من علوم سياسية واجتماعية وقدرناها قدرها، لكنا بهذا نقدر شيئًا من العمل الفكري التمهيدي الذي لا يزال على البشرية إتمامه قبل إمكان نشوء أية مجرزات بناءة دائمة تنبثق من الروح التقليدية والجنوح إلى المغامرة اللذين يتسلطان على شئوننا الجماعية في زماننا هذا.

فهذه الاشتراكية التي تزعم أنها نظرية كاملة لنظام اجتماعي جديد، يتبين لنا ونحن نتفحصها أنها شيء لا يتجاوز نظرية جزئية – مرشدة لنا جهد اتساع مجالها في شئون الملكية.

وقد بحثنا قبل الآن علاقة التطور الاجتماعي بتقييد فكرة الملكية. فإن هناك مذاهب متنوعة للفكر تتفاوت في تقييد الملكية قوة وضعفًا. فالشيوعية إنما هي الاقتراح بإلغاء الملكية إلغاء تاما، أو بعبارة أخرى جعل كل شيء مشاعا. وتميز الاشتراكية العصرية – أو قل " الجماعية [1] Collectivism إن شئت اسما أدق وأضبط – تمييزا فعليا واضحا بين الملكية الشخصية والملكية الجماعية. وزبدة مقترحات الاشتراكيين هي أن الأرض، وكل وسائل الإنتاج الطبيعية، والترانسيت والتوزيع يجب أن تملكها الجماعة ملكًا جماعيا. ولسوف يكون هناك داخل هذه الحدود كثير من الملكية الخصوصية والحرية الشخصية غير المقيدة. فلو أتيح لهذا المقترح إدارة ذات كفاية، فلعل من المشكوك فيه أن كثيرا من الناس ينازعون فيه. بيد أن الاشتراكية لم تدخل قط في امتحان كامل لذلك الشرط القاضي بوجود إدارة ذات كفاية.

ومن وجه آخر، ما هو ذلك المجتمع الذي سوف يحرز الملكية الجماعية – أهو الحاكم أو المدينة أو المقاطعة أو الأمة أو البشرية؟ إن الاشتراكية لا تعطيك أية إجابة واضحة. والاشتراكيون يسرفون في استخدام كلمة "تأميم Nationalization" ولكنا دأبنا على جعل كلمتي "الأمم Nations" و "القومية Nationalism". هدفًا لشيء من النقد المدمر في هذا الكتاب. فلو اعترض الاشتراكيون على ادعاء فردي لشخص واحد بأن منجما أو متسعا عظيما من الأرض الزراعية إنما هو ملكه الفردي الذي يحق له أن يقبل أو يرفض المبادلة على استعمال الآخرين له أو كسبهم من ورائه، فلماذا يسمحون لأمة واحدة أن تحتكر المناجم أو الطرق التجارية أو الثروة المعدنية في الأراضي التي تعيش فيها، مضادة في ذلك البشرية جمعاء؟.

ويلوح أن النظرية الاشتراكية في هذه المسألة على اضطراب عظيم. وما لم تصبح الحياة الإنسانية اجتماعا عظيما للجنس البشري ينعقد في دورة مستمرة، فكيف يستطيع المجتمع أن يعين موظفيه الذين يقومون بتنفيذ شئونه الجماعية؟ وفضلاً عن ذلك فليس – المالك الخاص للأرض أو للعمل أو ما أشبه إلا ضربا من الموظف العام بالقدر الذي يسمح فيه المجتمع بوجود ملكيته وحمايته لها. فبدل أن تدفع إليه المرتبات أو الأجور، يسمح له بأن ينال ربحا.

والسبب الصحيح الوحيد لطرده من ملكيته هو أن الهيمنة الجديدة التي ستحل محل الأولى سوف تكون أكثر كفاية وأعود نفعا وأدعى لرضا المجتمع. وبعد أن يطرد يكون له على أقل تقدير نفس الحق في المطالبة بنفس رعاية المجتمع التي أظهرها هو نفسه من قبل للعامل المطرود من العمل بسبب اختراع ميكانيكي.

---

[1] انظر الهامش ص ١١٨٧.

وهذه المسألة مسألة الإدارة، وهي العائق السليم الصحيح لكثير من ألوان التشريك التوي [1]، توصـلنا إلى تلك المسألة التي لم تبرح غير محاولة إلى حد كبير، وهي مسألة الترابط الإنساني. فكيـف نـستطيع أن نحصل على خير توجيه للشئون الإنسانية وأن نحصل على ذلك التوجيه على النهاية القصوى مـن التعـاون المتطوع؟ فهذه مسألة سيكولوجية بلغت غاية التعقيد، ولكن من السخف أن يدعي المرء أنها مسألة عويصة لا حل لها. ولا بد من أن توجد حالة يمكن تعريفها وتحديدها هي خير الحالات وهي الشيء الصحيح في هـذه الأمور. ولكنها إن كانت لا حل لها؛ فإن الادعاء بأنها قد حلت لا يقل عن ذلك سخفًا، فالمسألة وهي في أتـم صورها تنطوي على إنتاج أحسن الطرائق في النواحي الآتية وعلى ترابطها التام:

١- التعليم: وهو إعداد الفرد ليتعاون في شئون العالم تعاون الفاهم وعن طيب خاطر.

٢- الإعلام: عرض الشئون العامة عرضا صادقًا ومستمرا على الأفراد ليصدروا حكمهم فيها ويوافقـوا عليها. ومما يتصل اتصالاً وثيقًا بهذه الحاجة إلى الإعلام المتواتر أمر جمع القوانين وتنسيقها، وهي مسألة جعل القانون على الدوام صريحا واضحا هين المدخل على الجميع.

٣- التمثيل النيابي: وهو اختيار المندوبين والوكلاء الذين يعملون في المصلحة الجماعية، في انسجام مع الإدارة العامة المبنية على ذلك التعليم وذلك الإعلام الصريح البسيط.

٤- الهيئة التنفيذية: تعيين الوكلاء التنفيذيين والاحتفاظ بالوسائل التي تجعلهم على الدوام مسئولين أمـام المجتمع – دون أن يعوق ذلك في نفس الوقت ابتداهات ذوي الذكاء وعملهم الابتكاري.

٥- الفكر والبحث: وهو النقد المنظم للمسائل والقوانين لتكوين مادة علمية (Data) تكون موضع الحكـم العام الشعبي، وضمان التحسين الدنيوي للتنظيمة الإنسانية عن طريق هذه الأحكام.

تلك هي الرءوس الخمسة التي تتجلى فيها أمامنا المسألة الإجمالية للجماعة البشرية انظر حولك مـاذا ترى؟. إنا لنرى فيما يحيط بنا من العالم وسائل يقصد بها إلى مجرد "سد خانة" أو إيجاد بديل مؤقت، وهـي تعمل عملها في كل هذه الفروع، وكلها وسائل سيئة التناسق إحداها مع الأخرى، كما أنها فـي ذاتهـا غيـر مرضية. وإنا لنرى نظاما للتعليم يتجلى في تمويله وتجهيزه الشح والدناءة، وفي تنظيمه سوء الإدارة، ويعقّده تدخل الهيئات الدينية وعداوتها، ونرى الإعلام الشعبي العام تقدمه بوجه رئيسي صحافة مرتشية تعتمد علـى الإعلانات والإعانات المالية. وإنا لنشهد طرائق للانتخاب هزلية تعيد إلى السلطان سياسيين يبلغون في عـدم تمثيلهم للشعب مبلغ أي حاكم وراثي أو أي فاتح عرضي. وإنك لترى القوة التنفيذية في كل مكان تتأثر نوعا ما أو تتحكم فيها بدرجة متفاوتة جماعات من الأغنياء المغـامرين، وتـرى الاشـتغال بـالعلوم الـسياسية والاجتماعية والنقد العام ما يزال من عمل أفراد متكرسين ذوي أطوار غريبة بدل أن يكون عملاً من أعمال الدولة مكرما معترفًا به.

[1] التشريك التوي (Immediate Socialization): الصبغ المباشر بالصبغة الاشتراكية. وقد صيغت اللفظـة علـى غـرار لفظتي التأميم والتصنيع. (المترجم).

وإن هناك لواجبا ضخما ينتظر الرجال ذوي التفكير الصحيح لكي يقوموا بتنظيف وتجميـل حظيـرة السياسيين. فحتى تتحقق هذه الغاية فإن من المستحيل أن يتم فهم الاشتراكية فهما تاما. ومـا دام المغـامرون الخصوصيون يهيمنون على حياة الدولة السياسية، فإن من المضحك أن يفكر الناس في أن تـضطلع الدولـة بالمصالح الاقتصادية الجماعية منتزعة إياها من يد المغامرين الخصوصيين.

والحركة الاشتراكية لم تقف حتى الآن فقط عند الفشل في إنتاج خطة مدروسة علـى أسـاس علمـي لإيجاد الترابط في التعليم والقانون وممارسة السلطة العامة، بل إنه حتى في الميدان الاقتصادي كما سـبق أن بينا لك، لا تزال هناك قوة خلاقة تنتظر فكرة يصمم بها تنظيم صحيح للائتمان (Credit) وتـستنبط منهـا طريقة صحيحة للدفع والتبادل (Interchange). ومن البدهيات الأولية أن رغبة العامل وإقباله تتوقف فيمـا تتوقف عليه من أمور على ثقته التامة في القوة الشرائية للعملة التي يقبض أجره منها. ومتى ذهبت تلك الثقة بطل العمل اللهم إلا في الحالة التي يمكن فيها أن يكافأ العامل بدفع الأجور عينًا. ولكن لـيس هنـاك القـدر الكافي من علم العملة ولا من "علم نفس" الأعمال لرد الحكومات عن التدخل في الائتمان العام وفي التـداول. تدخلاً يزعج الناس أيما إزعاج. ويؤدي مثل هذا التدخل مباشرة إلى التوقف عن العمل أي التوقف عن إنتاج الأشياء الضرورية.

ففي مثل هذه المسائل الحيوية العملية لا يكاد يكون من المبالغة أن يقال إن أغلبية هؤلاء الاشـتراكيين الذين يرغبون في إعادة صوغ العالم ليست لديهم أية فكرات محددة أصالة. ولكن الناس سواء أكانوا في عالم اشتراكي أم في أي نوع آخر من العوالم، يجب أن يقبضوا نقودا مقابل عملهم بدل أن يقبضوا أجورهم عينًا، إن كان يجب أن يستمر شيء اسمه الحرية الفردية. وهنا أيضا ينبغي أن يكون هناك شيء محقـق صـحيح يجب على الناس أن يعملوه. فحتى يتحدد ذلك، فلن يظل التاريخ في هذه الأمور سجلاً للتجاريب قدر ما يكون سجلاً للتخبطات.

وهناك اتجاه آخر كان فيه التفكير الاجتماعي والسياسي في القرن التاسع عشر، يواجه ما عليه الثـورة الميكانيكية من ضخامة، وجلا خائفًا محدودا غير كاف، وكان ذلك بالنظر إلى العلاقات الدولية. وسوف يجـد قارئ الأدب [1] الاشتراكي، الاشتراكيين وهم يكتبون ويتكلمون عن "الدولة" بلا انقطاع، دون أن يبدو علـيهم أنهم يدركون أن "الدولة" قد تكون أي نوع من أنواع التنظيمات وأنها تحددها جميع المساحات، ابتـداء مـن جمهورية سان مارينو إلى الإمبراطورية البريطانية. حقًا إن كارل ماركس كانت لديه فكـرة عـن تماسـك المصالح بين العمال في كل الأقطار المصنّعة. ولكن لا تكاد اشتراكية ماركس تحوي إشـارة إلـى النتيجـة المنطقية لهذا، وهي تأسيس حكومة ديمقراطية عالمية اتحادية (Federal) (من دونها حكومـات قوميـة أو إقليمية للدول) بوصفها نتيجة طبيعية لثورته الاجتماعية المقترحة.

ومهما عظم الأمر، فليس هناك أكثر من أمل مبهم. ولكن إذا كان الماركسي على أي قدر من المنطق، وجب أن يكون ذلك هو غايته السياسية الصريحة العلنية التي يجب أن يعمل من أجلها بلا انقطاع. غيـر أن

---

[1] كلمة الأدب هنا مستعملة بمعناها العام، الذي يشمل ما كتب في تلك المادة من كتب وصحف ومجلات ونشرات. (المترجم).

اشتراكيي معظم الأقطار الأوربية تقريبا قد أظهروا يوم عجمت عودهم حرب (١٩١٤)، أن ما لديهم من الوعي الطبقي بالدولية كان لعمري ضئيل الحظ من التوقير والكرامة ومن الإيثار الجدي على مشاعرهم الوطنية القومية، وأن ذلك الوعي لم يحلّ بأي حال محلها. فقد كان الاشتراكيون في كل مكان أثناء الحرب الألمانية ينعون على تلك الحرب أنها من عمل حكومات رأسمالية. ولكن طعن الناس في حكومة أو نظام عالمي لن يكون له إلا أثر ضئيل ما لم تكن لديهم فكرة عملية عن حكومة من طراز أحسن ونظام أحسن تحل محلها.

ونحن إنما نذكر هذه الأمور هنا لأنها حقائق، ولأنها جزء حي ضروري من نظرة شاملة معاصرة إلى التاريخ الإنساني. وليس من واجبنا الآن أن ندافع عن الاشتراكية ولا أن نختصمها. ولكن مما يدخل في الصورة القائمة بين أيدينا أن نلحظ أن الحياة السياسية والاجتماعية إنما هما – ولا بد لهما من أن تظلا – في حال من الفوضى واستجلاب الكوارث ما لم يحدث تطور لبعض الخطط الإنشائية من أضراب ما تخططه الاشتراكية، فضلاً عن أن نوضح مقدار بعد العالم في الوقت الحاضر عن أي خطة من هذا النوع.

ولا بد من أن يحدث قدر هائل من العناء الذهني والبحث والمناقشة والتعليم، ولا بد من انقضاء السنوات العديدة، التي قد تصل إلى العشرات أو القرون، إذ لا يستطيع أحد أن يعرف مدى ذلك – قبل أن يعم الأرض بأكملها نظام جديد مصمم كما تصمم السفن والسكك الحديدية، وأن يجري كما تجري خطوط التلغراف البحري وأعمال التوزيع في البريد. فحتى يستطيع مثل هذا النظام أن يضم بشبكته شتات البشرية بعضها إلى بعض، فلا بد للحياة الإنسانية كما سنعرضها عليك من فورنا بقصة الحروب الأوربية منذ (١٨٥٤)، من أن تصبح عرضية خطرة تعسة، وقلقة مليئة بالكوارث بسبب هذه الوسائل الحربية التي لا تبرح تشتد قوة وتدميرا كل يوم، نتيجة لتواصل الثورة الميكانيكية.

٦- كيف أثر مذهب دارون في الفكرات الدينية والسياسية [١]

بينما كانت الثورة الميكانيكية [٢] التي نتجت عن نمو علم الفوزيقا (الطبيعة) آخذة بأسباب تدمير التصنيف الاجتماعي القديم للدولة الممدنة التي تطورت على مر آلاف من السنين، وشارعة في إنتاج احتمالات جديدة ومثل عليا جديدة لمجتمع إنساني بر صالح، ونظام عالمي بر صالح – كان يجري في حقل الفكر الديني تغيير هو على أقل تقدير معادل لتلك الثورة في العظم والجدة. وكان نفس هذا النمو في المعارف العلمية الذي نشأت عنه الثورة الميكانيكية هو الدافع المحرك لهذه الاضطرابات الدينية.

ولقد قدمنا إليك في الفصول الافتتاحية الأولى من هذا الكتاب القصة الرئيسية لسجل الصخور؛ وصورنا الحياة على حقيقتها إذ هي بداية وعي صغيرة، مظهرين إياها وهي لا تزال تسبح في ضخامة ما أمامها من فراغ ينتظرها بين الفضاء والزمان. ولكن قبل أن يشارف القرن الثامن عشر نهايته كان هذا مشهد الماضي الضخم – الذي يملأ الذهن العصري بالمذلة وبما لا حد له من الأمل، - شيئًا خافيا مستترا على الوعي العام لجنسنا. إذا كان يستره عن الأعين سجف [٣] من أسطورة سومرية. فإن السماوات لم تكن لتزيد على خلفية مسرح من المسارح تقوم من وراء تمثيلية أبطالها الملوك. وكان الناس أشد انشغالاً بشهواتهم الخاصة وشئونهم الشخصية من أن يأبهوا بما يلوح لهم من المقدرات العظيمة التي كانت تحيط بهم من كل ناحية.

ولقد علموا مركزهم الحقيقي في "المكان" قبل أن يضعوا أنفسهم في الزمان بأمد بعيد. وسبق لنا أن سمينا لك الفلكيين الأقدمين، وأخبرناك كيف أجبر "جاليليو" على إنكار قوله أن الأرض تدور حول الشمس، حيث أجبرته الكنيسة على أن يفعل ذلك، مدفوعة باعتقادها أن أي شك يحيط بأن الأرض مركز العالم ضربة قاتلة تزلزل سلطان المسيحية.

ولعمري إن من يقص التاريخ العصري مضطر في هذا الموضوع أن يصطنع الحذر والجرأة في آن واحد. ولا بد له من أن يتحسس موطئ قدميه، بين التماص الجبان من ناحية والتعصب من ناحية أخرى. ولا بد له من أن يقصر نفسه جهد طاقته على الحقائق وأن يحتفظ لنفسه بما يرى من آراء. ومع ذلك فمن الخير أن نتذكر أن الاحتفاظ المطلق بالآراء أمر ليس في الإمكان. ولكاتب هذه السطور اقتناعاته وآراؤه القوية المحددة وهو أمر لا بد للقارئ أن يعيه في ذاكرته.

ومن الحقائق المقررة في التاريخ أن تعاليم يسوع الناصري كان فيها شيء جديد عميق الجدة خلاق قوي الخلاق. فإنه بشر بمملكة جديدة للسماوات في قلوب الناس ودنياهم. ولم يكن في تعاليمه شيء – بقدر ما

---

[1] إن شئت وجهة نظر دينية دقيقة وثيقة المماثلة لهذه المذكورة ها هنا، فانظر كتاب "Outspoken Essays" للأسقف إنج"، المقالات رقم ٨، ٩ عن القديس بولس وعن التمسك بالنظم والتدين (Institutionalism & Mystism".

[2] الثورة الميكانيكية والانقلاب الآلي بمعنى واحد. (المترجم).

[3] السجف: الستار. (المترجم).

نستطيع أن نحكم عليها من هذا البعد الزمني – يتعارض أو يتداخل مع أي اكتشاف أو توسع في تاريخ العالم والبشرية. ولكن من الحقائق التاريخية أيضا أن القديس بولس وخلفاءه قد أضافوا إلى تعاليم يسوع الـصريحة الممعنة في الثورية، أو أكملوها أو فرضوا عليها أو تبدلوا بها مبادئ أخرى – (واختر لنفسك من هذه الألفاظ ما تشتهي) – وذلك ببسطهم نظرية للخلاص دقيقة معقدة، وهو خلاص يمكن الحصول عليه في معظم الأمر بالإيمان والشكليات، دون دخول أي تغير جدي في مألوف عادات المؤمن وأعماله العادية، وأن تلك التعـاليم البوليسية كانت تحتوي فعلاً على معتقدات محددة جدا حول تاريخ العالم والإنسان.

وليس من شأن المؤلف أن يجادل في هذه الأمور أو يشرحها. فإن مرد قيمتها النهائيـة إلـى علمـاء اللاهوت. أما اختصاص المؤرخ فينحصر في أن المسيحية الرسمية في جميع أنحاء العالم تبنت وجهة نظـر القديس بولس، التي عبر عنها في رسائله بأجلى بيان، والتي يستطاع قص آثارها في الأناجيل، وهي وجهـة النظر القائلة بأن معنى الديانة لا يقع في المستقبل وإنما يقع في الماضي، وأن يسوع لم يكن معلمـا لأشـياء جديدة رائعة، قدر ما كان قربانًا دمويا مقدسا عامرا بالخفايا العميقة والقدسية البالغة، هيأه القدر كفـارة عـن حدث تاريخي خاص من أحداث عصيان الخالق اقترفه والدانا الأولان، آدم وحواء استجابة لإغراء أفعى في جنة عدن. وقد بنت المسيحية المذهبية مبادئها على هذا الاعتقاد في تلك "الخطيئة" باعتبارها حقيقة، لا علـى شخصية يسوع الناصري، وقامت على نظريات بولس لا على وصايا يسوع.

وقد لا حظنا آنفًا أن هذه القصة، قصة الخلق الخاص للعالم وآدم وحواء والأفعى، كانت كـذلك قـصة بابلية قديمة، ولعلها أيضا قصة سومرية أقدم عهدا وأبعد أمدا، وأن الكتب اليهودية المقدسة كانـت الوسـيط الذي أدخل إلى المسيحية أسطورة الأفعى العتيقة هذه البدائية "الهليوليثية" [1] الأصل – وقد حملت المـسيحية الرسمية هذه القصة معها حيثما حلت. ذلك أنها ربطت نفسها بتلك القصة.

وكان العالم المصطبغ بالمسيحية يشعر إلى قرن سلف أو أقل من ذلك، بأنه ملزم أن يعتقد، بـل كـان يعتقد فعلاً، أن الكون خُلق خلقًا خاصا في ستة أيام بكلمة من ا صدرت قبل بضعة آلاف من السنين أي سنة ٤٠٠٤ ق.م. – كما يقول الأسقف "أشر Bishop usher" (وكتاب "التاريخ العام" الصادر في اثنين وأربعين سفرا الذي نشرته في (١٧٧٩) جماعة من تجار الكتب في لندن يبحث هل كان التاريخ الدقيق للخلق هو ٢١ مارس أو ٢١ سبتمبر ٤٠٠٤ ق. م، ويميل إلى ترجيح التاريخ الثاني).

وعلى هذا الفرض التاريخي كان ينهض الصرح الديني للمدنية الغربية أصلاً والغربية صباغًا، ومـع ذلك فإن العالم بأجمعه كانت تزحمه الأدلة، فإن التلال والجبال والدلتاوات والبحار كانـت تنفجـر صـائحة بالسخافة المطلقة لهذه النظرية. وكانت الحياة الدينية لدى كبريات الأمم وهي لا تزال حياة دينية جـادة جـدا عامرة بالإخلاص، تجري في دار للتاريخ بنيت على أس من الرمل.

وإن الأدب الكلاسيكي ليحوي من الشواهد الكثيرة الورود فيه، ما يدل على وجود مباحـث فـي بـدء الخليقة أصح وأسلم. فإن أرسطو تنبه للمبادئ الإجمالية للجيولوجيا العصرية، وإنها لتلمع في ثنايـا تـأملات

[1] الهليوليثية: عصر الحضارة الحجرية الشمسية. انظر ص ١٣٥ – ١٣٧ ج١ ط٢ من المعالم. (المترجم).

لوكريشيوس، كذلك لاحظنا التفسير النير الذي فسر به ليوناردو دافنشي (١٤٥٢ – ١٥١٩) الحفريات. وقد ارتأى الفرنسي العظيم ديكارت (١٥٩٦ – ١٦٥٠) الآراء الجريئة حول بدايات كرتنا الأرضية، وأنها كانت في أول أمرها كرة متوهجة نارية، وبدأ دانماركي اسمه ستينو (١٦٣١ – ١٦٨٦) العمل في جمع الحفريات ووصف الطبقات الأرضية. ولكن حدث – وقد أشرف القرن الثامن عشر على نهايته – أن خطت الدراسة المنظمة للجيولوجيا خطوات فساح أثرت بقوة في الاعتماد العام على رواية الكتاب المقدس التي هي صورة من القصة السومرية العتيقة.

وممن عاصر "كتاب التاريخ العام" الذي اقتبسنا منه آنفًا. عالم فرنسي بالتاريخ الطبيعي هو بوفون (Buffon)، وكان يكتب عن "حقب الطبيعة" (١٧٧٨)، ويمد عمر العالم في جرأة إلى سبعين ألفًا أو خمسة وسبعين ألفًا من السنين. وقد قسم قصته إلى ستة أحقاب تقابل الأيام الستة في قصة الخليقة. وقد ذهب الرجل إلى أن هذه الأيام الستة إنما هي أيام مجازية؛ كانت في حقيقتها عصورا. وحاولت الجيولوجيا بهذه الحيلة المريحة أن تعقد صلحا مع التعاليم الدينية المسيحية استمر إلى منتصف القرن الثامن عشر.

ولسنا نستطيع هنا أن نقص ما أداه رجال من أمثال هاتون وبلايفير وسير شارل ليال، والفرنسيين لامارك وكوفييه من جليل الخدمات في كشف اللثام عن سجل الصخور [1] وفي تطويره والنهوض به. ولم يحدث إلا ببطء أن أخذ الذكاء العام في العالم الغربي يستيقظ على حقيقتين أقضتا مضجعه! أولاهما: أن تعاقب الحياة في السجل الجيولوجي لم يكن يقابل الأعمال التي جرت في أيام الخليقة الستة؛ وثانيتهما: أن السجل في اتساق منه مع مجموعة كبيرة من الحقائق البيولوجية، يشير إلى عكس ما يقرره الكتاب المقدس من أن كل نوع خاق خلقًا منفصلاً ويشير إشارة صريحة إلى أن هناك علاقة وراثية بين كل أشكال الحياة "علاقة كانت تضم الإنسان نفسه"!! وكانت أهمية هذه النقطة الأخيرة لدى النظام المذهبي الموجود بينه واضحة. فلو أن كل الحيوانات والإنسان كان نصيبها النشوء والارتقاء على تلك الشاكلة المتصاعدة، ترتب على ذلك أن لم يكن هناك أبوان أولان، ولا عدن ولا "خطيئة". وإذا لم تكن ثمة خطيئة فإن كل الصرح التاريخي للمسيحية، وقصة الخطيئة الأولى وهي السبب الداعي إلى الكفارة، التي أسس على أركانها التعليم الساري للعواطف المسيحية والأخلاق المسيحية، فإن ذلك كله ينهار كبيت من ورق اللعب.

فلا عجب إذن أن تتتبع جماهير عظيمة من الرجال الشرفاء ذوي النفوس المتدينة في شيء يماثل الرعب عمل عالم التاريخ الطبيعي الإنجليزي تشارلز دارون (١٨٠٩ – ١٨٨٢). ففي ١٨٥٩ نشر كتابه "أصل الأنواع بوساطة الانتخاب الطبيعي" وهو عرض قوي لا تبلى قيمته لهذه الفكرة الخاصة بتغير الأنواع وتطورها التي رسمناها لك في إيجاز في الفصل الثاني. وفي ١٨٧١ أتم معالم عمله بكتابه "أصل الإنسان"، الذي أدخل الإنسان إدخالاً محددا في خطة التطور نفسها مع سائر الحياة والأحياء.

ولا يزال على قيد الحياة بين ظهرانينا رجال ونساء كثيرون يستطيعون أن يتذكروا الرعب والحزن الذي استولى على الأذكياء العاديين في المجتمعات الغربية عندما أخذت تتكشف للناس القضية التي لا تقهر،

---

[1] سجل الصخور: راجع المجلد الأول من المعالم ص ٢٣ ط٢. (المترجم)

قضية البيولوجيين والجيولوجيين ضد "مبحث بدء الخليقة" في المسيحية السلفية[1]. وقاومت عقول كثير منهم المعرفة الجديدة مدفوعين بالغريزة وعدم التعقل. ذلك لأن صرحهم الخلقي كله كان مشيدا على دعامة من التاريخ الزائف، وقد كانوا أكبر سنًا وأشد جمودا من أن يرفعوا بناءه مرة أخرى؛ وخالوا هذه الحقيقة الجديدة لا تتمشى مع ما كانوا يحسونه من الصدق العملي في معتقداتهم الخلقية. واعتقدوا أن في التسليم بها تمهيدا لسبيل تقوض العالم من الناحية الخلقية. ومن ثم أحدثوا انهيارا خلقيا بعدم موافقتهم عليها.

ولما كانت الجامعات في إنجلترة بخاصة هيئات دينية في تكوينها قبل كل شيء، قاومت العلم الجديد مقاومة جد مريرة. فكانت أرجاء العالم الممدن تغلي بالخصومة العاصفة إبان السبعينيات والثمانينيات. ولعل أدل شيء على نوع المناقشات وعلى الجهالة القتالة للكنيسة إيراد وصف جاء في كتاب "الأمور العادية" بقلم هاكت، لجلسة للجمعية البريطانية في ١٨٦٦، هاجم فيه الأسقف ويلبر فورس العلامة هكسلي (Huxley)، النصير العظيم لآراء دارون، على هذه الشاكلة.

اتجه الأسقف نحو هكسلي وعلى فمه ابتسامة وقحة ورجاه أن يعرفه "هل كان ادعاؤه الانحدار عن أحد القرود عن طريق جدته أو جده"؟ والتفت هكسلي إلى جاره وقال "إن الرب قد أسلمه لي في يدي". ثم وقف أمامنا ونطق بهذه الكلمات الهادئة "إنه ليس يخجله أن يكون جده قردا، ولكن يخجله أن تكون له صلة برجل يستعمل المواهب الكبيرة في تعمية الصدق". (وثمة رواية ثانية تنقل القصة على هذا النحو: "من المحقق أني قلت: إنه ليس هناك ما يدعو رجلاً من الرجال أن يخجل أن يكون جده قردا. فلئن كان هناك جد أخجل من تذكره، فأحرى بذلك أن يكون رجلاً ذا ذهنية قلقة قلابة يخوض غمار مسائل علمية ليست له بها دراية صحيحة، لا لشيء إلا لإدخال الخفاء والغموض عليها باستعمال بلاغة لا تستهدف غرضا، وأن يحول التفات سامعيه عن النقطة الحقيقية التي هي مدار النزاع بواسطة الانحراف عن الموضوع بفصاحته واللجوء الماهر إلى روح التحامل والتحيز"). ولا شك أن هذه الكلمات قد نطقت في حدة. إذ كان المشهد مشهد انفعال عظيم. فأغمي على إحدى السيدات كما يقول هاكت... وذلك هو طراز الخلق العنيف في هذه الخصومة.

وقد أخذت الحركة الداروينية، المسيحية الرسمية بغتة وعلى غرة. فووجهت المسيحية الرسمية بغلطة في بياناتها اللاهوتية يمكن إثباتها والبرهنة عليها. ولم يؤت اللاهوتيون المسيحيون حظًا كافيا من العقل والحكمة ولا من نشاط الذهن يحملهم على قبول الصدق الجديد، وعلى تعديل قانون الإيمان الذي لديهم، وأن يصروا على الحيوية الخالدة التامة التي لم ينتقص شيء منها. حيوية الحقيقة الدينية التي كانت قوانين الإيمان حتى ذلك الحين كافية للتعبير عنها. فإن اكتشاف انحدار الإنسان عن أشكال شبه إنسانية لا يمس وإن من بعيد تعاليم ملكوت السماوات. ومع هذا فإن القساوسة والأساقفة ثاروا بدارون ثورة عنيفة؛ وقام بعضهم بمحاولات حمقاء لمصادرة مؤلفاته وإهانة أنصار الآراء الجديدة وشراحها. وتبادل القوم قدرا كبيرا من جارح القول في "الخصومة بين الدين والعلم".

---

[1] المسيحية السلفية Orthodox Christianity: أي المحافظة على التقاليد المذهبية الصحيحة. (المترجم).

والحق أنه لم يخل عصر من العصور من متشككة في المسيحية. فإن الإمبراطور فردريك الثاني كان على وجه التحقيق أحد المتشككين؛ وفي القرن الثامن عشر كان جيبون وفولتير ينكران المسيحية صراحا وجهارا، وأثرت كتاباتهما في عدد من القراء مبعثرين هنا وهناك. على أن هؤلاء كانوا أناسا غير عاديين.. فأما الآن فقد أصبحت كل المسيحية بوجه الإجمال متشككة. إذ مست هذه الخصومة الجديدة كل إنسان قرأ كتابا أو سمع محاورة بين أذكياء. ونما جيل جديد من الشباب، نظر حوله فوجد المدافعين عن المسيحية في حالة من الشراسة الحادة، يحاربون من أجل قضيتهم بلا كرامة، ولا إنصاف. وكان الذي زج في مأزق الخطر بسبب تقدم العلم الحديث هو اللاهوت التقليدي الفلسفي، غير أن اللاهوتيين الغضاب كانوا يصرحون بأن الخطر إنما يحدق بالدين.

وقد شك الناس في النهاية أن الدين سوف يزيد من بريق صقاله عندما يزول منه كل ما هو ملفف به من مبادئ مذهبية، فأما الشباب فخيل إليهم أنه كان هناك نزاع فعلاً بين العلم والدين، وأن العلم كان المظفر في ذلك النزاع الكبير في فكرات الناس وطرائقهم في طبقات الموسرين وذوي النفوذ في كل أرجاء العالم الغربي الصيغة، أثرا هداما بالغًا في الواقع. ولم يأت العلم البيولوجي الجديد حتى ذلك الحين بشيء إنشائي يحل محل الأشياء القديمة التي طرحت جانبا. وتلا ذلك انحلال خلقي حقيقي.

وكان المستوى العام للحياة الاجتماعية في تلك الطبقات أعلى كثيرا في بداية القرن العشرين منه في بداية القرن السابع عشر، ولكن هناك منحى واحدا لعل النغم فيه في العصر الأقدم كان أحسن منه في العصر الأحدث هو منحى امتناع المصلحة الذاتية ومراعاة الضمير في تلك الطبقات. ويرجح أنه كان في طبقات الملاك وأرباب النشاط في القرن السابع عشر – بالرغم من وجود عدد قليل من "الكفرة" حقًا. نسبة مئوية أعلى كثيرا منها في سنوات مدخل القرن العشرين من الرجال والنساء الذين كانوا يصلون بإخلاص، والذين كانوا يبحثون في زوايا نفوسهم ليعرفوا هل أحدثوا شرا، كما كانوا على استعداد لتحمل الآلام والقيام بتضحيات عظيمة في سبيل ما يظنونه الحق.

وقد أصيب العالم بنقص حقيقي في الإيمان بعد ١٨٥٩. وكثيرا ما كان ذهب الدين الإبريز ينبذ ويطرح مع الكيس البالي الذي ضمه بين دفتيه زمنًا طويلاً، ولكن أحدا لم يسترجعه بعد ذلك. حتى إذا شارف القرن التاسع عشر نهايته كانت صورة ممسوخة فجة لمذهب دارون قد غدت المادة العقلية الجوهرية عند جماهير غفيرة من "المتعلمين" في كل مكان. وكانت عند ملوك القرن السابع عشر وملاكه وحكامه وزعمائه فكرة في مؤخرة أذهانهم توحي إليهم بأنهم إنما يتولون ما يتولون بإرادة من ا . وكانوا يخشونه حقًا وكانوا يطلبون القسوس لكي يصلحوا الأمور بينهم وبينه. فإن كانوا من الأشرار اجتهدوا ألا يفكروا فيه ولكن العقيدة القديمة عقيدة ملوك مفتتح القرن العشرين وملاكه وحكامه اضمحلت تحت ذلك الشعاع النوراني الذي يلقيه النقد العلمي.

وكانت الشعوب المغلبة عند ختام القرن التاسع عشر يعتقدون أنهم إنما يسودون بحكم "تنـازع البقـاء" الذي يتغلب فيه القوي الماكر على الضعيف الواثق المخدوع. وكانوا يعتقدون فضلاً عن ذلك بأنه لا بد لهـم من أن يكونوا أقوياء ناشطين قُساة، عمليين أنانيين، لأن ا   قد مات، وكان على الدوام فيما يخالون ميتًـا – وهذا شيء يتجاوز تماما ما تبرره المعارف الجديدة.

وسرعان ما تجاوزوا مرحلة الفهم الخاطئ الفج الشعبي الأول لمذهب دارون. وهو الفكرة القائلة بـأن كل إنسان يعيش من أجل نفسه وحدها. ولكنهم ترددوا فيما هو أسوأ. ذلك بأنهم قطعوا بأن الإنـسان حيـوان اجتماعي مثل كلاب الصيد الهندي. هو أكثر كثيرا من كلاب عادي، ولكنهم لم يبصروا تلـك الحقيقـة. وكمـا يحدث بالضبط في سرب الكلاب من ضرورة إخضاع الأصغرين والأضعفين وإرهابهم في سـبيل الـصالح العام، فكذلك بدا في أعينهم أن من الصواب أن تقوم الكلاب الكبيرة في السرب الإنـساني بإرهـاب الغيـر وإخضاعه. ومن ثم نشأت زراية جديدة بفكرات الديموقراطية التي رانت على العقول في أوائل القرن التاسع عشر، وانبعثت من جديد مشاعر الإعجاب بالمتبجحين والقساة.

وكان مما يوافق خصيصة ذلك الزمان تمام الموافقة أن يقتاد المستر كبلنج [1] أطفال الطبقتين الوسطى والعليا في الجمهور الإنجليزي عائدا بهم إلى الغاب ليتعلموا "القانون"، فهو في كتابه "ستوكي وشركاه" يقـدم وصفًا كله التقدير للتعذيب الذي ناله ولدان على يد ثلاثة آخرين، كانوا قد اختدعوا ضحاياهم حتى ربطـوهم ربطًا مؤلما لا فكاك لهم منه، - قبل إظهارهم مقاصدهم العدائية.

ويجدر بنا أن نوجه شيئًا من الالتفات إلى هذه الحادثة في كتاب "ستوكي وشركاه"، لأنهـا تنيـر لنـا غوامض السيكولوجيا السياسية للإمبراطورية البريطانية عند نهاية القرن التاسع عشر إنارة ناصـعة جـدا. وليس في المستطاع فهم تاريخ نصف القرن الأخير دون تفهم للالتواء الذهني الذي تعد هذه القصة مثلاً مـن أمثلته. والولدان اللذان يعذبان "مشاغبان شريران"، وذلك هو العذر الذي يعتذر به معذبوهما، هذا فضلاً عـن أن الذي حرض هؤلاء الأخيرين على هذا العمل الفاضح هو أحد القساوسة. وما يستطيع شيء أن يقال مـن المرح الذي شرعوا ينفذون به عملهم. ويلوح أن التعليمات كانت تقضي بأنه قبل اللجوء إلى التعذيب، يجـب عليهم أن يستدرجوهم في الحديث حتى يزل لسانهم زلة تستثير شيئًا من الغيرة الأخلاقية التي يمكن تبريرها، وعندئذ يصبح كل شيء على ما يرام "فإنكم إذا ضمنتم أن تكون السلطات إلى جانبكم، لم يكن هنـاك وجـه لتوجيه اللوم إليكم". وواضح أن ذلك هو المبدأ البسيط لهذا الاستعماري النموذجي. على أن كل معتد أثيم قـد اتبع ذلك المبدأ على أحسن ما تتيحه له مقدرته، منذ أن تطور في الحيوان البشري الذكاء الكافي لجعله قاسيا قساوة واعية.

---

[1] كبلنج: هو جوزيف رديارد كبلنج (١٨٦٥ – ١٩٣٦) شاعر وكاتب استعماري شهير ولد بالهند وله مؤلفات كثيرة وحـصل على جائزة نوبل (١٩٠٧). (المترجم)

وهناك نقطة أخرى في القصة ذات مغزى كبير جدا في الواقع. فإن كلا من الناظر ومساعده الكتـابي يمثلان بوصفهما عاملين خفيين. فإنهما ليرغبان في حدوث هذا الشجار والتعدي. وبدلاً من أن يستعملا ما في أيديهما من سلطان، تراهما يستعملان هؤلاء الصبيان أبطال المستر كبلنج ليعاقبوا الـضحيتين وإن النـاظر والقسيس ليعيران شكاة الأم الغاضبة أذناً صماء. ويعرض المستر كبلنج هذا كله بوصفه أقصى المرغوب من الأحوال.

وإنا لنلمس في هذا مفتاح أقبح فكرة للاستعمار العصري (Imperialism) وأشدها رجعية وأعظمهـا في النهاية خطرا عليه وقتلاً له. وهي فكرة "مؤامرة ضمنية بين القانون والعنف غير الـشرعي". وكمـا أن القيصرية الروسية دمرت نفسها آخر الأمر بتشجيعها سرا سفاحي "المئات السوداء" الـذين كـانوا يـذبحون اليهود وأقواما آخرين ممن زعم القيصر أنهم معادون له، فكذلك تلطخ الاسم الطيب "للحكومة الإمبراطوريـة البريطانية" – وما يزال ملطخًا – بغارة غير مشروعة قام بها الدكتور جيمسون [١]، علـى الترنـسفال قبـل "حرب البوير"، وبما سوف نصف لك من فورنا من مغامرات السير إدوارد كارسون [٢] (المعروف فيما بعد باسم اللورد كارسون) في إرلندة، وبإغضاء الحكومة البريطانية الضمني في إرلندة عما يسمونه "بأخذ الثـأر" الذي قام به الموالون للحكومة ضد مرتكبي (أو من يزعمونهم مرتكبي) اعتداءات السين فين [٣].

وإنما تدمر الإمبراطوريات نفسها بمثل هذه الخيانات التي ترتكبها ضد رعاياها. فإن القوة الحقة للحكام والإمبراطوريات تقوم لا على أساس الجيوش والبحريات، بل على اعتقاد الرجال بأنهم صـرحاء صـادقون قانونيون لا تلين قناتهم في الصراحة والحق والقانون. فلا تكاد حكومة تخرج عن ذلك المعيار، حتى تكـف عن أن تكون شيئًا يتجاوز مجرد "منسر يتولى الحكم" وتصبح أيامها معدودة.

---

[1] الدكتور جيمسون (١٨٥٣ – ١٩١٧): سياسي بالمستعمرات ولد بإدنبرة. وكان طبيبا بكمبرلي حيث أصبح صـديقًا لسـسل رودس. وفي أوائل ١٨٩٦ قاد حملة جيمسون من ميفكنج إلى الترنسفال. (المترجم).

[2] عن السير إدوارد كارسون: انظر المعالم الفصل ٣٨ القسم الثالث (المترجم).

[3] السين فين: الحزب الوطني الإرلندي أسسه آرثر جريفث ١٩٠٥، وسياسته مقاومة الحكم البريطاني. وانتقلت زعامته عنـد ١٩١٧ إلى ديفاليرا كبير الحركة الجمهورية، وقد تغلب في ١٩١٨ على الحزب القديم الداعي إلى الحكـم الـذاتي، وزال مـن الوجود بعد ١٩٣٢. (المترجم).

٧- فكرة القومية

سبق أن أشرنا إلى أنه لا بد من وجود خريطة سياسية طبيعية للعالم تقدم خير ما في المستطاع من التقسيم الجغرافي للإرادة الإنسانية. فأما أي تقسيم سياسي آخر للعالم غير هذه الخريطة السياسية المطابقة للطبيعة، فسوف يكون بحكم الضرورة شيئًا مقلقلاً حرم نعمة التوافق، ولا بد أن يفضي إلى العداوات والفتن التي تنزع إلى تحريك الحدود في الاتجاه الذي تشير إليه الخريطة السياسية الطبيعية.

وقد تلوح هذه المقترحات واضحة من تلقاء نفسها لولا أن الديبلوماسيين في فيينا لم يكونوا يعتقدون ولا يفهمون شيئًا من ذلك القبيل كما هو واضح من تصرفاتهم، وظنوا أنفسهم أحرارا في أن يقطعوا أوصال العالم، حرية من يقطع مادة لينة كالجبن لأعظم فيها. ومعظم الثورات والمنازعات التي ابتدأت في أوربا عندما أفاق العالم مما غشيه من إعياء بسبب حروب نابليون، كانت كما هو واضح تمام الوضوح، محاولات يبذلها الرجال العاديون للتخلص من الحكومات التي هي من عدم المطابقة لرغباتهم بدرجة تجعلها في كثير من الأحايين شيئًا لا يطاق. وعلى وجه العموم كانت الحكومات القائمة في كل أرجاء أوربا كالشجى في حلوق الناس، لأنها لم تكن تمثل الناس تمثيلاً اجتماعيا، وبذا كانت تعوق الإنتاج وتضيع الاحتمالات الإنسانية بددا. حتى إذا أضيف إلى تلك المضايقات العامة، الاختلاف في الدين وفي الثقافة العنصرية بين الحكام والمحكومين (كما في معظم إرلندة)، والفوارق في العنصر واللغة (كما هو الحال في إيطاليا الشمالية النمسوية وفي معظم أرجاء الإمبراطورية النمسوية)، أو الفوارق في كل هذه النواحي مجتمعة (كما في بولندة والإمبراطورية التركية في أوربا)، فقد بلغ السخط حدا دفع الناس إلى سفك الدماء.

كانت أوربا مجموعة من الأجهزة الحكومية بشعة التركيب والتوافق. وعن ضغط سوء التركيب هذا، استقت الحركات "القومية" المنوعة التي لعبت ذلك الدور الكبير في تاريخ القرن التاسع عشر، قوتها المحركة.

ما هي الأمة؟ (Nation). وما هي القومية؟ (Nationality)؟ فلئن نجحت قصتنا عن العالم في التدليل على شيء، فلقد أظهرت نماذج الأجناس والشعوب وعدم ثبات التقسيمات الإنسانية، وتنوع المجموعات البشرية والفكرات الخاصة بالترابط الإنساني تنوعا سريع التقلب والدوران. فلقد قيل إن الأمة إنما هي تجمع من الكائنات الإنسانية يظنون أنهم شعب واحد. ولكن يخبروننا أن إرلندة أمة، ومن المحقق أن "آلستر البروتستانتية" لا تشاطر أصحاب هذا الرأي رأيهم. وكذلك لم تكن إيطاليا تعتقد أنها شعب واحد حتى مضى على تحقيق وحدتها زمن طويل. وعندما كان المؤلف في إيطاليا في (١٩١٦) سمع الناس يقولون "ستجعلنا هذه الحرب شعبا واحدا".

وكذلك هل الإنجليز أمة؟ أم هم قد انغمروا في "قومية بريطانية"؟ الظاهر أن الاسكتلنديين لا يعتقدون كثيرا في هذه القومية البريطانية. وليس في إمكان مجتمع للجنس أو اللغة أن يكون أمة، وذلك لأن الجيليين (Gaels) [١] واللولنديين (Lowlanders) هما قوام الأمة الاسكتلندية. كما أنه ليس في الإمكان أن يكون

---

[1] الجيليين: هم السكان المسمون في إسكتلندا باسم الهايلنديين ولغتهم هي الجيلية وهي فرع من الكلتية. (المترجم).

أساس هذا المجتمع هو الديانة المشتركة، لأن بإنجلترة عشرات من الديانات؛ ولا أدبا عاما، وإلا فلماذا تـرى بريطانيا منفصلة عن الولايات المتحدة؟ وجمهورية الأرجنتين منفصلة عن إسبانيا؟ وربما ذهبنا إلى أن الأمة إنما هي في الواقع أية جماعة أو خليط أو حشد مضطرب من الناس إما أن يكون منكوبا بوزارة خارجيـة أو يرغب في أن يكون منكوبا بوزارة خارجية خاصة به، حتى تتصرف بكامل جماعتها كأنما كانـت حاجتهـا ورغباتها وكبرياؤها أشد أهمية من المصلحة العامة للإنسانية بوجه لا مجال للمقارنة فيه.

وقد سبق أن تعقبنا من قبل تطور الملكيات الميكيافلية حتى انتقلت إلى حكم وزارات خارجيتها وهـي تلعب دور "الدول (Powers)" ولم تكن "القومية" التي تسلطت على الفكر السياسي في القرن التاسـع عـشر لتزيد في حقيقتها عن المبالغات الرومانسية والعاطفية في التأزمات الناتجة عـن الخلافـات بـين الخريطـة السياسية الطبيعية وبين التنظيمات السياسية غير المناسبة داخل مصالح مثل تلك "الدول".

وقد كان يجري في آناء القرن التاسع عشر كله، وفي نصفه الثاني بوجه خاص، إنضاج عظـيم لهـذه القومية في العالم. أجل إن كل الناس إنما هم بحكم الطبيعة متعصبون محبون لأوطانهم، ولكن الروح القبليـة الطبيعية للناس في القرن التاسع عشر، كانت روحا مبالغًا فيها مبالغة غير طبيعية. كانـت روحـا مغيظـة مغضبة منبهة فوق ما ينبغي كما كانت ملهبة ومضغوطة قسرا في قالب القومية.

كانت القومية تعلم في المدارس، وتؤكدها الصحف وتثبت في نفوس الناس بالتبشير والسخرية والغناء، حتى غدت أغنية فظيعة سودت وجه كل الشئون الإنسانية. حتى لقد دفع الناس إلى الشعور بأنهم مـن غيـر قومية يكونون من عدم اللياقة على حال من يخرج عاريا على زحمة الناس. وأولعـت بالقوميـة الـشعوب الشرقية التي لم تسمع بها أبدا، مثلما أولعت بسجائر الغرب وقبعاته المستديرة السوداء. حتى لقـد أصـبحت الهند أمة – وهي ذلك الخليط المكون من متباين الأجناس والديانات والثقافات ما بـين درافيديـة ومغوليـة وآرية!؟... وبدهي أنه كانت هناك حالات مربكة كما يحدث عندما يضطر أحد الشبان اليهود بحـي هوايـت شابل [1] أن يقرر لنفسه هل هو ينتمي إلى الأمة البريطانية أو اليهودية.

ولعبت الصور الساخرة الكاريكاتورية والرسوم المتحركة (Cartoons) السياسية دورا كبيرا في هـذا الإعلاء الذي رفع نحلة تلك الأرباب القبلية الأحدث عهدا والأكبر حجما – وما الأمم العـصرية إلا أربـاب قبلية – إلى ما وصلت إليه من عزة وتسلط على خيال القرن التاسع عشر. فلو تصفح أحـدنا مجلـة "بـنش" (Punch) تلك السجل العجيب المعاصر للنفس البريطانية، التي تعيش إلى اليوم منذ (١٨٤١)، لوجد أشـكال بريطانيا وهيبرنيا [2] وفرنسا وجرمانيا وهي تعانق وتتنـازع وتتعاتـب وتفـرح وتحـزن. وممـا سـاعد الدبلوماسيين مساعدة عظيمة على مواصلة لعبة الدول الكبرى حملهم السياسة في شكلها هذا إلى الفطنة العامة للبشرية المرتابة.

---

[1] هوايت شابل (white Chapel): حي من أحياء شرق لندن يقوم به برج لندن. (المترجم).

[2] Hibcrnia: الاسم القديم الذي كان الرومان يطلقونه على إيرلندة. (المترجم).

فإذا غضب الرجل العامي لأن ابنه أرسل إلى الخارج لكيما يقتل، أخذوا يوضحون له أن ذلك كان في الحقيقة جزءا ضروريا من كفاح هائل يستهدف البر والخير، ولا مندوحة منه بين اثنتين من هـذه الـذوات القدسية المبهمة الضخمة بدل أن يقولوا له إن ذلك نتيجة لعناد اثنتين من وزارات الخارجية وشراهتهما. لقـد أساءت جرمانيا إلى فرنسا، أو كانت إيطاليا تظهر للنمسا الروح الواجبة.

ولم يعد مقتل الابن يعد انتهاكًا للعقل والحكمة؛ بل دارت حوله هالة أسطورية مـن الكرامـة. وكـان العصيان يستطيع أن يتشح بنفس الثوب الرومانسي الذي تكتسي به الدبلوماسية. فأصبحت إرلندة ربة تـشبه "سندرلا" هي كاثلين ني هوليهان (Cathleen ni Houlihan)، المنكوبة بالإساءات التـي تمـزق القلـوب والتي لا يمكن اغتفارها. وسمت "الهند الفتاة" مرتفعة فـوق حقائقهـا بعبادتهـا بانـدي ماتـارام (Bande Mataram).

وقد كانت الفكرة الجوهرية القومية القرن التاسع عشر هي "المطلب المشروع" لكل أمة بالسيادة التامة، وهو ادعاء كل أمة بأن لها الحق في إدارة شئونها لاخاصة داخل حدود أراضيها الخاصة بصرف النظر عن أية أمة أخرى. وكان عيب هذه الفكرة هو أن شئون كل مجتمع عصري ومصالحه إنما تمتـد إلـى أقـصى أجزاء الأرض. فإن الجريمة التي حدثت في سراجيفو في ١٩١٤ مثلاً، والتي تسببت عنها الحرب العظمـى، قد ترتب عليها نزول أشد المحن بهنود لبرادور، لأن تلك الحرب أوقفت الاتجار بالفراء، الذي يعتمدون عليه في الحصول على الضروريات من أمثال الذخيرة، التي لم يكونوا يستطيعون بدونها أن يحصلوا على القـدر الكافي من القوت.

وإن عالما من الأمم المستقلة ذات السيادة ليعني إذًا عالما من الإساءات المـستديمة عالمـا مـن دول مستعدة على الدوام للحرب أو مشعلة نارها أبدا. على أنه كان يساير التبشير بتلك القوميـة ويناقـضها فـي الوقت نفسه، دعاية قوية انتشرت بين الشعوب الكبيرة الأقوى منّة لمجموعة أخرى مـن الفكـرات: - هـي فكرات الاستعمار (الإمبريالية) الذي يسلم فيه لأمة قوية ومتقدمة، بالحق في التسلط على أمم أخرى أقل تقدما أو أمم أو شعوب أقل حظًا من التطور السياسي، ولما تتطور قوميتها بعد، وتتوقع منها الشعوب الكبيـرة أن تشكر لها صنيعها في حمايتها إياها وتسلطها عليها.

وواضح أن هذا الاستعمال لكلمة الإمبراطورية إنما هو استعمال مختلف عن معناها العام السابق. فإن الإمبراطوريات الجديدة لم تدع أنها استمرار لإمبراطورية روما العالمية. بل هي فقدت آخر الصلات التـي تربط بين فكرة الإمبراطورية وبين سلام العالم.

وهاتان الفكرتان فكرتا القومية، ثم "الإمبراطورية" بوصفها تاجا على مفرق النجاح القـومي – غلبتـا على الفكر السياسي الأوربي، بل غلبتا في الواقع على الفكر السياسي للعالم في كل آناء النصف الثاني مـن القرن التاسع عشر، وغلبتا عليه حتى نبذتا نبذًا عمليا كل فكرة ذهنية أوسع منهما أفقًا تدور حول موضـوع الخير الإنساني المشترك. كانتا فكرتين عمليتين غير سليمتين بشكل خطر. ولم تكونا لتمثلا أي شيء جوهري

أو ثابت دوما في الطبيعة البشرية، كما أنهما فشلتا في أن توجها الحياة الجديدة للهيمنة العالمية والأمن العالمي اللذين لم تفتأ الثورة الميكانيكية تجعلهما كل يوم ألزم وأحتم.

وقد قبلت هاتان الفكرتان لأن الناس عامة لم تكن لديهم الآراء الجارفة التي تتيحها دراسة التاريخ العالمي، كما لم يعد لديهم الخير الشامل الذي تتيحه ديانة عالمية. ولم يدرك الناس خطرهما على جميع روتينات الحياة اليومية العادية إلا بعد فوات الأوان.

٨- المعرض الكبير ١٨٥١

بعد أن تخطى القرن التاسع عشر منتصفه، انفجر هذا العالم، عالم الدول الجديدة والفكرات القديمة، هذا النبيذ [1] الجديد الآخذ في الاختمار والموضوع في الزجاجات القديمة للدبلوماسيين – مفلتًا من القيود الركيكة الهزيلة التي أنشأتها معاهدة فيينا – ومنقلبا إلى سلسلة من الحروب. بيد أنه كان من سخرية المصادفات أن سبق مجموعة الاضطرابات الجديدة احتفال سلمي أقيم في لندن هو المعرض العظيم في ١٨٥١. وهذا المعرض يستحق منا فقرة أو ما إليها.

كان الروح المحرك في هذا المعرض هو ألبرت أمير ساكس كوبرج جوثا، وهو ابن أخي ليوبولد الأول، الملك الألماني الذي وضع على العرش البلجيكي في ١٨٣١، والذي كان كذلك خال الملكة الصغيرة فيكتوريا الإنجليزية. وكانت اعتلت العرش في ١٨٣٧ وعمرها ثمانية عشر عاما. وما لبث الأميران الشابان – وكانا في سن واحدة – حتى تزوجا في ١٨٤٠ تحت رعاية خالهما. وكان الأمير ألبرت يعرف عند البريطانيين باسم "الأمير الزوج Prince Consort". كان شابا ذا ذكاء موفور وتعليم ممتاز غير عادي، ويلوح أنه صدم صدمة كبيرة بسبب ذلك الركود الذهني الذي انحدرت إنجلترة إليه.

وكانت أكسفورد وكامبردج، هذان المركزان المؤتلقان لا تزالان تفيقان على مهل من ذلك الانخفاض والهبوط الذهني الذي أصابهما في أواخر القرن الثامن عشر. ولم يكن عدد الناجحين سنويا في امتحانات القبول ليزيد في أي من الجامعتين عن أربعمائة عدا. وكانت الامتحانات في معظم أمرها رسميات شفوية، وإذا استثنينا كليتين في لندن (جامعة لندن)، وكلية في ديرهام، فإن ذلك كان كل التعليم الذي تقدمه إنجلترة في المستوى الجامعي.

وقد كان لابتداهات هذا الأمير الألماني الشاب المظلوم، الذي تزوج الملكة البريطانية، الأثر الأكبر في تشكيل لجنة الجامعات ١٨٥٠، كما أنه قصد إلى زيادة وعي إنجلترة بأن شجع على إقامة المعرض الدولي الأول كيما تتاح الفرصة لعمل موازنة بين المنتجات الفنية والصناعية لدى الأمم الأوربية المختلفة.

على أن المشروع لقي في إنجلترة اعتراضا مريرا. وتنبأ بعضهم في مجلس العموم بأن يجتاح الأفاقون والثوريون الأجانب إنجلترة ثم يفسدوا أخلاق الناس ويحطموا كل عقيدة وولاء في البلاد.

وعقد المعرض في هايد بارك داخل مبنى جديد من الحديد والزجاج، بني فيما بعد مرة ثانية تحت اسم قصر البلّور. فأوتي من الناحية المالية نجاحا عظيما. إذ جعل كثيرا من الإنجليز يدركون أن بلادهم ليست القطر الصناعي الوحيد في العالم، وأن الرخاء التجاري ليس احتكارا بريطانيا أمرت به العناية الإلهية. كما تجلت أمام العيون أوضح الشواهد على أن أوربا تتعافى باطراد مما ألم بها من دمار الحروب النابليونية،

---

[1] يقول المثل الإنجليزي: "نبيذ" (أو خمر) قديم في زجاجات جديدة: كناية عمن لا يأتي بجديد وقد قلب المؤلف منطوق المثل وعكس معناه. (المترجم)

وأنها أخذت تتغلب سريعا على زعامة البريطانيين في التجارة والصناعة. وبعد ذلك العرض مباشرة أنشئت إدارة للفنون والعلوم (١٨٥٣)، لتدارك ما فات بريطانيا من تأخر في التعليم، إن كان إلى إدراكه سبيل.

٩- سيرة حياة نابليون الثالث

إطلاق المعرض الكبير في ١٨٥١ أثار قدرا جسيما من الأحاديث والمشاعر الدولية. وكان قبل ذلك قد وجد لسانًا يترجم عنه في شعر الشعراء الشبان من أمثال تنيسون الذي ألقى نظرة نحو آفاق المستقبل حين قال:

"حتى لا تعود طبول الحرب إلى الدق مرة أخرى

وحتى تلتف رايات القتال وتطوى،

في برلمان الإنسان وفي دولة العالم المتحدة".

على أن تلك الرؤيا كانت سابقة لأوانها. فمن دون السلام الظاهري في تلك الفترة، فترة الأسمحية التحررية والاستنارة السطحية، كانت تنبت بذور محصول جديد من المنازعات الدولية. فكانت فرنسا جمهورية تحررية اسما. ولكن رئيسها كان من أسرة بونابرت وابن أخي نابليون الأول، وكان شخصا ذا دهاء عظيم وإقدام كبير، وكان مقدرا له أن يجلب على فرنسا وأوربا نوازل كانت أشد وأنكر مما نزل بها من قبل حتى مما أوقعه عمه قبل ذلك بنصف قرن.

ذلك بأنه تهيأ للجمهورية الفرنسية التي حلت محل ملكية آل أورليان في ١٨٤٨، حياة وجيزة مضطربة. وكان يثقلها منذ البداية مقترحات اشتراكية فجة ترتب عليها قدر كبير من الاضطراب الاقتصادي وقدر أكبر من القلق في الأعمال. فأما نابليون بونابرت الجديد – وقد لبس مسوح "الأمين" على التحرر والملاذ الذي يعيد الثقة ويثبت أركان الأمور – فإنه استطاع أن يفوز بالانتخاب لمنصب الرياسة في أكتوبر من تلك السنة. وأقسم اليمين باعتباره رئيسا بأن يظل مخلصا وفيا للجمهورية الديمقراطية، وأن يعد كل من يحاول تغيير شكل الحكومة عدوا له. ولم تمض سنتان (ديسمبر ١٨٥٢) حتى غدا إمبراطورا على الفرنسيين.

وقد نظرت إليه الملكة فيكتوريا أول الأمر نظرة يخالطها كثير من الارتياب، أو قل نظر إليه تلك النظرة البارون ستوك مار، صديق الملك ليوبولد البلجيكي وخادمه، والحفيظ على الضمير الدولي للملكة البريطانية وزوجها الملكي. وكانت هذه المجموعة من آل ساكس كوبرج جوثا كلها حماسة معقولة كريمة لوحدة ألمانيا ورفاهيتها على أسس من التحرر. وقد جنحوا إلى الانزعاج من انتعاش آل بونابرت من جديد. غير أن اللورد بلمرستون كان من الجهة الأخرى يعطف على المغتصب منذ البداية؛ فاستوجب استياء الملكة بإرساله الرسائل الودية للرئيس الفرنسي، دون أن يعرضها عليها لتفحصها، وأن يعطيها بذلك المهلة الكافية لاستشارة ستوك مار فيها، فأجبر على التخلي عن منصبه. على أن البلاط البريطاني ما عتم بعد ذلك أن دار دورة جعلته في وضع أدنى إلى المودة نحو المغامر الجديد.

وبشرت السنوات الأولى لحكمه بملكية تحررية أكثر منها بسيرة نابليونية، وبحكومة تقوم على "الخبز الرخيص والأشغال العامة العظيمة والإجازات [1]"، وقد عبر بحرارة عن عطفه الشديد على فكرة القومية، التي كانت بحكم الطبيعة فكرة مقبولة جدا لدى أي ألماني ذكي متحرر. وحدث أن برلمانًا وجيز الأمد، يمثل ألمانيا كلها التأم في فرانكفورت في ١٨٤٨، وفضه ملك بروسيا في ١٨٤٩، وقبل ١٨٤٨ كانت كل البلاطات الأوربية الكبيرة صاحبة تسوية فيينا تجتمع على نوع من المحالفة خشية اندلاع ثورة ثانية ديمقراطية أوسع انتشارا. وبعد إخفاق الحركات الثورية في ١٨٤٨ وعودة الملكية إلى فرنسا، ارتفع هذا الخوف، وأصبح الجميع أحرارا في أن يرجعوا إلى ما كانوا فيه من تدبير الخطط وتخطيط أضدادها شأنهم في الأيام السابقة على ١٧٨٩ – خاصة وقد صارت تحت تصرفهم الجيوش والأساطيل الأكثر قوة والأضخم عددا وهي التي أتاحها لهم الطور النابليوني. وبعد فترة دامت ستين عاما، ابتدأت من جديد لعبة "الدول الكبرى" في حمية ونشاط، واستمرت حتى أنتجت كارثة ١٩١٤.

وانتهج نابليون الجديد خطة الحذر ردحا من الزمن. وكان نقولا الأول قيصر الروسيا هو الذي قام بالخطوة الأولى نحو الحرب. فإنه عاد إلى توجيه الضرب التقليدية، وهي طعنة بطرس الأكبر نحو القسطنطينية. واخترع نقولا عبارة "رجل أوربا المريض" التي أطلقها على السلطان، وإذ وجد عذرا يتكئ عليه في سوء إدارة الدولة حيال السكان المسيحيين في الإمبراطورية التركية، فإنه احتل الإمارات الدانوبية في ١٨٥٣.

كان ذلك نكسة دولية حقيقية. فإن الدبلوماسيين الأوربيين وجدوا أنفسهم حيال "مسألة" من طراز القرن الثامن عشر نفسه. وكان مفهوما أن خطط روسيا تصطك بخطط فرنسا في سوريا، وتهدد طريق بريطانيا العظمى إلى الهند عبر البحر الأبيض، وتمخض الموقف عن قيام محالفة بين فرنسا وإنجلترة تعضيدا لتركيا وشبوب حرب هي حرب القرم التي انتهت بطرد الروسيا. وربما زعم المرء أن الحد من تصرفات الروسيا كان أحرى به أن يكون من عمل ألمانيا والنمسا، ولكن شهوة وزارتي الخارجية في فرنسا وإنجلترة إلى إحراق أصابعهم في الشئون الروسية كانت على الدوام شهوة لا سبيل إلى كبح جماحها. ووجد نابليون الجديد في هذه الحرب فرصة يقوي بها روابط صداقته غير الوطيدة مع بريطانيا والبلاط البريطاني، الذي كان حتى ذلك الحين يترفع عليه.

والطور الهام الثاني من أطوار هذا الانتعاش في مسرحية الدول الكبرى، كان استغلال الإمبراطور نابليون الثالث وملك مملكة سردينيا الصغيرة بشمال إيطاليا، لما تنطوي عليه حالة إيطاليا الممزقة من متاعب وشقاوات، وبوجه خاص للحكم النمسوي في الشمال. وقام ملك سردينيا فيكتور عمانويل بصفقة من صفقات العهد الماضي للحصول على مساعدة نابليون مقابل ولايتي نيس وسافوي، اللتين تأخذهما فرنسا، على أن تعوض سردينيا عن ذلك في إيطاليا. وما لبثت الحرب حتى شبت بين فرنسا وسردينيا من جهة والنمسا من جهة أخرى في ١٨٥٩، وانتهت في بضعة أسابيع. فهزم النمساويون هزيمة منكرة في ماجنتا وسلفرينو.

---

[1] نقلاً عن ألبرت توماس في الموسوعة البريطانية.

وعمل نابليون إلى عقد الصلح لأن بروسيا هددته على نهر الرين، وبذلك ترك لسردينيا غنيمة عظيمة هي لومباردي.

وكانت الحركة الثانية في لعبة فيكتور عمانويل ووزيره الأول كافور حركة ثورية في صقلية يقودها الوطني الإيطالي العظيم غاريبالدي وحررت صقلية ونابولي وانتقلت إيطاليا بأجمعها إلى يد ملك سردينيا فيما عدا روما (التي ظلت على ولائها للبابا) وسقطت البندقية (التي كانت في يد النمسويين) في قبضة ملك سردينيا. واجتمع في تورينو برلمان إيطالي عام ١٨٦١؛ وبذلك أصبح فيكتور عمانويل أول ملك لإيطاليا.

ولكن انتقل حينذاك مركز الاهتمام في لعبة هذه الدبلوماسية الأوربية إلى ألمانيا. وكان قبول الناس لفكرة وحدة إيطاليا في حدودها الجغرافية الطبيعية قد صار عقيدة ثابتة. ففي ١٨٤٨ اتحدت كل ألمانيا بما في ذلك بالطبع النمسا الألمانية ردحا من الزمان تحت ظلال برلمان فرانكفورت. ولكن هذا النوع من الاتحاد أثار بنوع خاص استياء كل البلاطات ووزارات الخارجية الألمانية؛ فإنهم لم يكونوا يرغبون في قيام ألمانيا متحدة بإرادة أهلها، بل يريدون أن تتحد ألمانيا بواسطة جهود الملوك والديبلوماسيين كما اتحدت إيطاليا.

وفي (١٨٤٨) أصر البرلمان الألماني على أن ولايتي شلزويج وهولشتين الألمانيتين في معظم أمرهما، اللتين كانتا عضوين في الحلف الألماني، لا بد أن تنتميا إلى ألمانيا. وأمر الجيش البروسي باحتلالهما، فأبى ملك بروسيا أن يتلقى الأوامر من برلمان ألمانيا، وبذلك عجل بسقوط تلك الهيئة. وعندئذ أقبل ملك الدانيمارك كريستيان التاسع لا لسبب معقول سوى ما فطر عليه الملوك من حماقة، فأقدم على حملة معكرة لصفو الألمان في هاتين الدوقيتين. وكانت شئون بروسيا آنذاك موكولة في غالب الشأن إلى وزير من طراز القرن السابع عشر، هو فون بسمارك (لقب كونتًا في ١٨٦٥ وأميرا في ١٨٧١) فرأى في هذا الخلاف فرصة ذهبية يجب انتهازها. فأصبح نصير القومية الألمانية في هاتين الدوقيتين (ولزام عليك أن تتذكر أن ملك بروسيا رفض أن يقوم بهذا الدور لحساب ألمانيا الديمقراطية في ١٨٤٨) وأقنع النمسا بأن تنحاز إلى بروسيا وتتدخل معها تدخلا عسكريا.

ولم تكن أمام الدانيمارك أية فرصة إزاء هاتين القوتين الكبيرتين. فهزمت في سهولة وأجبرت على التخلي عن هاتين الدوقيتين.

وعند ذلك تلمس بسمارك خلافًا مع النمسا في شأن امتلاك هاتين المقاطعتين الصغيرتين. وبذا أحدث حربا لا ضرورة لها، يقتل فيها الألماني أخاه، ولم يكن يرمي بها إلا استجلاب المجد العظيم إلى بروسيا فضلاً عن رفعة آل هوهنزولرن في ألمانيا ثم وحد بين أجزاء ألمانيا بزعامة آل هوهنزولرن البروسيين. ولقد يذهب الكتاب الألمان ذوو النزعة الرومانسية، إلى تمثيل بسمارك على صورة رجل دولة عظيم يدبر خطط وحدة ألمانيا؛ ولكنه لم يكن في الواقع يقوم بأي شيء من ذلك. فإن وحدة ألمانيا كانت حقيقة واقعة في ١٨٤٨. كانت ولا تزال جزءا من طبيعة الأشياء. ولم تكن الملكية البروسية تفعل شيئًا إلا مجرد تأخير ما لا مندوحة منه، لكي تبدو صاحبة الفضل في إحرازه على الطريقة البروسية. ولهذا حدث أنه عندما توحدت

ألمانيا آخر الأمر. فإنها بدلاً من أن تتخذ هيئة شعب عصري ممدن، قدمت نفسها للعالم بوجه ذلك البسمارك العتيق البالي ذي الشارب المخيف المزعج والحذاء الطويل الضخم والسيف والخوذة ذات الأسلة [1].

وفي هذه الحرب بين بروسيا والنمسا كانت إيطاليا ظهيرة لبروسيا، على حين كان غالب الولايات الألمانية الأدنى شأنًا، والتي تخاف خطط بروسيا تقاتل في صفوف النمسا. وطبيعي أن يرغب القارئ في أن يعرف لماذا لم ينتهز نابليون الثالث لصالحه الخاص هذه المناسبة البديعة المواتية لصناعة السياسة، ويدخل الحرب؟ وكانت كل قواعد لعبة "الدول الكبرى" تنادي بضرورة دخوله. فإنه كان يسمح بذلك لمنافس خطر لفرنسا أن ينهض في أوربا على صورة بروسيا. وكان ينبغي له أن يقوم بشيء ما للحيلولة دون ذلك. ولكن نابليون كان لسوء حظه واضعا أصابعه في مصيدة على الجانب الآخر من الأطلسي، ولم يكن في مركز يسمح له أن يتدخل في تلك الساعة.

فقد أغرته أمريكا إغراء مؤلما. فإن الشقاق بين مصالح ولايات الجنوب والشمال اتحاد أمريكا الشمالية، ذلك الخلاف الراجع إلى الفوارق الإقتصادية القائمة على الرقيق، أدى آخر الأمر إلى نشوب الحرب الأهلية الصريحة. وسنعالج في قسمنا التالي موضوع هذه الحرب الأهلية ببيان أوفى. ولن نزيد هنا عن القول بأنها دامت أربع سنوات، وانتهت آخر الأمر بالولايات المتحدة وقد عاد إليها اتحادها. وشمل الفرح كل عناصر الرجعية في أوربا أثناء سنوات الخلاف الأربع هذه. وانضمت الأرستقراطية البريطانية صراحة مع الولايات الجنوبية الكنفدرالية، وسمحت الحكومة البريطانية لعدة سفن حربية خصوصية، نخص بالذكر منها السفينة "ألاباما" بأن تصنع وتترك إلى البحر في إنجلترا لمهاجمة سفن الفيدراليين.

وكان نابليون الثالث أشد هوجا واندفاعا بزعمه أنه مهما يكن من شيء، فإن العالم الجديد قد سقط أمام القديم. وكانت الولايات المتحدة حظرت حتى ذلك الحين كل تدخل أوربي في قارة أمريكا. وبعد ذلك الحظر على وجه الإجمال قاعدة ثابتة للسياسة الأمريكية. ولكن تلك الدرع الواقية التي هي "مبدأ مونرو"، قد ألقيت آنذاك جانبا... وإلى الأبد فيما خاله نابليون!... وبذا جاز للدول الكبرى الآن أن تتدخل مرة ثانية في أمريكا، وأن تعود بركات الملكية المغامرة سيرتها الأولى هناك!...

والتمست المعاذير للتدخل... فوجدت في بعض التصرفات المتخذة حيال أملاك الأجانب من رئيس جمهورية المكسيك. واحتلت حملة عسكرية مشتركة من الفرنسيين والبريطانيين والإسبان ثغر فيرا كروز، على أن مشروعات نابليون كانت أجرأ من أن يطيقها حلفاؤه، فانسحبوا عندما اتضح لهم أنه لم يكن يدبر شيئًا يقل عن تأسيس إمبراطورية مكسيكية. وقد وفق إلى ذلك فعلاً بعد الشيء الكثير من القتال العنيف، وعين الأرشيدوق ماكمليان النمسوي إمبراطورا على الكثير من القتال العنيف، وعين الأرشيدوق ماسمليان النمسوي إمبراطورا على المكسيك في ١٨٦٤. على أن القوات الفرنسية تملكت البلاد مع ذلك تملكًا فعليا، وانهال إلى بلاد المكسيك حشد من المغامرين الفرنسيين بغية استغلال مناجمها ومواردها.

---

[1] الأسلة، طرف مستدق يركب في أعلى الخوذة. (المترجم).

إلا أن الحرب الأهلية انتهت في الولايات المتحدة في أبريل ١٨٦٥، ووجدت الفئة القليلة من الأوربيين المتملكين بلهفة للمكسيك، نفسها تواجه حكومة الولايات المتحدة المظفرة وهي في حالة تجهم وعبوس تام، وبين يديها جيش عظيم ينذر منظره بالشر. وخُير الاستعماريون الفرنسيون تخييرا صريحا بين الحرب مع الولايات المتحدة أو الانسحاب من أمريكا. والواقع أن هذه كانت إشارة تلوح لهم بالرحيل. تلك هي الورطة التي حالت بين نابليون الثالث وبين التدخل فيما شجر بين بروسيا والنمسا في ١٨٦٦، وكان هذا هو السبب الذي من أجله عجل بسمارك بنزاعه مع النمسا.

وعلى حين كانت بروسيا تقاتل النمسا كان نابليون الثالث يحاول أن يخرج بكرامته من مآزق المكسيك الشائكة. فاخترع خلافًا حقيرا على مسائل مالية مع ماكسمليان وسحب الجنود الفرنسية. وكان الواجب يقضي على ماكسمليان حسب قواعد الملوكية أن يتنازل عن العرش. ولكنه بدلاً من ذلك أخذ يقاتل من أجل إمبراطوريته. فهزمه رعاياه المعاندون وقبضوا عليه، وأعدموه في ١٨٦٧ رميا بالرصاص بوصفه مصدرا للقلق العام. وبذا أعيد سلام الرئيس مونرو إلى العالم الجديد.

وبينما كان نابليون مشغولاً في مغامرته الأمريكية الفاشلة، كانت بروسيا وإيطاليا تختطفان النصر على النمسويين (١٨٦٦). حقًا إن إيطاليا أصيبت بهزيمة شديدة في كاستوزا وفي معركة ليسا البحرية، ولكن الجيش النمسوي بلغ من هزيمته الساحقة على يد البروسيين في معركة سادوا أن سلمت النمسا تسليما ذليلاً. وكسبت إيطاليا مقاطعة البندقية، وبذلك خطت خطوة أخرى جديدة نحو الوحدة – ولم يبق خارج المملكة إلا روما وتريستا ومدن قليلة صغيرة على الحدود الشمالية والشمالية الغربية – وأصبحت بروسيا رأسا لاتحاد احتلافي ألماني شمالي، أخرجت منه بافاريا وورتنبرج وبادن وهيس والنمسا.

وترتب على انتصار بروسيا هذا وعلى قمع النمسا الذي ترى، بوصفها على الأقل الرأس الاسمي للشئون الألمانية، وعلى هذه الرجعة لسلطان مملكة فردريك الكبير – أن أصبحت بروسيا وفرنسا وجها لوجه. وأصبح من الأمور الواضحة أنهما ستشتبكان في منافسة عظيمة، وهي منافسة قدر لها أن تنتج آخر الأمر أعظم الحروب وأشدها تدميرا وإفسادا على مر التاريخ. لم يكن الأمر إلا أمر زمن لا بد أن تصطك بعده ألمانيا وفرنسا. وكان كل من الطرفين يعد العتاد الحربي، ولكن بروسيا تفوقت على فرنسا في أن لديها مدرسين خيرا من مدرسيها ومستوى من الطاعة والكفاية أعلى مما لدى فرنسا.

وكادت الحرب أن تنشب في ١٨٦٧، يوم حاول نابليون بمجرد أن أفلت من المكسيك أن يثير مع بروسيا خلافًا على مسألة لوكسمبرج. ثم وافت الحرب في ١٨٧٠ على أسس تمتّ إلى القرن الثامن عشر بأوثق الأسباب، بسبب منازعة حول المرشحين لعرش إسبانيا الشاغر. وكانت تساور عقل نابليون فكرة بأن النمسا وبافاريا وورتمبرج والولايات الأخرى في خارج الاتحاد الكنفدرالي الألماني الشمالي سوف تنحاز إليه ضد بروسيا. ولعله ظن أن ذلك لا بد أن يحدث لأنه أراده أن يحدث. ولكن الألمان منذ ١٨٤٨، كانوا متى تعرضت بلادهم للتدخل الأجنبي يصبحون شعبا متحدا. وكل ما عمله بسمارك أنه فرض ملكية أسرة

هوهنزولرن، في جو من الفخامة والرسميات وسفك الدماء، على حقائق قد تحققت. وانحازت ألمانيا كلها إلى بروسيا ضد فرنسا.

وفي أوائل أغسطس ١٨٧٠ اجتاحت القوات الألمانية المتحدة فرنسا. وأظهرت أنها خير من القوات الفرنسية في عددها ونظامها وعتادها وقيادتها. وكان انهزام فرنسا سريعا تاما.

وبعد معركتي ورث (Wcrth) وجرافيلوت، اضطر جيش فرنسي بقيادة بازان (Bazaine) أن يرتد إلى داخل متز ثم أحيط به بعد أن هزم في سيدان، وأخذ نابليون أسيرا ووجدت باريس نفسها مكشوفة أمام الغزاة، وللمرة الثانية خذلت الوعود النابليونية فرنسا خذلانًا ماحقًا.

وفي اليوم الرابع من سبتمبر أعلنت فرنسا نفسها جمهورية من جديد، وإذ عادت إليها فتوتها على هذه الشاكلة، فإنها استعدت للقتال من أجل البقاء ضد البروسية المظفرة. ذلك أنه، مع أن ألمانيا التي تغلبت على الروح الإمبراطورية الفرنسية كانت ألمانيا المتحدة، فقد كانت بروسيا منها على صهوة السرج. ولم يلبث الجيش المحصور في متز حتى استسلم في أكتوبر. وخضعت باريس بعد أن فرض عليها الحصار وضربت بالقنابل فسلمت في يناير ١٨٧١، والتمست فرنسا الصلح. وهناك في قاعة المرايا بقصر فرساي بين مظاهر الأبهة والاحتفال الرسمي ووسط تشكيلة عظيمة من الحال العسكرية نودي بملك بروسيا إمبراطورا لألمانيا، ووقف بسمارك وسيف آل هوهنزولرن يدعيان الفضل في تلك الوحدة الألمانية التي طالما أكدها منذ زمن مديد لغة مشتركة وأدب مشترك.

وكان صلح فرانكفورت الذي أعقب ذلك صلحا لآل هوهنزولرن. وكان بسمارك قد أفاد من شعور ألمانيا القومي واستغله في الحصول على عون الولايات الألمانية الجنوبية، ولكن أنى له أن يدرك القوى الجوهرية التي حبته وحبت سيده الملكي بالنصر. فإن القوى التي دفعت ألمانيا إلى النصر كانت قوة خريطة أوربا السياسية الطبيعية التي تحتم وحدة الشعوب الناطقة بالألمانية. وكانت ألمانيا في الناحية الشرقية ترتكب بالفعل الخطايا ضد الخريطة الطبيعية بإدارتها لبوزن ولنواح بولندية أخرى. والآن وقد أعماها الشره إلى الأراضي وبوجه خاص إلى مناجم الحديد، فإنها ألحقت بها قدرا جسيما من اللورين الناطقة بالفرنسية بما في ذلك متز، والألزاس التي كانت بالرغم من لغتها الألمانية فرنسية الميول في غالب شأنها.

ولم يكن ثمة مندوحة من أن يحدث التصادم بين الحكام الألمان والرعايا الفرنسيين في هذه الولايات المستلحقة. وكان لا مندوحة من أن تتردد للإهانات والمرارة التي مست فرنسا المقهورة في اللورين أصداء مدوية في باريس وأن تجعل غضب فرنسا الشديد مضطرما محتوما على الدوام. وسوف نقص عليك فيما بعد كيف تأجج هذا الحقد مستعرا في لهيب انتقام عظيم.. وأخفى نابليون رأسه المتداعية في إنجلترة، ومات هناك بعد انهياره بسنة أو ما يقاربها، وهكذا انتهت الدولة البونابرتية الثانية بفرنسا.

١٠- لنكولن والحرب الأهلية في أمريكا

مما يريح الفؤاد أن ينتقل الإنسان من هذا المغامر البونابرتي ومن أعماله التي جلبت الكوارث على فرنسا، ومن النصر المؤقت الذي أحرزه آل هوهنزولرن على الحركة الشعبية في ألمانيا، - إلى شخص أعظم تماما وأكبر أهمية وأبلغ قيمة، هو شخص إبراهام لنكولن الذي يمكن أن تجمع حوله بغاية اليسر والراحة حوادث الحرب الكبرى الأهلية في أمريكا.

وقد كان النصف الأول من القرن التاسع عشر الذي هو عصر رجعية وانتعاش في أوربا، كان في أمريكا فترة من فترات النمو الباذخ المسرف. فإن وسائل المواصلات الجديدة وأعني بها الزورق البخاري والسكة الحديدية ثم التلغراف الكهربائي الذي أعقبهما من فوره، جاءت في أنسب الأوقات لدفع حركة السكان قدما عبر القارة. ولولا هذه الوسائل الميكانيكية المساعدة، فلربما لم تصل الولايات المتحدة غربا حتى في يومنا هذا إلى ما يتجاوز جبال روكي، وربما كان شعب يخالف من نرى تمام المخالفة يكون هو المتملك على الشاطئ الغربي.

ولا يزال أمرا لا يفهمه السياسيون إلا فهما أبتر قاصرا، مسألة إلى أي حد تبلغ درجة اعتماد المساحات المحوطة بالحدود الحكومية والإدارية على وسائل المواصلات المستعملة وعلى طبيعة البلاد من حيث علاقتها بالنقل. فإن الوديان المفتوحة إذا أتيحت لها الطرق والكتابة، تنزع إلى الارتباط في ظل حكومة واحدة. فأما الحواجز الجبلية فما كانت لتفصل الشعوب فحسب بل الحكام أيضا، وكانت الإمبراطورية الرومانية إمبراطورية "طريق سلطاني" [(1)] وعجلة، وكان تقسمها وتفرقها وسقوطها راجعة إلى استحالة إقامة مواصلات سريعة بين الجزء منها والجزء. وكانت أوربا الغربية التي خرجت من غمرة العاصفة النابليونية، مقسمة إلى دولات قومية، لعلها وصلت إلى أقصى اتساع تستطيع أن تبلغه دون فقدان التماسك، على حين كانت قوة جر الحصان على الطريق السلطاني أسرع وسائل الارتباط لديها.

فلو أن سكان الولايات المتحدة انتشروا فوق القارة الأمريكية وليس لديهم إلا جر الحصان، والطريق الخشن الوعر وكتابة الرسائل، وسيلة لترابطهم بعضهم ببعض، فإنه يلوح أمرا لا مندوحة منه أن الفوارق في الأحوال الاقتصادية المحلية كانت لا بد متطورة فمنتجة طرزا اجتماعية مختلفة، وأن الافتراق الفسيح كان لا بد له من أن يقوي فروقًا في اللهجات وأن يزيل التعاطف، وأن العناء الذي يقاسيه من يريد حضور جلسات الكونجرس بواشنطن، كان لا بد مزدادا مع كل تقدم للحدود صوب الغرب، حتى يترامى الأمر بالولايات إلى التفرق في عصبة منحلة العرى مكونة من أمم متباعدة مستقلة قريبا. وإذن لكانت الحروب على الثروة المعدنية والمنفذ إلى البحر وما إليها، تعقب ذلك ولا مناص، وكانت أمريكا تغدو أوربا أخرى.

صورة ص ١٣٣٨

(1) طريق سلطاني (High-road): أي طريق كبير يمتد بين المدن والأقطار. (المترجم)

(شكل ٢٠٠) لنكولن وحفيده

غير أن الزورق البخاري النهري والسكة الحديدية والتلغراف، وصلت في أوانهـا لمنـع هـذا التفـرق. وأصبحت الولايات المتحدة هي الأولى في طراز جديد من الدولة ذات النقل العصري، وهي أكبر تماما وأشد قوة وأبلغ إدراكًا لوحدتها من أية دولة رآها العالم من قبل. إذ إن النزعة السائدة اليوم في أمريكا ليست إلـى التفرق والتباعد بل التمثل والامتصاص، حتى ليزداد المواطنون في الأجزاء المختلفة من الولايات، لا اختلافًا بعضهم عن بعض بل اتفاقًا في الحديث والفكر والعادة. حقًا إن الولايات المتحدة لا تقارن بدولة أوربية مثـل فرنسا وإيطاليا، بل إنها طراز من التنظيمة السياسية أجد عهدا وأكبر حجما.

وقد قامت في العالم إمبراطوريات تضاهي الولايات المتحدة في المساحة وعدد الـسكان، ولكنهـا كانـت مجرد تجمع من شعوب دافعة للجزية لا يوحدهم شيء إلا حكومة من الحكومات. فأما وحدة الولايات المتحدة ففطرية فهي مجتمع قائم على اتجاه ذهني لشعب يربو على مائة مليون من الناس فالسكك الحديدية التي زادت منازعات أوربا ومشاحناتها حدة، والمخترعات التي أنقصت مسافة الضربة التي تضربها الجيوش الأوربيـة. وأتاحت لهم قوى مدمرة تزداد على مر الأيام، إلى حد أنه يلوح الآن أنه لا اختيار أمام أوربا الغربيـة بـين التوحيد طوعا أو التوحيد كرها تحت سلطان إحدى الدول الغالبة، وبين الفوضى والـدمار، - هـذه الـسكك الحديدية، وهذه المخترعات قد مكنت ورسخت الوحدة الحرة لأمريكا الجمهورية. وقد عاد البخار على أوربا بالاحتقان وجلب لأمريكا الفرص السوانح.

ولكن الشعب الأمريكي مر وهو في طريقه إلى هذه العظمة الراهنة والأمنة الحاضرة في دور مـن أدوار الصراع الرهيب. ذلك أن الزوارق البخارية النهرية والسكك الحديدية والتلغراف، وما أشبهها من تـسهيلات، لم تصل بالسرعة التي تمكنها من تجنب النزاع المتزايد عمقًا في المصالح والفكرات بين الولايات الجنوبيـة المالكة للرقيق وبين الشمال الصناعي الحر – بل الواقع أن الزوارق البخارية والسكك الحديدية لم تقم في مبدأ الأمر إلا بزيادة أوار وعنف الفارق الثابت من قبل والراسخ من قبل. كان هناك فارق عميق في الروح بـين قسمي الولايات المتحدة، وترتب على تزايد توحيد البلاد الناجم عن وسائل النقل الجديدة، أن أصبحت مـسألة المفاضلة بين سيادة روح الشمال أو روح الجنوب، ذات خطورة تزداد حدة على الدوام. وكان الأمـل فـي التقارب والصلح ضئيلاً. فإن الروح الشمالية كانت روحا حرة فردية واتجهت الروح الجنوبية إلى الـضياع الكبيرة وإلى سادة ذوي وعي قوي بأنفسهم يحكمون حشدا من الرعايا أسمر البشرة خاضعا. وكانت عواطف الراديكاليين والأحرار البريطانيين منضمة إلى أهل الشمال؛ بينما كانت عواطف أصحاب الأملاك البريطانيين والطبقة الحاكمة البريطانية منحازة إلى أهل الجنوب.

وأصبحت كل قطعة من الأرض تنظم في شكل ولاية، وكل إضافة جديـدة إلـى المجموعـة الأمريكيـة السريعة النمو، - تصبح ميدانًا للنزاع بين الفكرتين. فهل يجب أن تكون الولاية الجديدة ولاية من المواطنين الأحرار أم ينبغي أن يشملها نظام الضياع الكبيرة ذاك؟ ولم تزل هذه نقطة النزاع تتدرج ببطء حتى تـسلطت

على الشئون الأمريكية بعد تأسيس ولاية مستوري في ١٨٢١ وأركنساس فـي ١٨٣٦ بوصـفهما ولايتـين تملكان الرقيق. ومنذ ١٧٣٣ كانت هناك جمعية لمنع الرقيق لم يقتصر أمرها على مقاومة التوسع فـي ذلـك النظام، بل كانت تحرك البلاد من أقصاها إلى أقصاها بغية إلغائه إلغاءا تاما. وتأجج الخلاف صراعا حـول إدخال تكساس إلى حظيرة الاتحاد. وكانت تكساس في الأصل جزءا من جمهورية المكسيك؛ ولكن كان معظم من يستعمرها أمريكيين من الولايات المتملكة للرقيق، فانفصلت عن المكسيك وأسس استقلالها فـي ١٨٣٦. وأعقب ذلك اضطراب قوي من أجل استلحاق تكساس، وألحقت تكساس في ١٨٤٤، وأدخلـت ولايـة فـي الاتحاد في ١٨٤٥. وكان الرقيق محظورا في تكساس في ظل القانون المكسيكي، ولكن الجنوب طالـب الآن بتكساس من أجل الرقيق وحصل عليها.

زد على ذلك أن الحرب التي شبت بينهم وبين المكسيك بـسبب اسـتلحاق تكـساس، أدت إلـى إضـافة نيومكسيكو ومساحات أخرى إلى الولايات المتحدة وفي هذه المناطق كذلك كان الرقيق مباحا، وجاء مشروع قانون العبدان الآبقين فزاد في كفاية وسائل القبض على العبدان الذين يهربون إلى الولايات الحرة لإعـادتهم إلى أربابهم. وفي نفس الوقت كان تطور فن الملاحة في المحيطات يجتاب أفواجا متزايدة من المهاجرين من أوربا يزيدون في عدد سكان الولايات الشمالية الآخذين فـي الانتـشار، وأدى رفـع إيـووا وويسكونـسين ومينيسوتا وأريجون، وهي كلها أراضي مزارع شمالية، إلى مرتبة الولايات إلى مـنح الـشمال المعـارض للرقيق أغلبية تمكنه من التسلط في كل من مجلسي الشيوخ والنواب. وإذ ثارت ثائرة الجنوب الزارع للقطـن لهذا التهديد المتزايد الذي يصدر عن حركة الداعين إلى إلغاء الرق، وإذ خشي هذا التـسلط الـشمالي فـي الكونجرس، فإنه راح يتحدث في الانفصال عن الاتحاد. وشرع أهل الجنوب يحلمون بضم ما يقع جنـوبيهم من أراضٍ في بلاد المكسيك وجزائر الهند الغربية، وبدولة عظيمة للعبدان منفصلة من الشمال وممتدة مـن خط ماسون وديكسون إلى بناما.

وأصبحت كنساس مسرح البت النهائي في الأمر. فإن الكفاح على الرقيق غمر منطقة كنساس فيما أوشك أن يكون حربا أهلية بين المستقرين فيها من أهل الولايات الحرة والمهاجرين إليها من أهل ولايات الرقيـق، وهي حرب استمرت حتى ١٨٥٧ وانتهت بفوز أنصار منع الرقيق من المستوطنين. ولكن كنساس لم ترفـع إلى درجة ولاية حتى ١٨٦١. وكانت توسعة مجال الرقيق هي نقطة الخلاف الرئيسية المطروحة على البلاد في انتخابات الرياسة في ١٨٦٠. وتعتبر دعوة إبراهام لنكولن بوصفه رئيسا مناهضا للتوسع، عاملاً حاسـما حفز الجنوب على أن يقرر فصم عرى الوحدة.

فأصدرت كارولينا الجنوبية "مرسوما بالانفصال"، واستعدت لخوض غمار الحرب. وانضمت إليهـا فـي أوائل ١٨٦١ ولايات المسيسبي وفلوريدا وألاباما وجورجيا ولويزيانـا وتكـساس. واجتمـع مـؤتمر فـي مونتجمري بولاية ألاباما، واختار جيفرسون دافيز رئيسا "للولايات الكنفدرالية" الأمريكية، وتبنـي دسـتورا يشابه دستور الولايات المتحدة ولكنه كان يؤيد بنوع خاص "نظام استرقاق الزنوج".

ذلك هو الموقف السياسي الذي دعا إبراهام لنكولن لمعالجته بوصفه رئيسا للاتحاد. وكان بمحض المصادفة رجلاً نموذجيا في تمثيله للشعب الجديد الذي ظهر بعد حرب الاستقلال. وكان أهله أناسا لا يزيدون على العاديين من عامة الناس، فلم يكن أبوه ليعرف القراءة أو الكتابة إلا بعد زواجه، وكانت أمه فيما يقال ابنة غير شرعية. وكانت امرأة أوتيت عقلاً راجحا وخلقًا ممتازا.

وقد قضى سنيه الأولى بوصفه جزيئًا صغيرا يتنقل مع فيض السكان العام المتجه غربا. ولد في كنتكي في ١٨٠٩، وحمل إلى إنديانا وهو غلام، ثم أخذ بعد ذلك إلى إلينوي. وكانت الحياة خشنة في تلك الأيام في غابات إنديانا البعيدة عن العمران؛ فكان المنزل لا يزيد على كوخ من الكتل الخشبية مقام في البرية، وكان حظه من التعليم المدرسي ضئيلاً وعارضا. على أن أمه علمته القراءة منذ بواكير حداثته، ثم أصبح قارئًا هائلاً يلتهم كل ما تقع عليه يده من كتب.

وعندما بلغ السابعة عشرة أصبح شابا رياضيا ضخم الجثة، مصارعا عظيما وعداء قويا. ولما بلغ التاسعة عشرة انحدر في النهر إلى نيوأورليان أجيرا في زورق. واشتغل حينًا كاتبا في أحد المتاجر، وعمل متطوعا في الجيش في حرب ضد الهنود، ودخل ميدان الأعمال فأنشأ متجرا مع شريك سكير، فوقع في دين لم يستطع أن يسددها تماما إلا على مدى خمسة عشر عاما. ثم حصل أخيرا عندما قارب الرابعة والعشرين على عمل يشتغل فيه وكيلاً لمساح مقاطعة سانجامون وهو عمل قال عنه إنه "أمسك رمقه بالجهد الجهيد".

وكان مكبا على القراءة كل ذلك الزمان. وكانت الكتب الأولى التي قرأ – تلك التي تكون الذهن – قليلة ولكن من الصنف الجيد فيما يلوح؛ كان يقرأ كل ما تصل إليه يده؛ وكان يعرف شيكسبير وبيرنز جيد المعرفة، وحياة واشنجتون وتاريخ الولايات المتحدة إلخ. وكان التعبير لديه غريزة فطرية، فكان منذ يفاعته يكتب مثلما يدرس، منتجا الشعر والمقالات وما أشبهها. ولكن الكثير من إنتاجه هذا مادة خشنة متواضعة. وسرعان ما اجتذبته السياسة إليها. ففي ١٨٣٤ يوم كانت سنه لا تزيد على خمسة وعشرين من السنين انتخب عضوا في مجلس النواب عن ولاية إلينوي؛ ودرس الحقوق وانتظم في سلك المحاماة في ١٨٣٦. وانقضى عليه زمان اشتغل فيه بالقانون أكثر من السياسة.

ولكن المسألة العظمى المطروحة أمام شعب الولايات المتحدة كانت تصر على شغل انتباه كل رجل أوتي الاقتدار. والحق أن هذا الرجل الضخم المقتدر المعلم نفسه بنفسه، والذي كان مثالاً نموذجيا بالغًا لرجل الغرب الأوسط، لم يسعه إلا أن يتأثر تأثرا عميقًا بالتطور المستمر في الخلافات على الرق والانفصال. وكانت المسألة ملتهبة الأوار في إلينوي بوجه خاص لأن الزعيم العظيم في الكونجرس لحزب التوسع في الرقيق كان هو السناتور دوجلاس وهو من إلينوي. وكانت هناك منافسة شخصية بين الرجلين. إذ كان كلاهما قد خطب السيدة التي أصبحت المسز لنكولن. وكان دوجلاس رجلاً ذا اقتدار ومقام عظيمين، وظل لنكولن بضع سنين يحاربه بالخطابة والنشرات في إلينوي بادئ الأمر ثم في الولايات الشرقية برمتها، وهو يرتفع في ثبات إلى مركز خصمه القوي والمنتصر آخر الأمر. وبلغ كفاحهما الأوج بحملة انتخابات الرياسة

في ١٨٦٠. وفي ٤ مارس ١٨٦١ احتفل بلنكولن رئيسا، والولايات الجنوبية في حالة انفصال فعال وهي ترتكب أعمالاً حربية.

وكان أول إجراء قام به الانفصاليون هو استيلاؤهم على جميع حصون الاتحاد الفدرالي ومخازنه الموجودة داخل حدودهم. وكانت هذه المراكز التابعة للاتحاد مبنية على أراض تملكها الولايات التي كانت فيها، وادعت هذه الولايات لنفسها الحق في "استرجاع ممتلكاتها". وقاومت حامية فورت سمتر في شارلستون، وابتدأت الحرب بإطلاق القنابل على هذه القلعة في ٢ أبريل ١٨٦١. ولم يكن لدى أمريكا في ذلك الوقت سوى جيش نظامي صغير جدا، أقام على ولائه للرئيس، ومن ثم فإن الذين قاموا بهذه العمليات الافتتاحية الأولى للاتحاد الكنفدرالي لولايات الجنوب كانوا مجندين جددا جمعوا من الولايات. واستدعى الرئيس لنكولن على الفور خمسة وسبعين ألفًا من الرجال، وانضمت تنسي وأركنساس وكارولينا الشمالية وفرجينيا مباشرة إلى الاتحاد الاحتلافي [1] الذي كان آنذاك قد رفع علمه الخاص به المكون من "النجوم والخطوط الرأسية" مقابل النجوم والشقق الأفقية.

وبذلك ابتدأت الحرب الأهلية في أمريكا. وكان يقوم بالقتال فيها جيوش مرتجلة أخذت تنمو نموا مطردا من عشرات قليلة من الآلاف إلى مئات الآلاف – حتى أربت قوات الاتحاد الفدرالي آخر الأمر على مليون من الرجال؛ وكانت الحرب تتقلب فوق مساحات هائلة تمتد بين نيومكسيكو والبحر الشرقي. وكانت واشنجتون وريتشموند هما الهدفان الرئيسيان. وإنه لمما يتجاوز مجالنا الراهن أن نحدثك عن تلك الهمة المتزايدة لذاك الكفاح الحافل بالبطولة والذي كان يهدر متدحرجا ذهابا وجيئة عبر التلال والآجام في تنسي وفرجينيا وينحدر من وادي المسيسبي. وجرت الحرب في أذيالها كل فظيع من القتال والدمار. وكانت الطعنة تتلوها الطعنة المضادة؛ وكان اليأس يحل محل الرجاء، ثم يعود الأمل فيفرخ ثم يعود القنوط فيخيم. وكانت واشنجتون تبدو في بعض الأحايين في متناول يد الاتحاد الكنفدرالي. ثم تعود جيوش الاتحاد الفدرالي فتنساب نحو ريتشموند.

وكان المحتلفون رجال الجنوب الكنفدرالي وهم أقل عددا وأفقر كثيرا في الموارد، يقاتلون بقيادة قائد ذي كفاية فائقة اسمه الجنرال لي. وكانت قيادة الاتحاد الشمالي أدنى كثيرا من ذلك كفاية واقتدارا. وظل لنكولن متعلقًا زمنًا طويلاً بالجنرال ماك كيلان "نابليون الصغير"، وهو قائد مدع ميال للتسويف مخيب لما كان يعقد عليه من آمال. وطفق الرئيس يطرد القواد ويعين آخرين جددا، حتى انتهى الأمر بأن جاء الفوز على يد شرمان وجرانت على الجنوب الرث الناهك القوي. وفي أكتوبر ١٨٦٤ اخترق جيش الاتحاد بقيادة شرمان ميسرة الجنوب الكنفدرالي، ثم تقدم من تنسي عبر جورجيا إلى الشاطئ، مخترقًا بذلك أرض الجنوب

---

[1] يلاحظ القارئ أننا سمينا (Confederacy) باسم الاتحاد الاحتلافي (الكنفدرالي) أي الولايات ذات الرابطة المفككة، على حين جعلنا الاتحاد (أو الاتحاد الفدرالي) مقابلا كما هو معلوم لكلمتي (Federacy)، (Union). انظر ص ١١٧٥ من المعالم. (المترجم).

الكنفدرالي أكمل اختراق، ثم عرج خلال الكارولينتين الشمالية والجنوبية حتى أطبق على مـؤخرة جيـوش الجنوب. وفي نفس الوقت كان جرانت يوقف لي أمام ريتشموند حتى أطبق عليه شرمان.

وفي اليوم الثاني من أبريل ١٨٦٥ أخلت جيوش الكنفدراليين مدينة ريتشموند؛ وفي اليـوم التاسـع مـن أبريل، سلم لي وجيشه عند أبوماتوكس كورت هاوس، ولم يمض شهر حتى كانت جيوش الانفصاليين الباقية قد وضعت السلاح جميعا وحتى كانت دولة الاتحاد الكنفدرالي قد انتهت.

ولكن هذا الكفاح الذي دام أربع سنوات أصاب شعب الولايات المتحدة بإجهاد هائل جسمي وخلقي. فكـان الرأي منقسما انقساما حادا في شأن الحرب. كثير من الولايات من أمثال ماري لاند وكنتكي. وذلك بأن مبدأ الحكم الذاتي في الولاية كان مبدأ عزيزا جدا على أذهان كثيرة، والحق أن الشمال كان يبدو في زمـن مـن يقسِر الجنوب على إلغاء الرقيق كرها. ولذا كان الكثير من الرجال يعارضون فكرة الرقيق، ولكـنهم كـانوا كذلك ضد التدخل في شأن السلطان الحر لكل ولاية على سكانها. فأما الولايات التي على الحدود فإن الإخوة وأبناء العم، بل حتى الآباء والأبناء، ربما كانوا ينضوون تحت ألوية متضادة ويجدون أنفـسهم فـي جيـوب متقاتلة متعادية. وكان الشمال يشعر بأن قضيته قضية بر وخير، ولكن هذا البر والخير لم يكن في رأي عدد عظيم من الناس برا كاملاً غير منقوص ولم يكن مكينا لا يمكن تحديه.

ولكن لنكولن لم تساوره خلجة شك. فإنه بقي صافي الذهن وهو في غمرات هذا الارتباك. وكان الاتحـاد مبدأه الذي يؤمن به ويناضل من أجله؛ وكان سلام أمريكا العظيم عقيدته الراسخة. كان يعارض الرق، ولكنه يرى أن الرق إنما هو مسألة خلاف ثانوي. وكان غرضه الأول هو ألا تتمزق الولايات المتحدة إلى مـسألة خلاف ثانوي. وكان غرضه الأول هو ألا تتمزق الولايات المتحدة إلى قسمين متباينين متناحرين. ولذا فإنـه ظل طوال سنوات الكفاح الأربع المديدة، صامدا كأنما هو عقيدة راسخة لا تلين وعزيمة ثابتة لا تهن.

وعندما حدث في مراحل الحرب الأولى أن الكونجرس وقواد الاتحاد شرعوا في إصدار قـرار بإعتـاق الرقيق عليه طابع العجلة والتسرع، اعترض لنكولن على ذلك وخفف من حدة حماستهم. فإنـه كـان يـرى وجوب تحرير الرقيق على مراحل ومع التعويض. ولم يصل الموقف إلا في ينـاير (١٨٦٥) إلـى درجـة النضج التي تسمح للكونجرس بأن يقترح إلغاء الرقيق إلغاء أبديا بتعديل دستوري؛ حتى لقد انتهـت الحـرب فعلاً قبل أن يتم تصديق الدولة على التعديل.

وبينما كانت الحرب تسير متثاقلة أثناء سنتي ١٨٦٢، ١٨٦٣، خبت الحدة الأولى والحماسـات الـسابقة، وتعلمت أمريكا علم كل أدوار سأمة الحرب والاشمئزاز من الحرب. وحل التجنيد الإجباري محل التطـوع وبدل من روح القتال في كل من الجنوب والشمال. وأصبحت الحرب كفاحا مديدا عبوسا يقتل فيه الأخ أخاه.

وشهد شهر يوليو ١٨٦٣ مدينة نيويورك تشغب على مشروع التدابير الحربية المقدم إلـى الكـونجرس، وحاول الحزب الديموقراطي في الشمال أن يفوز في انتخابات الرياسة بحجة أن الحرب قد فشلت وأنها يجب أن توقف. وكان معنى هذا بالبديهة نصرا عمليا للجنوب. ونظمت المؤامرات لهزيمة المشروع بالكونجرس. وألفى الرجل النحيف الطويل صاحب البيت الأبيض نفسه إزاء دعاة هزيمة وتردد، وخونة وقواد معـزولين،

ووجد من ورائه سياسيين حزبيين لواوبيين، وشعبا متشككا متعبا، وشهد أمامه قوادا غير ملهمين وجنودا منحطة الروح المعنوية. ولا بد أن أكبر سلوته كانت في شعوره بأن جيفرسون دافيز في ريتشموند لا يمكن أن يكون أحسن منه حالاً.

وأساءت الحكومة البريطانية السلوك، فسمحت لوكلاء الجنوب الكنفدرالي في إنجلترة أن ينزلوا إلى البحر ثلاث سفن حربية خاصة سريعة ويمونوها بالرجال – كانت ألاباما أشهر ما يتذكره الناس منها – وطفقت تلك السفن تتعقب سفن الولايات المتحدة وتطاردها في البحار وكان الجيش الفرنسي في المكسيك يمرغ مبدأ مونرو في الوحل. ثم جاءت من ريتشموند مقترحات خبيثة: أن تجاوزوا عن الحرب، وأن دعوا الخلافات المؤدية إلى الحرب إلى مناقشات تالية، وانقلبوا جميعا من فدراليين وكنفدراليين إلى التحالف على الفرنسيين في المكسيك ولكن لنكولن أبى أن يصغي إلى مثل هذه المقترحات ما لم يحافظ الكل على سلامة الاتحاد. فقد يستطيع الأمريكيون أن يفعلوا ذلك كشعب واحد لا كشعبين.

وقد شد لنكولن الولايات المتحدة بعضها إلى بعض خلال شهور طويلة مضنية، شهور من الهزائم والمجهود غير المثمر، وخلال أدوار سوداء حالكة من الفرقة والشجاعة المتداعية. وليس هناك أي سجل يسجل أنه تردد يوما في القصد إلى أهدافه. ومرت به أزمان لا يستطاع فيها عمل شيء، وعندئذ كان يجلس في البيت الأبيض صامتًا جامدا لا يتحرك، وكأنما هو تمثال متجهم للعزم والإصرار؛ وأزمان كان يجِم فيها ذهنه بالمزاح والنوادر غير اللائقة. كان عامر النفس بالفاكهة الساخرة، لكنه كان شديد رقة الإحساس لآلام الآخرين. وعندما جاءه بعض أعداء جرانت ليخبروه أن ذلك الجنرال يشرب الخمر، سأل من فوره عن ماركة الويسكي الذي يشرب – "خدمة للآخرين". فأما هو في حد ذاته فكان رجلاً متقشفًا في كل عاداته، يتحمل كلا من الجهد الهائل في العمل والصبر الهائل على المكاره.

وأخيرا أصبح من الجلي في الشهور الأولى من عام ١٨٦٥ أن بوادر النصر أخذت تقبل عليه، فنصب نفسه بكل قواه ليجعل التسليم سهلاً ومعاملة المقهورين بداية للتراضي. فإن مذهبه وعقيدته كانت هي "الاتحاد". وسرعان ما اشتبك في نزاع مع المتطرفين من أعضاء حزبه هو، الذين كانوا يرغبون في صلح انتقامي.

وشهد "الاتحاد" منصورا مظفرا. ودخل ريتشموند في اليوم التالي لتسليمها وسمع بتسليم "لي". ثم عاد إلى واشنطون، وفي اليوم الحادي عشر من أبريل ألقى خطبته العامة الأخيرة. وكان محور فكرته فيها هو الصلح والتراضي ثم إعادة إنشاء الحكومات الموالية في الولايات المهزومة. وفي مساء ١٥ أبريل ذهب إلى مسرح فورد بواشنطون، وبينما هو جالس ينظر إلى التمثيل أصيب برصاصة في مؤخر الرأس، وقتل على الفور من يد ممثل اسمه "بوث"، كان يحمل في قلبه شيئًا من الضغن عليه، وكان قد تسلل إلى المقصورة دون أن يشعر به أحد.

فلئن تعطل التئام الجراح، ولئن أصيبت الولايات المتحدة بالمزيد من المتاعب والمرارات في السنوات التي أعقبت الحرب أكثر مما كانت الأمور تقتضيه، فإن ذلك راجع إلى أن لنكولن قد مات. ولكن عمله كان قد تم، وكان الاتحاد أُنقذ، وأُنقذ إلى أبد الآبدين. ولم تكن هناك عند بداية الحرب سكة حديدية تمتد إلى ساحل الباسفيكي (الهادي). فأما الآن فقد انتشرت السكك الحديدية وتفرعت تفرع نبات سريع النماء حتى أمسكت كل أراضي الولايات المتحدة المترامية وربطتها ونسجتها فيما هو اليوم وحدة ذهنية ومادية لا يمكن أن تنفصم عراها.

ومنذ ذلك الزمان تواصل تماسك بنيان الولايات المتحدة تواصلا راسخًا مستمرا. ولم يمض عليها نصف قرن حتى كان سكانها قد تجاوزوا حد المائة مليون عدا. وليس هناك أي دلالة تدل على أن النماء والتطور بلغا حتى الآن أوجهما. فهذه الديمقراطية الجبارة التي لا ملك لها، ولا سياسة خارجية تفصيلية محكمة، إنما هي – ونكرر هذا القول – شيء جديد في خبرة العالم. وهي ليست "دولة عظمى" بالمعنى الذي تستعمل فيه تلك الكلمة في أوربا. وإنما هي شيء أكثر عصرية في طبيعته، وأضخم حجما، وله مقدرات أعظم وأبلغ.

١١- الحرب الروسية التركية ومعاهدة برلين

ابتدأت في ١٨٧٥ ثورة جديدة، لما سميناه في هذا الكتاب باسم الخريطة الطبيعيـة، ضـد الترتيبـات الديبلوماسية التي وضعتها معاهدة فيينا، عندما دب دبيب الاضطراب والعصيان بين الأجناس المسيحية فـي البلقان وبخاصة البلغار. واتخذ الأتراك حيالهم تدابير قمع عنيفة، ثم لجئوا إلى إعمال التقتيل في البلغـاريين على نطاق هائل.

وعند ذلك تدخلت الروسيا في (١٨٧٧)، وأجبرت الأتراك بعد عام قضي في حرب باهظة النفقة علـى توقيع معاهدة سان استفانو، التي كانت في مجملها معاهدة معقولة، تمزق الدولة التركية المصطنعة، وتؤسس الخريطة الطبيعية إلى حد كبير. ولكن كان قد أصبح من تقاليد الـسياسة البريطانيـة أن تعتـرض "خطـط الروسيا"- لسبب لا يعلمه إلا ا وحده! – كلما بدا أن للروسيا خُطة. فتدخلت وزارة الخارجيـة البريطانيـة وكان رئيس الوزراء آنذاك هو اللورد بيكونز فيلد – مهددة بالحرب إن لم تسترجع تركيا إلى حد كبيـر مـا كانت تحظى به من ابتزاز الأموال والاضطهاد والتقتيل!؟!... وانقضى زمن أوشكت فيه الحرب أن تقع بين الطرفين. وأخذت قاعات الموسيقى البريطانية، وهي المصابيح المضيئة للسياسة البريطانيـة، توقـد وتنـار بنيران الوطنية، حتى لقد بلغ الأمر أن الغلام الساعي في لندن كان يتغنى وهو يسير في جولاته، مرددا فـي غنائه معاني كرامة شعب عظيم.

"لسنا نريد القتال، ولكني أقسم بجنجو [1] لئن قاتلنا، فلدينا السفن، ولدينا الرجال، ولدينا الذخيرة أيضا".

وهكذا: حتى تصل الأمور إلى ذروتها في قوله:

"لن يأخذ الروس القسطنطينية".

وكانت نتيجة تلك المعارضة البريطانية، أن اجتمع في ١٨٧٨ مؤتمر في برلين لتنقيح معاهـدة سـان استفانو، تنقيحا يتجه بصفة رئيسية إلى مصالح ملوك تركيا والنمسا. وحصل البريطـانيون علـى جزيـرة قبرص، التي لم يكن لهم فيها أي حق مطلقًا، والتي لم تعد عليهم أبدا بأقل فائدة؛ وعـاد اللـورد بيكونزفيلـد مظفرا من مؤتمر برلين، يحمل ما جعل البريطانيين في ذلك الزمان يزعمون بأنه "السلام مـع الـشرف". وكانت معاهدة برلين هذه هي العامل الرئيسي الثاني – (إذ كانت معاهدة فرانكفورت هي العامـل الأول) – الذي أدى إلى الحرب العظمى حرب ١٩١٤ – ١٩١٨.

---

[1] جنجو هو قسم ساخر في هذه الأغنية الحربية ومن ثم أطلقت جنجو أيضا على أي وطني مهووس يـدعو إلـى الحـرب. (المؤلف).

١٢- التدافع الثاني على الإمبراطوريات وراء البحار

ألمحنا أن الثورة الميكانيكية لم تنتج أي تغييرات جد ثورية في تاريخ أوربا السياسي بين سنتي ١٨٤٨، ١٨٧٨. فإن "الدول الكبرى" التي أعقبت الثورة كانت في الواقع لا تزال داخل حدود لا تزيد على اتساع رقعتها الأولى ولا تزال محتفظة بكثير من الشكليات التي كانت عليها في الأزمة السابقة على الثورة. ولكن الذي حدث هو أن زيادة السرعة والثقة بوسائل النقل والمواصلات التلغرافية أحدثت تغيرات جسيمة في الأحوال والمناهج، وقامت وراء البحار مشروعات مالية وتجارية لبريطانيا وغيرها من الدول الأوربية الأخرى، كما نشأت صلات شتى بين آسيا وأفريقيا من جهة وأوربا من جهة أخرى.

وكانت نهاية القرن الثامن عشر فترة تمزيق للإمبراطوريات ورفع لغشاوة الخداع عن أبصار دعاة التوسع العدواني. فإن الرحلة الطويلة الشاقة بين بريطانيا وإسبانيا وبين مستعمراتهما في أمريكا كانت تحول دون كثرة الذهاب والغدو بين أرض الوطن الأم وبين بناتها التوابع، وبذا انفصلت المستعمرات وتحولت إلى مجتمعات جديدة مميزة، ذات فكرات ومصالح مميزة بل مختلفة في أساليب كلامها. وكلما نمت المستعمرات زادت شدا ورهقًا لتلك الرابطة الواهنة غير المحققة رابطة السفن التي كانت همزة الوصل بينهما. أجل إن مراكز التجارة الضعيفة في البرية (أمثال ما كان لفرنسا في كندا)، أو المؤسسات التجارية في المجتمعات الأجنبية الكبيرة، (شأن ما كان لبريطانيا في الهند)، ربما كانت تتشبث متعلقة من أجل البقاء المحض بالأمة التي تمد لها يد العون وتقيم لها سبب الوجود. ذلك على الأكثر دون أي شيء آخر هو ما كان يبدو في أعين كثير من المفكرين في القسم الأول من القرن التاسع عشر، الحد الذي يحد الحكم وراء البحار.

وفي ١٨٢٠ كانت المعالم غير البينة "للإمبراطوريات" الأوربية العظمى خارج أوربا، التي طالما ظهرت على صورة ضخمة لافتة للنظر في خرائط منتصف القرن الثامن عشر، قد تقلصت أبعادها تقلصا بالغًا جدا. وكانت الإمبراطورية الروسية هي وحدها التي تزحف كأوسع ما يكون الزحف عبر آسيا. ولكنها كانت تزحف في أخيلة كثيرين من الأوربيين أكثر مما تزحف في حقيقة الأمر، بسبب ما جرت به عادتهم من دراسة جغرافية العالم على أساس مشروع مركاتور [1] الذي يبالغ مبالغة هائلة في حجم سيبريا.

وكانت الإمبراطورية البريطانية في ١٨١٥ تتكون من أقاليم النهر والبحيرات الساحلية القليلة السكان بكندا، ومن أرض عظيمة داخلية مكونة من برية لم يكن فيها من القليلة السكان بكندا، ومن أرض عظيمة داخلية مكونة من برية لم يكن فيها المستقرات في ذلك الحين سوى محطات تجارة الفراء التابعة لشركة خليج هدسن؛ وكانت قرابة ثلث شبه الجزيرة الهندية تحت حكم شركة الهند الشرقية؛ وكانت تضم النواحي الساحلية عند رأس الرجاء الصالح، التي يسكنها السود والمستوطنون الهولنديون ذوو الطبع الثائر، وبضع محطات تجارية على ساحل إفريقيا الغربية وصخرة جبل طارق وجزيرة مالطة وجمايكا وممتلكات صغرى قليلة

---

[1] مشروع مركاتور: طريقة لرسم الخرائط تنسب إلى الجغرافي ورسام الخرائط الفلمنكي جيراردبوس مركاتور (١٥١٢ – ١٥٩٤). (المترجم).

عمالها من العبيد في جزائر الهند الغربية وغيانا البريطانية بأمريكا الجنوبية، وأما في الجهة الأخـرى مـن العالم فلم يكن ثم غير محطتي تفريغ للمجرمين عند خليج بوتاني بأستراليا وفي تسمانيا.

وكانت إسبانيا محتفظة بكوبا ومستقرات قليلة في جزائر الفلبين. وكانت للبرتغال في إفريقيا بعض آثار تدل على مزاعمها القديمة. وكانت لهولندة جزائر وممتلكات مختلفة بجزائر الهند الشرقية وبغيانا الهولنديـة، كما كان للدانمرك جزيرة أو ما إليها من جزائر الهند الغربية. فأما فرنسا فكان لها جزيـرة أو اثنتـان مـن جزائر الهند الغربية وغيانا الفرنسية. وكان هذا فيما يلوح هو القدر الذي تحتاج إليه الدول الأوربية أو القدر الذي يحتمل أن تحرزه من بقية العالم. ولم يكن أحد عدا شركة الهند الشرقية يظهر أي نزوع للتوسع.

وكانت إمبراطورية ذات سمة خاصة عجيبة تتكون في بلاد الهند كمـا أسـلفنا، لا يكونهـا الـشعب البريطاني ولا الحكومة البريطانية، بل تكونها تلك الشركة، شركة المغامرين الخصوصيين بما لـديهم مـن احتكار ومرسوم ملكي. وقد اضطرت الشركة أن تصبح قوة حربية وسياسية أثناء سني الانقسام الهندي وعدم الأمنة الذي أعقب تجزؤ الهند بعد وفاة أورا نغزيب في ١٧٠٧. وكانت الشركة تعلمت أن تتجر في الولايات والشعب أثناء القرن الثامن عشر. فأسس كلايف هذا النوع العجيب من الإمبراطورية وتولى وارن هاستنجس تنظيمها؛ وقهرت المنافسة الفرنسية كما سبق أن أخبرناك؛ ولما وافق ١٧٩٨ عين اللورد مورنجتون حاكمـا عاما على الهند؛ وهو الذي أصبح فيما بعد المركيز ولزلي، وهو الأخ الأكبر لذلك الجنـرال ولزلـي الـذي أصبح دوق ولنجتون، فأقام سياسة الشركة بصورة نهائية على أساس إقامة حكمها هي في مكان إمبراطورية المغولي العظيم الغاربة.

وكانت حملة نابليون على مصر هجمة مباشرة على إمبراطورية هذه الشركة البريطانية. وبينما كانـت أوربا مشغولة بالحروب النابليونية، راحت شركة الهند الشرقية تحت فئة متعاقبة من المديريين العامين، تلعب في الهند نفس الدور الذي كان يلعبه من قبل التركمان ومن إليهم من الغزاة النازحين من الـشمال، ولكنهـا كانت تلعبه على مرتبة من الكفاية أعظم وفي عنف وقساوة أقل وأدنى كثيرا. واستمرت في عملها بعد معاهدة فيينا تجمع إيراداتها، وتشن الحروب وتبعث بالسفراء إلى الدول الآسيوية، كانت دولة شبه مستقلة، وهي مـع ذلك دولة ذات ميل ملحوظ إلى إرسال الثروة نحو الغرب.

وقد سبق في فصل مضى، أن لخصنا لك سيرة تحطم إمبراطورية المغولي العظيم وظهـور ولايـات المهراتا والإمارات الرجبوتية، ومملكتي أوده والبنغال الإسلاميتين ونشوء طائفة السيخ. ولـسنا بقـادرين أن نخبرك هنا في أي تفصيل، كيف شقت الشركة البريطانية طريقها نحو السيادة، تارة بوصفها حليفًا لتلك الدولة وتارة لتلك الأخرى، وأخيرا بوصفها قاهرة للجميع. وامتد سلطانها إلى أسام والسند وأوده. وأخذت خريطـة الهند تتخذ صورة المعالم المألوفة لدى التلاميذ الإنجليز اليوم، وهي رقاع كثيرة من الولايات الوطنية تضمها وتربطها بعضها إلى بعض الولايات الكبيرة التي تحت الحكم البريطاني المباشر.

والآن، وبينما كانت هذه الإمبراطورية العجيبة التي لم يسبق لها مثيل في التاريخ، إمبراطورية الشركة تنمو في المدة بين ١٨٠٠، ١٨٥٨، كان الانقلاب الميكانيكي يلغي في غير ضجيج المسافة العظيمـة التـي

كانت يوما ما تفصل الهند عن بريطانيا، وكان حكم الشركة في الأيام القديمة قليل التدخل في الحياة الداخلية للولايات الهندية؛ وكل الذي فعلته أنها منحت الهند سادة أعلين أجانب، ولكن الهند طالما تعودت حكم السادة الأعلين الأجانب، ولطالما تمثلتهم حتى ذاك الحين؛ فأما هؤلاء الإنجليز فكانوا ينزلون البلاد شبابا ويعيشون فيها معظم حياتهم، ويصبحون جزءا من نظامها ولكن الانقلاب الميكانيكي كان قد أخذ في تغيير حالة الأمور هذه. فأصبح أيسر على الموظفين البريطانيين أن يجتلبوا زوجاتهم وعائلاتهم، وكفوا عن أن يصطبغوا بالصبغة الهندية؛ وظلوا بشكل أوضح أجانب وغربيين وزاد عددهم. ثم إنهم شرعوا يتدخلون في العادات الهندية تدخلاً أقوى وأشد. ووصلت إلى البلاد أشياء سحرية فظيعة من أمثال التلغراف والسكك الحديدية. وأقبلت البعثات التبشيرية تعمل بصورة مكدرة للنفوس. فلئن لم يتيسر لهم تحويل عدد وافر من الرجال عن دينهم، لقد أوجدوا على الأقل المتشككة بين أتباع الديانات الأقدم عهدا. وشرع شبان المدن يصطبغون بالصبغة الأوربية، ويا لرعب آبائهم العظيم!!...

ولطالما تحملت الهند من قبل تغييرات كثيرة أو حكاما كثيرين. ولكن لم تتعرض أساليبها قط لمثل هذا النوع من التغيير الذي كانت تؤذن به الأمور. واستولى الجزع على كل من العلماء المسلمين والكهنة البراهمة على السواء، وليم البريطانيون على تقدم الإنسانية. وأخذت المنازعات على المصالح الاقتصادية تزداد حدة مع ازدياد قرب أوربا، ولقيت الصناعة الهندية وبخاصة الصناعة القطنية العهيدة كل الشر من التشريعات التي كانت توضع لمؤازرة أصحاب المصانع البريطانيين.

وارتكبت الشركة قطعة لا يصدقها عقل من الحماقة، عجلت باندلاع انفجار شديد. فإن البقرة لدى البرهمي مقدسة؛ والخنزير عند المسلمين نجس. وقد صرفت الشركة لجنودها الهنود بندقية جديدة تحتاج إلى خرطوشات مدهونة بالدهن ولا بد للرجال من قضمها قبل إطلاقها؛ واكتشف الجنود أن الخراطيش مطلية بدهن البقر والخنازير. وأدى هذا الاكتشاف إلى التعجيل بتمرد جيش الشركة الهندي، وهي الحركة المسماة "الفتنة الهندية" (١٨٥٧). فتمرد الجنود أولاً في مبروت. ثم ثارت دلهي تبغي استعادة إمبراطورية المغولي العظيم.

وعلى حين بغتة اكتشف الجمهور البريطاني بلاد الهند. فتنبهوا إلى تلك الحامية الصغيرة من الرعايا البريطانيين، المقيمين على تلك المسافة الشاسعة في تلك الأرض العجيبة ذات الغبار الناري والشمس المحرقة المنهكة، وهم يقاتلون في سبيل الحياة جماهير غفيرة سوداء تهاجمهم. فكيف بلغوا ذاك المكان؟ وأي حق لهم هناك؟ لم يسأل الجمهور البريطاني هذين السؤالين. فإن العطف على بني الجلدة المعرضين للخطر يتغلب على مثل تلك الأسئلة. وكانت ثمة مذابح وقساوات. وكانت (١٨٥٧) سنة قلق عظيم في بريطانيا العظمى. واستطاع الزعماء البريطانيون، وعلى الأخص لورنس ونيكولسون أن يقوموا بالعجب العجاب على يد فئات من الجنود قليلة لا تكاد تفي بشيء. فإنهم لم يكونوا يظلون جامدين في أماكنهم حتى يحاصرهم العدو على حين ينظم المتمردون صفوفهم ويقوون نفوذهم؛ فلو أنهم فعلوا ذلك لأدى بهم إلى فقد الهند فقدانًا أبديا. وكانوا

كثيرا ما يغيرون على عدو هائل ترجحهم كفتة رجحانًا جارفًا. قال لورانس: "إن ورقة الإسباتي هنا هي الرابحة لا البستوني!!... ورب فئة قليلة..".

ولزم جنود السيخ والجركا والبنجاب جانب البريطانيين. وظل الجنوب هادئًا. وإنا لنحيل القارئ على كتب تاريخية أخرى لتنبئه بمذابح كونيور ولكنو في أوده، وكيف استطاعت قوة بريطانية صغيرة يتفوق عليها العدو في العدد تفوقًا عظيما أن تحاصر دلهي وتأخذها عنوة. وما حل أبريل (١٨٥٩) حتى كانت آخر جمرات في ذلك اللهيب قد أطفئت وديست بالأقدام، وأصبح البريطانيون سادة على الهند من جديد، ولم تكن تلك الفتنة بأي حال ثورة شعبية؛ بل كانت مجرد تمرد في الجيش البنغالي، يرجع في معظم شأنه إلى سوء تصرف موظفي الشركة صغار الأحلام. وقصة تلك الفتن مليئة بالأمثلة التي تشهد بما أحيط به اللاجئون البريطانيون من رعاية الهنود ورفقهم. غير أنها كانت تحذيرا ونذيرا.

وكانت النتيجة المباشرة للفتنة هي إلحاق الإمبراطورية الهندية بالتاج البريطاني. وبمقتضى القانون المرسوم "قانون إصلاح حكومة الهند"، أصبح الحاكم العام نائب ملك يمثل الملك، وحل محل الشركة وزير للهند مسئول أمام البرلمان البريطاني. واستكمالا لهذا العمل حمل اللورد بيكونزفيلد، الملكة فكتوريا على أن ينادى بها إمبراطورة للهند في ١٨٧٧.

وعلى هذه الأسس الخارقة للعادة ترتبط الهند وبريطانيا في هذا الزمان. ولا تزال الهند هي إمبراطورية المغولي العظيم بعد أن وسعت أطرافها، غير أن المغولي العظيم حلت محله جمهورية بريطانيا العظمى المتوجة. وأصبحت الهند دولة استبدادية مطلقة من غير عاهل مطلق. ويجمع الحكم فيها بين أضرار الملكية المطلقة وبين اللاشخصية وعدم المسئولية اللذين تتسم بهما الإدارة الديمقراطية فإن الهند الذي له ظلامة لم يكن أمامه ملك ظاهر يلجأ إليه؛ إذ أن إمبراطوره ليس إلا رمزا ذهبيا. ولا بد له من أن يذيع النشرات في إنجلترة أو يوحي إلى من يقدم له في مجلس العموم سؤالاً. وكلما زادت مشغلة البرلمان بالشئون البريطانية، نقص حظ الهند من التفاته ورعايته، وزاد وقوعها تحت رحمة فئتها الصغيرة من كبار الموظفين.

وواضح أن دوام مثل هذا الحال كان من المحال. فإن الحياة الهندية أيا كانت عوامل التضييق عليها لم يكن بد من أن تتحرك أماما مع بقية العالم. وكانت للهند صحافة آخذة في النمو، وعدد متزايد من المتعلمين المتأثرين بالأفكار الأوربية، وإحساس متزايد بالألم المشترك ضد حكومتها. ولم يقابل هذا الوضع الجديد أي تقدم في نوع الموظف البريطاني في الهند وأساليب إعداده وتعليمه أثناء ذلك القرن. أجل إن تقاليده كانت عالية؛ وكثيرا ما كان رجلاً ذا صفات غير عادية، ولكن النظام كان نظاما أحمق سقيم الخيال جامدا لا لين فيه. زد على ذلك، أن القوة العسكرية التي كانت تقف من خلف هؤلاء الموظفين لم تتطور في خلقها ولا في ذكائها أثناء هذا القرن وليست هناك طبقة بلغت من الركود الذهني ما بلغته الطائفة العسكرية البريطانية.

فالرجل العسكري البريطاني عندما واجهته الهند الجديدة الأكثر تعليما، وعندما أدرك في قلق نقائصه التعليمية ودام يخشى الهزء به، - أظهر ميلاً متزايدا إلى العنف التشنجي الذي كانت له بعض النتائج المستوجبة لشديد الأسى.

وقد تجلى في تعاليم المستر كبلنج الداعية إلى العنف والتي سبق أن أشرنا إليها، نوع من الاستصواب لقلة المعرفة وانعدام القدرة وضبط النفس.

ولم يكن نمو الإمبراطورية البريطانية في اتجاهات أخرى عدا الهند سريعا إلى هذا الحد بأي حال أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر. وكانت فئة كبيرة من المفكرين السياسيين في بريطانيا ميالة إلى اعتبار الممتلكات وراء البحار مصدرا لضعف المملكة. وتطورت المستوطنات الأسترالية تطورا بطيئًا ضعيفًا إلى أن عادت إليها الأهمية بعد اكتشاف مناجم غنية للنحاس في ١٨٤٢ ومناجم للذهب في ١٨٥١، وكانت التحسينات المتزايدة في وسائل النقل تزيد في رواج الصوف الأسترالي في السوق الأوربية كذلك كندا فإنها لم تتقدم تقدما ملحوظًا حتى ١٨٤٩؛ إذ كانت تعوق تقدمها الخلافات بين سكانها الفرنسيين والبريطانيين، وحدثت فيها ثورات خطيرة عديدة، ولم تخف توتراتها الداخلية إلا في ١٨٦٧ يوم صدر دستور جديد أنشئ بمقتضاه دومنيون كندا الاتحادي. وكانت السكك الحديدية هي صاحبة الفضل في تغيير مستقبل كندا. فإنها مكنت كندا، كما مكنت الولايات المتحدة من أن تمتد غربا، وأن تسوق قمحها ومنتجاتها الأخرى في أوربا، وأن تبقى بالرغم من نمائها السريع المترامي – مجتمعا واحدا في لغته وتعاطفه ومصالحه. وكانت السكك الحديدية والسفينة البخارية والسلك التلغرافي والبحري تُغير في الواقع كل أحوال التطور الاستعماري.

وكانت مستقرات إنجليزية قد ابتدأت قبل ١٨٤٠ في نيوزيلندة، فتأسست شركة لأراضي نيوزيلندة لاستغلال ما قد يكون في الجزيرة من إمكانيات. وفي ١٨٤٠ أضيفت نيوزيلندة أيضا إلى الممتلكات الاستعمارية للتاج البريطاني. وكانت كندا كما لاحظنا أول الممتلكات البريطانية استجابة كريمة خصيبة للمحتملات الاقتصادية الجديدة التي فتحت أبوابها وسائل النقل الجديد. وسرعان ما أخذت جمهوريات أمريكا الجنوبية وبخاصة الأرجنتين تشعر في تجارة ماشيتها وفي زراعة البن فيها بتزايد قربها من السوق الأوربية. وكان رأس السلع التي تجذب دول أوربا حتى الآن إلى الأقاليم الهمجية (البربرية) غير المسكونة هي الذهب أو المعادن الأخرى، والتوابل والعاج أو العبدان. ولكن تزايد السكان في أوربا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر أخذ يجبر الحكومات على الرمي ببصرها في الخارج بحثًا عن مواد الطعام الأساسية، كما أن نمو الصناعة القائمة على العلم كان يخلق الطلب على مواد خام جديدة، أمثال الشحوم والدهون بجميع أنواعها، والمطاط، ومواد أخرى كان الناس يغفلون شأنها حتى آنذاك. وكان جليا أن بريطانيا العظمى وهولاندة والبرتغال كن يحصدن ثمار مزية تجارية عظيمة متزايدة نامية من سيطرتهن الجسيمة الضخمة على المنتجات المدارية ودون المدارية. وبعد ١٨٧١ شرعت ألمانيا ثم فرنسا وإيطاليا فيما بعد في البحث عن مناطق للمواد الخام لم تلحق بأحد، أو عن أقطار شرقية تستطيع أن تعود بالربح من وراء صبغها بالصبغة العصرية.

وبذلك ابتدأ تدافع جديد شمل الأرض قاطبة لامتلاك البلاد التي لم ترزق حماية سياسية واقية، ولم ينج منه إلا البلاد الأمريكية حيث كان مبدأ مونرو يحول عند ذلك دون مثل هذه المغامرات. وكانت قارة إفريقيا تقع على مقربة من أوربا، وهي مليئة بإمكانيات يشوبها الغموض. وكانت في ١٨٥٠ قارة خفايا سوداء؛ ولم

يكن معروفًا منها إلا مصر والمناطق الساحلية. ولا بد أن تظهرك إحدى الخرائط على ضخامة الجهالة الأوربية في ذلك الزمان. ولا بد لنا من كتاب يقارب في الطول هذه "المعالم" حتى يفي بحق التقدير الواجب للقصة المذهلة التي تسرد ما أسداه المكتشفون والمغامرون من فضل على البشرية حين اخترقوا لأول مرة غيابة الظلماء هذه، وتذكر كذلك الوكلاء السياسيين والمديرين والمتجرين والمستوطنين ورجال العلم الذين ترسموا خطاهم.. وكشف القناع عن أجناس من الناس عجيبة من أمثال الأقزام ودواب غريبة كالأوكابي (Okabi) [(١)]. وثمار وأزهار وحشرات مدهشة وأمراض وبيلة ومناظر للغابات والجبال تذهب بالألباب وبحار داخلية ضخمة وأنهار هائلة ومساقط مائية عظيمة كشف الستر عنها جميعا – وهي وحدها عالم جديد بأكمله. بل لقد كشفت في زمبابوي آثار لحضارة بائدة غير معروفة، وهي ثمرة جهود قام بها في نصف الكرة الجنوبي شعب قديم.

وإلى هذا العالم الجديد هبط الأوربيون، فوجدوا البنادق موجودة من قبل في أيدي تجار الرقيق العرب، ووجدوا حياة الزنوج في اضطراب وخلل. وعند ١٩٠٠ كانت كل إفريقيا قد رسمت خريطتها وارتيدت أرضها وقدرت قيمها وقسمت بين الدول الأوربية؛ أجل قسمت، ولكن في كثير من الزمجرة والشحناء إلى أجزاء تركت كل دولة قلقة أو متذمرة غير راضية، ولكن التقسيم ظل على حاله تقريبا حتى ١٩١٤. ولم يراع أحد إلا قليلاً مصالح الأهالي الوطنيين أثناء هذا التدافع. نعم إن النخاس العربي قد أبيد أكثر مما طرد؛ ولكن الجشع في طلب المطاط الذي كان منتجا طبيعيا يجمعه الوطنيون قهرا في الكنغو البلجيكية – وهو جشع بلغ حد التسخط بشح ملك البلجيك الذي لا رحمة فيه – والتصادم بين المديرين الأوربيين الأغمار غير المحنكين وبين السكان الوطنيين، كانا أمرين أفضيا إلى فظائع شنيعة. وليست هناك دولة أوربية واحدة تستطيع أن تقول إن يديها طاهرتان تماما من هذه الجرائم.

ولسنا بقادرين أن نذكر لك هنا في أي تفصيل كيف استطاعت بريطانيا أن تستولي على مصر ١٨٨٣ [(٢)]، وظلت فيها بالرغم من أن مصر كانت من الناحية الرسمية (التكتيكية) جزءا من الإمبراطورية التركية – ولا كيف أوشك هذا التخاطف أن يؤدي إلى الحرب بين فرنسا وبين بريطانيا العظمى في ١٨٩٨، عندما حاول كولونيل فرنسي بعينه اسمه مارشان وهو يعبر إفريقيا الوسطى من الساحل الغربي أن يستولي عند فاشودة على النيل الأعلى. فأما في أوغندة فإن البعوث الكاثوليكية الفرنسية والإنجليكانية الإنجليزية نشرت صورة للمسيحية مثقلة بأعباء الروح النابليونية، وملحة في النهاية على أدق أنواع الفروق في العقيدة، إلى حد أن مدينة منجو عاصمة أوغندا بعد سنوات قلائل من ظهور أول بصيص للحضارة الأوربية فيها، قد ملئت شوارعها بالقتلى من "البروتستانت" و "الكاثوليك"، الذين يعسر عليك أعظم العسر أن تميز بينهم وبين المقاتلة غير الروحانيين في النظام القديم.

[(1)] الأوكابي أو الأقارب: حيوان من ذوات الأربع يشابه الزرافة يعيش في أفريقيا الغربية. (المترجم).

[(2)] الصحيح هو ١٨٨٢. (المترجم).

كذلك لا نستطيع أن نخبرك كيف سمحت الحكومة البريطانية في البداية للبوير أو المستقرين الهولنديين بمنطقة نهر الأورانج وفي بلاد الترنسفال، بأن يقيموا جمهوريتين مستقلتين بالمناطق الداخلية بجنوب إفريقيا، ثم عادت فندمت على ذلك وضمت إليها جمهورية الترنسفال في ١٨٧٧. ولا كيف تسببت حملة صحفية ملحة في جعل معركة تل ماجوبا تتقرح في ذاكرة الشعب الإنجليزي. ونشبت حرب مع كل من الجمهوريتين في ١٨٩٩، وهي حرب ثلاث سنوات باهظة النفقة على الشعب البريطاني، انتهت آخر الأمر بتسليم الجمهوريتين كلتيهما لبريطانيا.

ولكن فترة إخضاعهما لم تطل. فقد حدث في ١٩٠٧ بعد سقوط الحكومة الاستعمارية التي قهرتهما، أن تناول الأحرار مسألة جنوب إفريقيا، وأصبحت هاتان الجمهوريتان السابقتان حرتين وصارتا برغبتهما تقريبا أختين (صنوين) لمستعمرة الرأس وناتال في اتحاد احتلافي (كنفدرالي) يضم كل ولايات جنوب إفريقيا بوصفها جميعا جمهورية واحدة تحكم نفسها بنفسها تحت التاج البريطاني.

وانتهى العمل في تجزئة إفريقيا واقتسامها في مدى ربع قرن. وظلت أقطار ثلاثة صغيرة نسبيا غير ملحقة بأحد هي: ليبريا، وهي مستقرة على الساحل الغربي للرقيق الزنوج المعتقين؛ ومراكش ويحكمها سلطان مسلم؛ والحبشة وهي قطر همجي، به نوع من المسيحية قديم عجيب، وقد نجحت في الاحتفاظ باستقلالها سليما من يد إيطاليا في معركة عدوة في ١٨٩٦.

السابقة الهندية في آسيا

من العسير أن يعتقد الإنسان أن أية جمهرة عظيمة من الناس قد قبلت حقًا هذا الصبغ المتعجل لخريطة إفريقيا بالألوان الأوربية، باعتباره تسوية مستديمة جديدة لشئون العالم، على أن من واجب المؤرخ أن يسجل أن التقسيم قُبل على ذلك الوجه.

ولم يكن هناك من وراء العقل الأوربي في القرن التاسع عشر إلا خلفية تاريخية ضحلة، ولم يكد أن يكون لديه أي شعور بالمقومات التي تكون نظاما سياسيا مستديما، كما أن العقل الأوربي لم يتعود النقد العميق. وإن المزايا الوقتية البحتة التي أضفتها بداية الثورة الميكانيكية في الغرب على الدول الأوربية الكبرى دون سائر العالم القديم وآثرتها بها، كانت تعد في نظر الناس، ممن يجهلون كل الجهل غزوات المغول العظيمة في القرن الثالث عشر وما عقبه من قرون، أمارات تدل على سيادة الأوربيين المستديمة المحققة على الجنس البشري. ولم يدرك أحد منهم قابلية العلم وثماره للانتقال. ولم يدر بخلدهم أن الصينيين والهنود كان في مستطاعهم أن يواصلوا العمل في الأبحاث بنفس الاقتدار الذي عليه الفرنسيون أو الإنجليز. فإنهم كانوا يعتقدون أن هناك نوعا من الدافع الذهني الفطري موجودا في الغرب، ونوعا من التراخي والمحافظة الفطريين في الشرق، يؤكدان للأوربيين السيادة الأبدية على العالم.

وكانت عاقبة هذا الجنون هي أن وزارات الخارجية الأوربية المختلفة نصبت نفسها لا لمجرد منافسة البريطانيين في التدافع إلى الأقاليم الهمجية غير المتطورة على سطح الكرة الأرضية، بل نشطوا كذلك لتقطيع أقطار آسيا الممدنة الآهلة بالسكان، كأنما لم تكن هذه الشعوب أيضا لتزيد على مواد خام تنتظر الاستغلال الأوربي!!.. فإن استعمار الطبقة البريطانية الحاكمة للهند، ذلك الاستعمار المقلقل في داخله الباذخ في ظاهره، فضلاً عن أملاك الهولنديين الواسعة المربحة في جزائر الهند الشرقية ملأت قلوب الطبقات الحاكمة والتجارية في الدول الأوربية المنافسة بأحلام عظيمة مماثلة للسيادة في بلاد أخرى مثل فارس، والإمبراطورية العثمانية المفككة، وفيما بقي من الهند وفي الصين واليابان.

وفي أثناء السنوات الختامية للقرن التاسع عشر- كما يستطيع القارئ أن يحقق ذلك بفحصه أدب (: مؤلفات) تلك الفترة المتداول – كان الناس يفترضون أن من الطبيعي الذي لا مفر منه أن يقع العالم بأجمعه تحت السيطرة الأوربية. وأعد الذهن الأوربي نفسه – في شيء من روح الخير المتكرهة – لتناول ما سماه المستر رديارد كبلنج "واجب الرجل الأبيض" وأعني به السيادة على الأرض. ونصبت الدول نفسها لهذا المشروع وهي في حالة منافسة متدافعة بالمناكب مع أن سكانها بأرض الوطن متعلمون نصف تعليم أو جهلة أميون، وليس في جعبتها غير فئة قليلة من الرجال لا تزيد على الحثوة عدا أو لا تتجاوز في أقصاها بضعة آلاف، مشتغلين بالبحث العلمي، بينما نظمها السياسية الداخلية في حالة توتر أو تغير تشنجي، ونظامها الاقتصادي ضعيف متداع، كما أنه وقتي طارئ غير مستقر إلى أقصى حد، وبينما دياناتها قد بلغت من التصدع والانحلال كل مبلغ. كانوا يعتقدون اعتقادا حقيقيا أن في الإمكان إخضاع سكان آسيا الشرقية الهائلي العدد إخضاعا مستديما لمثل أوربا هذه...!!...

ولا يزال يوجد في العالم حتى هذه الأيام رجال كثيرون يفوتهم أن يدركوا الحقائق الضرورية في هذا الموقف. فإنهم لا يدركون أن معدل الذكاء في آسيا لا يقل في نوعه ذرة واحدة عن معدل ذكاء العقل الأوربي. وأن التاريخ يظهر الآسيويين وهم من الجرأة والقوة والكرم والتضحية بالذات والاقتدار على العمل الحشدي القوي كالأوربيين سواء بسواء؛ وأنه يوجد في هذا العالم – وسيظل يوجد – من الآسيويين عدد عظيم يفوق كثيرا عدد الأوربيين.

وقديما كان من العسير على الدوام الحيلولة دون تسرب العرفان من شعب إلى آخر، فأما اليوم فذلك من أعظم المحال. فالظروف العصرية الراهنة تجعل المساواة الشاملة بين أجزاء العالم بأمه في الشئون الاقتصادية والتعليمية أمرا لا مندوحة منه على ممر الزمان. وإن هناك لدعوة فكرية وخلقية لاستنهاض الآسيويين في هذا الزمان. فإن ما أفسدته فترة الانحراف اليسيرة التي امتدت قرنًا أو ما يقارب القرن، تصلحه عشرات قليلة من السنين. إذ يوجد في العصر الحاضر مثلاً، مقابل كل إنجليزي يعرف الصينية معرفة تامة، أو له أي إلمام وثيق بالحياة الصينية والفكر الصيني، مئات من الصينيين يعلمون كل شيء يعلمه الإنجليز.

وربما كان رجحان ميزان العرفان في ناحية الهند أكبر من هذا كثيرا. فالهند تبعث الطلاب إلى بريطانيا؛ على حين ترسل بريطانيا إلى الهند الموظفين – وهم في معظم الحالات رجال غير مدربين على الملاحظة العلمية. وليس هناك منظمة أيا كانت لإرسال الطلاب الأوربيين بوصفهم طلابا – للتعمق في تاريخ الهند ودراسة آثارها وثقافتها القديمة وشئونها الجارية وللقيام فيها بالأبحاث؛ ولإيجاد وسيلة يتصل بها العلماء الهنود بالطلاب البريطانيين في بريطانيا.

ومنذ (١٨٩٨) وهي سنة استيلاء ألمانيا على كياوتشاو واستيلاء بريطانيا على واي هاي واي وتأجير بورت آرثر للروسيا – تحركت الأحداث في الصين أسرع مما تحركت في أي قطر آخر فيما عدا اليابان. فإن كرها عظيما للأوربيين قد سرى في الصين سريان النار، ونمت جمعية سياسية ترمي إلى طرد الأوربيين، هي جمعية البوكسر [1]، التي تحولت إلى العنف في ١٩٠٠. وكان هذا اندلاعا للهيب الغضب والشر على صورة قديمة الطراز تماما. ففي سنة ١٩٠٠ قتل البوكسر ٢٥٠ أوربيا كما قتلوا فيما يقال ما يقارب ٣٠٠٠٠ مسيحي. وكانت الصين، ولم يكن ذلك لأول مرة في التاريخ، تحت نفوذ إمبراطورة أرملة. وكانت امرأة جاهلة، ولكنها كانت على درجة عظيمة من قوة الخلق كما كانت تعطف على البوكسر عطفًا وثيق العرى. فناصرتهم وحمت من تسببوا في الاعتداء على الأوربيين. وكان كل ذلك هو ما عسى أن يحدث إزاء الهون في ٥٠٠ ق. م أو ما يقاربها.

ووصلت الأمور إلى أزمة في ١٩٠٠. فإن البوكسر تزايد خطرهم وتهديدهم للأوربيين في الصين. واتخذت محاولات ترمي إلى إرسال حراس إضافيين إلى الأوربية في بيكين، ولكن لم تكن لذلك من نتيجة إلا

---

[1] عن البوكسر وجميع شئون آسيا والصين انظر للمترجم: "آسيا والسيطرة الغربية" تأليف السردار بانيكار طبع دار المعارف لوزارة الثقافة والإرشاد. (المترجم)

التعجيل بتفاقم الأمور. فإن الوزير الألماني [1] قد قتله بالرصاص في شوارع بيكين جندي من الحرس الإمبراطوري. واجتمع بقية الممثلين الدبلوماسيين الأوربيين، وجعلوا من السفارات التي كانت ذات موقع أنسب وأحسن من غيرها – حصنًا وقاوموا حصارا دام شهرين. ومن ثم سيرت على بيكين قوة متحدة متحالفة بقيادة جنرال ألماني، وخلّصت السفارات مما كانت فيه، وفرت الإمبراطورة إلى سيان فو، وهي عاصمة تاي تسونج القديمة في شانسي. وارتكب بعض الجنود الأوربيين فظائع خطيرة في السكان المدنيين الصينيين وهذا يرجعنا إلى قرابة مستوى ١٨٥٠، على وجه التقريب.

ثم قامت الروسيا عقب ذلك بضم منشوريا إليها.. ثم نشب نزاع بين الدول. ثم غزو بريطاني في ١٩٠٤ لبلاد التبت، وكانت حتى ذلك الحين قطرا محرما. ولكن الشيء الذي لم يظهر على سطح هذه الأحداث، والذي جعل كل هذه الأحداث مختلفة اختلافًا جوهريا، إنما هو أن الصين كانت تحتوي آنذاك على عدد ضخم من الناس المقتدرين الذين تعلموا تعليما أوربيا وألموا بالعرفان الأوربي.

وهدأت فتنة البوكسر، ثم أخذ سلطان هذا العامل الجديد يظهر في الحديث عن إنشاء دستور ١٩٠٦، وفي منع تدخين الأفيون، وفي الإصلاحات التعليمية. وظهر إلى عالم الوجود في ١٩٠٩ دستور على الطراز الياباني، يجعل الحكم في الصين ملكيا مقيدا. ولكن الشعب يأبى أن تُصب الصين في قالب ياباني، ومن ثم فقد استمرت الحركة الثورية. وكانت اليابان قد عمدت أثناء معاودتها تنظيم شئونها تمشيا منها مع مزاجها الخاص، إلى تحويل وجهها إلى الغرب ذي النظام الملكي، ولكن الصين كانت تنظر عبر المحيط الهادي. وفي ١٩١١ ابتدأت الثورة الصينية ولكن الصين كانت تنظر عبر المحيط الهادي. وفي ١٩١١ ابتدأت الثورة الصينية الجوهرية. وفي ١٩١٢ تنازل الإمبراطور عن العرش وأصبح أكبر مجتمع في العالم جمهورية. وكان خلع الإمبراطور هو في الوقت ذاته خلع أسرة مانشو، ولم تعد الضفيرة المغولية التي كان يرسلها الصينيون منذ ١٦٤٤ شيئًا إلزاميا على الناس.

ومن الراجح أنه في هذا الزمن الراهن يوجد ببلاد الصين من المادة الذهنية المتعلقة الجيدة ومن الرجال المخلصين الذين يشتغلون في صبغ الحضارة الصينية بالصبغة العصرية وإعادة تنظيم تلك الحضارة عدد أكبر مما قد نراه موجها لمصلحة أي شعب أوربي بمفرده. وسوف يكون للصين للفور كتابة عصرية عملية وصحافة وجامعات عصرية جديدة عفية، ونظام صناعي قد أعيد تنظيمه، ثم هيئة نامية من الباحثين في العلم والاقتصاد. وسوف يطلق سراح ما ركب في شعبها الهائل من الاجتهاد الطبيعي والمهارة الفطرية حتى يتعاون على قدم المساواة مع العالم الغربي.

نعم ما يزال أمامها بعد صعاب داخلية عظيمة؛ وهو أمر لا يستطيع إنسان أن يقضي فيه برأي. ولا مندوحة من مرورها في دور حرب أهلية وفتنة. ومع هذا فقد لا يكون بعيدا ذلك الزمان الذي تصبح فيه "الولايات الصينية المتحدة" يدا واحدة مع الولايات المتحدة الأمريكية ومع أوربا المتسالمة المتصالحة، وتكون معوانًا في إقامة صرح السلام المنظم في العالم.

---

[1] والوزير الألماني هو البارون فون كتلر وقتل معه أيضا مستشار السفارة اليابانية. (المترجم).

١٤- تاريخ اليابان

غير أن القطر السباق إلى الانتعاش بين الشعوب الآسيوية لم يكن مع ذلك هو الصين بل اليابان. وقد تعجلنا مسير قصتنا حين تحدثنا عن الصين. ولم تلعب اليابان حتى الآن إلا دورا صغيرا في هذا التاريخ؛ فإن حضارتها المنعزلة لم يتهيأ لها أن تقوم بنصيب كبير في الصوغ العام لمصائر البشرية؛ وقد تلقت من الدنيا الشيء الكثير، ولكنها لم تعطها إلا قليلاً. ولعل السكان الأصليين في الجزائر اليابانية كانوا شعبا شماليا له وشائج نوردية بعيدة، وهم الأينو (Ainu) المشعرون. ولكن اليابانيين الأقحاح إنما ينتسبون إلى العنصر المغولي. وإنهم ليشبهون من الناحية الجسمية الأمرنديين (Amerindians) (أي الهنود الأمريكيين)، وهناك أوجه شبهٍ غريبة بين خزف اليابان قبل التاريخي وكثير غيره من الأشياء وبين ما يماثلها من المنتجات المصنوعة في بيرو. وليس من المستبعد أنهم يمثلون انسيابا إلى الخلف متراجعا عن تيار ثقافة العصر الحجري الحديث (النيوليثي) في مسيرها عبر المحيط الهادي، ولعلهم امتصوا كذلك من الجنوب عنصرا من الملايو أو حتى عنصرا من النجريتو[1].

ومهما يكن أصل اليابانيين، فليس ثمة شك في أن مدنيتهم، وأن كتاباتهم وأن تقاليدهم الأدبية والفنية مشتقة من الصينية. كانوا أخذوا ينفضون عنهم غبار الهمجية في قرني الحقبة المسيحية الثاني والثالث، وكان من أقدم أعمالهم – بوصفهم شعبا – خارج بلادهم، غزوهم لبلاد كوريا تحت حكم ملكة متطرفة التعصب في وطنيتها، يلوح أنها لعبت دورا كبيرا في تأسيس حضارتهم. وتاريخهم تاريخ شائق رومانسي؛ فإنهم طوروا نظاما إقطاعيا وتقاليد للفروسية، وما هجماتهم على كوريا والصين إلا معادل شرقي لحروب الإنجليز في فرنسا.

وقد حملت اليابان لأول مرة على الاتصال بأوروبا في القرن السادس عشر. إذ حدث في ١٥٤٢ أن بعض البرتغاليين وصلوا إلى برها في سفينة صينية، وفي ١٥٤٩ شرع مبشر يسوعي اسمه فرانسيس زافيير يقوم بالتبشير هناك. وتقوم بيانات اليسوعيين في ذلك الزمان أن بلادهم بلاد خربتها الحروب الإقطاعية المستديمة تخريبا كبيرا. وظلت اليابان ردحا من الزمان ترحب بالعلاقات مع أوربا، واستطاعت الإرساليات المسيحية أن تدخل في الدين المسيحي عددا كبيرا من الناس. وأصبح شخص بعينه اسمه وليم آدمز من جلنجهام في كنت، أوثق مستشار أوربي تطمئن له نفس اليابانيين، وهو الذي علمهم كيف يبنون السفن الكبيرة. وقام اليابانيون بسفن مبنية في اليابان برحلات إلى الهند وبيرو.

ثم نشأ شقاق معقد بين الدومينيكيين الإسبان واليسوعيين البرتغاليين. وبين البروتستانت الإنجليز والهولنديين، وكان كل يحذر اليابانيين من خُطط الآخريين السياسية الخبيثة. وابتسم الحظ يوما لليسوعيين وأتاح لهم دورا من أدوار التسلط والفوز على منافسيهم فعمدوا إلى اضطهاد البوذيين وإهانتهم في شيء كثير من الشراسة. واشتبكت هذه الفتن مع منازعات الزمان الإقطاعية. وانتهى اليابانيون إلى الحكم بأن الأوربيين

[1] النجريتو: أو النجريللو: شعب متأخر من الأقزام يسكن شبه جزيرة الملايو وجزائر الفيلبين. (المترجم).

ومسيحيتهم آفة لا تطاق، وأن المسيحية الكاثوليكية بوجه خاص ليست إلا مجرد ستار يختفي وراءه أحلام البابا السياسية وأحلام ملك إسبانيا السياسية – الذي كان يملك من قبل جزائر الفليبين، وحدث اضطهاد حاسم عظيم للمسيحيين؛ وفي ١٦٣٨ أصبحت اليابان مقفلة إقفالاً تاما في وجوه الأوربيين باستثناء مصنع هولاندي تعس على جزيرة ديشيما الضئيلة في ميناء نجازاكي، وظلت مقفلة زمانًا يربو على مائتي سنة.

وتعرض الهولنديون القاطنون ديشيما لإهانات لا تكاد تطاق ولم يكونوا يتصلون بأي ياباني اللهم إلا الموظفين المختصين المعينين للتعامل معهم. وظل اليابانيون قرنين من الزمان منقطعين تمام الانقطاع عن بقية العالم كأنما كانوا يعيشون على ظهر كوكب آخر. وكان محظورا عليهم أن يبتنوا فلكًا يكبر عن محض زورق ساحلي. ولم يكن في مستطاع أي ياباني أن يسافر إلى الخارج، ولا أي أوربي أن يدخل البلاد.

وظلت اليابان قرنين وهي بمنأة عن تيار التاريخ ومجراه الأكبر. وقد واصلت العيش في حال من الإقطاع الجذاب تنعشها المنازعات الدموية. وكان فيها جماعة من السكان يقاربون الخمسة في المائة هم الساموراي (أعني رجال الحرب) والنبلاء وعائلاتهم، يظلمون سائر السكان ظلما فاحشًا لا حد له. وكان العامة جميعا يجثون كلما مر بهم أحد من النبلاء؛ فإن إبداء الرجل أيسر قدر من عدم الاحترام للنبيل معناه أن يضربه "ساموراي" أي جنود ذلك النبيل بالسياط إلى أن يقضي نحبه. وكانت الطبقات الممتازة تعيش عيش المغامرات الرومانسية التي لا يتسرب إليها أي شعاع من الجدة ينقذها مما هي فيه من إملال؛ كانوا يعشقون ويتقاتلون ويتمسكون بضروب من فعال الشرف الممتازة – ولعل ذلك كان يدخل أشد السآمة إلى أذهان الأذكياء منهم. ومن اليسير علينا أن نتصور تعاسة الذهن الطلعة، حين يعذبه الشوق إلى الرحلة والمعرفة وهو مصفد بالأغلال في تلك جزائر الرومانس الجوفاء.

وفي نفس الحين كان العالم الكبير في الخارج يسير قُدماً نحو رؤى أرحب وقوى أحدث. وتكاثر عدد السفن العجيبة التي تمر برءوس الأراضي اليابانية الممتدة في البحر، وكانت بعض السفن تتحطم في بعض الأحايين ويحمل ملاحوها إلى الشاطئ. وعن طريق ديشيما الحلقة الوحيدة التي تصلهم بالعالم الخارجي، جاءتهم النذر تقول إن اليابان لا تساير قوة العالم الغربي. وفي ١٨٣٧ دخلت خليج يدو سفينة رافعة علما غريبا من الخطوط والنجوم، تحمل بعض بحارة يابانيين التقطتهم وقد قذف بهم التيار بعيدا في المحيط الهادي. وأطلق الساحل على السفينة قذيفة مدفع طردتها خارج الميناء.

وسرعان ما عادت هذه الراية إلى الظهور على سواري سفن أخرى. جاءت إحداها في ١٨٤٩ للمطالبة بإخلاء سبيل ثمانية عشر ملاحا أمريكيا تحطمت بهم سفينتهم. ثم وصلت في ١٨٥٣ أربع سفن أمريكية بقيادة القومودور بري Perry، ورفضت أن تنسحب وألقى القومودور مراسيه في مياه محظورة، وأرسل الرسائل إلى الحاكمين اللذين كانا آنذاك يشتركان في حكم اليابان. وفي ١٨٥٤ عاد ومعه عشر سفن مدهشة يدفعها البخار، وهي مزودة بالمدافع الضخام، فقدم مقترحات يطلب بها التجارة والتبادل والتواصل. ولم يكن لليابانيين قِبلٌ بمقاومتها. ونزل إلى البر يحف به حرس مكون من خمسمائة رجل لكي يوقع

المعاهدة. واصطفت الجماهير وهي بين مصدق ومكذب ووقفت ترقب هذه البعثة الوافدة من العالم الخارجي وهي تشق الشوارع.

ثم قفت الروسيا وهولندة وبريطانيا خطوات أمريكا. ودخل الأجانب إلى بلاد اليابان وتبع ذلك وقوع المنازعات بينهم وبين الأذكياء من سراة اليابان. فقتل أحد الرعايا البريطانيين في إحدى مشاجرات الشوارع، وأطلق البريطانيون مدافعهم على إحدى المدن اليابانية في ١٨٦٣. ورأى أحد كبار النبلاء الذي تستشرف أملاكه مضيق شيمونوسيكي، أن من المناسب أن يطلق النار على السفن الأجنبية، فكان عاقبة ذلك أن قام أسطول ثان مكون من سفن بريطانية وفرنسية وهولندية وأمريكية بقذف بطارياته بالقنابل وتدميرها وتشتيت شمل سائقته. وأخيرا جاءت عمارة بحرية متحالفة (١٨٦٥) فألقت مراسيها خارج أوساكا، ورفضت على اليابان التصديق على المعاهدات التي فتحت أبوابها للعالم.

وكان تحقير هذه الأحداث وإذلالها لليابانيين شديدا حارا، ويظهر أن خلاص الشعوب ينحصر إلى حد كبير في هذه الإهانات. فقام اليابانيون قومة تجلى فيها العجب العجاب من النشاط والذكاء ونصبوا أنفسهم لرفع ثقافتهم ونظامهم إلى مستوى الدول الأوربية. ولم يحدث قط في التاريخ الإنساني بأجمعه أن خطا شعب خطوة كالتي خطاها الشعب الياباني يوم ذاك. ذلك أنها كانت في ١٨٦٦ شعبا ينتمي إلى القرون الوسطى، وكانت صورة هزلية مضحكة للنظام الإقطاعي الرومانسي المتطرف. وفي ١٨٩٩ كان شعبها قد أمسى شعبا تام الاصطباغ بالصبغة الغربية، على قدم المساواة مع أشد الدول الأوربية تقدما، بينما كانت تسبق الروسيا بمراحل كثيرة. فأزالت من الأذهان تماما ذلك الاعتقاد القائل بأن آسيا متأخرة عن أوربا بطريقة قاطعة، تأخرا لا رجاء في إصلاحه. كما أن جهودها الجبارة جعلت التقدم الأوربي يبدو – بالمقايسة – متوانيا عارضا.

ويضيق المقام هنا عن الإسهاب في ذكر وقائع حرب اليابان مع الصين في ١٨٩٤ – ١٨٩٥. وبحسبك أن تعلم أنها كشفت عن مدى اصطباغها بالصبغة الغربية. فكان لها جيش غربي ذو كفاية وتدريب، وأسطول سليم التكوين وإن يكن صغيرا. ولكن أهمية نهضتها، وإن كانت تقدرها بريطانيا والولايات المتحدة حق قدرها، وهما الدولتان اللتان كانتا تعاملانها بالفعل كأنما هي دولة أوربية، لم تفهمها الدول الكبرى الأخرى المشتغلة بالبحث عن "هند" عظيمة أخرى في قارة آسيا. فكانت الروسيا تشق طريقها دفعا خلال منشوريا إلى كوريا، وكانت فرنسا قد وطدت بالفعل أقدامها في الجنوب الأقصى في تونكين وأنام، وكانت ألمانيا تتربص تربص الجياع بحثًا عن مستقر تركن إليه. واتحدت الدول الثلاث لمنع اليابان من اجتناء أية ثمرة من الحرب الصينية، ولمنعها بوجه خاص من توطيد أقدامها على أرض القارة والمناطق المطلة على بحر اليابان. وكانت الحرب مع الصين استنفذت قواها، فهددوها بإعلان الحرب عليها.

وفي ١٨٩٨ أطبقت ألمانيا على الصين، متخذة من مقتل اثنين من المبشرين ذريعة، وضمت إليها جزءا من مقاطعة شان تونج. وعند ذلك استولت الروسيا على شبه جزيرة لياوتونج، وانتزعت من الصين

قسرا قبولها مد خط سكة حديد سيبريا إلى بورت آرثر؛ وفي ١٩٠٠ احتلت منشوريا. ولم تستطع بريطانيا أن تقاوم النزوع إلى المحاكاة، فاستولت على ميناء واي هاي واي ١٨٩٨.

وإن نظرة واحدة إلى الخريطة لتدلك كم كانت هذه الحركات مجلبة للفزع في قلب كل ياباـاني ذكـي الفؤاد. ولم تلبث تلك الحركات حتى أدت إلى حرب مع الروسيا تأذنت بحقبة جديدة في تاريخ آسيا، هي حقبة انتهاء فترة العجرفة الأوربية. ومن البدهي أن الشعب الروسي لم يكن له علم ولا جريرة في هذه التدابير التي كانت تُصنع له في تلك الشقة السحيقة من العالم، وكان رجال السياسة الروسـيون الأكثـر حكمـة واتزانًـا يناهضون هذه الضربات الحمقاء، ولكن عصابة من المغامرين الماليين كانت تحيط بالقيصر؛ من بينهم بعض الغراندوقات من أبناء عمومته. وقد غرقوا حتى الأذقان في مقامرتهم التي يرمون بها إلى نهـب منـشوريا والصين، ومن ثم لم يسمحوا لأنفسهم بأن يتراجعوا عن خطتهم أدنى تراجع. ومن ثم شـرعت اليابـان فـي إرسال الجيوش الجرارة من الجنود اليابانية عبر البحر إلى بورت آرثر وكوريا، ونهضت الروسيا لإرسـال عدد لا حصر له ولا نهاية من أحمال القطارات المثقلة بالفلاحين الروسيين على طول خط سكة حديد سيبريا لكي يموتوا في ميادين القتال النائية هذه.

وهزم الروسيون في البر والبحر على السواء لما كانوا عليه من سوء القيادة وعدم الأمانة في التموين بالميرة والذخيرة. ودار أسطول الروسيا بالبلطيق حول إفريقيا لكي يحطم عن آخره في مـضيق تـسوشيما. وقامت حركة ثورية بين العامة من سكان الروسيا الذين أحنقتهم هذه المذابح الجسيمة التـي لا مبـرر لهـا، فأجبرت القيصر أن ينهي الحرب في (١٩٠٥)؛ فرد النصف الجنوبي من جزيرة سخالين التي استولت عليها الروسيا في ١٨٧٥؛ وأخلى منشوريا وتنازل عن كوريا لليابان. فالرجل الأبيض قد شرع بذلك يـنفض عـن نفسه عبأه وتبعته في آسيا الشرقية. وظلت ألمانيا مع هذا تمتلك كياوتشاو امتلاكًا قلقًا غير مطمئن.

١٥- ختام فترة التوسع وراء البحار

لاحظنا آنفًا كيف أن مغامرة إيطاليا في الحبشة صدت في معركة عدوة الرهيبة في ١٨٩٦، التي قتل فيها ما يربو على ثلاثة آلاف إيطالي وأخذ فيها أكثر من أربعة آلاف أسير. وكان دور التوسع الاستعماري على حساب الدول المنظمة غير الأوربية قد أخذ يدنو من خاتمته دنوا بينًا. وهو دور ورط الشئون السياسية والاجتماعية لكل من بريطانيا العظمى وفرنسا وإسبانيا وإيطاليا وألمانيا والروسيا التي تحمل ما يكفيها من التعقيد والعسر، وشبكها بشئون أمم غريبة متكرهة غير قابلة للتمثيل. فاستولت بريطانيا على مصر (وإن لم تلحقها بها حتى ذلك الحين رسميا)، والهند وبورما وعددا من تلك المشكلات الصغرى أضراب مالطة وشنغهاي؛ وأبهظت فرنسا نفسها بتونكين وأنَّام بالإضافة إلى الجزائر وتونس؛ واشتبكت إسبانيا حديثًا في بلاد مراكش؛ وخلقت إيطاليا لنفسها المتاعب بطرابلس؛ وكان الاستعمار (الإمبريالية) الألماني وراء البحار وإن بدا مركزه "تحت الشمس" هزيلاً – يعلل النفس بقدر جهده بفكرة القيام في المستقبل بحرب مع اليابان على تياوتشاو.

وكانت كل هذه الأراضي "المحكومة" تضم سكانًا على مستوى من الذكاء والتعليم لا يقل إلا قليلاً جدا عن مستوى القطر المتملك؛ وكان تطور الصحافة الوطنية والوعي الذاتي والحشدي والمطالبة بالحكم الذاتي، أمرا لا محيص منه في كل حالة من هذه الحالات، وكان رجال السياسة والتدبير في أوربا في شغل شاغل بالحصول على هذه الإمبراطوريات، حتى لم تكن لديهم فكرة صحيحة عما ينتوون أن يفعلوه بها عند حصولهم عليها.

إن الديمقراطيات الغربية اكتشفت أثناء استيقاظها إلى ضياء الحرية أنها دول "استعمارية"، فأربكها ذلك الاكتشاف كل الارتباك. وكان الشرق يفد إلى عواصم الغرب حاملا طلبات محيرة. ففي لندن أخذ الرجل الإنجليزي العادي وهو أشد ما يكون شغلاً بالاضطرابات والألغاز الاقتصادية ومسائل التأميم والحكم المحلي والتأميمات المحلية وإقامة اللامركزية، يجد من يقطع عليه الطريق ومن يغشى اجتماعاته العامة من عدد جم متزايد الكثرة من رجال ظاهري الدماثة مهذبين، رجال سمر يرتدون الطرابيش والعمائم وأنواعا أخرى عجيبة من لباس الرأس، وكلهم يقول ما معناه الواقعي "لقد استحوذتم علينا. والرجال الذين يمثلون حكومتكم قد حطموا حكومتنا، وهم يحولون بيننا وبين إنشاء حكومة جديدة. فماذا أنتم فاعلون بنا؟...".

١٦- الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤

ربما جاز لنا الآن أن نلحظ في إيجاز تام الطبيعة الشديدة الاختلاف للأجزاء التي كانت تتكـون منهـا الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤. فإنها كانت ولا تزال خليطًا سياسيا فريدا في نوعه تماما. إذ لم يظهـر على وجه البسيطة قط شيء من قبيلها. فهي شيء جديد في التاريخ السياسي، كما أن الولايات المتحدة شـيء جديد فيه أيضا. وهي شيء أكبر وأشد تعقيدا من أي دولة من تلك الدول القومية المذهب أضـراب فرنـسا وهولندة والسويد.

وكانت الدولة الأولى والمركزية في تلك المجموعة بأسرها هي "الجمهوريـة المتوجـة" أي المملكـة المتحدة البريطانية، المحتوية على إرلندة (على غير إرادة فريق جسيم من الشعب الإرلندي). وكانت الأغلبية في البرلمان البريطاني، وقوامه البرلمانات الثلاثة المتحدة لإنجلترة واسكتلندة وإرلندة، هي التي تحدد رياسـة الوزارة وصفتها وسياستها، ويكون ذلك التحديد إلى حد كبير، بناء على اعتبارات تتصل بالسياسة البريطانية الداخلية. وهذه الوزارة هي الحكومة العليا الفعالة، وبين يديها سلطات تخولها التصرف في الـسلم والحـرب على سائر أجزاء الإمبراطورية جميعا.

وكان يلي هذه الولايات البريطانية في الأهمية السياسية، "الجمهوريـات المتوجـة"، أسـتراليا وكنـدا ونيوفوندلند (أقدم ممتلكة بريطانية ١٦٨٣) – ونيوزيلندة وجنوب إفريقيا، وكلها دول مستقلة تقريبـا تحكـم نفسها بنفسها وهي متحالفة مع بريطانيا العظمى، على أن بكل منها ممثلاً للتاج تعينه الحكومة التي في الحكم. ثم تجيء بعد ذلك الإمبراطورية الهندية وهي امتداد لإمبراطورية المغولي الأعظم، وتمتد الآن بما فيها مـن ولايات تابعة ومحمية، من بلوخستان إلى بورما كما تضم عدن. ولكن التاج البريطاني في كل أرجـاء تلـك الإمبراطورية، ووزارة الهند (تحت الرقابة البرلمانية) يقومان في كل هـذه الإمبراطوريـة بـدور الأسـرة التركمانية الأصلية.

ثم تجيء ممتلكة مصر الغامضة الوضع، وهي لا تزال من الناحية الاسمية جزءا مـن الإمبراطوريـة التركية، ولا تزال تحتفظ بعاهلها الخاص وهو الخديو، ولكنها تحت حكم الموظفين البريطانيين الـذي يكـاد يكون استبداديا. وليلحظ القارئ أن مصر جعلت مملكة شبه مستقلة "متحالفة" مع بريطانيا في ١٩٢٢. ثم تأتي ولاية السودان المصري الإنجليزي التي مركزها السياسي هو أشد غموضا، والتي تحتلها وتحكمها الحكومتان البريطانية والمصرية مشتركتين.

وثم عدد من المجتمعات التي تحكم نفسها حكما جزئيا، ومنها ما هو بريطاني الأرومة ومنها مـا هـو غير بريطاني، ولها مجالس تشريعية منتخبة وهيئات تنفيذية معينة، أمثال جمايكا وجزائر الباهاما وبرمـودا ومالطة. وقد أعلن في يونيه ١٩٢٠ دستور مالطي جديد أكثر تحررية، ويكاد يـضع مالطـة فـي مـستوى مستعمرة تحكم نفسها بنفسها.

ثم إن هناك مستعمرات التاج، التي يكاد فيها حكم الحكومة البريطانية الأصلية في بريطانيا (بواسطة وزارات المستعمرات) يقارب الحكم المطلق، كما في سيلان وترينيداد وفيجي (وفيها مجلس يؤخذ أعضاؤه بالتعيين)، وجبل طارق وسانت هيلانه (ويحكمها حاكم)؛ ثم مناطق عظيمة من أراض مدارية (في معظم الأمر)، وهي مناطق تنتج المواد الخام ولها مجتمعات من الوطنيين ضعيفة سياسيا وناقصة في المدنية، كانت من الناحية الاسمية محميات، وكان يديرها إما مندوب سام ينصب فوق الرؤساء الوطنيين كما هو الحال في باسوتولاند، أو من فوق شركات ذات مرسوم كما هو الحال في روديسيا. وكانت وزارة الخارجية في بعض الحالات أو وزارة الهند في بعض الحالات، هي الوزارة ذات الشأن في الاستحواذ على الممتلكات التي تقع تحت هذا الصنف الأخير الذي هو أقل الأصناف تحديدا، ولكن وزارة المستعمرات كانت في معظم الشأن هي المسئولة الآن عنها..

وعلى هذا فمن الجلي أنه ما من وزارة بمفردها وما من عقل بمفرده قد تفهم قط الإمبراطورية البريطانية في مجملها. كانت خليطًا من النموات والتجمعات يختلف اختلافًا كليا عن أي شيء سمي من قبل باسم إمبراطورية. وكانت تضمن للناس "سلما" مترامي الأطراف وأمنة شاملة؛ فمن أجل ذلك يعينها ويناصرها ويحتملها كثير من رجال الشعوب "المحكومة" – بالرغم مما يقاسون من استبداد الموظفين وإعوازهم في الكفاية وعظيم التهاون والإهمال الذي يبديه جمهور بريطانيا في "أرض الوطن".

وشأن هذه الإمبراطورية هو شأن "الإمبراطورية الأثينية"، قديما، من حيث إنها إمبراطورية تمتد وراء البحار؛ طرقها هي الطرق البحرية، ورابطتها المشتركة هي الأسطول البريطاني. وتماسكها شأن كل الإمبراطوريات يقوم من الناحية التكوينية على وسيلة من وسائل المواصلات. وقد أدى التطور في فن الملاحة البحرية وبناء السفن والسفينة البخارية فيما بين القرن السادس عشر والتاسع عشر إلى جعل ذلك السلم وأعني به" السلم البريطاني Pox Britannica" أمرا ميسورا مريحا؛ وربما أدت التطورات الجديدة في النقل الجوي أو البري أو السريع أو في فن الحرب بأعماق البحار إلى جعله أمرا غير مريح أو شيئًا معرضا للخطر تعرضا لا مرد له.

١٧- التصوير والنحت والعمارة

كنا نكتب عبارة "القرن التاسع عشر" لأن ذلك لفظ متداول يسهل علينا استعماله، ولكن لعل من الجلي لدى القارئ أن فترة هذا الفصل ليست في الحقيقة محصورة بين ١٨٠٠، ١٩٠٠ بل بين ١٨١٥، ١٩١٤. ولم تحدث بين هذين التاريخين كوارث ساحقة ولا أزمات قلابة جائحة. أجل كانت التغيرات الجارية جسيمة جدا في واقع الأمر، بيد أنها لم تكن تغيرات فجائية ولا هي كانت بأي حال نقضا وعكسا للسيرة العامة للأمور.

وقبل أن نعالج تلك الفتنة العارمة التي ختم بها قرن التقدم والاختراع هذا، فإن من الخير أن نجرد ثلاثة أقسام للأشكال التي عبر بها الفن عن نفسه. ولقد سبق أن عالجنا تطور معارفه العلمية وفلسفته السياسية" وسننظر الآن أولاً إلى فن التشكيل والتصوير فيه، ثم نتجه بأبصارنا إلى حياته الموسيقية؛ ثم نوجه التفاتنا إلى أدبه الخلاق المعبر.

وتعكس لنا قصة التصوير الأوربي إبان النصف الأول من القرن التاسع عشر صورة التغيرات الاجتماعية في ذلك الأوان. وهو زمان أخذت فيه الطبقة الوسطى، وأعني بها الطراز التجاري الجاد من الناس، تزداد ثروة وأهمية بسرعة فائقة. فكان ذاك زمان أصحاب مصانع أثروا واغتنوا وزمان ماليين جدد أصابوا من التوفيق المالي حظًا كبيرا. وسرعان ما ظهرت السكك الحديدية والسفن البخارية والتجارة الخارجية في مواد الطعام الرئيسية كما ظهرت الثروات المكونة بالمضاربة الناتجة عن هذه الأمور بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. وكان يساور البلاطات الأوربية التي أعيدت إلى الحكم نزوع إلى استرضاء أصحاب هذه الثروة الجديدة والاختلاط بهم. وأمسى الموسرون من أرباب المصانع هم رعاة التصوير والعمارة النموذجيون، وكانوا يحاولون أن يدخلوا في عداد الجنتلمانية والسراة. فكانوا يرغبون في أن تكون لهم الصور التي يعملها الجنتلمان للجنتلمان، أكثر مما تشخص أبصارهم إلى احتياز القوة الرائعة أو الجمال المحير. وإن أحدهم ليرغب في اقتناء صور يستطيع أن يتناول بإزائها طعامه أو يحتسي شايه. وقد امتلأ قلبه بشعور الارتياح والرضا، كما أنه كان على استعداد أن يبذل فيها المال بسخاء. ومضى عن هذا العالم الفنان الإسباني المتقلب المدهش جويا (١٧٤٦ – ١٨٢٨) ومصورا المناظر البرية الإنجليزية العظيمان: كونستابل (١٧٧٦ – ١٨٣٧) وترنر (١٧٧٥ – ١٨٥١) ثم دافيد وإنجرس اللذان حدثناك عن كونهما المعبرين عن روح الإمبراطورية الفرنسية، مضوا جميعا ولم يبق لهم على ظهر البسيطة من ضريب. على أن التصوير أصبح مهنة رائجة جدا وضخمة جدا. وكانت الأكاديمية الملكية البريطانية والصالون [1] الفرنسي يقيمان المعارض السنوية للصور المرسومة بغية إدخال اللذة والسرور على الأفئدة، وكان الفنانون يشترون الدور الكبيرة الفخمة ويعيشون عيش الترف الكريم. بل لقد بلغ أمرهم في إنجلترة أن أنعم على العديد منهم بلقب سير. وسار النحت في هذا الاتجاه. ولئن كف تقدير الناس للصور عن أن يكون عميقًا شديد العمق، فلقد

[1] الأكاديمية البريطانية والصالون الفرنسي: جمعيتان تهتمان بالفنون الجميلة وتقيمان لها المعارض. (المترجم).

أصبح منتشرا واسع الانتشار. وأوشك الرحيل السنوي إلى لندن "لمشاهدة معرض الأكاديمية" أن يصبح أمرا إلزاميا على جموع كبيرة من الجمهور الإنجليزي.

ولكن حدث مع تجاوز القرن لسنيه الوسطى، أن ظهر في عالم الفن نفس الميل إلى القلق وعدم الاستقرار، ذلك الميل الذي كان السبب فيما حل بالنظام الديني والاجتماعي في أوربا من اضطراب. ففي إنجلترة شرع رسكن (١٨٩١ – ١٩٠٠) ووليم موريس (١٨٣٤ – ١٨٩٦)، ينتقدان خواء الأكاديمية وتفاهتها في الفنون والزخارف المعاصرة انتقادا كان له تأثير مزعج. وحدث بين رجال التصوير تصدع وانقسامات.

وظهرت مدارس جديدة، نخص بالتنويه منها أصحاب مذهب "ما قبل رافائيل" "Pre-Raphaelites" الذين يجدون في البحث عن السوابق والأساليب في عمل تلك الأيام القديمة أي قبل أن يصبح التصوير رشيقًا. فولوا وجوههم يظللهم استحسان رسكن وموريس شطر العصور الوسطى، وأخذوا يصورون صورا تمثل أبطال الملك آرثر [1] والعذارى المباركات (Blessed Damosels). ووجه آخرون منهم من ذوي النفوس الأكثر ثورة أنظارهم إلى العالم المحيط بهم. وظل كوروت (١٧٩٦ – ١٨٧٥) محتفظًا بكل قوة بصيرته طوال سني الركود تلك. وشهدت فرنسا بعد كارثة (١٨٧٠ – ١٨٧١) وفي عمل الأساتذة من أضراب ديجاز ومانيه ورنوار رجعة كبيرة إلى سوابق رامبراندت وفلاسكويز. ولا بد لنا من أن نذكر مع هؤلاء الفرنسيين اسم هويسلر الأمريكي العظيم (١٨٣٤ – ١٩٠٣). ودب في الناس وهم لا يكادون يعون – دبيب البرم بالصورة المحتشمة، ثم ظهر طراز من عمارة الدور لم يكن ليسمح بترك فراغ من الجدران للصورة الزيتية ذات الإطار. حتى إذا اقتربت تلك الفترة من نهايتها تناقص بشكل محسوس ما تنتجه يد المصور من صور تباع وتعلق على الجدران في أي موضع كان، وأخذ المسئولون يوجهون ذلك السيل المنهمر من طلاب الفنون توجيها مطرد النجاح – إلى طلب الفنون الزخرفية الأكثر تواضع والأقرب إلى النفوس.

وظهرت عند مختم القرن التاسع عشر بوادر كثيرة تدل على أن طريقة التمثيل الدقيق المضبوط قد تخطاها الفن. فاختفت من البسط والسدف وأقمشة الثياب، الصور التي تمثل الأزهار والأشكال الإنسانية، وأصبح التمثيل صفة ثانوية خافتة في فني التصوير والنحت. ولقد لاحظنا فيما سلف فترة سابقة تتجه إلى إظهار الواقع أثناء حكم إخناتون في مصر وأخرى في العهد الإغريقي الروماني، كما لاحظنا كيف انحدر هذا الدور الأخير سريعا إلى الجمود وقلة العمق والرمزية في الآثار البيزنطية والقوطية كما تحول إلى الطريقة الشكلية والهندسية في الزخرفة الإسلامية. وقبل ذلك بكثير حدث أن الروح التأثرية (الانطباعية Impressionism) المشرقة التي ظهرت في العصر الحجري القديم الثاني قد عقبها المذهب الشكلي الذي تجلى في فن العصر الحجري الحديث الأبكر، وهنا أيضا نرى الفن في العقدين الأولين من القرن العشرين وهو يغير سبيله وكأنما أصابته كظة فانحرف عن الواقع صارفًا النظر عن الشكل الخارجي إلى ترسم آثار

---

[1] الملك آرثر: ملك بريطاني قديم وبطل في الأساطير، كتب عنه اللورد تنيسون قصة "موت آرثر" نقلاً عن أساطير القرون الوسطى. (المترجم)

الحركة، عائدا من جديد إلى التحليل والرمز. ويبدو أن من المحتمل أن يطرد الفن في سبيله هذا. ومما يعينه الآن كذلك الزيادة في كفاية التصوير الضوئي (الفوتوغرافي) في كل ما يتعلق بالدقة العارضة البحتـة. وإن العالم ليضيق ذرعا بالحقائق غير المهضومة.

وقد افتتح ذلك القرن بدور من أدوار الجمود في العمارة. فإن التقاليد الكلاسيكية التي كان يدعمها غلبة الأدعياء الكلاسيكيين على المدارس، قد تسلطت شيئًا فشيئًا على التطور الحـر لطـراز النهـضة وصـدت بالتدريج تياره، وكأني بمعظم العمائر الجديدة وقد ران عليها مظهر الأسف على عصر مضى منذ ألفين مـن السنين!!... فقد كانت تظهر في كل مكان واجهات من الزخارف الجصية [1] بيضاء معمدة. ثم ظهر – مـع النهضة الرومانسية في الأدب، التي سوف نبحثها من فورنا بإسهاب، ومع محاولة نـابليون ابتعـاث رومـا الإمبراطورية – تحول في التفات هذه الفترة الشديدة الكلف بالتقليد والمحاكاة صوب العـصور الوسـطى. إذ حدث بعد الانتعاش الكلاسيكي انتعاش قوطي تبدت قوته بوجه خاص في بريطانيا، وأنتج فيما أنتاج من مآثر عظيمة باهرة كثيرة، داري البرلمان الحاليين. ثم استعيدت فترة الملكة آن، التي تميزت بتطور خـاص فـي طرائق عصر النهضة التي كانت لا تزال قائمة. وإن المهندسين المعماريين في بريطانيا ليبنون لك قصرا أو دارا على الطراز الكلاسيكي أو القوطي أو الاسكتلندي الباروني أو طراز الملكة آن؛ فأما الطـراز الوحيـد الذي لم يظهر على ظهر الأرض البتة فهو طراز القرن التاسع عشر. كان رجال الإنجليز يغدون ويـذهبون في سراويل وقبعات عالية وثياب دكناء يحرصون فيها كل الحرص على أن تكون عصرية محترمة إلى حـد كبير، ولكن بيوتهم ومبانيهم العامة كانت تكسى في ثياب الماضي الموات الخالي من الروح، كأنما كانت تهيأ لحفلة رقص تنكرية تظللها الكآبة والمقت.

على أنه ظهر في فرنسا وألمانيا قدر أوفى وأكثر من المبادهة والابتكار في فن العمارة؛ فـإن طـراز "عصر النهضة" كان ما يبرح يعيش ويتطور في فرنسا. وهناك مسائل شائقة واجهها فن العمارة في أنـواع المباني الجديدة أضراب محطات السكك الحديدية وكباري السكك الحديدية والمخازن والمستودعات والمصانع وما إليها، ومع ذلك لم يجرب فيها إنسان واحد مقدرته بصورة جدية في أي مكان باستثناء ألمانيا فيما يحتمل. وكان القبح الدال على عدم الكفاية المعمارية هو القاعدة في إقامة تلك المباني. وكأنما كان اندفاع الاحتياجات الجديدة والمواد الجديدة والفرص الجديدة قد غلب المهندس المعماري على أمره وسلبه شـجاعته فـي ذلـك العصر. ومن أعجب منتجات دور التخوف ذاك وأشدها دلالة على عصرها قنطرة برج لندن، التي خُلط فيها بين هيكل متين خفيف من الصلب المكسو بالجص وبين لمحات من النحت الحجري الفلمنكي وبين ذكريـات

[1] الزخارف الجصية (Stucco): استعيرت هذه الكلمة للدلالة على طراز بذاته أكثر منها على مادة بعينها، وهي تطلق عـادة على النقوش البارزة وأمثالها من زخارف البناء. وهي تصنع من الجبس أو الأسمنت أو لاصوق الجير. (المترجم)

لقنطرة رافعة [١] من قناطر العصور الوسطى. على أن جميع مباني بريطانيا في القرن التاسع عشر طافحـة بذكريات تاريخ سقيم بال.

وفضلاً عن هذا فإن فن عمارة المنازل انحدر أكثر مما انحدر فن عمارة المباني العامة إبـان شـطر كبير من القرن. فإن الزيادة الضخمة في عدد السكان في دول أوربا وهي الزيادة التي استنفدت قدرا طـائلاً من موارد ذلك العصر المزيدة، قد أدت إلى زيادة مخيفة في بناء البيوت المنحطة الرتبة حول المدن النامية، فأقيمت صفوف لا حصر لها من البيوت الصغيرة الوضيعة في بريطانيا، ومساكن قبيحة في معظم الأقطـار الأوربية الأخرى. ولم يحدث إلا عندما قارب القرن غايته وهبطت نسبة المواليد وظهر أثر السيارة في إعادة توزيع السكان الذين كانوا يتوالدون ويتزاحمون حول محطات سكة الحديد، - أن ابتعث اهتمـام عـام بفـن عمارة المنازل وإن ظهرت أنماط عصرية لطيفة من الدور الخلوية الصغيرة وبيوت الريف.

وكانت أمريكا قد أنتجت أيام الاستعمار طرازا من طرز البيوت الريفية ملائما تمام الملاءمـة، نـشأ بوجه أخص في فرجينيا وبلاد الجنوب، وهو تكييف لفن عمارة البيت الريفـي البريطـاني طبـق الأحـوال المحلية، والبيت الريفي البريطاني نشأ متفرعا من جذع شجرة النهضة المثمرة. وقد سبق أن أشرنا إلى فضل السير كريستوفررن على هذا التطور. وفيما عدا هذا المنحى المنزلي لم يكن فن العمارة الأمريكي يزيد فـي جل شأنه حتى أخريات القرن التاسع عشر عن تصميمات أوربية منقولة. مثال ذلك أن الكابيتول المقـام فـي واشنجتون إنما هو من عمل الفرنسيين. وربما كان من الممكن إقامته في باريس أو بروكسل. وكان الـشيء الكبير من مباني المنازل هزيلاً عاديا. وعندما اقتبست بريطانيا نافذة شرائح الزجاج [٢] (Sash Window) احتفظت أمريكا بالنافذة العادية المستعملة في القارة الأوربية. على أنه حدث والقـرن فـي عقديـه التاسـع والعاشر، أن الثروة المتزايدة والاعتماد النامي على الذات في العالم الجديد فجرا ابتكارات معماريـة جديـدة قوية. فقد شرعت أمريكا في استعمال مباني الفولاذ والزجاج والخرسانة، استعمالاً تجلى فيه قدر متزايد من الجرأة والنجاح. وكان من أثر هذه المواد واختراع "المصعد" وإحكامه أن أصبح من الميسور بناء مبان ذوات ارتفاع واتساع ليس لهما مثيل سابق. ففي ١٨٧٠ لم يكد يكون هناك شيء اسمه فن العمارة الأمريكي؛ ولكن عندما حلت ١٩١٠ كانت أمريكا قد سبقت كل قطر آخر في العالم بمراحل فيما تجلـى بمبانيهـا مـن جـدة وجرأة. وبرزت ألمانيا فترة أثناء ذلك. وتبرز أسماء ريتـشاردسون (١٨٣٨ – ١٨٨٦) وسـتانفورد ويـت (١٨٥٣ – ١٩٠٦) بين أسماء المهندسين المعماريين الأمريكيين في هذا العهد الجديد.

فإلى أمريكا القرن العشرين يجب أن تشخص الأبصار لترى التعبير التدريجي عن القـوى والمـوارد الجديدة التي كشفها القرن التاسع عشر لأنظار الإنسانية ممثلاً في البناء وإعداد المنازل. وربمـا جـاز لنـا

---

(1) القنطرة الرافعة (Drawbridge) قنطرة كانت توضع على الخندق المحيط بإحدى القلاع ونقطة تحركها في نهايتها، فـإذا أريد إغلاقها رفعت. (المترجم)

(2) نافذة شرائح الزجاج: هي نافذة ذات افريز يصعد وينزل تمييزا لها عن النافذة العادية (Casement Window) التي تنفتح وتنغلق على مفصلات وهي الموجودة بجميع المنازل العصرية. (المترجم).

بالعلاقة إلى هذا التطور في فن العمارة أن نعتمد أيضا على تطورات أخرى جديرة بالتنويـه فـي النحـت والتصوير والفسيفساء (الموزايكو Mesaic) وفي فنون الزخرفة عامة. ولسوف تكـون فـي تلـك القـارة الفرصة الكبرى، والثروة الكبرى وحرية الفكر الكبرى.

١٨- الموسيقى في القرن التاسع عشر

سار فيض الخلْق والإبداع الموسيقي الذي اطرد إبان القرن الثامن عشر في طريقه الطبيعي دون أن يلقى شيئًا يذكر من الموانع أو العراقيل طيلة فترة هذا الفصل. وقد سبق أن ذكرنا أسماء موزار وبيتهوفن بوصفهما كوكبين بلغا الذروة بالقرن الثامن عشر. ويحملنا بيتهوفن قُدما إلى صميم القرن التاسع عشر، ولا بد لنا من أن نذكر بإزائه معاصره ويبر (١٧٨٦ – ١٨٢٦) وهو رجل أخذ نفسه بالتجريب والابتكار وله فيهما صولات ذات أهمية جوهرية، ثم خلف بعدهما بقليل شخصيات جليلة القدر منها شوبرت (١٧٩٧ – ١٨٢٨) ومندلسون (١٨٠٩ – ١٨٤٧) وشومان (١٨١٠ – ١٨٥٦). وليس في مستطاعنا كذلك أن نغفل شأن "كاتدرائيات النغم" لسيزار فرانك (١٨٢٢ – ١٨٩٠).

وكانت الموسيقى قد أخذت تنتقل رويدا رويدا من موضعها الأول تحت رعاية الملوك والنبلاء إلى صالة العزف [1] وإلى الاستقامة لأذواق جمهور مهذب تهذيبا خاصا. وكان هناك إلى جوار الأوبرات عدد متزايد من قطع الغناء والبيانو أنشئت للمنازل المهذبة الأذواق وقطع من موسيقى الرقص للحفلات الاجتماعية. ولم يكن ثمة تقدم مقابل لهذا في الموسيقى الدينية بعد أيام هاندل وباخ. على أن الرعاية الملكية كانت لا تزال ذات أهمية كبرى لمؤلفي ألحان الأوبرات، وكان بلاطا بافاريا والروسيا بوجه خاص مثابة لنوع جديد من "دراما الأوبرا" ولمفهوم جديد عن رقص الباليه [2].

وإنك لتستطيع أن تتأثر في موسيقى ذلك القرن مهتمات[3] العصر ومصالحه المتزايدة الأفق. فأخذ الملحنون يطلبون موضوعات جديدة وفكرات طريفة وروحا جديدة يبتغونها في موسيقى العامة من سكان أوربا الشرقية والشعوب الشرقية.

فاستعمل شوبان الموسيقى البولندية (١٨٠٩ – ١٨٤٩)، واتخذ ليست (١٨١١ – ١٨٨٦) وجواكيم (١٨٣١ – ١٩٠٧) من المصادر الهنغارية موردا للوحي يردانه، وتجاوز برامز (١٨٣٣ – ١٨٩٧) هذا الميدان حين عرج على الهند يطلب مادة يدخلها على ألحانه التي هي بطبيعتها كلاسكية. وولد فاجنر في ١٨١٣ وتوفي في ١٨٨٣. فتأثر خطى ويبر ومزق تقاليد الأوبرا الراسخة. فأدخل الروح الدرامية على موسيقى الآلات ووسع مجالها إلى حد بعيد، وحملها قوة جديدة وعاطفة جديدة. ثم أعقبه بعد ذلك في الروسيا تشايكوفسكي (١٨٤٠ – ١٨٩٣) وموسوروجسكي (١٨٣٥ – ١٨٨١) ورمسكي كورساكوف (١٨٤٤ – ١٩٠٨) فكشفوا عن عوالم جديدة من البهجة واللون. وهذا المجال الضيق الذي بين أيدينا لا يسمح لنا بأكثر

---

[1] صالة العزف (Concert Hall) قاعة تقام فيها الحفلات الموسيقية للجمهور. (المترجم).

[2] رقص الباليه: سلسلة متقنة من الرقصات تتم على نغمات الموسيقى، وتمثل فيها الأفعال والشخصيات والمشاعر إلخ. (المترجم).

[3] المهمات: هي الموضوعات التي يهتم بها الناس. (المترجم).

من الاقتصار على ذكر اسم دافوراك التشيكي (١٨٤١ – ١٩٠٤) وأن ننوه بالإقدام الحيوي الذي كان عليه ريتشارد شتراوس (الذي ولد في ١٨٦٤) والجمال البهيج لدى ديبوسي (١٨٦٢ – ١٩١٨).

ولم تنتج أمريكا حتى اليوم إلا الشيء القليل من الموسيقى العظيمة المشهورة. ولكن كما أن الولايات المتحدة وثبت فجأة من العدم في العمارة إلى فن العمارة العظيم الذي تهيأ بظهور الأحوال الجديدة، وأعني بذلك المبنى الفولاذي والمواد التي لم تسبق تجربتها حتى تسعينيات القرن التاسع عشر، فمن المحتمل أن يبزغ عن الغرب (أمريكا) في أي وقت فجر أشكال موسيقية جديدة وتحررات جديدة. ومنذ أمد غير بعيد "والضجيج" ينتقل من أمريكا إلى أوربا بدرجة متزايدة الارتفاع ولكنه في بعض الأحايين "ضجيج" مرح كل المرح. وقد أثرت الروح الزنجية أثرها في حجرة الرقص وفي قاعات الموسيقى. وليس بمستبعد أن يأتي ذلك اليوم الذي يصبح فيه الأمريكي في صالة الموسيقى – على الأقل – فخورا سعيدا بهذا الينبوع الأسود النابع في الجنوب. على أنا لا نستطيع أن نتحدث ها هنا عن موسيقى الجاز (Jazz) وما يتصل بها من تطورات.

ولسنا بمعاودين القول في الموسيقى في هذه "المعالم". والفترة الحالية تتميز بانتشار فسيح المدى لشيء كان في قديم الزمان امتيازا لطبقة مثقفة. فإن الحاكي والبيانولا [1] وجهاز الراديو تجعل العالم بأجمعه ضريا بخير الملحنين وأعظمهم.

[1] البيانولا: هي البيانو الأوتوماتيكي الذي تُشغّله البدالات، ويجوب به بعض الناس في الطرقات. (المترجم).

١٩- نهوض القصة إلى مرتبة الصدارة في الأدب

إن المجال الذي نجده بين أيدينا الآن أضيق من أن يتسع لأكثر من بيان موجز فـي أضـيق الحـدود وأشدها تبسيطًا عن ذلك الفيض العظيم من المناشط الأدبية التي حاولت القوى الجديدة التي ظهرت في قـرن التوسع ذاك أن تعبر بها عن نفسها. وقد سبق أن عالجنا الفكرات الرئيسية لمؤسسي الاشـتراكية ومكونيهـا وتأثير النظرة العلمية النامية على الفكرات الدينية والسياسية والاجتماعية. على أنه من المـستحيل عليـنـا أن نفي بكامل حقوق الأهمية الدائمة والتأثير المتواصل لمفكرين عمليين عظماء من أضراب آدم سميث (١٧٢٣ – ١٧٩٠) ومالثوس، (١٧٦٦ – ١٨٣٤) وخلفائهما، أو لتلك التأملات العميقة النفاذة التي جاد بها شـوبنهور (١٧٨٨ – ١٨٦٠) ونيتشا (١٨٤٤ – ١٩٠٠) في ألمانيا. ثم يجيء هيجل (١٧٧٠ – ١٨٣١) وهو أشبه مـا يكون بصنف جذاب مغر يرد في أسفل قائمة أطعمة طويلة جدا. ولا بد لنا من تركه. ولقد انحـرف بتيـار الفكر العصري انحرافًا عجيبا جدا، ولكنه ينتعش من تأثير انحرافه به.

كذلك ليس في طوقنا أن نناقش ها هنا مصادفات الذوق وسخافات التأويل التي جعلت من اللورد بيرون (١٧٨٨ – ١٨٢٤) ذلك الهجاء الركيك الشعر الذي يضم بين جوانحه فلسفة متسكع من رجـال المـدن ولا يزيد، - شخصية عظيمة في فكرة القرن التاسع عشر عن الأدب في كل أرجاء أوربا، كذلك لسنا بواضعين جيته (١٧٤٩ – ١٨٣٢) في كفة الميزان، وهو من ظل طوال سنين عديدة رب ألمانيا الذهني والجمالي. فلقد فقد تلك المنزلة الرفيعة من زمن بعيد بعد أن نثر على العقل الألماني ثروة عظيمة مـن الآداب والنزعـات الكلاسيكية المنقولة. كان عظيما رشيقًا مجتهدا. وكان هو المصنف النبيل في ميادين الأدب. كما كان بيـرون فيها هو الثائر النبيل.

وقد استهل القرن بتفجر جسيم في ينابيع الشعر، تجلى في بريطانيا بوجه خاص على أنه كـان شـعرا يتصف بخصائص مميزة خاصة به؛ إذ يتجلى فيه إدراك جديد للطبيعة بوصفها على علاقة عاطفية بالإنسان، وإغفال لاشعوري للعقائد وتعرض مطلق إلى أعمق مسائل الحياة، وكأنما انفلت الشاعر وهو لا يكاد يـشعر من صلب المعتقدات المقررة المعتنقة إلى عالم طليق. وإن لقصائد هذا الدور عامة للمسة قصصية ربما رقت في بعض الحين فأصبحت نسيما هفهافًا – وإنها لتتهادى وعليها من الرشاقة وحب الجدل وكثرة التنوع أبراد جميلة زاهية. وأبرز الأسماء فـي هـذا العـصر شـللي (١٧٩٢ – ١٨٢٢) وكيـتس (١٧٩٥ – ١٨٢١) ووردسورث (١٧٧٠ – ١٨٥٠). ولقد كان وردسورث بما جبل عليه من روح فنان منوعة الأشـكال هـو الطائر المغرد بالمذهب التصوفي الحلول الذي يحس إحساسا عميقًا با فيما أبدعته يده من طبيعـة. وكـان شللي أول الشعراء العصريين وأعظمهم. وكان مشبع الذهن بالفكرات العلمية، وكان إدراكه للـسمة الوقتيـة التي عليها النظم السياسية في زمانه يسبق كل معاصريه بمراحل عديدة. ثم اطرد الدافع الشعري في إنجلترة في الجيل التالي بقدر أعظم من الألحان والجمال وحظ أدنى من التضمينات قصية المرامي على يد تنيـسون (١٨٠٩ – ١٨٩٢)، الذي نال محبة عظيمة من الناس، وتزلف الملكة فكتوريا، وكان أول مـن نـال لقـب اللوردية من أجل شعره من الشعراء الإنجليز وقصيدته "موت آرثر Morted Arthur" خليقة أن تقف بإزاء

فن عمارة ذلك الزمان. ولم تكن شهرة لونجفلو (١٨٠٧ – ١٨٨٢) راجعة إلى أنه كـان الكفـو الأمريكـي لتنيسون قدر ما تعود إلى أنه الترجيع الأمريكي لصوته.

وارتقى الشكل المسمى بفن القصة النثري – متطورا على درجة أعظم بطئًا وفي وجه معارضة وتثبيط من الهيئات المدرسانية [١] والأكاديمية [٢] والنقدية – فسما شيئًا فشيئًا حتى أصبح والشعر بمنزلة سواء ثم ما لبث أن استعلى عليه. وكان ذلك الشكل هو ما كان الناس يقرءون حقًا وهو الشيء الذي يطلبه الزمان. وأخذ الكتاب النثري العظيم المتحدث عن الحياة، والذي يخالط التسلسل القصصي مادته، والذي تـسلفه مـن قبـل رابليه ونهض به ما أنتجه فيلدنج وسترن من روايات غير مطردة السياق، - يبرز في مهل إلى حـال مـن الاكتمال وإلى منزلة اعتراف الناس به مع تقدم الزمن بالقرن. ومع اطراد نموه طولاً وقـوة ظهـرت إلـى جواره الرواية القصيرة والأقصوصة [٣].

وكانت القصص الأولى حكايات تصف الحوادث والأخلاق. وترجع بنافاني برنـي (١٧٥٢ – ١٨٤٠) إلى عالم الدكتور جونسون. وجاءت جين أوستن (١٧٧٥ – ١٨١٧) تعمل داخل حـدود ضـيقة، فواصـلت النهوض بتقاليد المرأة في دقة الملاحظة والمشاهدة معبرة عنها أبرع تعبير. ومن مثل هذا النوع من القـصة المعنية بالأخلاق والإحساسات وما يكبلها من أغلاق وحدود، تمضي القـصة الإنجليزيـة فـتحطم أغلالهـا بالتدريج مع تحطيم ذهن ذلك العصر لما كان يحده من أصفاد.

وهناك شخصية عظيمة جدا كبيرة الأثر في توسيع الرواية هي الكاتب الألماني جـان بـول ريختـر (١٧٦٣ – ١٨٢٥). فإن قصصه مجرد سمط تسلك فيه انحرافات عن السياق مزخرفة مرصعة بـالجواهر. وثمة كاتب ألماني كبير هو هيني (١٧٩٧ – ١٨٥٦). وقد أثر ريختر في مؤلفات الكاتب الإنجليزي تومـاس كارليل أعمق التأثير. وعن طريق كارليل اتصل تأثير ريختر الجذل غير المطرد الـسياق تـشارلز ديكنـز (١٨١٢ – ١٨٦٣) وهو المنافس الكبير لديكنز يحمل قراءة ويهيم بهم في الأرض ويغمرهم بالتفلسف ممسكًا بتلابيبهم على شاكلة أقرب إلى طريقة سترن منها إلى الألمان. وقد أمثل تشارلز ريد فـي روايتـه "الـدير والبيت" [٤] النزاع الذي ما يزال قائما بين البروتستانت والكاثوليك في أوربا في ثنايا قصة رومانسية عظيمة. واكتشف كل من ثاكاري وكارليل أن نزوعهما إلى مناقشة الحياة بكثرة قد اقتادهمـا عـن أشـكال الروايـة الصريحة إلى التفسير والتعليق على الأدوار التاريخية. وإن هناك لرابطة طبيعية ضـرورية بـين الروايـة العظيمة ذات الطراز الإنجليزي وبين التاريخ. وكانا كتابا كارليل "الثورة الفرنسية" و "فردريك الكبير" يقرآن كما تقرأ الروايات. وأحرز ماكولي (١٨٠ – ١٨٥٩) نجاحا باهرا بكتابـه: "تـاريخ الفتـرة الأسـتيوارتية الأخيرة". والحق إن الذنب في عدم إقبال جمهرة الناس على قراءة التاريخ يقع علـى عـاتق المـؤرخين لا

---

[1] المدرسانية (Scholastic) هيئات التدريس المتحذلقة بجامعات القرون الوسطى. (المترجم).

[2] الأكاديمية: العلمية. (المترجم).

[3] الرواية القصيرة (Short Novel) الأقصوصة أو القصة القصيرة (Short Story).

[4] "الدير والبيت "Cloister & the Hearth"

الجمهور. فإن أمثال ليتون واستراتشي وجود اللا وبيلوك من نوابغ كتاب التاريخ محبوبـون فـي إنجلتـرة وأمريكا كحب مؤلفي الروايات سواء بسواء.

فأما في فرنسا فإن نفس الضرورات والتطلعات التي وسعت الرواية الإنجليزية من مجرد حكاية إلـى صورة للحياة وتفسير لها، قد ألهمت بلزاك (١٧٩٧ – ١٨٥٠) إلى القيام بـذلك الجهـد الجليـل "الكوميـديا الإنسانية Comedie Humaine" وبعد بلزاك وأدنى منه بمـسافة بعيـدة يجـيء خليفتـه زولا (١٨٤٠ – ١٩٠٢)، ويكتب كتابه "طبقات عائلة روجون ماكار Rougon- Macquart" الشبيه بمؤلفات بلزاك، وهـو مجموعة من الروايات تتأثر حظ أسرة فرنسية وفيرة العدد مدى أجيال عديدة. ويقف شخص فكتور هوجـو (١٨٠٢ – ١٨٨٥) فريدا في زمانه وهو صاحب ذهن فياض جريء زاهر يبلغ في بعض الحين حد البهرجة المسرفة، فيقذف بالتمثيليات والقصائد والروايات والبحوث السياسية. ولكن الواقع أنه حدث فـي فرنـسا أن سلطان الأكاديمية والتقاليد الكلاسيكية وتقاليد النظام المدرساني، قد روضت على الجملة فن الرواية وأخضعته رغم أنها لم تستطع أن تكبح هذه الحالات الاستثنائية. قال البياجوجيون [1]: ينبغي للرواية أن تتخذ "شـكلاً"، ولا بد لها من أن تكون "صحيحة". ويجب ألا يكون فيها استطراد إلى موضوعات خارجة عن موضـوعها، ويجب أن تكون مؤدبة غير شخصية في منوالها. وبذلك اعتيقت الرواية الفرنسية وهي فـي طريقهـا إلـى حريات التجريب غير المحدودة، التي كانت تنعم بها المدرسة الإنجليزية. وفلوبير (١٨٢١ – ١٨٨٠) وهـو يكتب مضيقًا عليه بهذه الحدود الثابتة – هو أشد الكتاب الفرنسيين لباقة وصقلاً وإتقانًا.

وينتمي توماس هاردي (١٨٤٠ – ١٩٢٨) آخر الروائيين العظام في العصر الفيكتـوري إلـى هـذه المدرسة الفرنسية الكلاسيكية أكثر مما ينتمي إلى تقاليد الرواية الإنجليزية. ولقد ثار في أخريات أيامه علـى القيود التي غل نفسه بأغلالها، ثم هجر الرواية هجرانًا تاما، ثم بلغ أوج عظمته الفنية بكتابه الأمراء [2]، وهو تمثيل وعرض للمغامرة النابليونية بأكملها في صورة دراما، وهو مثال جديد على الوشائج الوثيقة التي تربط بين الروائي العظيم وبين المؤرخ المفسر للتاريخ.

فالرغبة في المعرفة بالحياة وما يحدث لها، وهي النزوع إلى استجواب الحياة استجوابا وثيقًا حارا، تلك الرغبة التي جعلت البريطانيين يضيقون ذرعا بقيود الشعر وتضييقاته الشكلية ورفعت الروايـة (: القـصة) وأشكالها القريبة إلى مرتبة السيادة الأدبية، - قد انتشرت في كل الأقطار الأوربية. فأنتجت ألمانيا والروسـيا واسكنديناوة بوجه خاص، أدبا عظيما صاغته في شكل روايات. وأبرز اسم يبدو بـين حـشد حاشـد مـن الروائيين المبدعين الألمان هو اسم جوستاف فرايتاج (١٨١٦ – ١٨٩٥). وأنتجت النرويج مؤلفها بيورنسون (١٨٣٢ – ١٩١٠)؛ وأشرقت في الروسيا مجموعة كبيرة من النجوم المتألقـة تبـدأ بجوجـول (١٨٠٩ – ١٨٥٢) وتمضي إلى دوستويفسكي (١٨٢١ – ١٨٨١) وتورجنيف (١٨١٨ – ١٨٣٣) وتولستوي (١٨٢٨ – ١٩٠٠)، وتشيكوف (توفي ١٩٠٤).

---

[1] وهم المتحذلقة من العلماء والمدرسين. (المترجم)

[2] الأمراء (Dynasts): هي كما أشرنا ص ٣٥٩ من المعالم (ط٢) ملحمة شعرية درامية. (المترجم).

على أنه لا يمكن القول بأن جميع القراء في القرن التاسع عشر كانوا تواقين إلى المعرفة مستطلعين – إذ كان يمازج الأنماط والطبقات المليئة الأذهان بالشكوك والتقدم، أنماط وطبقات اجتماعية أخرى غير ناشطة تقاوم الفكرات الداعية إلى التقدم مقاومة فعالة.

وإلى جوار ذلك، وفي قدر عظيم نام متزايد من التآليف التي كانت تستثير العقول. وتنبهها، ظهر في أوربا وأمريكا على السواء، إنتاج ضخم من المادة المكتوبة في كل مستوى من مستويات التقدم الفني (التكنيكي)، قصد به إلى الإمتاع والمصانعة والتطمين.

وكان الناس قد تعلموا القراءة، إذ وجد لديهم الزمن الوفير والحاجة الكبيرة إلى القراءة، وكانوا يقرءون رغبة منهم في كبح تيارات أذهانهم لا في تشجيعها على الفيض.

والسير والتر سكوت (١٧٧١ – ١٨٣٢) شخصية سوف يحير الأجيال المقبلة نفوذها الهائل على معاصريها، كما حيرهم نفوذ اللورد بيرون. فإنه بدأ حياته الأدبية شاعرا، وكتب قصيدتين قصصيتين مسهبتين مليئتين بالثرثرة وذلاقة اللسان؛ ثم انقلب يكتب سلسلة من القصص الرومانسية التاريخية. يمجد فيها الماضي الرومانسي. ويشيد بالولاء للملكيات، وبثراء التقاليد وجذالتها.

ولشد ما راقت هذه النغمة الأثرية والجنتلمانية الثراة، وقد ملأ الجزع نفوسهم بالشكوك وعدم الطمأنينة التي أثارها حاضرهم المتغير المرتاب كان أبا لموجة من الروايات الرومانسية المعبرة عن الأسف، لا في كل العالم المتكلم بالإنجليزية فقط، بل في كل أرجاء أوربا.

فأما في قارة أوربا، فإن هذين الكاتبين اللذين أقبل الناس بصورة عجيبة على ترجمة أدبهما شعرا أو بعبارة نثرية، قد اتخذا رمزا لموجة عظيمة مبهمة من التأثيرات، موجة معقدة المصدر مفككة غير مترابطة من حيث هدفها وكنهها، موجة قد تبددت اليوم لحسن الحظ ونفض الناس أيديهم منها: وأعني بها الحركة الرومانسية. وكان معناها عودة روح القرون الوسطى، وكان معناها عودة الألوان النضرة الزاهية، وكان معناها الإيماء بالمحبة إلى المغامرة في الدروع السوابغ وعدم الارتياح للأساليب والمصالح المعاصرة. وكان معناها قيام الغريزة ضد العقل والعاطفة ضد العلم. وكان يخفف من حدة نزوعها إلى اللغة العتيقة المهجورة ما كان عليه حملة لوائها من تراخ وخمول. وكانت أقرب إلى حالة السكر التي تعقبها العربدة منها إلى دور من أدوار التقدم الفكري والجمالي. ولم يقف الأمر بها عند تعارضها مع حقائق الزمن الحاضر بل تجاوزته إلى التضاد والماضي الكلاسيكي. كانت حركة كاثوليكية كما كانت تنزع منزع المذهب الفردي، وكانت هي المبتعثة للفيري [1] والراتعة في أساطير مفتعلة زائفة؛ كانت أي شيء، وكانت إذا قدرتها تقديرها النهائي مجرد لا شيء.

وقد كتب عنها الكاتبون في ألمانيا كتابات هائلة وفيرة، ولكنها عمت كل أوربا. وادعى بعضهم أن شكسبير كاتب رومانسي؛ وقامت كذلك "فلسفة رومانسية" و "لاهوت رومانسي" تجلى فيهما السخف والغباء.

---

[1] الفيري (Fairy): كثير من الآداب الأوربية عامرة بقصص الفيري التي يفترضون أنها كائنات فوق إنسانية صغيرة الحجم ويرغمونها على صورة الإنسان وأن في يديها قوة سحرية خارقة. (المترجم).

وظهر في الإنجليزية قدر جسيم من الروايات في أزياء القرون السالفة، وهي القرين الفكري لعملية ابتعاث فن العمارة القوطية في إنجلترة، وكان سماسرة البورصة والمتعبون من رجال الأعمال يجدون فرجة ينسون بها مسئوليات أعمالهم التجارية، وينسون بها الوجود كله والمصير الذي يسيرون إليه – إن كان ثمة مصير يظنون أنهم يسيرون إليه – بأن يستغرقوا في أحلام يرون فيها أنفسهم في صورة الصليبيين البواسل والجنود الكماة والقراصنة المخيفين والمنقذين للآنسات اللواتي ألمت بهن النوازل، وهي الشخصيات التي كانت تلك القصص تتخذ منها أبطالها. ولم يكن هناك حتى من يدعى أنه يقوم بتحليل مظاهر ومغزى الزمان الذي ظهرت فيه تلك القصص المرتدية أزياء الماضي. وكان ذلك هو موطن السحر فيها. فكانت هي الملجأ الذي تلتجيء إليه عقول ترغب بكل قوتها في ألا تفكر. وكانت عقلية أبطال تلك القصص هي عقلية الطبقة الوسطى الغنية، بعد تصفيتها ورفعها إلى المثل العليا.

وقد اعترف روبرت لويس ستيفنسون (١٨٥٠ – ١٨٩٤) آخر من لف لف سكوت من الكتاب الرومانسيين، بأنه كان يستطيع أن يأتي بخير مما أتى، ونعت نفسه بلقب "البغي العقلي" وهو ما كان عليه شأنه في واقع الأمر. وهذا القصص المرتدي للأزياء العتيقة كتب أيضا في قارة أوربا، ولكنه لم يصبح هناك البتة صناعة جدية كما أصبح في بلاد المجموعة الناطقة بالإنجليزية، لأن التطور السريع لطبقة متوسطة ثرية ميالة إلى القراءة، حدث في القارة الأوربية في زمن متأخر وفي ظروف أشد استثارة للأذهان.

وهناك تطور حديث جدا جاء على فترة توقف في نمو القصة، ويشير إليه ظهور شيء من النزوع إلى تجميع الروايات في ثلاثيات أو توسيعها بأجزاء متممة لها، ثم ظهر توسيع آخر قشيب لهذا الشكل. يبدو محتملاً بفضله أن تتحول القصة إلى صورة للعالم بأجمعه ترى خلال أعين فرد طرازي [1]. وأشد هذه الروايات الطويلة الجديدة جدارة بالإعجاب رواية "جان كريستوف" من تأليف رومان رولاند[2]، وقد نشرت في عشرة مجلدات متعاقبة. ومما يتصل اتصالاً وثيقًا بهذا التوسيع، ظهور الكتب الهائلة التي لا شكل لها ولا نهاية، كتب الذكرى والتعليق والوصف، التي يمثل طراز كتابتها بروست (المتوفى ١٩٢٢). وهناك شخص يكاد يقف وحيدا في أدب العالم أجمع في هذا العصر هو أناتول فرانس (١٨٤٤ – ١٩٢٤) – الذي تبدي روايته "قصص برجرية المسلسلة (Bergeret Series) نفس النزعة إلى أن يحل محل الرواية (Roman) المعزولة بحوادثها عما حولها تعليق سيار على الأشياء عامة. والآنسة دوروثي ريكاردسون التي تكتب بغزارة مشرقة معبرة عن جدول ضيق من الخبرة الرقراقة، كاتبة ربما جاز لنا أن نسميها "جين أوستن" العصرية للقصة المطولة.

---

[1] الفردي الطرازي (Typical): وهو الذي يمتلك أو يظهر خصائص طراز يعينه بشكل تام بحيث يصبح مثالاً له أو عينة منه تمثل الطراز كله. (المترجم).

[2] رومان رولاند (١٨٦٦ – ١٩٤٤) كاتب فرنسي قصصي ومسرحي ومدرس تاريخ الموسيقى بجامعة السوربون. كتب كتبا عن بيتهوفن وهاندل. وحصل على جائزة نوبل ١٩١٥ مكافأة له على قصة جان كريستوف الضخمة. (المترجم).

وهناك تغير شائق يتداخل القصة مع انتقال الزمن بالقرن التاسع عشر إلى العشرين، هو الزيادة المطردة في الأبحاث الاجتماعية والسياسية والدينية. وذلك أن الروائيين من طراز ديكنز وثاكاري كانوا يكتبون لجمهور فكراته وقيمه الاجتماعية مستقرة أتم استقرار. فإنهم لا يناقشون شيئًا؛ بل يفترضون وجود خلفية من المناظر الأخلاقية ويركزون الاهتمام على الصفات الخلقية أعني على الجبلات والطباع الشخصية. ولم يكن ثاكاري يناقش بل يعظ؛ والوعظ شيء والمناقشة شيء آخر تماما. وكانت الشخصيات ومسلكها في رواية القرن التاسع عشر قوام المادة التي يتكون منها الموضوع كله. على أن حالة عدم الاستقرار الذهني في الزمن الحاضر تجد نفسها منعكسة في القصص العصري على صورة مناقشة للفكرات. ولم تنج الدراما من تلك النزعة حيث دخلتها الفكرات والنظريات. وهي وإن أشبعت ميول الناس، إلا أنها أسدلت شيئًا من الغموض على ذلك الصنف من صوغ الشخصية صياغة مؤكدة قوية وبها قدر من الحياة يعظم ما لها في الواقع؛ وهو أعلى ما تمتاز به القصة في العهد الفكتوري.

وليس هناك من يشك أن في الإمكان أن يلمس الإنسان في أدب العصور الخوالي ابتداء من "قصة الحمار الذهبي" فما تلاها، - إرهاصات بكل هذه التطورات في القصة العصرية تتجه نحو نقد جوال سهل هين للحياة وما فيها من وجهات نظر. ولكن شيئًا من هذه الإرهاصات في ناحيتي الشكل والحجم لم يظهر في أي شيء ظهوره في التنوع الكبير والحجم الفخم اللذين تمتاز بهما كتابات القرن التاسع عشر مهما يكن مدى قربها أو بعدها من شكل الرواية، ولا تكاد أي منها تحتوي تلك الصفة الخاصة: صفة الحكم الحر غير الموجه في شئون الحياة جملة وتفصيلا، وهي الصفة التي تميز ذهن القرن التاسع عشر وبها يتفاضل عن كل الأدوار التي سبقته.

وكان قيام "الدراما" [1] يعتمد حتى ذلك الحين على وجود مجتمع مستقر، له عادات ومعتقدات ثابتة، يستطيع أن يمدها بجمهور نظارة مستمر عامر القلب بالعطف عليها. وكان من الطبيعي في عصر من الفوضى الاجتماعية وإعادة بناء المجتمع، أن يتقوض ما استقر في الناس من عادات الذهاب إلى المسارح. ومن ثم فقد انقضى نصف قرن أو يزيد تحولت فيه عن المسرح الحشود المنوعة الأشكال من الناس الذين كانوا يفكرون ويناقشون ويبحثون عن الجديد من الأشياء. ومر المسرح الأوربي في دور تفاهة وانحطاط وأخذ يدارج الروايات والقصص الرومانسية الشعبية في نزعتها إلى تمكين الناس من قضاء الوقت في سمر لطيف.

وكانت "الدراما" الفرنسية رشيقة وإن كانت جوفاء وكذلك كان شأن الدراما في إنجلترة. وإن لم تصل مطلقًا إلى درجة الرشاقة الفرنسية. والحق إن القوى العظيمة التي كانت تطالب بالمناقشة والفكرات أخذت تبدي أثرها في العالم الدرامي بغاية التدرج وفي وجه معارضة هائلة من النقاد. وكان إبسن النرويجي (١٨٢٨ - ١٩٠٦) هو الشخصية الفعالة المركزية التي بفضلها عادت الدراما إلى الاتجاه نحو مناقشة الحقيقة المعاصرة. وكان لنزوة باري (Bairre) اللطيفة أثر كبير في تحطيم التقاليد الجامدة "للمسرحية

---

[1] الدراما هي فن التأليف والتمثيل المسرحي. (المترجم).

المحبوكة" كما كانوا يسمونها في إنجلترة، ثم شرع برناردشو (Shaw) [1] المولود في (١٨٥٦ – ١٩٥٠) يكافح في بطء مرتفعا إلى أوج التفوق والنفوذ، ومن أبرز الدراميين الألمان في هذا الدور الجديد دور الإخلاص والقوة، هوبمان المولود في (١٨٦٢) وسودرمان المولود في (١٨٥٧) وقد أوقفت الحرب حركة النشاط الدرامي ردحا من الزمن، ولكن انتهاءها أطلق فيضا عميما من النشاط الحي المبشر بالخير على كل من جانبي المحيط الأطلسي. وينعم المسرح في كل من أوربا وأمريكا في الوقت الحاضر بظل وارف قوي من الاستحداث والتجديد.

فإذا حولنا أنظارنا إلى تطور الأدب الأمريكي، وجب علينا أن نميز بين دورين متباينين أشد التباين، أولهما دور السيادة الأوربية، ما بين إنجليزية وفرنسية، وثانيهما دور الفكاك وانطلاق السراح. وقد مضى على المناشط الأدبية الأمريكية حين طويل من الدهر تركزت أثناءه في نيوإنجلند، ولم تكن إلا محض فرع وإن يكن فرعا عفيا عارما من الأدب العام الإنجليزي والأوربي. وكان مركز ذلك مدينة بوسطن. وأكثر كتاب هذا الدور من الحديث في إعلان الاستقلال، ولكنهم من حيث استمرار "الشكل والمنهج" كانوا كمن لم يدرك بعد أن الاستقلال قد وقع فعلاً. وكانت لأمريكا أذواقها المميزة؛ فإنها كانت أسرع من إنجلترة إلى التقاط كارليل؛ وأخذت ترسل نغمة من عندياتها تتجلى في مقالات إمرسون (١٨٠٣ – ١٨٨٢)؛ على أن لونجفلو لم يكن إلا مجرد شاعر إنجليزي تصادف أن ولد في أمريكا وأن كتب في موضوعات أمريكية. وكان إدجار ألان بو (١٨٠٩ – ١٨٤٩) يتبع في كتابته مناهج أوربية أكثر منها إنجليزية، وأبدى هوثورن (١٨٠٤ – ١٨٦٤) أن به لمسة من شعوذة تيوتونية لها وعيها الذاتي. وكذلك كتب و. د. هاولز (١٨٣٧ – ١٩٢٠) سلسلة من الروايات المتزمتة الممتازة، بطريقة تسلكه في سمط مع توماس هاردي تحت نوع المدرسة الفرنسية في تصنيف عام للرواية. وكان هنري جيمس (١٨٤٣ – ١٩١٦) أمريكيا ولكنه لم يكن يكتب على شاكلة الإنجليز ولا شاكلة الأمريكان، بل كأمريكي انتقل إلى بيئة أوربية؛ وكانت مناظره على الدوام أوربية، وكان موضوعه الأثير لديه هو الاصطدام بين الأمريكي الساذج وبين معقدات المدنيات القديمة ولعل أشد كتاب القرن التاسع عشر اصطباغًا بالروح الأمريكية مارك توين [2] (١٨٣٥ – ١٩١٠).

ولم يحدث إلا بعد بزوغ فجر القرن الجديد أن شرع الكتاب الأمريكيون بوصفهم هيئة في مهاجمة ظواهر الحياة الاجتماعية الجديدة ومشكلاتها في أمريكا، مهاجمة يتجلى فيها شيء يشبه القوة الطليقة التي يتحلى بها خير ما أثر عن أوربا من تقاليد. وإنما تظهر كتب من أمثال شارع مين "Main street" "وبابيت" لسنكلير لويس (١٨٨٥ – ١٩٥١) والتراجيديا الأمريكية لدرايزر (١٨٧١ – ١٩٤٦)، وقد أصبح الذكاء الأمريكي مهتما بأمريكا اهتماما مباشرا بحتًا غير ناظر بعد ذلك أبدا صوب الشرق يطلب المنهاج

---

[1] جورج برناردشو: المتوفى في نوفمبر ١٩٥٠ وهو الكاتب القصصي والمسرحي العظيم. ولد بدبلن وانتقل إلى لندن حيث ذاع صيته وراجت مؤلفاته التي تعد بالمئات وحصل على جائزة نوبل ١٩٢٥. (المترجم).

[2] مارك توين اسم القلم الذي أطلقه على نفسه الكاتب الأمريكي صمويل لايجهورن كليمنز، المولود في فلوريدا، وكان كاتبا فكها مسليا. (المترجم).

والاستحسان من أوربا. والواقع أن الشعر ورسائل الغرام الأمريكية قد أصبحت مستقلة اسـتقلالاً توشـك أن تبدو فيه روح العدوان. ويحاول أمثال منكن (١٨٨٠ – ١٩٥٦) من الكتاب الناقدين أن يروعوا العـالم بمـا يمتازون به من القشابة وصفاء الرؤيا، بمحاولات يتجلى فيها الجد والأجلاب والحدة. وكذلك يتكشف كتـاب من أمثال شروود أندرسون (١٨٧٦ – ١٩٤١) وجيمس برانش كابل (المولود ١٨٧٩) عن جدة وقوة ابتكار تبشر بكل خير. ومع أنه لا يوجد حتى الآن في عالم الأدب الأمريكي العصري أسماء عظيمة ممتازة تلفـت الأنظار [1]، ولا إنتاج متقن إتقانًا كبيرا، فإنه من العسير على المرء إذا راعى ما عليه حال ذلـك الجمهـور الكبير الجديد الميال للقراءة، من الثراء والوفرة والتطلع الضخم، أن يعتقد أنه لن تظهر هناك للفـور هيئـة ضخمة لإنتاج أدبي من الطراز الأول تظهر استجابة لما تتطلبه الفرص الأمريكية السانحة.

وليس من اليسير في الوقت الحاضر على كاتب أوربي أن يقدر درجة جودة الأدب الهندي إبان القرن الأخير. فإن الحكم البريطاني يجنح إلى تجاهل الجهد الفكري الهندي أو التقليل من شأنه، وليـست توجـد إلا ترجمات قليلة من بين العدد الضخم من الحكايات والقصص المكتوبة باللغات الوطنية حول الحياة المعاصرة والتي أنتجت في السنوات الأخيرة. ولرابندرانات طاغور [2] (١٨٦١ – ١٩٤١) شهرة عظيمة في الغـرب. على أنه معروف بوصفه شاعرا أكثر منه روائيا وكاتبا سياسيا، ويلوح أن الشرق يتعقب خطى الغرب فـي تطوراته الاقتصادية والاجتماعية ويوم تصبح القوى الجديدة التي كونت القصة العظيمة والروايـة القـصيرة والأقصوصة والقصيدة الغنائية القصيرة، وهي الأشكال القائمة للتعبير الأدبي في الغرب – ذات أثر فعال في آسيا، فلعلها تنتج نتائج مماثلة. وتنطوي اليابان والصين على حركة اختمار ذهني كبيرة جدا. وما يزال فـن الترجمة والتأويل بين الشرق والغرب فجا غير متطور كما لا يزال بحاجة إلى التنظيم، على أن هذه أمور لا يبرح يلحقها التحسين والتوسع السريع، وقد لا يكون بعيدا ذلك الزمن الذي يصبح فيه كتاب المنثـور علـى الأقل إن لم يكن كتاب الشعر الغنائي منذ فجر حياتهم العملية تقريبا موضع إعجاب جمهور من القـراء يعـم أرجاء العالم كلها.

فأما البحث العلمي والفكر الفلسفي والنشاط الأدبي العام في هذه المدة التي تأملناها، فكانت أوفر كثيـرا وأعلى كثيرا في كنهها عامة وتصل إلى يد عدد أوفر من الناس، ونسبة أكبر من سكان العالم تفوق ما كـان عليه الحال من قبل. وليس هناك أبدا ما يدل على أي توقف جسيم في هذا الفيض الفكري الـذهني المطـرد الاتساع.

(1) لقد ظهرت في الأدب الأمريكي بعد وفاة المؤلف أسماء لامعة كثيرة منها أرنست همنجواي. (المترجم).

(2) طاغور (١٨٦١ – ١٩٤١) شاعر وكاتب هندي، ولد في كلكتا. وكان من أعظم رجال الهند الحديثة، وكان كاتبا وقصـصيا ومربيا ووطنيا عظيما. وكانت مثله العليا تدعو إلى البساطة في العيش وإلى إيجاد علاقة بين التربية الغربية والفلسفة الشرقية. حصل على جائزة نوبل سنة ١٩١٣. (المترجم).

الفصل الثامن والثلاثون

كارثة الاستعمار العصري [1]

١- السلام المسلح قبل الحرب العظمى.

٢- ألمانيا القيصرية.

٣- الروح الاستعمارية في بريطانيا وإرلندة.

٤- النزعات الاستعمارية في فرنسا وإيطاليا والبلقان

٥- الروسيا تصبح ملكية عظمى.

٦- الولايات المتحدة والفكرة الاستعمارية.

٧- الأسباب المباشرة للحرب العظمى.

٨- خلاصة للحرب العظمى حتى ١٩١٧.

٩- الحرب العظمى منذ انهيار الروسيا إلى الهدنة.

---

(1) أطلق المجمع اللغوي كلمة التساطية لتكون مقابلاً للفظة (imperialism) وهي المبدأ الداعي إلى توسيع رقعة الدولة بالاستعمار والاستلحاق والإضافة كلما وكيفما أمكن ذلك، وإلى ربط الدولة أو الإمبراطورية مختلف ممتلكاتها حتى تصبح وحدة وثيقة الترابط؛ وقد استعملنا لفظة الاستعمار أحيانًا حين رأينا المقام يقتضيها فضلاً عن استخدامنا لفظة إمبريالية لنفس المعنى. (المترجم)

١ ـ السلام المسلح قبل الحرب العظمى

احتفظت أوربا طوال ستة وثلاثين عاما بعد معاهدة سان استفانو ومؤتمر برلين، بسلام مقلق داخل حدودها ولم تنشب أية حرب بين الدول الكبرى إبان تلك المدة. بل كانت إحداها تحتك بالأخرى وتخيفها وتهددها ولكنها لا تصل إلى الحرب الفعلية وقد أدرك الناس عامة بعد ١٨٧١ أن الحرب العصرية أمر أشد خطورة بكثير من الحرب التي كان يقوم بها الجند المحترفون في القرن الثامن عشر، وأنها مجهود للشعوب بكلياتها ربما حض على التكوين الاجتماعي حضا عنيفًا، وأنها مغامرة يجدر بالناس ألا يتهوروا بالإقدام عليها. ذلك أن الانقلاب الميكانيكي ما برح يقدم أسلحة مطردة القوة متزايدة النفقة في البر والبحر، ويستحدث وسائل للمواصلات أسرع؛ كما كان يزيد كل يوم في تعذر مواصلة الحرب بدون إحداث زعزعة تامة لحياة المجتمع الاقتصادية. بل لقد بلغ الأمر أن وزارات الخارجية نفسها أخذت توجس من الحرب خيفة.

ومع أن الناس كانوا يخشون الحرب كما لم يخشوها قط في العالم فيما سلف، لم يقم أحد بعمل يرمي إلى إقامة رقابة اتحادية لمنع الشئون الإنسانية من أن تسير في طريق الحرب. حقًا إنه حدث في ١٨٩٨ أن القيصر الشاب نيقولا الثاني (١٨٩٤ – ١٩١٧) أصدر تصريحا ملكيا يدعو به الدول الكبرى الأخرى إلى عقد مؤتمر دولي يرمي: "إلى تمكين الفكرة الكبرى فكرة السلام العام من النصر على عناصر الشغب والفرقة". ويذكرنا تصريحه هذا بالإعلان الذي أعلنه سلفه إسكندر الأول والذي كان يدعو فيه لفكرة المحالفة المقدسة، ولكن الشيء الذي أفسد التصريح افتراض هؤلاء السادة بأن السلام يمكن أن يؤسس بين حكومات ذات سيادة، لا باللجوء الشامل إلى حاجات وحقوق شعب البشرية الواحد. فأما الدرس المستفاد من الولايات المتحدة الأمريكية وعظتها التي أظهرت أنه من المحال أن توجد وحدة في العمل أو سلام حتى تتغلب على النعرة القائلة "الشعب فرجينيا" – "وشعب ماساشوستس" فكرة "شعب الولايات المتحدة" جمعاء – فقد أغفل إغفالاً تاما في كل ما بذل من محاولات للسلام في أوربا.

وعقد مؤتمران في لاهاي بهولندة، أحدهما في ١٨٩٩ والثاني في ١٩٠٧، وكانت كل دول العالم ذات السيادة ممثلة تقريبا في ذلك المؤتمر الثاني. على أن تمثيل تلك الدول كان تمثيلاً ديبلوماسيا، ولم يصدر أي توجيه يلفت الفطنة العالمية العامة إلى مناقشات المؤتمر وأعماله. بل إن الرجل العادي لم يكن ليعرف حتى مجرد أن هذين المؤتمرين كانا ينعقدان، وكان الممثلون المجتمعون يقومون في معظم أمرهم بمراوغات ثعلبانية حول نقط في القانون الدولي تمس الحرب، مهملين موضوع إلغاء الحرب زعما منهم أنها وهم مخيف لا ظل له من الحقيقة. ولم يسفر هذان المؤتمران عن ثمرة ما تبدد الفكرة القائلة بأن الحياة الدولية إنما هي حياة منافسة بحكم الضرورة. بل على العكس فإن المؤتمرين فيهما سلموا بهذه الفكرة. ولم يقوموا بأي شيء يطورون به الوعي الخاص بالدولة العامة العالمية التي تعلو هامات الملوك ووزارات الخارجية. وكان رجال السياسة والقانون الدولي الذين حضروا هذين الاجتماعيين غير ميالين إلى الإسراع بإنشاء دولة عالمية على مثل هذا الأساس، شأنهم في ذلك شأن رجال السياسة البروسيين في ١٨٤٨ في عزوفهم عن الترحيب ببرلمان يمثل ألمانيا كلها ويسمو فوق حقوق وسياسة ملك بروسيا.

وفي أمريكا عقدت سلسلة من ثلاث مؤتمرات ترمي إلى إنشاء كتلـة أمريكيـة فـي ١٨٨٩، ١٩٠١، ١٩٠٦ فسارت شوطًا ما في سبيل وضع خطة لإيجاد تحكيم دولي في القارة الأمريكية بأجمعها.

ولن نناقش هنا في أي إسهاب شخصية وحسن نية نيقولا الثاني الذي كان صاحب الفـضل فـي عقـد مؤتمري لاهاي هذين، فلعله زعم أن الزمان كان حليف الروسيا. على أن الأمر الذي لا شك فيه أن الـدول العظمى قد نفرت جميعا من احتمال قيام قوة تغطي على الدول ذوات السيادة وتغمرها في طياتها، وهي القوة التي لا تكون مشروعات السلام الدائم بدونها إلا سخفًا وهراء. ولم يكن ما يرغبون فيه هو إيقـاف التنـافس الدولي ومرحلته الحامية العنيفة وأعني بها الحرب، بل يبتغون تخفيض نفقات الحرب التـي أخـذت تـصبح باهظة ثقيلة. وكانت كل من الدول ترغب في الاقتصار فيما ينتج عن المنازعات والمشاحنات الصغرى مـن سرف، وتشريع قوانين دولية تربك أقوى خصومها أثناء الحرب دون أن تضايق نفسها بـشيء. تلـك هـي الغايات العملية التي يطلبون من مؤتمر لاهاي. كان اجتماعا حضروه ليرضوا نيقولا الثاني على نفس الشاكلة التي اشترك بها ملوك أوربا في المقترحات الدينية المسيحية الخاصة بالحلف المقدس لكي يرضـوا إسـكندر الأول، ولما أن حضروه حاولوا جاهدين أن يحصلوا منه على ما ظنوه شيئًا من الإفادة به لأنفسهم.

٢- ألمانيا القيصرية

غادر صلح فرانكفورت ألمانيا موحدة مصطبغة باللون البروسي، وخلفها أشد دول أوربا الكبرى منـة. وكانت فرنسا قد أصبحت ذليلة عاجزة وبات محتملاً أن تحولها إلى النظام الجمهوري قد يفضي إلى تركهـا وحيدة بغير صديق في أي من البلاطات الأوربية. وكانت إيطاليا حتى آنذاك مجـرد دولـة حديثـة العهـد. وأخذت النمسا تتدهور سريعا آنذاك إلى مرتبة الولاية التابعة في السياسة الألمانية. وكانـت الروسـيا دولـة ضخمة ولكنها غير مطورة ولا منظمة. ولم تكن الإمبراطورية البريطانية ذات بأس إلا على صفحة البحـر. فأما خارج أوربا فإن الدولة الوحيدة التي كانت ألمانيا تحسب حسابها فهي الولايات المتحدة، وقد تنمو عنـد ذاك وتصبح أمة صناعية كبيرة، وإن لم يكن لها جيش ولا أسطول جديران بأي اعتبـار حـسب المعـايير الأوربية.

وكانت ألمانيا الجديدة التي ضمتها الإمبراطورية التي خلقت في فرساي، مزيجا مركبـا مدهـشًا مـن قشيب القوى الذهنية والمادية في العالم، مع أضيق ما في النظام الأوربي من تقاليد سياسـية. اتجهـت إلـى التعليم بكل قوتها، فكانت أشد دول العالم قاطبة اهتماما بالتعليم. فهي صاحبة السبق في التعليم والقائدة لكـل جيرانها ومنافسيها.

وفي هذا الوقت الذي تقدم فيه حساب ألمانيا، ربما ساعد القارئ البريطاني على اتخاذ موقـف متـزن منها أن يتذكر تلك الاستثارة التعليمية التي تدين بها بلاده للأمير الألمـاني زوج الملكـة فكتوريـا أولاً ثـم للمنافسة الألمانية. فإن تلك الغيرة الوضيعة التي كانت تخالج طبقة الحكام في بريطانيا من الرجـل العـادي المتعلم، والتي لم يستطع أي شعور بالكبرياء الوطني أو بالدافع السمح الكريم أن يتغلب عليها أبدا، تلك الغيرة قد تقوضت إزاء ذلك الخوف المتزايد من الكفاية الألمانية. وحملت ألمانيا نظام البحث العلمي ونظام تطبيـق الطريقة العلمية في التطورات الصناعية والاجتماعية، على مستوى من الإيمان والنشاط والهمة لم يصل إليه مجتمع آخر من قبل قط.

فكانت ألمانيا طيلة كل هذه فترة الهدنة المسلحة تحصد وتبذر من جديد ثم تعود وتحصد المحاصـيل، المحاصيل الثابتة المضمونة، العائدة من العرفان المنثور نثرا طليقًا. وسارت ألمانيا بخطـى سـريعة حتـى أصبحت دولة صناعية وتجارية كبرى. وقد بز إنتاجها في الصلب إنتاج بريطانيا؛ وأصبحت ألمانيـا قائـدة العالم ورائدة في مئات من الميادين الجديدة للإنتاج والتجارة، حيث المعول الأول على الذكاء والنظام أكثـر منه على مجرد مكر التاجر، من أمثال صناعة زجاج العدسات، والأصـباغ وعـدد كبيـر مـن المنتجـات الكيماوية، وفيما لا تحصى من العمليات المستحدثة. وقد اعتاد أصـحاب المـصانع البريطـانيين أن يـروا المخترعات تنحدر إلى مصانعهم مصحوبة برجاء قبولها واستعمالها، ودون أن يعرفوا من أين جـاءت تلـك المستحدثات ولا لماذا جاءت، ولذا كانوا يرون في هذا الأسلوب الألماني الجديد الذي يحتفظ برجـال العلـم ويدفع لهم المرتبات، معاملة ظالمة ظلما بشعا. وكانوا يشعرون بأن ذلك ضرب من اجتذاب الأموال قسرا. أو قل إن ذلك في نظرهم كان ضربا من رص أوراق اللعب بقصد الغش والتدليس. وكان ذلك أمرا ينطوي على

تشجيع طبقة دنسة من ذوي العقليات الذكية أن يتدخلوا في شئون رجال الأعمال الشرعيين. ولذا فـإن العلـم غادر موطنه الأول إلى الخارج كما يغادر الطفل المكروه دار أبيه. إذ إن صناعة ألمانيا الكيمائية الفاخرة كان الأصل فيها عمل السير وليم بركن ذلك الرجل الإنجليزي، الذي لم يجد من بين رجال الأعمال الإنجليز رجلاً "عمليا" يناصره.

كذلك قادت ألمانيا العالم في كثير من أشكال التشريعات الاجتماعيـة. إذ أدركـت ألمانيـا أن العامـل "رصيد" قومي، وأن ذلك الرصيد تبليه العطالة، وأنه لا بد من أجل الخير المشترك من أن يعنى بـه خـارج المصانع. وكان صاحب العمل البريطاني ما يزال متأثرا بالخدعة القائلة بأنه ليس من حق العامل أن يعـيش خارج المصنع، وأنه كلما ساء حال عيشه الخارجي ذاك، كان ذلك خيرا له على شاكلة ما، زد على ذلـك أن أصحاب الأعمال كانوا بسبب تفشي الأمية بينهم شديدي النزعة الفردية، ولذا فإن المنافسة الشائعة بينهم كانت من الصنف الأحمق الذي يتميز به العقل السوقي. وكان الواحد منهم يكره من يحيطون بـه مـن أصـحاب المصانع كرهه عماله وزبائنه. فأما المنتجون الألمان فكانوا من الناحية الأخرى، مقتنعين بالفوائد الكبيرة التي تجنى من التضامن والدماثة. ولذا كانت مشروعاتهم تنزع إلى السير ككتلة واحدة وتتخذ رويـدا رويدا سـمة العمل القومي.

وكانت ألمانيا هذه المعلمة لشعبها والعلمية الروح والمنظمة لأعمالها هي التطـور الطبيعـي لألمانيـا التحررية في ١٨٤٨؛ وكانت جذورها ترجع إلى عهد قديم بعيد وإلى ذلك الجهد الناجع الـذي كـان يـستمد الدافع من الخجل من الفتوح النابليونية. فكل ما نالها من خير، وكل ما أصابت من عظمة، فألمانيا العـصرية هذه تدين فيه لمدرسيها بالفضل الكبير.

على أن هذا الروح العلمي المنظم لم يكن إلا واحدا من العاملين اللذين كونا الإمبراطوريـة الألمانيـة الجديدة. فأما العامل الثاني فهو أسرة هوهنزولرن التي بقيت بعد معركة يينا، والتي خـدعت ثـورة ١٨٤٨ وتغلبت عليها، والتي ارتفعت الآن بقيادة بسمارك إلى مرتبة الرياسة الشرعية لألمانيا بأجمعهـا فيمـا عـدا النمسا. وفيما عدا الروسيا القيصرية لم تحافظ دولة أوربية أخرى على تقاليد ملكيـة القـرن الثـامن عـشر العظمى كما فعلت الدولة البروسية. فكان ميكيافللي عند ذاك هو المسيطر على ألمانيا بطريق تقاليد فردريـك الأكبر. وعلى ذلك فإنه لم يكن يجلس على عرش هذه الدولة العصرية الجديدة الممتازة عقل عصري ممتـاز يقودها إلى السيادة العالمية في خدمة العالم، بل كان يتولاها عنكبوت عجوز يتحرق شوقًا إلى القوة. فكانـت ألمانيا البروسية هي في نفس الوقت أحدث وأقدم شيء في أوربا الغربية. كانت خير الدول في زمانها وأشدها شرا.

ولم تزل سيكولوجية الأمم علما بدائيا ليس غير. فإن علماء النفس لم يكادوا يبدءون بعد فـي دراسـة ناحية المواطن في الرجل الفرد. على أننا نرى من الفائدة القصوى لموضوعنا أن يوجه دارس التاريخ العـام شيئًا من تفكيره إلى النمو العقلي في أجيال المتعلمين الألمان منذ انتصارات ١٨٧١. فمن الطبيعي أن يداخلهم الغرور لما أصابوه من انتصارات جارفة ليسوا أهلاً لها، ولما نالوه من انتقال سريع من الفاقة النسبية إلـى

الثراء المطلق. ولعلنا نكلفهم ضد طبيعة الإنسان إذا توقعنا منهم ألا يغلب عليهم شيء مـن الإسـراف فـي الغرور الوطني. ولكن هذا رد الفعل قد أُمسك به قصدا وتُعهد ونُمي بواسطة استغلال ينظمه ورقابة محكمـة للمدرسة والجامعة والأدب والصحافة لمصلحة آل هوهنزولرن.

فكل مدرس أو أستاذ في الجامعة لا يدرس ولا يبشر بمناسبة وبغيـر مناسـبة باسـتعلاء الألمـانيين العنصري والذهني والخلقي والجسمي على بقية الشعوب جميعا، وتعلقهم غير العـادي بـالحرب وأسـرتهم المالكة، ومركزهم الذي لا محيص للأيام من أن تبوئهم إياه تحت هذه الأسرة في قيادة العالم، فشخص شاذ قد ند عن الجماعة وقدر عليه الفشل وضياع المستقبل. وأمسى تعليم التاريخ في ألمانيا تزييفًـا هـائلاً منظمـا لماضي البشرية، لا ينظر إلا مستقبل آل هوهنزولرن. وكانت كل الشعوب الأخرى تُمثـل لأنظـارهم فـي صورة المنحلّة غير ذات الكفاية؛ وأن البروسيين هم قادة الجنس البشري ومجددو شبابه.

فيقرأ شباب ألمانيا هذا القول في المدرسة ويسمعونه في الكنيسة، ويجدونه على صفحات كتـب الأدب، ثم يصبه فيهم بحمية وإيمان وثيق أستاذهم، ويبثه فيهم كل أساتذتهم بلا استثناء. وإن المحاضرين فـي علـم البيولوجيا والرياضيات لينفلتون من موضوعاتهم الأصلية لينعموا بفقرات طويلة من الهذر الوطني. ولم يكن ليستطيع أن يقاوم مثل هذا السيل المنهمر من الإيحاء إلا من أوتوا عقولاً قوية ذات أصالة غير عادية. وهكذا أقيمت في ذهن الألمان دون أن يشعروا فكرة تصور ألمانيا وقيصرها في صورة الشيء المـستعلي الفـاخر الفخم الذي لم ير العالم مثله من قبل، صورة شعب صيغ على غرار الآلهة وألبس "دروعا سـابغات لامعـة" وهو يهز "الحسام الألماني البتار" وسط عالم من شعوب أدنى مرتبة ذات نفوس ميالة للشر.

ولقد أسلفنا إليك قصة أوربا، وفي إمكان القارئ أن يحكم هل كان بريـق الـسيف الألمـاني يخطـف الأبصار حقًا بشكل ليس له من ضريب؟. إن "جرمانيا" كانت تُعطى المخدر عمدا ثم تُستبقى ثملـة بطريقـة مرتبة منظمة، بواسطة هذا الضرب من البلاغة الوطنية. وإن أكبر جريمة اقترفها آل هوهنزولرن أن تاجهم كان يعبث بالتعليم عبثًا متواصلاً ملحاحا، وبوجه خاص بتعليم التاريخ. ولم تقترف أية دولة عصرية أخـرى مثل هذا الإثم في حق التعليم. أجل إن حكم القلة (الأوليجركية) في الجمهورية البريطانية المتوجة ربما يكون عرقل التعليم ومنع عنه القوت، ولكن آل هوهنزولرن قد أفسدوه واتخذوا منه بغيا.

ولسنا نغالي مهما بالغنا في توضيح تلك الحقيقة – التي هي أعظم حقائق تاريخ نصف القرن الأخيـر أهمية – إذا قلنا إن الشعب الألماني قد بثت فيه بطريقة منهاجية الفكرة القائلة بسيادة ألمانيا العالمية المؤسسة على القوة والجبروت، والنظرية القائلة بأن الحرب ضرورة من ضرورات الحياة. وإنك لتعثر علـى مفتـاح السياسة الألمانية في تعليم التاريخ فيما أثر عن الكونت مولتكه من قوله: "إن السلام الدائم حلم من الأحلام بل إنه ليس حلما جميلاً. وإنما الحرب عنصر من عناصر نظام العالم أمر به ا . فلولا الحرب لأسن العالم وفقد نفسه في الروح المادية". كذلك وجد الفيلسوف الألماني نيتشه نفسه متفقًا في الآراء مع هذا الفيلـد ماريـشال الورع!!... فيقول "إن من محض الوهم وجميل العاطفة، أن يتوقع المرء شيئًا كثيـرا، بلـه أي شـيء مـن البشرية إذا هي نسيت كيف تشب نار الحرب ولا يعرف الناس حتى يومنا هذا وسيلة تدعو كل شـيء إلـى

الحركة والنشاط قدر ما تفعل إحدى الحروب الكبرى: تلك الطاقة الخشنة التي يتمخض عنها المعسكر، وذلك الضرب العميق من فناء الشخصية الذي يستقي وجوده من الكراهية، وذلك الـضمير المـستقي مـن القتـل ورباطة الجأش، وتلك الحمية الراجعة إلى الجهد المبذول في إبادة الأعداء، وذلك الكبرياء الذي يوحي بعـدم الاكتراث بالخسائر، بل بوجود المرء نفسه، بل بوجود زملائه أيضا؛ وذلك الضرب مـن رج النفـوس رج الزلزال الذي يحتاجه الشعب إذا هو فقد حيويته".

وكان حتما أن يلحظ الناس في الخارج ذلك النوع من التعليم الذي كان يأخذ بـأطراف الإمبراطوريـة الألمانية من أقصاها إلى أقصاها، وكان حتما أن تنزعج له كل دولة أخرى وكل شعب آخر في العالم، وكان حتما أن يستثير تحالفًا ضد الألمان، خاصة وقد صحبته مظاهرة من استعدادات القوة العسكرية، سرعان مـا عقبها استعدادات للقوة البحرية، هددت فرنسا والروسيا وبريطانيا على السواء. وأثرت تلك التربية أيضا فـي أفكار الشعب الألماني وأخلاقه ومعنوياته.

فبعد ١٨٧١ كان الألماني في خارج بلاده يبرز صدره ويرفع عقيرته. فنزل العالم يحيط به جـو مـن الدفع بالمناكب والدوس بالأقدام حتى في العمليات التجارية البحتة. وجاءت آلاته إلى أسواق العالم وغمـرت سفنه البحار فكان لها رشاش من التحدي الوطني. بل لقد طالما استعمل مناقبه ومحاسنه نفسها وسيلة لتكـدير صفو من عداه. (والراجح أن معظم الشعوب الأخرى، ما كانت لتسلك إلا مثل هذا السبيل، لو أنها لقيت مثل تجاربهم وتلقت نفس تعليمهم).

وقد حدث بسبب بعض ما يحدث في التاريخ من مصادفات تتقمص الكوارث وتعجل بهـا، أن حـاكم ألمانيا وأعني به القيصر غليوم الثاني كان يتجسم فيه التعليم الجديد لشعبه والتقاليـد الهوهنزولرنيـة بأكمـل أشكالها. تولى العرش في ١٨٨٨ وهو في التاسعة والعشرين؛ وكان أبوه فردريك الثالث قد عقب جده غليوم الأول في مارس ولكنه توفي في يونيه من تلك السنة نفسها. وكان غليوم الثاني حفيدا للملكة فكتوريـا مـن ناحية أمه، ولكن لم يبد على مزاجه أي أثر للتقاليد الألمانية التحررية التي تمتاز بها عائلة سـاكس كـوبرج جوثا. بل كانت رأسه مليئة بذلك الزبد الأجوف عن "التسلطية" الجديدة. وقد ميز توليته العرش بخطاب وجهه إلى جيشه وأسطوله، وجاء خطابه إلى شعبه بعد ذلك بثلاثة أيام. وبذلك ارتفعت في الجو نغمة عاليـة مـن الاحتقار للديمقراطية: "إن الجندي والجيش وليس الأغلبيات البرلمانية هما اللذان التحمت على أيديهما أجـزاء الإمبراطورية الألمانية بعضها ببعض، وإني لأضع ثقتي في الجيش" وهكذا أنكر الإمبراطور عمل المدرسين الألمان الذي قاموا به بصبر وجلد، وأعلن سليل آل هوهنزولرن على الملأ انتصاره وغلبته!!...

وكانت ثانية مآثر الملك الشاب أن يتشاجر مع مستشاره الشيخ بسمارك (١٨١٥ – ١٨٩٨)، الذي كون الإمبراطورية الألمانية الجديدة وأن عزله في (١٨٩٠) ولم تكن هناك أية خلافات عظيمة في الرأي بينهمـا، ولكن الأمر كان كما عبر عنه بسمارك، أن الإمبراطور قرر أن يكون مستشارا لنفسه.

وهاتان الحادثتان هما الفصلان الاستهلاليان لحياة تجلى فيها النشاط والعدوان. وكان غليوم الثاني هـذا يرمي إلى إحداث ضجة في العالم، ضجة أعلى صوتًا مما أتاه أي ملك آخر في العالم. وسرعان ما عرف في

كل أوربا شخص العاهل الجديد، وهو على الدوام في زي عسكري أشد ما يكون بريقًا والتماعًا، ويتفرس بعينيه تفرس الكمي الشجاع وقد فُتل شارباه فتلا عنيفًا، كما أخفى بمهارة ذراعه الأيسر الأكتع الصغير الحجم. وكان يضع على صدره لوحات من المعدن الفضي البراق ويرتدي عباءات طويلة بيضاء. وتجلت في الأفق سحائب عظيمة من القلق. وكان واضحا أنه يرى في نفسه شخصا وضعت بين يديه مقدرات أمور عظيمة، ولكن انقضى على الناس زمن لم يتبينوا فيه ما هي تلك المقدرات الخاصة العظيمة. فلم يكن هناك هاتف يهتف في دلفى أنه لا بد محطم إمبراطورية عظيمة [1].

وقد داخل الانزعاج كثيرا من رعاياه لما شهدوه عليه من مظاهر مسرحية أعقبها عزل بسمارك، ولكن اطمأنت قلوبهم من فورهم إلى أنه إنما يستعمل نفوذه في توطيد السلام وفي تمكين الروابط المتينة بين أجزاء ألمانيا. ولقد أكثر من السفر، إلى لندن وفيينا وروما (حيث قام بمحادثات خاصة مع البابا) وإلى أثينا، (حيث تزوجت شقيقته من الملك في ١٨٨٩) وإلى القسطنطينية. فكان أول عاهل مسيحي حل ضيفًا على سلطان. كذلك ذهب إلى فلسطين. ونقبت له في سور بيت المقدس القديم بوابة خاصة حتى يستطيع أن يدخل المدينة راكبا؛ إذ كان الدخول إليها على القدم أمرا لا يتناسب ومكانته. وحمل السلطان على البدء بإعادة تنظيم الجيش التركي على أسس ألمانية وبقيادة ضباط ألمان.

وفي ١٨٩٥ أعلن أن ألمانيا "دولة عالمية كبرى" وأن "مستقبل ألمانيا يقوم في صفحة البحر" – غير عابئ إلى أن البريطانيين كانوا يعدون أنفسهم مستوين على سطحه من قبل وأصحاب الحق فيه. وأخذ يهتم أكثر فأكثر ببناء بحرية عظيمة. كذلك وضع الفن الألماني والأدب الألماني تحت رعايته؛ واستعمل نفوذه للاحتفاظ بالحروف الألمانية الخاصة السوداء المتعبة للبصر دون الحروف اللاتينية التي تستعملها بقية أوربا الغربية، كذلك ناصر حركة الكتلة الألمانية الكبرى التي تدعي انضواء الهولنديين والإسكندناويين وفلمنكيي بلجيكا وألمان سويسرا في عضوية أخوة ألمانية عظيمة – وهي في الواقع مادة طيبة يمكن تمثلها في إمبراطورية جائعة صغيرة تريد أن تكبر وتنمو. وغطى ضياؤه الباهر على ضياء كل عاهل في أوربا.

واستغل الشعور العدائي العام الذي فشا في كل أوربا ضد بريطانيا بسبب الحرب بينها وبين جمهوريتي البوير، لكي يواصل خططه الرامية إلى تكوين أسطول عظيم، فأدى ذلك عدا النمو السريع والتحدي الظاهر في اتساع مستعمرات الإمبراطورية الألمانية في أفريقيا والمحيط الهادي، إلى غلبة الانزعاج على البريطانيين وإثارة ثائرتهم. وألفى أحرار الرأي في بريطانيا بوجه خاص أنفسهم تحت ضرورة تقذى لها نفوسهم حنقًا، تضطرهم أن يناصروا فكرة الاستمرار في زيادة أساطيلهم البحرية البريطانية زيادة متواصلة. قال: "لن يهدأ لي بال حتى أرفع بحريتي إلى نفس المستوى الذي يتبوأه جيشي". ولم يكن أشد الناس في الجزائر البريطانية حبا في السلام ليستطيع أن يتجاهل هذا التهديد. وكان قد أخذ من بريطانيا في ١٨٩٠ جزيرة هليجولند الصغيرة، فحولها إلى قلعة بحرية عظيمة.

---

[1] يشير المؤلف هنا إلى النبوءة التي تلقاها كروسوس من وحي دلفى عندما استشاره في أمر محاربة قورش (انظر ص ٣٤٣ ط٢ المعالم). (المترجم).

وكان كلما كبرت بحريته كثرت مشروعاته ومطامحه. فأعلن أن الألمان هم "ملح الأرض" وأنهم يجب "ألا يمسهم في خدمة المدنية لغوب؛ وأن ألمانيا شأن روح روما الإمبراطورية يجب أن تتسع وتفرض على الناس نفسها". وقد نطق بهذا التصريح في الأراضي البولندية مناصرا به ما تبذله ألمانيا من مجهودات متواصلة بالصبغة الألمانية. ولقد نعت ا بأنه "حليفه المقدس". وكان الملك في الدول الاستبدادية القديمة إما هو الرب نفسه أو وكيل الرب المختار؛ فأما القيصر فكان يعد ا تابعه الأمين. قال في كثير من مظاهر المحبة والتودد "ربنا الشيخ". وعندما استولى على كياوتشاو انطلق يتكلم عن "القبضة الفولاذية الألمانية". وعندما ناصر النمسا على الروسيا تكلم عن ألمانيا في "دروعها اللامعة".

ولما أصيبت الروسيا بالكوارث في منشوريا في ١٩٠٥ انطلقت الروح الاستعمارية الألمانية من عقالها لتقوم باعتداءات أكثر جراءة. إذ بدا أن الخوف من قيام فرنسا والروسيا بهجوم مشترك أخذ خطره يزول. وقام الإمبراطور بشيء يشبه الرحلة الملكية في الأراضي المقدسة، ونزل في طنجة ليؤكد لسلطان مراكش مناصرته له على الفرنسيين، ثم أنزل بفرنسا إهانة بليغة بإجبارها على عزل وزير خارجيتها دلكاسيه وفي (١٩٠٨) تحدت النمسا – بمناصرته – كل أوربا بأن أخذت من الترك الولايتين اليوغسلافيتين البوسنة والهرسك. وبهذا التحدي البحري لبريطانيا وبهذه الاعتداءات على فرنسا والسلافيين أجبر بريطانيا وفرنسا والروسيا على إنشاء تفاهم دفاعي ضده. وكان لضم البوسنة أثر آخر هو إغضاب إيطاليا، التي كانت حليفة له حتى ذلك الحين.

تلك هي الشخصية التي أبى شؤم الطالع إلا أن يجلسها على عرش ألمانيا لكي يستثير العالم كله وينظمه في سمط واحد ويجعل من المستحيل عليه أن يطيق الكبرياء الطبيعي والاعتداد بالذات من شعب عظيم أفلت آخر الأمر بعد قرون طويلة من الفرقة والضعف – من قبضة حكم متفرق لثُلة من الأمراء. ثم اتخذت كلمته وحاز احترام العالم. وكان طبيعيا أن قادة ألمانيا الجديدة هذه في ميادين التجارة والصناعة الذين أخذوا عند ذلك يثرون، وأن الماليين المهتمين بأعمال الاستغلال وراء البحار، وأن الموظفين والسوقة، - لا بد واجدون في هذا الزعيم شخصا يروقهم كثيرا ويتفق مع أذواقهم تماما. والكثير من الذين كانوا يظنونه أهوج شديد التظاهر في قرارة نفوسهم، كانوا ينصرونه في العلن لأنه كانت له نغمة نجاح أخاذة. ليحيا القيصر (Hoch der Kaiser).

ومع هذا فإن ألمانيا لم تسلم نفسها دون مقاومة للتيار الاستعماري المنهمر. فإن عناصر هامة في الحياة الألمانية كانت تكافح ضد هذه الأوتوقراطية الجديدة المختالة. فرفضت الشعوب الألمانية القديمة والبافاريون بوجه خاص أن تبتلعهم الروح البروسية. وكذلك حدث مع انتشار التعليم وانتقال ألمانيا السريع إلى الصناعة، أن طورت هيئات العمال المنظمة فكراتها وأن ظهرت حركة عداء مطرد لشقشقة عاهلها في شئون العسكرية والوطنية. وأخذ ينمو في البلاد حزب سياسي جديد، هو حزب الديمقراطيين الاشتراكيين الذي كان يقول بمبادئ ماركس. واطرد نمو هذا الحزب بالرغم من كل أنواع المعارضة التي صدرت من ناحية الهيئات الرسمية والدينية، وبالرغم من قوانين القمع الصارمة التي صدرت ضد دعايته وضد كل اتحاد أو تكتل.

وراح القيصر يتوعده المرة بعد الأخرى. وسيق زعماؤه إلى السجون أو طردوا خارج ألمانيا. ومع هذا فإن الحزب تزايد ونما. فإن عدد ناخبيه عندما تولى القيصر العرش لم يكن يتجاوز نصف المليون. وأربى ناخبوه في ١٩٠٧ على الثلاثة الملايين عدا. وحاول القيصر أن يقبل أشياء كثيرة كالتأمين ضد الشيخوخة والمرض متخذًا منها منحة يمن بها عليهم، وهي أشياء كان الحزب يطالب بها للعمال بوصفها حقًا أصيلاً لهم. وكان اعتناقه مذهب الاشتراكية أمرا ملحوظًا، ولكنه لم يكسب مذهب التسلطية (Imperialism) أنصارا جددا. وشرع الحزب يشهر بأطماعه البحرية تشهيرا مريرا تجلت فيه الكفاية والاقتدار. وأخذ هذا الحزب القائم على الرجل العادي وما ركب فيه من سداد البصر بالأمور يهاجم مغامرات الرأسماليين الألمان المحدثين في بلاد المستعمرات مهاجمة متواصلة لا هوادة فيها. على أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي كان يولي الجيش مناصرة متوسطة، لأنهم مهما بلغ من كراهيتهم للأوتوقراطي المستبد الذي يتضخم في أرض الوطن، فلشد ما كانوا يكرهون ويرهبون غائلة الأوتوقراطية الروسية الهمجية (المتبررة) الرجعية الرابضة على حدودهم الشرقية.

وكان الخطر البارز أمام ناظري ألمانيا هو أن ترغم هذه الروح الاستعمارية المختالة، بريطانيا والروسيا وفرنسا على القيام ضدها بهجوم متحد مشترك عليها، أي انتهاج خطة هجومية دفاعية. وكان القيصر يتأرجح بين اتخاذ موقف الشدة حيال بريطانيا وبين محاولات سمجة لاسترضائها، على حين كان أسطوله ينمو وكان يدبر التدابير للاشتباك مع الروسيا وفرنسا. وعندما اقترحت الحكومة البريطانية في ١٩١٣ امتناع الجانبين عن إقامة المنشآت البحرية لمدة عام واحد، رفض الاقتراح.

ومن نكد طالع القيصر أن نكبته الأيام بولي عهد ووريث أشد تعصبا لآل هوهنزولرن، وللاستعمار والكتلة الألمانية من أبيه نفسه. تغذى بلبان الدعاية الاستعمارية. وكانت لعبه جنودا وبنادق ومدافع. فحاول أن يختطف قبل الأوان محبة شعبه بأن يبز أباه في اتخاذ مظاهر الوطنية والعدوان. وكان الناس يشعرون أن أباه قد دلف إلى الكهولة وإلى ما يرافقها من زيادة حذر واحتراس. فجدد ولي العهد شباب أبيه. ولم تكن ألمانيا بلغت قط من قبل مثل هذه الدرجة من القوة، ولا من الاستعداد لمغامرة جديدة كبيرة ولمحصول جديد من الانتصارات. وقد علم أن الروس في اضمحلال وأن الفرنسيين في فساد وانحلال وأن الإنجليز على شفير حرب أهلية.

ولم يكن هذا الولي العهد الشاب إلا نموذجا لشباب الطبقة العليا الألمانية الوثاب الوفير العدد في ربيع ١٩١٤. إذ كانوا بأجمعهم نهلوا من كأس واحدة. فكان أساتذتهم ومعلموهم وخطباؤهم وزعماؤهم وأمهاتهم وحبيباتهم، يعدونهم للمناسبة العظيمة التي كانت عند ذاك وشيكة في متناول الأيدي. وكان يملأ نفوسهم شعور فياض مختلج بالصراع الداني الوشيك، وبالنفير يدعوهم إلى القيام بأعمال جسام هوائل، وبالنصر على البشرية في الخارج، والفوز على العمال المعاندين في الداخل. وكانت البلاد متوترة تتفزز للحرب كما يتوثب متبار رياضي عند نهاية تدريبه.

٣- الروح الاستعمارية في بريطانيا وإرلندة

كانت ألمانيا طيلة فترة الهدنة المسلحة هي البادئ بكل شيء والقدرة المحتذاة في كل شيء في أوربـا بأجمعها. وكان تأثير مبادئها الجديدة الخاصة بالاستعمار العدواني قويا بوجه خاص في الذهن البريطاني [١]، الذي كان واهن القدرة على مقاومة أية طعنة ذهنية قوية توجه إليه من خارج بلاده. وكـان دافـع النـشاط التعليمي الذي بعثها إليه "الأمير الزوج" قد ذهب بوفاته؛ وحال بين جامعتي أوكسفورد وكمبردج وبين قيامهما بواجبهما في تنقيح تعليم الطبقة العليا تنقيحا فعالاً، ما قام في سبيلهما من ألوان المخاوف والتحيز التي ثارت بسبب ما يسمونه باسم "الكفاح بين العلم والدين" – في نفوس رجال الدين الـذين كـانوا يتـسلطون عليهمـا بوساطة المجامع الإكليروسية؛ وأدت الخصومات الدينية إلى تعجيز التعليم العام وخلّفته كسيحا هـزيلاً، وزاد حاله سوءا شدة تقتير السلطات العامة عليه في النفقات، ورغبة أصحاب الأعمال فـي اسـتخدام الأطفـال، واعتراض أصحاب مذهب الفردية على "تعليم أبناء الناس الآخرين".

وكانت تقاليد الإنجليز القديمة، وأعني بها تقاليد الصراحة في القول واحترام القـانون والرغبـة فـي العدالة، وقدر بعينه من الحرية الجمهورية، قد ذوت ذويا جسيما أثناء ويلات الكفاح ضد نـابليون. وكانـت الروح الرومانسية، التي كان بطلها الأكبر هو الروائي الكبير السير والتر سكوت، قد دست في الخيال القومي عدوى التلهف على الزاهي البراق والجميل الرائع. وكان المستر بريجز الشخصية الكوميدية الإنجليزية فـي مجلة بنش (Punch) في ١٨٥٠، ١٨٦٠ ممثلاً تمثيلاً لا بأس به لروح الحركة الجديدة باتخـاذه زي أهـل المرتفعات الاسكتلندية وترصده الغزلان.

وسرعان ما خطر ببال المستر بريجز شيء عده حقيقة مشرقة جديرة بالتصديق لم يلحظها من قبـل، هو أن الشمس لا تغرب عن ممتلكاته أبدا!!... فالقطار الذي قدم للمحاكمة كلايف ووارن هاستنجس لمعاملتهما الآثمة لأهل الهند قد اقتنع الآن تمام الاقتناع بأن يعدهما شخصين من أهل الفروسـية التامـة والإخـلاص المطلق. إذ إنهما من "بناة الإمبراطورية". وحدث بتأثير سحر خيال دزرائيلي الشرقي الذي جعل من الملكـة فكتوريا "إمبراطورة"، أن التفت الرجل الإنجليزي راضيا مسرورا نحو الأبهات الغامضة التي تنطوي عليها " الإمبريالية" العصرية.

وشرع كل من علم السلالات البشرية (الإثنولوجيا) [٢] المحرف والتاريخ المشوه اللذين كانـا بـصدد إقناع الخليط الألماني المكون من العناصر السلافية والكلتية والتيوتونية بأنها جنس مدهش قـائم بذاتـه، أن يكون مثلاً يحتذيه الكتاب الإنجليز الذين أنشئوا يفخمون اختراعا إثنولوجيا جديدا هو "الأنجلو ساكسون". وقدم هذا المزيج العجيب إلى العالم بوصفه الأوج الذي بلغته الإنسانية، والتاج والثواب الأوفى للجهود المتراكمـة

---

(1) يتحدث المؤلف عن قوة أثر ألمانيا وروحها الاستعمارية العدوانية في الذهن البريطاني، كأنما ذلك الذهن طفل ساذج غريـر ليس له تاريخ القرون الطويلة من المكيافلية الماكرة والاستعمار العدواني الأسود!!. (المترجم).

(2) الأثنولوجيا: علم السلالات البشرية وتفرعاتها. (المترجم).

التي بذلها الإغريق والرومان والمصريون والآشوريون واليهود والمغول وأمثالهم من السلف المنحط، المؤذن بفخامته البيضاء. وكان للأسطورة السخيفة الخاصة بالفوق الألماني أثر كبير في إيغار صدور البولنديين في بوزن والفرنسيين في اللورين، ولم يقتصر أمر الأسطورة الأشد مهزلة أسطورة تفوق الأنجلو ساكسون، على مجرد زيادة الحنق من الحكم الإنجليزي في إرلندة، بل حطت من روح المعاملات البريطانية مـع الـشعوب "المحكومة" في كل أرجاء العالم قاطبة. ذلك أن انقطاع حبل الاحترام والتوقف عن ازدراع الفكرات الرفيعـة ليس لهما إلا معنى واحد هو امتناع التأدب والعدالة.

ولم تقف محاكاة المفاهيم الألمانية الخاطئة في الوطنية عند حد هذه الخرافة "الأنجلو ساكسونية". فـإن النابهين من الشبان في الجامعات البريطانية إبان العقدين التاسع والعاشر عمدوا وقد برموا بما يتبـدى فـي السياسة الداخلية من تفاهة وقلة إخلاص، إلى تقليد ومنافسة هذه التعاليم الجديدة التي كـان ينـشرها خـصم استعماري قومي النزعة صلف، خبيث قوي وأعني به ذلك المزيج بين ميكيافللي وأتيلا الذي كـان يفـرض على فكر ومناشط ألمانيا الفتية. فقد رأى شباب بريطانيا أولئك أن بلادهم كذلك يجب أن تكون لها دروعهـا اللوامع وأن تلوح بحسامها البتار.

وقد وجد الاستعمار البريطاني الجديد شاعره في شخص المستر كبلنج ووجد تأييدا عمليا مـن جانـب عدد من أرباب المصالح المالية وأصحاب الأعمال الذين كان يضيء لهم نور الاستعمار طريـق الاحتكـار والاستغلال. وحمل هؤلاء الإنجليز من دعاة المطالبين بالصباغ البروسي محاكاتهم لألمانيا إلى أبعد الغايات. ولا مراء في أن أوربا الوسطى هي مجموعة اقتصادية واحدة متصلة الحلقات، تُشغل علـى أحـسن حـال بوصفها وحدة واحدة؛ وقد فازت ألمانيا الجديدة باتحاد جمركي عظيم الـشأن، وهـو إتحـاد زولفـراين [١] (Zollverein) يضم كل أعضاء أسرتها الألمانية. وطبيعي أن تصبح مجموعة متماسكة تماسك قبضة اليـد المقبوضة. على حين كانت الإمبراطورية البريطانية مفتحة الجنبات مثل يد مبسوطة في كل أجـزاء العـالم. وكان أعضاؤها مختلفين في الطبيعة والحاجات والعلاقات، لا تربطهم مصلحة مشتركة اللهـم إلا الـضمان المشترك للأمنة والدفاع. على أن الاستعماريين الجدد كانوا عن هذا الفارق في عماية وضلال. فلـئن كـان لألمانيا الجديدة اتحاد جمركي، فإن الإمبراطورية البريطانية يجب أن تجاري العصر والزي؛ ولا بد لهـا أن تعرقل في كل مكان التطور الطبيعي لعناصرها الأولى بواسطة "التفضيلات والتمييزات الإمبراطورية" ومـا إليها...

ومع هذا فإن الحركة الاستعمارية في بريطانيا العظمى لم تبلغ قط من السلطان والإجماع ما بلغته فـي ألمانيا. فإنها لم تكن نتاجا طبيعيا لأي من الشعوب البريطانية الثلاث المتحدة وإن تفارقت، فلم تكن مما يشكل طبائعهم [٢]. ولم تكن الملكة فكتوريا وخلفاؤها إدوارد السابع وجورج الخامس بميالين لا بحكم الجنس (بـين

---

[1] زولفراين: تطلق هذه الكلمة على الاتحاد الجمركي الذي تم بجهود بروسيا في سنة ١٨٣٤ متدرجا مـن إدمـاج اتحـادات جمركية صغرى بعضها ببعض إلى تكوين الاتحاد القومي الألماني. (المترجم).

[2] يشير الكاتب هنا إلى المؤلفين الأحرار الذين كتبوا في إنجلترة ضد الاستعمار مثل برناردشو وغيره. (المترجم).

ذكر وأنثى) ولا بحكم الشخصية والمظهر أو المزاج أو التقاليد، أن يرتدوا "دروعا لماعـة" ولا أن يلوحـوا "بقبضات من حديد" ولا أن يهزوا "سيوفًا بتارة" على طريقة آل هوهنزولرن. وكان لهم من الحكمة ما حملهم على الامتناع عن القيام بأي تدخل صريح في الفكرات العامة. كذلك أثـارت هـذه الحركـة الاسـتعمارية البريطانية منذ أول نشوئها عداوة العديد الكبير من الكتاب الإنجليز والإرلنديين والاسكتلنديين الذين أبـوا أن يعترفوا بهذه القومية البريطانية الجديدة أو أن يقبلوا النظرية القائلة بأنهم هم الأنجلو ساكون أصحاب مرتبـة السوبر مان هذه. وفضلاً عن ذلك كانت كثير من المصالح الكبيرة في بريطانيا، نخص بالذكر منها شـركات الملاحة، قد أقيمت على أساس التجارة الحرة، وكانت ترمـق المقترحـات الماليـة للاسـتعماريين الجـدد، والمغامرين الماليين والتجاريين الجدد الذين كانوا يرتبطون بهم، - بنظرة ارتياب لها ما يبررها.

على أن هاته الفكرات انتشرت انتشار النار في الهشيم في الطبقة العسكرية وهيئات الموظفين بالهنـد ومن إليها. وكان هناك حتى ذلك الحين جو من التماس المعاذير يحيط برجال الجيش في إنجلترة. فإنهم كانوا غرباء عن تلك الأرض. وها قد حانت الفرصة في تلك الحركة التي تجعلهم على درجة من الأهمية الفـاخرة تعادل ما لقرينهم حامل السلاح في بروسيا. كذلك وجدت فكرة الاستعمار مناصرة بـين صـفوف أصـحاب الصحف الشعبية الرخيصة التي أخذت عند ذاك في الظهور لكي تمون طبقة القراء الجديـدة التـي أوجـدها التعليم الأولى. وكانت بهذه الصحافة حاجة إلى فكرات صريحة زاهية بسيطة مكيفة وفقًا لحاجات القراء الذين لم يكادوا يشرعون في عملية التفكير بعد.

وبالرغم من هذه المناصرة ومن مواءمتها القوية للغرور القومي لـم يـستطع المـذهب الاسـتعماري البريطاني أبدا أن يتشرب الشعوب البريطانية بكامل كتلتها. فليس الإنجليز شعبا طيعا من الناحيـة العقليـة. وكان من أثر الحماسة الصاخبة التي تكاد تكون قسرية، تلك الحماسة للمذهب الاستعماري وسياسة التعريفات الجمركية المرتفعة التي ينتهجها حزب التوري [1] القديم، وطبقة العسكريين ورجـال الـدين فـي المنـاطق الريفية، وصالات الموسيقى والأجنبي المتجنس والثرى السوقي وأصحاب الأعمال الجدد الكبار، - أن مالت طبقات العامة البسطاء، وبوجه خاص الذين تنتظمهم الجماعات، إلى اتخاذ وضع التشكك والارتيـاب. فلـئن كانت القروح الأليمة التي مستنا من هزيمة ماجوبا دفعت البلاد إلى مواصلة القتال لفتح جمهوريتي البوير في جنوب إفريقيا، ذلك الفتح الفادح النفقة الشديد المتاعب الذي لم تكن لنا به حاجة، فلقد أنتج الإعياء مـن هـذه المغامرة ارتكاسا نحو الاعتدال والعدالة بلغ من قوته أن أعاد الحكم إلى يد حزب الأحرار، وأن أزال أسـوأ آثار الشر بإنشاء اتحاد جنوب أفريقيا الكنفدرالي.

واطرد التقدم الجسيم في التعليم الشعبي وفي استرداد المصالح العمومية والثروة العامة من قبضة القلة المالكة لها. كذلك حدث في سنوات الهدنة المسلحة تلك، أن أصبحت الشعوب البريطانية الثلاثة أقـرب مـا تكون من تسوية ما بينها، وبين إرلندة من سوء تفاهم طال أمده، تسوية تقوم على أسس عادلة معقولة نوعـا ما. ومن سوء طالعهم أن الحرب العظمى فاجأتهم وهم في غمرات أزمة هذا الجهد.

---

[1] حزب التوري القديم: هو حزب المحافظين في الزمن الحاضر. (المترجم).

وإرلندة شأن اليابان لم تبرز شخصيتها إلا قليلاً في هذه المعالم التاريخية، وذلك لسبب واحد يجمع بين البلدين، هو أن كلاً منهما أرض جزيرة متطرفة تتلقى الكثير ولا تعطي حتى يومذاك إلا الشيء القليل لحقـل الدراما البشرية العامة. وسكانها شعب مخلط جدا. فإن أساسه وربما مادته الكبرى أيضا، من نبعـة البحـر الأبيض الدكناء العيون والشعر، السابقة على النورديين والآريين على السواء، شأن شعب الباسـك وسـكان البرتغال وجنوب إيطاليا. وقد غمرت هذا الأساس الأصلي قرابة القرن الـسادس ق. م (بدرجـة لا نـدري مداها) موجة من الشعوب الكلتية، بلغت على أقل تقدير من القوة ما جعلها تُرسي في البلاد أسس لغة كلتيـة، هي اللغة "الإرلندية الجاليلية Irish. Gaelic". وحدثت غدوات وروحات، ثم غزوات تلتها غزوات أخـرى مضادة، قام بها هذا أو ذاك من الشعوب الكلتية والمصبوغة باللون الكلتي بـين إرلنـدة واسـكتلندة وويلـز وإنجلترة. ودخلت الجزيرة في الدين المسيحي إبان القرن الخامس. ثم حدث بعد ذلك أن أغار أهـل الـشمال على الساحل الشرقي واستوطنوه، على أننا لا ندري المدى الذي بلغوه في إحداث تغيير عنصري.

وجاء الإنجليز النورمان في ١١٦٩ في زمان الملك هنري الثاني وما تلاه. وربما كان العرق التيوتوني معادلاً للكلتى في القوة أو أقوى منه في إرلندة العصرية. وقد كانت إرلندة حتى ذلك الحين قطرا قبليا همجيـا ليس به إلا القليل من مواطن الأمنة التي وجدت فيها الميول الفنية للعنصر القديم مجالاً تبرز فيه نفسها فـي أشغال المعادن وتحلية الكتب المقدسة بالصور. وقد حدث في القرن الثاني عشر أن التاج البريطاني قام بفتح البلاد فتحا غير تام، وأنشأ الإنجليز والنورمان في نواح مختلفة من البلاد مستقرات متناثرة هنا وهناك. وكان جليا منذ البداية أن هناك فوارق عميقة في المزاج بين الإرلنديين والإنجليز، وهي فوارق زاد في شدة وطأتها الفوارق اللغوية، وأصبحت هذه الفوارق أشد وضوحا بعد الإصلاح الديني البروتستانتي. فـاعتنق الإنجليـز المذهب البروتستانتي، وتجمع الإرلنديون بحافز رد الفعل الطبيعي حول الكنيسة الكاثوليكية المضطهدة.

وكان الحكم الإنجليزي في إرلندة منذ البداية حربا أهلية متقطعة ترجع إلى ما بين الشعبين من الخلاف في اللغة وإلى الاختلاف في قوانين ملكية الأراضي والإرث. وما نحن بمستطيعين أن نحدثك في هذا المقـام عن الفتن والمذابح والقهر التي حدثت بالجزيرة التعسة إبان عهدي إليزابث وجيمس الأول. على أنه حدث في عهد جيمس خلاف جديد بسبب مصادرة مساحات عظيمة من مقاطعة آلستروسكني مستوطنين اسـكتلنديين من معتنقي المذهب البرزبتيري (Presbyterian). فكونوا بذلك مجتمعا بروتستانتيا يتنازع بحكم الـضرورة تنازعا مستديما مع سائر إرلندة الكاثوليكية.

ولما حدثت المنازعات السياسية في حكم شارل الأول والجمهورية وحكم جيمس الثاني ووليم وماري، كان الجانبان المتنازعان الإنجليزيان يجدان في الأحزاب الإرلندية من يعطف عليهما ومن يحالفهما. وهنـاك في إرلندة مثل سائر يقول إن مصائب إنجلترة فوائد عند إرلندة، كذلك كان الشقاق الأهلي الإنجليـزي الـذي أفضى إلى إعدام سترافورد، مناسبة أخرى لإعمال الذبح في الإنجليزي بإرلندة (١٦٤١). وحدث فيما بعد أن انتقم منهم كروميل على هذه المذبحة بأن نكل تنكيلاً شديدا بكل رجل وجده يحمل السلاح، وهي قـساوة لا تزال ذكراها الشديدة المرارة عالقة بأذهان الإرلنديين الكاثوليك. وعادت إرلندة فيمـا بـين سـنتي ١٦٨٩،

١٦٩١ فمزقتها الحرب الأهلية. فإن جيمس الثاني طلب عون الإرلنديين الكاثوليك على وليم الثالث، فهزم أنصاره هزيمة منكرة في معركة بوين (١٦٩٠) وأوغريم (١٦٩١).

ثم تمت بين الطرفين تسوية هي معاهدة ليمريك، وهي تسوية كانت بدورها مثار نزاع، وعدت فيها الحكومة الإنجليزية وعودا كثيرة في شأن التسامح مع الكاثوليك ومن إليهم، ولكنها لم تف بوعودها. وما برحت لمعاهدة ليمريك ذكرى مريرة في قصة الحزازات الإرلندية الطويلة الأمد. وليس بين الإنجليز من سمع قط باسم معاهدة ريك هذه إلا أقلية نسبية؛ فأما في إرلندة فإنها لا تني تُقرح النفوس إلى يومنا هذا.

وكان القرن الثامن عشر قرنًا تجمعت فيه المظالم والإحن. فإن أنانية الإنجليز في الشئون التجارية أدت إلى فرض قيود ثقيلة على التجارة الإرلندية، وقضت في الجنوب والغرب على تطور صناعة الصوف. وما كان أهالي آلستر البروتستانت يلقون معاملة أحسن مما كان يلقاه الكاثوليك، ومن ثم كانوا في مقدمة العصاة. وقامت في القرن الثامن عشر فتن على توزيع الأراضي كان شبوبها في الشمال أشد منه في الجنوب.

سنوجز لك فيما يلي بقدر ما يتيح لنا ضيق هذا المقام من الوضوح وجوه التشابه والتباين بين موقعي الإنجليز والإرلنديين في هذا الزمان. كان لإرلندة برلمان، ولكنه كان برلمانًا بروتستانتيا، تكوينه وسلطاته أضيق حدودا ورجاله أشد فسادا من البرلمان الإنجليزي المعاصر له. وقامت في دبلن وما حولها حضارة جسيمة، وقدر كبير من النشاط الأدبي والعلمي، يدور باللغة الإنجليزية ويتمركز في جامعة ترينتي (Trinity) كولدج البروتستانتية. تلك هي إرلندة التي أنتجت سويفت وجولد سميث وبيرك وبيركلي وبويل. وكانت في جوهرها شعبة من الثقافة الإنجليزية. ولم يكن فيها خصيصة إرلندية واحدة تميزها. ذلك أن الديانة الكاثوليكية واللغة الإرلندية كانت أشياء منبوذة مضطهدة مزوية في الظلمات في ذلك الزمان.

ومن إرلندة هذه التي تغشاها الظلمات نشأت إرلندة القرن العشرين المتكرهة المعاندة. وكان البرلمان الإرلندي وأدب إرلندة الرفيع وعلمها وثقافتها أمورا كان من الطبيعي أن تنجذب صوب لندن، لأنها كانت جزءا لا يتجزأ من العالم اللندني. وكان كبار أصحاب الأراضي يذهبون إلى إنجلترة للمقام بها ويعلمون أبناءهم في ربوعها. وكان معنى هذا هو استنزاف مستمر للثروة من إرلندة إلى إنجلترة في شكل إيجار الأراضي، الذي ينفق أو يستثمر خارج البلاد. وكان من أثر الزياد في سهولة المواصلات أن اطردت هذه الحركة ازديادا، وأن استنفضت ما في دبلن واستنزفت دماء إرلندة. وفي (أول يناير ١٨٠١) صدر "قانون توحيد البرلمانيين" فكان هو الائتلاف الطبيعي بين مجموعتين متقاربتين تقاربا تاما. أعني بين البرلمان الأنجلو إرلندي والبرلمان البريطاني، وكلاهما هيئة أوليجركية وكلاهما فاسد من الناحية السياسية فسادا متشاكلاً. وقامت ضد الاتحاد معارضة قوية لم تصدر من جانب الإرلنديين الكاثوليك بنفس القوة التي صدرت بها عن البروتستانت المستقرين في إرلندة، وحدث في ١٨٠٣ عصيان فاشل بقيادة روبرت إرمت. وبعد أن كانت دبلن مدينة أنجلو إرلندية رائعة في منتصف القرن الثامن عشر، غادرتها الحياة الذهنية والسياسية شيئًا فشيئًا، وغزاها إرلنديو إرلندة الأقحاح. وذوت منها الطبقة الراقية رويدا رويدا وحلت محلها حياة طبقة

الموظفين التي تتركز حول نائب الملك نزيل قلعة دبلن، وخفقت حياتها الفكرية خفقة ثم همدت ردحـا مـن الزمان وهي بين الحياة والموت.

ولكن على حين كانت إرلندة في عهد سويفت وجولد سمث جزءا لا يتجزأ من إنجلترة في زمن بـوب (Pope) والدكتور جونسون والسير جوشوا رينولدس، وعلى حين لم يكن هناك مطلقًا ولا يوجد حتى اليـوم أي فارق محدد اللهم إلا الفارق الجغرافي – بين الطبقتين الحاكمتين في كل من إنجلترة وإرلندة، فـإن عـالم العامة والدهماء الإرلندي وقرينه الإنجليزي كانا متباعدين في الجوهر أشد التباعد.

كان كفاح الديمقراطية الإنجليزية الشاخص نحو التعليم، والمتطلع إلى الاعتـراف بحقوقـه الـسياسية مخالفًا في كثير من الوجوه لكفاح الطبقات الدنيا الإرلندية. فإن بريطانيا كانت تنتج شعبا صناعيا عظيما مـن بروتستانت أو متشككين. حقًا إنه كان بها عمال زراعيون ولكن لم يكن بها فلاحون مـن صـغار المـلاك. وكانت إرلندة وهي بلاد خلو من الفحم ولها تربة أضعف وأصحاب أملاك يعيشون في إنجلترة، قد أصـبحت أرض فلاحين من صغار الملاك الذين يدفعون الإيجارات. وسمح المسئولون لزراعتها بأن تنحط انحطاطـًا مطردا حتى أصبحت قاصرة على زرع البطاطس وتربية الخنازير. وكان الناس يتزاوجون ويعقبون. ولـولا احتساء شيء من الويسكي لمن استطاع إليه سبيلا وقليل من العراك، فإن تسليتهم الوحيدة كانـت منحـصرة في...، وإليكم النتائج الرهيبة لتلك الحال، فإن عدد سكان إرلندة:

- في ١٧٨٥ كان ٢,٨٤٥,٩٣٢ نسمة
- في ١٨٠٣ بلغ ٥,٥٣٦,٥٩٤ نسمة
- وبلغ في ١٨٤٥ ٨,٢٩٥,٠٦١ نسمة

وحدث في تلك السنة أن البطاطس المسكين المكدود انهار تحت حمله الضخم المتزايد مـن الـسكان، فحدثت مجاعة رهيبة. فمات الكثيرون، وهاجر الكثيرون، انتقلوا إلى الولايات المتحدة بوجه خاص؛ وابتـدأ سيل من الهجرة جعل إرلندة ردحا من الزمان أرض شيوخ وبيوت خاوية.

وكان من نتائج توحيد البرلمانيين، أن الانتخابات كانت تجري عند الإنجليز والإرلنديين في وقت واحد. وكان معنى منح الكاثوليك حق الانتخاب في إنجلترة هو منحه للكاثوليك في إرلندة أيـضا. وكـان الإنجليـز يحصلون على الأصوات لأنهم كانوا يرغبون فيها. أما العامة الإرلنـديون فحـصلوا علـى الأصـوات لأن الإنجليز حصلوا عليها. وكان تمثيل إرلندة في برلمان الاتحاد أكثر مما يجب، لأن المقاعد الإرلنديـة كـان التصرف فيها أسهل – منذ البداءة – على الطبقة الحاكمة منه في الإنجليزية؛ وبذا حـدث أن إرلنـدة هـذه الإرلندية القحة والكاثوليكية التي لم يكن لها قبل ذلك أي جهاز سياسي مطلقًا، وجدت نفسها صاحبة القوة على قذف هيئة متراصة من الأعضاء في قلب الهيئة التشريعية لبريطانيا العظمى.

وبعد الانتخابات العامة في ١٨٧٤، سقط الأعضاء الإرلنديون المأجورون السابقون، ووقفت الديمقوقراطية الإنجليزية التي منحت عند ذاك حقوقها الوطنية حديثًا، وجها لوجه أمام ديموقراطية إرلندية عجيبة محيرة، مختلفة عنها في ديانتها وتقاليدها ومحاجاتها، متحدثة بقصة من المظالم لم يسمع بها عامة الإنجليز من قبل قط، صاخبة تطالب في حدة بانفصال لم يكن الإنجليز ليفهموا له معنى، ولكنه أشعرهم بوجه خاص أنه تصرف عدائي لا ضرورة له.

والأنانية القومية لدى الإرلنديين حادة شاحذة؛ لأن ظروفهم جعلتها كذلك؛ فلم يكن في مستطاعهم أن يقدروا حالة الأمور في إنجلترة؛ وجاء الحزب الإرلندي الجديد إلى البرلمان الإنجليزي وقد عقد النية على عرقلة مصالح الإنجليز وإفساد نظامهم إلى أن تفوز إرلندة بحريتها، وليجعلوا من أنفسهم شجى في حلوق الإنجليز. وما كان هذا الروح إلا موضع الترحاب الشديد من الأوليجركية التي كانت لا تزال تحكم الإمبراطورية البريطانية؛ فتحالفوا مع بروتستانت الشمال الموالين – أعني الموالين للحكومة الإمبراطورية بسبب خوفهم من تسلط الكاثوليك الإرلنديين عليهم في في إرلندة – كذلك أخذوا يراقبون عن كثب ويزيدون في إذكاء نار التسخط الذي حل بالعامة الإنجليز على التدريج بسبب هذه العداوة العمياء التي يبديها عموم سكانه إرلندة.

وقصة العلاقة بين إرلندة وإنجلترة في نصف القرن الأخير من القصص التي تكسو الطبقة الحاكمة للإمبراطورية البريطانية أقصى غاية الخزي، ولكنها ليست شيئًا يحتاج عامة الإنجليز أن يخجلوا منه. فإنهم أبدوا مرارا وتكرارا أعظم الشواهد على حسن النية. والتشريع الإنجليزي بالعلاقة إلى إرلندة طيلة نصف قرن تقريبا، يكشف لنا عن سلسلة من محاولات سمجة بذلها الأحرار رغبة في القضاء على أسباب شكوى الإرلنديين وإقامة العلاقة بين القطرين على قدم الزمالة والأخوة، ولكن كانت تقوم في وجه تلك المحاولات معارضة قوية من جانب حزب المحافظين وسكان آلستر الإرلنديين. ويبرز اسم بارنل وهو إرلندي بروتستانتي بوصفه الزعيم الأكبر لحركة الحكم الذاتي (Home Rule). وفي ١٨٦٦ جلب جلادستون، رئيس وزراء الأحرار العظيم، كارثة سياسية على نفسه بتقديمه إلى البرلمان أول مشروع قانون للحكم الذاتي الإرلندي، وهي محاولة صادقة من جانبه لتسليم شئون إرلندة لأول مرة في التاريخ إلى أيدي الشعب الإرلندي. وانصدع حزب الأحرار شطرين بسبب مشروع هذا القانون، وقامت حكومة ائتلافية، هي حكومة الاتحاديين، فحلت محل حكومة المستر جلادستون.

واستطرادنا هذا إلى تاريخ إرلندة يبلغ بنا الآن إلى زمان تفشي عدوى المذهب الاستعماري في أوربا. فإن حكومة الاتحاديين التي خلفت المستر جلادستون كان يسودها عنصر المحافظين. وكانت "الاستعمارية" الروح بصورة لم تكن لأية حكومة بريطانية سابقة قط. والتاريخ السياسي البريطاني فيما عقب ذلك من سنوات هو في جل أمره تاريخ للصراع بين المذهب الاستعماري الجديد، الذي حاولت بواسطته نزعة قومية بريطانية صلفة أن تطأ بأقدامها بقية الإمبراطورية وبين ما ركب عليه المزاج الإنجليزي الميال بطبعه إلى

التحررية والتعقل، ذلك المزاج الذي كان ينزع إلى التطور بالإمبراطورية إلى اتحاد احتلافي (كنفدرالي) مكون من أحرار راضين راغبين.

ومن الطبيعي أن أصحاب المذهب الاستعماري البريطانيين كانوا يريدون الشعب الإرلندي خاضعا مقهورا؛ ومن الطبيعي أيضا أن الأحرار الإنجليز كانوا يرغبون في شعب إرلندي حر مشارك لهم في العمل. وفي ١٨٩٢ كافح جلادستون حتى عادت إليه مقاليد الحكم بأغلبية صغيرة تدين بالحكم الذاتي؛ وفي ١٨٩٣ مر مشروع قانونه الثاني للحكم الذاتي في مجلس العموم، ولكن مجلس اللوردة رفضه ومع هذا فلم تتحول الحكم حكومة استعمارية (إمبريالية) إلا في ١٨٩٥. ولم يكن الحزب الذي تستند إليه الحكومة ينعت بصفة الاستعمار والاستعماريين بل يسمى حزب "الاتحاديين"، وهو اسم غريب عن مسماه إذا راعينا الجهود الجهيدة التي واصلوا بذلها لتحطيم كل احتمال يبشر بقيام دولة حكم شعبي متحرر [1] تضم أجزاء الإمبراطورية. وظل السلطان في يد هؤلاء الاستعماريين عشر سنوات. وقد سبق أن أشرنا إلى غزوهم لجنوب إفريقيا. وقد خذلوا في ١٩٠٥ في محاولة قاموا بها لإنشاء حاجز من التعريفة الجمركية عن الطراز اليتوتوني. وعند ذلك حولت حكومة الأحرار التالية الهولنديين المقهورين في جنوب إفريقيا إلى رعايا زملاء راضين قريري الأعين بإنشاء دومنيون جنوب إفريقيا الذي يحكم نفسه بنفسه. ثم دخلت في أعقاب ذلك في غمرات نزاع طالما تهددها شره، هو النزاع مع مجلس اللوردة المصر دائما على مبادئه الاستعمارية.

وكان هذا كفاحا جوهريا جدا في الشئون البريطانية. وإنك لتجد في ناحية أغلبية أهالي بريطانيا العظمى التحرريين وهم حريصون حرص الحكيم الشريف على أن يضعوا هذه المسألة الإرلندية على أساس جديد يبشر بالأمل، وأن يحيلوا إن استطاعوا عداوة الإرلنديين إلى مودة؛ وتجد في الجانب الآخر كل عوامل هذا الاستعمار البريطاني الجديد وقد صممت أن تعمل بأي ثمن وبالرغم من كل نتائج الانتخابات – وبطريقة قانونية إذا أمكن، فإن تعذر فبطريقة غير قانونية – على أن تحتفظ بتسلطها على شئون الإنجليز والاسكتلنديين والإرلنديين وسائر أجزاء الإمبراطورية على السواء.

والحق إن هذا الصراع هو الكفاح الداخلي الدائر في المجتمع البريطاني منذ أقدم العصور؛ وهو نفس النزاع الذي سبق أن عالجناه في حديثنا عن تحرير أمريكا، النزاع الدائر بين العامة الأحرار ذوي الروح التحررية وبين الأقوياء من الزعماء والمغامرين الكبار والأشخاص المستبدين. وكانت إرلندة كما كانت أمريكا من قبل محض مسرح للقتال. ومن عجب أن الطبقة الحاكمة ومن يرتبط بها من مغامرين كانت في الهند وإرلندة وإنجلترة تدين بمبدأ واحد. ولكن الشعب الإرلندي لم يكن له بفضل فوارقه الدينية، أي إحساس بالتماسك مع الإنجليز. ومع هذا فإن من بين الزعماء الإرلنديين أمثال ردموند، زعيم الحزب الإرلندي في مجلس العموم، من تسامى عن هذه القومية الضيقة ردحا من الزمان، وأظهر من جانبه استجابة كريمة لنوايا الإنجليز الطيبة.

[1] دولة الحكم الشعبي المتحرر هي ما يعبر عنه بالإنجليزية باسم Common Weal. (المترجم).

وأخذت العقبة المتمثلة في شخص مجلس اللوردة تتحطم تحطما وئيدا أكيدا، وتقدم المستر أسكويث رئيس الوزارة في ١٩١٢ بمشروع قانون ثالث للحكم الذاتي الإرلندي. وظل هذا القانون طوال ١٩١٣ والقسم الأول من سنة ١٩١٤ يلقى هجمات وحملات متكررة توجه عليه عن طريق البرلمان. وكان المشروع بادئ الرأي يمنح الحكم الذاتي لأرلندة بأكملها. ولكن سرعان ما أعلنت الحكومة وعدا بإصدار قانون يعدل القانون الأول ويستبعد آلستر بشروط خاصة. ودام هذا الكفاح في طريقه حتى شبوب نار الحرب الكبرى. وصدق الملك على القانون بعد ابتداء الحرب فعلاً، كما صدق أيضا على قانون يوقف تنفيذ الحكم الذاتي الإرلندي حتى تنتهي الحرب. وأضيفت هذه القوانين إلى سجل قوانين الدولة.

على أن المعارضة لقانون الحكم الذاتي الثالث اتخذت منذ تقديمه شكلاً عنيفًا شديد التطرف. فإن السير إدوارد كارسون وهو محام في دبلن أصبح من رجال المحاماة الإنجليز، وتولى منصبا قضائيا في وزارة المستر جلادستون (قبل تصدعها بسبب الحكم الذاتي، وكان في الحكومة الاستعمارية التالية، هو المنظم والزعيم لهذه الحركة الرامية إلى مقاومة الصلح بين الشعبين. ثم شرع بالرغم من أصله الدبليني يتزعم أهالي آلستر البروتستانت؛ وأدخل في معمعان النزاع ذلك الاحتقار للقانون الذي هو مميز خاص عادي جدا لكل محام ناجح في عمله، كما أنزل في الميدان تلك العداوة اللجوج المطلقة بلا قيود والصلبة بلا هوادة التي كان يمتاز بها طراز معين من الإرلنديين. كان أبعد الناس عن الإنجليز إذ كان أدكن العينين والشعر، رومانسي النزعات عنيفًا؛ وكان منذ مبتدأ الكفاح، يتكلم في جذل عن المقاومة المسلحة لهذا الاتحاد الحر بين الإنجليز والإرلنديين الذي كان يبشر به مشروع الحكم الذاتي الثالث.

وتألفت في آلستر ١٩١١ جماعة من المتطوعة، وأخذت الأسلحة تهرب إلى داخل البلاد. وشرع السير إدوارد كارسون ومعه محام ناشئ اسمه ف. و. سمث يجوبان آلستر في زي شبه عسكري، ليفتشا على هؤلاء المتطوعة ويذكيا نار العداوة المحلية. وكان هؤلاء العصاة المنتظرون أول إشارة للثورة، يحصلون على السلاح من ألمانيا، ولطالما لمحت أقوال متنوعة صدرت من خطباء السير إدوارد كارسون إلى مناصرة "ملك بروتستانتي عظيم لهم". وعلى النقيض من آلستر، كان سائر إرلندة في ذلك الزمان أرض نظام واتزان، تعتمد على زعيمها العظيم ردموند وعلى حسن نية الشعوب البريطانية الثلاثة.

ولم تكن هذه التهديدات المنذرة بالحرب الأهلية في إرلندة شيئًا استثنائيا ولا مستغربا في تاريخ هذه الجزيرة التاعسة وسجلاتها؛ ولكن الشيء الذي يجعلها ذات قيمة ودلالة في تاريخ العالم في ذلك الزمان هو ذلك التعضيد العنيف الذي لقيته بين الطبقات الحاكمة والعسكرية في إنجلترة، وتمتع السير إدوارد كارسون وأتباعه بالحصانة من كل عقوبة أو تقيد.

ذلك أن جرثومة الفساد الذي ترتب على ما أصابه الاستعمار الألماني من فخامة ونجاح قد انتشرت عدواها انتشارا عظيما، بين كل الطبقات القوية الغنية في بريطانيا العظمى كما سبق أن أوضحنا لك. ونشأ جيل تناسى تقاليد أجداده العظيمة، وتهيأ للتخلي عن عظمة العدالة والحرية الإنجليزية مقابل أشد أنواع الاستعمار زيفًا وبهرجة سخيفة. واكتتب الناس في بريطانيا وبخاصة إنجلترة بتبرعات مالية قدرها مليون

جنيه لمعاونة ثورة آلستر، وتكونت لآلستر حكومة مؤقتة، ونزل إلى الحومة رجال مبرزون مـن الإنجليـز وأخذوا يجوبون بسياراتهم أرجاء آلستر، وهم يعاونون في تهريب البنادق، وهناك من الشواهد ما يدل على أن فريقًا من الضباط والقواد البريطانيين كانوا على استعداد للقيام بأعمال أشبه بأساليب أمريكا الجنوبيـة منهـا بالطاعة للقانون.

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الخروج على النظام المتفشي في الطبقات العليا أن عم الانزعاج الجـزء الرئيسي من إرلندة، التي لم تقبل يوما ما على صداقة إنجلترة؛ وإن شرعت إرلندة بدورها أيضا في تنظـيم المتطوعين الوطنيين وتهريب السلاح وأظهرت السلطات العسكرية اهتماما بقمع الوطنيين أشد مما أظهـرت في قمع استيراد السلاح لأهالي آلستر، وفي يوليو ١٩١٤ أفضت إحدى المحاولات لتهريب السلاح في هاوث بالقرب من دبلن إلى شبوب القتال وإراقة الدماء في شوارع دبلن. وبذا أصبحت الجزر البريطانية على شفير الحرب الأهلية.

تلك هي خلاصة موجزة لقصة حركة الاستعماريين الثورية في بريطانيا العظمى حتى ليلـة الحـرب الكبرى. ذلك أن حركة السير إدوارد كارسون وأشياعه هذه كانت ثورية لا جرم. إذ إنهـا كانـت محاولـة صريحة لدفع الحكومة البرلمانية جانبا وإزالة ما نالته الشعوب البريطانية من حريات ناقصة نمت في بـطء ومهل، والقيام بمساعدة الجيش بإحلال طراز من الحكم أقرب إلى البروسي، مع استعمال النـزاع الإرلنـدي نقطة ارتحال تبدأ منها الحركة أعمالها. وكانت تلك حركة رجعية قام بها عشرات قلائل مـن آلاف الرجـال لإيقاف حركة العالم المتجهة صوب القانون الديموقراطي والعدالة الاجتماعية، وهي أشد ما تكـون مـشابهة وأوثق ما تكون عطفًا على الحركة الاستعمارية الجديدة التي قام بها الأشراف والأغنياء الألمـان. علـى أن الاستعمارين البريطاني والألماني كانا يتفارقان من وجهة واحدة هامة جدا. فإنه كان يتركز في ألمانيا حـول التاج؛ وكان أشد أنصاره ضجيجا وبروزا هو ولي العهد. على حين أن الملك في بريطانيا العظمـى وقـف موقف المتباعد فلم يحدث أن أبدى الملك جورج الخامس بأي عمل علني أدنى موافقة على الحركة الجديـدة؛ كما أن سلوك ولي العهد البرنس أوف ويلز ابنه ووريثه يعدل سلوكه سلامة واستقامة.

وفي أغسطس ١٩١٤ هبت على العالم عاصفة الحرب الكبرى. وفـي سـبتمبر كـان الـسير إدوارد كارسون يطعن في وضع قانون الحكم الذاتي الثالث في سجل القوانين. فأوقف العمل به حتى ينتهي الحرب. وفي نفس اليوم كان المستر جون ردموند زعيم الأغلبية الإرلندية والممثل الحقيقي لإرلندة يهيـب بالـشعب الإرلندي بأن يتحمل نصيبه الأوفى من عبء الحرب ومجهودها. واستمرت إرلندة ردحا من الزمـان تقـوم بدورها في الحرب إلى جوار إنجلترة بإخلاص واهتمام، حتى حلت في ١٩١٥ وزارة ائتلاف محل حكومـة الأحرار، فدخل الوزارة هذا السير إدوارد كارسون بسبب ضعف أخلاق المستر أسكويث، وشـغل منـصب النائب العام (بمرتب قدره ٧٠٠٠ جنيه تضاف إليها الأتعاب)، على أنه استبدل به للوقت السير ف. إ. سميث زميله في التغرير بآلستر.

وهي إهانة لم يصب بأبلغ منها شعب صديق، وكانت نتيجة ذلك أن العمل على الصلح والتراضي الذي ابتدأه جلادستون في ١٨٨٦، وأوشك أن يبلغ غايته في ١٩١٤، تحطم الآن تحطما نهائيا تاما. ففي ربيع ١٩١٦ قامت في دبلن ثورة فاشلة ضد هذه الوزارة الجديدة. وأعدم رميا بالرصاص جميع زعماء هذا العصيان وكان الكثيرون منهم مجرد غلمان، ونفذ الحكم بقساوة سمجة متعمدة، كان من أثرها وبالنظر إلى المعاملة المتهاونة التي لقيتها الثورة في آلسير، أن شعر الناس في إرلندة بأجمعها بأنها ظالمة ظلما فظيعا بالغًا. وحدث أن أحد الجونة وهو السير روجر كاسمنت وكان قد نال لقب فارس لسابق خدماته للإمبراطورية حوكم وأعدم بحق وعدل، ولكن المدعي العام كان هو السير ف. إ. سميث أخو العصيان في آلستر – وكان اجتماع هذين الشخصين مدعاة للغضب والانزعاج.

والواقع أن تمرد دبلن لم يلق الشيء الكثير من التعضيد من إرلندة بعامة، ولكن الذي حدث أن حركة المطالبة بجمهورية مستقلة نمت من بعده نموا هائلاً. وكان ينافح ضد هذا الاندفاع العاطفي القوي أصحاب الفكرات المعتدلة بين رجال السياسة الإرلنديين من أمثال السير هوراس بلانكتّ، الذي كان يتمنى أن يرى إرلندة وقد أصبحت دومنيونا؛ أي "جمهورية متوجة" داخل الإمبراطورية، تعيش على قدم المساواة مع كندا وأستراليا.

٤- النزعات الاستعمارية في فرنسا وإيطاليا والبلقان

تبرز لنا دراستنا للنزعات الاستعمارية العصرية في ألمانيا وبريطانيا قوى بأعيانهـا مـشتركة بـين البلادين، وسوف نجد تلك القوى نفسها وهي تعمل على درجات مختلفة ومع تعديلات متنوعـة فـي حالـة المجتمعات العظيمة العصرية الأخرى التي سوف ننظر الآن في شأنها. وليس هـذا الاسـتعمار العـصري بحركة توليفية ترمي إلى توحيد العالم شأن النظم الاستعمارية القديمة؛ بل هو فـي الجـوهر "روح قوميـة تنطوي على جنون العظمة"، وهي قومية أحالها الثراء عدوانية؛ وإنها لتلقى على الدوام أقوى عضد لها بـين طوائف الموظفين والجيش، كما تجده من طبقة المجتمع المقدامة صاحبة المشروعات والميالة إلى الاحتيـاز، أي في أصحاب الثراء الحديث والأشغال الكبيرة؛ وتجد أشد نقادها بين جماهير المتعلمين الفقـراء وأعظـم خصومها بين الفلاحين والعمال. وهي تقبل الملكية حيث تجدها، وإن لم تكن بالضرورة حركة ملكية. ومهما يكن من شيء فإن بها حاجة إلى وزارة خارجية من الطراز التقليدي لكي تهيئ لها أسباب تطورهـا كاملـة. ويبين تلك الحقيقة بأتم وضوح مصدرها الذي تأثرناه بغاية العناية في كتابنا هذا المؤرخ لجنسنا. والاستعمار العصري إنما هو التطور الطبيعي لنظام الدول الكبرى الذي نشأ مع منهاج وزارة الخارجية فـي الـسياسية، ناجما عن الملوك الميكيافلليين بعد تحطم عالم المسيحية. ولن ينهى أمره إلا عندما تحل جمعية اتحادية محـل ما بين الأمم والشعوب من علاقات قوامها السفارات ووزارات الخارجية.

وكانت الإمبريالية (الاستعمار) الفرنسية أثناء مدة "الهدنة المسلحة" في أوربا يتجلى فيها بطبيعة الحـال قدر من الثقة والاطمئنان أقل مما لدى الألمان. وكانت تسمي نفسها "بالقومية" لا بالإمبريالية، فنصبت نفـسها باللجوء إلى الكبرياء الوطني لإحباط جهود أولئك الاشتراكيين والعقليين [1] الذين كانوا يحاولون أن يتـصلوا بالعناصر الرسمية في الحياة الألمانية. وكانت لا تني عن التفكير في "الانتقام Revanche" أي في الجولـة التالية التي ترد بها الكيل لبروسيا. ولكنها بالرغم من انشغال بالها بهذا الخاطر نصبت نفسها لمغامرات الضم والاستغلال في الشرق الأقصى وفي إفريقيا، حيث نجت بأعجوبة من الحرب مع بريطانيا في الخلاف علـى فاشودة (١٨٩٨)، كذلك لم تتخل قط عن أحلامها في امتلاك سوريا.

وأصيبت إيطاليا كذلك بحمى الاستعمار. على أن النزف الذي أصيبت به في عدوة هدأ مـن ثائرتهـا بعض الزمان، ثم عادت إليها السورة في ١٩١١ بحرب أشبتها على تركيا انتهت باستلحاق طرابلس. وكـان الاستعماريون الإيطاليون يحضون أبناء وطنهم على نسيان مازيني والتعلق بذكرى يوليوس قيصر؛ أليـسوا ورثة الإمبراطورية الرومانية؟ ومست يد الإمبريالية بلاد البلقان؛ فإن دولاً صغارا لا تبعد عن الاستعباد أكثر من مائة عام أخذت تتبدى فيها بوادر الهمم الشماء والمقاصد العالية!! فإن فرديناند ملك بلغاريا اتخـذ لقـب قيصر، فكان بذلك آخر قيصر زائف، وفي أثينا كان الطالب الطلعة يستطيع أن يدرس في نوافـذ الـدكاكين خرائط تبين الحلم بإمبراطورية يونانية ضخمة في أوربا وآسيا.

---

[1] العقليون (Nationalists): الذين يذهبون إلى أن العقل هو مصدر المعرفة الثابتة المؤكدة (المترجم).

وفي ١٩١٢ انقضت دويلات سربيا وبلغاريا واليونان على تركيا، وكانت واهنة القوى من قبل بـسبب حربها مع إيطاليا، وطردتها من كل ممتلكاتها الأوربية فيما عدا الأراضي بين أدرنة والقـسطنطينية؛ وفـي السنة التالية دب الخلاف فيما بينهم على تقسيم الغنائم. وانضمت رومانيا إلى اللعبة وساعدت علـى سـحق بلغاريا. واستردت تركيا أدرنة. وفي تلك الأثناء كان الاستعمار الأكبر استعمار النمسا والروسـيا وإيطاليـا يرقب هذا النزاع ويرقب بعضه بعضا في الوقت عينه..

٥- الروسيا تصبح دولة ملكية عظمى

بينما كان العالم بأجمعه إلى الغرب من الروسيا يتغير تغيرا سريعا، ظلت تلك الدولة تتغير طوال القرن التاسع عشر تغيرا بطيئًا جدا ولا جرم. فإنها كانت في نهاية القرن التاسع عشر، كما كانت عند بدايته لا تزال ملكية عظمى ذات طراز يرجع إلى النصف الثاني من القرن السابع عشر، تقوم على أسس همجية، ولم تبرح قابعة بالمرحلة التي تستطيع فيها دسائس البلاط والمقربون إلى القيصر أن يتصرفوا في علاقاتها الدولية. وكانت مدت سكة حديدية عظيمة عبر سيبريا، فلقيت في نهايتها كوارث الحرب اليابانية؛ وكانت تستعمل الأساليب العصرية والأسلحة العصرية بالقدر الذي تسمح لها به صناعاتها غير المتطورة وما لديها من عدد قليل من المتعلمين تعليما كافيا؛ وقد استحدث لها كتاب من أمثال دوستويفسكي ضربا من المذهب الاستعماري التصوفي يقوم على فكرة الروسيا المقدسة ورسالتها، ويصطبغ بألوان الخداع العنصري والمناهضة للسامية [١]؛ ولكن هذا المذهب، كما ستبدي لك الحوادث لم يتغلغل كثيرا إلى سويداء خيال الجماهير الروسية.

وكانت تسود حياة الفلاحين الأميين مسيحية مبهمة بسيطة جدا، يخالطها شيء كثير من الخرافات. وكانت حياتهم شبيهة بحياة فلاحي فرنسا وألمانيا قبل الإصلاح الديني. وكان مفروضا أن الموجيك (Moujik) أعني الفلاح الروسي يعبد قيصره ويوقره وأنه يحب أن يخدم أحد السادة السراة؛ وكان الرجعيون من الكتاب الإنجليز ما يزالون في ١٩١٣ يثنون على ولائه البسيط غير المتردد ولا المتشكك. ولكن كان يخالط هذا التوقير للملكية فكرة تقول بأن المليك أو النبيل لا بد له من أن يكون طيبا نافعا شأن ما حدث في حالة الفلاح الأوربي الغربي في أيام ثورات الفلاحين؛ وكان من الميسور أن ينقلب هذا الولاء البسيط – إن تهيأ له القدر الكافي من الاستفزاز إلى نفس التعصب القاسي ضد انعدام العدالة الاجتماعية، ذلك التعصب الذي أدى إلى إحراق القصور أثناء فتنة الفلاحين [٢]، وأقام الدولة الدينية في مونستر [٣]. وقد حدث مرة أن دب الغضب في العامة، ولم يكن هناك روابط للتفاهم تتمثل في تعليم واسع الانتشار في الروسيا حتى تخفف من حدة الانفجار. وكانت الطبقات العليا تبعد عن مناط عطف الطبقات الدنيا بعدها عن أي جنس آخر من الحيوان. وكانت هذه الجماهير الروسية متخلفة ثلاثة قرون عن تلك النزعات القومية التسلطية التي كانت تبديها ألمانيا.

كذلك اختلفت الروسيا من وجهة أخرى عن أوربا الغربية العصرية، وما ثلت حالة أوربا في القرون الوسطى، وذلك أن جامعاتها كانت مثابة لكثير من الطلبة الفقراء المدقعين الذين لم تكن تربطهم بالحكومة البيروقراطية [٤] الاستبدادية أية صلة ولا تعاطف. وقبل ١٩٨٧ لم يحس الفكر الأوربي بالدلائل المؤذنة

---

[1] مناهضة السامية (Anti – Semitism) مصطلح سياسي يطلق على كراهية اليهود أو كراهية انتشار نفوذهم. (المترجم)

[2] فتنة الفلاحين أو الجاكري (Jacquerie): هي ثورة الفلاحين بفرنسا في سنة ١٣٥٨. (المترجم).

[3] الدولة الدينية بمونستر. انظر المعالم (ج ٣ ط ١) ص ٧٨٧، أي ص ٩٧٥ من الطبعة الثانية. (المترجم).

[4] البيروقراطية: هي الحكومة المعتمدة على الموظفين (المترجم).

باقتراب عاملي الثورات الأصليين هذين – وأعني بهما وقود التذمر وثقاب الفكرات الحرة، وقل من النـاس من كان يدرك أنه كانت توجد في الروسيا أكثر منها في أية بلاد أخرى احتمالات نشوب ثورة جوهرية.

٦- الولايات المتحدة والفكرة الاستعمارية

إذا انصرفنا عن هذه الدول الكبرى الأوربية بما لها من إرث هو وزارات الخارجية والسياسات القومية، والتفتنا إلى الولايات المتحدة الأمريكية التي انفصلت انفصالاً تاما عن نظام الدول الكبرى في ١٧٧٦، لوجدنا حالة مناقضة على أعظم درجة من الإمتاع تتجلى في عمل القوى التي تمخضت عن نزعات التوسع الاستعماري في أوربا.

فقد جلبت الثورة الميكانيكية على أمريكا كما جلبت على أوربا، قربا أصبح معه العالم بأجمعه قيد رحلة لا تتجاوز بضعة أيام. وكانت للولايات المتحدة شأن الدول العظمى مصالح مالية وتجارية تغشى العالم بأجمعه؛ ونشأت في البلاد حركة صناعية كبرى تضخمت وأمست بحاجة إلى أسواق خارجية وراء البحار؛ وحدثت في العالم الأمريكي نفس الأزمة التي ألمت بالمعتقدات والتي جلجلت أركان التماسك المعنوي الأوربي. وكان شعبها عالي الوطنية وثاب الروح كأي شعب آخر. فلم لم تطور الولايات المتحدة إذن الجيوش المسلحة والسياسة العدوانية؟ ولماذا لا ترفرف النجوم والشقق [1] فوق بلاد المكسيك؟ ولم لم تقم في بلاد الصين تحت تلك الراية شبه قارة هندية أخرى؟

وكان للأمريكي فضل فتح مغاليق اليابان. حتى إذا تم له ذلك ترك هذه الدولة تُسبغ على نفسها اللون الأوربي وتصبح قوية جبارة دون أن يصدر منه أي احتجاج على ذلك. وكان هذا وحده كافيا لجعل ميكيافللي أبي السياسة الخارجية العصرية يتقلب في رمسه.

فلو أن دولة كبرى مصطبغة بالصباغ الأوربي كانت في مكان الولايات المتحدة، لاضطرت بريطانيا العظمى إلى تحصين الحدود الكندية من أقصاها إلى أقصاها – وهي الآن خالية من السلاح خلوا تاما – ولاضطرت إلى الاحتفاظ بترسانة أسلحة عظيمة على نهر السانت لورنس. ولكانت دول أمريكا الوسطى والجنوبية المنقسمة على نفسها غيلت وأخضعت من زمن بعيد ووضعت تحت الرقابة النظامية لموظفي الولايات المتحدة من "طبقة الحكام". ولكانت تقوم حملة مستمرة تستهدف ضم أستراليا ونيوزيلندا إلى أمريكا، هذا إلى مدع جديد بنصيب في إفريقيا المدارية الاستوائية.

وقد حدث طوعا لصدفة عجيبة أن أنتجت الولايات المتحدة في شخص الرئيس روزفلت (الذي تولى الرياسة من ١٩٠١ – ١٩٠٨) رجلاً ذا همة تعادل في عدم استقرارها حال القيصر الألماني، كما يعدله في التشوق إلى جلائل الأمور وفي الفصاحة وذلاقة اللسان، فهو رجل مغامر فيه انحياز إلى ناحية السياسة العالمية، وفيه غريزة تدعوه إلى التسلح والجيوش المسلحة، وهو الرجل عينه الذي نستطيع أن نتصور منه أن يقحم بلاده في التخاطف على الممتلكات وراء البحار.

---

[1] النجوم والشقق: في هذا إشارة إلى علم الولايات المتحدة المكون من نجوم بيضاء ومن شقق أفقية من القماش ذي اللونين الأبيض والسماوي. (المترجم).

وليس يبدو أن هناك أي تفسير آخر لذلك التحرم والامتناع العامين من ناحيـة الولايـات المتحـدة إلا نظمهم وتقاليدهم واختلافها عما لدينا من نظم وتقاليد. ففي المقام الأول: ليس لدى الولايـات المتحـدة وزارة خارجية وهيئة دبلوماسية على الطراز الأوربي، ولا مجموعة من "الخبراء" مهمتهما الاحتفاظ بتقاليد سياسة عدوانية. وللرئيس سلطات واسعة، ولكن توقفها عند حدها سلطات مجلس الشيوخ الذي ينتخبه الشعب انتخابا مباشرا. فلا بد لكل معاهدة تعقد مع دولة أجنبية من أن تنال أولاً موافقة مجلس الشيوخ. ومن ثم فإن العلاقات الخارجية للبلاد تحت رقابة صريحة علنية عامة. فالمعاهدات السرية مستحيلة إذن تحت مثل هـذا النظـام، وتشكو الدول الأجنبية من صعوبة التفاهم مع الولايات المتحدة...، وعلى هذا فإن الولايات المتحـدة مغلولـة الأيدي من الناحية الدستورية، عن القيام بنوع السياسة الخارجية التي جعلت أوربا طيلة زمان مديـد علـى شفير الحرب باستمرار.

ومن الناحية الثانية: لم يوجد في الولايات المتحدة حتى الآن أية منظمة تدير شئون ما قد يسميه الناس باسم "الممتلكات غير القابلة للتمثل" ولا أية تقاليد لمعالجة مثل هاته الممتلكات. وفضلاً عن ذلـك فحيـث لا يوجد تاج لا يمكن أن توجد مستعمرات للتاج [1]. وكانت الولايات المتحدة إبان امتداد رقعتها عبـر القـارة الأمريكية قد طورت أسلوبا مميزا لها تماما في معالجة شئون الأراضي الجديدة، وهو مكيـف تكيفًـا بـديعا للأراضي غير المسكونة، ولكنه غير ملائم تماما إذا هو طبق بملء الحرية على مناطق تحوي من قبل سكانًا أجانب. وكان هذا الأسلوب يقوم على فكرة أنه لا يمكن أن يوجد في مجموعة الولايات المتحدة شعب تـابع تبعية أبدية.

وكانت أول مراحل عملية التمثل العادية هي إنشاء "منطقة" تحت حكم حكومة الاتحاد، يكون لها قـدر جسيم من الحكم الذاتي، وترسل إلى الكونجرس مندوبا (ليس له أن يعطي صوته) ولا بـد لهـا إن سـارت أمورها سيرا طبيعيا ومع استقرار الناس فيها وزيادة عدد سكانها، أن تزدهر آخر الأمر فتنال كـل حقـوق الولاية تلك هي عملية التطور في كل ولايات الاتحاد الأحدث عهدا؛ وكانت آخر مناطق بلغت مرتبة الولاية هي أريزونا ونيومكسيكو في ١٩١٢ [2]. على أن برية ألاسكا المتجمدة المشتراة من الروسيا، ظلـت غيـر متطورة من الناحية السياسية لمجرد أنها لم تحو عددا من السكان يكفي للقيام بإنشاء ولاية.

ولما كان ما ضمته ألمانيا وإنجلترة من أراض في المحيط الهادي هدد البحرية الأمريكية بالحرمان من محطات للفحم في ذلك المحيط، فقد ضمت الولايات المتحدة إليها جزءا من جزائـر سـاموا (١٩٠٠) كمـا ألحقت جزائر سندوتش (هواي) (١٨٩٨). وهنا وجدت الولايات المتحدة لأول مرة شعوبا محكومة تتعامـل وإياها ولكن أمريكا اتبعت فيها نفس أسلوبها في معالجة "المناطق" الجديدة في بلادها، وذلك لعدم وجود أيـة

---

[1] في هذه الفقرة يذكر المؤلف القراء بجميع أنواع المستعمرات البريطانية وبطرق الحكم التي تتبعها بريطانيا في حكمها لهـا. (المترجم).

[2] لقد حدث فعلاً ما تنبأ به المؤلف، فإن الولايتين وهما ألاسكا وهواي قد أنشئتا فعلاً وضمتا إلى الاتحاد. وبذلك أصبح عـدد الولايات المتحدة خمسين. (المترجم).

طبقة تماثل الموظفين الإنجليز في الهند الذين يتسلطون على الرأي العام البريطاني. وقد بذل كل مجهود لرفع المستوى التعليمي في هواي إلى نفس مستواه في أمريكا، ونظم مجلس تشريعي داخلي على غرار مجالس الولايات حتى ليخيل إلينا أن من المحتم أن ينال هؤلاء الجزريون السمر القاتمون في النهاية كامل الحقوق المدنية للولايات المتحدة. (ويهيمن على جزائر ساموان الصغيرة مدير من قبل الولايات المتحدة تابع للبحرية).

وفي ١٨٩٥ نشب بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى خلاف حول فنزويلا، واستمسك الرئيس كليفلند بغاية الشجاعة بمبدأ مونرو. وعند ذلك صرح المستر أولي [١] بهذا التصريح الهام: "اليوم تصبح الولايات المتحدة صاحبة السيادة الفعلية على هذه القارة، كما أن أوامرها قانون في الموضوعات التي تقصر عليها تدخلها". ويشير هذا مجتمعا مع ما عقد من المؤتمرات المنوعة التي تدعو إلى اتحاد الأمريكتين، إلى "سياسة خارجية" حقيقية علنية تقوم على التحالف والمساعدة المتبادلة في كل أرجاء أمريكا. ومعاهدات التحكيم نافذة المفعول في كل أرجاء تلك القارة، وكأني بالمستقبل مشيرا إلى الاتجاه إلى تطور تدريجي نحو إنشاء منظمة دولية أي "سلم أمريكي Pax Americana [٢] الذي يضم الشعوب الناطقة بالإنجليزية والناطقة بالإسبانية وتكون فيه الأولى بمثابة الأخ الأكبر. وهنا نرى شيئًا لسنا بمستطيعين حتى أن نسميه إمبراطورية، وهو شيء يتجاوز كثيرا التحالف الكبير في الإمبراطورية البريطانية من ناحية المساواة الصريحة بين أجزائه.

ومما يتسق مع هذه الفكرة الهادفة إلى الصالح الأمريكي المشترك، أن تدخلات الولايات المتحدة في ١٨٩٨ في شئون كوبا، التي ظلت في حالة من العصيان المزمن على إسبانيا طيلة سنوات عديدة. ثم عقب ذلك حرب وجيزة الأمد انتهت بالاستيلاء على كوبا وبورتوريكو وجزائر الفلبين. وكوبا الآن جمهورية مستقلة تدير شئونها بنفسها. وأعطيت بورتوريكو وجزائر الفلبين نوعا خاصا من الحكم فيه مجلس نواب ينتخب الشعب أفراده ومجلس أعلى يحتوي على أعضاء عينهم بادئ الرأي مجلس الشيوخ بالولايات المتحدة. ومن البعيد أن تصبح أي من بورتوريكو والفلبين يوما ما ولايات في الاتحاد الأمريكي. والأرجح أن تصبحا دولا حرة على أساس تحالف شامل مع كل من أمريكا الناطقة بالإنجليزية وأختها اللاتينية.

ولقد استقبلت كل من كوبا وبورتوريكو التدخل الأمريكي في شئونها بالترحاب التام، ولكن ظهرت في جزائر الفلبين حركة مطالبة بالحرية التامة الناجزة بعد الحرب الإسبانية، كما نشبت مقاومة جسيمة للإدارة العسكرية الأمريكية. هنالك اقتربت الولايات المتحدة أشد اقتراب من طراز استعمار الدول الكبرى، وأصبح

---

[1] ريتشارد أولني (Olney): (١٨٣٥ – ١٩١٧) سياسي ومحام أمريكي. أصبح وزيرا، كتب في سنة ١٨٩٥ رسالته الشهيرة طالب فيها بضرورة خضوع بريطانيا للتحكيم في خلافها مع فنزويلا. (المترجم).

[2] في ذلك وفي "السلم البريطاني" إشارة للسلم للروماني (Pax Ronana) الذي كان يفرض الأمن والسلام بالعالم إبان عظمة روما. (المترجم).

سجلها في هذا المضمار أبعث ما يكون على الريبة على أن الشعب الأمريكي أبدى شيئًا كثيرا من العطف على العصاة. وهاكم الآن وجهة نظر الرئيس روزفلت كما كتبها في ترجمته الذاتية ١٩١٣.

"فأما عن الفلبين فقد كان اعتقادي أنه يجب علينا أن ندرب أهاليها على الحكم الذاتي بأسرع ما يستطاع، ثم نتركهم أحرارا في تقرير مصيرهم. ولم أكن ممن يؤمنون بتجديد الموعد الذي يجب أن نعطيهم فيه الاستقلال، لأنني لم أكن أرى من الحكمة أن يتنبأ المرء بمقدار السرعة التي يصبحون فيها أهلاً للحكم الذاتي؛ فإذا قطعت ذلك الوعد فإني أشعر بأنه من المحتم علي أن أبر به. ولم تمض بضعة أشهر على توليتي مهام عملي حتى قضينا في جزائر الفلبين على آخر مقاومة مسلحة وهي مقاومة لم تكن مجرد حركة متفرقة ولا متناثرة، وما إن توطد السلام في البلاد حتى وجهنا كل همتنا إلى تطوير الجزر لمصلحة أهل البلاد، فأسسنا المدارس في كل مكان؛ وأنشأنا الطرق؛ وأقمنا عدالة نزيهة؛ وفعلنا كل ما في مستطاعنا لتشجيع الزراعة والصناعة؛ وأخذنا نزيد باطراد في استخدامنا لأهل البلاد للقيام بحكم أنفسهم وأخيرا زودناهم بمجلس تشريعي.

"لقد كنا وما زلنا نحكم جزر الفلبين لمصلحة أهلها أنفسهم. فلو قرر الفليبيون في الوقت المناسب أنهم لا يرغبون أن يحكموا على هاته الشاكلة، فإني موقن بأننا سنغادر بلادهم عند ذلك. على أننا إذا غادرناهم بالفعل فيجب أن يكون مفهوما فهما بينًا أننا لا نحتفظ بأي حماية على الجزر، وأننا فوق كل شيء لن نساهم في أية حماية مشتركة – ولا نمنحهم أي ضمان بالحياد أو عدم الحياد، وأننا بالإيجاز خلو خلوا تاما من كل تبعة، من أي نوع ووصف قِبلهم".

تلك وجهة نظر مخالفة أتم المخالفة لوجهة نظر وزارة الخارجية بريطانية أو فرنسية أو موظف في وزارة المستعمرات. على أنها لا تبتعد كثيرا عن تلك الروح التي خلقت الممتلكات المستقلة في كندا وجنوب أفريقيا وأستراليا، وقدمت مشروعات قوانين الحكم الذاتي الثلاثة لإرلندة. وهي شيء يتمشى والتقاليد الإنجليزية القديمة التي اختصصنا بها والتي انتهل منها إعلان الاستقلال. وهي تنبذ بلا مناقشة تلك الفكرة الممقوتة. فكرة "الشعوب المحكومة". ولن ندخل هنا في المعقدات السياسة التي صحبت إنشاء قناة بناما، لأنها لا تلقي أي ضياء جديد على هذا الموضوع الشائق موضوع منهج أمريكا في السياسة العالمية. وتاريخ بنما تاريخ أمريكي بحت. ولكن من الواضح أنه كما كان التركيب السياسي الداخلي للاتحاد الأمريكي شيئًا جديدا في العالم، فكذلك كانت علاقاته بالعالم خارج حدوده.

٧- الأسباب المباشرة للحرب العظمى

لقينا بعض المشقة في الفحص عن حالة أوربا وأمريكا العقلية بالنظر إلى العلاقات الدولية في السنوات التي انتهت بمأساة ١٩١٤ العالمية، لأن تلك الحرب الكبرى وأمثالها – كما أخذ عدد متزايد من الناس يشعر بذلك – كانت نتيجة ضرورية لعقلية الزمان. فإن جميع الأشياء التي تصدر عن الأفراد والأمم إنما هي نتيجة لدوافع غريزية لها رد فعل على الفكرات التي وضعها في رءوس الناس الخطابة والكتب والصحف والمدرسون إلى غير ذلك من وسائل الإعلام وربما أخرجت نمو التاريخ الإنساني عن جادته وانحرفت به وشوهت معالمه أشياء من أمثال الضرورات الطبيعية والأوبئة وتغيرات المناخ وما إليها من أشياء آخر، ولكن الفكر هو الجذر الحي لذلك التاريخ.

فالتاريخ البشري بأجمعه إنما هو في جوهره تاريخ فكرات. فإن ما بين إنسان هذا الزمان ورجل الكرومانيون من فروق جسمية وعقلية طفيف جدا؛ وينحصر الفارق الأساسي بينهما في سعة ومحتويات "الخلفية العقلية" التي اكتسبناها في الأجيال الخمسمائة أو الستمائة التي تفصلنا عنهم.

ونحن من الحرب العظمى على مقربة بلغ من شدتها ألا نستطيع أن ندعي أن في إمكان هذا الكتاب أن يسجل حكم التاريخ عليها، على أنا ربما خاطرنا بأن نزكن أنه عندما تخف انفعالات النزاع، فستكون ألمانيا صاحبة القسط الأوفى من اللوم على التسبب فيها، وإنها لتلام لا لأنها كانت من الناحية الذهنية والخلقية مختلفة جدا عن جيرانها، بل لأنها كانت مصابة بما تشركها فيه الدول جميعا من داء الاستعمار ولكنه فيها على أتم صورة وأقواها نشاطًا. وليس هناك من مؤرخ يحترم نفسه، مهما بلغت مراميه من السطحية والرغبة في استرضاء العامة، يستطيع أن يقبل تلك الأسطورة التي أنتجتها آلام الحرب وويلاتها، والقائلة بأن الألمان نوع من الكائنات البشرية أشد قوة وأدعى للكراهية من أي جنس آخر من أجناس الناس. فإن دول أوربا الكبيرة كافة كانت في ١٩١٤ في حال من القومية العدوانية، وكانت تنساق نحو الحرب؛ ولم تقم حكومة ألمانيا بأكثر من قيادة الحركة العامة. فكانت أول من وقع في الحفرة، وهوت تتخبط في أعماقها. وأصبحت المثل الفظيع الذي استطاع زملاؤها في الإثم أن يشهروا به.

ذلك أن ألمانيا والنمسا ظلتا زمنًا طويلاً تبحثان عن متسع للنفوذ الألماني شرقًا خلال آسيا الصغرى إلى بلاد الشرق. وتبلورت الفكرة الألمانية في عبارة "برلين إلى بغداد". وكانت أحلام الروسيا عدوة لأحلام ألمانيا، فالروسيا كانت تدبر الخطط الرامية إلى امتداد السيادة السلافية (الصقلبية) إلى القسطنطينية وللوصول بطريق صربيا إلى البحر الأدرياتي. وكانت هذه الأطماع متضاربة متعارضة.

وكانت حالة الحمى المتسلطة على شئون البلقان نتيجة طبيعية جدا للمؤامرات والدعايات التي تواصل القيام بها الخطط الألمانية والسلافية. ومدت تركيا يدها إلى ألمانيا تلتمس العون، والتفتت صربيا صوب الروسيا. واتبعت رومانيا وإيطاليا وكلتاهما لاتينية التقاليد، وكلتاهما حليف اسمي لألمانيا، خططًا مشتركة بينهما أبعد مجالاً وأعمق غورا. وكان فرديناند قيصر بلغاريا يطلب غايات أشد حلوكة وسوادا؛ كما أن خفايا

البلاط اليوناني الذي كان ملكه صهرا للقيصر الألماني تخرج عن مجـال مقـدرتنا الحاليـة علـى البحـث والتقصي.

ولكن المعضلة لم تنته عند تربص ألمانيا في جانب والروسيا في الجانب المقابل. فإن جشع ألمانيا فـي ١٨٧١ جعل من فرنسا عدوا لدودا لها. وأدرك الشعب الفرنسي عجزه عن أن يسترد بقوته وحده مقاطعاتـه المسلوبة، وعلل النفس بفكرات مضخمة عن قوى الروسيا ومساعداتها. وأسهم الشعب الفرنسي في القروض الروسية إسهاما هائلاً. وكانت فرنسا حليفة للروسيا. فإذا اعتدت قوات الألمان على الروسيا فلا مراء في أن فرنسا تهاجمهم.

وكانت الحدود الفرنسية الشرقية القصيرة محصنة تحصينًا قويا جدا. وبفضل هذا الحاجز لم يعد أمـام ألمانيا إلا أقل الاحتمالات في تكرار نجاحها في ١٨٧٠ – ١٨٧١. على أن الحدود الفرنسية البلجيكية كانـت أطول وأضعف تحصيناً. فالقيام بهجوم على فرنسا بطريق بلجيكا بقوات جارفة لا قبل لأحد بمقاومتهـا، قـد يعيد ١٨٧٠ على درجة أكبر وأبلغ. وربما ردت الميسرة الفرنسية نحو الجنوب الشرقي إلى فـردان جاعلـة منها قطب دوران، ثم تتزاحم متراجعة على الميمنة كما تطبق المدية أو الموسى.

وقد دبر الاستراتيجيون الألمان هذه الخطة بعناية وإحكام بالغين. وكان في تنفيذها اعتداء على حرمـة قانون الأمم: (أعني القانون الدولي)، لأن بروسيا تعهدت بضمان حياد بلجيكا ولم يكن بين الفريقين خـلاف، كما أن فيه خطر إدخال بريطانيا العظمى في الموضوع (وهي دولة كانت كذلك متعهدة بحماية بلجيكا) مـن ألمانيا. ومع هذا فإن الألمان اعتقدوا أن أسطولهم بلغ من القوة مبلغًا يكفي لجعل بريطانيا تتردد في التـدخل، وقاموا – ناظرين إلى الاحتمالات التي قد تجيء بها الأيام – بإنشاء مجموعة عظيمة من الخطوط الحديديـة الاستراتيجية [1] تصل إلى حدود بلاد البلجيك، وأعدوا كل عدة لتنفيذ هذه الخطة. لعلهم بذلك يـستطيعون أن يقضوا على فرنسا بضربة واحدة، ثم يلتفتون بعد ذلك إلى الروسيا وقتما يمليه عليهم هواهم.

وفي ١٩١٤ كان يلوح أن جميع الأمور متكافئة حسبما تهوى الدولتان الوسطيان. نعم إن الروسيا كانت تستعيد قواها منذ ١٩٠٦، ولكن ذلك لم يكن إلا ببطء شديد. وكانت فرنسا مبلبلة الفكر لما أصابها من فضائح مالية. ولم يلبث الحادث المذهل الذي صرع فيه المسيو كالميت محرر جريدة الفيجارو على يد زوجة المسيو كايو [٢] وزير المالية، أن بلغ بهذه الفضائح أوجها في مارس. فأما بريطانيا، فإن ألمانيا بأجمعها كانت موقنة بأنها على شفير الحرب الأهلية في إرلندة. وبذلت جهود متكررة من أقوال أجانب وإنجليـز علـى الـسواء للحصول على بيان محدد عما تنوي بريطانيا أن تفعله إذا هاجمت ألمانيا والنمسا دولتي فرنـسا والروسـيا. ولكن وزير الخارجية البريطاني السير إدوارد جراي ظل محتفظًا بستار من الغموض حتى نفس اليوم الـذي

---

[1] الاستراتيجية: فن القيادة بصفة عامة وعلم أو فن جمع الموارد العسكرية بعضها إلى بعض أو القيام بمنـاورات الجيـوش. (المترجم).

[2] كايو (Caillaux)، (١٨٦٣ – ١٩٤٤): سياسي فرنسي. تولى المالية ورئاسة الوزارة. قتلت زوجته المحرر لأنـه هـددها بنشر رسائل من كايو إليها وهي زوجة لرجل آخر. (المترجم).

دخلت فيه بريطانيا الحرب. ونتيجة لذلك، كان يعم القارة الأوربية إحساس بأن بريطانيا إما لا تنوي أن تحارب أو هي سوف ترجئ القتال. وربما شجع هذا ألمانيا أن تواصل تهديدها لفرنسا.

ومما تعجل سير الحوادث في ٢٨ يونيه اغتيال الأرشيدوق فرانسيس فرديناند، وارث عرش الإمبراطورية النمساوية وهو في زيارة رسمية لسراجيفو عاصمة مقاطعة البوسنة. وعند ذلك لاح أنسب الأعذار لدفع الجيوش إلى التحرك. قال إمبراطور الألمان "إما الآن وإلا فلا". واتهمت صربيا بالتحريض على القتل، وبالرغم من أن المندوبين النمسويين قدموا تقريرا يتضمن أنه ليست هناك أدلة على أن للحكومة الصربية ضلعا في الجريمة، فإن حكومة النمسا والمجر دبرتا التدابير لتوجيه هذا الاعتداء إلى ناحية الحرب. ففي ٢٣ يوليو أرسلت النمسا إلى الصرب إنذارا نهائيا، وبالرغم من تقدم الصرب بالخضوع الفعلي، ومن جهود السير إدوارد جراي وزير الخارجية البريطانية لدعوة الدول إلى مؤتمر، فإن النمسا أعلنت الحرب على صربيا في ٢٨ يوليو.

وعبأت الروسيا جيوشها في ٣٠ يوليو، وفي أول أغسطس أعلنت عليها ألمانيا الحرب. وعبرت القوات الألمانية الحدود الفرنسية في اليوم التالي، وابتدأت الحرب الكبيرة، حركة الهجوم على الجناح الأيسر خلال لوكسمبرج وبلجيكا. وسارت إلى الغرب راكبة الكشافة وحرس الطليعة. وانطلقت إلى الغرب أرتال من السيارات المحملة بالجنود. وتبع ذلك طوابير هائلة من المشاة ذوي البذلات الرمادية؛ وكان معظمهم شبانًا ألمانيين جميلي العيون شُقر الشعور، وهم أحداث متعلمون ممن يطيعون القانون ويحترمونه وممن لم يحدث أن رأوا من قبل رصاصة تطلق غضبا. لقد أخبروهم "أن هذه هي الحرب". ورأيهم يجب أن يكونوا شجعانًا لا تجد الرحمة إلى قلوبهم سبيلاً. وبذل بعضهم قصاراه في تنفيذ تعليمات سادته العسكريين هذه على حساب أهالي بلجيكا التعساء.

وقد أثيرت حول تفاصيل فظائع الألمان في بلجيكا ضجة لا تتناسب في الحق مع الفعلة الجوهرية الشنعاء التي اقترفت في أغسطس ١٩١٤، وأعني بها اجتياح بلاد البلجيك. فلو سلمنا بهذا فإن كل ما يقع بعد ذلك من قتل ونهب، ومن تدمير طائش للممتلكات، ومن نهب للفنادق والمطاعم والمشارب يقوم به رجال جياع مكدودون، وما يترتب على ذلك من اغتصاب للنساء ومن حرائق، فأمور تعقب ذلك بحكم طبيعة الأشياء. وليس إلا البسطاء من الناس من يعتقدون بأن جيشًا في ميدان القتال يقدر أن يحافظ على مستوى للأمانة واللياقة والعدالة، كما يقدر أن يحافظ عليها مجتمع مستقر في وطنه. هذا إلى أن تقاليد حرب الثلاثين سنة كانت لا تزال تؤثر أثرها في الجيش البروسي [1]. فقد جرت العادة في البلاد المتحالفة ضد ألمانيا أن يعالجوا هذا الاتضاع وسفك الدماء أثناء شهور القتال بالبلجيك كأنما هما أمران لم يحدث لهما مثيل من قبل أبدا، وكأنما كانا يرجعان إلى نبعة شريرة تتميز بها أخلاق الألمان.

---

[1] يحلو لكتاب الإنجليز أن يصموا جيوش غيرهم بكل نقيصة وينسون ما قامت به جيوشهم البريطانية من فظائع وشناعات على مر الأيام يندى لها جبين التاريخ وما مذابح الهند وبورما والعزيزية ببعيدة عن الأذهان. (المترجم).

فأطلقوا عليهم اسم "الهون" تشهيرا بهم. ولكن جرائم الألمان في بلجيكا أقل الأشياء شبها بالتدميرات المنظمة التي ارتكبها هؤلاء المترحلون (الذين فكروا مرة في إبادة السكان الصينيين على بكرة أبيهم لكي يعيدوا بلاد الصين إلى الرعي). وكان الشيء الكثير من هذه الجرائم وحشية تسبب عن سكر رجال صاروا لأول مرة في حياتهم أحرارا في استخدام أسلحة مهلكة، وكان الكثير منها هو العنف الهستيري الذي يصدر عن رجال أزعجهم ما بدر منهم من تصرفات، أو ألم بهم خوف قاتل من انتقام الأهالي الذين وقع منهم الاعتداء على حرمة بلادهم، وكان الكثير منها يحدث تحت ظروف من الاضطرار والضيق بسبب النظرية القائلة بأن الرجال يجب أن يكونوا في الحرب فظيعين وأن خير وسيلة لإخضاع الأمم هي الخوف. وقد جمع العامة الألمان من حالة طاعة نظامية وزجوا في هذه الحرب على صورة جعلت من المحتم أن يترتب عليهم الفظائع. فإن أي شعب يجهز للحرب ويساق إلى غمراتها كما حدث للألمان فهو لا بد متصرف على شاكلة مماثلة.

وفي ليلة ٤ أغسطس، وبينما أوربا ما تبرح مستغرقة في بحبوحة نصف قرن من السلم، وما تبرح تستمتع الاستمتاع المعتاد بالحرية والرخص والوفرة الشاملة التي لن يراها أي حي مرة أخرى، وتفكر في إجازاتها الصيفية؛ كانت قرية فيزيه (Vise) البلجيكية الصغيرة في أتون من النيران، ثم كان فلاحوها المشدوهون يؤخذون ويعدمون رميا بالرصاص بدعوى أن أحد الناس أطلق النار على الغزاة. ومن المؤكد أن الضباط الذين أصدروا هذه الأوامر والجنود الذين نفذوها شعروا بالرعب لغرابة ما أتوا. إذ لم يسبق لمعظمهم أن شهد حتى ذلك اليوم موتة عنيفة. وكانوا قد أضرموا النار لا في قرية بمفردها بل في عالم بأجمعه. كانت تلك بداية نهاية لعصر من الاستجمام والثقة والسلوك الرقيق اللائق في أوربا.

وما كاد العالم يتحقق أن بلاد البلجيك سوف تغزى، حتى كفت بريطانيا العظمى عن التردد، وفي الساعة الحادية عشرة من مساء ٤ أغسطس أعلنت الحرب على ألمانيا. وفي اليوم التالي ضبطت سفينة ألمانيا من ملقيات الألغام عند مصب نهر التيمز إذ اكتشفتها الطرادة (أمفيون Amphion) وأغرقتها – وهي أول مرة التقى فيها الألمان بالإنجليز في حرب تحت راياتهما القومية سواء أكان ذلك في البر أم في البحر.

ولا تزال أوربا بأكملها تتذكر الجو الغريب لأيام أغسطس المشمسة المليئة بالأحداث هذه، وتتذكر نهاية السلم المسلح. وقد ظل العالم الغربي قرابة نصف قرن وهو ساكن تبدو عليه الأمنة. ولم يكن هناك في فرنسا إلا القليل من الكهول والشيوخ الذين شربوا لبان الحرب فعلاً وتمرسوا بها عمليا. وطفقت الصحف تتحدث عن كارثة عالمية، ولكن هذا الحديث لم يكن له إلا معنى ضئيل جدا لدى أولئك الذين كان العالم يبدو في نظرهم على الدوام في أمنة وسلام، ومن كانوا في الواقع لا يستطيعون تصوره إلا مستظلاً بظلال الأمنة والسلام.

وتواصلت في بريطانيا بوجه خاص روتينيات زمن السلم وأحواله العادية تواصلا لا يخلو من اهتزاز وتردد. كانت الحال تشبه حال رجل ما يزال يمشي في هذا العالم غير مدرك أنه مصاب بداء عضال سوف يغير كل مجرى حياته وكل عادة فيها. فاستمر الناس في إجازاتهم الصيفية؛ وكانت الدكاكين تطمئن زبائنها

بإعلانهم بأن "العمل يجري كالمعتاد". وكان الحديث يكثر والانفعال يشتد عندما تظهر الصحف، ولكنه كـان حديثًا وكان انفعالاً لنظارة ليس لديهم شعور واضح بالاشتراك في هذه الكارثة التي أوشكت أن تغمرهم جميعا على الفور.

٨- خلاصة للحرب العظمى حتى ١٩١٧

سنستعرض الآن بمنتهى الإيجاز الأدوار الرئيسية للكفاح العالمي الذي ابتدأ كما رأيت. وكما دبرت ألمانيا الأمر، بدأت الحرب بهجوم سريع يهدف إلى ضرب فرنسا "ضربة قاضية"؛ بينما تكون الروسيا منهمكة بتجميع قواتها في الشرق. وسارت الأمور على ما يرام ردحا من الزمان. ومن المعروف أن العلم العسكري ليس بالعلم المماشي لتقدم زمانه في ظروفنا العصرية هذه، لأن العسكريين من الرجال إنما هم بوصفهم طبقة رجال واهنو الخيال، فهناك في كل آن مخترعات لم تتطور، تجد الفطنة العسكرية قد رفضتها، بينما هي تستطيع أن تحطم ما جرى عليه العرف في فني التاكتيك [1] والاستراتيجية.

وكانت الخطة الألمانية مدبرة من سنوات عدة. فهي من ثم خطة عتيقة آسنة. ولعلها كانت تحبط منذ البداية لو أنها قوبلت باستعمال الخنادق والأسلاك الشائكة والمدافع الرشاشة استعمالاً صحيحا، ولكن الفرنسيين لم يكونوا بأي حال متقدمين في فنهم العسكري تقدم الألمان. فركنوا إلى أساليب الحرب المكشوفة التي كانت متأخرة عن الزمان بما لا يقل عن أربعة عشر عاما. ولم يكن لديهم عتاد مناسب لا من الأسلاك الشائكة ولا من المدافع الرشاشة، وكان هناك تقليد مضحك يقول بأن الفرنسي لا يحسن القتال وراء المتاريس.

وكان الدفاع عن الحدود البلجيكية موكولا بحصون لييج (Liege)، وهي حصون قديمة الطراز عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة، وفيها استحكامات زودها بالأسلحة وركبها في كثير من الحالات مقاولون من الألمان؛ وكان العتاد في الحدود الفرنسية الشمالية الشرقية رديئًا جدا. وطبيعي أن شركة الأسلحة الألمانية المسماة "كروب" أعدت لهذه الحصون الهزيلة معاول تتمثل في مدافع ذات ضخامة استثنائية تقذف بقنابل شديدة التفجر. وأثبتت هذه الحصون أنها ليست إلا مجرد مصايد لحماتها المدافعين.

وقام الفرنسيون بهجمة فاشلة في جبال الأردن الجنوبية. وتأرجحت الجيوش الألمانية حول الميسرة الفرنسية حتى أيقن الناس أنها جيوش لا قبل لأحد بمقاومتها؛ وسقط آخر حصن في لييج في ١٦ أغسطس، وبلغ الألمان بروكسل في ٢٠ أغسطس، وعند مونز (Mons) أصيب الجيش البريطاني الصغير المكون من سبعين ألفًا والذي وصل إلى بلجيكا، بضربة قاضية من قوات ساحقة، ودفع إلى الخلف بالرغم من درس تاكتيك البنادق المهلك الذي تلقاه في حرب جنوب أفريقيا. ودفعت القوة البريطانية الصغيرة إلى الجنوب. وانحدرت الميمنة الألمانية بصورة تترك باريس في الغرب وتهرس الجيش الفرنسي بعضه في بعض.

وبلغ من شدة ثقة القيادة الألمانية في هذه المرحلة بأنها كسبت الحرب، أنه قبل نهاية أغسطس كانت الجيوش الألمانية تسحب وتنقل فعلاً إلى الميدان الشرقي، حيث كان الروسيون يهلكون الحرث والنسل في بروسيا الشرقية والغربية. وعند ذلك جاء هجوم الحلفاء المضاد. وأبرز الفرنسيون في ميسرتهم جيشًا غير منتظر، وكان الجيش البريطاني الصغير الذي تزلزل في البداية، قد أمد بالقوات وأصبح قادرا على أن يقوم

---

[1] التاكتيك: فن قيادة الجند في إحدى المعارك وفق قواعد مقررة وخطة مرسومة. (المترجم).

بدور كريم في الضربة المضادة. وداست بعض الميمنة الألمانية على بعض، وقد ضلت اتصالها ببعضها بعضا، ثم دفعت عن المارن إلى الأيسن (Aisne) (معركة المارن من ٦ سبتمبر إلى ١٠ سبتمبر). ولعلها كانت ستدفع إلى الخلف أكثر من ذلك لولا أنها أعدت في جعبتها فكرة الالتجاء إلى الخنادق. ووقفت الميمنة عند نهر الأيسن واحتفرت لنفسها الخنادق. ولكن لم تكن المدافع الثقيلة ولا القنابل الشديدة التفجر ولا الدبابات – التي يحتاج إليها الحلفاء لتحطيم هذه الخنادق ومعاقلها، قد ظهرت إلى عالم الوجود بعد.

ومزقت معركة المارن الخطة الألمانية الأصلية. ونجت فرنسا إلى حين. ولكن الجيش الألماني لم يهزم؛ بل كان لا يزال لديه التفوق العدواني العظيم في المهارة العسكرية والعتاد. وكان خوفه من الجيش الروسي في الشرق قد زال أو كاد بنصر هائل أحرزه في تاننبرج. وكان الدور الثاني من أدوار الحرب حملة مدبرة تدبيرا أقل إحكاما ترمي إلى تطويق ميسرة جيوش الحلفاء والاستيلاء على ثغور القنال الإنجليزي ومنع المدد الآتي من إنجلترة إلى فرنسا. ومن ثم امتد كل من الجيشين غربا وانطلقا إلى الساحل فيما يشبه السباق. ثم انطلق الألمان بما لهم من تفوق عظيم في المدافع والعتاد محاولين إنزال ضربة بالإنجليز بالقرب من إيبر (Ypres) وكادوا أن يحدثوا ثغرة في صفوفهم، لولا أن صمد لهم الإنجليز.

ووكدت الحرب في الميدان الغربي متحولة إلى حرب خنادق. ولم يكن لدى أحد من الطرفين من العلم والعتاد ما يكفل حل مسألة اختراق الخنادق العصرية وأحابيل المعوقات الحديثة، وعند ذاك اضطر كل من الطرفين إلى الالتحاق إلى أهل العلم والاختراع ومن إليهم من غير العسكريين يسألونهم النصح والمعونة فيما هم فيه من ورطة. وفي ذلك الوقت كانت المشكلة الجوهرية في حرب الخنادق قد حلت فعلاً؛ إذ كان يوجد في إنجلترة مثلاً نموذج دبابة كانت تمنح الحلفاء ولا ريب نصيرا سهلاً سريعا قبل ١٩١٦. ولكن العقل العسكري المحترف إنما هو بحكم الضرورة عقلٌ منحط سقيم الخيال؛ فليس هناك إنسان رزق مزية ذهنية عالية يرضى بمحض اختياره بحبس مواهبه في مثل هاته المهنة؛ وجميع العسكريين المتفوقي العظمة يكادون أن يكونوا إما من الشبان الأغمار الناضري الأذهان أمثال الإسكندر ونابليون وهوش[1]، أو من السياسيين الذين انقلبوا إلى سلك الجندية أمثال يوليوس قيصر، أو من المترحلين أمثال قواد الهون والمغول أو هواة من أمثال كرومويل وجورج واشنجتون. على أن هذه الحرب الناشبة بعد خمسين سنة من التهيؤ العسكري كانت حرب محترفين أقحاح؛ وكان من المستحيل منذ بدايتها حتى نهايتها استخلاصها من يد القواد العاديين، ولم يكن أي من قيادة الألمان أو قيادة الحلفاء بميالة إلى أن تنظر بعين التّسمح إلى أي اختراع يقضي على أساليبهم التقليدية.

ومهما يكن الأمر فإن الألمان استحدثوا بالفعل بضعة مستحدثات. فإنهم في ٢٨ فبراير أنتجوا مستحدثة تكاد تكون غير ذات أثر، هي قاذفة اللهب التي كان من يستعملها معرضا على الدوام أن يحرق حيا؛ وفي أبريل وعند افتتاح هجوم عظيم ثان على البريطانيين (معركة إيبر الثانية من ٢٢ أبريل إلى ٢٤ مايو)

---

[1] هوش (١٧٦٨ – ١٧٩٧) قائد فرنسي نابغ، دخل الجيش جنديا ورقي جنرالاً، وفي ١٧٩٣ تولى القيادة في اللورين وطرد منها لجيوش البروسية. وقام بمحاولة محققة لغزو إرلندة في ١٧٩٦. (المترجم).

استخدموا سحابة من الغاز السام. وقد استعملت هذه الوسيلة الفظيعة ضد جيوش جزائرية وكندية؛ فزلـزلهم العذاب الجسمي الذي كان يصيبهم منها، وآلام النزع التي يلقاها من يسلمون الروح منهم، ولكنها فشلت فـي إحداث ثغرة في صفوفهم. وجاءت بضعة أسابيع كان الكيماويون فيها أعظم أهمية من الجنـود فـي جبهـة الحلفاء، وما مضت ستة أسابيع حتى كان بين يدي الجيوش المدافعة أساليب ومستحدثات وقائية. وانقضت مدة عام ونصف حتى يوليو ١٩١٦، استمر فيها الميدان الغربي في حالة توتر غير حاسم. وقام كل من الطرفين بهجمات شديدة كانت تنتهي بصدها بعد إراقة كثير من الدماء. وقام الفرنسيون بطعنات غالية الثمن في آراس وفي شمبانيا في ١٩١٥، وقام الإنجليز بمثلها في لوس (Loos).

وكان يمتد من سويسرا إلى بحر الشمال خطان مستمران من الخنادق لا ينقطعان، لا يفصل بينهما في بعض الأحايين إلا مسافة ميل أو يزيد، وربما بلغت المسافة بينهما أحيانًا بضعة أقدام (كما كان الحـال فـي أراس مثلاً)، وفي داخل خطي الخنادق هذين ومن حولهما كان ملايين الرجال يكدحون ويقاسون الـويلات، ويغيرون على أعدائهم، ويعدون العدة لهجمات دموية محتومة الفشل. ولو كانت هذه الجموع الآسنة فـي أي عصر سلف لأنتجت الأوبئة الوبيلة ولا مناص، ولكن في هذا الموطن أيضا استطاع العلم العصري أن يغير ظروف الحرب. وظهرت أنواع بعينها من الأمراض الجديدة، مثل "مرض الأقدام الخندقي [1]"، المترتب على الوقوف طويلاً في المياه الباردة، وأشكال جديدة من الدوسنتاريا وما أشبهها، ولكن واحدا لم يتطور تطـورا يؤدي إلى تعجيز أي من القوتين المتحاربتين.

ومن خلف هذه الجبهة كانت كل حياة الأمم المتحاربة تُحول أكثر فأكثر نحو القيام بإنتاج مدد مـستمر من الطعام والمهمات الحربية، وللقيام قبل كل شيء بتقديم رجال يحلون يوما فيوما محـل مـن يقتلـون أو يصابون. وكان من حسن حظ الألمان أن كان لديهم عدد ضخم من مدافع الحصار الكبيرة المعـدة لحـصون الحدود. فاستعملوا هذه في تحطيم الخنادق بالقنابل الشديدة الانفجار، وهو استخدام لم يكن يتوقعه أحد. وكـان الحلفاء طيلة السنوات الأولى أقل من الألمان بدرجة محسوسة فيما لديهم من المدافع الكبيرة والذخائر، وكانت خسائرهم على الدوام أعظم من خسائر الألمان.

وشن الألمان على الفرنسيين هجوما هائلاً دام طيلة النصف الأول من ١٩١٦ حـول فـردان. ولكـن الألمان أصيبوا بخسائر فادحة ثم صدوا، بعد أن تقدموا في الخطوط الفرنسية بضعة أميال. وعدلت الخـسائر الفرنسية خسائر الألمان أو أربت عليها. وكان المشاة الفرنـسيون يـرددون قـولهم "لـن يمـروا "Ils ne Passersont Pas. أو ينشدونه غناء وقد بروا بكلمتهم.

وكان طول الجبهة الألمانية الشرقية أكبر وخنادقها أقل انتظاما من الجبهة الغربية. وواصلت الجيـوش الروسية حينًا من الدهر ضغطها غربا بالرغم من كارثة تاننبرج. فاستولوا من النمسويين على كل غاليـسيا تقريبا، وفتحوا لمبرج في ٢ سبتمبر ١٩١٤، وقلعة برزيميل الكبيرة في ٢٢ مارس ١٩١٥. وبعـد أن فـشل

---

[1] مرض الأقدام الخندقي أو عضة الصقيع للأقدام (Trench Feet) وهي حالة مرضية تصيب أقدام الجنود بالخنادق بـسبب تعرضهم للبرد والرطوبة أثناء حرب الخنادق. (المترجم).

الألمان في اختراق جبهة الحلفاء الغربية، وبعد هجوم فاشل قام به الحلفاء دون الاستعداد له بما يلزمه من عتاد ومواد، عاود الألمان التفاتهم إلى الروسيا. وأصابوا الروسيين بسلسلة من الضربات الفادحة استحدثوا فيها طريقة جديدة من الحشد الشديد للمدفعية، فهزموهم بها في جنوب الجبهة الروسية أولاً ثم في شمالها. وفي ٣ يونيه استردوا برزيميل، ودفعوا بكل خط القتال الروسي إلى الخلف حتى وقعت فيلنا (في ١٨ سبتمبر) في قبضة الألمان.

وفي ٢٣ مايو ١٩١٥ انضمت إيطاليا إلى الحلفاء وأعلنت الحرب على النمسا. (ولكنها لم تُعلن الحرب على ألمانيا إلا بعد ذلك بأكثر من سنة). فدفعت حدودها الشرقية نحو جوريتزيا (التي سقطت في صيف ١٩١٦)، ولكن تدخلها كان قليل الجدوى في ذلك الأوان لأي من الروسيا أو الدولتين الغربيتين. وكل ما فعلته أن أقامت خطًا آخر من حرب الخنادق بين الجبال العالية الموجودة على حدودها الشمالية الشرقية الرائعة الجمال.

وعلى حين كانت الجبهات الرئيسية للمتقاتلين الكبار فيما رأيت من حال الجمود والتوقف المنهك للقوى، كان كل من الطرفين يحاول أن يكيل ضربة يلف بها حول خطوط خصمه. وقام الألمان بسلسلة من الغارات بمناطيد زبلن، ثم بالطائرات فيما بعد على باريس وعلى شرق إنجلترة، وكان هدف هذه الغارات الظاهري هو المستودعات ومصانع المهمات الحربية وما إليها من أهداف ذات أهمية عسكرية، ولكن الواقع أنهم كانوا يقذفون قذائفهم بلا تمييز على الأماكن المسكونة.

وكان المغيرون يسقطون بادئ الأمر قنابل غير كبيرة الأثر، ولكن حجم ونوع القذائف أخذ يتزايد بعد ذلك شيئًا فشيئًا، فأصيب من جراء ذلك عدد جسيم من الناس ما بين قتلى ومصابين، وترتب عليه أيضا أضرار كبيرة. وثار الشعب الإنجليزي ثورة غضب شديدة لهذه الاعتداءات. ومع أن الألمان كانوا يملكون مناطيد زبلن منذ بضع سنين، فلم يفكر أحد من ذوي السلطان في إنجلترة في أمثل الطرق للقضاء عليها، ولم يحدث إلا في مؤخرات ١٩١٦ أن أعدت مقادير كافية من الدافع المضادة للطائرات واستعملت استعمالا ناجعا، وأن هاجمت الطائرات الإنجليزية هؤلاء المغيرين مهاجمة منظمة.

ثم أعقب ذلك سلسلة من الكوارث حلّت بمناطيد زبلن، حتى إنها بعد ربيع ١٩١٧ لم تعد تستخدم لأي غرض إلا الاستطلاع البحري. وحل محلها في الإغارة الطائرات الكبيرة (من طراز جوتا). وأصبحت غارات هذه الآلات على لندن وشرقي إنجلترة زيارات منظمة بعد صيف ١٩١٧. واعتادت لندن أن تسمع في كل ليلة مقمرة من ليالي شتاء ١٩١٧ – ١٩١٨ دوى صواريخ الإنذار وصفير التحذير الحاد من البوليس، وإخلاء الشوارع سريعا من المارة، ودمدمة بعيدة تصدر عن عشرات ومئات من المدافع المضادة للطائرات تعلو باطراد حتى تصبح عزيفًا فظيعا من أصوات الاصطدام والهدة والتكسر، وصفير القنابل المنطلقة، وأخيرا دوي القنابل المكتوم الثقيل إن قدر لإحدى الطائرات أن تخترق نطاق الدفاع الجوي. ثم يحدث للوقت إبان تناقص هزيم المدافع أن يسمع صوت عدد المطافئ الذي لا يخطئه إنسان وإسراع عربات الإسعاف.. لقد وصلت الحرب إلى دار كل لندني بوساطة هذه المحن.

وبينما كان الألمان يهاجمون بهذه الطريقة أعصاب شعب أعدائهم في قرارة بلاده، كانوا كذلك يهاجمون تجارة البريطانيين وراء البحار بكل ما في مستطاعهم من وسيلة. إذ كانت لهم في بداية الحرب مدمرات تجارية منوعة مبثوثة في كل أرجاء العالم، وسرب من الطرادات القوية العصرية في المحيط الهادي، نذكر منها الطراد شارنهرست وجينسناو وليبزج ونورنبرج ودرسدن. واستطاعت بعض الطرادات المنعزلة وبخاصة الطراد إمدن أن تحطم قدرا جسيما من السفن التجارية قبل أن يمكن القضاء عليها، وأمسك السرب الرئيسي بقوة بريطانية أصغر منه بالقرب من ساحل شيلي وأغرق الطرادين جود هوب (Good Hope) ومونموث في أول نوفمبر ١٩١٤. وبعد شهر وثبت قوة بريطانية بقيادة الأميرال ستاردي على نفس هذه السفن الألمانية فأغرقتها كلها (ما عدا الطراد درسدن) في معركة جزائر فوكلاند. وبعد ذلك القتال ظل الحلفاء سادة للبحر بغير منازع، سيادة لم تزلزلها معركة جاتلند البحرية الكبرى (٣١ مايو ١٩١٦) أدنى زلزلة.

وأخذ الألمان منذ ذلك الحين يزيدون في تركيز التفاتهم على حرب الغواصات يوما بعد يوم فأصابوا منذ بداية الحرب انتصارات ضخمة بواسطة الغواصات. ففي يوم واحد هو ٢٢ سبتمبر ١٩١٤ أغرقوا ثلاث طرادات قوية هي أبو قير وهوج وكريسي (Cressy) ومعها ١٤٧٣ رجلاً. وظلوا يصيبون من السفن البريطانية طوال الحرب؛ وكانوا في البداية يستوقفون سفن الركاب والتجارة ويفتشونها، ولكنهم أهملوا هذه العادة خشية الوقوع في الأحابيل، وفي ربيع ١٩١٥ شرعوا يغرقون السفن بلا إنذار.

وفي مايو ١٩١٥ أغرقوا باخرة الركاب العظيمة لوزيتانيا بلا إنذار، فغرق بسبب ذلك عدد من الرعايا لأمريكا. فحز ذلك في نفوس الأمريكيين وأثار ثائرتهم عليهم، ولكن احتمال إيقاع الضرر ببريطانيا وربما إخضاعها بحصر بحري بواسطة الغواصات هدف كان لديهم من العظم بحيث دفعهم إلى الإلحاح في حملة الغواصات هذه ومواصلة التزيد من النكير والعنف، غير آبهين بخطر جر الولايات المتحدة إلى صفوف أعدائهم.

وفي نفس الوقت كانت الجيوش التركية المزودة بأسوأ عتاد تبدي نحو مصر حركات التهديد خلال شبه جزيرة سيناء. وعلى حين كان الألمان يكيلون الضربات لبريطانيا على ما رأيت بطريق الهواء ومن تحت أطباق الماء، وهي خصمهم الأشد قوة والأبعد عن منال أيديهم، كان الفرنسيون والإنجليز كذلك مقبلين على هجوم مدمر في الشرق على جناح دول الوسط عن طريق تركيا. وقد دبرت حملة غاليبولي أبدع تدبير ولكنها نفذت بأكبر معرة. فلو أنها نجحت لاستولى الحلفاء على القسطنطينية في ١٩١٥. ولكن الأتراك تلقوا إنذارا قبل المشروع بشهرين وذلك عندما ضرب الدردنيل بالقنابل في فبراير، وربما كشف البلاط اليوناني كذلك سر الخطة بخيانته، وعندما نزلت القوات البريطانية والفرنسية آخر الأمر في شبه جزيرة غاليبولي في أبريل، وجدوا الأتراك قد أعدوا الخنادق أحسن إعداد كما رأوهم مزودين بما يلزم لحرب الخنادق خيرا منهم.

واعتمد الحلفاء في ناحية المدفعية الثقيلة على مدافع السفن الضخمة، التي كانت غير ذات جدوى نسبيا في تحطيم تحصينات الخنادق، ومن بين الأشياء الكثيرة الأخرى التي فاتهم أن يقدروا وجودها احتمال ظهور

الغواصات المعادية. فضاعت لذلك سفن حربية عظيمة عديدة، هوت إلى نفس المياه الصافية التي مرت عليها سفن إجزرسيس يوما ما إلى مصيرها المحتوم في سلاميس [1]. وقصة حملة غاليبولي من ناحية الحلفاء تجمع بين ظواهر البطولة وعوامل الأسى، فهي قصة شجاعة وقلة اقتدار وقصة أنفس ذهبت بددا وموارد أهلكت وهيبة ضاعت، وبلغت حضيضها في انسحاب مهين تم في يناير ١٩١٦.

ومما يتصل اتصالاً وثيقًا بتذبذب بلاد اليونان طيلة ذلك الزمان دخول بلغاريا الحرب (في ١٢ أكتوبر ١٩١٥). وقد ظل ملك بلغاريا مترددا أكثر من سنة قبل أن يتخذ قرارا حاسما في الانضمام إلى أحد الطرفين. ولكن دفعه إلى ناحية الدول الوسطى ما رأى عند ذاك من فشل البريطانيين في غاليبولي، وقيام النمسويين والألمان في الوقت نفسه بهجوم عنيف في بلاد العرب. وبينما الصربيون في شغل شديد بالمغيرين النمسويين والألمان على ديارهم الدانوبية، هاجم الملك صربيا من الخلف، وما مضت بضعة أسابيع حتى كانت البلاد قد غزيت تماما. وتقهقر الجيش الصربي قهقرة فظيعة عابرا جبال ألبانيا إلى الساحل، حيث أنقذ فلوله أسطول للحلفاء.

ونزلت قوة متحالفة إلى سالونيك. واندفعت في البلاد نحو مناستر، ولكنها عجزت عن تقديم أي مساعدة فعالة للصربيين. وكانت عملية سالونيكا هي التي ختم بها مصير حملة غاليبولي. وإلى الشرق من ذلك في أرض الجزيرة (: العراق) قام البريطانيون مستخدمين في غالب الأمر جنودا من الهنود بهجوم جناح جانبي أبعد من الأول على الدول الوسطى. فأنزل إلى البر في البصرة جيش كأسوأ ما تكون الجيوش عدة وعتادا في نوفمبر ١٩١٤ تهيؤًا للحملة التي تنتظره، ثم دفع نحو بغداد في السنة التالية. ففاز بنصر عند المدائن (كتيسيفون) عاصمة الأرشيكيين والساسانيين العتيقة وهي على مبعدة خمسة وعشرين ميلا من بغداد، ولكن الأتراك تلقوا أمدادا عظيمة، وتراجع البريطانيون إلى كوت الإمارة [2]، وهناك أحيط بالجيش البريطاني تحت قيادة الجنرال تاونشند حتى ألجأه الجوع إلى التسليم في ٢٩ أبريل ١٩١٦.

وكانت كل هذه الحملات الدائرة في الجو وتحت أطباق البحار وفي الروسيا وتركيا وآسيا ثانوية بالنسبة للجبهة الرئيسية جبهة الفصل في الأمر، الممتدة بين سويسرا والبحر. وهناك كانت حشود الملايين الرئيسية ترقد في خنادقها، وتتعلم في بطء الأساليب الضرورية للحرب العصرية العلمية. وحدث تقدم سريع في استخدام الطائرة. ففي بداية الحرب كانت الطائرة تستخدم أغلب ما تستخدم الكشف بصفة رئيسية، ثم استخدمها الألمان في إلقاء علامات تسترشد بها المدفعية. ولم يكن الناس قد سمعوا بعد بشيء اسمه النزال الجوي. ولكن في ١٩١٦ حملت الطائرات المدافع الرشاشة وأخذت تتقاتل في الهواء؛ وكانت أهمية ضربهم الأعداء بالقنابل تتزايد وضوحا، وقد طوروا فن التصوير الجوي وهو فن مدهش حقًا، كما أن جميع الجانب الجوي من أعمال المدفعية سواء أتم بواسطة الطائرات أم بالونات المراقبة، قد ألم به تطور هائل. ولكن العقل العسكري لم يفتأ يقاوم استخدام الدبابة التي هي السلاح الواضح للفصل في حرب الخنادق.

---

[1] سلاميس: انظر المعالم ج٢ ص ٣٠٨ (ط١)، ص ٣٦٢، ٣٦٤ من الطبعة الثانية. (المترجم).

[2] كوت الإمارة: مدينة على نهر الدجلة بالعراق، وهي مركز لتجارة الحبوب وصنع السجاجيد. (المترجم).

وكان الكثير من أذكياء الناس خارج الدائرة العسكرية يفهمون هذا الأمر فهما جليا. فإن استخدام الدبابة ضد الخنادق كان تدبيرا واضحا وضوحا مطلقًا. وقديما اخترع ليوناردو دافنشي دبابة مبكرة. وما إن انتهت حرب جنوب أفريقيا في ١٩٠٣ حتى ثارت في المجلات قصص تصف معارك خيالية تظهر فيها الدبابات؛ وعرض على السلطات العسكرية البريطانية نموذج كامل شغال لإحدى الدبابات قام بصنعه المستر ج. أ. كري (J.A. Corry) أحد أهالي ليدز، ولكنها بالطبع رفضته في ١٩١١. والواقع أن الدبابات اخترعت ثم أعيد اختراعها من جديد قبل أن تبدأ الحرب. ولو أن الأمر كان كله بيد العسكريين لما استخدمت الدبابات على الإطلاق.

وكان المستر ونستون تشرشل وزير البحرية في ١٩١٥ – ١٩١٦ هو الذي أصر على صنع أول الدبابات، ولقي إرسالها إلى فرنسا أشد معارضة وأعنفها. فإلى البحرية البريطانية وليس إلى الجيش يدين العلم العسكري باستخدام هذه المستحدثات. وكان رأي السلطات العسكرية الألمانية مضادا لها كذلك. وفي يوليو ١٩١٦ شرع السير دوجلاس هايج القائد البريطاني العام في القيام بهجوم عظيم أخفق في اختراق صفوف الألمان. وقد تقدم في بعض الأماكن بضعة أميال، وهزم في البعض الآخر هزيمة تامة. وحدثت مذبحة هائلة في الجيوش البريطانية الجديدة. ومع ذلك لم يستخدم القائد الدبابات.

وفي سبتمبر عندما أخذ الفصل يصبح غير مناسب للقيام بهجوم متواصل، ظهرت الدبابات لأول مرة في الحرب. فقد استخدم القواد البريطانيون عددا قليلاً منها استخداما لا يتبدى فيه كثير من الذكاء. وكان مفعولها في الألمان عميقًا، فإنها أحدثت فيهم أثرا أشبه ما يكون بالهلع البالغ، وليس إلى الشك من سبيل أنها لو استعملت في يوليه بأعداد كافية، وأدار دفتها جنرال ذو خيال رحيب وهمة عالية، لأنهت الحرب على الفور. ففي ذلك الوقت كان الحلفاء أقوى من الألمان في الميدان الغربي وكانت النسبة على وجه التقريب ٧ إلى ٤. وكانت الروسيا وإن اقتربت سريعا من مرحلة الإعياء – لا تبرح تقاتل، وكانت إيطاليا تضغط على النمسويين ضغطًا شديدا، ورومانيا قد دخلت من فورها الحرب في صف الحلفاء. ولكن الإسراف في إزهاق أرواح الرجال في شهر يوليه الكارث ذاك أوقف الحلفاء على حافة الكارثة نفسها.

وما إن اطمأن الألمان لفشل البريطانيين في يوليه، حتى انقضوا على الرومانيين. وشهد شتاء ١٩١٦ في رومانيا نفس المصير الذي حل بصربيا في ١٩١٥. فالسنة التي ابتدأت بالتقهقر عن غاليبولي والتسليم في كوت انتهت بسحق رومانيا وبإطلاق مئات الطلقات من جمهور من الحزب الملكي في شوارع أثينا على فئة من البحارة الإنجليز والفرنسيين نزلوا إلى البر. فكأنما كان قسطنطين ملك اليونان ينوي أن يقود شعبه في أثر الملك فرديناند البلغاري. ولكن الساحل اليوناني أشد ما يكون تعرضا للأعمال البحرية. فضرب الحصار البحري على بلاد اليونان، واتصلت قوة فرنسية من سالونيكا بقوة إيطالية آتية من فالونا لتقطعا على ملك اليونان سبيل الاتصال بأصدقائه في أوربا الوسطى. (وفي يونيه ١٩١٧ أجبر الحلفاء قسطنطين على التخلي عن العرش، وتولى ابنه إسكندر العرش مكانه).

وجملة القول إن بوادر الأمور كانت تبدو أقل خطرا على إمبريالية آل هوهنزولرن نهاية ١٩١٦ مما كانت عليه بعد إخفاق الاندفاع الأول العظيم في المارن. وكان الحلفاء أضاعوا سنتين من الفرص الذهبية. وكانت بلاد البلجيك وصربيا ورومانيا وأجزاء عظيمة من فرنسا والروسيا تحتلها قوات ألمانية نمساوية. وكانت الضربة المضادة تفشل تلو الضربة المضادة، وأخذت الروسيا تترنح عند ذاك تهيؤًا للسقوط. فلو كان لدى حكام ألمانيا مسحة من حكمة لأبرموا معها صلحا معقولاً في تلك الآونة. ولكن لمسة النجاح كانت قد أسكرت استعمارييها. فإنهم لم يريدوا السلامة بل النصر ولم يريدوا خير العالم بل إمبراطورية العالم. وكان شعارهم: "إما سيادة العالم وإما السقوط"، ولم يجد خصومهم إزاء شعارهم هذا بدا من مواصلة القتال حتى نهايته الفاصلة.

٩- الحرب العظمى من انهيار الروسيا حتى الهدنة

انهارت الروسيا في بواكير ١٩١٧. وفي ذلك الوقت كانت شدة الحرب الهائلة تؤثر تأثيرا شديدا على كل الشعوب الأوربية. فقد فسد نظام المواصلات فسادا عظيما في كل مكان، وانقطع الإصلاح العادي وتوقف استبدال وتجديد السفن والسكك الحديدية وما إليها، واستنفدت المواد بجميع أنواعها وتدهور إنتاج الأطعمة وسحبت من الصناعات لجماهير متزايدة من الرجال وتوقفت أعمال التعليم وتناقص باطراد ما اعتاده الناس من أمن الحياة ونزاهاتها.

وكان يتزايد في كل يوم عدد السكان الأوربيين الذين ينقلون من بيئات وأحوال ألفوها، إلى ظروف جديدة كانت تؤلمهم، وتضيق عليهم وتستثيرهم وتفسد أخلاقهم. ولكن الروسيا كانت أول الدول وأكثرها مكابدة وعناء من جراء ما أصاب المدنية من زعزعة عامة خلعتها من جذورها. ذلك أن الأوتوقراطية الروسية لم تكن شريفة ولا ذات كفاية. وكان القيصر شأن كثير من أسلافه قد استسلم لحالة تقوى جنونية، وتسلط على البلاط دجال ديني، هو راسبوتين، الذي كانت نحلته ذات شنعة لا تستطيع التحدث عنها فهي فضيحة صارخة في وجه العالم. ومن وراء حكم هذه التصوفية القذرة، كانت النذالة والبلادة تسيء إدارة الحرب.

فكان الجنود الروس العاديون يرسلون إلى ميدان القتال بغير مدفعية تعضدهم، وبدون ذخائر للبنادق نفسها، وكان ضباطهم وجنرالاتهم يضيعونهم ويلقون بهم في حالة هذيان من الحماسة العسكرية. وظلوا زمنًا ما يتألمون في صمت كما تتألم البهائم؛ ولكن هناك حدا لتحمل الناس، حتى أشدهم جهلاً، فكان يسري في هذه الجيوش التي يغدر برجالها كبراؤهم ويضيعونهم، شعور عميق بالاشمئزاز من القيصرية. ومنذ نهاية ١٩١٥ فما بعدها كانت الروسيا مصدرا للقلق المتزايد لدى حلفائها في الغرب. وظلت طوال ١٩١٦ متخذة في الغالب خطة الدفاع، وراجت إشاعات تذكر صلحا منفردا مع ألمانيا. كما أن رومانيا لم تلق منها إلا مساعدة لا تذكر.

وفي ٢٩ ديسمبر ١٩١٦ قتل الراهب راسبوتين أثناء مأدبة غداء أقيمت في بتروجراد، وبذلت محاولة متأخرة لإعادة تنظيم القيصرية. وما وافى مارس حتى أخذت الأمور تتفاقم بسرعة؛ فتطور الشغب على الطعام في بتروجراد إلى عصيان ثوري؛ وحاولت الحكومة إيقاف جلسات مجلس الدوما، وهو الهيئة النيابية، كما قامت محاولات للقبض على الزعماء الأحرار، وتكونت حكومة مؤقتة تحت رياسة الأمير لفوف، وتنازل القيصر عن العرش في ١٥ مارس.

ومضى زمان لاح فيه أنه عسى أن تتمخض الأمور عن ثورة معتدلة مقيدة غير جامحة، وربما كان ذلك في ظل حكم قيصر جديد. ثم أصبح من الجلي أن ثقة الشعب الروسي قد دمرت تدميرا تجاوز كثيرا حدود مثل هاته التسويات. فإن الشعب الروسي استبدت به السآمة من النظام القديم لكل ما في أوربا من أشياء: من القياصرة والحروب والدول الكبرى؛ وكل ما كان يطلبه هو الراحة، والراحة السريعة مما كابد من شقاوات لا تطاق. ولم يستطع الحلفاء فهم ما في الروسيا من حقائق؛ فإن رجال السياسية والدبلوماسية منهم

كانوا أجهل الناس بالروسية؛ فإنهم لما كانوا من المهذبين الذين يوجهون اهتمامهم إلى البلاط الروسي لا الروسيا نفسها، فقد وقعوا في الخطأ تلو الخطأ حيال الموقف الجديد. ولم تكن النزعة الجمهورية لتلقى كثيرا من رحابة الصدر من رجال السياسة والدبلوماسيين، بل ظهر منهم ميل جلي إلى مضايقة الحكومة الجديدة بأكبر قدر مستطاع. وكان على رأس الحكومة الجمهورية الروسية زعيم بليغ جذاب اسمه كيرينسكي وجد نفسه هدفًا لهجمات قوى سرية لحركة ثورية أبعد غورا، هي "الثورة الاشتراكية" في أرض بلاده، وموضع إعراض من الحكومات المتحالفة في الخارج. ولم يكن حلفاؤه ليسمحوا له بأن يعطى الشعب الروسي مستقرا ولا سلاما خارج حدودهم. فكانت الصحافة الفرنسية والبريطانية لا تني تلاحق ذلك الحليف المنهك بالمطالبة بهجوم قوي جديد، ولكن عندما حدث للفور أن الألمان قاموا بهجوم قوي على ريجا بحرا وبرا، هلعت وزارة البحرية البريطانية خوفًا من احتمال القيام بحملة في البلطيق لنجدة الروس.

وكان أن اضطرت الجمهورية الروسية الجديدة إلى القتال بلا معين. وبالرغم من تسلط الحلفاء البحري العظيم ومن الاحتجاجات المريرة التي نشرها الأميرال فيشر الإنجليزي (١٨٤١ – ١٩٢٠) فإنا نسجل أن الحلفاء فيما عدا قيام غواصاتهم ببعض الهجمات، تركوا للألمان السيادة المطلقة على بحر البلطيق طوال الحرب كلها.

وكانت الجماهير الروسية مصرة على إنهاء الحرب. وقد ظهر إلى عالم الوجود في بتروجراد هيئة تمثل العمال والجنود العاديين، هي السوفييت، وكانت هذه الهيئة تصخب مطالبة بمؤتمر دولي من الاشتراكيين يعقد في استوكهلم. وكثرت ببرلين في ذلك الزمان حوادث الشغب من أجل الطعام، واستبد السأم من الحرب بالألمان والنمسويين على السواء، وليس لدينا شك إذ نستضيء الآن بنور ما أعقب ذلك من حقائق، أن عقد ذلك المؤتمر كان لابد معجلاً بصلح معقول على أسس ديمقراطية في ١٩١٧ ومحدثًا ثورة ألمانية عاجلة.

وتوسل كيرينسكي إلى حلفائه في الغرب أن يسمحوا لهذا المؤتمر أن ينعقد، ولكنهم خشوا أن يحدث انعقاده انفجارا للمذاهب الاشتراكية والجمهورية يعم العالم، فرفضوا طلبه، بالرغم من الاستجابة الحسنة التي أبدتها أغلبية صغيرة لحزب العمال البريطاني. وظلت الجمهورية الروسية" المعتدلة" تحارب بلا معاونة مادية ولا معنوية من الحلفاء، ثم قامت في يوليه بجهد هجومي مستيئس أخير. ولكنه فشل بعد أن أصاب شيئًا من النجاح المبدئي، ونزلت بالروسيين مذبحة أخرى كبيرة.

وكان احتمال الروس قد بلغ عندئذ أقصى مداه. فنشبت في صفوف الجيوش الروسية حركات التمرد، وبخاصة في الميدان الشمالي. وفي ٧ نوفمبر ١٩١٧، سقطت حكومة كيرينسكي وتملكت السلطة هيئة السوفييت التي يسيطر عليها الاشتراكيون البلاشفة برياسة لينين، وتعهدت بإبرام الصلح غير آبهة بالدول الغربية. وبذلك "خرجت" الروسيا من الحرب خروجا قاطعا.

وفي أبريل من ١٩١٧ قام الفرنسيون بهجوم في شمبانيا أخفق دون اختراق صفوف الألمان وكلف المغيرين أفدح الأثمان ولم يأت بأية ثمرة. وإذن فقد جاء في نهاية ١٩١٧ دور من الحوادث أشد ما يكون

مواءمة لألمانيا. لو أن حكومتها كانت تحارب من أجل الطمأنينة وحسن الحال لا للفخار والانتصار. ولكـن شعوب الدول الوسطى ظلت حتى النهاية نفسها وحتى بلغت أشد درجات الإعياء، مقيدة بغاية ثابتة هي بـذل الجهد للوصول إلى النصر التام.

وللوصول إلى تلك الغاية لم يعد من الضروري فقط مقاومة بريطانيا بل إخضاعها وإذلالها، ولكي تبلغ ألمانيا تلك الغاية جرت أمريكا إلى دائرة أعدائها. فإن حملة الغواصات ظلت تزداد حدة طوال ١٩١٦، ولكنها كانت حتى ذلك الحين تحترم السفن المحايدة. وفي يناير ١٩١٧ أعلنت ألمانيا أنها ستفرض علـى بريطانيـا وفرنسا حصرا بحريا أشد وأكمل، وحذرت جميع الدول المحايدة بأن تسحب سفنها من البحـار البريطانيـة. وابتدأت عملية إغراق لسفن العالم بلا تمييز، مما اضطر الولايات المتحدة أن تدخل الحرب فـي ٦ أبريـل ١٩١٨. وبينما الروسيا تتداعى طيلة ١٩١٧ وتصبح غير قادرة على شيء، كان الشعب الأمريكـي يتحـول بسرعة واطراد إلى أمة حربية عظيمة. ولم تؤت حملة الغواصات المتحللة من كل قيد التي من أجلهـا قبـل الاستعماريون الألمان خطر خلق هذا الخصم الجديد لأنفسهم، ما كان متوقعا لها مـن توفيـق. إذ أظهـرت البحرية البريطانية أنها أوسع حيلة وأكثر تفننًا من الجيش البريطاني؛ وحدث تطـور سـريع فـي الوسـائل المضادة للغواصات تحت الماء، وعلى صفحته وفي الهواء؛ وبعد أن انقضى شهر أو أكثر مـن التـدميرات الخطيرة انخفض أثر الغواصات كثيرا. ووجد البريطانيون أن من الضروري أن يعيشوا على نظام جرايـات الأطعمة؛ ولكن القواعد وضعت وضعا متينًا وأديرت بكفاية، وأظهر الجمهور روحا رائعة وذكـاء كبيـرا، وأبعد عن البلاد خطر المجاعة والفوضى الاجتماعية، وإن على قيد بضع خطوات.

ومع ذلك فإن الحكومة الإمبراطورية الألمانية واصلت القتال. فلئن لم تقم الغواصات بكـل مـا كـان متوقعا منها، ولئن كانت جيوش أمريكا تتجمع تجمع السحاب الممطر الراعد، فقد كان من المقطـوع بـه أن الروسيا قد انهارت وزال كل خطر لها. وفي أكتوبر وجه الألمان نفس النوع من هجوم الخريف الذي أسـقط صربيا في ١٩١٥ ورومانيا في ١٩١٦ إلى إيطاليا فسحقها سحقًا. فانهارت الجبهة الإيطاليـة بعـد معركـة كابوريتو، وانثالت الجيوش النمسوية الألمانية في مقاطعة فينيتيا (Venetia) حتى أصـبحت علـى مرمـى المدافع من مدينة البندقية. ومن ثم شعرت ألمانيا بأن لها ما يبرر التشدد إزاء مقترحات الـصلح الروسـية، وكان من أثر صلح برست ليتوفسك (٢ مارس ١٩١٨) أن أخذ الحلفاء في الغرب فكرة عن النصر الألمـاني ومغزاه ومعناه عليهم. ذلك أنه كان سلاما ساحقًا فادحا، أملى مع أقصى ما قد يبديه منتصر واثق مطمئن من الصلف والكبرياء.

وظلت الجيوش الألمانية تنتقل طوال الشتاء من الميدان الشرقي إلى الغربي، والآن في ربيـع ١٩١٨ سيق ما تبقى لألمانيا الجائعة المكدودة النازفة من الحماسة الكليلة الواهنة للقيام بالجهد النهائي العظيم الـذي قدر له أن ينهي الحرب حقًا وفعلاً. وبقيت القوات الأمريكية بضعة أشهر في فرنسا، ولكـن كتلـة الجـيش الأمريكي كانت لا تزال وراء الأطلسي. فكان ذلك أنسب الأوقات لتسديد الضربة النهائية للجبهة الغربيـة إن كانت هذه الضربة ستسدد يوما ما.

فشنوا أول هجوم على البريطانيين في منطقة السوم. فأخذوا على غرة قواد الخيالة غير الكبيري الذكاء الذين مازالوا يتولون القيادة في جبهة لا شك أن الخيالة فيها عبء لا غناء فيه. وفي ٢١ مارس في "كارثـة جوغ Gough" رد الجيش البريطاني الخامس في غير نظام حتى وصل إلى قريب من أميان. وكان التحاسد بين القواد البريطانيين والفرنسيين قد حال دون توحيد القيادة لجيوش الحلفاء في فرنسا، ولم يكـن هنـاك أي احتياطي عام أيا كان شأنه خلف جوغ. فقد الحلفاء قرابة ألف مدفع، وعشرات مـن آلاف الأسـرى. وظـل الألمان طيلة شهري أبريل ومايو يمطرون الجبهة المتحالفة بالهجوم وراء الهجوم. وأوشكوا أن يحدثوا ثغرة في صفوف الحلفاء في الشمال، ثم دفعوا كل ما أمامهم دفعا إلى المارن الذي وصلوه في ٣٠ مايو ١٩١٨.

وكان هذا أقصى غاية الجهد الألماني. ولم يكن من ورائه من شيء إلا وطن منهك. ووضع المارشال فوش في القيادة العليا لكل الجيوش المتحالفة. وكانت هناك جيوش جديدة تسرع من بريطانيا نحو الميدان عبر القنال الإنجليزي، وكانت أمريكا تصب عند ذاك الرجال بمئات الألوف إلى فرنسا. وفي يونيه قام النمسويون المتعبون بجهد نهائي في إيطاليا، وانهاروا أمام هجوم إيطالي مضاد. وفي أوائل يونيه بدأ فـوش [1] يقـوم بهجوم مضاد. ولما وافى يوليه كان المد أخذ ينحسر وأخذ الألمان يرتدون إلى الـوراء. وأظهـرت معركـة شاتوتييري (١٨ يوليه ١٩١٨) جودة صنف الجيوش الأمريكية الجديدة. وفي أغسطس افتـتح البريطـانيون طعنة عظيمة موفقة، وتخاذل الانبعاج في الخطوط الألمانية نحو أميان ثم انهار. قال لودندورف "كان يوم ٨ أغسطس يوما أسود في تاريخ الجيش الألماني". وأكد الهجوم البريطاني في سبتمبر على خط هندنبرج نصر الحلفاء.

انتهت ألمانيا وولّت روح القتال من جيشها، وكان أكتوبر شهر هزيمة وقهقرى على امتـداد الجبهـة الغربية بأكملها. وفي أوائل نوفمبر كانت الجيوش البريطانية في فالنسيين والأمريكيون فـي سـيدان. وفـي إيطاليا كذلك كانت الجيوش النمسوية في حالة تقهقر غير منتظم. ولكن قوات آل هوهنزولرن وآل هابـسبرج كانت تنهار آنذاك في كل مكان. وكان التحطم في النهاية سريعا سرعة مدهشة. ولـم يـستطع الفرنـسيون والإنجليز أن يصدقوا صحفهم وهي تنشر يوما إثر يوم أخبار الاستيلاء على مئات أخرى من المدافع وألوف أخرى من الأسرى. وفي سبتمبر ترتب على هجوم للحلفاء على بلغاريا اندلاع الثورة فيها وتقديم مقترحـات الصلح. وأعقبتها تركيا بالتسليم بلا قيد في نهاية أكتوبر، والنمسا والمجر ٣ نـوفمبر. وحاولـت ألمانيـا أن تخرج أسطولها ليقوم بآخر نزال، ولكن البحارة تمردوا في ٧ نوفمبر. وفر القيصر وولي العهد فـي عجلـة وبلا أقل كرامة إلى هولندة. وفي ١١ نوفمبر وقعت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها.

لقد دامت الحرب أربع سنوات وربعا بعد أن جرت إلى أتونها بالتدريج كل إنسان تقريبـا فـي العـالم الغربي على الأقل. ويربو عدد من قتل فعلاً أثناء القتال على ثمانية ملايين فرد، كما مات عشرون أو خمسة وعشرون مليونًا آخرون بسبب المصاعب والفوضى التي ترتبت عليها. وقاسى عشرات الملايين الأمرين أو

---

[1] الماريشال فوش (١٨٥١ – ١٩٢٩) هو ماريشال فرنسا، وكان له الفضل في صد الألمان وكيل الضربة النهائية لهـم فـي أخريات الحرب. وشغل منصب رئيس هيئة أركان حرب جيوش الحلفاء ثم صار قائدا عاما. (المترجم).

ألم بهم الضعف والهزال بسبب سوء التغذية والشقاء. وكانت نسبة عظيمة من الأحياء تشتغل عند ذاك في أعمال الحرب، في التدريب والتسليح وفي صنع المهمات وفي المستشفيات وفي العمل بدلاً من الرجال الذين انضموا إلى الجيش، وما أشبه ذلك من أعمال. وراح رجال الأعمال يكيفون أنفسهم وفقًا للأساليب المعتادة التي لا بد منها لجمع الربح في عالم محوط بالأزمات. فلقد أصبحت الحرب بالفعل جوا وعادة من عادات الحياة ونظاما اجتماعيا جديدا. ثم انتهت بغتة.

في لندن أعلنت الهدنة حوالي الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ١١ نوفمبر. فأنتجت توقفًا عجيبا في كل عمل روتيني عادي من أعمال الحياة. فخرج الكتبة من مكاتبهم وأبوا أن يعودوا إليها، وهجر عمال المحلات دكاكينهم، وأخذ سائقو سيارات الأومنيبوس وسيارات اللوري التابعة للجيش يقومون برحلات من تلقاء أنفسهم مع من يركب معهم من جمهور ذاهل هاتف لا مقصد خاصا له ولا يهمه أني ذهب به. وسرعان ما ازدحمت الشوارع بجماهير غفيرة مندهشة، ورفعت الأعلام من أعلى كل بيت وكل دكان له علم. ولما حل المساء أنير بأسطع الأنوار عدد كبير من الشوارع الكبرى التي كانت تطفأ أنوارها خشية الغارات الليلية. وكان من العجيب جدا أن يرى الإنسان حشودا متزاحمة من الناس تحت الأنوار الصناعية من جديد. وشعر كل إنسان بأنه فقد الغاية في الحياة، مع ضرب من شعور الارتياح المتأزم المؤلم. لقد انتهت الحرب آخر الأمر. لن يقتل بعد ذلك أي إنسان في فرنسا ولن تحدث أية غارات جوية على لندن، وسيصبح كل شيء على ما يرام.

وأراد الناس أن يضحكوا وأن يبكوا فلم يجدوا إلى الضحك ولا البكاء سبيلاً. وأخذ الشباب الناهض والجنود الذين في إجازات الراحة يكونون مواكب هزيلة صاخبة كانت تشق طريقها خلال الجماهير المتحركة، وتبذل قصاراها للتعبير عن المراح والسرور. وجرت الجماهير مدفعا ألمانيا من الغنائم أخذته من البول مول [1]، حيث نصب للعيان عدد عظيم منها (أي الغنائم) ثم جر إلى ميدان الطرف الأغر حيث أحرقت مركبته. وكانت الصواريخ ومفرقعات الأطفال تلقى في كل مكان. ولكن مظاهر السرور المتجمع كانت قليلة. فإن كل إنسان تقريبا قد خسر كثيرا أو تألم كثيرا حتى لم يعد يستطيع أن يفرح بأي قدر من حماسة.

[1] البول مول: شارع عظيم بلندن بالقرب من حديقة سان جيمس وقصر باكنجهام. (المترجم).

الفصل التاسع والثلاثون

عشرون سنة من التردد

١- دور إجهاد خلقي.

٢- الرئيس ولسن في فرساي.

٣- دستور عصبة الأمم.

٤- معاهدات ١٩١٩ – ١٩٢٠.

٥- البلشفية في الروسيا.

٦- دولة إرلندة الحرة.

٧- الشرقان الأقصى والأدنى.

٨- الديون والنقود والتثبيت النقدي.

٩- الانهيار العظيم في ١٩٢٩.

١٠- المأساة الإسبانية.

١١- قيام النازية.

١٢- العالم ينزلق نحو الحرب.

١- دور إجهاد خلقي

كان عالم الحضارات الأوربية الغربية في السنوات التي أعقبت نهاية الحرب العظمى أشبه شيء برجل أجريت له عملية جراحية خطيرة الحيوية تمت كأسوأ وأخشن ما تجرى العمليات، حتى لقد أضحى في شك في استطاعته أن يواصل الحياة أو أن كيانه بلغ من التزلزل وبلغت إصابته من الخطورة الحد الذي يقرب بينه وبين منيته. كان عالما ذاهلاً مأخوذًا مبهوتًا. هزمت فيه الروح الاستعمارية العسكرية، ولكن بثمن باهظ فادح، بعد أن أصبحت ذات يوم قاب قوسين أو أدنى من النصر. وعاد كل شيء إلى مجراه بعد أن زال التأزم الشديد الذي ولده النزاع، وإن كانت العودة في شيء من التراخي والوهن وبطريقة عاصفة متقلقلة. كان هناك ظمأ عام إلى السلام، وحنين عام إلى ما فقده الناس أثناء الحرب من حرية ورخاء، دون وجود أي قوة عزيمة تحصل للناس على هذه الأشياء وتحتفظ بها في أمان.

ولقد حل الفساد بكثير من النواحي. وكما حدث في حالة الجمهورية الرومانية إبان محنة الحروب البونية، فقد انسابت الآن ايضا مظاهر عارمة من العنف والقساوة. وأصيبت أخلاقيات الشئون المالية والاقتصادية بانحلال كبير. فإن أرواحا كريمة ضحت بنفسها رخيصة في سبيل مطاليب الحرب المستعجلة، ولكن مكرة الرجال وسفلتهم عالمي الأعمال والمال ظلوا يرقبون فرص الزمان العصيبة القلابة حتى استطاعوا أن يقبضوا بيد من حديد على موارد بلادهم وعلى مقاليد السلطان السياسي فيها. إذ استحوذ على القوة والسلطان في كل مكان رجال كانوا يعدون مغامرين مريبين مغمورا في سمعتهم قبل ١٩١٤ على حين كدح من هم أفضل منهم بغير طائل. وكان من العسير إيقاف هذه الطبقة، طبقة الأغنياء المحدثي الغنى والأقوياء الحديثي القوة عند حدهم في هذا الدور من الإنهاك الذي أعقب الحرب.

وتمت أثناء الحرب في كل البلدان التجارية تقريبا تجارب خارقة في الإدارة الجماعية. إذ أدرك المسئولون أن الوسائل العادية لتجارة أوان السلم من أمثال المماحكة في السوق والتمسك انتظارا لصفقة ملائمة، أمور لا تستقيم مع حاجات الحرب السريعة. فوضعت تحت الرقابة العامة، شئون النقل والوقود ومواد الغذاء وتوزيع المواد الخام التي لم يقف الأمر فيها عند حد الثياب والإسكان وما أشبهها وحدها، بل كل شيء لازم لمهمات الحرب.

ولم يعد من حق الفلاحين أن يتركوا شبرا من ارضهم لا يستغلونه في الزراعة أيما استغلال؛ ووضعت الماشية في حدائق الغزلان وحرثت أراضي الكلأ، سواء برضاء صاحبها أو بغير رضاه. وقيدت عمليات مباني الترف وعمليات تحسين مراكز الشركات في ميدان المضاربة. والواقع أنه تأسس ضرب من دولة الطوارئ الاشتراكية في معظم دول أوربا المتحاربة. كانت عملية تنطوي على الارتجال والفجاجة والإسراف ولكنها كانت أجدى من معقدات اقتناص الربح الذي لا نهاية له، وأصلح مما كان يأتيه أصحاب المشاريع "والمساعي الخاصة" من احتكار ومن اختزان للمواد ومن إنتاج لا ترابط بين أجزائه.

كذلك عم الناس في سنوات الحرب الأولى في كل الدول المتحاربة شعور عميم بالأخوة وبالحاجة إلى تأدية الخدمة من أجل المصلحة المشتركة. وكان عامة الرجال يضحكون في كل مكان بالنفس والصحة من أجل ما اعتقدوا أنه خير الدولة العام. ولطالما تلقوا مقابل هذا وعودا بأن الظلم الاجتماعي سوف يتناقص بعد الحرب، وسوف يزداد الإخلاص العام للمصلحة المشتركة ويصبح أعم وأشمل. ففي إنجلترة مثلاً كان المستر لويد جورج مصرا بوجه خاص على جعل بريطانيا بعد الحرب "أرضا تليق بالأبطال". وأخذ يتنبأ بدوام هذه الاشتراكية الجديدة التي أوجدتها الحرب وبقائها إلى زمان السلم بخطب ألقاها مليئة بالحماسة والروعة.

وأنشئت في بريطانيا وزارة للتعمير، كان مفهوما أنها تخطط نظاما اجتماعيا جديدا أحدث وأكرم، وظروفًا للعمال أحسن، وإسكانًا خيرا من الموجود، وتوسعة لنشر التعليم ومراجعة كاملة وعلمية للنظام الاقتصادي. وكانت كلمة "التعمير" تضفي على حياة الناس لونًا جميلاً وتحيي آمال الجماهير المحزونة في كل مكان. كذلك بذلت وعود جميلة كهذه تبشر بعالم أفضل فأحيت آمالَ عامةِ جنود فرنسا وألمانيا وإيطاليا وقوت من عزائمهم. ولكن ستار هذه الخديعة انكشف في الروسيا مبكرا فأفضى إلى انهيارها. ولذا كان يسري في أدمغة الناس في أوربا الغربية قرب نهاية الحرب تياران من الآمال المرتقبة كل منهما خطر على أخيه. فكان الأغنياء والمغامرون وبوجه خاص المستغلون لظروف الحرب يدبرون خططهم لمنع تطورات من أمثال أن يصبح النقل الجوي ملكًا للدولة، ولاختطاف الصناعات وإدارات السفن والمواصلات البرية وتجارة مواد الغذاء الرئيسية والخدمة العامة على وجه العموم، واستردادها من يد الدولة مرة ثانية إلى قبضة طلاب الأرباح الخصوصيين. ومن أجل بلوغ تلك الغاية أخذوا يعنون مقدما باحتياز الصحف ويشغلون أنفسهم باللجان الحزبية وما إليها؛ على حين كانت جماهير الناس من الناحية الأخرى، تشخص أمامها في سذاجة انتظارا لحالة للجماعة الإنسانية يكون الرائد في تخطيطها هو مصلحتهم فقط، ويكون الأساس فكرات عامة سخية. وتاريخ ١٩١٩ يغلب عليه الاصطدام بين تياري الآمال المرتقبة هذين. وسارعت حكومة "رجال الأعمال" التي في الحكم إلى بيع كل مشروع عام مربح إلى المضاربين الخصوصيين.

وعند منتصف ١٩١٩ كانت جموع العمال في أرجاء العالم كافة خائبة الرجاء خيبة ظاهرية ومنفعلة غاضبة كل الغضب. ذلك بأن "وزارة التعمير البريطانية" وضريباتها في البلدان الأجنبية اتخذت خدعة للعيون ترمي إلى تهدئة الأعصاب. وشعر الرجل العام بأنه قد خُدِع. فلن يكون هناك تعمير، بل استرداد للنظام القديم ليس غير – ولكن على صورة أشد كآبة وبشاعة تمليها ظروف الفقر المتفشي في هذا الزمن الجديد.

وقد ظلت مأساة الحرب أربع سنوات وهي تحجب المسألة الاجتماعية التي كانت تتطور في الحضارات الغربية طوال القرن التاسع عشر. والآن وقد وضعت الحرب أوزارها، فإن هذه المسألة ظهرت جهمة الشكل عارية مجردة، على صورة لم يرها الناس من قبل.

ومما زاد تلك الاستثارات والصعاب شدة وزاد من أثر ما عم العالم من عدم طمأنينة في هذا الزمان الجديد، ظهور اضطراب عميق أصاب النقد والائتمان [1]. فإن النقود وهي نمو معقد من الأوضاع والتقاليد

---

[1] الائتمان (Credit): هو في علم الاقتصاد الثقة بأن يدفع الشخص ثمن البضائع مؤجلاً. (المترجم).

أكثر منها نظام للقيم، حرمت داخل الدول المتحاربة من سند معيار للذهب [1]. إذ احتفظ الناس بالذهب للتجارة الدولية دون غيرها، وكانت كل حكومة أفرطت في إصدار ورق النقد لاستعماله داخليا. حتى إذا تحطمت حواجز الحرب بات التداول الدولي ضربا من الاضطراب المتأرجح تأرجحات جنونية، ومصدر غم وكرب لكل الناس فيما عدا عدد قليل من المقامرين والمضاربين. فتصاعدت الأسعار وتصاعدت – وكان لذلك أسوأ الأثر على كل كاسب أجر. فصاحب العمل يقاوم كل مطالبة له بزيادة الأجور؛ على حين كانت شئون الطعام والمسكن والثياب تحتكر لغير مصلحته وتبهظ كاهله. أضف إلى ذلك أمرا هو أخطر ما في الموقف وهو أنه أخذ يفقد كل ثقة اختلجت في نفسه قط في أن يؤدي أي صبر من ناحيته أو إقبال على الصناعة إلى التخفيف حقًا من ذلك الإعواز وتلك المتاعب التي كان يقاسى من جرائها ما يقاسى.

وكانت الحاجة ماسة إلى المنازل في معظم الأقطار الأوربية. إذ توقف الناس طيلة الحرب لا عن البناء وحده بل عن الإصلاحات كذلك. وبلغ النقص في المنازل في ١٩١٩ إلى رقم يتراوح بين ٢٥٠,٠٠٠ إلى مليون منزل في بريطانيا وحدها. وتكاد الأحوال في ألمانيا وفرنسا أن تكون أسوأ وأنكى. فإن جماهير غفيرة من الناس كانوا يعيشون في حالة من التزاحم الشديد تُسخط النفوس، وكان أوقح أنواع الاستغلال الجشع للشقق والبيوت يحدث في كل مكان. كان الموقف عسيرا وإن لم يكن مستحيلاً. فلو أتيحت نفس الحماسة والهمة وتضحية الذات التي طوعت التغلب على الأزمة الهائلة في ١٩١٦، لأمكن القيام بالواجب الأكثر سهولة بكثير، واجب إنشاء مليون من المنازل، في مدى سنة أو أكثر قليلاً. ولكن الاحتكارات كانت تضيق الخناق على مواد البناء، وكان النقل في حالة غير منتظمة، ولم يكن بناء المنازل يعود على أصحاب المشروعات الخاصة بالإيجار الذي يكون في متناول من يحتاجون إليها من الناس. ولذا فإن أصحاب المشروعات الخاصة [2]، وهم أبعد ما يكونون عن الاهتمام بالحاجة العامة إلى المباني، قصروا همهم على الاحتكار والمضاربة بالإيجارات وبالتأجير من الباطن. وكان الحال عند ذلك يستدعي أن تقدم الحكومة المنح للنهوض بالمشروع لكي يكون بناء المنازل عملاً مربحا.

وثَم مثال آخر نسوقه هنا دليلاً على عدم كفاية نظام الاستغلال الجشع في حل مشكلات ذلك الأوان، فقد حدث تكدس شديد للبضائع في المستودعات وتزعزع في أنظمتها، بسبب نقص وسائل النقل على الطرق البرية عما يكفي. فكانت الحاجة ماسة إلى السيارات الرخيصة حتى تنقل البضائع والعمال من مكان إلى آخر. ولكن أصحاب المشروعات الخاصة في صناعة السيارات تصوروا أنه مما يزيد في أرباحهم كثيرا أن ينتجوا عربات فاخرة غالية الثمن من أجل أولئك الذين ملأت الحرب جيوبهم بالمال. وكان من أيسر الأمور أن تُحول مصانع المهمات وهي مبنية بمال مدفوع نقدا إلى مصانع لإنتاج السيارات الرخيصة بالجملة، ولكن الرأسماليين أصحاب المشروعات الخصوصية أصروا على أن تبيع الدولة تلك المصانع؛ فلا هم لاقوا حاجة

---

[1] معيار الذهب (Gold Standard): التثبيت القانوني لإحدى العملات على ما يعادلها من الذهب. (المترجم).

[2] أصحاب المشروعات أو المساعي الخاصة (Private enterprise): هم الرأسماليون الذين يقومون باستثمار أموالهم في الصناعة وغيرها. (المترجم).

الجمهور بأنفسهم، ولا هم سمحوا للدولة بأن تفعل ذلك. كذلك أيضا أصر أصحاب المشروعات الخاصة – والعالم في أفظع المحن والمتاعب بسبب نقص السفن – على إغلاق مصانع السفن التي أنشأتها الدولة حديثًا. وتزعزع النقد في كل مكان، ولكن أصحاب المسعى الخاص كانوا في شغل بشراء وبيع الفرنكات أو الماركات وزيادة الحال حرجا.

تلك حقائق لا بد لمؤرخ الإنسانية أن يلحظها بأقل قدر مستطاع من التعليق. فإن صاحب المسعى الخاص في أوربا ١٩١٩ و ١٩٢٠ لم يظهر رغبة ولا كفاية لمقابلة حاجات ذلك الزمان الماسة. ولم يكادوا يشعرون بانطلاق أيديهم من قبضة الرقابة حتى انسابوا انسيابا طبيعيا إلى المضاربة والاحتكار وإنتاج الترف. وساروا في طريقهم طريق الحصول على أقصى ما يستطيعون من الأرباح. ولم يظهروا أي إدراك لما يتكنفهم من أخطار؛ كما كانوا يقاومون كل محاولة للحد من أرباحهم أو جعلهم معتدلة، أو للتحرك إلى طريق الخدمة والإفادة ولو كان ذلك في مصلحتهم.

واستمر هذا في وجه أبلغ مظاهر التكره المفرط من جانب جمهرة السكان الأوربيين، تلقاء ما يقاسونه من الحرمان والمتاعب المطولة الأمد. وكانت هذه الجماهير تعيش في ١٩١٣ كما عاشت منذ مولدها؛ وكانوا يألفون نوع الحياة التي يعيشون. فأما جماهير ١٩١٩ فهم من الناحية الأخرى، قوم انتزعوا من ديارهم في كل مكان لكي ينخرطوا في الجيوش ولكي يذهبوا إلى مصانع المهمات. وهكذا فقدوا عادات الرضا والتسليم بالواقع، وغدوا أشد جرأة وأقدر في التصرف تصرف اليائسين. وقد مرت جماهير عظيمة من الرجال في أدوار تدريب بثت فيهم الوحشية الصارخة، كالتدريب على السونكي مثلاً؛ فتعلموا الفظاعة والشراسة، وقلّت مبالاتهم بارتكاب القتل والتعرض له على السواء. ومن ثم أصبح القلق الاجتماعي أشد خطرا بكثير.

ولم يكن الأمر أن الجماهير كان لها أو خالت أن لها خطة نظام جديد اجتماعي وسياسي واقتصادي. إذ الواقع أنه لم يكن لهم خطة ولم يكونوا يعتقدون بأن لهم خطة. ولم تكن النقائص التي أومأنا إليها في خطة الاشتراكيين خافية عليهم. بل كان الأمر يتعلق بشيء أشد خطرا من ذلك بكثير. ذلك أنهم بلغ من سخطهم على النظام الحاضر وما فيه من ترف وسرف وتعاسة عامة، أن أصبحوا لا يأبهون بما يحدث من بعده ماداموا يستطيعون تدميره. كان هذا عودة إلى حال عقلية تقارن بتلك التي مهدت السبيل لتفكك الإمبراطورية الرومانية.

أخذت قوى الثورة تتحرك في كل مكان في أوربا ولا سيما في إيطاليا وألمانيا. وأبدت الشيوعية في إيطاليا روحا عدوانية غير عادية. فظهر عمد [1] شيوعيون في نواح مختلفة من إيطاليا، وجرت في بولونيا محاولة مشفوعة بالقوة لتنفيذ مبادئ الشيوعية عمليا. وفي يوليو ١٩٢٠ تولى جيوليتي وهو من دعاة الحياد الذين عارضوا الحرب، رئاسة الحكومة مكان السنيور نيتي. فقام بتجارب متنوعة في "التشارك" بين عمال الصناعات وأصحابها. وفي سبتمبر استولى العمال على كثير من مصانع الصلب وغيرها من المصانع وأخذوا يديرونها على أسس اشتراكية. ولقيت هذه التصرفات تعضيدا ومصادقة من الحكومة.

---

(1) عمد جمع عمدة وهو رئيس القرية أو المدينة كما هو معروف. (المترجم).

واستمر الانزلاق نحو الشيوعية طوال ١٩٢١ في وجه مقاومة متجمعة، وشبت الفتن والأعمال العنيفة في فلورنسا وتريستا وبوجليا وبيزا وأماكن أخرى كثيرة. ذلك أن تدابير جوليتي الرامية إلى صـبغ الـبلاد بالاشتراكية (: تشريكها) أفضت إلى رد فعل عنيف بين الطبقات التي تهمها الملكية الخاصة، ونشأت منظمـة للشباب هي جماعة الفاشست الذين جعلوا سمتهم المميزة الشعر الكثيث والقمصان السود والقوميـة المفرطـة الشدة ومناهضة الاشتراكية (Antisocialism). كانوا يقابلون العنف بالعنف، ويبلغون بـه درجـات مـن التطرف لا عهد للناس بها، فأقاموا عهد إرهاب مضاد للاشتراكية. ووجدوا لهم زعيما ذا همة عالية وروادع أخلاقية واهنة هو بنيتو موسوليني، وكان فيما قبل ذلك صحفيا راديكاليا [1]، وسرعان ما تغلبـت الفاشـستية تحت إدارته الماهرة على اعتداءات الشيوعيين المتفرقة العاطفية. وكانوا يقطعون الطريـق علـى الزعمـاء والكتاب المتحررين ثم يضربونهم بالهراوات. وكانت هناك طريقة حبيبة إلى الفاشـستيين هـي أن يعطـوا جرعات كبيرة من زيت الخروع إلى من ينتقدون تصرفاتهم. وأصبح القتل والـضرب والتعـذيب وإحـراق الأملاك الخاصة للمفكرين المتحررين هي وسائل الرقابة الاجتماعية في إيطاليا. فكأن حكم المناسر قد حـل محل شبح الشيوعية البعيد.

وبلغ الفاشيون في أكتوبر ١٩٢٢ حدا من القوة أتاح لهم أن أصبحوا في الواقـع جيـشًا حقيقيـا وأن استطاعوا الزحف على روما. وأعلنت الوزارة الأحكام العسكرية واستعدت للقتال، ولكن الملك أبى التصديق على هذه التدابير ودعا موسوليني لتولي مقاليد الأمور. فلبى الدعوة وأصبح رئيسا للحكومة، ووافق على حل فرق القمصان السود – وهو وعد لم يبر به أبدا. ووضع الفاشيون موضع الهيمنة على البوليس وعلى قـوات البلاد المسلحة، وقضوا على حرية الصحافة وأصبحت الانتخابات مهزلة مـن المهـازل، وظـل الفاشـيون يهاجمون أعداءهم السياسيين، ويلقون في قلوبهم الرعب ويغتالونهم. بينما أصبح موسوليني يلقب الدوتشي [٢] ديكتاتورا حقيقيا، على حين أخذت أهمية الملك تقل نسبيا.

ومضى زمان استرجعت فيه إيطاليا ضربا معينًا من الكفاية الاقتصادية الخشنة التي لقيـت استحـسانًا عظيما في بعض الدوائر الأوربية. ولكن موضع اهتمام العالم بأسره بالموقف في إيطاليا، كان منحصرا فـي التجربة التي مرت بها إذ تجلى فيها على أخشن الأشكال وأشدها فجاجة ماهية اليـسار المتطـرف واليمـين المتطرف في الشئون الإنسانية المعاصرة. وفيها ظهرت قلة كفاية الأولين وانعدام السمة العملية لديهم، كمـا تجلت السرعة التي ينحدر بها إلى العنف وقطع الطرق أصحاب الملكيات والمـشروعات الخاصـة، عنـدما يضطرون إلى التزام خطة الدفاع. وقد أصبحت إيطاليا كالروسيا سجنًا لكل إنسان حر العقل.

وإنك لتجد ذلك المرض المتسلل وأعني به مخالفة القوانين الذي سبق أن ذكرناه فـي نقـدنا لروايـة ستوكي وشركاه لرديارد كبلنج، زاهيا زاهرا في هذين القطرين. على أن إيطاليا لا تقف بمفردها فـي هـذا المضمار؛ وإنما هي أشد الأمثال اكتمال تطور وسط نزعة عمت هذا الزمان كله. فإن الفاشية وجـدت فـي

[1] الراديكالي: حزب متطرف يدعو إلى التغيير التام في السياسة والإصلاح الشامل. (المترجم).
[2] الدوتشي: معناها الزعيم. (المترجم)

ألمانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى مطاولين ومقادين، ولكن نشاطهم في تلك البلاد وإن أصبح مضايقة أو إزعاجا إلا أنه لم يصل إلى مرتبة الطغيان والاستبداد شأنه في إيطاليا.

٢- الرئيس ولسن في فرساي

أشرنا من قبل إلى تفشي الفوضى الاجتماعية والاقتصادية في جميع المجتمعات الأوربية إبان السنوات التي أعقبت الحرب، وذلك قبل أن ندلي إليك بأي بيان عن العمل الذي بذل في التسوية العالمية التـي كـان مركزها مؤتمر الصلح في باريس، وكان مرد ذلك أن حالة انشغال البال والقلق التي لحقت كل من يـشتغلون بالمشكلات الخاصة من أمثال الدخل والأسعار والعمل وما إليها، كافية تماما لتفسير جو الإنهاك الذي تقدم فيه ذلك المؤتمر نحو الواجب الضخم الملقى عليه. وليس يجوز للإنسان أن يتوقع حياة عامة قوية علـى حـين يشمل الغم والارتباك حياة الأفراد.

وتدور معظم قصة المؤتمر حول مغامرة رجل بعينه، وهو أحد أولئك الرجال الذين تنتخبهم المصادفة أو الصفة الشخصية وتتخذ منهم طرازا تقصد به إلى تخفيف العبء عن المؤرخ. ولقد أصبنا في كتابنا هـذا شيئًا كثيرا من الراحة في تركيز انتباهنا على شخص بعينه إما أن يكون بوذا، أو الإسكندر الأكبر أو يـوان تشوانج أو الإمبراطور فردريك الثاني، أو شارل الخامس، أو نابليون الأول مثلاً – وأن نتخذ منـه نبراسـا يعكس النور على الزمان الذي يعيش فيه. وأسهل زاوية ننظر منها خاتمة الحرب العظمى هي زاوية ارتقـاء الرئيس الأمريكي ولسن مراقي الأهمية العليا في سماء آمال العالم وانتباهه، ثم فشله في تبرير تلك الرفعة.

وكان الرئيس ولسن (١٨٥٦ – ١٩٢٤) فيما سلف من أيامه عالما مبرزا ومدرسـا ضـليعا للقـانون الدستوري والعلوم السياسية عامة. وقد شغل مناصب جامعيـة كثيـرة، وتـولى رئاسـة جامعـة برنـستْن (Princeton) بنيوجرسي. وإن هناك لقائمة طويلة من الكتب تشهد له بالكفاية وتبدي فيه ذهنًا متجها اتجاها كليا إلى التاريخ الأمريكي والسياسة الأمريكية. تقاعد عن العمل العلمي وانتخب حاكما لولاية نيوجرسي فـي ١٩١٠. وفي ١٩١٣ رشحه الحزب الديمقراطي لرياسة الجمهورية، وأصبح رئيسا للولايات المتحدة نتيجـة لخلاف عنيف شجر بين الرئيس السابق روزفلت والرئيس تافت، تصدع بسببه الحزب الجمهوري صـاحب السلطات.

وكأنما أخذت أحداث أغسطس ١٩١٤ الرئيس ولسن ومواطنيه على غرة. فإنا نراه يرسل برقية في ٣ أغسطس يعبر فيها عن استعداد للتوسط. ثم أخذ يراقب النزاع ردحا من الزمان هو وأمريكا. وقد لاح بـادئ الرأي أنه لا الشعب الأمريكي ولا رئيسه كانوا يفهمون فهما واضحا ولا فهما عميقًا تلك الكارثة التي تجمعت قواها في زمن غير قصير. فقد أقاموا تقاليدهم قرنًا من الزمان على عدم الاهتمام بأمور العالم القـديم، ولـم يكن تغيير هذا الاتجاه بالأمر الهين. على أن الصلف الاستعماري الذي أبداه البلاط الألمـاني، ومـا زعمـه بعض الناس من ميل السلطات العسكرية إلى بث الذعر الميلودرامي، وغزوهم لبلجيكا، واسـتعمالهم للغـاز السام، ومضايقتهم العالم بحملة الغواصات، قد أوجدت في الولايات المتحدة عداء للألمان لم يبرح يزداد حدة وعمقًا مع تقدم الزمن بالحرب. ولكن ما درجوا عليه من تقاليد عدم التدخل السياسي ما يسمو على خلافـات أوربا كل السمو، منعت الرئيس عن التدخل الفعلي. فاتخذ نغمة الترفع والتسامي. وصرح بأنه غير مـستطيع

أن يحكم على أسباب الحرب الكبرى وعدالتها. واتخذ لنفسه موقف مسالمة ودعوة إلى التهدئة يرجع إليه الفضل في إعادة انتخابه لرياسة الجمهورية.

ولكن حال العالم لا ينصلح بمجرد النظر إلى فعلة السوء نظرة عدم استحسان شاملة لا تكاد تميز بين هذا وذاك. وعند نهاية ١٩١٦ شجع الألمان على الاعتقاد بأن الولايات المتحدة لن تدخل الحرب بأي حال، وفي ١٩١٧ ابتدءوا حملة الغواصات التي لا تتقيد بشيء وإغراق السفن الأمريكية بلا إنذار. وجرت هذه الحماقة الأكيدة الرئيس ولسن والشعب الأمريكي إلى الحرب جرا كذلك دفعوا كرها إلى محاولة تحديد علاقتهم بسياسة العالم القديم على أسس أخرى غير مجرد التعالي والتباعد. وتغيرت أفكارهم وخلقهم بغاية السرعة. فدخلوا الحرب في صفوف الحلفاء وإن لم ينضموا معهم في أي حلف. خاضوا الحرب باسم مدنيتهم العصرية، لكي يوقعوا النكال بالمعتدين وينتهوا من موقف سياسي وعسكري لا يطاق.

والأحكام المتريثة المتأنية كثيرا ما تكون خير الأحكام. فإن الرئيس ولسن حاول في سلسلة من "المذكرات" أطول وأكثر تنوعا من أن تتحملها المعالجة التفصيلية في هذا الكتاب، حاول وهو في حالة تشبه من يفكر بصوت مرتفع على مسمع من العالم قاطبة، أن يبين الفروق الجوهرية بين الدولة الأمريكية وبين دول العالم القديمة الكبرى. وبسط للناس فكرة للعلاقات بين الدول هبطت على نصف الكرة الشرقي بأجمعه هبوط التنزيل، هبوط أمل في نشوء عالم أفضل.

وكان المأمول بمقتضى هذه الفكرة أن تتوقف الاتفاقيات السرية؛ وتقرر "الأمم" مصائرها بأنفسها؛ ويكف الناس عن العدوان العسكري وتصبح طرق البحار حرة مباحة للبشرية كافة. فهذه الأمور العادية المألوفة لدى الفكر الأمريكي. هذه الرغبات الخفية المستقرة في نفس كل سليم العقل، هبطت على ما كان يخيم على أوربا من ظلمة الغضب والنزاع هبوط نور عظيم. وأخيرا شعر الناس أن صفوف الدبلوماسية قد تصدعت، وأن أقنعة "سياسة" الدول العظمى قد تمزقت إربا. فهنا عبر الرئيس بغاية الوضوح وبما له من سلطان وما وراءه من قوة شعب قوي جديد عن رغبة الرجل العادي في العالم بأجمعه.

وواضح أن الموقف كان يستلزم وجود هيئة حكومية ذات يد مطلقة لتقيم أركان القانون العالمي وتحافظ على سريان هذه القواعد العامة الإجمالية التحررية على علاقات الناس بعضهم ببعض. وكم من خطة حلق بها خيال الناس للوصول إلى تلك الغاية. وكانت هناك بوجه خاص حركة ترمي إلى إنشاء نوع ما من العصبة العالمية، هي "عصبة الأمم". فاستعمل الرئيس الأمريكي هذه العبارة وحاول أن يحققها. فإنه صرح بأن الشرط الضروري للسلام الذي كان ينشد هو إقامة صرح هذه الأداة الاتحادية (الفدرالية). كان المفروض أن تكون عصبة الأمم هذه محكمة الاستئناف النهائية في الشئون الدولية. وكانت على أن تصبح الجسم المادي المحقق للسلام. وهنا كذلك أثار الرئيس صدى هائلاً.

وأصبح الرئيس ولسن أمد ردح من الزمان الخطيب المتحدث باسم عصر جديد. واستمر محتفظًا بهذه المكانة الرفيعة في عين العالم القديم طوال الحرب وبعد انتهائها بزمن قصير. فأما في أمريكا حيث كانوا يعرفونه خيرا منا فكانت حوله غمامة من الشكوك. ونحن إذ نكتب الآن وبين أيدينا عظمة الأحداث التالية،

نستطيع أن نفهم هذه الشكوك. فإن أمريكا طورت طوال قرن ونصف قرن قصتها في الاعتزال والأمنة مثلاً عليا جديدة ومبادئ في الفكر السياسي مستحدثة، دون أن تدرك إدراكًا بعيدا أن هذه المثل العليا والمبادئ قد تستلزم تعضيدا حارا صادقًا في حالات الشدائد والخطر. وكانت هناك أشياء عديدة تعد في نظر مجتمعها من السخافات بينما هي عند مجتمعات العالم القديم، الذي كان لا يزال متورطًا في المعتقدات السياسية العهيدة، بمثابة إنجيل يخرج الناس من الظلمات إلى النور. فكان الرئيس ولسن مستجيبا لفكر وأحوال قومه ووطنه هو، ذلك الفكر المنبعث من تقاليد تحررية وجدت لأول مرة أوفى تعبير لها في اللغة الإنجليزية. فأما في رأي أوربا وآسيا فإنه بأن كأنما يقول ويفكر لأول مرة في التاريخ في أشياء لم تتطور بعد وأسرار خفي وجودها على الناس كل الخفاء. ولعله كان يشرك الناس في هذا الرأي الخاطئ.

صورة ص ١٤٧٦

(شكل ٢١٦) كليمنصو

وإنا لنعالج هنا أستاذًا للعلوم السياسية ناجحا مقتدرا، لم يدرك تمام الإدراك ما يدين به لمعاصريه، ولا عرف الجو الأدبي والسياسي الذي ظل يتنفسه طوال حياته؛ كما أنه سرعان ما انتقل بعد إعادة انتخابه للرياسة من الحالات العقلية لزعيم سياسي إلى وضعه المسيح المخلّص. وما "مذكراته" إلا عمليات ارتياد واستكشاف لعناصر الموقف العالمي. وعندما أبرز آخر الأمر في خطابه الذي ألقاه في الكونجرس في يناير ١٩١٨ نقاطه الأربع عشرة بوصفها بيانًا محددا لمقاصد أمريكا في السلم، كانت بوصفها بيانًا أحسن كثيرا في روحها منها في ترتيبها ومادتها.

وكانت هذه الوثيقة تطالب بالاتفاقات الصريحة بين الأمم والكف عن السياسة السرية، وحرية الملاحة في أعالي البحار وحرية التجارة ونزع السلاح وعدد من التسويات السياسية تقوم على الاستقلال القومي للشعوب. وهي تطالب في النقطة الرابعة عشرة بإنشاء "جمعية عامة للأمم" بغية ضمان سلام العالم. كان ينشد "السلم بلا نصر".

وقد استقبلت هذه المواد الأربع عشرة استقبالا رائعا في كل أرجاء العالم. فهنا لاح أخيرا شبح سلام يتقبله المعقولون من الناس في كل مكان، سلم طيب مقبول لدى خيار الألمان والروسيين وأكارمهم، كما هو طيب مقبول لدى خيار الإنجليز والفرنسيين والبلجيك وأكرميهم. وظل العالم بأكمله بضعة شهور ينيره نور الإيمان بولسن. فلو أمكن جعل هذه المواد أساسا لتسوية عالمية في ١٩١٩، لفتحت منذ ذلك الحين حقبة جديدة للشئون الإنسانية عامرة بالآمال.

ولزام علينا أن نخبرك أن أحدا لم يقم بهذا الأمر. إذ كان يحيط بالرئيس ولسن سحابة بعينها من الأنانية الضيقة؛ وكان جيل شعب الولايات المتحدة الذي وافته هذه النهزة العظيمة – وهو جيل ولد في بحبوبة الأمنة، وتربى في ظلال الوفرة، فهو لذلك جيل بمنآة عن المنازعات المؤلمة التي أحزنت قلب أوربا؛ - كان

ينطوي على قدر بعينه من الطيش والنظرة السطحية للأمور. ولم يكن واقع الأمر أن الشعب الأمريكي كـان سطحيا بحكم الطبيعة والضرورة، بل إن حماستهم لم تحركها بالقدر العميق الكافي فكرة قيام مجتمع عـالمي أكبر من مجتمعهم. كان لديهم فكرة ذهنية ولكنها لم تكن عقيدة روحية. فكنت تجد في ناحيـة هـذا الـشعب الجديد نزيل العالم الجديد بما لهم من فكرات جديدة، فكرات أسمى وأروع عن السلم والصلاح العالمي، وتجد في الناحية الأخرى في العالم القديم، شعوبا لدود العداء متورطة أشد التورط في نظام الدول الكبرى؛ وكـان الأولون أفجاجا أغمارا يدانون الأطفال في قلة خبرتهم المروعة، وكان الآخرون مجربين مريـري المـذاق معقدي التكوين.

على أن الحظ كان رغم كل هذه الجهود يعابث البريطانيين. فإن عدد البريطانيين، أربعـة وأربعـون مليونًا من الأنفس مقابل ثمانية وثمانين مليونًا لدى الألمان؛ فلو أضيف إلى الملايين الأربعة والأربعين مـن سكان الجزر البريطانية سكان الممتلكات المستقلة المؤيدون لهم، فقد كان في إمكان هتلر أن يضم إلـى مـن تحت سيطرته من ألمان أغلبية سكان أوربا. أجل إن الأسطول لم يكن يبزه في العالم شـيء؛ ولكـن تجاـت واحدة من أشد تحديدات القوة البحرية خطورة عندما أذيعت الأخبار بأن ٥٠٠ ألف طن مـن الـسفن كانـت تغرقها الغواصات النازية كل شهر في مستهل ١٩٤١. غير أن الأسطول ظل مع ذلك يعمل بنـشاط. ففـي الثالث من أبريل ١٩٤٠ أغرق أو استولي في وهرات على الأسطول الفرنسي الذي يظهر أن بيتان كان يهم بتسليمه للألمان. وفي ١٣ نوفمبر هاجم طيران الأسطول بميناء تارنتو ثلاث بوارج وأربع مدمرات وسـفن إضافية من الأسطول الإيطالي الذي كان يتوقع منه أن يكون هو المهيمن على البحر المتوسط. وفي الـشهر التالي بدأت القوات البريطانية والمتحالفة بمصر بقيادة الجنرال ويفل هجوما على القوات الإيطالية بليبيا انتهى باحتلال برقة (Cyrenaica) احتلالاً تاما وأسر عدد من الأسرى يفوق بكثير عدد الجيش المهاجم.

ولكن كل هذه الأعمال الضخمة لم تكن بالحاسمة. وتمكن البريطانيون من استرداد بلاد الحبشة وإعادة الإمبراطور إلى عرشه؛ كما تكمنوا من إغراق نصف الأسطول الإيطالي في معركة رأس ماتابـان مـارس ١٩٤١؛ ولكن كفة الميزان كانت لا تزال شائلة لغير صالحهم.

وبينما كان سيل الغارات الجوية ينهمر على الجزيرة البريطانية بلا انقطاع، حلت بالإنجليز هزائم برية أخرى في الشرق الأوسط وحاول موسولينى الحصول على نصر رخيص آخر، فغزا بلاد اليونان في نهايـة أكتوبر ١٩٤٠ من مستعمرته البلقانية ألبانيا. وقد صعق الرجل لأن قواته الضخمة هزمتها قـوات اليونـان الصغيرة وأرجعتها القهقرى وأخذت تغزو ألبانيا نفسها. وبعد قليل تقدم هتلر على مهل (كمـا بـدا للنـاس عندئذ) لمساعدة حليفه، ولتمهيد السبيل لذلك أُمرت المجر ورومانيا وبلغاريا بالانضمام إلى المحـور. وأقـر الأمير بول الوصي على عرش يوغوسلافيا بسرعة مرعبة. ولم يكن الجيش اليوغوسلافي مـستعدا للقتـال فشتتوا شمله، ودمرت بلجراد تدميرا جزئيا في غارة من غارات الإرهاب المألوفة، وما وافى ١٧ من الشهر حتى أخمدت كل مقاومة إلا ما كان يصدر من بعض عصابات في سربيا بقيادة الكولونيل ميخائيلوفتش.

وعند ذلك دخل الألمان بلاد اليونان. إذ كانت فرق البانزر تشكل تشكيلاً يختلف اختلافًا بليغًا عن الجيوش الإيطالية، وعندئذ طلبت اليونان المساعدة من بريطانيا على الفور. وأرسل إليها كل الفائض الذي يمكن الاستغناء عنه من قوات ويقل – في أعداد ربما تجاوزت حد الحكمة – ولكن عاد التفوق الألماني الجوي فأحرز نصره. وربما كان في الإمكان التمسك بمضيق ثرموبيلاي، ولكن كتلة الجيش اليوناني التي قطع عليها السبيل في إيبيروس استسلمت واستلزم الأمر إخلاء بلاد اليونان من الجيوش. وحاول اليونانيون التمسك بجزيرة كريت؛ ولكن ما لبث الألمان أن انتزعوها منهم بقوة السلاح الجوي. وفضلاً عن ذلك نقل الألمان تعزيزات كبيرة إلى ليبيا، بينما الأسطول البريطاني ينقذ القوات البريطانية من اليونان، وهناك في ليبيا تمكنت الجيوش الألمانية والإيطالية بقيادة الجنرال روميل من طرد البريطانيين من كل ما كان ويقل فتحه تقريبا.

وانقضت لحظات بدت فيها الكوارث موشكة على الانتشار. واستولى رشيد عالي الكيلانى أحد أنصار النازي على السلطة من نائب الملك في العراق، وأمد بالطائرات الألمانية عن طريق سوريا التابعة لحكومة فيشي الفرنسية (برئاسة بيتان ولافال). ولكن لأول مرة كان الرد سريعا. فإن رشيد عالي قام بأول هجماته في اليوم الثاني من مايو، ولكن لم يلبث البريطانيون أن استولوا على بغداد في أول يونيه. وتمكنوا في الأسابيع الخمسة التالية من استرداد العراق بأجمعه كما احتلوا سوريا.

وأزيل عن بريطانيا قلق كبير له جديته. وبريطانيا كما هو معلوم جزيرة مكتظة بأكثر مما تطيق من السكان لا تستطيع العيش إلا بما تستورد من لوازم ومواد تدفع بعض أثمانها مما تغله عليها استثماراتها وراء البحار. وسرعان ما يبعث هذه الاستثمارات الخراب وشيكًا جدا. وكان الرئيس روزفلت أقنع الكونجرس في ١٩٣٩ بتعديل قوانين الحياد المتعلقة بالحظر البحري للأسلحة والسماح بنظام "الدفع نقدا وحمل البضاعة Cash & Carry" (وهو أمر لم يكن معناه إلا البيع لبريطانيا وفرنسا دون غيرهما بسبب تفوق الأولى البحري)، ولكن حتى هذا الوضع لقي معارضة عنيفة جدا. وصرح السناتور بوراه أن معنى ذلك هو حمل السلاح، وصرح ناي أنه لن يكون هناك شيء "أمام أمريكا إلا الجحيم الموقد"، كما صرح كلارك بأن بريطانيا وفرنسا هما المعتديتان وقال لندين (Lundeen): يجب انتهاز هذه الفرصة لدفع ديون الحرب العالمية الأولى أو الاستيلاء على جزر الهند الغربية. وفي سبتمبر ١٩٤٠ يبعث لبريطانيا خمسون مدمرة تجاوزت العمر القانوني المحدد لها مقابل بعض القواعد البحرية. وفي الحين نفسه تكونت بشيكاغو لجنة سميت: "لجنة رعاية المصالح الأمريكية أولاً"؛ وكانت هيئة أكثرت من الصخب وبدت في ثوب من قوة النفوذ والتأثير. ومع ذلك فقد قدم إلى الكونجرس في نهاية ١٩٤٠ مشروع قانون "الإعارة والتأجير Lease-Lend" ومر القانون في المجلس في ١١ مارس ١٩٤١. وكان معناه الحق أن الفيض الضخم من الأسلحة الواردة إلى بريطانيا أصبح يقدم إليها منذ تلك اللحظة بغير مقابل.

ولكن الحروب لا يمكن كسبها بالمال؛ وربما كان من حسن حظ العالم أن بدأ صبر هتلر ينفد. وكان منذ حين يفكر في الشطر الثاني من خطته الحربية العظيمة مع ترك الشطر الأول ناقصا. وفي مايو قام هيس

الرجل نصف المجنون التالي له في القيادة والرئاسة برحلة طيران سرية ليرى هل تقبل بريطانيا أن تتعـاون أم ترفض. وقد اتضح ما كان يدور بعقله على حين بغتة في الساعة الرابعة من صبيحة ٢٢ يونيـة عنـدما هجمت القوات الألمانية على طول الحدود المترامية – على أراضي الاتحاد السوفييتي.

وبدا الروس كمن أُخذ على غرة. إذ لم يكد يمضي أسبوع على إعلان أصدرته وكالة تـاس الرسـمية للأنباء تصرح فيه أنه: "لا يمكن أن يكون هناك أي سوء تفاهم بين الدولتين". وبدهي أن قواتهم على الحـدود دفعت جميعا إلى الخلف، ولم ينقض أحد عشر يوما حتى كان الألمان يحتلون منطقة أعظم من فرنسا مساحة. ولكنهم دخلوا عندئذ منطقة عميقة من التحصينات تسمى على سبيل التسهيل باسم "خط ستالين" وتمتد بالتقريب على خط حدود الروسيا في ١٩٣٨. وهنا بات القتال أشد عنادا؛ إذ لم يكن للثورة المحتدمة في أنفس الطرفين من نظير وكان عنادهما أكثر تعادلاً. ولكن النتيجة كانت واحدة؛ فاخترق الألمان الخط عند مواطن ثلاثـة – أولها في الشمال بالاستيلاء على پسكوف على الطريق إلى لننجراد، وثانيها في الوسـط بالاسـتيلاء علـى ڤيتيبسك على الطريق إلى سمولنسك، وثالثها بالاستيلاء على زهيتومير (Zhitomir) علـى الطريـق إلـى كييف. وتواصلت قصة الهزائم والتراجعات الروسية متكررة طوال الصيف. وحوصرت لننجـراد، وانـتقم الفنلنديون لأنفسهم بالزحف نحوها من الشمال. ثم سقطت سمولنسك في قبضة الألمان الذين شقوا طريقهم في الجنوب ودلفوا إلى أوكرانيا (وهي المستودع الصناعي والزراعي العظيم لدى الروسيا). واحتلوا كل شـيء تقريبا يقع غربي نهر الدنيبر.

وعندئذ قدمت بريطانيا للروسيا كل ما تستطيع من مساعدة بعد أن عقدت مع الروسيا معاهدة تحـالف. وحذت الولايات المتحدة حذوها، ولكن كل ما قدمتاه كان ضئيلاً جدا. وكانت الدولتان الناطقتان بالإنجليزيـة حاولتا توضيح أغراض الحرب: فعند بداية السنة كان الرئيس روزفلت يتحدث إلى الكونجرس عن "الحريات الأربع" – وهي: حرية الكلام والعبادة والتحرر من الحاجة ومن الخوف. وفي أغسطس التقى برئيس الوزراء تشرشل على صفحة البحر حيث أعدا ووقعا "ميثاق الأطلنطي" لتنفيذ هذه الحريات – وهي على الجملة أقـل وضوحا من نقاط ولسون الأربعة عشرة ولكنها تحتوي على نفس النوايا. وصدق ستالين على الميثاق مضيفًا إليه التالي: "إن هدفنا هو مساعدة الأمم التي تكافح ضد هتلر ثم تركهم وشأنهم ينظمون أحوالهم بملء حريتهم وبالطريقة التي يرضونها – وينبغي أن لا يتدخل أحد أي تدخل في الشئون الداخلية للشعوب الأخرى".

ولكن الكلمات لا تزيد على الأموال قدرة على اكتساب الحروب. وحاول الجـيش الألمـاني مواصـلة الزحف. فسقطت كييف وتبعتها خاركوف واحتلت أوكرانيا بأجمعها وكان الروس يحرقون أو ينـسفون كـل شيء قبل مغادرة كل مكان لكي لا يتركوا للفاتح شيئًا. وكانت الوحشية الضارية سمة التقدم الألمـاني، وقـد كان جندهم يحسنون في أوربا الغربية السلوك إلى حد ما (حسب مقتضى المعايير الخفيضة المقبولـة الآن)، ولكن لم يكن ثمة داع يدعوهم في الروسيا لكبح أنفسهم. وأبعد القائدان العامان الروسيان ڤورشيلوف وبوديني عن القيادة، ولكن خليفتيهما في الإمرة لم يكونا أسعد حظًا؛ واحتل حوض نهر الدون، واجتيحت بلاد القـرم،

وصار الألمان على ما يقرب من عشرين ميلاً من موسكو، ونقلت مكاتب الحكومة والبعثات الأجنبيـة إلـى كوبيشيف على بعد ٥٠٠ ميل.

وللمرة الثانية لم يستطع المحور أن ينتظر؛ إذ لا بد له من التقاط الثمرة قبل نضجها. ففي التاسع مـن أكتوبر أعلن بصفة رسمية كان إيمانهم بصحتها واضحا أن الجيوش السوفييتية في حالة تحلل. والظـاهر أن تلك الفكرة أخذت تتضح لدى آخرين غيرهم، وأنه قد حان الوقت الذي ينبغي أن يبدأ فيه الدور الثالـث مـن فتوح المحور، إذ هاجمت اليابان الأسطول الأمريكي في الپاسيفيكي الراسي عند پيرل هاربر في اليوم السابع من ديسمبر ١٩٤١، فأغرقوا بعض بوارجه الثمانية وأعجزوا بعضها الآخر عن العمـل، كمـا أغرقـوا أو أعجزوا ثلاثة من طراداته السبعة، فضلاً عن ثلاث مدمرات. وبذا أصبحت أمريكا في حالـة حـرب مـع المحور.

وكان حظ الحلفاء في أوهد حضيضه أثناء الشهور التي عقبت ذلك. واجتمعت القوات البحرية الباقيـة بالمحيط الهادي تحت إمرة أمير بحر هولاندي في أسطول أغرق عن آخره قرب جاوة؛ وسارعت بارجتـان بريطانيتان عظيمتان نحو الشرق هما: البرنس أوف ولز والريپلس لإنقاذ الموقف، فأغرقتا بالقرب من الملايو لعدم وجود الدفاع الجوي الكافي. وفتحت بلاد الفلبين. واجتيحت الملايو، وسقطت قلعة سنغافورة العظيمة في ١٥ فبراير ١٩٤٢. وبدلاً من أن يمد أهالي جنوب شرق آسيا يد العون للحلفاء، أظهروا نحوهم فتورا وعـدم اهتمام. فإن سنوات الاستغلال المديدة التي مرت بهم أنتجت ثمارها المتوقعة، فإن لـم يتعـاونوا فعـلاً مـع اليابانيين، كانوا يحولون (كما فعلوا في پينانج) دون القيام بأية جهود "لإحراق الأرض" كمـا كـان الـروس يفعلون. وجاء بصيص الأمل الوحيد من ليبيا، حيث هاجم البريطانيون رومل ودفعوه إلـى العجيلـة نقطـة الدوران إلى إقليم طرابلس. ولكنه لم يزد عن بصيص؛ وفي يناير قام رومل بهجوم مضاد واسترد كل شيء حتى درنة.

وكان بصيص أقوى قليلاً من ذلك يجيء من الروسيا وإن ظهر فيما بعد أنه لم يكن إلا سـرابا. ومـن العجيب أن الألمان لم يتزودوا بما يلزم لقتال الشتاء، كما أن مبادرة الروس بنقل المصانع إلى ما وراء جبال الأورال عوضت خسارتهم لأوكرانيا إلى حد ما. وردهم في الجنوب الچنرال تيموشنكو على أعقابهم حتى بلغ خاركوف؛ وبذلك أبعد الخطر عن موسكو وخفف الضغط عن لننجراد إلى حد ما. على أن تلك الأخبار غطى عليها بدرجة ما فقدان الحلفاء قطرا بأكمله: هو بورما التي طرد منها البريطانيون طردا عـاجلاً وسـقطت رانجون في ٧ مارس. وفي يونيه قام الألمان بهجوم آخر في ليبيا؛ وذلك بعد أن نيطت آمـال كبـار علـى الجيش الثامن بعد تعزيزه وتقويته بالدبابات الأمريكية الجديدة، على أنه دفع إلى العلمـين، ووعـد رومـل "بمواصلة الزحف وراء البريطانيين المندحرين إلى وادي النيل". وفي الشهر التالي أخذ اليابانيون يتجمعـون في جزيرة غينيا الجديدة في طريقهم إلى أستراليا، وحطم الألمان مقاومة الروس فـي الجنـوب. وسـقطت سڤاستبول كما سقطت روستوف، وتقدمت جيوش النازي إلى الأمام نحو جروزني وستالينجراد، وهـو أمـر يهدد في حالة الأولى بإيقاف مدد الزيت، وقطع خط إمدادات الڤولجا في حالة الثانية.

وحاول البريطانيون استثارة الشعب الهندي لمعاونتهم. ففي مارس أرسل الـسير سـتافورد كـريبس ليعرض على المؤتمر الهندي مبدأ منح الهند وضع الممتلكة المستقلة (الدومنيون) بعد الحرب، مع منحهم حق الانفصال؛ وتخويل الهنود حق وضع دستورهم بأنفسهم؛ فضلاً عن إنشاء مجلس تنفيـذي يـستمتع مباشـرة بسلطات وزارة بريطانية، وأما سلطات نائب الملك فقد احتفظ بها كما يحتفظ بسلطات الملك.

ولكن المستر غاندي استهزأ بذلك العرض قائلاً إنه: "شيك فات أوانه مسحوب على بنك يعلـم النـاس جميعا أنه ينهار". وقرر حزب المؤتمر في يوليه القيام "بنضال شعبي متكتل" ضد البريطانيين؛ كما قرر أن لا توجه على اليابانيين سوى مقاومة "قوة الروح".

وكأنما شاء الألمان أن يسجلوا تحققهم التام من النصر، فأنزلوا مقابل مقتل هيدريخ حاكم تشيكوسلوفاكيا عقوبة الإعدام على ثلاثمائة إنسان ومحوا من الوجود قرية ليديس. ولكن هذا النزوع إلى القتـل كـان فـي الحقيقة من علائم الضعف، فمنذ أعلن "الكولونيل بريطن" في يوليه ١٩٤١ في الإذاعة البريطانية تعبئة "جيش النصر Varmy"، ما برحت المقاومة تشتد وتقوى على الألمان. وكان لا بد من إذكاء تلـك الحركـة فـي أخريات الصيف بإعلان أنباء تنظيم موارد الحلفاء تنظيما جعل الميرة والذخيرة والعتاد الحربي تنصب إلـى بريطانيا والروسيا انصبابا. وهاجمت قوات الولايات المتحدة اليابانيين في جوادا الكانال بالمحيط الپاسـيفيكي في أغسطس؛ كان قتالاً بطيئًا ودمويا، ولكنه كان على كل حال هجوما على المحور؛ وفي غانا الجديدة طرد اليابانيون إلى البحر. ومع أن الألمان بلغوا القوقاز ورفعوا الصليب المعقوف على جبل إلبـروز (Elbruz) أعلى قمة في أوربا؛ فإنهم وجدوا الاستيلاء على ستالينجراد أمرا عسيرا؛ ذلك أن دفاع الروس كـان هنـاك عنيدا بصورة غير منتظرة.

ثم بدا في نوفمبر ١٩٤٢ كأنما حدث صدع مفاجئ. ففي الساعة السادسة والنصف مـن صـبيحة ٢٣ أكتوبر، هاجم الجيش الثامن بقيادة الجنرال مونتجومري جيش رومل في ليبيا بعد استعدادات طويلة ضخمة، فمحيت قوات المحور الجوية من السماوات؛ وفاز مونتجومري بنصر عظيم في معركة العلمين فـي اليـوم الأول من نوفمبر، ولأول مرة شهد العالم جيشًا نازيا يجرى متفرقًا شذر مذر ولا يقف لحظة في مدى مئـات من الأميال. وبدأت الجيوش الألمانية هجومها المضاد في جنوب الروسيا؛ ولم تسقط ستالينجراد بأيدي الألمان وأحاط الروس بالقوة الألمانية المهاجمة لها؛ وكان أن رأى العالم في يناير جيشانازيا يسير إلى الأسر تحـت بنادق الروس.

وبعد هجوم مونتجومري بأسبوع، نزلت الجيوش الأمريكية والبريطانية على غير انتظار إلـى الـدار البيضاء والجزائر ووهران؛ وأنشئت جبهة جديدة بعد مقاومة فاترة أبدتها جند پيتان. وكانت الصعوبات التي تواجه الحلفاء عند البداية سياسية في معظم أمرها. فقبل القائد الأمريكي العام الجنرال إيزنهاور حاكمـا مـن أتباع پيتان في البداية هو الأميرال دارلان، حتى إذا اغتيل، تعين في مكانه قائد أنظف سمعة هـو الجنـرال چيروه (Giraud)؛ وقد كان تعيين الجنرال چيروه موضع الاستياء من ديجول، وهو قائد ظـل منـذ يوليـه ١٩٤٠ ينظم مقاومة الفرنسيين من لندن. وقد اعترف الجميع بسلطة ديجول في الوقت المناسب، ولكن الأثـر

السيئ الذي تركته تلك المسألة كان له أثر ملحوظ على السياسة الفرنسية منذ ذلك التاريخ. وفي الحين نفسه تهيأ للألمان بقيادة فون أرنم الوقت الكافي لتنظيم صفوفهم في تونس؛ ولكن لم يحدث إلا في ٧ مايو ١٩٤٣ أن قواته وقوات رومل، وقد دفعا جميعا إلى ما يشبه الحظيرة، - اضطرا إلى التسليم وسبق جيش ألماني عظيم آخر أسيرا إلى معسكرات الاعتقال. وفي ذلك الحين أيضا لم تعد الجزر البريطانية ضحية لقذف القنابل الثقيلة؛ ودار الزمن دورته فصار سلاح الجوي الملكي ليلاً والسلاح الجوي الأمريكي نهارا يدقان ويحطمان المدن الألمانية والأوربية والأهداف العسكرية، محدثين تدميرا ضخما لعله قد ساعد على تقصير أمد الحرب (ونقول: لعله؛ لأن تلك مسألة فيها جدل).

بيد أن إغراق الغواصات والسفن ظل شديدا بدرجة مزعجة، ومع أن الجيوش الروسية قد أصبحت في ذلك الحين كاملة العتاد والعدة، إلا أن انتصار الروس في ستالينجراد لم يعقبه أي انهيار آخر للألمان. وظل القتال في الصيف سجالاً – يتقدم فيه الروس حينًا ويدفعون إلى الخلف آخر، ويفعل الألمان مثل ذلك؛ حتى إذا حل أغسطس كانت للروس ميزة واضحة على الألمان خاصة في الجنوب. وفي الحين نفسه وثب الحلفاء الغربيون من إفريقية وفتحوا صقلية في يوليو، ودخلوا أوربا عن طريق "كعب الحذاء الإيطالي؛ وكان موسوليني أول من سقط من عمد المحور حيث طرد من الحكم في ٢٥ يوليه. وعندئذ قبل روزفلت وتشرشل وقد اجتمعا في كويبك عرضا إيطاليا بتحول إيطاليا إلى جانب الحلفاء (بعد أن أعلنا من قبل أنهما لن يقبلا إلا التسليم دون قيد ولا شرط في الدار البيضاء في يناير من تلك السنة)؛ ولكن الظاهر أن المسائل كانت فسدت. وكان رد الفعل الألماني أسرع من ذلك. فإن القوات البريطانية التي حاولت الاستيلاء على الجزر اليونانية التي تخلى عنها الإيطاليون عادت فهزمت مرة ثانية على يد القوات الجوية الألمانية؛ ولم يكتسب الحلفاء إلا النذر اليسير من الأرض حتى بإيطاليا نفسها، ونزل الأمريكيون أعلى الساحل الإيطالي عند سالرنو فتعرضوا إلى حين لخطر محدق عظيم، وبلغ الأمر بالألمان أن أنقذوا موسوليني من آسريه وأنشئوا "جمهورية فاشية" في الشمال.

وإذن فقد جاء الوقت الذي وجب فيه إيقاف الخلافات بين الخلفاء. وكان الروس حلوا بصورة اسمية الشيوعية الدولية في مايو، ولكنهم في الشهر السابق نظروا إلى المستقبل البعيد فقطعوا علاقاتهم بالحكومة البولندية المقيمة بالمنفى في لندن، وكانت علاقة المقاومة الشيوعية سيئة بالآخرين في كثير من أجزاء أوربا. أجل إنهم كانوا يحملون السلاح في يوغوسلافيا ويقاتلون، فكان الشيوعي الناشط تيتو يقاتل ميخائيلوفتش الملكي الخامل. وبعد التشاور مع تشيانج كاي شك في القاهرة، التقى روزفلت وتشرشل مع ستالين في طهران عاصمة إيران في نهاية نوفمبر، وعقدوا أول مؤتمرات ثلاثة لا يزال العالم يجهل إلى حد جزئي قراراتهم فيها. وكأني بالأحداث التالية أخذت تظهر أنهم قرروا هناك إقامة منظمة "للأمم المتحدة" بعد انتهاء الحرب وأن من بين الترتيبات الحربية إعلان الروس الحرب على اليابان، ومنح الروس الحق في تحرير أوربا الشرقية حتى مدينة پراج مع دخول المدينة ضمن ذلك التحرير. ووضعت ترتيبات تنسيق المقاومة بما في ذلك التخلي عن ميخائيلوفتش.

وكانت دورة الأيام وانتقالها من ١٩٤٣ إلى ١٩٤٤ مؤذنة بتحول الحظوظ في الحرب. فقـام الـروس بهجوم على طول خط القتال كله ولم يستطع الألمان في هذه المرة استرداد ما كسبه الروس منهم – فاسـترد الروسيون زهيتومير (چيتومير) كما استردوا پسكوف وخُلّصت لنينجراد واستردت نيكوبول وأوديسا. وعادت القوات السوڤييتية إلى حدود ١٩٣٨ وسرعان ما تخطتها. واخترق "خط جوستاف". عند كاسينو في إيطاليـا، وبعد قتال محطم للأعصاب دار عدة أيام حول رأس على الساحل عند أنزيو، دخلت الجيوش الأمريكية مدينة روما في يونيه. فأما في الشرق الأقصى، فإن تفوق اليابان البحري قضت عليه في مارس ١٩٤٣ البحريـة الأمريكية في معركة بحر بسمارك. فإن طريقة ماك آرثر نيمتز البطيئة الفعالة وهي "الوثب علـى الجـزر" التي أصبحت عندئذ ممكنة ظهرت آنذاك جزيرة غينيا الجديدة وجزائر سليمان وأفضت إلى مهاجمة جزيـرة طروك (Truk) المحصنة المنيعة. ودخلت الجيوش البريطانية والصينية بورما وأخيرا شـرعت فـي دفـع اليابانيين إلى الخلف.

ولكن غطى على كل ذلك حدث في صباح ٦ يونيه، حدث سيظل موضع البحث فـي كُتـب التـاريخ العسكري، فإن الجيوش الغربية نزلت فرنسا.

كانت حملة مجهزة منذ مدة طويلة. وكثيرا ما أرجئت (كما تمت يوما محاولة زائفة لها)، ثـم حـدثت الحملة الهائلة في فترة سكون قصيرة في أثناء جو فظيع وفي حدثان أسوأ عاصفة في يونيـه شـهدها بحـر المانش منذ عشرين سنة. وعلى الرغم من الأسلحة الهائلة التي جمعت، كان إنزال الحملـة محفوفًـا بأشـد المخاطر. ويعدها القائد العام الجنرال أيزنهاور واحدة من أخطر اللحظات الثلاث الحرجة الحاسمة في حملته. فقد أعلن الألمان أن لا سبيل إلى اختراق جدارهم الغربي، ولما شن الكنديون عليه هجومهم الجسور الباسـل عند دييپ (Dieppe) في ١٩٤٢، كانت العاقبة وبيلة مدمرة – وكانت تحت إمرة إيزنهاور ٣٧ فرقة، ولكن خصمه فون رونشتد كان بيده ستون فرقة. واستخدم الحلفاء ١٧١ سربا من أسراب الطائرات حطمـوا بهـا المطارات والسكك الحديدية والكباري ما هو من الكثرة بحيث عجز فون رونشتد عن تجميع قواتـه عنـدما تحقق من الموضع الذي تكال فيه الضربة الكبرى الرئيسية. ذلك أن الحلفاء انصرفوا عن منطقتي الكوتنتـان وممر كاليه اللذين كان ينتظر أن يوجهوا هجومهم إليها ونزلوا على سواحل نورماندى المفتوحـة، منـزلين المظليين أمامهم وجالبين معهم ميناءين صناعيتين تسميان باسم ثمرة "التوت Mulbery". وأنزل الجند فـي مواضع ثلاثة واجتمعوا سريعا في موضع واحد، وكان البريطانيون يكونون الطرف الـشرقي والأمريكيـون الغربي. وللمرة الثانية تقرر أن تكون بداية العمل في الميدان الجديد على يد رومل ومنتجومري، فركز رومل كل مصفحاته وخيرة مشاته في الشرق حول مدينة كاين (Caen) لإنقاذ باريس وحـوض الـسين وحمايـة المواقع التي كان الألمان يضربون منها عندئذ بريطانيا بطائرات تسير بغير طيارين (وهي المسماة ("V.1s") وكانت تلك الطائرات تنسف المباني التي تصطك بها – ثم جاءت في أثرها طائرات أسـرع مـن الـصوت تسمى ("V.2s") وكانت تنقض على أهدافها من طباق الجو العليا. وهنا كان التقدم دمويـا وبطيئًـا، ولكـن جيوش الولايات المتحدة دأبت على شق طريقها نحو الغرب بثبات، حتى قطعوا خط شبه جزيرة الكوتنتان ثم استولوا على شربورج، وبذلك أصبح في قبضتهم في النهاية ميناء طبيعي كبير. وما حلت نهاية يوليو حتـى

أصبحوا وقد شقوا طريقهم عنوة حول ركن شبه الجزيرة إلى بريتاني بالاستيلاء على أفارانش، فاتحين السبيل أمام جيش الجنرال باتون ليزحف بجيشه في صورة مروحة في مسيره الشهير عبر شمال فرنسا. ووثبت "جيوش الداخل" الفرنسية إلى أسلحتها لاستقباله، وأخذ الحكم الألماني يتصدع. وسقطت دينان في ٢ أغسطس ورين في ٤ أغسطس وماين في ٦ وليمان في ٩ ونانت وأنجرس في ١٠، على حين سارع الألمان إلى القرار إلى الموانئ المحصنة: برست وسانت نازير وسانت مالو ولوريينت.

ولكن خيل للألمان أن هذا التقدم الرائع يعطيهم فرصة، فلو أمكن استرداد أفارانش، إذن لقطع السبيل على باتون وشلت حركته. ومن ثم وجهوا إليها هجوما قويا من فرق البانزر في ٧ أغسطس. ولكن الهجوم صد في يوم ١٢ وواصل القواد الألمان هجومهم طويلاً. وكان التقدم السريع الذي أحرزه باتون حول مراكزهم إلى خط امتداد طويل محصور في منطقة فاليز، التي سميت باسم رهيب ولكنه صحيح هو "أرض القتال". ولم تبق من جيش البانزر الخامس والسابع إلا بقايا ضئيلة فرت على أعقابها إلى نهر السين الذي لا يقوم عليه هناك جسر ولا معبر؛ حتى إذا حل يوم ٢٢ كان معظم الجيوش الألمانية بين ميت وأسير.

وفي الحين نفسه اكتسحت حركة باتون مدن: شارتر ودروه ومانت على السين وأورليان وفونتينبلو وترويس، وكلها سقطت في مدى أسبوعين؛ وأنزلت دفعة أخرى من الجند في الجنوب بين مارسيليا وطولون قامت بتعقب الألمان على امتداد حوض الرون. ولكن فرنسا خلصت نفسها إلى حد كبير حيث قدر إيزنهاور مقدار قوات المقاومة "بخمسين فرقة". وولى الألمان الأدبار مهطعين، إذا اضطروا إلى ذلك لأن القطر المحيط بهم بأكمله تحول إلى منطقة عدوة مسلحة. وخلّصت باريس نفسها بعصيان نظمته الشرطة في التاسع من أغسطس، قبل وصول الحلفاء يوم ٢٥.

وعندئذ جاء دور البريطانيين والكنديين؛ فإنهم قاموا باكتساحات شمالية جارفة أسكتت – الواحد تلو الآخر من الأحادير العظيمة التي كانت تنطلق منها إلى بريطانيا طائرات "V.1" التي ليس لها قائد، ثم انصبوا عبر شمال فرنسا وبلجيكا. وفي ٣٠ أغسطس أصبح البريطانيون في بوفيه وإذا هم في أميان في اليوم التالي – ثم إذا هم يوما في إثر يوم يستولون على آراس وتورنيه وبروكسل وأنتويرب (أنفرس) ولوفان. واستولى الكنديون والبريطانيون في أول سبتمبر على دييب وروان؛ وفي الأيام الأربعة التالية اكتفوا بالهافر وبولونيا وكاليه؛ وفي السادس منه أخذوا أوستند. ولكن بدا عند ذلك أن الاندفاعة العظيمة انتهت. وتقدمت جنود الولايات المتحدة إلى لكسمبرج، وتقدم الفرنسيون إلى الراين من خلال الفوج، ولكن محاولة البريطانيين مواصلة الغزو حتى هولندة كبدتهم خسارة ثلاثة أرباع قوة من جنود المظلات قرب أرنم.. وكانت أول مدينة ألمانية سقطت هي آخن، وهي في الطرف الأقصى للتخوم الألمانية، وقد أخذت في ٢١ أكتوبر، ولكن الأمطار نزلت بشدة في نوفمبر وبدا كأن جيوش الحلفاء قد استنفدت قوة الدافع.

وكانت الأنباء الواردة من أوربا الشرقية طيبة أيضا، ولكن كانت تشوبها بعض الظلال. فقد أصيب الجيش الألماني بضربة ثقيلة عندما استردت منه مدينة منسك؛ وأعقبتها فلنا، وفي أغسطس عبرت الجيوش الروسية الحدود البروسية الشرقية قرب مريمبول؛ وثارت قوات المقاومة البولندية في وارسو لاستقبالهم.

ولكن فات الروسيون أن يتقدموا لمعاونتهم؛ ولم يلبث مقاتلة وارسو حتى أبيدوا عن آخرهم بعد أن كافحوا مدة ثلاثة أشهر كفاح المستيئس. ونقل مركز الثقل في الهجوم السوفييتي نحو الجنوب. واعتقـل ميتـسيل ملـك رومانيا "الفوهرر Führer" المحلي ببلاده وانضم إلى أعداء الألمان؛ وسلمت بلغاريا؛ وحرر الماريشال تيتو وطنه يوغوسلافيا. ودخلت الجيوش الحمراء بلاد المجر. (وحرر البريطانيون بلاد اليونان.)

وفي الشرق الأقصى تمزق شمل الأسطول الياباني في معركة الفلبين، ونزلـت الجيـوش الأمريكيـة بإحدى الجزر (لايتى)؛ وكانت الجيوش البريطانية تدفع باليابانيين إلى الخلف في بورما، ولكن ذهابهم كـان عسيرا جدا.

وفي شتاء ١٩٤٤ قام البانزر بآخر هجوم في التاريخ. فقد هاجمت الأمـريكيين فـي منطقـة الأردن التقليدية في يوم ١٢ ديسمبر ١٤ فرقة من المشاة، ١٠ فرق من البانزر وقوة مجددة مـن سـلاح الطيـران الألماني. فكسروا صفوف الأمريكيين في جهة عرضها ٤٥ ميلاً؛ وفرقوا بـين ميمنـة الجنـرال برادلـي وميسرته، وقطعوا الطريق على الفرقة ١٠١ من الجنود الأمريكيين راكبة الطائرات في باستونيه على طريق سيدان؛ وتقدم الألمان ٦٠ ميلاً حتى أوشكوا أن يبلغوا نهر الموز ولكنهم ما لبثوا أن أوقفوا عن الزحـف ثـم دفعوا إلى الخلف. وبعد أكثر من شهر بقليل عادوا إلى حيث كانوا من قبل، ولـم يبـق لـديهم دبابـات ولا طائرات ولا زيت مما كانوا يحتاجون إليه أشد الحاجة.

ومنذ ذلك الحين أصبح انهيار الألمان سريعا عاجلاً. وفي يناير ١٩٤٥ كان الروس اجتـاحوا بولنـدة بأكملها ولتوانيا معها، ودخلوا سيليزيا ولم يلبثوا حتى أصبحوا على ما لا يزيد عن ٣٠ ميلاً من برلين. وفي الغرب صمم الألمان على القتال غربي نهر الراين – وهي الكارثة الحاسمة الثالثة فيما يـرى إيزينهـاور - وكانت الثانية هي فاليز)؛ فإنهم لم يلبثوا في الأسبوع الأول من مارس أن سحقوا مرة ثانية ولم يبق لـه مـن حدود سوى نهر الراين نفسه. وفي فبراير عقد في يالتا مؤتمر ثان للأقطاب حـضره روزفلـت وتـشرشل وستالين فنسق الخطط للهجوم النهائي وللتسوية السياسية لأوربا والشرق الأقصى – وقد نجح المـؤتمر فـي الحالة الأولى. والواقع أن المقاومة العسكرية الألمانية كانت ترجع آنئذ إلى إرادة رجل واحد هو أدولف هتلر. وقد فشلت محاولة لاغتياله في ٢٠ يوليه ١٩٤٤، وإن النازيين ليواصلون المقاومة ما أقام هو علـى إلقـاء خطبه. ولكن أنى له أن يغير مجرى التاريخ؟ ففي مارس أصبحت الجيوش الغربية تقف على شاطئ الراين، وحوصر حوض الرور ولم يلبث حتى سقط بمن فيه من مدافعين. ودخل الروس فيينا في ١٣ من أبريل، ولم ينقض زمن طويل على ذلك حتى طرقوا برلين وبها الفوهرر نفسه؛ وتقدم باتون نحو تشيكوسلوفاكيا، وتوقف خارج براج، وبلغ البريطانيون نهر الألب. وفي ٢٥ إبريل وعلى نفس ذلك النهر التقت الفرقة ٥٨ الروسية بالفرقة ٦٩ الأمريكية، وأصبح الريخ مقسوما إلى قسمين.

وكان المتوقع أن ينسحب هتلر بطريق الجو إلى "طابية" في جبال الألب بموقع يمكنه أن يقف فيه وقفة أخيرة، ولكنه لم يفعل ذلك. ذلك أنه ازداد جنونًا في أيامه الأخيرة وأخذ يغذي خياله حتـى النهايـة بأوهـام وخيالات عن جيوش ألمانية ستتقدم لإنقاذه، فصمم على أن يختتم حياته ختاما ميلودراميا أعنف وأقسى؛ فبينما

كان الروس يشقون طريقهم نحو مكان مخبئه من الغارات في برلين، أقدم على الانتحار في اليوم الأخير من أبريل ومعه إيفا براون. ثم أحرقت جثتاهما بعد ذلك بأمره. وقبل ذلك بيومين اغتال رجال الأحزاب الإيطاليون موسوليني وخليلته وعلقوهما من قدميهما في الشارع.

وقضى ذلك الخبر على كل مقاومة. وفي اليوم الثاني من مايو سلمت برلين؛ وكذلك فعلت جميع الجيوش الألمانية بإيطاليا؛ وبعد يومين نحت نفس ذلك النحو الجيوش الألمانية في هولندة وشمال غربي ألمانيا والدانيمركة. وفي اليوم السابع وقع الجنرال يودل (Jodl) رئيس هيئة أركان الحرب على صك استسلام تام. ولم يبق من شيء يعمل بعد ذلك بألمانيا سوى تنسيق أعمال الفاتحين. وبينما الحلفاء يجتاحون أرض الريخ ويشهدون بلسن وداخاو وأوشفتز وغيرهما من معسكرات الاعتقال، أدركوا (الحلفاء) أن الروايات التي كانت تروى عن جرائم الألمان ووحشيتهم كانت – على عكس روايات الحرب العالمية الأولى – أقل كثيرا من الحقيقة. لذا لم يظهروا أي ميل إلى الرحمة، ولما اجتمعوا في بوتسدام في ١٧ يوليه اتفقوا على تنظيمات اقتصادية وسياسية لألمانيا كانت فيما بعد موضع النقد لأنها تجعل من المحال بعد ذلك أن يصبح ذلك القطر إلا حي فقراء معدمين يتلقى معونة اجتماعية؛ وفوق هذا، فإن الفرنسيين الذين احتلوا جزءا من ألمانيا رفضوا التعاون في تنفيذ تلك الخطط. وكان المؤتمر يضم وجوها غريبة. وكان أحد بناة النصر قد مات عشية وصول الخلفاء إلى نهر الألب، وجلس في مقعد روزفلت رئيس قلق اسمه ترومان. ولم يكن تشرشل جالسا في بهرة ذلك المؤتمر لأنه اختفى حيث ربط مصيره بمصير المحافظين؛ إذ أجريت بالبلاد انتخابات عامة أحلت كلمنت. أتللي زعيم حزب العمال محله في رياسة الوزارة. وتبقى ستالين وحده صامدا لم يعزل، صامتًا لا يعرف ما يجول بخاطره. ولكن لم يظهر حتى آنذاك خلاف خطير. أجل إن الروس كانوا يبدون شيئًا من الممالأة والإيثار للأحزاب الشيوعية بالبلاد التي احتلوها – (وهو أمر منطقي ومتوقع)، ولكنهم لم يلغوا الأحزاب الأخرى. وفوق هذا، اتخذت خطوة عظيمة في سبيل الوحدة وافقت عليها الشعوب طرا، وهي توقيع خمسين دولة ميثاق الأمن العالمي بمدينة سان فرانسسكو في ٢٠ يونيه. ولتهدئة روع كل من السوفييت ومجلس الشيوخ الأمريكي أُدخل في المنظمة الجديدة حق الفيتو للدول العظمى.

ولكن لئن لم يكن هناك قتال ينبغي القيام به بألمانيا، إلا أن الحرب لم تنته مع ذلك. ذلك أن الدراما التي مثلت في أوربا قد أبعدت عن المسرح مشاهد النضال في الشرق الأقصى؛ إذ بلغت المرارة بنفس القوات المحاربة في بورما أن أسمت نفسها: "الجيش المنسي". وكانت الجيوش البريطانية والهندية فتحت من جديد الطريق البري إلى الصين في يناير؛ وتيسر لها في مارس فتح ماندلاي وانتقل الجنود البورمانيون غير النظاميين بقيادة أنج سان من جانب اليابانيين إلى صفوف الحلفاء؛ وفي ٥ مايو فتحت رانجون وحررت بورما. وفي المحيط الباسيفيكي وجدت جيوش الولايات المتحدة البرية والبحرية أن القضاء على الأسطول الياباني لم يؤثر بأي حال في القتال المرير الذي كانت الجيوش البرية اليابانية تدافع به عن الجزر الحيوية الأهمية في الباسيفيكى. ولم يتم تحرير الفلبين إلا في ٥ يوليه. فإن الذادة عن إيووجيما ظلوا يحاربون من ١٩ فبراير إلى ١٥ مارس؛ وظل المدافعون عن أوكيناوا، وهي جزيرة قريبة من اليابان قربا خطرا يقاتلون

باستماتة تكاد تصل إلى الجنون من أول أبريل وصمدوا في موقفهم قرابة الثلاثة أشهر. ذلك أنـه يظهـر أن اليابان كان متبقيا لديها فائض ضخم من الطاقة وأن إعلان الروسيا الحرب عليها كان موضع الترحاب لديها.

ولكن الواقع أن اليابان كانت منهكة أكثر كثيرا مما بدا عليها ظاهريا، ولم تلبث حين وجه إليهـا أشـد أنواع "الأسلحة الحديثة المروعة أن استسلمت استسلاما مباغتًا. وكان العالم أينشتين وغيره من العلماء حـذر الحلفاء منذ البدايات الباكرة للحرب مما يحاول النازيون فعله، فأخذ الحلفاء يحاولون "تفتيت الذرة" لكي يطلقوا عقال أقصى ما في هذا العالم من طاقة. وأخذ العلماء الأمريكيون والكنديون والبريطانيون يعملون في تلـك المسألة، وفي اليوم السادس عشر من يوليو فجرت بنجاح أول "قنبلة ذرية" بـصحراء ولايـة نيومكـسيكو. والواقع أن استخدام هذه الآلة الجهنمية كان يتوقف على الرئيس الأمريكي الجديد. وفي النهاية استقر رأيه إلى أنه ربما كان في الإمكان استحياء مائتى ألف نفس أمريكية كما قال الرئيس ذلك فيما بعد لو استخدمت القنبلة، بل ربما كان في استخدامها الإبقاء على عدد آخر أكبر من أبناء الأمم الأخرى. وفي ٦ أغسطس سقطت على ميناء هيروشيما اليابانية قنبلة ذرية بعد إنذار شكلي عاجل. ويمكن القول بصفة إجمالية إن تلك القنبلة دمرت المدينة بأكملها وقضت على كل كائن حي بها. وبعد ذلك بثلاثة أيام أُسقطت على نجـازكى قنبلـة مماثلـة فأحدثت نفس النتيجة. (وقد أعلن الروس في المدة بين القنبلتين الحرب على اليابان ودخلوا منشوريا، وكـأني بتلك الفعلة أصبحت آنذاك مسألة صغيرة الأهمية) . وفي ١٤ أغسطس سلم الإمبراطور الياباني دون قيد ولا شرط، وفي اليوم التالي أعلن المستر ترومان والمستر أتللي أن يوم النصر على اليابـان "V. J Day" يـوم انتهاء الحرب العالمية الثانية، يمكن الآن الاحتفال به رسميا.

٣ – مستقبل البشرية

مهما يكن مصير البشرية، فليس ثم مجال للشك في أن الوصول إلى توحيد البشرية كلها في اتحاد فدرالي، فضلاً عن قيام قدر كاف من العدالة الاجتماعية، ابتغاء تأمين الصحة والتعليم وضمان قدر لا بأس به من تكافؤ الفرص لمعظم الأطفال المولودين في هذا العالم، سيؤدي إلى إطلاق الطاقة البشرية وزيادتها بصورة تفتح دورا جديدا في التاريخ البشري. وعندئذ لابد أن يتوقف ذلك الخسار الهائل، الذي يعود إلى ما يدور بين الدول الكبرى من إضرار متبادل، فضلاً عن الخسائر الأضخم كثيرا، الراجعة إلى قلة إنتاج جماهير غفيرة من الناس، الذين يقصرون عن الكفاية. وعندئذ لابد أن تحدث زيادة ضخمة جدا في إنتاج حاجيات البشرية الضرورية وارتفاع في مستوى المعيشة وفي أفكار الناس حول ما يعتبر ضروريا من الضروريات وتطور في النقل وكل نوع من أنواع اليسر والجمام؛ وعندئذ لابد أن ينتقل جمهور غفير من الناس من مرتبة الإنتاج الخفيض الدرجة إلى صنف أعلى من العمل مثل الفنون على اختلاف أنواعها والتعليم والبحث العلمي وما ماثلها. ولابد أن يعم العالم عندئذ فكاك لعقال الطاقة البشرية، على صورة لم تحدث إلى اليوم إلا في مواطن صغيرة فقط وعن طريق أدوار صغيرة وثمينة من الأمنة والرغد. فما لم نفترض أنه قد حدثت في الماضي انبجاسات تلقائية أنتجت مجموعة من الإنسان السوبرمان، فإن من المعقول أن نستنتج أن أثينة بركليس وفلورنسة آل مديتشى وإنجلترة إليزابث وأعمال أسوكا العظيمة وعهدي ناتج ومنج في الفنون، إن هي إلا عينات لما يمكن أن ينتجه على الدوام وبصورة مجتمعة مكدسة عالم ترفرف على ربوعه كلها الطمأنينة المستمرة. ولاشك أن التاريخ يبرر هذا الشيء الذي نتوقعه، وذلك دون اللجوء إلى افتراض حدوث أي تغيير في الصفات البشرية، اللهم إلا مجرد إفلاته من النظام الحاضر القائم على الخسار المتجاوز كل حد.

وقد شهدنا بأنفسنا كيف أنه حدث منذ ساعة تحرير الفكر البشري في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، أن عددا قليلاً نسبيا من رجال أذكياء طُلَعةٍ ظهروا بخاصة في أوربا الغربية، قد أنتجوا رؤى عن العالم وقدرا من العلوم تحدث الآن انقلابا ثوريا في الحياة من ناحيتها المادية. وقد كان هؤلاء الرجال يعملون في معظم الحالات تلقاء تثبيط ضخم للهمم وإقتار في المال ومساعدة أو مساندة ضئيلة من سائر البشرية. ومن المحال على المرء أن يعتقد أن هؤلاء الرجال هم أقصى ما أمكن جيلهم إنتاجه من محصول. فإن إنجلترة وحدها لابد أنها أنتجت في القرون الثلاثة الأخيرة عشرات من النوابغ مثل نيوتن لم يتعلموا القراءة قط ومئات من أضراب دالتون ودارون وباكون وهاكسلي – ماتوا جميعا أقزاما في بيئات الفقر والجهل العفنة، أو لم يحصلوا قط على فرصة لإظهار مواهبهم.

ولابد أن العالم كله كان مشحونًا بآلاف من أشخاص كان يمكن أن يكونوا باحثين من الطراز الأول أو فنانين ممتازين أو مفكرين ذوي عقول خلاقة لم يتح لهم قط بصيص من الإلهام ولا فلذة من فرصة مقابل كل فرد واحد من أولئك الذين تركوا أثرهم في العالم عميقًا محفورا. وكم مات في الحروب القريبة من ألوف من العظماء "قوة" غادروا هذا العالم بسرا لم يتم له ازدهار. ولكن العالم لو أتيح له بارقة سلام دولي وطيد

الأركان ويبادرة عدالة اجتماعية، لا بد أن يتصيد الكفايات بشبكة دقيقة من التعليم العام الانتشار، وربما جاز له أن يتوقع الحصول على محصول يفوق كل مقارنة بأي محصول آخر من الرجال الأكفاء اللامعين الذين شهدهم العالم في أي حقبة من تاريخه.

ولعمري إن اعتبارات مماثلة لهذه هي التي تبرر تركيز الجهود في المستقبل القريب على إنشاء دولة عالمية جديدة قوامها أكبر من أنقاض ارتباكاتنا الحاضرة. والحرب شيء فظيع، يزداد على تقدم الزمان فظاعة ورهبة، بحيث أنه ما لم يجد الناس لهم منها مهربا، فلا بد أن يقضى على الجماعة البشرية، ذلك أن ما تتمخض عنه من الظلم الاجتماعي ومشاهد الكائنات البشرية المصابة والمشوهة يعذب النفس ويثير لواعجها، ولكن أقوى بواعث العمل السياسي والاجتماعي البناء عند ذوي الأرواح الخائلة لا يكمن في مجرد الأمل في تجنب الشرور قدر ما يكمن في نشوء الفرصة اللازمة للقيام بالمغامرات العظيمة التي يتيحها لجنسنا البشري القضاء على تلك الشرور. ونحن نبغي إلغاء كثير من ألوان التزايد في الملكية الخاصة مثلما قد نرغب في إلغاء حارس أبله يمنعنا من الدخول إلى مرسم يمكن الداخل إليه القيام بأشياء ممتازة.

ومن الناس من قد يتصورون أن قيام نظام عالمي وقانون وعدالة شاملين لا بد أن ينهيا المغامرة البشرية. والواقع أنه أمر لا يزيد عن أن يبدأ تلك المغامرة. ولكن بدلاً من مغامرة الماضي، تلك القصة "الرومانسية" لعالم السينماتوغراف القائمة على التكرار الدائم للتفاعلات المبتذلة للجنس (Sex) والعراك وتصيد الذهب، ستكون المغامرة ارتيادا لا نهاية له على حافة الخبرة. فكأن هناك رجلاً ظل حتى حين قريب يعيش في أحد الأحياء الفقيرة، يتنقل بين ما تحفل به من ألوان الشجار والانتقام والغرور والمعرة والدنس والرغبات الحارة والشهيات الحادة. ولم يكد حتى اليوم يتذوق للهواء النقي الحلو طعما، ولا عرف للحريات الضخمة في الحياة، التي وسع العلم آفاقها له.

ومن أجمل التأملات التي قد يرتئيها الفرد منا تصوره صورة ما للحياة الأرحب أفقًا التي تفتح وحدة العالم رتاجها على مصراعيه. ولابد أن الحياة ستمضى عندئذ مدفوعة بدافع أقوى، وستتنفس أنفاسا أعمق وأقوى، وذلك لأنها عند ذاك تكون قضت على مئات من صنوف العدوى التي تصيب العقل والجسم والتي تلسعه اليوم بلسعات المرض والعجز والفاقة. وقد سبق أن شددنا التأكيد على أن الكدح قد أزيل من الحياة الإنسانية بدرجة كبيرة بسبب إيجاد نوع آخر من الرقيق: وهو الآلات. وسيرفع هذا عن كاهل أطفالنا ومعه عوامل أخرى منها اختفاء الحرب وتوطئة أكناف ما لا حصر له من القيود والمنازعات بفضل الترتيبات الاجتماعية والاقتصادية الأكثر عدلاً، - عبء العمل المتعب والعمل الروتيني، وذلك العبء الذي بذله الإنسان وما زال يبذله منذ ظهور فجر الحضارات الأولى كي يحصل على الأمن البشري. وليس معنى ذلك أنهم سيتوقفون عن العمل، بل إنهم سيتوقفون عن القيام بالأعمال المضنية التي يعملونها بدافع الضغط، وسيعملون بملء حرياتهم واضعين الخطط وصانعين ما يشاءون وخالقين ما يستطيعون خلقه، كل حسبما تهيئ له قدراته وغرائزه. ولن يعودوا يقاتلون الطبيعة على طريقة أصحاب الفأس والمحراث الأغبياء في قديم الزمان، وإنما هم مقاتلوها التماسا لفتح عظيم يفتحونه. وكل ما في الأمر أن انعدام الروح فيما يحيق بنا

من اكتئاب في عصرنا الراهن يعمي بصائرنا عن الإشارات الواضحة التي تشير بها إلينا عقولنا، وهي التي ترسم لنا أنه لن تنقضي بضعة أجيال حتى تصبح كل مدينة ريفية صغيرة أثينا جديدة، وحتى تصير كتلة الأرض كلها منجما للإنسان ومصدر إنتاج وثروة وأقصى مناطقها بعدا مستزادا له وملعبا.

وقد جهدنا في هذه "المعالم" أن نبين للقارئ نظامين عظيمين للتطور يتفاعلان أحدهما مع الآخر في قصة الجماعة البشرية. فقد شهدنا الثقافة المتأخرة للعصر الحجري الحديث تتمخض في المناطق الرسوبية الدفينة من العالم عن الحضارات الأولية العظيمة، وهي نظم كانت تربة خصيبة لنمو الإخضاع والطاعة وتكاثرات ضخمة لأناس مجدين أذلاء. وأوضحنا العلاقة الضرورية بين هذه الحضارات القديمة وبين المعابد الباكرة وبين الآلهة الملوك والملوك الآلهة. وترسمنا في الوقت نفسه خطى التطور ابتداء من مستوى بسيط للعصر الحجري الحديث الذي عاشت فيه الشعوب المتجولة، التي أصبحت الشعوب المترحلة، ترسمناها في تلكم الجماعات الضخمة: الشعوب الآرية النوردية والشعوب الهونية المغولية في الشمال الغربي والشمال الشرقي كما شهدنا الساميين سكان الصحارى العربية. وقد تحدث تاريخنا عن عمر هذه الشعوب الأشد مراسا والأجرأ قلبا والمتحررة روحا ساكنة السهوب والصحارى، غمرا متكررا ومنعشًا للحضارات السمراء أصلاً. وأوضحنا كيف أن هذه الانسيابات المتكررة على الدوام لهؤلاء المترحلين غيرت على الدوام كلاً من روح الحضارات البدائية القديمة ودمها، وكيف أن أقاليم العالم في هذه الأيام وما نسميه الآن باسم الديمقراطية، وما نشهده من شدة جرأة البحث العلمي الحديث والقلق العام المنتشر في الدنيا، ترجع كلها إلى "صبغ" الحضارة بهذا الصباغ الترحلي. واليوم تدمرت قوة التقاليد. أجل إن قوام حالتنا الراهنة لا يزال هو الحضارة، ولكن روحها هي روح العالم المترحل. هي روح السهول العظيمة والبحار العليا.

ونتيجة لهذا كله يصبح من العسير علينا أن نقاوم الاقتناع بأنه ما يكاد قانون واحد يسري في الأرض وتكف حدة التوترات على الحدود عن إقلاق بالنا، حتى تحدث أثرها فينا تلك الحاجة الماسة في طبيعتنا التي تحركنا في الربيع والخريف أن ننهض للسفر والرحلة. وسيكون منا السميع المطيع لما ركب في دمائنا من دعوة مراعي الصيف ومراعي الشتاء، ودعوة الجبال والصحراء والبحر. ومنا أيضا من قد يكون من سلالة أخرى وتجيئه دعوة الغابة، ومنا من يميل إلى الصيد صيفًا ويعود إلى الحقول تلبية لدعوة المحصول والمحراث. ولكن ليس معنى ذلك أن الناس سيصبحون عندئذ مشردين بغير مأوى منساقين دوما بدافع النقلة والتحرك. إذ إن حياة الترحل السنوية ليست حياة قوم عديمي المأوى، وإنما هي حياة قوم يتنقلون بين مآوٍ مختلفة. فإن شعب القلموق يعيش في هذه الأيام كطير الخطاف وينتقلون كل عام ألف ميل من مأوى لهم إلى آخر. وفي اعتقادنا استنتاجا مما سلف أن مدن العصر التالي الجميلة المريحة ستمر عليها مواسم تعج فيها بالحياة ومواسم تغط أثناءها في النوم. وستمر بالحياة آناء مد وآناء جزر يمتلئ فيها كل إقليم أو يصفر على حال موسمية بقدر ما يزداد الاهتمام بذلك الإقليم أو يفتر.

ولن يكون في هذا العالم الأحسن نظاما إلا القليل من الكدح العسيف. إذ إن العسيف الكادح للناس جميعا سيكون قوى الطبيعة ملجمة في الماكينات. فأما ما كان من صنوف الكدح لا مندوحة منه، فسيتم في

صورة خدمة وأداء واجب لمدة بضعة سنوات أو أشهر تقتطب من حياة كل فرد؛ وإذن فلن يستنفد ولا يحقـر حياة أي فرد بأكملها. ولن يقتصر الأمر على الكادحين العسفاء فقط، بل إن أنواعا عديدة أخرى مـن النـاس وطرائق أخرى كثيرة للعيش تبدو اليوم ضخمة ضخامة غير عادية في الخطة الاجتماعية الجارية ستـضوي أهميتها بحكم الضرورة أو تزول من الوجود زوالاً تاما؛ مثال ذلك أن المقاتلين المحترفين سيكونون قلـة أو ينعدمون تماما وسيزول من الوجود موظفو الجمارك؛ ولابد أن يتهيأ للعدد الضخم الذي سيصير إليه المعلمون إلغاء شطر ضخم من قوات الشرطة وشطر آخر ضخم من موظفي السجون، وستصبح دور المجانين نـادرة أو منعدمة تماما؛ وسيعم العالم كله نظام صحي شامل يقلل من عدد المستشفيات والممرضات والمشرفين على غرف المرضى وما إلى ذلك؛ وستعم الدنيا أجمع عدالة اجتماعية وينقرض منها كل عالة تعيش عائمة علـى بحر المجتمع كالغشاشين والمحتالين والمقامرين والمحتكرين والمتطفلين والمضاربين بصفة عامة. ولكن عالم الأيام المقبلة لن تنقضي فيه المغامرة ولا الرومانس، كما أنه سيحدث مثلاً أن مصايد الأسماك فـي البحـار وتلك الثورات التي تحدثها البحار بلا نهاية ستدعو طرزها الخاصة القوية من الرجال؛ كما أن أطباق الهـواء العليا ستجأر مطالبة بالرجولة التي تجرؤ على اختراقها، فضلاً عن زئير الأماكن الخفية العميقـة الخطـرة للطبيعة بالدعوة والطلب.

وسيلتفت الناس ثانية لعالم الحيوان باهتمام مجدد. فإن أيامنا هذه المضطربة تجري فيها مذابح غبية لا سبيل إلى ضبطها تنزل أضرارها بأنواع الحيوان – وترى بعض الدوائر أنها شيء أكثر فجيعة من التعاسات الإنسانية نفسها، فقد حدث إبان القرن التاسع عشر أن العشرات من أنواع الحيوان أبيدت عن آخرها مـع أن بعضها أنواع شائقة جدا؛ بيد أن من أول ثمرات الدولة العالمية الفعالة قيام حماية أفضل لكل ما يـسمى الآن بالضواري. ومن أعجب الأمور في تاريخ البشرية أن نشهد ذلك القدر الضئيل الذي تم منذ عصر البرونـز في سبيل استئناس الحياة الحيوانية المحيطة بنا واستخدامها ومصادقتها وتقديرها. ولكن ذلك القتـل البحـت الغبي الذي يسمونه اليوم باسم الرياضة لابد أن يحل محله في مجتمع عالم أحسن تعليما تعديل للغرائز البدائية التي تعبر عن نفسها بهذه الطريقة يحولها إلى اهتمام لا بموت الوحوش بل بحياتها، ويؤدي إلى قيام محاولات جديدة قد تكون أيضا عجيبة جدا وجميلة جدا لمصادقة هذه المخلوقات الدنيا البائسة القريبة النسب منا والتـي لم نعد نخشاها عدوا، ولا نكرهها منافسا ولا نحتاج إليها عبدا رقيقًا.

وليس معنى وجود الدولة العالمية والعدالة العامة الشاملة حبس جنسنا البشري في إطار نظـامي مـن النظم الجرداء. إذ إن الجبال والبحر ستظل كائنة، وستظل هناك أدغال وغابات عظيمة تلقـى العنايـة حقًـا وتقدر أعظم التقدير وتوضع موضع الرعاية والحماية؛ وستظل السهول العظيمة مبسوطة أمامنا وتخفق فيهـا الأرياح العاتية. ولكن الرجال سيكفون عن البغض إلى هذا الحد الشديد، وعن الخوف بهذه الشدة، وعن الغش والخديعة بمثل هذه الدرجة المستيئسة التي نشهد؛ وسيحافظون على عقولهم وأجسامهم أنظف وأطهر.

هذا وإن ضم شتات البشرية مجتمع واحد لا ينطوي ضمنا على خلق مجتمع واحد متجانس، بل الأمـر على العكس من ذلك أو يكاد؛ إذ سيقوم الوضع على استخدام الصفات المميزة الخاصة استخداما كافيا يكـون

موضع الترحاب من الجميع في جو من الفهم. والأخلاق السيئة المنتشرة بين الناس كافة تقريبا في هذا العصر الذي نعيش فيه هي التي تجعل الشعب لا يطيق أخاه من الشعوب. والمجتمع الذي لعلنا نسير صوبه سيكون أشد اختلاطًا، وأكثر تنوعا وأكثر إمتاعا وتشويقًا من أي مجتمع يوجد الآن – وليس معنى ذلك بالضرورة أنه سيكون أكثر تهجينًا. ذلك أن المجتمعات المصوغة على غرار واحد كصناديق بيادق[1] اللعب، إنما هي شيء يمت إلى الماضي لا إلى المستقبل.

بيد أن من أعسر الأمور وأشدها استحالة على الكاتب، أن يتصور قيام وضع يعيش فيه قوم أحسن تعليما وأسعد ظروفًا وأكثر حرية وأصح بدنًا منه هو نفسه. ومعارفنا في هذه الأيام من السعة بحيث نعلم يقينًا أن هناك متسعا لا نهاية له لإدخال التحسين في كل ناحية تهم البشر. وكل ما يحتاج إليه الأمر إنما هو الجهد الحشدي المشترك والتسامح المتبادل. ولا شك أن ما نرزح تحته من فقر وقيود وأمراض معدية وعسر هضم وما ينشب بيننا من شجار وسوء تفاهم، إنما هي أشياء يمكن التحكم فيها وإزالة دواعيها بتجميع الجهود البشرية. ولكن معرفتنا بمعنى الحياة وإحساسها لو انعدمت هذه الأشياء تكون ضئيلة جدا لا تزيد عن معرفة مخلوق فقير قذر يعامل معاملة السوء وتتمرد نفسه بالشراسة، مخلوق ولد وترعرع بين ظهراني وسط قاس قذر في شارع خلفي من شوارع أوربا، أقول لا تزيد معارفنا عن معرفة ذلك المخلوق بمعنى الاستحمام يوميا وارتداء الثياب الجميلة وارتقاء الجبال التماسا للمسرة والانطلاق إلى أطباق الجو طيرانًا وعدم الالتقاء بأي إنسان إلا المهذبين الراقين من الناس والقيام بالأبحاث العلمية العميقة أو إنتاج كل ما يسر ويبهج من الأشياء. ولكن اليوم الذي قد تكون فيه هذه الطيبات جميعا في متناول الناس كافة قد يكون أقرب كثيرا مما نظن. وكل امرئ منا يعتقد في ذلك بقرب يوم ذلك الزمان الحسن، وكل قلب يفشل دون تلك الغاية يباعد بيننا وبينه.

ولا يستطيع إنسان أن يتنبأ بالمفاجآت ولا خيبات الرجاء التي يدخرها لنا المستقبل. وقبل أن يبدأ هذا الفصل الخاص بالدولة العالمية بداية جميلة في تاريخ العالم، فربما احتاج الأمر أن تُكتب فصول أخرى لا نتوقعها الآن، فصول لا تقل في طولها وامتلائها بالصراع عما أدلينا به إليك عن نمو الدول العظمي ومنافساتها وعن ثورة حكومات القلة الشبيهة بالعصابات. وربما حدثت كفاحات اقتصادية فاجعة، وملابطات شرسة بين جنس وجنس وبين طبقة وطبقة. وربما حدث أن يعاود أصحاب "المشروعات والمساعي الخاصة" رفضهم تعلم درس بذل الخدمات دون قيام ثورة كارثة أخرى. تلك أمور لا ندري عنها شيئًا ولا نستطيع أن ندلي فيها برأي. وغني عن البيان أن هذه جميعا إن هي إلا نوازل لا ضرورة لها، ولكن ربما كانت نوازل فظيعة وليس منها محيص. والتاريخ البشري يتحول أكثر فأكثر إلى سباق بين التعليم والكارثة. وفي الماضي كانت الكارثة هي الفائزة على جهد المسيحية لتوحيد العالم. وكانت هي الفائزة على أثر الانقلاب الميكانيكي النازع إلى الوحدة العالمية. ولسنا نستطيع حتى الآن أن نجزم كم من الانتصارات قدر للكارثة أن تحرزه، وكم من المحصولات الضخمة من حصائد النفوس لا يزال ينتظر الحاصد القاسي. وربما نشأت زيوف

---

[1] البيدق هو الجندي المصنوع دمية كما في الشطرنج. [المترجم]

وأكاذيب أخرى لم نحلم بها حتى اليوم، فتمسك بالناس وتزج بهم إلى حين في ربقة أحد الأنظمة قبل أن تنهار تلك الترهات بين ظهراني التعاسات والمذابح التي تنزل بالأجيال.

على أنه لا بد للعالم من أن يتقدم ولسوف يتقدم على شاكلة ما سواء في تعثر أو في سهولة ويسر. وقد سبق لنا أن اقتبسنا "في هذه المعالم" فيما أدلينا به إليك عن إنسان العصر الحجري القديم، وصفًا نقلناه عن المستر ورثنجتون سميث لأعلى درجة وصلت إليها الحياة البشرية في العالم قبل يومنا هذا بما يقارب الخمسين ألف سنة. لقد كانت حياة أدنى إلى حياة البهائم لا جرم. ورسمنا أيضا اجتماع الناس لتقديم القربان البشري قبل يومنا هذا بخمسة عشر ألف سنة. وغني عن بيان أن ذلك المشهد قاس قسوة لا يكاد يصدقها عقل عند أبناء عصرنا هذا.

ولم ينقض بعد أكثر من خمسمائة سنة على إمبراطورية الأزتيك التي كانت تعتقد أنها لا تعيش ما لم تسفك الدماء. وكانت مئات من الضحايا البشرية تموت كل عام بهذه الطريقة في بلاد المكسيك، وكان الجسم يقوس كالقوس فوق حجر التضحية الأفقي، وكان الصدر يطعن بسكين من الزجاج البركاني، ثم يعمد الكاهن إلى القلب النابض فينزعه من جسم الضحية وهي لا تزال حية. وربما كان قريبا ذلك اليوم الذي لا نعود فيه نأكل قلوب الرجال، ولو كان ذلك من أجل آلهتنا القومية. وما على القارئ إلا أن يرجع إلى الخرائط الزمنية الباكرة التي قدمناها إليه في هذا الكتاب، ليرى المقياس الحق والسمة العارضة لكل الصراعات والحرمانات والتعاسات التي شهدتها الإنسانية في هذه الفترة، فترة التغيرات الجرداء المؤلمة والحافلة بالرجاء في جملتها في الحين نفسه.

والتاريخ إنما هو – ولا بد له على الدوام كذلك – من أن لا يزيد على بيان يسجل البدايات. وفي إمكاننا أن نجرؤ على التكهن بأن الفصول التالية التي ستكتب ستتحدث وإن تخللتها فواصل طويلة في النكسات والكوارث، عن إحراز الناس في النهاية للوحدة السياسية والاقتصادية التي تشمل العالم أجمع. حتى إذا بلغت تلك الغاية، فلن يكون معناها مرحلة راحة، ولا حتى مرحلة لالتقاط الأنفاس، قبل نشوء كفاح جديد وجهود جديدة أعظم كثيرا. فالناس لن يتحدوا إلا لتشديد بحثهم وراء المعرفة والقوة والعيش كشأنهم دائما في انتظار المناسبات الجديدة. وعندئذ ستخضع حياة الحيوان والنبات، والطرائق الغامضة في علم النفس، والتركيب الخفي للمادة والأعماق الباطنية لكرتنا الأرضية، وتسلم أسرارها وتهب عطاياها لفاتحها. والحياة شيء يبدأ باستمرار لا يتوقف. "والحياة" عندما تتجمع في النهاية بزعامة الإنسان، المعلم الدارس للكون، وقد تَوحد وتنظم وتسلح بقوى الذرة الخفية، وبالمعرفة التي لا تزال اليوم وراء الأحلام، تلك "الحياة" التي تفتأ تموت أبدا لتولد من جديد أبدا، والتي تفتأ دائما أبدا صغيرة ومتشوقة، - ستنهض عند ذاك على قدميها فوق ظهر هذا الكوكب، وقفتها فوق كرسي ممهد وتمد سلطانها بين الأنجم الزهر.

جدول تاريخي

نختتم الآن هذه المعالم بتقديم قائمة بالأحداث العظمى من ٨٠٠ ق. م إلى ١٩٦٥م. ويحسن بالقارئ أن يستحضر أمام ذاكرته فكرة واضحة من التناسب الحقيقي بين الزمن التاريخي والزمن الجيولوجي. ولنقتبس لك الآن فقرة عن كتاب أصدره حديثًا المستر ج. هـ. روبنسون: "لكي يتسنى لنا أن نفهم الضوء الذي يعكسه عمر البشرية الضخم على مركزنا الحالي، وعلاقتنا بالماضي، وأملنا في المستقبل، سنقتبس في شيء من التعديل (من هنريخ شميت، أحد تلاميذ هيجل) وسيلة ذكية ماهرة لتمثيل الصورة التاريخية العصرية المرئية. فعلينا أن نتصور أن تاريخ البشرية بأكمله مقسم إلى اثنتي عشرة ساعة، وأننا نعيش في ظهيرة اليوم الإنساني الطويل. وعلينا لكي نسلك سبيل القصد والتقدير المريح، أن نفترض أن الإنسان كان مستقيم العود ومنشغلاً بطلاب المستحدثات لمدة مائتين وأربعين ألف سنة لا غير. وسنمثل كل ساعة من يومنا هذا عشرين ألف سنة، وتمثل كل دقيقة ثلاثمائة وثلاثين سنة وثلثًا. لقد انقضى ما يربو على إحدى عشرة ساعة ونصفًا لم يسجل فيها شيء. فنحن لا نعرف فيها شخصا ولا حدثًا؛ بل الحق أننا لا نتجاوز حالة الاستنتاج، إذ نقول إن الإنسان كان يعيش على الأرض، ذلك أننا نجد آلاته الحجرية وأجزاء من فخاره، وبعض صوره التي تمثل الماموث والجاموس البري (البيزون). وليس هناك حتى الدقيقة العشرين قبل الساعة الثانية عشرة أي شيء، ثم تبدأ أوائل آثار المدنيتين المصرية والبابلية. وليس عمر الأدب والفلسفة والعلم الإغريقي التي جرت عادتنا أن نسميها بالقديمة إلا سبع دقائق فقط. وفي الساعة الثانية عشرة إلا دقيقة كتب اللورد باكون كتابه الموسوم "تقدم العلوم"، ولم تكد تنقضي نصف دقيقة منذ أن بدأ الإنسان لأول مرة يجعل الآلة البخارية تقوم له بعمله".

والحق أن ذلك مثال فائق لتمثيل زمني للتاريخ صغير المعيار.

ولا يبدأ التاريخ أن يتسم بدرجة كافية من الدقة لتحديد سنة أية حادثة بالضبط إلا بعد استقرار فترات الأولمبياد الأول وبعد بناء روما.

وحوالي عام ألف ق. م كانت الشعوب الآرية تستقر في أشباه جزائر إسبانيا وإيطاليا والبلقان، وكذلك استقروا في شمالي الهند، وكانت كنوسوس قد دمرت من قبل ذلك، وكانت عصور التوسع المصرية أيام تحتمس الثالث وأمينحوتب (أمينوفيس) الثالث ورمسيس الثاني قد ولت منذ ثلاثة أو أربعة قرون. وكان يحكم في وادي النيل ملوك ضعفاء.

وكان سرجون الأول (٢٧٥٠ ق. م) صاحب الإمبراطورية الأكادية السومرية، ذكرى بعيدة في التاريخ البابلي، كان أبعد في التاريخ البابلي من بعد قسطنطين الأكبر عن عالمنا اليوم. وانقضي على موت حامورابي ألف سنة. وكان الآشوريون يحكمون من قبل البابليين الأقل منهم مراسا حربيا. إذ إن تجلات بلسر الأول استولى على بابل منذ ١١٠٠ق. م. ولكن لم يقم ثمة فتح دائم، فكانت آشوريا وبابلونيا لا تزالان إمبراطوريتين منفصلتين. وكانت أسرة تشاو الجديدة تزدهر في الصين. وكان عمر "ستون هنج" في إنجلترة ألف سنة في ذلك العصر.

وشهد القرنان التاليان في مصر تحت الأسرة الثانية والعشرين، وانقسام مملكـة سـليمان العبرانيـة الصغيرة القصيرة الأجل، وانتشار الإغريق في البلقان وجنوبي إيطاليا وآسيا الصغرى وأيام سيادة الإترسـك في وسط إيطاليا. وقد نستطيع أن نبدأ قائمة التواريخ الممكنة التحقيق بالآتي:

ق. م

٨٠٠ بناء قرطاجنة.

٧٩٠ غزو الإثيوبيين لمصر (تأسيسهم الأسرة الخامسة والعشرين).

٧٧٦ الأولمبياد الأول.

٧٥٣ بناء روما.

٧٤٥ تجلاث بلسر الثالث يفتح بابلونيا ويؤسس الإمبراطورية الآشورية الجديدة.

٧٣٨ مناحم ملك إسرائيل يشتري رحيل تجلاث بلسر الثالث عن بلاده.

٧٣٥ الإغريق يسكنون صقلية.

٧٢٢ سرجون الثاني يسلح الآشوريين بأسلحة من الحديد.

٧٢١ نقل الإسرائيليين إلى الأسر.

٧٠٤ سناحريب.

٧٠١ الوباء يدمر جيشه وهو في طريقه إلى مصر.

٥٨٠ إيسارهادون يستولي في مصر على طيبة من يد الأسـرة الخامـسة والعـشرين الإثيوبية.

٦٦٧ ساردانا بالوس.

٦٦٤ أبسماتيك الأول يسترد حرية مصر ويؤسس الأسرة الـسادسة والعـشرين (فـي ٦١٠). وقد ساعدته ضد مملكة آشور جنود ليدية أرسلها الملك جيجيس.

٦٠٨ نخاو ملك مصر يهزم يوشع ملك يهوذا في معركة مجدو.

٦٠٦ الكلدان والميديون يستولون على نينوي. تأسيس الإمبراطورية الكلدانية.

٦٠٤ نخاو يتقدم إلى الفرات وهناك يغلبه نبوخذنصر الثاني.

٥٨٦ نبوخذنصر الثاني يحمل اليهود إلى بابل. ويفر منهم كثيرون إلى مصر ويقيمـون بها.

٥٥٠ قورش الفارسي يخلف سياكسارس.

قورش يهزم كرويسوس.

بوذا كان يعيش قرابة ذلك الزمان. وكذلك كونفوشيوس ولاهوتسى.

ق. م

٥٣٩ قورش يستولي على بابل ويؤسس الإمبراطورية الفارسية.

٥٢٧ مات بيزستراتوس.

٥٢٥ غزا قمبيز مصر. مولد إيسكيلوس.

٥٢١ دارا الأول ابن هيستاسبس يحكم من الدردنيل إلى السند حملته على بلاد الإسكيذيين.

٤٩٥ مولد سوفوكليس.

٤٩٠ معركة ماراثون.

٤٨٤ مولد هيرودوت. فاز إيسكيلوس بأول جائزة له على التراچيديا.

٤٨٠ معركتا ترموبيلاى وسلاميس. مولد يوريبيدس.

٤٧٩ معركتا بلاتيا ومنكالي تتمان طرد وهزيمة فارس.

٤٧٤ الإغريق الصقليون يدمرون الأسطول الإترسكي.

٤٧٠ رحلة هانو.

٤٦٦ بركليس.

٤٦٥ مقتل إجزرسيس.

٤٣٨ هيرودوت يلقي تاريخه في آثينا.

٤٣١ ابتداء حرب البيلوبونيز (حتى ٤٠٤).

٤٢٩ وفاة بركليز. وفاة هيرودوت.

٤٢٧ بدأ أرستوفانيس حياته العملية. مولد أفلاطون. وعاش حتى ٣٤٧.

٤٠١ تراجع عشرة الآلاف (مع زينوفون).

٣٩٠ نهب برينوس روما.

٣٦٦ بني كاملّوس معبد الكونكورد.

٣٥٩ أصبح فيليب ملكًا على مقدونيا.

٣٣٨ معركة خايرونيا.

٣٣٦ عبرت جيوش مقدونيا إلى آسيا. مقتل فيليب.

٣٣٤ معركة جرانيكوس.

٣٣٣ معركة إسوس.

ق. م

٣٣٢ الإسكلند بمصر.

٣٣١ معركة أربيلا.

٣٣٠ مقتل دارا الثالث.

٣٢٣ موت الإسكندر الأكبر.

٣٢١ قيام شندارچوبتا في البنچاب. السمنيون يهزمون الرومان هزيمة تامة في معركـة كودين فوركس.

٣٠٣ شندارچوبتا يطرد سيلوقوس.

٢٨٥ وفاة بطليموس سوتير (المخاص).

٢٨١ غزا بيروس إيطاليا.

٢٨٠ معركة أوسكولوم.

٢٧٨ غارة الغالة على آسيا الصغرى ومقامهم بغلاطيا.

٢٧٥ بيروس يغادر إيطاليا.

٢٦٤ الحرب البونية الأولى. (بدأ أسوكا حكمه في بيهـار – حتـى ٢٢٧) أول ألعـاب للمجالدين بروما.

٢٦٠ معركة ميلاي.

٢٥٦ معركة إكنوموس.

٢٤٦ أصبح شي هوانج تي ملكًا على تس إن.

٢٤١ معركة الجزائر الإيجاتية. نهاية الحرب البونية الأولى.

٢٢٥ معركة تيلامون. الجيوش الرومانية في إلليريا.

٢٢٠ أصبح شي هوانج تي إمبراطورا للصين.

٢١٩ الحرب البونية الثانية.

٢١٦ معركة كاناي.

٢١٤ بدأت الحرب الصينية العظمى.

٢١٠ وفاة شي هوانج تي.

٢٠٢ معركة زاما.

٢٠١ نهاية الحرب البونية الثانية.

ق. م

٢٠٠ – ١٩٧ امتداد الحرب بين روما ومقدونيا.

١٩٢ الحرب مع السلوقيين.

١٩٠ معركة ماغنيسيا.

١٤٩ الحرب البونية الثالثة. (وصول بويه تشي إلى التركستان الغربية).

١٤٦ تدمير قرطاجنة. وتدمير كورنثة.

١٣٣ أتالوس يهب برجامة لروما. مقتل تيبريوس جراكوس.

١٢١ كايوس جراكوس يقتل.

١١٨ الحرب مع يوجورثا.

١٠٦ نهاية الحرب مع يوجورثا.

١٠٢ صد ماريوس الألمان.

١٠٠ نصر ماريوس. (فوتى يغزو وادي التاريم).

٩١ الحرب الاجتماعية.

٨٩ أصبح جميع الإيطاليين ممادنين رومانيين.

٨٦ وفاة ماريوس.

٧٨ وفاة سولا.

٧٣ ثورة الأرقاء بقيادة سبارتاكوس.

٧١ هزيمة سبارتاكوس ونهايته.

٦٦ قاد بومبي الجيوش الرومانية إلى بحر قزوين ونهر الفرات. والتقى بالآلانيين.

٦٤ مات ميثريداتس البونطشي.

٥٣ مقتل كراسوس في كرهاي. عناصر مغولية مع البارثيين.

٤٨ هزم يوليوس قيصر بومبي عند فارسالوس.

٤٤ اغتيال يوليوس قيصر.

٣١ معركة أكتيوم.

٢٧ أوغسطوس قيصر زعيما (حتى ١٤م).

٤ التاريخ الحقيقي لمولد يسوع الناصري.

الحقبة المسيحية

٦ تأسست مقاطعة مويسيا.

٩ تأسيس مقاطعة بانونيا. مد الحدود الإمبراطورية إلى الدانوب.

١٤ وفاة أوغسطوس. تيبريوس يصبح إمبراطورا.

٣٠ صلب يسوع الناصري.

٣٧ كاليجولا يخلف تيبريوس.

٤١ كلوديوس (أول أباطرة الكتائب) ينصبه الحرس البريتوري (الإمبراطوري) على العرش بعد مقتل كاليجولا.

٥٤ نيرون يخلف كلوديوس.

٦١ بواديكيا تذبّح الحامية الرومانية ببريطانيا.

٦٨ انتحار نيرون. (جالبا وأوتو وفيتيلوس أباطرة على التعاقب).

٦٩ فسباسيان يبدأ الأسرة الموسومة بالفلافية.

٧٩ تيتوس يخلف فسباسيان.

٨١ دوميتيان.

٨٤ استلحاق شمال بريطانيا.

٩٦ نرفا يبدأ أسرة الأنطونيين.

٩٨ خلف تراچان نرفا.

١٠٣ پان تشاو على بحر قزوين. (الهندوإسكيذيون يغزون شمال الهند).

١١٧ هادريان يخلف تراچان. الإمبراطورية الرومانية في أعظم مداها.

١٣٧ أنطونيوس بيوس يعقب هادريان.

(كان الهندإسكيذيون في ذلك الأوان يدمرون آخر آثار الحكم الهلليني في الهند).

١٥٠ (في حوالي ذلك الوقت كان كانيشكا يحكم الهند وقشغر ويرقند وخوتان).

١٦١ ماركوس أوربليوس خلف أنطونيوس بيوس.

١٦٤ بدأ الطاعون العظيم واستمر حتى وفاة ماركوس أوريليوس ١٨٠، وعاث فسادا أيضا في آسيا بأجمعها.

١٨٠ وفاة ماركوس أوريليوس.

(ابتدأ في الإمبراطورية الرومانية ما يقارب القرن من الحرب والفوضى).

٣٢٠ نهاية أسرة هان. بداية ٤٠٠ سنة من الانقسام في الصين.

٢٢٦ أردشير الأول (أول شاه ساسانى) يقضى على الأسرة الأرشكية بفارس.

٢٤٢ بدأ ماني تعليمه الناس.

٢٤٧ القوط يعبرون الدانوب في غارة عظيمة.

٢٥١ نصر عظيم للقوط، مقتل الإمبراطور ديكيوس.

٢٦٠ استولى سابور الأول ثاني شاه ساسانى على أنطاكيـة، وأسـر الإمبراطـور فاليريان، وقطع عليه أوديناثيوس ملك تدمر خط عودته إلى فارس.

٢٦٩ هزم الإمبراطور كلوديوس القوط عند نيش.

٢٧٠ أورليان يصبح إمبراطورا.

٢٧٢ حملت زنوبيا أسيرة إلى روما. نهاية أمجاد تدمر الوجيزة.

٢٧٥ بروبوس يخلف أوربليان.

٢٧٦ القوط في إقليم بونطش. الإمبراطور پروبوس يضطر الفرنجة والأليماني إلـى التراجع.

٢٧٧ ماني يصلب في فارس.

٢٨٤ دقلديانوس أصبح إمبراطورا.

٣٠٣ دقلديانوس يضطهد المسيحيين.

٣٠٦ قسطنطين الأكبر أصبح إمبراطورا.

٣١١ تخلي جاليريوس عن اضطهاد المسيحيين.

٣١٤ قسطنطين يرأس مجلسا مسيحيا في آلس.

٣٢١ الغارات القوطية الجديدة تصد.

٣٢٣ قسطنطين يرأس مجمع نيقيا.

٣٣٧ الوندال يحصلون وقد دفعهم القوط، على الأذن بالمقام في بانونيـا قـسطنطين يعمد وهو على فراش الموت.

٣٥٤ مولد القديس أوغسطين.

٣٦١ – ٣٦٣ چوليان المرتد يحاول أن يدخل الميثرائية بدل المسيحية.

٣٧٩ ثيودوسيوس الأكبر (وهو إسباني) يصبح إمبراطورا.

٣٩٠ تحطيم تمثال سيرابيس بالإسكندرية.

٣٩٢ ثيودسيوس الأكبر إمبراطورا للشرق والغرب.

٣٩٥ وفاة ثيودسيوس الأكبر.

٤١٠ استولى القوط الغربيون بقيادة آلاريك على روما.

٤٢٥ الوندال يستقرون في جنوب إسبانيا. ويستقر الهون في بانونيا والقوط في دلماسيا. القوط الغربيون والسويفى في البرتغال وشمالي إسبانيا.

الإنجليز يغزون بريطانيا.

٤٢٩ الوندال بقيادة جنسريك يغزون إفريقية.

٤٣٩ أخذ الوندال قرطاجنة.

٤٤٨ بريسكوس يزور آتيلا.

٤٥١ آتيلا يغزو بلاد الغاله ويهزمه الفرنجة والأليمانى والرومان في ترويس.

٤٥٣ وفاة آتيلا.

٤٥٥ الوندال ينهبون روما.

٤٧٠ إغارة الإفثاليين على الهند.

٤٧٦ أودواكر ملك خليط من القبائل التيوتونية، أبلغ القسطنطينية أنه ليس هناك إمبراطور في الغرب. نهاية الإمبراطورية الغربية.

٤٨٠ مولد القديس بندكت.

٤٨١ كولفيس في فرنسا. الميروفنجيون.

٤٨٣ الكنيسة النسطورية تنفصل عن الكنيسة الأرثوذكسية المسيحية.

٤٩٣ ثيودوريك القوطي الشرقي يغزو إيطاليا ويصبح ملك إيطاليا، ولكنه كان خاضعا اسما للقسطنطينية.

(ملوك القوط في إيطاليا. القوط يقيمون في أراضي خاصة مصادرة بوصفهم حامية).

٥٢٧ جستنيان إمبراطورا.

٥٢٨ طرد ميهيراجولا (آتيلا الهندي الإفثالي).

٥٢٩ أغلق جستنيان مدارس آثينا، بعد أن ازدهرت ألف سنة تقريبا. بلسانيوس (قائد جستنيان) استولى على نابلي.

٥٣١ كسرى الأول (أنوشروان) بدأ حكمه.

٥٤٣ الطاعون العظيم بالقسطنيطينية.

٥٤٤ وفاة القديس بندكت.

٥٥٣ چستنيان يطرد القوط من إيطاليا. كاسيوهوراس يؤسس ديره.

٥٦٥ وفاة چستنيان. فتح اللومبارد معظم إيطاليا الشمالية (تاركين رافنا وروما لبيزنطه). شتت الأتراك الإفثاليين بالتركستان الغربية.

٥٧٠ مولد محمد (عليه الصلاة والسلام).

٥٧٩ وفاة كسرى الأول (أنوشروان).
(اللومبارد يسودون إيطاليا).

٥٩٠ الطاعون يحصد الناس في روما. (جريجورى الأعظم وهو جريجورى الأول – ورؤيا القديس أنجيلو). بدأ كسري الثاني (أردشير) حكمه.

٦١٠ بدأ هرقل حكمه.

٦١٨ بداية أسرة تانج بالصين.

٦١٩ كسرى الثاني (أردشير) وبيده مصر وبيت المقدس ودمشق وجيوشه على الدردنيل.

٦٢٢ الهجرة النبوية.

٦٢٣ معركة بدر.

٦٢٧ هرقل يهزم الفرس هزيمة كبرى عند نينوي. مكة وأحزابها تحاصر المدينة. تاي تسونج يصبح إمبراطورا للصين.

٦٢٨ قتل قباذ الثاني أباه كسرى الثاني وخلفه على العرش.

٧٢٩ بدأ يوان شوانج رحلته إلى الهند. فتح مكة. (غزوة الفتح) – كتب محمد (ص) إلى جميع حكام الأرض.

٦٣٢ وفاة محمد وخلافة أبي بكر.

٦٣٤ خلافة عمر.

٦٣٥ تاي تسونج يستقبل المبعوثين النسطوريين.

٦٣٦ معركة اليرموك. العرب يستولون على سوريا.

٦٣٧ معركة القادسية.

٦٣٨ تسليم بيت المقدس لعمر.

٦٤٢ وفاة هرقل.

٦٤٤ خلافة عثمان.

٦٤٥ يوان شونج يعود إلى سنجان.

٦٥٥ المسلمون يهزمون الأسطول البيزنطي.

٦٥٦ مقتل عثمان بالمدينة.

٦٦١ مقتل علي. خلافة معاوية. (أول خلفاء بني أمية).

٦٦٨ هاجم الخليفة معاوية القسطنطينية بحرا – أصبح ثيودور الطوسوسي رئيسا لأساقفة كانتربري.

٦٧٥ آخر هجوم بحري لمعاوية على القسطنطينية.

٦٨٧ ناظر القصر بيبين الهرستالى يوحد أوستراسيا ونوستريا.

٧١١ غزا جيش المسلمين إسبانيا من إفريقية.

٧١٦ – ٧١٧ سليمان أخو الوليد وخليفته يفشل في فتح القسطنطينية. الأسرة الأموية تنحدر عن أوج مجدها.

٧٢١ شارل مارتل ناظرا للقصر. ممتلكات الخليفة الوليد الأول تمتد من جبال البرانس إلى الصين.

٧٣٢ هزم شارل مرتل المسلمين عند بواتييه.

٧٣٥ وفاة بيده (Bede) الوقور.

٧٤٣ الوليد الثاني خليفة – وهو الخليفة الكافر.

٧٤٩ خلع بني أمية. أبو العباس أول خلفاء الدولة العباسية. ظلت إسبانيا أموية ابتداء تمزق الإمبراطورية العربية.

٧٥١ بيبين يتوج ملكًا للفرنسيين.

٧٥٥ استشهاد القديس بونيفاس.

٧٧١ شارلمان ملكًا بمفرده.

٧٧٤ شارلمان يفتح لومباردي.

٧٧٦ شارلمان في دالماسيا.

٧٨٦ هارون الرشيد خليفة العباسيين ببغداد (إلى ٨٠٩).

٧٩٥ أصبح ليو الثالث بابا (إلى ٨١٦).

٨٠٠ ليو توج شارلمان إمبراطورا على الغرب.

٨٠٢ إجبرت وهو لاجئ إنجليزي ببلاط شارلمان، يقيم نفسه ملكًا على وسكس.

٨١١ كروم البلغاري يهزم الإمبراطور نقفور ويقتله.

٨١٤ مات شارلمان، وخلفه لويس التقي.

٨٢٨ أصبح إجبرت أول ملك لإنجلترة.

٨٤٣ مات لويس التقي وتمزقت الإمبراطورية الكازيبوفنجية. لم يكن هناك حتى ٩٦٢ أي تعاقب منتظم لأباطرة الدولة الرومانية المقدسة، وإن ظهـر اللقـب علـى فترات.

٨٥٠ في قرابة ذلك الوقت أصبح روريك وهو شمالي (نورثمان) حاكما لنوفجـورود وكينيف.

٨٥٢ بوريس أول ملك مسيحي لبلغاريا (إلى ٨٤٤).

٨٦٥ أسطول الروس وهم الشماليون (North men) يهدد القسطنطينية.

٨٨٦ المعاهدة بين ألفرد الإنجليزي وجوثروم الدانمركي توطـد قـدم الـدانمركيين بإنجلترة.

٩٠٤ أسطول الروسيين (النورثيين) خارج القسطنطينية.

٩١١ رولف العداء يوطد نفسه في نورماندي.

٩١٩ هنري الصياد ينتخب ملكًا لألمانيا.

٩٢٨ ماروزيا تحبس البابا يوحنا العاشر.

٩٣١ يوحنا الحادي عشر بابا (إلى ٩٣٦).

٩٣٦ أوتو الأول أصبح ملكًا لألمانيا خلفًا لأبيه هنري الصياد.

٩٤١ الأسطول الروسي يعود إلى تهديد القسطنيطينية.

٩٥٥ يوحنا الثاني عشر هو البابا.

٩٦٠ أسرة صنج الشمالية تبدأ ببلاد الصين.

٩٦٢ أوتو الأول. ملك ألمانيا يتوج إمبراطورا (أول الأباطرة السكسون) بيد يوحنـا الثاني عشر.

٩٦٣ أوتو عزل يوحنا الثاني عشر.

٩٦٩ الخلافة الفاطمية المنفصلة تقام بمصر.

٩٧٣ أوتو الثاني.

٩٨٣ أوتو الثالث.

٩٨٧ أصبح هيوكابت ملكًا لفرنسا. نهاية الأسرة الكارلوفنجية من الملوك الفرنسيين.

١٠١٦ أصبح كانيوت ملكًا على إنجلترة والدانمركة والنرويج.

١٠٣٧ مات ابن سينا البخاري أمير الأطباء.

١٠٤٣ الأسطول الروسي يهدد القسطنيطينية.

١٠٦٦ وليم دوق نورماندي يفتح إنجلترة.

١٠٧١ انتعاش الإسلام تحت الأتراك السلجوقيين. معركة ملازجرد.

١٠٧٣ أصبح هلدبراند بابا (جريجورى السابع) إلى ١٠٨٥.

١٠٧٧ هنري الأربع يقدم التوبة كانوسا.

١٠٧٩ مولد بطرس أبيلارد.

١٠٨٢ روبرت جويسكارد يفتح دورازو.

١٠٨٤ روبرت جويسكارد ينهب روما.

١٠٨٧ – ١٠٩٩ إربان الثاني بابا.

١٠٩٤ وباء.

١٠٩٥ إربان الثاني يدعو في كليمونت إلى الحرب الصليبية الأولى.

١٠٩٦ مذبحة الحملة الصليبية الشعبية.

١٠٩٩ جودفري البويوني استولى على بيت المقدس. بسكال الثاني بابا (إلى ١١١٨).

١١٣٨ ازدهار إمبراطورية كن. نقل عاصمة أسرة صنج من ناتكين إلى هان تشاو.

١١٤٢ وفاة بطرس أبيلارد.

١١٤٧ الحرب الصليبية الثانية. تأسيس المملكة المسيحية البرتغالية.

١١٦٩ صلاح الدين سلطانًا على مصر.

١١٧٧ فردريك باربروسا يعترف بسيادة البابا (إسكندر الثالث) بالبندقية.

١١٨٧ استولى صلاح الدين على بيت المقدس.

١١٨٩ الحرب الصليبية الثالثة.

١١٩٣ مولد ألبرتوس ماجنوس.

١١٩٨ وفاة ابن رشد القرطبي الفيلسوف العربي. إنوسنت الثالث بابا (إلـى ١٢١٦)؛ أصبح فردريك الثاني (وعمره أربع سنوات) ملك صقلية تحت وصايته.

١٢٠٢ الحملة الصليبية الرابعة تهاجم الإمبراطورية الشرقية.

١٢٠٤ اللاتين يستولون على القسطنطينية.

١٢٠٦ أسس قطب الدولة الإسلامية بدلهي.

١٢١٢ حملة الأطفال الصليبية.

١٢١٤ چنكيزخان استولى على بكين.

١٢١٥ التوقيع على الماجناكارتا.

١٢١٦ هونوريوس الثالث بابا.

١٢١٨ چنكيزخان يغزو خوارزم.

١٢٢١ فشل الحملة الصليبية الخامسة وعودتها. وفـاة القـديس دومينيـك (جمعيـة الدومينيكيين).

١٢٢٥ ميلاد توماس الأكويني.

١٢٢٦ وفاة القديس فرنسيس الأسيسى (جمعية الفرنسيسكانيين).

١٢٢٧ مات چنكيزخان، وهو يحكم من بحر قزوين إلى المحيط الهادي، وخلفه إقطاي خان. جريجوري التاسع بابا.

١٢٢٨ شرع فردريك الثاني في الحملة الصليبية السادسة، واحتاز بيت المقدس.

١٢٣٤ أتم المغول فتح إمبراطورية كن بمساعدة إمبراطورية صنح.

١٢٣٩ فردريك الثاني يصدر ضده الحرم للمرة الثانية.

١٢٤٠ المغول دمروا كييف. الروسيا تصبح تابعة للمغول.

١٢٤١ المغول ينتصرون عند ليجنتز في سيليزيا.

١٢٤٤ سلطان مصر يسترد بيت المقدس. فأدى ذلك إلى الحملة الصليبية السابعة.

١٢٤٥ فردريك الثاني يحرم مرة ثانية. رجال شويز يحرقون قلعة نيوهابسبرج.

١٢٥٠ القديس لويس الفرنسي يدفع الفدية. وفاة فردريك الثاني آخر أبـاطرة أسـرة هوهنشتاوفن. فترة خلو العرش الألماني حتى ١٢٧٣.

١٢٥١ أصبح مانجو خان هو الخان الأعظم. قوبلاي خان حاكما على الصين.

١٢٥٨ هولاكو خان يستولي على بغداد ويدمرها.

١٢٦٠ أصبح قوبلاي خان خانا أعظم. هزيمة قطبغا بفلسطين.

١٢٦١ عاد الروم فاستردوا القسطنطينية من اللاتين.

١٢٦٥ مولد دانتى الليجيري.

١٢٦٦ مولد جيوتو.

١٢٦٩ أرسل قوبلاي خان رسالة استعلام إلى البابا على يد الأخوين الكبيرين بولو.

١٢٧١ ماركو بولو يبدأ رحلاته.

١٢٧٣ رودلف الهابسبرجي ينتخب إمبراطورا. أسس السويسريون حلفهم الدائم.
١٢٧٤ وفاة توماس الأكويني.
١٢٨٠ أسس قوبلاي خان أسرة يونان بالصين. مات ألبرتوس ماجنوس.
١٢٩٢ وفاة قوبلاي خان.
١٢٩٣ وفاة روجر باكون نبي العلوم التجريبية.
١٢٩٤ بونيفاس الثامن يصبح بابا (حتى ١٣٠٣).
١٢٩٥ ماركو بولو يعود إلى البندقية.
١٣٠٣ وفاة بونيفاس الثامن بعد اعتداء غليوم دي نوجاريت عليه في أناجني.
١٣٠٤ ميلاد بترارك.
١٣٠٥ كلمنت الخامس بابا.
١٣٠٨ وفاة دنس الاستكلندي (سكوتاس).
١٣٠٩ إقامة البلاط البابوي في آفينيون.
١٣١٨ أربعة من الفرنسسكيين يحرقون بمرسيليا بتهمة الهرطقة.
١٣٣٧ وفاة جيوتو.
١٣٤٧ وفاة أكّام.
١٣٤٨ الطاعون العظيم – الموت الأسود.
١٣٥٨ حروب الفلاحين (الچاكري) بفرنسا.
١٣٦٨ في الصين سقطت أسرة يوان المغولية وخلفتها أسرة منج (إلي ١٦٤٤).
١٣٦٩ تيمورلنك يتخذ لقب الخان الأعظم.
١٣٧٤ مات بترارك.
١٣٧٧ عاد البابا جريجوري الحادي عشر إلي روما.
١٣٧٨ الصدع الأعظم. إربان السادس في روما – كلمنت السابع في آفينيون.
١٣٨١ فتنة الفلاحين بإنجلترة. وات تايلور يقتل بحضرة الملك ريتشارد الثاني.
١٣٨٤ وفاة ويكليف.
١٣٨٧ مولد فرا أنجليكودي فيزولي.
١٣٩٨ بشرهس بتعاليم ويكليف في براغ.
١٤٠٠ مات شوسر.

١٤٠٥ وفاة تيمورلنك.

١٤١٤ – ١٤١٨ مجمع كونتانس. إحراق هس (١٤١٥).

١٤١٧ نهاية الصدع الأعظم. مارتن الخامس بابا.

١٤٢٠ ثار الهسيون. دعا مارتن الخامس إلى حملة صليبية ضدهم.

١٤٣١ تبددت حملة الكاثوليك الصليبية أمام الهسبين عند دورمازليس اجتمع مجلس بال. مولد ڤيون. مولد مانتنيا.

١٤٣٦ اصطلح الهسيون مع الكنيسة.

١٤٣٩ أوجد مجمع بال صدعا جديدا في الكنيسة.

١٤٤٥ استكشاف البرتغاليين لرأس ڤردي.

١٤٤٦ أول الكتب المطبوعة (كوستر في هارلم).

١٤٤٩ نهاية مجلس بال.

١٤٥٢ مولد ليوناردو داڤنشي.

١٤٥٣ استولى الأتراك العثمانيون بقيادة محمد الثاني على القسطنطينية.

١٤٧١ مولد ديورر.

١٤٧٣ مولد كوبرنيق.

١٤٨٠ خلع إيڤان الثالث غراندوق موسكو طاعته للمغول.

١٤٨١ وفاة السلطان محمد الثاني وهو يستعد لغزو إيطاليا. بايزيد الثاني سلطان الأتراك (حتى ١٥١٢).

١٤٨٦ دار دياز حول رأس الرجاء الصالح.

١٤٩٢ عبر كولمبس الأطلسي إلى أمريكا. روديجو بورچيا، الإسكندر السابع بابا (إلى ١٥٠٣).

١٤٩٣ أصبح ماكسيمليان الأول إمبراطورا.

١٤٩٨ دار ڤاسكودا جاما حول الرأس إلى الهند.

١٤٩٩ أصبحت سويسرا جمهورية مستقلة.

١٥٠٠ ولد شارل الخامس.

١٥٠٩ هنري الثامن ملكًا على إنجلترة.

١٥١٢ سليم الأول سلطان حتى (١٥٢٠). اشترى لقب الخلافة. سقوط سودريني ومكياڤللي بفلورنسا.

١٥١٣ ليو العاشر بابا.

١٥١٥ فرنسيس الأول ملكًا لفرنسا.

١٥١٧ ضم سليم مصر إلى أملاكه. لوثر يبسط نظريته في وتنبرج.

١٥١٩ مات ليوناردو دافنشي. الشروع في رحلة ماجلان حول العالم. كورتيز يـدخل مدينة المكسيك.

١٥٢٠ سليمان القانوني سلطانًا إلي ١٥٦٦، وكان يحكم من بغداد إلى بلاد المجر.
شارل الخامس إمبراطورا.

١٥٢١ لوثر بمجلس الدايت في ورمس. جرح ليولا في بامبلونا.

١٥٢٥ بابر فاز بمعركة بانيبات وفتح دلهي، وأسس الإمبراطورية المغولية.

١٥٢٧ الجنود الألمانية بإيطاليا بقيادة كونستابل بوربون، تستولي على روما وتنهبها.

١٥٢٨ مولد بول الفيروني.

١٥٢٩ سليمان يحاصر فيينا.

١٥٣٠ غزا بيزارو بيرو. توج البابا شارل الخامس. بدأ هنري الثـامن خلافـه مـع البابوية.

١٥٣٢ استولى التعميديون على مونستر.

١٥٣٥ سقوط حكم التعميديين في مونستر.

١٥٣٩ تأسست جمعية يسوع (اليسوعيين).

١٥٤٥ اجتمع مجلس ترنت (إلى ١٥٦٣) لينظم الكنيسة.

١٥٤٦ وفاة مارتن لوثر.

١٥٤٧ إيفان الرابع (الرهيب) اتخذ لقب قيصر الروسيا. توفي فرنسيس الأول.

١٥٤٩ وصلت أول البعثات اليسوعية إلى أمريكا الجنوبية.

١٥٥٢ معاهدة باساو. تهدئة مؤقتة لألمانيا.

١٥٥٦ تنازل شارل الخامس عن العرش. أكبر يصبح المغولي الأعظم (إلـى ١٦٠٥).
مات إغناطيوس ليولا.

١٥٥٨ وفاة شارل الخامس.

١٥٦١ مولد فرنسيس باكون (لورد فريولام).

١٥٦٣ نهاية مجلس ترنت وإصلاح الكنيسة الكاثوليكية.

١٥٦٤ مولد شكسبير.

١٥٦٦ مات سليمان القانوني.

١٥٦٧ ثورة الأراضي المنخفضة.

١٥٦٨ إعدام الكونتين إجمونت وهورن.

١٥٧٣ حصار ألكمار.

١٥٨٣ حملة السير والتر رالي على ڤرچينيا.

١٦٠٣ چيمس الأول ملكًا لإنجلترة واسكتلندة.

١٦٠٥ المغولي الأعظم چيهان جير.

١٦٠٦ تأسيس شركة ڤرچينيا.

١٦٠٩ استقلال هولندة.

١٦١٨ ابتداء حرب الثلاثين سنة.

١٦٢٠ حملة الماي فلاور تؤسس نيوبليموث. أول أرقاء زنوج ينزلون چيمس تـون (ڤرچينيا)

١٦٢٥ شارل الأول ملك إنجلترة.

١٦٢٦ توفي السير فرنسيس باكون (لورد ڤريولام).

١٦٢٨ شاه چيهان يصبح المغولي الأعظم. "التماس الحقوق" الإنجليزي.

١٦٢٩ شارل الأول ملك إنجلترة يبدأ حكمه أحد عشر عاما بلا برلمان.

١٦٣٢ لي يوئن هوئك يولد. مصرع جوستاف أدولف في معركة لوتزن.

١٦٣٤ مقتل والنشتين,

١٦٣٨ إقفال اليابان في وجه الأوربيين (حتى ١٨٦٥).

١٦٤٠ عقد شارل الأول ملك إنجلترة البرلمان الطويل.

١٦٤١ مذبحة الإنجليز بإرلندة.

١٦٤٣ بدأ لويس الرابع عشر حكما دام اثنتين وسبعين سنة.

١٦٤٤ أنهى المانشو أسرة منج.

١٦٤٥ هدم حظائر الخنازير بالمدينة الداخلية من ليبزج.

١٦٤٨ معاهدة وستفاليا. وبها اعتـرف بهولنـدة وسويـسرة جمهـوريتين حـرتين وأصبحت بروسيا دولة هامـة. ولـم تـتح المعاهـدة نـصرا نهائيـا للتـاج الإمبراطوري ولا للأمراء حروب الفروند؛ وانتهت بنصر التاج الفرنسي نصرا كاملاً.

١٦٤٩ إعدام شارل الأول ملك إنجلترة.

١٦٥٨ أورانغزيب المغولى الأعظم. مات كروم ويل.

١٦٦٠ شارل الثاني ملك إنجلترة.

١٦٧٤ أصبحت نيوأمستردام بريطانية نهائيا بمعاهدة، وسميت نيويورك.

١٦٨٣ آخر هجوم تركي على ڤيينا يهزمه حنا الثالث ملك بولندة.

١٦٨٨ الثورة البريطانية. فرار چيمس الثاني. بدأ وليم ومازي حكمهما.

١٦٨٩ بطرس الأكبر قيصر الروسيا (حتى ١٧٢٥).

١٦٩٠ معركة بوين (Boyne) بإرلندة.

١٧٠١ فردريك الأول أول ملك لبروسيا.

١٧٠٧ وفاة أورانغزيب. إمبراطورية المغولي الأعظم تتفتت.

١٧١٣ مولد فردريك الأكبر ملك بروسيا.

١٧٣٣ أسس أوجلي ثورب ولاية چورچيا.

١٧٣٦ أغار نادر شاه على الهند. (بداية عشرين عاما من الفوضى والغارات بالهند).

١٧٤٠ ارتقاء فردريك الأعظم عرش بروسيا.

١٧٤٠ بدأت ماريا تريزا حكمها. (ولأنها امرأة) لم تصبح إمبراطورة. وأصبح زوجها فرانسوا الأول إمبراطورا بعد ١٧٤٥ حتى وفاته في ١٧٦٥ عندما خلفه ابنها (چوزيف الثاني).

١٧٤١ بدأت قيصرة الروسيا إليزابيث حكمها.

١٧٥٥ – ١٧٦٣ بريطانيا وفرنسا تتقاتلان على أمريكا والهند. وفرنسا تتحالف مع النمسا والروسيا بروسيا وبريطانيا (١٧٥٦ – ١٧٦٣)، حرب السبع سنوات.

١٧٥٧ معركة بلاسي.

١٧٥٩ استولى الجنرال ولف البريطاني على كويبك.

١٧٦٠ چورچ الثالث ملك بريطانيا.

١٧٦٢ وفاة الإمبراطورة إليزابيث الروسية. مقتل القيصر بول، وتولي كاترين العظمي عرش الروسيا (إلى ١٧٩٦).

١٧٦٣ صلح باريس، والتنازل عن كندا لبريطانيا. بريطانيا تسود الهند.

١٧٦٤ معركة بوكسار.

١٧٦٦ مولد مالثوس.

١٧٦٩ مولد نابليون بونابرت.

١٧٧٤ بدأ لويس الرابع عشر حكمه. انتحار كليف. بدء الحركة الثورية الأمريكية.

١٧٧٥ معركة لكسنجتون. مولد ترنر.

١٧٧٦ إعلان الاستقلال بالولايات المتحدة الأمريكية.

١٧٨٠ نهاية حكم ماريا تريزا. خلفها الإمبراطور جوزيف (١٧٦٥ إلى ١٧٩٠) في ممتلكات آل هابسبرج الموروثة.

١٧٨٣ معاهدة الصلح بين بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية الجديدة. إطلاق سراح كواكو بماساشوستس.

١٧٨٧ مؤتمر فيلادلفيا الدستوري يقيم حكومة الولايات المتحدة الاتحادية. تبين أن فرنسا مفلسة. جمعية العيان.

١٧٨٨ الكونجرس الاتحادي الأول للولايات المتحدة بنيويورك.

١٧٨٩ مجلس الطبقات العام الفرنسي يجتمع. هدم الباستيل.

١٧٩١ ثورة اليعاقبة. الفرار إلى فارن.

١٧٩٢ أعلنت فرنسا الحرب على النمسا، أعلنت بروسيا الحرب على فرنسا. أصبحت فرنسا جمهورية.

١٧٩٣ إعدام لويس السادس عشر.

١٧٩٤ إعدام روبسبير ونهاية جمهورية اليعاقبة. حكم المؤتمر.

١٧٩٥ حكومة الإدارة. أخمد بونابرت ثورة وذهب إلى إيطاليا قائدا عاما.

١٧٩٧ دمر بونابرت جمهورية البندقية بمعاهدة كامبوفورميو.

١٧٩٨ ذهب بونابرت إلى مصر. معركة النيل.

١٧٩٩ عودة بونابرت. أصبح القنصل الأول مع سلطات هائلة.

١٨٠٠ الاتحاد التشريعي بين إنجلترة وإرلندة ينفذ في أول يناير ١٨٠١ حملة نابليون على النمسا. معارك مارنجو (في إيطاليا) وهو هتلندن (وهي انتصار مورو).

١٨٠١ مسودات الصلح بين فرنسا وإنجلترة والنمسا توقع.

١٨٠٣ بونابرت يحتل سويسرا، وبذا يعجل بالحرب.

١٨٠٤ أصبح بونابرت إمبراطورا. اتخذ فرانسوا الثاني لقب إمبراطور النمسا في ١٨٠٥ وفي ١٨٠٦ أسقط لقب إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وبذلك انتهت الدولة الرومانية المقدسة.

١٨٠٥ معركة الطرف الأغر. معركتا أولم وأوسترليتز.

١٨٠٦ هزيمة بروسيا في يينا.

١٨٠٧ معركتا إيلاو، وفريدلند، ومعهادة تلْست.

١٨٠٨ جعل نابليون أخاه چوزيف ملكًا على إسبانيا.

١٨١٠ أصبحت أمريكا الإسبانية جمهورية.

١٨١١ انسحب الإسكندر من "النظام القاري".

١٨١٢ تقهقر نابليون من موسكو.

١٨١٤ تنازل نابليون عن العرش. لويس الثامن عشر.

١٨١٥ حملة واترلو: معاهدة ڤيينا.

١٨١٩ أول قانون للمصانع يقره البرلمان بناء علة جهود روبرت أوين.

١٨٢١ ثورة اليونان.

١٨٢٤ شارل العاشر ملك فرنسا.

١٨٢٥ نيقولا الأول قيصر الروسيا. أول سكة حديد من ستوكتون إلى دار لنجتول.

١٨٢٧ معركة نوارين.

١٨٢٩ استقلال اليونان.

١٨٣٠ سنة من الفوضى والفتن. طرد لويس فيليب شارل العاشر.

انفصلت بلچيكا عن هولندة. أصبح ليوبولد أمير ساكس كوبرج جوثا ملكًا على تلك الدولة الجديدة، وهي بلچيكا. ثارت بولندة الروسية بغير جدوى.

١٨٣٢ قانون الإصلاح الأول ببريطانيـا يرجـع إلـى البرلمـان البريطـاني الـسمة الديموقراطية.

١٨٣٥ استعمال كلمة "الاشتراكية" لأول مرة.

١٨٣٧ الملكة ڤيكتوريا.

١٨٤٠ تزوجت الملكة ڤيكتوريا الأمير ساكس كوبرج جوثا.

١٨٤٨ سنة أخرى من الفتن. جمهوريات بفرنسا وروما. مؤتمر الجامعة الصقلية يعقد في براغ. ألمانيا كلها تتحد في برلمان بفرانكفورت. ملك بروسيا يدمر وحـدة ألمانيا.

١٨٥١ معرض لندن العظيم.

١٨٥٢ نابليون الثالث إمبراطورا للفرنسيين.

١٨٥٤ حملة پري (Perry) (الثانية) تنزل باليابان. احتل نيقولا الأول ولايات الدانوب التركية.

١٨٥٤ – ١٨٥٦ حرب القرم.

١٨٥٦ إسكندر الثاني قيصر الروسيا.

١٨٥٧ العصيان الهندي.

١٨٥٩ الحرب الفرنسية النمسوية. معركتا ماچنتا وسولفرينو.

١٨٦١ ڤيكتور عمانويل أول ملك لإيطاليا. أصبح إبراهام لينكـولن رئيـسا للولايـات المتحدة. ابتدأت الحرب الأهلية الأمريكية.

١٨٦٣ أطلق البريطانيون قنابلهم على مدينة يابانية.

١٨٦٤ أصبح ماكسمليان إمبراطورا للمكسيك.

١٨٦٥ التسليم أوبوماتوكس كورت ماوس. فتح أبواب اليابان للعالم الخارجي.

١٨٦٦ بروسيا وإيطاليا تهاجمان النمسا (والولايات الألمانية الجنوبية المتحالفة معها) معركة سادوا.

١٨٦٧ مقتل الإمبراطور مكسمليان بالرصاص.

١٨٧٠ نابليون الثالث يعلن الحرب على بروسيا.

١٨٧١ سلمت باريس (يناير). أصبح ملك بروسيا هو غليوم الأول إمبراطور ألمانيـا، صلح فرانكفورت.

١٨٧٥ الفظائع في بلغاريا.

١٨٧٧ الحرب التركية الروسية. معاهدة سان اسـتفانو. أصـبحت الملكـة ڤكتوريـا إمبراطورة على الهند.

١٨٧٨ معاهدة برلين. سلام مسلح بأوربا دام ٣٦ سنة.

١٨٨١ معركة تل ماچوبا. تحرير الترنسڤال.

١٨٨٢ وفاة شارلز دارون.

١٨٨٣ احتلت بريطانيا مصر. (وصحة التاريخ ١٨٨٢). مات كارل ماركس.

١٨٨٦ أول قانون للحكم الذاتي الإرلندي يصدره جلادستون.

١٨٨٨ الإمبراطور فردريك الثالث (مارس) ثم غليوم الثاني (يونيـه) يتوليـا الحكـم بألمانيا.

١٨٩٠ عزل بسمارك. اللورد سالسبوري ينزل لألمانيا عن جزيرة هليجولند.

١٨٩٤ – ١٨٩٥ حرب اليابان مع الصين.

١٨٩٥ الحكومة الاتحادية (الاستعمارية) ببريطانيا.

١٨٩٦ معركة عدوه.

١٨٩٨ الخلاف بين فرنسا. وبريطانيا على فاشوده. ألمانيا تستولي على كياوتشاو.

١٨٩٩ ابتدأت الحرب بجنوب إفريقية (حرب البوير).

١٩٠٠ فتن البوكسر بالصين. محاصرة السفارات في بيكين.

١٩٠٤ غزا البريطانيون التبت.

١٩٠٤ – ١٩٠٥ الحرب الروسية اليابانية.

١٩٠٦ الأحرار يغلبون حزب الاتحاديين (الاستعماريين) في مسألة التعريفة الجمركية.

١٩٠٧ تأسيس اتحاد جنوب إفريقية.

١٩٠٨ ضمت النمسا البوسنة والهرسك.

١٩٠٩ طار المسيو بليريو بطيارة من فرنسا إلى إنجلترة.

١٩١١ أعلنت إيطاليا الحرب على تركيا واستولت على طرابلس.

١٩١٢ أصبحت الصين جمهورية. أعلن حلف البلقان الحرب على تركيا.

١٩١٣ تهريب الاتحاديين السلاح يترتب عليه سفك الدماء بلندندري في إرلندة.

١٩١٤ ابتدأت الحرب العظمى الأوربية.

١٩١٧ الثورتان الروسيتان. تأسيس النظام البلشفي بالروسيا.

١٩١٨ الهدنة (نوفمبر).

١٩١٩ – ١٩٢٠ معاهدة ﭬرساي.

١٩١٩ انسحب البريطانيون من أركانجل. هزيمة دنيكين. أوشك يودينيتش أن يستولى على بطرسبرج ثم انهار. الأسطول الألماني يخرج ليسلم للبريطاني ولكن يغرقه قواده وضباطه عند سكاباڤلو.

١٩٢٠ أول اجتماع لعصبة الأمم، التي حظرت على ألمانيا والنمسا والروسيا وتركيا، والتي لم تمثل فيها الولايات المتحدة. قتل كولتشاك رميا بالرصاص. بولندة تهاجم الروسيا، ويغزوها رانجل من الجنوب فيدفع إلى الوراء. رضا باشا يقبض على السلطة في فارس.

١٩٢١ الحلفاء يسيطرون على القسطنطينية. مؤتمر لبحث نزع السلاح البحري يعقد بواشنطون برئاسة الرئيس هاردنج.

١٩٢٢ مجاعة عظيمة بالروسيا. مؤتمر جنوا الذي حضره الألمان والروس. ازدياد الخلل في المالية الألمانية وعدم مقدرتها على دفع عقوبات الحرب الباهظة. الانهيار اليوناني العسكري بآسيا الصغرى. انفصال إرلندة الجنوبية عن بريطانيا العظمى.

١٩٢٣ احتلال الفرنسيين لحوض الروهر والانهيار النقدي بألمانيا. إنشاء الرنت مارك.

١٩٢٣ بريطانيا العظمي تسترد لعملتها معيار ما قبل الحرب.

١٩٢٤ أول حكومة للعمال ببريطانيا. وخلفتها حكومة محافظة في نوفمبر بعد انتخابات عامة، توفي لينين. مقتل ماتيوث، (وهو كاتب إيطالي حر) بيد الفاشست. مشروع داوز لتخفيض ديون الحرب الألمانية.

١٩٢٥ الفرنسيون يهاجمهم عبد الكريم بمراكش والدروز في سوريا. إنشاء الريخ مارك بألمانيا. معاهدة لوكارنو. خلع شاه إيران على يد علي رضا خان. رضا خان يصبح شاها.

١٩٢٦ الإضراب العام ينجم في إنجلترة عن إغلاق أصحاب العمل مناجم الفحم. الفرنك الفرنسي ينزل دون البنس الإنجليزي ولكن هبوطه يوقف، وتعاد قيمته إلى بنسين بحكومة ائتلافية ألفت لمواجهة الأزمة. هزيمة عبد الكريم.

١٩٢٧ هاجمت الحكومة البريطانية إدارة الأعمال التابعة للحكومة الروسية بلندن وقطعت علاقاتها الدبلوماسية مع الروسيا. فشل مؤتمر لنزع السلاح بجنيف.

١٩٢٨ المستر كيلوج وزير خارجية الرئيس كوليدج يبتكر مجموعة من المعاهدات بها تتخلى جميع الدول العظمى في العالم عن الحرب. نشاط لا يفتر في صناعة الأسلحة. إتمام تحويل الجيوش إلى وحدات ميكانيكية والاستفاضة في دراسة حرب الغازات والبكتيريا. بدأ مشروع الخمس سنوات في الروسيا.

١٩٢٩ وزارة العمال الثانية بإنجلترة بعد انتخابات عامة. إعادة العلاقات بين إنجلترة والروسيا. وفاة شترزمان. أصبح هوفر رئيسا للولايات المتحدة. كانت ظاهرة هبوط الأسعار وتواصل عطالة العمال زادت زيادة واضحة في كل مكان. مشروع يونغ لتخفيض ديون الحرب الألمانية.

١٩٣٠ عقد بلندن مؤتمر لنزع السلاح البحري وكانت نتائجه تافهة. ظهر في الريخستاغ الألماني حزب فاشي جديد قوي بزعامة نمسوي اسمه هتلر. إنشاء بنك التسويات الدولي.

١٩٣١ أصبحت إسبانيا جمهورية (أبريل). اشتدت حدة محنة ألمانيا الاقتصادية، واقترح الرئيس هوفر أن يعطل دفع ديون الحرب سنة. جاءت الأزمة المالية في أعقاب ذلك إلى بريطانيا. وحلت محل حكومة العمال، حكومة طوارئ قومية، تعهدت بدعم معيار الذهب. ثم تخلت عن تلك الفكرة بعد ثلاثة وعشرين يوما قضتها في أوضاع اقتصادية هستيرية. واحتفظ المستر رامساي ماكدونالد رئيس حزب العمال السابق بمنصب رئاسة الوزارة بمهارة تامة طيلة تلك التقلبات السياسية.

١٩٣١ رفضت عصبة الأمم أن تأذن بقيام اتحاد جمركي بين ألمانيا والنمسا.

١٩٣٢ أنشأت اليابان دولة منشوكو.

١٩٣٢ تنظيم الهيئة المالية للتعمير بالولايات المتحدة لإقراض النقود للبنوك وشركات السكك الحديدية والتأمين. انتخب فرنكلين د. روزفلت (المولود ١٨٨٢) رئيسا للولايات المتحدة عن الديموقراطيين. إعادة انتخاب هندنبرج رئيسا لدولة ألمانيا (١٩ مليون صوت)؛ هتلر ١٨ مليون؛ تايلمان (شيوعي) ٣ ٤/٣ مليون صوت. الزيادة المستمرة بحزب النازي في ألمانيا. مؤتمر نزع السلاح بجنيف. ألمانيا تترك المؤتمر.

١٩٣٣ افتتاح مشروع الصفقة الجديدة. الرئيس روزفلت يقوم بإصلاحات اجتماعية واقتصادية بعيدة الأثر. أصبح هتلر مستشارا للرايخ وصارت ألمانيا دولة نازية. المؤتمر الاقتصادي العالمي بلندن فشل. بدء مشروع الخمس سنوات الثاني بالروسيا. عصبة الأمم تستنكر غزو اليابان جيهول وإنشاء دولة منشوكو الألعوبة. حريق الريخستاغ ببرلين والانقلاب النازي.

١٩٣٤ ثبتت قيمة الدولار على ٦٠,٥٩ في المائة من قيمته عام ١٩٠٠. إعلان هتلر وموسوليني استقلال النمسا عند تقابلهما بالبندقية. هتلر يطهر بلاده من خصومه السياسيين. النازيون يقتلون دولفوس. وفاة الرئيس فون هندنبرج. أدولف هتلر الزعيم والمستشار. الاتفاق الودي البلقاني، عقده بين تركيا واليونان وبلغاريا ويوجوسلافيا للاحتفاظ بالحالة الواقعة بالبلقان. دخلت الروسيا عصبة الأمم.

١٩٣٥ المحكمة العليا بالولايات المتحدة تقرر عدم دستورية مشروع التعمير الجديد N.R.A.. إنشاء لجنة التنظيم الصناعي (C.I.O). حصول ألمانيا على منطقة السار باستفتاء. إيطاليا تهاجم الحبشة وتفتحها.

١٩٣٦ إعادة انتخاب الرئيس روزفلت. الجبهة الشعبية تنتخب في فرنسا؛ ليون بلوم

رئيسا للوزارة. هتلر يعيد تسليح منطقة الراين. الحرب الأهلية في إسبانيا، نشوء التمرد بقيادة الجنرال فرانكو بمساعدة ألمانيا؛ وإيطاليا وحزب المحافظين البريطاني بدرجة من العلانية أقل.

١٩٣٧ فشل الرئيس روزفلت في محاولته إعادة تنظيم المحكمة العليا. حرب بلا إعلان بين اليابان والصين. تحالف ألمانيا وإيطاليا واليابان على الشيوعية، الحلف المضاد للكومنترن. جيش الجنرال فرانكو ونجاحه في شمال إسبانيا. الجيوش الإيطالية تهزم هزيمة فادحة في جواد الاچارا على يد الجند الموالين. تتويج الملك چورچ السادس ملك إنجلترة.

١٩٣٨ ألمانيا تضم النمسا. مؤتمر ميونخ (تشمبران – دالدييه – هتلر – موسوليني) يعطي ألمانيا جزءا من أراضي تشيكوسلوفاكيا ويدمر تحصيناتها.

١٩٣٩ ضمت ألمانيا تشيكوسلوفاكيا. ضمت إيطاليا ألبانيا. فرانكو يدخل مدريد وبرشلونة – السوفييت يوقعون حلفًا مع النازيين. غزت ألمانيا بولندة. بريطانيا وفرنسا تعلنان الحرب. انهيار بولندة. ألمانيا والروسيا تقتسمان أراضيها. الروسيا تمد سلطانها على أستونيا ولاتفيا ولتوانيا وتغزو فنلندة نهاية الحرب الفنلندية. ألمانيا تستولي على الدانمركة والنرويج. طرد تمشبران ونستون تشرشل يرأس الحكومة القومية الجديدة. الألمان يجتاحون بچليكا وهولندة. دنكرك. سقوط فرنسا، إيطاليا تعلن الحرب، حكومة بيتان. معركة بريطانيا. قذف لندن بالقنابل. تشتيت شمل الإيطاليين في برقة إيطاليا تهاجم اليونان – وتنهزم.

١٩٤١ حرب بريطانيا الجوية. البريطانيون يفتحون الحبشة. ألمانيا تفتح يوجوسلافيا واليونان: وترد البريطانيين في برقة. البريطانيون يهزمون قوات المحور في العراق وسوريا. هتلر يغزو الروسيا. خسائر الروسيا الفادحة. اليابان تغرق أسطول الولايات المتحدة بالباسيفيكي وتزج بأمريكا في الحرب. تقهقر الألمان في برقة.

١٩٤٢ اليابان تفتح الفلبين والملايو وسنغافورة والهند الشرقية الهولاندية والبريطانية. الحرب الجوية على ألمانيا؛ حرب الغواصات في الأطلنطي. اليابان تغزو بورما. الوطنيون الهنود يرفضون عرض ستافورد كريبس. طرد البريطانيين من برقة. الألمان ينفذون إلى القوقاز، ولكنهم يفشلون في الاستيلاء على موسكو أو ستالينجراد. فشل اليابان في فتح جزيرة نيوجني. معركة العلمين: بدء تحطيم الألمان في ليبيا. الحلفاء ينزلون بشمال إفريقية.

١٩٤٣ صد الألمان وتراجعهم في الروسيا. الحلفاء يفتحون شمال إفريقية، ويغـزون صقلية ويدخلون إيطاليا. سقوط موسوليني. حرب جوية حامية علـى أوربـا. مؤتمر الدار البيضاء.

١٩٤٤ الحلفاء يستولون على روما. غزو نورماندي. طرد الألمان من الروسيا. تحرير فرنسا وبلچيكا. الروس يدخلون رومانيا والمجر.

١٩٤٥ الأمريكيون يفتحون الفلبين: البريطانيون يستردون بورما. وفاة هتلر؛ تـسليم ألمانيا. قنبلتان ذريتان تسقطان على اليابان. تسليم اليابان.

١٩٤٥ إنشاء الأمم المتحدة. إنشاء جامعة الدول العربية.

ميثاق حقوق الإنسان.

١٩٤٨ اليهود يحتلون فلسطين وينشئون إسرائيل.

١٩٥٢ حريق القاهرة.

١٩٥٢ ثورة ٢٣ يوليو المصرية.

١٩٥٤ سقوط الملكية وإعلان الجمهورية

بروز الرئيس جمال عبد الناصر على مسرح السياسة العالمية.

١٩٥٥ مؤتمر باندونج (١٨ إبريل).

١٩٥٦ استقلال مصر والجلاء.

سحب تمويل السد العالى وتأميم قناة السويس.

الثورة الجزائرية.

انسحاب المرشدين الأجانب من العمل بقناة السويس.

مؤتمر بريوني الأول.

جماعات المنتفعين.

العدوان الثلاثي وحرب السويس.

خروج المعتدين من بورسعيد (٢٣ ديسمبر).

مؤتمر بريوني الثاني.

١٩٥٧ المؤتمر الآسيوي الإفريقي بالقاهرة.

حلف الأطلنطي.

١٩٥٨ إنشاء الجمهورية العربية المتحدة (وحدة مصر وسوريا).

١٩٥٩ انحراف ثورة العراق عن ركب العروبة.

١٩٥٩ ثورة كوريا على يد فيديل كاسترو (يناير).

١٩٥٩ تجارب الأقمار الصناعية الروسية. انتخاب الرئيس كيندي.

البدء في إنشاء السد العالي.

مشروع السنوات الخمس الأولى في ج. ع. م.

السوق الأوروبية المشتركة.

الحرب الأهلية في لبنان ونزول القوات الأمريكية.

١٩٦١ القرارات الاشتراكية.

انفصال سوريا.

مؤتمر الدار البيضاء لملوك ورؤساء العرب.

مؤتمر بلجراد.

مؤتمر القمة الإفريقي بأديس بابا.

إنشاء سور برلين.

إطلاق سفينة فضاء تحمل رجلاً.

١٩٦٢ الخلاف العقائدي بين الصين وروسيا.

مؤتمر الدول الإفريقية.

استقلال الجزائر.

١٩٦٣ استقلال قبرص.

مقتل كندي.

١٩٦٤ زحف الزنوج على نيويورك.

عزل خروشوف.

سقوط حزب المحافظين ببريطانيا.

١٩٦٤ مؤتمر القمة الأفريقي بالقاهرة.

اجتماع الملوك والرؤساء العرب الأول.

اجتماع الملوك والرؤساء الثاني.

مؤتمر الدول غير المنحازة.

انتهاء المرحلة الأولى في بناء السد العالي.

١٩٤٥ – ١٩٦٤ استقلال دول إفريقيا وآسيا:

إندونيسيا – أوغندا – باكستان – بوروندي – تونس – تنجانيقا – زنزبار (تنزانيا) – جامبيا – الجزائـر – جـابون – داهـومي – الـسودان – سيراليون – برازيل – سيلان – ساحل العاج – الـصومال – غانـا – غينيا – كينيا – ليبيا – نيجيريا – الهند الصينية – ملاوي – المغرب – مالي – ماليزيا – الهند – زامبيا – توجو – موريتانيا.

١٩٦٥ انسحاب أندونيسيا من هيئة الأمم المتحدة.

مؤتمر رؤساء حكومات الدول العربية.

مجلس الأمة يرشح الرئيس جمال عبد الناصر لرياسة الجمهورية.